

لجنة التعريف بالإسلام

يصدرها

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الهستشرفون و الاسلام

بقام الهندس
زكريا هاشم زكريا



١٣٨٥هـ — ١٩٦٥م

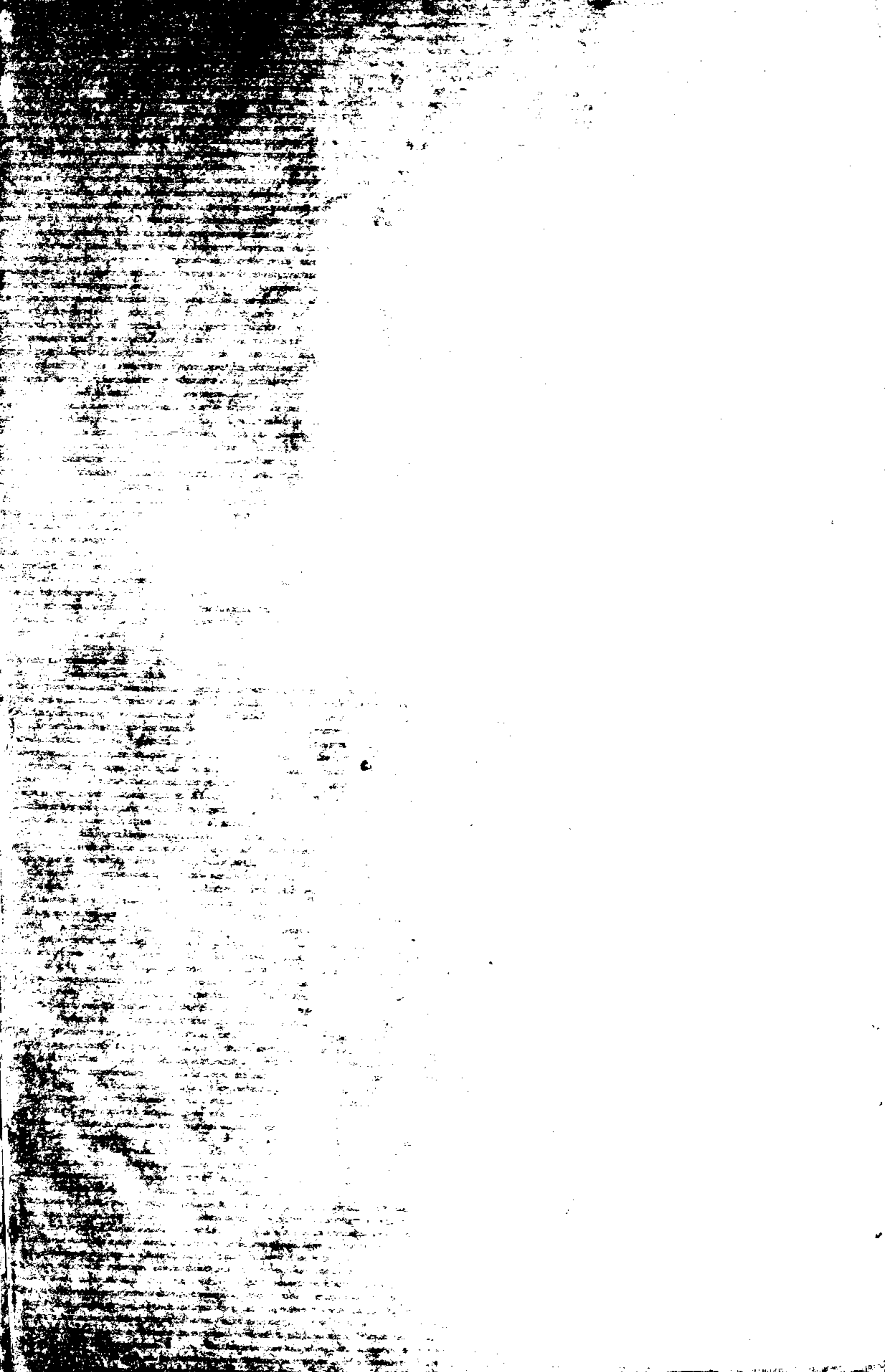
الكتاب العشرون

يشرف على إصدارها :

محمد توفيق عويضة

**Collection of Prof. Muhammad Iqbal Mujaddidi
Preserved in Punjab University Library.**

پروفیسر محمد اقبال مجددی کا مجموعہ
پنجاب یونیورسٹی لائبریری میں محفوظ شدہ



137820

أهداء

• في سبيل الله عز وجل • وفي صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم •
• وخلفائه من المسلمين الذين باعوا أنفسهم لله ونشر الدعوة المحمدية •
• والى من اتبع الحق • واهتدى سبيل الرشاد من المستشرقين والمبشرين
• في انحاء المعمورة • فاعتنقوا الاسلام • وآمنوا برسالته •
• وحق قوله تعالى فيهم : « كنتم خير أمة أخرجت للنس » •
• أهدي هذا الكتاب لعل المولى القادر الرحيم يحشرنى في زمرة يوم
• لقاءه •

محمد شمس الدين
في ذكرى يومنا هذا

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين .. والصلاة والسلام على أشرف المرسلين « محمد بن عبد الله » النبي الأمين ، نبي الهدى والسلام ، والشكر لله العلي القدير الذي وفقني الى ما يرضاه ، والسلام على من اتبع الطريق المستقيم .. فجزاؤه في الآخرة جنات النعيم ، وبعد

فان الانسان ميال بطبعه دائما الى التشوق لمعرفة المجهول . وكل حسب رغبته وهوائيه الكامنة في نفسه ، فبعضهم يهوى الرحلات الاستكشافية . يحب أنحاء العالم بحثا عن عالم آخر غامض ، أو أرض غير معروفة . كما هو حال الرحالة السابقين أمثال « خروستوف كولومبس » مكتشف أمريكا وغيره .

وهناك نوع آخر من البشر لا يقل امتاعا لنفسه وذهنه مثل شغفه بالقراءة والبحث . ودرس الكتب والمخطوطات القديمة سعيا وراء العثور على الوثائق التاريخية أو اكتشاف حقيقة خفيت على الأجيال الماضية . ويهوى الاهتمام بالحفريات والآثار بحثا وراء حضارة قديمة يظهرها المناس والمراء ليس بحاجة الى أن يكون مؤرخا واسع الاطلاع . بل الى أن الحوادث لكي يعرف أن الدعوة المحمدية وانتشارها وتبليغها وانسدادها حيشا حلت ونزلت . كانت حدثا فذا منقطع كثيرا في التاريخ . كانت معجزة من معجزاته .

ليس للانسان حاجة الى أن يكون فيلسوفا . بل الى أن يكون له عقل لكي يستنتج من هذه الظاهرة العجيبة أن الله عز وجل قد خلق الانسان ليحيى عن بعضها الكثير من مستشرقين القديين . لابد أن يكون له حوى

عناصر الحق والخير والانسانية والفضائل ما تتطلبه الفطرة السليمة على اختلاف مشاربها ، وأساليبها في الحياة . وأن الحضارات التي نشأت في ظله فاحتضنها وحصانها . أو التي اقتبسها مما حوله فناها وأضاف إليها ورسمها بطابعه الخاص . كانت لا بد محققة لكل ما تطمح إليه الأمم والشعوب من أسباب القوة والرغد في العيش .

فالإسلام دين تاريخي بدأت دعوته وتطورت في ظل التاريخ ، ومازالت حتى الآن . وقصة ظهوره وانتشاره ومبادئه هي الى اليوم ، وفي كل وقت ، في متناول يد الدارس . والباحث الذي يسعى وراء الحقيقة ليصل الى طريق الفهم والمعرفة والافقاع ، والمصادر التي يسكن للباحث الرجوع إليها لتوقوف على حقائق هذا الدين الكامل ، والفهم الشامل لمبادئه وأحكامه نبي .

١ - القرآن الكريم الذي يعتبر تسجيلاً للوحي الالهي .

٢ - تاريخ حياة نبي الإسلام ورسوله عليه الصلاة والسلام ، وما صدر عنه من أفعال .

وهكذا بسط الإسلام جناحيه بالسلام على الكون وفضائله وسجاياه من الجيوش الجرارة ، ولا المعدات الحربية المدمرة ، ولا السيوف الحادة . ولا السهام ولا القسي ، ولا الرماح الصائبة .. كل ذلك ليس بكاف في غزوانه ، ولا في انشاء دولة ، اذا لم تسعدها الفضائل وتسدها المحامد ، ويشيع فيها الخلق الكريم والانسانية الفاضلة ، ونشر السلام والوفاء بين سائر الأنام ، وكذلك كان الإسلام ، وكذلك كان المسلمون الأولون ، كانوا يغزون بفضائلهم نقائص أعدائهم ، وكانوا يغالبون بأخلاقهم ما لا يفعله الحديد والنار . فمن أولى الفضائل التي ارتكزت عليها الدعوة الاسلامية وبفضلها انتشر الاسلام ، فضيلة اعلاء الحق على الباطل ، فثبت ثباتاً أعيان القوى . وفكك العرى ، وترك الأعداء حيارى يتخبطون .

ولما كان « الدين » له أكبر الأثر في حياة الانسان ، وفي استقرار الأمم . وهو منبع رقيها وحضارتها ، كما أنه من أخطر عوامل هدم كل أساس يبنيه الاستعمار في البلاد العربية والاسلامية في أنحاء الكرة الأرضية .. لأن

مدى تأثيره في ايمان الفرد بالحرية ، والعيش الكريم والاستقلال ، يجعله يقاوم كل غاصب حتى يطهر أرضه ، ونفسه من رجسه واستغلاله واستعباده . لذلك ركز الاستعمار دائما وأبدا خطته الدائبة في القضاء على الدين فبدأت دعوة المستشرقين والمبشرين من المفكرين الغربيين المسيحيين ... وظهرت منهم المجموعات المتفرقة من دعاة « التغريب » تعمل على القضاء على الاسلام ، لأنه دين الوطن العربي الكبير ، مصدره الحضارة والثقافة والفكر .. وقالوا عنه : انه دين لم يهبط به وحى من السماء . الى غير ذلك من الأضاليل الكثيرة المبينة بعد .

وكان من أشهر المستشرقين المنحرفين المؤرخ « برايس » الذي قال : « ان احتكاك الاسلام بالحضارة سيقضى عليه ويؤذن بنهايته » . وسار معه على نفس الطريق المستشرق « لنز » حيث قال بعد توبته من رحلته في تومبكتو : « ان الاسلام قد يبقى اذا ترك لنفسه . اما ان يمدد بالتمدن الحديث فانه يسوت لا محالة » .

وذكر المستشرق « بيشون » الألماني أن تحطيم المسلمين في بلادهم الى أسباب متصلة بالاسلام نفسه لعدم موافقته لروح التمدن في كثير من أمور كثيرة مما هو مبين في فصول هذا الكتاب .. وعالمنا ردد خصميه الاسلام أنه شق طريقه بالتقود والتمسك بغيره واستقر في البلاد المفتوحة بالقسى والاجبار .

وإذا كان هناك من يدعى أن الاسلام جاء من ليبيا في افريقيا فان أقوى رد على هؤلاء أولئك الذين يدخلون في دين الاسلام في كل بقعة شتى أنحاء الأرض على تفاوت ثقافتهم ، واختلاف جنسياتهم ، بعد ايمانهم به .

وفي الحالات الثلاث التي تنبأ بها المستشرقون ، والمدعى ان الاسلام لم ينته الاسلام ، وكذبت نبوءاتهم . ومع ذلك ، فإننا نرى في الحقائق .. فقد أشار المستشرق « مرجايوت » في بحث له من سلسلة الاسلام ، « ان الاسلام غالب في افريقيا وشائع في آسيا ومعروف في أوروبا

وأمریکا ، ولم يظهر ما يدل على توقف انتشاره وخصوصا في القرن الماضي لأنه نهض نهضة جديدة » .

وأورد قول المبشر « شاتليه » من أن الاسلام هو الدين الوحيد الذي يرتقى الآن وينتشر في الهند والصين ، أما الأديان الأخرى فانها آخذة في الانحلال . كما أورد ما ذكره أحد كبار المستشرقين من أن الاسلام سيعم الهند كلها وقال : ان جماعة كبيرة من الهنود يعتنقون الاسلام ليتحرروا من قيود الديانة البرهمية وكهانها .

وان الاسلام قد انتشر مؤخرا في بلاد الصين حتى أوجس أهل أوروبا من انتشاره مخافة أن يصير ديانة المملكة فيحمل أهلها على الممالك النصرانية في أوروبا مثل الحملات الصليبية في العصور المظلمة ، وأشار الى أن الاسلام ينتشر في الهند والصين ومستعمرات هولندا بالموعظة الحسنة .

وأشار مرجليوث الى أن الاسلام انتشر في افريقيا بالحسن بعد أن انتهى عهد الدراويش ، وقد كان الظن أن يتوقف بعد ذهاب الحركة المهدية ، والحقيقة أنه لا يزال آخذا في الانتشار .

وكذب مرجليوث ما رواه زملاؤه المستشرقون من أن انحطاط المسلمين يرجع الى أسباب متصلة بالاسلام وقال : انى أرى المسلمين تحت سلطة المسيحيين أرقى من المسيحيين عقلا وأدباً . واستشهد بقول المستشرق « روبل » الذى ذكر بعد سياحة للحبشة (١٨٣٨) أن الأحباش المسلمين أقدر على العمل وأسمى مداركا وأكثر تهذبا وعلما من الأحباش المسيحيين .

وأشار مرجليوث الى ما ذكره الرحالة « ستيفن هيدن » بعد زيارته لآسيا من أن أحد المبشرين قضى في عمله عشر سنوات فلم يستطع تحويل مسلم واحد الى النصرانية وأن عشرات من زملائه عجزوا مثله ، وأن دعاة النصرانية قد ينجحون في البلاد التى لم يكن للمسلمين فيها دولة في عصر الاسلام .

والزعم بالجبرية وليد العصر الحديث ، اذ كان من هم الاستعمار الغربى للعالم العربى والاسلامى أن يزلزل عقيدته ويقوض حصنه الذى عز على الخطوب وقهر القوى كلها .

ولقد حاول الاستعمار وأعوانه من المستشرقين المنحرفين عن الطريق
السوى أن ينشر الالحاد في جميع البيئات الاسلامية بالرغبة والرجعية كما
حاول أن ينشره بغرس الأمانى والآمال في نفوس ضعاف الايمان .
والكن كلنا نعرف أنه لما فشلت دعوى المبشرين في أن يعتنق المسلم
المسيحية ، رأى الاستعمار أن يتخذ في كل بلد اسلامى دعاة للالحاد يغريهم
بالمال ، ويرفع مكاتتهم بالزيف والباطل ، وقد وجد بالأقطار الاسلامية
للأسف القليل من لبي دعوته ، وأصبح من دعائه ، ضعا فى المال والمركز
والجاه .

ففى الهند مثلا ، أسس الاستعمار فى القرن الماضى مدرسة لتعليم
الالحاد ، كانت هى السبب فى أن أخرج لنا «جمال الدين الأفغانى» رسالته
« الطريقة فى الرد على الدهريين » والحق أن الاستعمار وجد أقلاما تفضل
الأقطار الاسلامية نفسها ، ولكنه لم ينته الى الثمرة التى أراد .. فالاستجابة
لهذه الأقلام ، وخروج المسلمين عن دينهم كان ولا يزال معدوما . أو شبه
معدوم .

وليس المستشرقون - موضوع هذا الكتاب هم الذين والتموا
الدعوة المحمدية موقفا عدائيا متعصبا فحسب . بل لقد واجهت الدعوة
القدم من اليهود ، وما زالت تواجه من الاضطهاد الاستعماري . ومن ثم
الكثير من التزييف للحقائق المدسوسة .. وكان لتأثير هذه الدعوات
أن ظهر فى البلاد الاسلامية بعض الزنادقة والملحددين . الذين زعموا
عليهم بهتان أعداء الدين بأن يدخلوا فى الدعوة الاسلامية ما ليس
لتشويهها واذاعة البلبلة فى الأفكار بين أتباعها . فوضعوا الاحاديث
المدسوسة . وأدخلت الاسرائيليات فى التفسير وانتشرت الكتب
المشوشة على أفكار المسلمين غير المتفتحين فى الدين . حتى انهم
الجرأة أن يحرفوا فى كتاب الله ويزيدوا الفاظا بحجة البحث العلمى
يثق بهم ويطنن اليهم ضعاف الايمان بالرسالة الاسلامية .
والتاريخ منذ بدء الاسلام الى الآن ينبثق عنهم .
وضالة عن الطريق السوى التويم . وعن أهداف الدعوة والعقيدة
أتباع الأديان الجديدة كالبائية واليهائية والقاديانية .

ولاشك أن ظهور الدعوات الجديدة التي تحمل أسماء الأديان والتركيز عليها واهتمام الصحف والمجلات بالدعوة لها واذاعة مبادئها والحديث عنها إنما كان عملاً واضح الدلالة والأثر في حرب الإسلام ومحاولة القضاء عليه . وقد أكد ذلك الدكتور « تشارلس أدمس » حين قال : « إن البابية كانت وسيلة للاستغلال من الإسلام للنصرانية » .

وقد حرص دعاة التخريب على حمل لواء الدعوة إلى هذه الأديان وداومت الصحف والمجلات المختلفة الدعاية . ونشر أبحاث مطولة عن هذه الأديان .. وقالت إن البهاء رمى إلى تأسيس دين على نظر فيه إلى تقويم الأخلاق ووجه دعوته إلى العالم كله ، وليس إلى الشيعة فقط . فكتب إلى سوك الأرض . وقالت إن البهائية فرع من البابية التي ظهرت في السبعينات من القرن الماضي عن طريق الميرزا « على محمد الباب » المتوفى ١٨٥٢ ، وأن الباب رمى إلى إصلاح الدين الإسلامي .

وقد كان موت زعيم البهائية عباس عبد البهاء ، في نوفمبر عام ١٩٢١ ، سبباً لخدمة عريضة . وقد أشار أحد الكتاب في فبراير سنة ١٩٣٠ ، أن البهائية دين جديد يوافق النزعات الجديدة ، وقال : إن في انتشار البهائية نوعاً من التعصب ودعوة إلى إخاء البشر ، ونزولاً على حاجة العصر الحاضر الذي يكره فيه تعدد الأديان وما تجلت في مخالفة بعضها للبعض من تحزبات وتعصب .

وقد ترجم كتاب المبشر « ج . سلمنت » عن « بهاء الله والعصر الحديث » ونشر المرحوم الأستاذ العقاد في الهلال بحثاً بعنوان « ساعة مع عبد البهاء » ، عن انتشار هذه الديانة التي تدعو إلى توحيد الأديان واللغة وترك العصبية الدينية والجنسية ونبذ الحروب .

واهتمت دوائر الغزو الثقافي والصحف الأمريكية بالدعوة الأحمدية التي قام بها « غلام أحمد القادياني » مسيح الهند المولود بقاديان بالبنجاب والذي ادعى أنه المهدي المنتظر الذي يؤمن به المسلمون ويبتغون وتتلخص

عقيدتهم في موت السيد المسيح عليه السلام ودفنه وعدم انقطاع الوحي والنبوة غير التشريعية وعدم النسخ في القرآن .

ولم يقف الفكر العربي مكتوفا أمام هذه الجبايات وحملاتها ، وإنما واجهها بقوة ودحض أكاذيبها ، وكشف خداعها وتضليلها وتعصبها .. حتى أنه لم يكتب لهذه الدعوات الزائفة البقاء . حتى أن « مصر » قد سبق أن طهرت في موقعة « عين جالوت » ، البلاد الإسلامية من شر ورجس « التتار » وأنقذت الإسلام من خطرهم وضلالهم .

وهكذا يستمر كشف الأباطيل التي برع النزو الثقافي في حمل لوائها البراق ، والتي خدعت الكثير من دعاة التغريب في العالم العربي فصدقت شعارات الفكر الغربي وكلماته ذات الرنين وخدعهم المبشرون الذين نظروا عليهم العلم في جامعات أوروبا ، وفرنسا بالذات . أمثال « ماسينيون وديوركييه ومرسيه ومرجليوث وليفى بريل » وهم سائذة بعض كبار كتبة « مصر » والغريب أن كتاب الغرب قد انقسموا إزاء العقائد الشرقية والإسلام واللغة العربية وتاريخ العرب وأمجادهم قسبين . وإن منكرين ذوي عقل وفكر ثاقب قد أنصفوا العرب رغم تفوق نظريات المستشرقين ، كما فعل دائما .

وكانت الصحف العربية ترددها . حتى أن « ريبند » حذرت من أن يفرس العرب عن العرب والسامية وراجعها « جمال الدين الأفغانى » لم يجد مادة كافية يعلن أنه سيعاود النظر في مراجعتها على ضوء ما كتبه جمال الدين في الرد عليه .

وتبين أن هذه الحملة لم يقصد بها إلا توهين عربي الإسلام وتبديد صورته وصرف أهله عنه . وبذلك يواجه الفكر العربي تلك الحملة بقوة قوية راسخة متينة . ويفسد كل ما عرض المستشرقون « تهم » على الإسلام ويكشف زيفه . ويشير إلى صيحة « بلادنا » التي صدرت عن بريطانيا في عهد الملكة فيكتوريا في « مجلدات التوراة » التي نشرت في ماسكا بكتاب القرآن الكريم في بدء قائلته « بلادنا » التي صدرت في « بلادهم » في الأرض فلن يقر لنا قرار في بلادهم .

ولقد أردت من نشر هذا الكتاب أن أبين موقف المستشرقين من الإسلام .

وهم طائفة أعدوا أعدادا كاملا وافية للنيل من دعوته .. كما أبين عمل الفكر العربي جاهدا على رد كل هذه الشبهات التي أثارها دعاة التغريب من أن كلمة الإسلام معناها الخضوع والاستسلام ، أو أن الإسلام تاريخيا فرع من الديانة الاسرائيلية والمسيحية ، وأن الإسلام لا يعنى الاستسلام .

وإذا كنت لا أنكر أن بعض المستشرقين قد أنصف .. مثل ما قرأته عام ١٩٣٤ في كتاب « الى أين يتجه الإسلام » الذي كتبه خمسة من مشاهير المستشرقين بزعامة الأستاذ « جيب » أستاذ اللغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية بلندن . وقد كتب مقدمته ، وجعل الكلام فيها على الجامعة الاسلامية وكيف نشأت فكرتها في ظل الدولة العثمانية ، في عهد السلطان « عبد الحميد » ، وانتهى من بحثه الى أن فكرة الجامعة الاسلامية تحطمت على صخرتين ، أولاهما فساد الحكم في البلاد الاسلامية . والثانية هي الدعوة الى الإصلاح على الطريقة الغربية .

قال : وبرغم التفاوت بين الأمم الاسلامية في درجة الرقى ، فما زالت تربطها العقيدة برباط وثيق ، كما يربطها المعاطف ، وصلة القرابة ، ولحمة الجوار والنسب الجنسى .

وأكد الأستاذ جيب أن الأمم الاسلامية تنظر الى تحقيق الوحدة الاسلامية على أساس يخالف الأساس الذي دعت اليه فكرة الجامعة الاسلامية .

أما فصله الأخير ، فقد استهله بالتساؤل عن مصير العلاقات بين العالم الاسلامي من جهة وبين الشعوب الانسانية الأخرى .. قال : ان ذلك يتوقف على الخطة التي تسلكها أوربا حيال العالم الاسلامي وحيال الشرق الممثل في اليابان والصين وغيرها من الشعوب الآسيوية ، وبسعى آخر يتوقف انحياز العالم الاسلامي الى الشرق أو الى الغرب . وذلك يتوقف على مسلك الدول الأوروبية نحوه .

وكثير من المستشرقين قد أسلم بعد دروسهم وتحريضهم للدعوة الإسلامية ثم الاقتناع بما جاء فيها من خير للبشرية ، وصالح للمجتمع الإنساني العالمي منهم المستشرق الانجليزي المشهور « جون فيلبي » فقد استطاع المستر فيلبي في خلال اقامته في بلاد العرب أن يطلع على تعاليم الدين الإسلامي اطلاقاً مقنعاً حجب اليه اعتناق هذا الدين القويم ، وقد لاحظ عليه كثير من المجتسعين به ذلك الحب الكبير الذي يبدو منه نحو الدين الإسلامي ، وهذا التقدير الصادق الذي كان يشعر به لتعاليمه حتى ان مكاتب « الماتان » سأله في هذا الصدد في حديث له فقال : لماذا لم تقده اذن على اعتناق الاسلام حتى يتم لك ما تريد وتصبح عربياً ديناً كما اتخذت بلاد العرب وطناً .

فأجابه : اننى سأكون يوماً ما مسلماً عندما يتم اقتناعى بهذا الدين ، فانى لا أريد أن يكون اسلامى ظاهرياً أتخذه قناعاً أستتر به ، وقلبي خال من الايمان والتقوى .

ولم ينته أسبوع حتى أسلم واعتنق دين الحق والمساواة .

وإذا كنت لا أنكر أن بعضهم قد أنصف ، وآخر قد أسلم وقال الحق ، كما ذكر ، فان الغالبية العظمى منهم قد انحرفوا عن طريق الحقيقة ، كالاستشراق الغربى الذى يكيد للدين ، ويكيل له لأنه يعمل بايحاء المستعمر انذى لا هم له غير استغلال الشعوب واستعبادها ، وسلب خيراتها مصالحه ومآربه الخاصة ، وقد بين ذلك جلياً واضحاً رائد القومية العربية وباعث نهضتها الرئيس « جمال عبد الناصر » فى خطابه بلقاء رئيس جمهورية ألمانيا الديمقراطية « ألبرخت أولبرخت » فى أواخر شهر شوال ١٣٨٤ حين قال :

هنا فى الجمهورية العربية المتحدة سوف تلتقى بالشعب المصرى الذى هو جزء من الأمة العربية التى تعيش على منقطة مستدة من المحيط العربى الخليج الفارسى ، والتى ربطتها دائماً وتربطها وحدة تاريخ ونسب ودين ، ولقد كان الاستعمار هو الذى فرض التجزئة وفوق التجزئة ، فلقد فرض تقسيم وطن من أقدس الأوطان العربية وإفقاد فى قسم منه قاعدة له ورأس جسر ، وكانت أهداف الاستعمار من التجزئة والتقسيم واضحة ضد العمل

الوحدوى ومنع الأجزاء الممزقة من تحقيق وحدتها الطبيعية ، والهاء الشعوب العربية كلها بهذا الخطر الذي زرع في قلبها واستنزاف طاقتها في مقاومته وتهديدها بعد ذلك عسكريا من هذه القاعدة في كل مرة يشعر فيها الاستعسار أنه على وشك أن يواجه هزيمة التصفية النهائية » .

فالمضالون وأتباعهم « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . ولو كره المشركون » (التوبة ٣٤ . ٣٥)

وكتابتى هذا يحتوى على خلاصة آراء بعض المستشرقين فى الإسلام ودحض الادعاءات المقتراة عليه بقدر الامكان .

وضعتها بعد قراءة واصطاع مع الدرس والتسحيص . والبحث المأخوذ من المراجع الوافية والكتب العديدة والمتنوعة فى التاريخ الإسلامى الحافل بالأحداث العظام . والخطوب الجسام ، والجهاد فى سبيل الحق والسعى للخير والكفاح لنصرة العدل . والاصلاح والعمران والمساواة والمحبة والسلام . ولم تظهر الإنسانية فى تاريخها القديم والحديث بأجل من تاريخ الإسلام أو أجل . ولم تعرف البشرية جمعا ، ولا الحضارة فى عصورها المختلفة كثر منه تعسيرا وتنويرا .

وقد توخيت قبل الكتابة فيه الحرص التام والاطلاع على الكثير من المؤلفات التى تناولت الدعوة الإسلامية منذ ظهورها ، وكتب التفسير والحديث ، ثم التراجم . وعلى رأسهم جسيما كتاب الله « القرآن الكريم » حتى يتبين الحق من خفى عليه ، وتظهر الدعوة المحمدية ساطعة براءة بنورها على الكون . كما هى من يوم بدء بعث الله نبيه الكريم صلوات الله وسلامه عليه بها .

وان البحث قد تناول أكبر وأهم موضوعات ونواحي هجوم المستشرقين على الإسلام ونبيه . وأوردت الكثير من الردود القوية على تلك المقتريات مما ساقه علماء ومستشرقون لهم قدرهم ووزنهم . حتى أن مرید الاحاطة بأوجه الطعن على الإسلام ورسوله والرد عليها ، من مختلف العلماء والمجتهدين يجد فى هذا البحث طلبته .

ولعلى أكون قد وفقت الى ارضاء المولى عز وجل ورسوله معلم
البشرية الأول .. راجيا الله تعالى أن يؤدبنا بأدبه ويحشرنا فى زمرة أتباعه ،
وأولياءه من المسلمين المتقين .

والله الموفق والهادى الى الصواب ، وحسن المآب .

القاهرة ١٣٨٤ - ١٩٦٥ .

مهندس

زكريا هاشم زكريا

مدير أعمال بحافضة القاهرة

الفصل الأول الفكر الغربي والإسلام

منذ انتشار الإسلام وظهوره . وحتى القرن الثاني للهجرة . كان
لنبي الإسلام شأن مع الفكر الغربي . إذ لولا هذا النبي الأمين . لاختلف
الفكر الأوروبي اختلافا كبيرا . واختلف معه اتجاه الفكر البشرى فى جميع
الأمم . وكان العالم الانسانى اليوم غير ما رأيناه .
ولقد تفاوت هذا الشأن فى قوته وظهوره . حسب التفاوت فى أحوال
الأوروبيين من التقدم والتأخر وبين المعرفة والجهالة فى تاريخ القارة
الأوروبية منذ أن ظهرت الدعوة الإسلامية .

فى القرن الأول من ظهورها . كانت أوروبا بأجمعها غارقة فى ظلمات
الجهالة . وكانت أقطارها الشرقية والجنوبية قد دانت بالمسيحية . وبقيت
أقطار واسعة فى وسط القارة وشمالها تجهل المسيحية كل الجهل وتدين
بالوثنية أو بما شابهها من عقائد الأجيال الأولى .

ولم يكن للأمم التى دانت بالمسيحية شاغل فى ذلك العصر غير النزاع
على الكنيسة أو النزاع على الدولة . فضى القرن الأول فى صدر الإسلام
والأوروبيون لا يسعون عن دعوته إلا أخبار الحروب مع بيزنطة . أو
أطرافا من الأساطير التى تتناقلها الأفواه من بعيد عن غير فهم وتسحيص .
وظل الحال على ذلك قرنا آخر بعد ظهور الدعوة . حتى تسكنت دولة
العرب فى الأندلس . فخلق فى القارة الأوروبية فكر جديد هو فكر الثقافة
العالمية التى نقلها الى الغرب أتباع « محمد » عليه الصلاة والسلام . وأصبح
المثل الأعلى لأوروبي أن يتشبه بهؤلاء الأتباع فى أنماط التفكير وأنماط
المعيشة . بل يتشبه بهم فى لغة اللسان . فلم يكن مثقفا ولا متحضرا فى رأيهم
من لا يحسن الكلام بالعربية . ومن لا يحفظ العلم . ويتدرب على الصناعة

والفن في هذه المدرسة الحديثة • حتى أن رجال الدين أنفسهم كانوا يقبلون على الثقافة العربية بنهم ومنهم رجل ترقى في مراتب الكنيسة حتى جلس على كرسى البابوية ، وهو « سلفستر الثاني » الذي كان معروفاً قبل اختياره لذلك المنصب الرفيع باسم الساحر « جربارت » • لأنهم حسبوا علمه الواسع سحراً يأخذ الألباب •

وقد نقل المؤرخ « دوزي » في كتابه عن « الاسلام الأندلسي » رسالة لكاتب أسباني في ذلك العصر يعنى فيها اللاتينية والافريقية • وينكر على أبناء قومه هذا الاقبال على اللغة العربية . ومنها قوله : ان أرباب القسطنطينية والتذوق سحرهم رنين الأدب العربي فاحتقروا اللاتينية وجعلوا يكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها • وانهم يعجبون بشعر العرب وأقاصيصهم • ويدرسون التصانيف التي كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون • ولا يفعلون ذلك لادحاضها والرد عليها • بل لاقتباس الأسلوب العربي الفصيح • فأين اليوم من يقرأ التفاسير الدينية للتوراة والأنجيل غير رجال الدين • وأين اليوم من يقرأ الأنجيل وصحف الرسل والأنبياء .. واأسفاد .. ان الجيل الناشئ من المسيحيين الأذكياء لا يحسنون أدبا أو لغة غير الأدب العربي واللغة العربية • وأنهم ليلتمهون كتب العرب ويجمعون منها المكتبات بأحسن الاثمان •

نعم لقد كانت الحضارة الغربية كلها • قبسا من حضارة العرب • ولا سيما في أيام ازدهار الأندلس .
ومن هنا يبدو أثر رسول الاسلام • ودعوته في العالم العربي كله • لا في القارة الأوروبية دون سواها •

وقد ورد ذكر ذلك العهد الزاهر على لسان المشاهير في العصر الأخير ولا سيما في كتب « بلاسكوانيز » الذي أشاد بحضارة الاسلام في ذلك الحين • وبالنكسة التي أعقبت تلك الفترة من الزمان ولا سيما بعد ان وصل الأمر الى سلطان الدولة الافرنجية وما جرد ذلك السلطان من شؤون يعرض العاقبة حاد بالسياسة الاسبانية عن سواء السبيل حينما دفع باسبانيا الى التعصب المقوت وتفخ فيها نزع التوسع في الاستعمار لأنها لو واصلت

عمل العرب الصناعي والزراعي بدلا من مغامرات الحرب ومطامع الاستعمار لكان لها اليوم شأن غير الذي وصلت اليه .

انقضى ذلك العهد الزاهر بانقضاء الدولة العربية في الأندلس . فشيعة عقلاء الاسبانيين بالأسف الشديد . ولا يزالون يشيعونه بهذا الأسف الى اليوم . ان النكسة التي أصابت أوروبا الغربية بعد زوال الدولة العربية قد تقترنا في ظلمات القرون الوسطى التي زين لها التعصب والجهل أن تتقبل عن النبي العربي مثل تلك الأتوال التي لا تستساغ الا في عقول الصبيان .

منها انه احتال على خداع العرب بحيل السحرة والكهان وفاتهم أن كتابه من جن وعلا يقول : « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون » .

واستمر ذكر النبي الكريم على هذه الصورة حين ارتد الفكر الأوربي في ظلمات الجهالة الأولى ثم عادوا الى الاهتمام الجدى بدعوته من جراء صليبية وما كشفته للأوربيين مرة أخرى من مزايا الحضارة العربية . ولكنه من اهتماما مقصورا على الغلبة وراءوس الكنيسة . حتى ترجم « روبرت رينيتي » القرآن الى اللاتينية . ولحققت به ترجبات أخرى فتجددت نهضة العلوم في أوروبا وبالتالي تجدد معها احترام ذكر النبي عليه السلام . في كلام مسكرين والمستنيرين .

ولا يخفى أن تجدد النهضة نفسه انما كان أثرا من آثار اتباع محمد - صلى الله عليه وسلم - في كثير من أسبابه فان « روجرز باكون » العالم الانجليزي الذي نشأ في القرن الثالث عشر كان من تلاميذ المدرسة العربية . وكان رائدا يسيه ابن وطنه « فرنسيس باكون » امام المدرسة التجريبية التي وضعت الأسس للبحث العلي الحديث . وقد كانا معا يعجبان بالمقررات العلية التي وحل اليها علماء العرب في مراقبة الظواهر الطبيعية . وبخاصة ملاحظات « ابن سينا » في مراقبة قوس السحاب .

بيد أنه لما كان ابراز الاسلام على صورته الحقيقية بين معتقيه من المؤمنين لا يكفي . لأن هناك أمسا كثيرة تجهل هذا الدين الحنيف . جهلا تكاد يكون تاما . أو تتشبه على صورة مشوهة دميمة لا تست الى الحقيقة بدنى صلة . ولما كنا في أشد الحاجة الى أن تعرف هذه الأمم - التي

ربطتنا معها الحياة برباط متين الأواصر - الاسلام على حقيقته . ولما كانت معرفتها اياه قد جاءت من طريق الصور التي قدمها اليها المستشرقون عنه . والأحكام التي أصدروها عليه لذلك .

فانه يتحتم علينا أن نتسعن في هذه الصور التي رسمها أولئك المستشرقون لدينا وأن ندرس أحكامهم التي أصدروها عليه . وأن نسجل ما فيها من محاسن وحقائق . وأن نبرز ما فيها من كبوات وأخطاء . لنضع أيدي العالم الغربي على ما شوهوا به رسالة الاسلام . والدعوة المحمدية . حتى لا يبقى أولئك الأجانب في أخطائهم يعمهون .

كانت غاية الباحثين الأوربيين . فيما قبل القرن الثامن عشر . وهم اذ ذاك قليلون - أن يحاربوا الاسلام . وأن يقدموا الي بعثات التبشير الحجيج والمستندات التي تستعملها في تنصير المسلمين . وترد بها على من يدافعون عن الاسلام .

أما في القرن الثامن عشر . فان الملحدين منهم كانوا على الضد يتكلمون على الاسلام . ليقاوموا المسيحية . وكما كان أولئك متعصبين وغير نزيهين . كان هؤلاء سطحيين ومعاندين . واذن فليس للفريقين وزن في ميدان العلم العلمية الصحيحة .

أما في القرنين التاسع عشر والعشرين . فن أكثر دراسته هذه العلوم من جانب أولئك المفكرين المحايدين كانت لوجه العلم والتاريخ . وكانوا الممكن أن تشر خير الشار وأصلاحتها للخلاود . أولئك ان الإغلبية من هؤلاء المفكرين قد سلكوا بازاء الدراسة الاسلامية مسلكا علميا . وهو محاولة اخضاع القيم الروحية الاسلامية لتساؤل المنطق العلم . وتختلف عن طبائعها أتم اختلاف .

ونحن نعلم علم اليقين ان أولئك المستشرقين الذين قدموا لنا هذه العلوم الى نتائج علمية قيمة . قد تفيد الانسانية في مراحل تقدمها العلمية بشرط ألا تتعرض هذه البحوث للمبادئ الاساسية الرفيعة التي لا تعطى للتجارب الحسية . أما حين ينسون تلك المبادئ . فانهم ينحرفون عن جادة

الصواب • ويتعدون عن الحقيقة • مما يجعل بحوثهم في هذا الشأن ضعيفة
هزيلة بل يصح أن تكون عبثاً • ومنتجاتهم عدماً • ولم يقدموا الى بيئاتهم
الا صوراً مشوهة • يجب على من يعنيه الأمر من المسلمين أن يحوها
من صحائف الوجود •

وفي مجلس علسي من المجالس التي عقدت في عام ١٩٦١ • دار الحديث
حول محاولات بعض المستشرقين لتشويه تراثنا الفكري • وتسييم منابع
الروحية التي نستمد منها مقومات وجودنا المعنوي •

قام أستاذ جليل من علمائنا يدافع عن حق العلماء في أن يقولوا
ما شاءوا • رضينا أو كرهنا • وعلينا أن نحترم آراءهم فينا وأقوالهم عنا •
ان كنا حقاً نؤمن بحرية الفكر ونحترم حق البحث العلسي • وأضاف الاستاذ
الجليل متسائلاً : ان بعض مفكري الغرب قد هاجبوا المسيحية • وقالوا
فيها ما لا يرضى المؤمنين من أصحابها • فلماذا نضيق بهم اذا تحدثوا عن
الاسلام بما نكره ؟ • ولماذا نتخذهم أعداء لنا دون أن ندرك أننا بهذه
العداوة نخون حرية الفكر ؟ • كما يجب أن نفرق بين رأى يهتدى اليه
دارس نزيه يلتبس الحق وحده • وبين آخر لمتعصب لا يقصد من البحث
الا أن يرضى هواه ولا يعنيه الا أن يسخر الحق لخدمة غرض معين • يدافع
عن تعصبه • وهذه هي المحنة • فليس أضر بالعلم من تعصب يلتوى به منهج
البحث وتضل معالم الاهتداء الى الحق • ذلك لأن الدارس اذا لم يتجرد من
الهموى الذي لم يعد يرى من معالم الطريق الا ما يخدم غرضه • وصار كل
هسه أن ينحرف بسادة البحث ليفسرها على مساييرة هواه والاتجاه الى
هدفه كان تعصبه واضحاً ، وانزلاقه مبيناً •

فكلنا نعرف ويعرف الواقع التاريخي • ان حركة الاستشراق الضخمة
لم تنشأ أصلاً لخدمة الفكر واستنقاذ تراث الشرق والاسلام من الضياع •
وانما بدأت أول ما بدأت في رعاية الكنيسة الكاثوليكية • وخضعت
لاشراف دقيق منظم من كبار أبحارها • وكان الرهبان والقصاص الرسوليون
هم جنودها الأولون • ثم تلقف الاستعمار هذه الحركة فكان ملوك الدول
الاستعمارية رعاتها وكان قناصلهم في بلدان المشرق عيالها •

وقد ذكر « الكونت فيليب دي طرازي » • في الجزء الثاني من جزائنه في مكتبة « دير الشوير » بلبنان مخطوطة من كتاب « وفيات الأعيان لابن خلكان » — قنصل فرنسا في بيروت في منتصف القرن السابع عشر — خلاصتها : انه في سنة ١٦٧١ . أرسل عالي الجناب الملك « لويس الرابع عشر » رسله الى جميع بلدان الاسلام لشراء المخطوطات وزودمبعوثيه بأوامر شريفة الى جميع القناصل الفرنسية ليضعوا رجالهم وأموالهم في خدمة هذه الغاية .

وقد عكف المستشرقون على خدمة هذه المخطوطات • وهم بشر مثلنا • منهم من يصون حرمة الحق ويرعى أمانة العلم • ومنهم من يضلهم التعصب وينحرف بهم الهوى • والبحث العلمي متى انحرف عن غايته الأصلية وهي خدمة العلم والوصول الى الحق . أعوزته النزاهة التي هي جوهر البحث • والحرية التي هي مناط سلامته •

والمتصلون من المسلمين بأعمال هؤلاء • يعرفون الى أي مدى تلتوى أساليبهم في توجيه العبارات وتضرب مناهجهم في سوق الأخبار • ويضل اعتسافهم في تأويلها بغية الوصول الى نتائج خطيرة سامة • تنحرف بترائنا الى تأييد مزاعم بعينها طاماً رددتها أعداء الشرق والاسلام •

ومن أحدث الكتب التي تناولت هذا الموضوع كتاب الدكتور « مصطفى السباعي » أستاذ الفقه الاسلامي بجامعة دمشق وموضوعه « السنة ومكائنها في التشريع الاسلامي » . وفيه كشف لحظة من حساب الغزو الفكري • تعرض لها هذا التراث الروحي القيم • وغابت له قوى خاربة من جنود يرتدون مسوح العلماء والباحثين •

وهذا الجانب • لايعنى فتناء التشريع الاسلامي • حدهم • قضيتنا جميعا نحن العرب • مسلمين • مسيحيين على السواء • • أضحى • أوضح • قضية كل عربي يعي وجوده • وكل مؤمن بحرمة الحق • حرية الفكر ونزاهة البحث العلمي •

والدكتور السباعي يتولى في كتابه عرض حملة من حملات الغزو
الفكري في صبر الدارس المخلص . وحماسة العربي المؤمن .

ومن هذا العرض يشهد القارئ العربي الواعي كيف اتجهت الشعوبية
من قديم لتسييم هذا المنبع الروحي وكيف تلقى الاستعمار لواء الحملة من
أيدي الشعوبية فسهر عليها يغذيها بالوقود من رسوم التأويلات والشبهات
والمفتريات .

وهي حملة يخفي أمرها على عامة المثقفين ممن لا اختصاص لهم
بدراسة الفقه والتشريع . ولعل أخطر ما يكشف عنه الكتاب أن فينا من
تخدعه حيل الغزاة ممن يرتدون زي العلماء فيتابعهم على أقوالهم المسومة
بأنهم يدري أنه بهذه المتابعة يعين على نفسه وقومه .

وقصة الغزو الروحي في هذا المجال عبرة ما بعدها عبرة . فمن قديم
سقطت الشعوبية الضاربة أن تضم الى جيشها المقنع جنودا من الفرق
الاسلامية بعضهم عن استهواء وفتنة بأساليب التفكير الطارئة وبعضهم من
اليهود الذين أسلموا نفاقا ورياء بغية الافساد لحيوية الاسلام
بالاسرائيليات .

والأمر شبيه بهذا الحدث من تاريخنا فقد جند الاستعمار بعض
المستشرقين لتسييم هذا المنبع الروحي فنصبوا الفخ باسم البحث العلمي
والتفكير الحر . وجاء تقدمنا فوقعوا في الفخ وراحوا يروجون بضاعة
الغزاة . اما عن جهل بحقيقة التراث الاسلامي ، واما عن انخداع بالأسلوب
العلمي المزعوم ، واما عن رغبة في الظهور بالتحرر العقلي وشجاعة الرأي
واما عن انحراف فكري ووجداني بتأثير الاستهواء .

وما يجزى في هذا المجال الروحي . يجزى مثله في مجال الثقافة
والأدب . مهذا لبقاء الاستعمار في الشرق في زيه غير العسكري .

فآراء العلماء لها علينا حق الاحترام ما أخلصوا للحق وصانوا حرمة
البحث وحصلوا أمانة العلم . أما اذا أضلهم التعصب وزاغ بهم الهوى فقد

137820-22-

ضروا صفتهم العلمية وأهدروا بأيديهم حقهم في الانتساب الى زمرة لعلماء . وليس لمن اعتدى على حرية الفكر وأمانة الحق أن يطع أو يطع به سواه في احترام العلماء . باسم حرية الفكر التي خانها . وحرية الحق لذي أضاعه .

فلما بسط الاسلام - في مبدأ دعوته - سلطانه على قارتي آسيا وافريقية . وجزء عظيم من قارة أوربا . من الناحيتين النظرية والعلمية . ثم اخترق صليل صولته أسماع الشعوب التي لم تدن به . ودوى في ردومها صوت جلاله القوي . وكان من الطبيعي أن يروع السياسة . وبيلبل أفكار العلماء والباحثين من خصومه في تلك الشعوب التي لم تكن تطمن على مصيرها بازاء هذا التيار الجارف . وكان من الطبيعي أيضا أن يدفع الغيف المتعصبين من أولئك العلماء . كما دفعت غريزة حب الاستقلال الطالبين منهم . الى الاشتغال بنصوص هذا الدين ودراسته لتوقوف على ما فيه من فكر وآراء نظرية وطقوس وتقاليد عملية .

وقد كان ذلك بالفعل . فنظر أولئك وهؤلاء في نصوص القرآن والحديث والسيرة النبوية نظرة ادعوا أنها نقد حري . وانطبعوا بها وانهم لم يكن هدفهم وغرضهم من ذلك سوى الحقيقة وحدها . وان كان ذلك لا يتفق مع الواقع الا في بعض الأحوال . بل انما سمنوا في الجهد - استنادا الى ما بين أيدينا من مؤلفات أولئك العلماء - من الكتب الجديدة لنصوص الاسلام وتعاليمه والبحث الدقيق التزيه في سراره ومزاجه لم يبدأ الا منذ القرن التاسع عشر حين انتشرت الثقافة الشرقية في الغرب وأخذ المستشرقون يجدون في فتح مغالق الشرق . وكشف ما فيه من كنوز . بعد حملة « نابليون » التي فاقت أهميتها العلمية أهميتها السياسية .

أما قبل ذلك العهد . فقد كانت مؤلفات الغربيين عن الاسلام مبنية على السخرية والاستهزاء . أكثر منها مبعثا للمجدل والنقاش . والآن انهم مفعسا بالجهل المطبق . والسطحية والتعصب . وهذه الأوهام من جنسها تسقط القيمة العلمية التي هي الدعامة المتينة لجميع المؤلفات على اختلاف أنواعها وتباين موضوعاتها وغاياتها .

ونحن حين نقرر هذا لا تتجنى على أولئك المؤلفين • ولكننا نذكر حقيقة واقعة مؤيدة بالنصوص التي في كتب الباحثين المحدثين الأكثر نزاهة وعلسا من بين الأوروبيين أنفسهم . واليك شيء من هذه الحقائق : -

قال الأستاذ « دير مانجيم » : حينما اشتعلت الحرب بين الإسلام والمسيحية ودامت عدة قرون • اشتد النفور بين الفريقين • وأساء كل منهما فهم الآخر • ولكن يجب الاعتراف بأن اساءة الفهم كانت من جانب الغربيين أكثر مما كانت من جانب الشرقيين • وفي الواقع أنه على أثر تلك المعارك العقلية العنيفة التي أرهق فيها الجدليون البيزنطيون الإسلام بساويء واحتقارات • دون أن يتعبوا أنفسهم في دراسته • على أثر ذلك هب الكتاب والشعراء المرتزقة من الغربيين وأخذوا يهاجمون العرب فلم تكن مهاجمتهم اياها إلا تهسا باضلة • بل متناقضة (١) .

وقال الأستاذ « كارا دي قو » : ان محمدا ظل وقتا طويلا معروفا في الغرب معرفة سيئة فلم توجد خرافة ولا فظاظة الا نسبوها اليه (٢)

هكذا افتري على الإسلام وعلى اتباعه شرذمة من أعدائه • وما زال لهذه الشرذمة أبواق يرددون ما سبقوا به • ويزيدون عليه أباطيل من عندهم صابعا الافتراء والادعاء والتجاهل والتجنى • وبعضها يستجلب الضحك مما ينسب عن جهل وسفسطة وهذيان .

فانك تعجب أشد العجب حينما تقرأ لبعض أعداء الإسلام اليوم وللبعض أعدائه بالأمس القريب والبعيد ، تهجبا عليه ، واتهاما له بأنه دين التعصب المالحق للحرية ، والاكراه القاضى على الاختيار ، والجسود المانع من التطور . وغلب الظن اننا كنا نلمس بعض العذر لهؤلاء المتهجين ، لو أنهم اعتدلوا في تفكيرهم وفي تعبيرهم ، واقتصروا على التنديد بحال المسلمين وضعفهم في الأمس القريب ، ولم يتجاوزوا الى الإسلام نفسه ، من حيث

(١) كتاب « حياه محمد » لاميبل دير مانجيم - طبعة باريس سنة ١٩٢٩

(٢) كتاب « الحمديه » لنيبارون كارادى قو - طبعة باريس

هو عقيدة وتشريع وعبادة وسياسة ومعاملة . لكنهم خلطوا خلطا قبيحا بين الاسلام واتباعه ، وزعموا أن ضعف المسلمين نتيجة لدينهم متغافلين عما كان للمسلمين من قوة ومجد وحضارة وسلطان أيام استمساكهم بدينهم واعتزازهم بتعاليمه . ومتجاهلين أن ما نزل بالمسلمين من كوارث الضعف والاستسلام والتخلف والانقسام . انما كان عاقبة وجزاء وفاقا لانحرافهم عن الصراط السوي الذي شرعه الله لهم . فتقاسم اعداؤهم ديارهم وخدروهم تخديرا ، ليحتلوا أوطانهم باسم الاستعمار ، وباسم الاحتلال ، وباسم الوصاية . وباسم الانتداب .

بل لقد كان المستعمرون على يقين من أن سر قوة المسلمين وعزتهم في دينهم فجعلوا يحملون معاولهم في حلق وقوة . ويهجمون بها على حصون الاسلام ليقوضوها . فيزلزلوا ثقة المسلمين بأنفسهم وبدينهم . لكن طال عليهم الأمد . وأرهقهم الكد والجهد . ولم يبلغوا ما أرادوا .

والاستعمار ظاهرة من أهم الظاهرات في تاريخ الانسان على الأرض . وعلى الرغم من حداثة هذه الظاهرة بالنسبة لتاريخ الانسانية الطويل . فان أثرها امتد في القرن الأخير ليشمل أكثر من نصف سكان العالم . ولقد انتشر الاستعمار انتشارا واسعا حتى أن بعض الامبراطوريات الحديثة أصبحت توصف بأنها لا تغيب عنها الشمس .

فضلا عن أن الاستعمار لم يتسع ليشمل مختلف المناطق فقط ، وانما انتشر ظله ليطغى على مختلف الشعوب كما أن أنواعه تعددت على مر الزمن ، وأصبح الاستعمار يشمل كل شيء من الأرض التي يحياها السكان الاقتصادية والثقافية بل الروحية في بعض الأحيان . لذلك كله فاننا اذا أردنا أن نستعرض صفحات الاستعمار . فاننا سنجد أنفسنا مضطرين الى أن نحلق في آفاق بعيدة المدى والى أن نعالج هذا الموضوع من نواح قد تبدو قليلة الخطر أول الأمر . ولكنها مع ذلك لا تغيب عنا . ان تتضح لنا لأنها نواح تتصل بحيات الشعوب التي تفتى عليها الاستعمار أشد الاتصال .

وقد يكون لاستعراضنا لهذه الصفحات من تاريخ الاستعمار أهمية خاصة بالنسبة الينا . نحن سكان هذا القسم من العالم في افريقيا وآسيا ذلك أن الاستعمار كاد أن يصيب حياتنا في الصميم لولا فضلة من الايمان بتاريخنا المجيد . و برسالة شعوبنا في الحياة ودورها المجيد في التاريخ .

وإذا كنا في الجمهورية العربية المتحدة ، وفي قارتى افريقية وآسيا قد نجحنا في مقاومة الاستعمار وفي مغالته حتى غلبناه آخر الأمر ، فإن هدف الكفاح قد كلفنا الكثير من الجهود ، بل أنه كاد أن يصرفنا في بعض فترات تاريخنا الحديث عن مهمة إعادة بناء الوطن . بل اننا اذا استعرضنا جهودنا القومية الحاضرة فسندرك من غير شك أن رواية الاستعمار لا تزال متصلة من حولنا لا سيما في بعض الأراضي الأفريقية المجاورة والقريبة من وادي النيل .

ويخطيء منا من يعتقد ان الاستعمار اذا كان قد بدا يخمد في كفاح معنا ، فإنه سيكت أو يدعنا تتابع جهودنا دون أن يحاول عرقلة هذه الجهود بكل ما لديه من وسائل . ذلك أن الصبغة الأساسية للاستعمار في العهد الحديث انما هي أنه أصبح يشل وحدة في تاريخ الانسانية المعاصر فالاستعمار أصبح في العهد الحديث كلا لا يتجزأ .

والامم التي اشتركت في جريمته الكبرى قد تشابكت بينها المصالح رغم ما يبدو بينها من خلافات سياسية مظهرية . أو من حروب ومشاحنات تحدث من وقت لآخر .

فالاستعمار الأوربي قد بدأ من تلك القارة الصغيرة . وأصبح هدفه الموحد هو السيطرة العالمية والطغيان على سائر الشعوب في القارات الأخرى . وهو بهذه الصفة أصبح له هدف أعلى . هو فرض السيطرة الأوربية على العالم كله . والذي يعن النظر في تاريخ الدول الاستعمارية كبريطانيا وفرنسا وغيرها في العهد الحديث ، لا يلبث أن يلمس أنه على الرغم مما حدث بينها من مشاحنات عنيفة تشلت في الحروب الأوربية المتعاقبة . فإن أغراضها كلها قد تلاقت عند هدف واحد هو توسيع رقعة الاستعمار والمحافظة على مصالح الدول الأوربية عن طريق المساومات التي

رف المستعرون كيف يتقنون فنونها • وكيف يحققون بها مصالحهم
 لشركة . والشئ الطريف أن كل حرب من الحروب التي عرفت أوروبا في
 قرون الثلاثة الأخيرة فيما عدا الحرب العالمية الثانية قد انتهت بتوسيع
 رقعة الاستعمار • وعلى الرغم من أن بعض تلك الحروب قد أدت إلى
 نكماش سيطرة واحدة أو أكثر من دول أوروبا • فإن الدول الغالبة كانت
 دائما تنجح في أن تثرث الدول الأوروبية المغلوبة في مستعمراتها • وكثير من
 مؤتمرات الصلح المختلفة التي عرفت أوروبا بعد حروبها العديدة إنما كانت
 تدور مناقشاتها ومداويلاتها الطويلة حول اقتسام الغنائم واعادة توزيع
 المستعمرات • وإذا كانت هذه الحروب العالمية الثانية قد انتهت إلى غير ما
 انتهت إليه الحروب السابقة • فضاعت بعدها رقعة الاستعمار فأننا نرجع
 ذلك إلى أن الشعوب المغلوبة خارج أوروبا كانت قد بلغت حدا من النهضة
 مكن لها من أن تطالب بحقوقها الطبيعية في الاستقلال بمسألة قوية فعلا
 لم تسلك معها أوروبا إلا أن تسلم بالأمر الواقع والآن ترضى من المغلوبة
 بالأياب كما يقول مثلنا العربي المعروف •

إن الاستعمار إذن وحدة لا تتجزأ كان أمره كقائد عندما يمد يده إلى
 توسع وتهدف إلى السيطرة العالمية • فتشاحت الدول لأوروبية فسادا في
 داخل قارتها الصغيرة • ولكنها وجدت جهودها كما وجدت شعوبها
 عندما عاملت الشعوب المستضعفة خارج القارة • وكانت أول كفة
 الاستعمار وحدة لا تتجزأ • فالشعوب المغلوبة استمرت قرون طويلة
 مفككة يواجه كل منها العدو الأكبر المشترك على القارة

ولكن تلك الشعوب المغلوبة لم تلبث أن وجدت جهودها • وساندها
 يساند البعض الآخر • كما أن ظروف الكفاح ومبادئه ومواقفه أصبحت
 كلها تتقارب وتتحد • حتى جاءت الحرب العالمية الثانية فوجدت
 الجهاد ونواقيسه دقت كلها دفعة واحدة • فهبت شعوب العالم
 آسيا وأفريقية • وقامت للجهاد دفعة واحدة • وكتب لها النصر
 الأولى من جولات الكفاح الموحد ضد الاستعمار الذي كان يمد يده
 كظاهرة سياسية عالمية إلا إذا نظرنا إليه في ضوء حقيقته السياسية

أن الاستعمار يمثل وحدة متماسكة في نشأته وسياسته العامة . فالدول الاستعمارية تسير على سياسة متكاملة الأجزاء متشابكة الحلقات . والسبب في ذلك أن مصالح الاستعمار في مختلف جهات الأرض واحدة . ولا بد للدول الاستعمارية أن توحد سياستها وجهودها ، إذا ما أرادت أن توسع رقعة الاستعمار . أو أن تحتفظ برقعته الحالية على الأقل .

فسكان العالم ينقسمون الى فريقين : فريق حاكم مسيطر ، وفريق محكوم مسخر .. وتقوم سياسة الفريق الأول على التساند وتشابك المصالح ليضن لنفسه السيطرة الدائمة على الفريق الثاني ، وعلى شعوبه وأراضيه . أما الحقيقة الثانية فهي أن الكفاح ضد الاستعمار لا بد أيضا أن يمثل وحدة متشابكة الحلقات . ولئن كانت الدول المسيطرة قد وجدت من مصلحتها أن تتحد وأن تتعاون من أجل تحقيق أطماعها . فان حاجة الشعوب المغلوبة أقوى وأظهر لأن تتعاون فيما بينها . وتسير في اتجاه موحد على على طريق الكفاح ضد الاستعمار . فكافحة الاستعمار لا يمكن أن تبذل غايتها الا اذا اتخذت صورة حركة عالمية شاملة تشارك فيها الشعوب المغلوبة في كل جهة من جهات الأرض . وتعزل وفقا لسياسة منظمة المواقيت تنزعها من جسوة من الأمم التي نجحت في ازاحة عبء الاستعمار عن كواهلها وبدأت تذوق طعم الحرية وتنشئ بها . ويسير في ركب هذه السياسة العامة المكافحة . سائر شعوب العالم المغلوبة على أمرها في الوقت الحاضر . على أن هناك حقيقة ثالثة ينبغي ألا نغفل عنها . ولكننا لا نستطيع أن نتيقن منها الا اذا درسنا تاريخ الاستعمار وتطور أفكاره وأساليبه وقصة الاختلاف بين التوسع القديم والاستعمار الحديث وليس المجال هنا يسمح بالتوسع في ذلك .

وهذه الحقيقة هي أن ظاهرة الاستعمار كما نعرفها في العهد الحديث هي ظاهرة جديدة ترتب عليها أن أصبح الاستعمار استعبادا كاسف واستغلالا شاملا تسخر فيه موارد المستعمرة وجهود سكانها لصالح المستعمرين . وتضيع به معالم الحياة الاجتماعية والثقافية بل والانسانية بسكان المستعمرات وهذا كله يعتبر جديدا على الانسانية . ويختلف تماما

عما كانت عليه أساليب السيطرة في العصور التاريخية المتعاقبة • وشرح ذلك طویل لا محل له هنا ، ومن الواضح لنا أن توسع أمة من الأمم في العهد القديم ، بل توسع دولة مصر في العهد الفرعوني لم يكن توسعا يهدف الى الشر أو الطغيان — بقدر ما كان توسعا طبيعيا ترتب عليه تبادل المنافع وتشابك الثقافة بين مصر وجاراتها القديمة ، وهو تبادل زاد من توثيقه أنه لم تكن هناك اختلافات في تكوين الجنس والسلالة بين مصر وجاراتها فلم يكن هناك اختلاف في اللون أو في الطباع أو في الاتجاهات الروحية أو الثقافية العامة ، ولم يكن هناك فرق بين غالب ومغلوب — كذلك الذي عرفناه في عهد الاستعمار الحديث . عندما طغت عناصر أوربا البيضاء على عناصر أفريقية السوداء . وأدى اختلاف اللون والجنس والطبع والثقافة الى مأساة تخيل معها الجنس الأبيض أنه سيد العالم الحديث .

وهكذا كانت مصر القديمة وصلاتها بالبلاد الشرقية القريبة منها على أن انتشار الحضارة المصرية لم تتخذ صورة التوسع الاستعماري . فلم يخرج المصريون القدماء من بلادهم ليستعسروا بلاد الآخرين . ولا ليستوطنوا تلك البلاد . ولا ليقيموا من أنفسهم عليها سادة يستغلون موردها . يتحكمون في مصائر سكانها الأصليين • وهكذا كانت مصر القديمة منذ الأول للدولة التي تبلغ من القوة شأنها • ولكنها تغيبط نفسها فلا تسعى الى فرض سيطرتها على العالم المجاور .

واليكم مثل من حركات التوسع في العصور القديمة ، بلاد اليونان وهي بلاد كما تعلمون عريقة في القدم . كانت لها حضارة زدهرت في بحر البحر الأبيض المتوسط ثم انتشرت على طول سواحلها • كما توسعت بمصر عناصرها أيضا في نقط مختلفة من بلاد الشرق الأدنى القديم ، من بلاد التي أنشأها الاغريق القدماء تنظر اليها شعوب الشرق الى انفسهم على أنها أصل حضارتهم . لأنها حضارة أممية . فالتوسع اليوناني انتقلت من بلاد اليونان الى بلاد الرومان فأثرت في الحضارة الغربية من الأمم اللاتينية ثم الى أوربا في عهد النهضة والاشارة الى

ولكى نلقى ضوءاً على ما امتازت به أوروبا في عهد توسعها الاستعماري الحديث يجب أن نتحدث عن بلاد اليونان القديمة وتاريخ توسعها التجاري والسياسي والثقافي في العهود القديمة ، وإذا كنا نتحدث عن المستعمرات اليونانية القديمة . فإنا نتحدث عن ظاهرات ونظم تعتبر جزءاً لا يتجزأ من التراث الأوربي .

والشعب اليوناني القديم قد اختلف اختلافاً واضحاً عن الشعب المصري القديم . فسكان وادي النيل الأدنى كانوا منذ نشأتهم الأولى معتمدين على موارد بلادهم المحلية . ومستسكين بوطنهم ومعتزين به . بل إن وادي النيل ذاته كان وطناً رحيماً بسكانه . يدر عليهم من الخير ، ويسبغ عليهم من البركة ما يجعلهم يتعلقون به ولا يبتغون عنه بعداً . ولذلك لم يكن من طبع المصري القديم . ولا من طبع المصري الحديث . أن يرغب في أن يهجر موطنه ليستقر موطناً آخر . ولا في أن يترك بلاده ليسيء إلى السيطرة على بلاد غيره . أما بلاد اليونان فقد كانت يبتغاها تختلف عن وادي النيل كل الاختلاف . فهي بلاد فقيرة . اضطر الفقر أهلها أن يهجروا بلادهم ، وأن يطعموا في بلاد الآخرين . وأن يبتغوا بناء المجد في أوطان غير وطنهم لاسئلى . بل إن الفقر والأحداث شسلاً مختلف نواحي الحياة في البيئة القروية فقيرة يصعب استغلالها في الزراعة . والنبات قليل يكاد يقتصر على كروم وشجار الزيتون والقليل من نباتات الشتاء ومراعيه . والماء ذاته قليل حتى استيا الإنسان . بحيث أن المدن القديمة كانت لا تستطيع أن تنمو إلى أكثر من حد معلوم بحسب مورد المياه الجوفية حولها . فإذا نمت وازداد سكانها فوق هذه الطاقة المعلومة وجبت عليهم الهجرة والتزوج ابتغاء الرزق في غير بلاد اليونان . ولقد سهلت الطبيعة على أولئك الأغريق القدماء أن ينتقلوا إلى الخارج . فحيطت بلادهم وجزرهم بالمياه التي تجري فيها الرياح المعتدلة . مما سهل على سفنهم نقل الأفواج المتلاحقة المتقاطرة من السكان الزائدين إلى خارج بلادهم في سبيل لا ينقطع .

وهكذا خرج الأغريق القدماء من بلادهم وأنشأوا سلسلة واسعة المناطق من المستعمرات التي شملت سواحل البحر الأسود . وسواحل بحر

ايجه وجزره الكثیرة • وبعض نقط في الشرق الأدنى وفي مصر ذاتها • وامتدت تلك المستعمرات مع البحر الأبيض غربا الى سواحل ايطاليا وفرنسا واسبانيا وبعض نقط من الساحل الافريقي • وفي هذه الجهات جميعا اقتطع الاغريقيون القدمات لأنفسهم من الأراضي ما أقاموا عليه مستعمراتهم • وشرعوا في استغلال موارد تلك المستعمرات ، كما امتدوا بنشاطهم التجاري الى ما حولها . فأصبحت كل مستعمرة تشل نقطة ارتكاز يستمد عنها نشاط التجارة والتبادل والنقل البحري والبري في أوسع نطاق • وتعلم الاغريق الأقدمون في مستعمراتهم ، أن يستغلوا صلاتهم بغيرهم من الشعوب ، وأن يستدروا خيرات هذه الشعوب باسم التجارة • وأن يتخذوا من مستعمراتهم قواعد للاستعمار والاستغلال الاقتصادي في صورة حصص استعمارهم القديم يعود عليهم بخيرات ومنافع وأرباح ما كانت تتسارع لو أن الأمر اقتصر على مجرد استغلالهم لبلادهم أو النقط التي استولوا عليها مستعمراتهم فيما وراء البحار •

ومكثدا اتخذ اليونان التجارة حرفة مفضلة ، ونبذوا غيرها من الحرف حتى في بلادهم الأصلية • وعندما تجسعت لهم الثروة عن طريق التجارة أخذوا يستخدمون غيرهم من أبناء الشعوب الأخرى ليقيموا لهم بلادهم الأخرى كالزراعة وغيرها من الأعمال اليدوية ، وبدأت ظهرت ناحية جديدة وانسانية في غاية الخطورة ، هي أن تجار اليونان السماساء أخذوا يربحون من مستعمراتهم وغيرها أفواجا من البشر ليعملوا في الزراعة والأعمال الأخرى في بلاد اليونان الأصلية ، وفي بعض المستعمرات تزايدت نسبة هؤلاء المجتمع اذ ذلك ولأول مرة في تاريخ الانسانية ، فظاهرة الرق ، ظهرت في المدن اليونانية وفي المستعمرات طبقة من العبيد حرمت الجوانب الإنسانية من الحقوق الانسانية • وخصص أفرادها للقيام بالأعمال والحرف ازدراها أولئك الاغريق القدمات .

وهكذا انتهت تلك الحضرة الاغريقية القديمة ، وصاحبته ظاهرة الرق التي تعتبر نقطة سواد في تاريخ الانسانية ، وقد انطوى الرق على ظاهرة أشد خطورة ، هي أن الانسانية انقسمت ذلك الوقت منقسمة الى فريقتين :

فريق السادة • وفريق العبيد • وبذلك أهدرت الكرامة الانسانية لطائفة من بنى البشر ، وارتدت الانسانية الى الوراء أجيالا رجعت بها الى الفطرة الأولى .

هؤلاء هم الاغريق القدماء الذين تعتبرهم أوروبا الحديثة سلفها الصالح وأصلها العريق . فأى غرابة اذن فى أن يأتى الخلف الأوروبى الحديث على وتيرة الاستعمار الاغريقى القديم ؟ •

ولقد ورث الرومان الاغريق المباشرة — من حيث السيطرة — على حوض البحر المتوسط وتوسيع رقعة الاحتلال العسكرى والاستعمارى الى ما وراء شواطئ ذلك البحر متوغلين فى منطقة الشرق الأوسط بطريقة ترسمها بعض المستعمرين فى العصر الحديث . لاسيما أولئك الذين بنوا الامبراطورية البريطانية الحديثة . فنقلوا عن الرومان وسائلهم فى الاحتلال العسكرى ، بل أنهم ركزوا احتلالهم وقواتهم فى نقط تعتبر مفاتيح الشرق الأوسط . تماما كما فعل الرومان الأقدمون • والاستعمار الرومانى بدأ من روما ذاتها • وليس يهمننا التوسع الرومانى شمالا الى غرب أوروبا والى الجزر البريطانية التى فتحها قيصر حوالى عام ٥١ ق.م • حيث وجد أهلها يعيشون فى عهد من الهمجية والفطرة الأولى • وانما يهمننا توسع الرومان فى حوض البحر المتوسط • وفى منطقة الشرق الأوسط بالذات • ومن أهم النقط التى احتلها الرومان ونشروا عليها سيطرتهم الاستعمارية • الساحل الشمالى لأفريقية . حيث كانت تقوم دولة قرطاجنة القديمة ، وقرطاجنة هذه انما تشل حياتها وحضارتها جزءا أصيلا من الشرق الأوسط القديم . فان معالم المدنية الأولى انتقلت من مصر الى ساحل فينيقيا حيث تأثر الفينيقيون القدماء بثقافة مصر الفرعونية الأولى . وتوصلوا الى اكتشاف الكتابة . ثم نقلوا الحضارة والفكر بالبحر من هناك الى ساحل أفريقية الشمالية المواجهة لايطاليا • • وكان ذلك الاتصال القديم مظهرا من مظاهر انتشار المدنية الأولى وربط شرق البحر المتوسط بغربه برباط بدأ فى الشرق وامتاز بأنه رباط من الفكر والحضارة والثقافة قبل أن يكون رباطا من التوسع والسيطرة والسلطان .

فلما قوى سلطان روما غيروا هذه الطريقة السلمية من اتصال الشعوب بعضها ببعض — صلة ثقافية وكرامة واحترام متبادل — وعسدت الى أن تكون الحرب الطاحنة هي الوسيلة المعتمدة في اتصال الشعوب بعضها ببعض . وخرجت روما القديمة الى سواحل افريقية المتقاتلة . فنشبت الحرب على قرطاجنة القديمة وتعتبر في واقع الأمر أول حرب هسجية عرفها التاريخ . فهي قد امتازت بالقسوة البالغة . كما امتازت بأنها كانت حربا شاملة . لم ينج منها الأطفال ولا الشيوخ ولا النساء من أهل قرطاجنة . الذين عذب روما القديمة الى محاولة ابادتهم ومحوهم من الوجود . وهكذا كانت روما القديمة المسئولة الأولى في التاريخ عن تحطيم تقاليد الحضارة القديمة والسيطرة على الشعوب المجاورة بالقوة . وبناء امبراطورية على أساس من القسوة والاستعباد ، والشئ الغريب -- أو لعله ليس غريبا -- أن هذا التقليد الجديد الذي وضعته روما في ذلك الوقت قد عاد فتجدد في العهد الحديث . عندما خرجت دول أوروبا الجنوبية الى شمال أفريقية . بل تجدد بصفة خاصة عندما خرجت ايطاليا الفاشية بالذات في عهد موسوليني . فعمدت الى أقصى الوسائل وأفظعها في استعمار ليبيا ثم حافظت على كياناتهم ومكنت لهم آخر الأمر من مقاومة الطغيان .

أما تاريخ روما الاستعماري في مصر وبلاد المشرق العربي . فقد بدأت روما باحتلال مصر في عام ٣٠ ق . م . ثم انتقلت قواتها منها واتخذت تحنل الشرق الأوسط رويدا رويدا . ثم اتخذت لها قاعدة مكينة في الأرض الواقعة الى شرق نهر الأردن . تماما كما حدث في عهد الامبراطورية البريطانية الحديثة عندما بدأ الانجليز باحتلال مصر في عام ١٨٨٢ . ثم اتهموا فرصة الحرب العالمية الأولى . لينتقلوا بنفوذهم العسكري واستعمارهم الى المشرق العربي . ومن بلاد شرق الأردن القديمة انشر الرومان ووسعوا نفوذهم نحو داخلية سوريا . ونحو رأس الخليج العربي الذي يسميه بعض الناس بالخليج الفارسي . ومد الرومان النطاق الاستعماري التي امتاز بها حكمهم الاستعماري القديم ونشأوا لأنفسهم في بلاد المشرق معسكرات واسعة النطاق عاش جنودها وقاداتها على امتصاص دماء سكان البلاد الأصليين وارسال ما يفيض من ثمنائهم الى عاصمة الامبراطورية في

روما • وامتاز عهد الاستعمار الروماني القديم في مصر والمشرق العربي بأنه عهد استغلال اقتصادي ليس له نظير في التاريخ الا ما امتاز به الاستعمار الأوربي الحديث في هذه المنطقة من العالم . فمصر القديمة أصبحت مزرعة تصدر القمح وطيبات ما تنتجه أرضها الى روما حيث بلغ مستوى معيشة سكان وادي النيل الى حد البؤس والتعاسة . ولعل هذا يذكرنا بما فعلته بريطانيا في العهد الحديث حيث وجهت اقتصاديات مصر نحو انتاج القطن لتغذية مصانع المنسوجات في بلادها دون نظر الى أن تنتج أرض مصر من المواد الغذائية وغيرها مما يرفع مستوى الرفاهية للسكان .

أما في باقي بلاد المشرق العربي فقد اتخذت روما لها قواعد للتجارة كما مدت الطرق واعتبرت هذا المشرق قنطرة توصلها الى بلاد الهند وجنوب آسيا • حيث نمت تجارة الرومان • واستغلت روما الموقع الجغرافي للمشرق العربي في سبيل توسيع نطاق تجارتها القديمة • تماما كما فعل المستعمرون الأوربيون في العهد الحديث •

ما سبق نرى أن الاستعمار الأوربي القديم هو نفس استعمار أوربا الحديثة فهي في صلاتها بالشعوب الأخرى تعتمد دائما الى السيطرة والظلم • ولا ترعى ما تقتضيه الانسانية من رعاية لوجه الحق وتراحم بين الانسان وأخيه الانسان • • وأما الناحية الروحية والدينية التي غلبت على أوربا • فقد نشأت كلها مع المسيحية في الشرق مهبط الوحي • ومن هناك انتشرت المسيحية الى جنوب أوربا • فلاققت من العناء أشده • ومن الأضطهاد أعنفه • ومن الأهوال أعظمها وأقساها حتى أذن الله للمسيحية ونور الشرق أن يغلب وأن ينتشر ، ولكن هذا التاريخ الذي عرفه فلاسفة أوربا وحكسائها في عهد النهضة الحديثة • وما جاء في أعقابها قد أوقع في نفوسهم شيئا من الشعور بأن أوربا لم يكن لها نصيب ظاهر في تاريخ الفكر الانساني وريثه ، انسابته من هذا الفكر في العهود اللاحقة انما جاء مستعارا من اليونان • وعند كان أولئك الحكماء والفلاسفة الأوربيون بشرا من الناس • فأحسوا بشيء من الحق والغيرة • وتكشفت نفوسهم سوى قليل منهم عن مركب النقص وكأني بهم قد أرادوا أن يتشفوا لهذا الماضي • وأن

يلبسوا أوروبا ثوبا من القوة يزيل عنها الشعور بالنقص ويعرضها عن ذلك
عظمة الكبرياء الظاهري . والتعالى المبنى على غير أساس . وقد انعكست
صورة ذلك كله فيما كتبه بعض أولئك الحكماء والفلاسفة .

فقد كتب الكاتب المفكر المعروف « منتسكيو » في كتابه « روح
القوانين » . الذى ذاع صيته . وعرف بأنه أساس من أسس الفكر الأوروبى
الحديث . وشريعة من الشرائع التى تفتق عنها ذلك الفكر الأوروبى لرسم
طريق المعاملات بين الشعوب والأمم . . فقد جاء فى أحد فصوله نص يظهر
منه مبلغ الحقد الدفين والتشفى الظاهر وهو قوله : إذا كان على أن دافع
عن حقنا المكتسب فى اتخاذ الزنوج ذوى البشرة السوداء عبدا . فأننى
أقول : ان شعوب أوروبا وقد أفنت سكان أمريكا الأصليين لم يكن لهم
الا أن تستعبد شعوب افريقية لكى تستخدمها فى استصلاح أرجاء أمريكا
الشمالية . وما شعوب أفريقية الا جساغات سوداوات البشرة من أخص
القدم الى قمة الرأس . ذات أنوف فطساء الى درجة يكاد من المستحيل أن
ترثى لها . وحاشا لله ذى الحكمة البالغة أن يكون قد أودع روحا . أو علم
الأخص روحا طيبة فى جسد حالك السواد .

فى هذا النص وفى هذه الصيغة البشعة من الفكر الأوروبى الاندلسى
الضيق ، صاغ هذا المفكر الأوروبى ما جال بخاطره من فكر متصل بأست
الاستعمار . وكأنى به قد أراد أن يعتذر عن خطية أبناء الذين الذين
على اباداة الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية ليحلوا محلهم فى أرض تلك
القارة .. أراد أن يعتذر عن ذلك . فأورد عذرا هو أقبح من الذى
به قد أراد أن يبرر استعباد الأوربيين لزنوج افريقية . حتى أنهم استعبدوا
ملايين منهم من القارة الافريقية ليستخدموهم عبيدا فى تربية الأرض
القارة الجديدة . وفيها فيها الواسعة . فاعتذر بأن تلك العبيد
بعد أن أعبل الأوربيون فى أمريكا الشمالية وسألوا الحكام عن
سكان القارة الأصليين . فكان أن أوروبا التى كانت فى ذلك الوقت
بالنسبة لسكان أمريكا من الهنود الحمر . أن تتركها لتتولى
افريقية بالجملة لتسخرهم عبيدا فى قارة أمريكا الشمالية
سكانها الأصليين .

والشيء الغريب أن هذا اللون الخطير من الفكر الذي هو أبعد ما يكون عن الرحمة والانسانية ، أو عن الوازع الانساني الذي ينبع من الضمير ، هذا اللون من الفكر لم يكن مقصورا على مفكرى أوروبا وفلاسفتها ، وإنما امتد فيهم الى بعض رجال الدين في أوروبا في ذلك العهد ، فبعض أولئك الرجال لم يتورعوا ، مع الأسف الشديد ، عن الانزلاق في تيار مثل ذلك الذي سار فيه « منتسكيو » . ومن المتواتر في بعض الكتب التي تستعرض الاستعمار الأول أن نقرأ من أولئك الذين كانوا يتصدون بغير حق الى قيادة حركة الاستعمار والتوسع باسم الدين ، كانوا يصفون الهنود الحمر بأنهم من سلالة الشيطان . بل كانوا يأمرؤن بالقضاء عليهم بسختلف الوسائل ومن ذلك نشر الأمراض الجديدة ونقل عدواها الى أولئك الهنود الحمر فتحصدهم أوبتتها ، وتطهر البلاد منهم في غير شفقة أو رحمة .

ذلك لون من الفكر الأوربي الذي ظهر في القرون التي تلت عصر النهضة الأوربية الحديثة ، وهو لون لم تعهد الانسانية له شيئا من قبل . اللهم الا في بعض عهد الدمار القليلة كعهد التتار والمغول . وما أبعد هذه الروح التي اتصف بها الفكر الأوربي من الروح التي اتسمت دائما بالخير والرحمة والعدالة والاخاء .

وقد ظهر حديثا كتاب « الاستعمار الحديث » تأليف « هاريسون تشرتسن » الأستاذ بمدرسة الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة لندن ، والكتاب يعتبر فتحا جديدا في عالم اللغة البريطانية لأنه دراسة للتفاعل الذي يحدث بين مختلف الشعوب في بوتقة الاستعمار من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وهو مكتوب بلغة معقولة وغنى جدا بالأمثلة الواقعية ، ويتميز بروح حيادية الى حد كبير في عرض مشاكل المستعمرات . وأعتقد انه كان يجدر بالمؤلف أن يضيف الى كتابه هذا فصلا مستقلا يحلل فيه طبيعة الاستعمار مينا فيه أن الاستعمار يحمل في طياته عوامل فنائه . وآية ذلك أن الوعي القومي في مختلف الأقاليم المستعمرة قد انتفض ماردا جبارا وعلاقا عاتيا يحطم معازل الاستعمار ويدك حصونه ، واذا كان

لا بد من استغلال الموارد العالمية بما يحقق الرفاهية البشرية فلن يكون ذلك عن طريق الاستعمار ، فقد محيت هذه الكلمة من قاموس السياسة وحلت محلها كلمة جديدة ألا وهي « التعاون الدولي » .

وقد لاحظت على المؤلف أنه متفائل في اعتساده على افريقيا كقلب الاستراتيجية الحديثة للدفاع عن الامبراطورية البريطانية ، ناسيا أو متناسيا أن الامبراطورية البريطانية قد غربت عنها الشمس وأصبحت في ذمة التاريخ ، وأن السياسة الاستعمارية البريطانية الفرنسية في افريقيا قد خلقت من الأصدقاء أعداء .

وفضلا عن هذا فان افريقيا قد رست لنفسها سياسة جديدة هي أن افريقيا للأفريقيين . وكل هذا يهدم الأسانيد التي اعتد عليها .

ومما قاله السيد محمد عبد القادر حاتم في ندوة اتحاد العلوه السياسية ، وكان رئيسا لها ، في تصفية الاستعمار : من الغريب أن يكون الاستعمار لا خلاف على تعريفه ، بينما الاستقلال الخلاف واضح على تفسيره . وقد وجدنا تعاريف مختلفة للاستقلال . بعيدة عن فهم وإدراك ولا تتفق بأية حال من الأحوال مع نفسية شعوبنا .

بل ان الاستقلال . كما يفسرونه ويعرفونه . هو أخطر من الاستعمار ... بل الاستعباد بعينه . ففي نظرهم أن الدولة المستقلة هي التي لا تمثل دبلوماسي والتي يطلق عليها الاستعمار أنها مستقلة .

وفي نظرهم أيضا أنه لا ينتقص من استقلال الدولة إذا كانت مرتبطة بأحلاف عسكرية أو أثناء الاستعمار بأراضيها قواعد جوية . أو بحلف مكبله بسواثيق غير متكافئة سياسيا .

وعلى ذلك ، وبناء على تعريفهم هنا . فهم يعترفون بصريح العرف أن الاستقلال معناه أن تكون الدولة قد نشأت في الأمم المتحدة . وهذا بهذا التفسير في نظرنا هو جريمة الجرائم . فلا عقل بيننا وبينهم . ويرره . لأنه وإن كان يسمى في عرفهم بالاستقلال . إلا أنه أخطر من الاستعمار . والخطورة في الاستقلال الناقص هو أنهم يحولون

اليك بأنك مستقل على حين أنك لا تشعر « بأنك مستقل » ولا تحس بالاستقلال في شيء .

فالدولة المستعمرة تشعر بأن عدوها هو الاستعمار . ولذلك تعمل على القضاء عليه قبل أن يقضى عليها ، فلا تترك السلاح ، أو تنتهي من الكفاح . حتى تنال استقلالها كاملا غير منقوص .

فما الدولة التي خدعت بأنها مستقلة ، وما هي بالمستقلة ، فانها تلقي السلاح وتسيل الى الاستكانة والتواكل ، ولا تحاول النضال في سبيل الحصول على حريتها الحقيقية . وبذلك يتسكن الاستعمار منها ويقضى عليها . ان تحلا أو عاجلا قضاء مبرما ، والعدو في الدولة الناقصة الاستقلال ليس المستعمرين فقط بل أيضا هم أعوان الاستعمار . وهنا الخطورة ، فهؤلاء في طنا أنهم منا .. وفي الحقيقة ما هم الا سيف مسلط علينا .

ولذلك فالاستقلال حيننا نصره على هدى ماضينا وما قاسيناه من آلام . وعلى تجارب حاضرتنا وما مر بنا من أحداث . وعلى ضوء مستقبلنا الذي نهدف اليه من آمال - هو حالة نفسية قبل أن يكون حالة سياسية . لأننا نريد أن نشعر بأننا مستقلون حقا .. ونحس بأن الدفاع عن المنطقة ينبثق من نفس المنطقة ، واننا نحن الذين ندافع عن أنفسنا بدمائنا وحياتنا ، لنندى استقلالنا بكل أموالنا وأرواحنا .

وليجذرونا ، اذا كنا لا نثق الا في أنفسنا ، فتاريخنا طويل مع الاستعمار . شهدنا مؤثرات كثيرة بسبب الاستعمار . فقد رأينا مرارة الاستعمار ، وعشنا في استقلال منقوص وخدعنا بمعاهدات الشرف والاستقلال ، وشاهدنا كيف كان الحلفاء معنا بمعاهدات الصداقة يقتلون أطفالنا ونساءنا . ولما من مرة من المستعمرين انذكاء نار الثورة بيننا .. ليرقصوا على لهيبها . ولما من مرة من المستعمرين اثارة شجان الأمة ليفرحوا بنحيبها ، واليوم يحاولون القضاء على مطالب القومية العربية ليتيسروا نفوذهم واستعمارهم على أنقاضها .

هذا هو تاريخنا ومنه نفسر استقلالنا ، فاننا لا نريد من الاستقلال المظهر ، بل اننا نتمسك بالجواهر قبل المظهر ، ولذلك فنرغب أن نقول ولا نتعب من القول في تعريف استقلالنا ، لعلهم يأخذون من كل هذا حكمة في هديها يسرون .. أو أنهم يجدون عبرة بها يعتبرون .

وأخيرا .. نقول لهم كلمة صريحة واضحة وهي أنه أصبح اليوم لا يوجد بيننا عيب حتى يمكن أن ينصبوا أنفسهم علينا أسيادا .

وهذه صفحة أخرى من التاريخ ولكنها تأتي من الشرق وتختلف اختلافا تاما عن صورة التوسع الأوربي القديم أو الحديث ، لأنها تعيد اليها ذكرى روح الشرق التي بدأت في مصر القديمة عندما جمع المصريون من القوة والسلطان ما كان يتيح لهم أن يطغوا على العالم من حولهم ، ولكنهم مع ذلك تعلموا ضبط النفس ، ووجهوا صلاتهم بجيرانهم وجهة الخير . وتبادل الثقافة والمنافع المادية ، دون أن ينزلقوا الى ما انزلق اليه اليونان والرومان .

هذه الصفحة تتصل بالعرب الذين كتب لهم أن يرثوا ملك الروم وملك الفرس ، ولكنهم مع ذلك حين توسعوا لم يتصف توسعهم من قومية ولا من بعيد بصفة الاستعمار أو الاستغلال أو السيطرة أو الخيابة . شك أن العرب قد اختلفوا عن غيرهم من الأمم في أمر بالغ الأهمية . أنه عندما آن الأوان لتجتمع الامة العربية أسباب القوة والسلطان ، في العرب دين جديد ، بشر صاحبه بروح الاخاء والمساواة . كما انهم لا تفرقة بين الانسان وأخيه الانسان الا على أساس الايمان والتقوى والجنس أو السلالة ، وأما الملون .. فينبى كعب امور ومقريش لا يفرقون تجري على أساسها المناضلة بين الأفراد ولا بين الشعوب . وكان مبدأ خلتيا ساميا لم يسبق له نظير في التاريخ كله . بل كان هذا المبدأ على ما تعارف عليه العالم القديم في عهود الايمان والعدل . ولذلك فان العرب عندما خرجوا برسالتهم الى انحاء العالم ينشرون لواء الاسلام في الشرق والغرب والشرق والغرب . وكانوا في الطغاة التي كانت تسيطر على البلدان المتحضرة التي كان سكانها

البلدان ، على النقيض من ذلك ، وجدوا في العرب ورسالة الاسلام التي يحصلونها مخرجا مما كانوا فيه من شدة ، وملاذا مما فرض عليهم من طغيان. فرحبوا بالرسالة الجديدة وبلواء الاسلام الذي اظلمهم بما نشر في أرجاء المشرق القريب من حرية ومن اخاء ومن مساواة . وحتى الشعوب أو العناصر التي لم تقبل الاسلام أو التي لم تدخل فيه الا رويدا رويدا .. حتى هذه العناصر لم يكن تحمسها للتخلص من العهود الاستعمارية الغابرة ، والنصرة للعهد العربي الجديد بأقل من تحسن الشعوب والعناصر التي اختارت الاسلام ودخلت فيه عن رغبة وطواعية .

وهكذا اختلف العهد العربي الاسلامي عما سبقه من عهود ، فجاء عهدا ذا رسالة ، وتخلص أصحابه من وصية الاتصاف بالقوة الغاشية التي لا تعرف غير السيطرة والطغيان والاستعمار .

ويهنا في هذه المناسبة أن نشير الى حقيقتين تعتبران في غاية الأهمية بالنسبة لمن يستعرض تاريخ التوسع العربي ليقارن بينه وبين التوسع الاستعماري الأوربي القديم والحديث ، وليبرز ما هناك من فروق أساسية بين العرب وأهل أوروبا حين أتيحت لكل منهما أسباب القوة والتوسع .

فأما الحقيقة الأولى فهي أن العرب حين توسعوا في بلادهم لم يعملوا على أن يكونوا هم السادة في الجهات التي توسعوا فيها ، ذلك أن الاسلام ذاته قد هذب نفوسهم وكبح غرائزهم ووجههم وجهة الخير والانسانية . فبهم لم يكونوا فاتحين ولا غزاة بقدر ما كانوا دعاة ومبشرين بعهد جديد . ولذلك فإن العرب لم يصروا حين خرجوا من جزيرتهم على أن تكون لهم السلطة أو يتركز في أيديهم السلطان .

وسرعان ما سحقت نظم الحكم الاسلامي . وأوضاع الشريعة الجديدة لسكان البلاد الأصليين في البلاد التي فتحها العرب أن يحتفظوا لأنفسهم بالسلطة الفعلية في بلادهم . وهكذا ظهرت عناصر جديدة من غير العرب الأصليين . بل من سكان البلاد المفتوحة ومنها ايران وأطراف الامبراطورية البيزنطية . وجبعت هذه العناصر من أسباب القوة والسلطة في بلادها ما لم يتيسر للعرب أنفسهم ، ولن نستطيع أن نجد لمثل هذا الذي حدث في أيام

الامبراطورية العربية الاسلامية نظيرا لا في عهد الامبراطورية الرومانية القديمة ، ولا في عهد الامبراطوريات الأوروبية الحديثة من فرنسية وبريطانية وغيرها ... حين خرج الأوربيون ليسيظروا على المستعمرات ، وليحولوا بين أبنائها وبين أن ينالوا حظا من التعليم أو فرص الحياة التي تتيح لهم أن ينافسوا أبناء الدولة المستعمرة أو يشاركوا معهم في الجاه أو السلطان.

وأما الحقيقة الثانية التي ينبغي ألا تغيب عنا والتي طستها - للأسف الشديد - أغلب الكتب والمراجع الأفرنجية التي تصدت للكتابة عن تاريخ العرب والاسلام ، فهي أن الاسلام متهم بأنه دين انتشر بالقوة وبحد السيف . وليست هناك تهمة أبعد عن الحق وأوغل في البهتان من هذه التهمة الباطلة . فالاسلام بحكم أصوله المقررة لا يسكن أن يفرض على الأفرانج أو على الشعوب . بل انه دين يقوم على أساس انعدام الاكراء وعلى تولد الحرية المطلقة للناس ، ليدخلوا فيه بحض اختيارهم . وانما اذا رجعت الى التاريخ العسكري ذاته لا انتشار الفتوح العربية الأولية لوجدنا أن بعض الفروع التي تست كانت القبائل العربية تشترك فيها بصرف النظر عن ديانتها . وهناك من الأدلة القاطعة ما يثبت أن بعض القبائل العربية التي اختلفت بديانتها ولم تدخل الاسلام كانت تدخل جنبا الى جنب مع القبائل العربية التي أسلمت .

وفوق ذلك اذا ما استعرضنا تاريخ التوسع الاسلامي وانتشاره في جديد في جهات واسعة من العالم كداخلية آسيا وشرق آسيا والهندى وجنوب شرق آسيا وندونيسيا . فانا لا نلبث أن ننبه على حقيقة الكبرى وهي أن الاسلام لم ينتشر في هذه البلاد بحد السيف . بل انما انتشر في الامبراطورية العسكرية . وانما انتشر كدين مسح بشارته بدماء الملاحين وغيرهم . وكان تبشيرهم بالدين الجديد خاصا لوجه الله . من كل غرض استعماري . فهو تبشير يختلف اختلافا تاما عما تبشروا به المبشرين الأوربيين في افريقية وغيرها في العهد الحديث . أما الحقيقة الثانية فان الثابت أن الاسلام انما انتشر فيها في وقت هيبت فيه التهمة العسكرية العربية وانكسرت فيها شوكة العرب من الناحيتين العسكرية والسياسية

عندما خرج المغول من أطراف الصين ، وفتحوا العالم الاسلامى ودوخوا دول العرب والمسلمين فى غرب آسيا وحطموا بغداد وغيرها من مراكز الفكر والثقافة الاسلامية فى ذلك العهد . ومع ذلك لم يلبث الاسلام أن فتح قلوب المغول فى أواسط آسيا فانتشر بينهم وبلغ مشارف الصين الشمالية ، وهكذا جاء انتشار الاسلام فى هذا الجزء من العالم القديم معانسا لعهد من عهود ضعفه العسكرى ، مما ينفى عن العرب والاسلام صفة التوسيع ونشر الثقافة بحد السيف ، كما تحاول الدول الاستعمارية الأوروبية الحديثة لصته به . كما هو مبين بالفصل الثانى .

الفصل الثاني دين السلام

امتازت الدعوة الاسلامية من بين الأديان السماوية ، بأنها دعوة الفطرة والعقل .. فهكذا كان الاسلام ورسوله الذي أرسل بالحق والهدى بشيرا ونذيرا .. فميزان صحة هذا الشرع الحنيف وقسطاسه المستقيم . هو أن جميع ما جاء به من الأحكام والقوانين . وضروب المواعظ والارشاد . ليس منها ما ينافي العقل الصحيح ، ولا تأباه النفوس السليسة . اذن فما ذكرنا أن يتأيد بما ليس من حدوده ولا أن يطابق ما ليس على شاكلته .

ولقد اتهم كثير من المبشرين والمستشرقين بأن دعوة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ما كانت تنتشر لولا السيف .. وهو قول يصحح في هذا الدين . وقائله أنه دين يفرض الجهاد ، ومنه الجهاد بالسلاح . ولكنه غلط بين الذين قالوا به أن الاسلام قد انتشر بحد السيف أو أنه يضع القتال في موضع الاتفاق .

فقد قال الكاتب « واشنجتون ايرفنج » وهو من أعاد الكذب على التاريخ فاخرت بهم الولايات المتحدة الأمريكية غيرها من الأمم في القرن التاسع عشر المسيحي . وقد كتب سيرة النبي العربي في كتب عرض فيه هذه السيرة عرضا فيه قوة بيانية تسلك قارئه في كثير من أجزاءه . وفيه الى جانب القوة انصاف أحيانا وتحامل أحيانا أخرى . وقد وضع للكاتب كتابا في تاريخ الاسلام فيها تمواعد الاسلام وما حسبته المصادر التاريخية التي استندت اليها في القواعد وفي مقدمتها الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . قال : القاعدة السادسة والأخيرة من قواعد العقيدة الاسلامية هي : « وقد أقام » محمد « اعتساده على هذه القواعد لتجريح »

كما فطن لسخف هذا الادعاء . كتب غربي كبير هو « توماس ديكر » صاحب كتاب « الأبطال وعبادة البطولة » فإنه اتخذ « محمدا » مثلا لبطولة

النبوة وقال ما معناه : ان اتهمه بالتعويل على السيف فى حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخر غير مفهوم . اذ ليس مما يجوز فى الفهم أن يشهر رجل فرد سيفه ليقتل به الناس أو يستجيبوا لدعوته . فاذا آمن به من يقدر على حرب خصومهم فقد آمنوا به طائعين مصدقين وتعرضوا للحرب من أعدائهم قبل أن يقدروا عليها ..

فهذه العبارة من كلام « ايرفنج » التى يعيرنا بثلها الغرب هى عار الغرب ووصسته وجرثومة القضاء على كبريائه ، وعلى حضارته .

يقول « ايرفنج » ان بقاء الهلال حتى اليوم فى أوروبا حيث كان يوما ما بالغا غاية القوة . انما يرجع الى اختيار الدول المسيحية الكبرى . أو يرجع بالأحرى الى تنافسها . ولعل الهلال باق ليكون دليلا جديدا على أن « من أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ » . وهى آية فى الانجيل . يوجهها ايرفنج باسم المسيحية الى الاسلام . ولعله معذور ، لأنه قال ذلك منذ قرن مضى حيث لم ير مبلغ شره وجشع الاستعمار الغربى ومن الأخذ بالسيف ما بلغ اليوم .

وقد استولى الماريشال « النبى » على « بيت المقدس » فى عام ١٩١٨ باسم الحلفاء . وقد قال مثل هذه العبارة اذ نادى عند هيكل « سليمان » : اليوم انتهت الحروب الصليبية .. كما قال الدكتور « بيترش سيث » فى كتابه عن سيرة « المسيح » : ان هذا الاستيلاء على « بيت المقدس » كان حربا صليبية ثامنة أدركت المسيحية فيها غايتها .. ولقد يكون من الحق أن هذا الاستيلاء لم ينجح بمجهود المسيحيين ، وانما نجح بسجود اليهود الذين سخرتهم ليحققوا حلم اسرائيل القديم فيجعلوا من أرض المعاد وطنا قوميا لليهود .

من أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ - لئن صدقت كلمة الانجيل هذه على قدمها لهى اللد ، تكون صدقا اليوم على أوروبا المسيحية . أما الاسلام فلم يأخذ بالسيف . ولن يؤخذ كذلك بالسيف كما سنيين ذلك بعد . وأوروبا المسيحية قد أخذت بالسيف فى هذا العصر الأخير امعانا فى الاباحية والترف . فما ينسبه « ايرفنج » للاسلام والمسلمين باطل .. وأوروبا المسيحية تقوم اليوم بالدور الذى قام به المغول والتتار حين اتشحووا ظاهرا برداء الاسلام ثم

منحوا الممالك دون أن يعبثوا بتعاليم الاسلام فيها . فحققت عليهم وعلى المسلمين الكلمة . وكان هذا التدهور والانحلال الذي أصاب الشعوب الاسلامية وأوروبا المسيحية اليوم أقل فضلا من أولئك التتار والمغول . فالممالك التي فتحتها هؤلاء سرعان ما دخلت في الاسلام حين رأت عظمتها وبساطته .

أما أوروبا فلا تغزو لتتشر عقيدة . ولا تدعو الى حضارة . انما هي تريد استعمارا وتريد أن تجعل من العقيدة المسيحية مطية هذا الاستعمار . لذلك لم تنجح الدعاية التبشيرية الأوروبية لأنها دعاية غير مخلصه . وهي لم تنجح ولن تنجح في الأمم الاسلامية خاصة لأن عظمة الاسلام وبساطته وأخذه بحكم العقل والعلم لا تجعل لأية دعاية دينية أملا في النجاح بين أبنائه .

فالاسلام دين سلام . لم يجند القوة ولم يدع للحرب . بل انه دعا للسلام دائما وأبدا .. فيقول المولى عز وجل في قرآنه : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم » (الأنفال) .

وذلك أن آيات القرآن الكريم جميعها ناطقة صراحة بأنه « لا اكره في الدين » وأن الرسول غير مكلف بشيء سوى التبليغ المبين . والتذكير بآيات الذكر الحكيم : « فذكر انما أنت مذكر » . و « لست عليه بصيطر » .

وهل كان للرسول أن يقوم في قومه مقام الجبارين فيقتلهم أو يجرحهم مجرد اعراضهم عن دينه بعد قول الله تعالى : « نحن أعلم بما يقولون » . أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد .. والواقع الثابت في تاريخ الدعوة الاسلامية . أن المسلمين كانوا هم ضحايا القسرة والتعذيب المسيل للدموع . لقد دفع الأذى من مشركي قريش في مكة . فهجروا دينهم . وابتعدوا عن أهلهم حتى بلغوا الى الحبشة في هجرتهم . فهل آمنوا على أنفسهم في مدينة غريبة قبل التجائهم الى يثرب واقامتهم في جوار أخوالهم المسلمين . بعد المسلمون قط الى القوة الا لمحاربة القوة التي تصيبهم عن الأذى . فإذا رصدت لهم الدولة القوية جنودها خارجوها لأن القوة لا تحارب بالوجه والبينة . واذا كفوا عنهم لم يتعرضوا لها بسوء .

لذلك سالموا الحبشة ولم يحاربوها ، وحاربوا الفرس لأن كسرى أرسل الى عامله في اليمن يأمره بتأديب النبي أو ضرب عنقه وارسال رأسه اليه . وحاربوا الروم لأنهم أرسلوا طلائعهم الى « تبوك » وعادت السرية بغير قتال حين وجدت في « تبوك » أن الروم لا يتأهبون للزحف على بلاد العرب ذلك العام .

لم يفتح النبي أحدا بالعداء في بلاد الدولتين . انما كتب الى الملوك والأمراء يبلغهم دعوته بالحسنى ، ولم تقع الحرب بعد هذا البلاغ بين المسلمين وجنود الفرس والروم الا بعد تحريضهم القبائل العربية في العراق والشام على غزو الحجاز واعدادهم العدة لقتال المسلمين . وقد علم المسلمون باصرارهم على اغتنام الفرصة العاجلة لمباغتتهم بالحرب من أطراف الجزيرة . ولولا اشتغال « كسرى وهرقل » بالفتن الداخلية في بلادهما لبوغت المسلمون بتلك الحرب ، قبل أن يتأهبوا لمداغمتها والتحصن دونها .

وفي الجزيرة العربية لم تقع حرب بين المسلمين وقبائلها الا أن تكون حرب دفاع أو مبادرة الى اتقاء الهجوم المبين في أرض تلك القبائل . وكانت العداوات سافرة بين المسلمين ومشركي قريش لا يكتمها المشركون . ولا يواربون فيها ولا يخفون أنهم عقدوا النية على الايقاع برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه وفض العرب من حوله وايداء كل من يدخل منهم في دينه ، فلم تكن بين المسلمين والمشركين حالة غير حالة الحرب الا في أيام سلح الحديدية . ثم عادت الحرب سجالا بين الفريقين حتى فتح مكة وانتقلت الحرب من قتال سافر بين المشركين والمسلمين الى قتال باليد والمكيدة بين هؤلاء وزمرة المنافقين . وقد حرص الاسلام على تسمية كل عدو من أعدائه باسمه لا يعدوه ولم يخلط بين حرب الشرك وحرب النفاق لأنه لا يحاسب على العداوة بالنيات كما يحاسب على العداوة بالأعمال .

أما قبائل الجزيرة العربية في غير قريش فلم يحاربهم الاسلام الا حرب دفاع أو حرب مبادرة لاتقاء الهجوم من جانبها . هذا حق السيف كما استخدمه الاسلام في أشد الأوقات حاجة اليه . حق السيف مرادف لحق الحياة . وكلنا أوجبه الاسلام فانما أوجبه لأنه مضطر

اليه والا فانه مضطر الى التخلي عن حقه فى الحياة وحقه فى حرية الدعوة والاعتقاد . فلم يكن الا درءا للعدوان والافتيات على حق الحياة وحق الحرية فالاسلام فى كلمتين هو دين السلام . وهو دين الفطرة ومجموع الكمالات القدسية والآداب الالهية وليس بذلك الذى يتذرع اليه بالقسوة والغلظة . ويروج فى العالم بالسيوف والنيران .

ومن الأوليات المسلسلة أن العقائد لا تتكون فى نفوس العقلاء بالقوة والقهر ، ولكن لها وسائل معروفة لا تلتصق الا بها . فمنها البرهان العقلى ، والخطابة والشعر والتقليد . ولكل من هذه الأنواع تأثير فى نفوس الناس بمقدار ما فيهم من العقول والتجارب والذكاء والتحصيل . وإنما اعتبرنا التقليد من وسائل اليقين ، لما نعلمه من أن من العامة من لا يكاد يمكن زحزحته عن عقيدته التى ورثها بسحس التقليد والافتداء . ولو كانت غير معقولة ، ومنافرة للعقل السليم . وأقرب دليل على ذلك ما عييه القصدى من عقيدة التثليث . وقولهم ان « عيسى » صلب ليفتدى نفسه بدمه . ويكفر عن العالم جميعه ما ورثوه كرها من سيئات آدم أبى البشر . وهكذا من العقائد غير البينة ، كذلك من عامة المسلمين من لا يسكن ان يتطرق الشك والمرية الى عقيدته على جهله . وعدم تحصيله وقصور عقله . وما هو سوى قول تلقفه ممن يثق به . أو أمة وجد عليها آباءه فاقتفى فيها آثارهم .

ما كان للعقائد أن تتكون بالأرغام والتهر . ولا للاسلام الذى هو دين البحث والنظر أن يقول بقتل من لا يدينون به ممن فصرت عقولهم عن ادراكه ، أو تزاومت عليهم الشكوك والشبهات حتى عجزوا عن مسلها ومدافعتها .

أما المشركون وأهل الكتاب فقد أرتنا السنة المطهرة والقرآن الكريم الحكيم أن الرسول قد اكتفى منهم فى حقن دمائهم واحترام حقوقهم . إذا أبوا الاسلام يدفعونها فى سبيل حياية أرواحهم وأموالهم . فليس لهم للمسلمين وما عليهم . فهم اذا ما دفعوها كان لهم ما للمسلمين من الحقوق ، وعليهم منها ما عليهم .

فدعوة المسلمين الى القتال والحرب في القرآن انما كانت لرد الاعتداء .
وليست للاعتداء فيقول الله : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا
تعندوا ان الله لا يحب المعتدين » (البقرة) .. ويقول كذلك : « ولا تقاتلوهم
عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء
الكافرين » . ويقول المولى جل وعلا : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه
بمثل ما اعتدى عليكم » .

ويقول سبحانه وتعالى : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة
واعلموا ان الله مع المتقين » (التوبة) « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون
الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » (البقرة) .
كذلك لم يجز الإسلام القسوة مطلقا ولم يدع المسلمين الى الاعتداء .
فقد تكررت الآيات التي تنهى عن الاعتداء مثل : « ولا تعتدوا ان الله
لا يحب المعتدين » (البقرة ٩٠) .. وقوله : « ادعوا ربكم تضرعا وخفية انه
لا يحب المعتدين » (الاعراف ٥٥) — و « ألقيا في جهنم كل كفار عنيد مناع
المخير معتد مريب » (سورة ق — ٢٤ ، ٢٥) .

أليس في هذا ما يدحض قول خصوم الإسلام ويظهر كذب قولهم بأن
الإسلام قد انتشر بحد السيف ، وأن القوة التي صاحبت دعوته هي التي
عسنت على نشره في العالم .. فالقول : من أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ .
حق . وهو ان انطبق على المتأخرين من المسلمين الذين غزوا ليفتحوا المسالك
وليستعسروا لا ليدفعوا عن أنفسهم وعن عقيدتهم لهو اليوم أشد انطباقا على
العرب الذي يغزو ويفتح ليدل الشعوب ويستعسرها ..

فأما المسلمون الأولون من عهد النبي وخلفائه ومن جاءوا بعدهم فلم
يغزوا للفتح والاستعمار ، وانما غزوا دفاعا عن عقيدتهم حين هددتها قريش
وحين هددتها العرب ثم حين هددتها الروم ، وهددتها الفرس . وهم في هذا
الغزو لم يفرضوا على أحد دينهم . فلا اكراه في الدين . وهم في هذا الغزو
لم يقصدوا الاستعمار مطلقا .

فقد ترك الرسول ملوك العرب وأمرائها على اماراتهم ومسالكتهم ، كي
تتحقق حرية الدعوة والعقيدة . ولما كانت العقيدة الاسلامية قوية بالحق الذي

تنادى به . قوية بأنها لا تجعل فضلا لعربي على عجمي الا بالتقوى . وبأنها لا تجعل لغير الله على الانسان سلطانا . أسرعت الى الانتشار في ربوع الأرض كلها كما تسرع كل حقيقة صادقة الى الانتشار . فلو ألقينا نظرة عامة على خريطة العالم في الوقت الحاضر لعلنا أن السيف لم يعسل في انتشار هذا الدين الا القليل مما عمله الاقناع والقدوة الحسنة ، فان البلاد التي قلت فيها حروب الاسلام هي البلاد التي يقيم فيها اليوم أكثر مسلمي العالم ، وهي بلاد أندونيسية والهند والصين ، وسواحل القارة الافريقية وما يليها من سهول الصحارى الواسعة ، فان عدد المسلمين فيها قريب من أربع مائة مليون . ولم يقع فيها من الحروب بين المسلمين وأبناء تلك البلاد الا القليل الذي لا يجدى في تحويل الآلاف عن دينهم بله الملايين . وتقارن بين هذه البلاد والبلاد التي اتجهت اليها غزوات المسلمين لأول مرة في صدر الدعوة الإسلامية : وهي بلاد العراق والشام فنجد أن عدد المسلمين فيها اليوم قلما يزيد على عشرة ملايين يعيش بينهم من اختاروا البقاء على دينهم من المسيحيين واليهود والوثنيين أو أشباه الوثنيين .

ومن المفيد في هذا الصدد أن نعتد المقارنة بين البلاد التي قدمت اليها الدولة الإسلامية والبلاد التي قامت فيها الدول المسيحية من أوروبا الغربية فلم يبق في هذه القارة أحد على دينه الأول قبل دخول المسيحية . وقد قام المسلمون قرونا في الأندلس وخرجوا منها وابتدؤاها اليوم كأنهم مسيحيون . فلما جاء المتأخرون من دخلوا في الاسلام وعزوه الى فتحهم بالسيوف أخذوا من بعد ذلك بالسيوف . لكن الاسلام لم يأخذ بالسيوف . بل أخذ بالسيوف . حقا لم يأخذ بالسيوف شيئا قط . بل استولى على العتول والقسطنطينية والضمائر بقوة سلطانه . وقد تعاقبت على أممه دول حاكمها مسيحيون وتحكمت فيها : فلم يغير ذلك من اسلامها ولا غير من ايمانها . وما تزال أوروبا الى اليوم تحكم بعض الشعوب الإسلامية التي هي فيها . ولن يغير ذلك من ايمانها بالله شيئا .

وظل النبي يدعو ويجاهد في سبيل الله متحملا الأذى ومسيرا على مساءات الكفار ثلاث عشرة سنة حتى بدأ يفسد في رد العدة .

ويقول « بودلى » فى ذلك : كان القرشيون أنفسهم سببا من الأسباب التى دفعت « محمدا » الى الالتجاء للقوة ، اذ استمر عدااء أبى جهل « لمحمد » فى درجة الغليان . فقد كان يغير على جماعات المسلمين المتحركة باستمرار ويقا تل أية جماعة منعزلة يكمن لها . وقد أغار على ضواحي المدينة ، وأتلف الزرع والحدائق ، فأظهر « لمحمد » أن شعوره لم يتبدل وأن هدفه لا يزال قتله ، فلم يكن هنالك الا حل واحد من وجهة نظر الجانبين وهو القتال ..

ويقول « جيسس متشنر » فى مقاله « اخترت الدفاع عن الاسلام » : لم يحدث فى التاريخ أن انتشر دين بهذه السرعة . فعند وفاة « محمد » سنة 632 ميلادية . كان الاسلام يحتل جانبا كبيرا من شبه الجزيرة العربية . ولم يبتعد بعد ذلك أن ضم اليها « سوريا » وبلاد الفرس ومصر والتخوم الجزائرية اروسيا وامتد الى شمال افريقيا حتى بلغ مداخل اسبانيا وفى الزمن الذى جاء بعد ذلك كان تقدم الاسلام باهرا . واعتقد الغرب أن توسع الاسلام ما كان يسكن أن يتم لو لم يعتمد المسلمون الى السيف . ولكن .. الباحثين لم يقبلوا هذا الرأى . فالقرآن صريح فى تأييده لحرية العقيدة والدليل قوى على أن الاسلام رحب بشعوب مختلفة الأديان ما دام أهلها يحسنون المعاملة ويدفعون الجزية .

وقد حرص « محمد » على تلقين المسلمين التعاون مع أهل الكتاب .. أى اليهود والنصارى . ولا شك أن حروبا قد نشبت بين المسلمين وغيرهم من النصارى واليهود فى بعض الأحيان . وكان سبب ذلك أن أهل هذه الديانات الأخرى أصروا على القتال . وفى القرآن آيات تصور العنف الذى استخدم فى هذه الحروب . ولكن الرهبان قطعوا بأن أهل الكتاب كانوا يعاملون معاملة طيبة . وكانوا أحرارا فى عبادتهم .. وما يؤكد صحة هذا القول ان الاسلام أمر بأن تكون الدعوة له بالسلم وليست بالحرب . ولم يشرع الزام الناس بالاسلام بالقوة . فمن تعاليمه الواردة فى القرآن الكريم : « من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها » . و « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا التى هى أحسن » .

ومما كتبه الأستاذ الكبير « عباس محمود العقاد » في كتابه « حقائق
 الاسلام وأباطيل خصومه » : وشمول العقيدة الاسلامية هو الذي حقق
 للاسلام ما لم يتحقق لعقيدة غيره من تحويل الأمم العريقة التي تدين بالكتب
 المقدسة الى الايمان به عن طواعية واختيار . كما آمنت به الأمم المسيحية
 والمجوسية والبرهمية في مصر وسوريا وفارس والهند والصين . ولقد عزى
 انتشار الاسلام في صدر الدعوة المحمدية الى قوة السيف . وما كان للاسلام
 يومئذ من سيف يصول به على أعدائه الأقوياء . بل كان المسلمون هم ضحايا
 السيف وطرائد الغشم والجبروت . وان عدد المسلمين اليوم من أبناء الهند
 والصين واندونيسية ، والقارة الافريقية ليلغ تسعة أعشار المسلمين في العالم
 أجمع . وما روى لنا التاريخ من أخبار الغزوات الدينية في عامة هذه الأقطار
 ما يكفي لتحويل الآلاف المعدودة . فضلا عن مئات الملايين ، من ديار ال
 دين .. ذلك روح الاسلام في العلاقة بين المسلم وسائر بني الانسان التي
 عنها كل آية وردت في القرآن الكريم عن حكمة الاجتماع من أكبر الجسود
 الى أصغرها ومن جماعة النوع الانساني في جبلته الى جمعة الأفراد
 وطبيعة الاجتماع في كل مخلوق انساني منذ تكوينه في أصناف الحيوان
 وأجداده . فما هي حكمة الاجتماع في الشعوب والقبائل ؟ وما هي حكمة
 الاجتماع في بيان الأسرة ؟ وما هي حكمة الاجتماع في خلق الانسان في
 بطن أمه ؟.. حكمتها كلها فيما يتعلق المسلم من كتابه آية وشيئة من وسائل
 المودة والرحمة . وسبيل الى التعرف والتعارف بين القبائل والقبائل هذه
 حكمة التعدد والتكاثر بين الشعوب والقبائل من أبناء آدم وحجراته
 « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لكي
 (الحجرات) والمودة والرحمة هي حكمة الاجتماع في الأسرة والقبيلة
 أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها ولتذكرن ما بينكم وبينهن
 والنسب هو حكمة الاجتماع من خلق الانسان في الأسرة والقبيلة
 أبيه : « وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهبا ليؤمنوا
 والمؤمنون اخوة . والناس اخوان من ذكر وأنثى ولتقربوا الى الله
 من ذائلهم أنها تلتقى بينهم العداوة والبغضاء في الله ولتقربوا الى الله
 بينكم العداوة والبغضاء في الخير والميسر » (المائدة)

والعداوة والبغضاء هما الجزاء الذي يصيب الله به من ينسون آياته
ويكفرون بنعمته وهما الجزاء الذي أصاب الله به أهل الكتاب بعد ما جاءهم
من البينات فضلوا عن سوائه . ولم يبق لهم من دينهم غير اسم يدعوونه :
« ومن الذين قالوا انا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به
فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة » (المائدة) .. مما سبق نجد
أن المودة والرحمة كلسة الله في خلقه . وان العداوة والبغضاء عقاب لمن
يضلون عن حكته ومغبة السوء التي تستدرجهم اليها الرذيلة والمعصية .
ومن آمن بالله على هدى هذا الدين فقد آمن بالله يرضيه من عباده أن يسلكوا
سبيل المودة والسلام ويسخطه منهم أن يسلكوا سبيل العداوة والعدوان ..
فأما الذين يأخذون المسلمين اليوم بالسيف فمصيرهم ، كى تصدق
عليهم كلسة الانجيل ، أن يؤخذوا بالسيف جزاء وفاقا .

ومما يشهد لحب الاسلام ونبهه في السلام أن أمره عليه السلام اليومى
الأول الذى أصدره عندما اضطر الى الحرب كان : لا تقتلوا امرأة . ولا
وليدا . ولا شيخا . ولا تقطعوا شجرة ، ولا تحرقوا نخلا ولا تسثلوا بأحد
ولا تكونوا ناهيين . واجتنبوا الوجوه لا تضربوها .

ولقد كتب المستشرق الانجليزى « ستيفن رانسيمان » : فى الحركات
الكبيرة التى غيرت وجه التاريخ : لم يحدث أن أحرزت واحدة منها على
اختلاف دوافعها من النجاح السريع المدهش ، ما أحرزه الاسلام ، ولمعرفته
أسباب هذا النجاح . والعوامل التى ساعدت على انتصار الاسلام « وسرعة
انتشاره » .. لا بد من الامام ولو سريعا بتاريخ حياة « محمد » عليه السلام
الذى دعا الى هذا الدين فقد يكون فى هذا جلاء بعض الأمور التى تهدينا
انى ، نحن فى حاجة الى معرفته ..

ولد النبى « محمد » - صلى الله عليه وسلم - بعد ميلاد « المسيح »
عليه السلام بحوالى ٥٧٠ عاما فى الوقت الذى أخذت الوثنية فى الانتشار ،
وبدأت أفكار بعض المسيحيين تتبلبل فى ذلك الوقت أخذت فكرة القوم
الذين يسون الأحناف تظهر وتنتشر بين العرب . كما ظهر الشعراء العرب
الذين دعوا الى الوحدانية « كأمية بن أبى الصلت » و « زهير بن أبى
سلى » وغيرها .

كان كل هذا داعيا عقلاء العرب الى التفكير في أمر هذه الآلهة المتعددة وخاصة في تلك المدينة التي تتاخم العالم المتسدين والتي تستوعب سكانها مستازة بين مدن شبه الجزيرة العربية . لأن فيها ذلك البيت المقدس الذي كانت تنجيه اليه أنظار كثير من الناس في جميع أنحاء الجزيرة . بل وفي بعض الجهات المحيطة بها .

وقد كان مولده في أسرة من أسر هذه المدينة ، ذات مكانة مرموقة وشأن معروف ، اذ كان منها المشرفون على الكعبة والقائسون بالعدل فيها .. فلما بلغ سن الأربعين من عمره اختاره ربه ليشر الناس بدينه الجديد ويدعوهم الى التعاليم الساوية التي كادت أن تنسى بين الناس . وكان أول من وجه اليهم الدعوة . هم قومه وعشيرته . وكل دعوة جديدة لقي « محمد » عليه السلام من قومه صلابة وعنادا . ومكرا واستكبارا . ولكنه تاب على دعوته متحسلا أذاهم حتى انضم اليه بعض شراف قومه وكثير من المستضعفين الذين زادوا في مسئوليته .

ولما اشتد عليه وعلى من اتبعه الايذاء أمره ربه بالهجرة في حوالي سنة ٦٢٢ ميلادية فهاجر من مكة الى المدينة بعد أن ضمن له نصرا ينصرونه . تلك الهجرة التي يؤرخ بها المسلمون تاريخهم .

هناك استجاب القوم لدعوته والتفوا حوله وأعانوه على نشر دينه سواء من قدم من مكة مهاجرا أو من هو من أهل المدينة . وبهؤلاء وأولئك استطاع التغلب على جميع من ناهضوه في الجزيرة العربية . ومسر الزعيم الأكبر بلاد العربية النافذ الكلمة المطاع الأمر .

ولما حضرته الوفاة بعد الهجرة بعشر سنوات كانت جيوشه قد حشدت أهبتها لتجتاز حدود الجزيرة العربية الى ما جاورها من البلدان والمدائن . ولم تتوقف هذه الجيوش الا باستقار موت نبيها ونفوس الأعداء . وقد يدهش الانسان للسرعة التي تم بها تفويض الجيوش من بلاد الشام واليمن الذين كان ينسب بينهم القتال لأتفه الأسباب .

ولم تضي سنوات تزيد على عدد أسابيع اليد الواحدة حتى سقطت الشام والعراق في أيدي المسلمين .

وفي سنة ٦٥٠ م استولوا على مصر . وأخذت الدولتان الكبيرتان اللتان كانتا تحيطان بالجزيرة العربية تنكشان سريعا . وقبل أن تأتي سنة ٧٠٠ م كانت الامبراطورية الاسلامية تمتد من المحيط الأطلسي غربا حتى نهر السند شرقا . ولم يكتف المسلمون بذلك بل واصلوا زحفهم سنين طويلة حتى وقت جيوشهم على أسوار القسطنطينية .

وقد عرف المسلمون كيف ينشرون دينهم الى أن وصل الى بلاد التركستان وأندونيسيا شرقا ، واقتحموا مجاهل أفريقيا ، تلك البلاد التي كانت لا تزال سرا غامضا يخشى الاقتراب منها الكثيرون . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل انهم وصلوا الى قلب أوروبا نفسها .

والمؤرخون الذين أرخوا للشرق يقولون ان للتاريخ الشرقي خاصية جعلنا نعجز عن تحديد الدوافع والنتائج التي ترتبت عليها . والشرق مهد الديانات ومهبط الرسل ، وفيه ظهرت المعجزات . « فعيى » عليه السلام ودياته ومعجزاته ، وموسى وداود وغير هؤلاء كثير من الذين ضسهم الشرق وكان له شرف الحظوة بهم .

وقد لقي هؤلاء جميعا فى سبيل نشر دعوتهم ما لا يقل عما قاساه « محمد » عليه السلام فى سبيل نشر دعوته . لقي هؤلاء من قومهم ومن غير قومهم العنت الشديد . كما لقي « محمد » عليه السلام ولكن دعوات هؤلاء الرسل كانت تزحف ببطء شديد . بل ان بعضها كاد أن يتوقف بموت نبيها بعكس ما حدث فى دعوة « محمد » فقد تم انتشارها على نحو عجيب فيه شىء كثير من خصائص المعجزة مما يجعلنا نقول مع المسلمين ان الله يريد حقا أن ينصر عباده المخلصين وأن يتوج أعمالهم بالنجاح .

وقد كان لشخصية « محمد » عليه السلام أكبر الأثر فى سرعة انتشار الاسلام اذ كان يعرف كيف يعرض دعوته على الناس . فيستجيبوا لها . ومن لم يستجب لها كان يعترف « لمحمد » بالعبقرية وقوة الشخصية .

« محمد » عليه السلام من أولئك العباقرة الموهوبين القلائل الذين ظهروا دون أن يخضعوا لقانون على أو قاعدة معروفة ، مما كان متعارفا عليه بين بنى عصره . فهو صاحب عبقرية فريدة من نوعها (ومع أنه كان يحس

بعبريته الا أنه لم يكن مغرورا ككثيرين غيره من العباقرة الذين لم يبلغوا ما بلغ) . وبالرغم من وثوقه بنفسه وبإخلاصه البالغ وعقيدته الراسخة ، كان يتحلى بكثير من الصفات التي تحلى بها الأنبياء السابقون وحاول التحلى بها بعض الساسة الحاكمين .

ولم يترك « محمد » عليه السلام الحياة الا بعد أن ترك لأتباعه قانونا وحكومة . يرى الباحث فيهما الى أى مدى كانا يستجيبان لمطالب القوم ويتمشيان مع ضرورات حياتهم ويدفعانهم الى العمل على نشر الاسلام والدفاع عنه .

وفى مقدور الباحث المنصف ان يقول : ان « محمدا » عليه السلام كان من المعلمين الأفذاذ الذين عرفوا أطباع تلاميذهم . ثم تتنوعهم الدروس التي لم تكن فى يوم أسسى من تفكيرهم ولا أعلى من اندراكهم أو كبير من عقولهم ، ولكنها خلقت منهم قادة مستأزرين لأنها تدرجت معهم تدرجا ممتثلين . واذا قلنا ان صفات « محمد » الشخصية النادرة هي التي استطاعت ان تحرز له هذا النصر المؤزر فى شبه الجزيرة العربية . فكيف يمكن ان تكون أسباب الغزو اليسير اللين الذى قام به خلفاؤه من بعدهم استطاعوا ان يتلكوا نصف العالم المتسدين وان ينتصروا بجيوشهم الضليلة على الجيوش الكثيرة العدد والعتاد . والتي يقودها أناس شهد لهم التاريخ بالقدرة العسكرية والشجاعة .

كل ما كان يعرفه النبي « محمد » عن البلاد التي تقع خارج جزيرة العرب والتي تحيط بها جاءه عن أحد طريقين :

اما مشاهداته الشخصية يوم أن سافر مع عنه أول مرة . وزيارته كمر يشتغل بالتجارة بين الحجاز والشام كغيره من العرب .

واما عن طريق المعلومات التي كان ينقلها اللاجئون من الحبشة واليهود الذين فروا بديانتهم من الاضطهادات المتعددة .

بلاد العرب فاذا كان « محمد » عليه السلام قد اقتصر «سحق» ما جاءه من أخبار داخل بلاد العرب وخارجها . لأنه أدرك بعصره النافذ رغبت هؤلاء الناس فان هذا يعتبر عملا لا مثيل له .

وإذا كانت هذه الناحية تحتاج الى دراسة فان هناك نواح كثيرة فى حياة النبي محمد « صلى الله عليه وسلم » تحتاج الى مثل هذه الدراسة .

فنحن فى حاجة الى أن ندرس كيف استطاع ان يث هذا الاخلاص النادر وهذه الحساسة المتدفقة فى نفوس اتباعه الذين أصبحوا نماذج لهذه الصفات والمواهب النادرة التى تجلت فى الزعماء المسلمين الذين اصطنعهم « محمد » عليه السلام على عينه أمثال الخليفة « عمر بن الخطاب » . والقائد « خالد بن الوليد » و « عمرو بن العاص » . وكثيرين غيرهم ممن ملأت سيرتهم سسع الدنيا وخلدهم التاريخ .

والحق ان هذا الحساس المتدفق وهذه السياسة الفريدة التى أذهلت الناس لم يكن يقدر لهما النجاح فى نصف العالم المتسدين لو لم يكن العالم مستعدا لقبولها . ولو لم تكن تحل فى جوهرها زادا ضيا صالحا من الحق والخير .

ومما قاله ذلك المستشرق عن امبراطورية الروم قبل الاسلام :

كانت هناك محاولات فى فن السياسة فى عصور ما قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام . وكان أكبر هذه المحاولات وأعظمها محاولة الامبراطورية الرومانية . ولكنها كانت محاولة فجأة وتجربة ناقصة يعوزها الاحكام والسلامة . من ذلك أنها ضمت مجموعة من الأقاليم المتباينة الثقافة ذات الأحوال الاجتماعية والاقتصادية المختلفة من منطقة الى منطقة أخرى .

فالأقاليم الشرقية كسعر والشام مثلا لم تخضع كل الخضوع . بل كانت سلطة الرومان عليها سلطة سطحية . ومثل هذا يصدق على المدن الكبيرة التى سبق أن بناها المقدونيون . كالاكندرية وانطاكيا . فانها كانت تسير فى حياتها على النهج الاغريقى . . وفوق ذلك فان البلاد الداخلية كانت تحيا حياة بعيدة كل البعد عن حياة الحكام ، تعتمد على الأوضاع القديمة . وتتكلم غير لغات الرومان والاغريق . ومن وقت لآخر كانت تظهر الروح القومية الكامنة فى النفوس . وليس أدل على ذلك من الثورات والحروب التى قام بها اليهود من الحياة المستقلة التى كانت تحياها الملكة « زنوبيا » .

من كل هذا يمكننا أن نقول ان الحكم الروماني كان مفروضا على هذه البلاد فوق طبقه سطحية من الاغريقية ولكنه كان حكما وفر لها قوة حربية كبيرة استطاعت بها ان تحمي حدودها كما وفر لها قانونا يدعو الى الاعجاب .

وبرغم ما بذل من مجهود فان الادارة الاقليمية كانت غير قادرة على اخضاع الأهالي لارادتها في كثير من الأحيان . وكان الفساد ينتشر فيها انتشارا كبيرا كما كانت الحياة نفسها شاقة وعسيرة . الا على ذوى الثروات العظيمة من السراة والأغنياء .

ولم تدرك روما ان اصلاح الأحوال الاقتصادية في البلاد التابعة لها من مصلحة الدولة الحاكمة . لذلك لم تهتم باصلاح شىء من أحوال هذه البلاد بل كانت تنظر الى هذه البلاد على أنها بقرة حلبوب يجب عليها أن تدفع أكبر قدر مستطاع من الضرائب الى حاشية الامبراطور . والامبراطور نفسه الذي لم تكن هذه البلاد قد رأته قط . وان تنفق على جيش طويل عريض لا فائدة تعود عليها من تقويته واعداده . وعلى مر الزمن ازدادت الحالة الاقتصادية سوءا .

ولما كانت مصر والشام اقليمين غنيين بخيراتها فقد تحسلا قدرا كبيرا من الضرائب وقاسيا كثيرا من حياتها .

وكان لسقوط الامبراطورية الغربية في ايدي الرعاع اثر كبير في ضياع الأسواق التجارية من أيدي تجارها وصناعها أما « التسطنطينية » العاصمة الجديدة فقد اجتذبت كثيرا من تجار الشرق الأقصى .

وقد أضرت الحروب الطويلة بين الفرس والرومان التي استمرت طوال القرن السادس بتجار الشرق الأوسط . كذلك كانت المحاولة التي قام بها الامبراطور « جستنيان » لاعادة غزو الغرب . محاولة عقيمة سببت له خسائر فادحة وكلفته ثنا غاليا . وقد شعر كل من الشعبين الشامى والمصرى انهم ينفق أموالا كثيرة من ايراداته الضئيلة ليؤيد حكما يسلون به على بلادهم يهتسون الا باشباع رغباتهم . وغير ذلك من المتاعب التي لحسوا بها في هذه الآونة ، ان من العسير علينا ادراك مدى شعور الرجل والمرأة نحو الدين في ذلك الوقت .

وقد كان الشرق الأوسط دائما مهذا للدين ومهبطا لوحى السماء ومسرحا كبيرا لظهور الديانات السماوية . كما كان الاغريق أساتذة الفلسفة .

ولما عرف ذلك ملوك الاغريق وأباطرة الرومان عمدوا الى القضاء على التعصب الاقليمي . بادماج الآلهة المحليين فى مجموع الآلهة الاغريقية الرومانية . كما حاولوا ان يخلقوا جوا من الاتحاد الروحي ونصبوا أنفسهم آلهة وعسلوا على ارغام الشعب على عبادتها . ولكن كل هذه المحاولات كان نصيبها الفشل والخسران . بل ان كثيرا من الأباطرة قد لقوا حتفهم بصورة لا تلائم موت الآلهة على الاطلاق . ان كانت الآلهة تموت . وبالرغم من كل المحاولات الكثيرة المختلفة الأساليب فان الناس أعرضوا عن هذا الابتكار وسخروا من هذا الاختراع فى مجال الدين . وبطبيعة الحال ماتت الآلهة المختلفة واضطر الناس ان يبحثوا لهم عن دين جديد .

٤

ظهور المسيحية

فى هذا الوقت ظهر السيد المسيح يدعو الى دين جديد فهو الدين المسبحى الذى ظهر فائزا منتصرا . غير ان فوزه وانتصاره قد تمتع بصعوبة شديدة وببطء كبير . فقد لقي المسيح واتباعه كثيرا من العذاب والاضطهاد من أباطرة الروم وحكامهم على الخصوص مدة لا تقل عن ثلاثة قرون حتى فيها المسيحيون ألوانا مختلفة من العذاب حتى اضطروا ان يتركوا المدن والصحارى فرارا من وجه هؤلاء الأباطرة العتاة الذين كانوا يريدون ان يعدوا فى الأرض التى يحكونها غيرهم . حتى ظهر الامبراطور قسطنطين الذى اعتنق الديانة المسيحية بعد انقضاء ثلاثة قرون على موت السيد المسيح .

وباعتناق الامبراطور قسطنطين المسيحية انتشرت تعاليم الكنيسة فى الدولة الرومانية جميعها . بل وفى خارجها . غير ان السلطات الحاكمة كانت تنقتها وتحاربها وتطارده معتقيا أنها حلوا وأینسا سرورا . مما أدى الى عدم وجود نظام فى اتباع شعائر الدين . وعدم الوحدة فى التعاليم والتعاليم التى جاء بها الدين المسيحي .

ونظرا لأن الدين الجديد لم يكن قد وضع له تعريف محدود المعالم فقد ظهر بعض الأفراد المنحرفين فى كثير من المناطق المتعددة . ولما لم نستطيع ان نعتهم بالاحاد .

وظلت الدولة تناهض اتباع الدين الجديد . حتى ان بعض الحكام الحاكمة واتخذته دينا لولا ان هذا الدين الجديد كان قد انتشر فى الدولة . فلابد من وجود وحدة فى الدين . والى ان هذا الدين انتشر فى كثير من الناس سلسلا متتابعة من الامم والديارات . فتمتع تعريف الدين وقد بلغت هذه الامم والديارات التى كانت تتوالى حيث قام التسامح بين جميع هذه الامم والديارات .

المطلوب .

ولكن كل هذه المحاولات باءت بالاخفاق أيضا . لأن عددا من الأقاليم التابعة للدولة كانت لا تزال تحتفظ بشاعرها الدينية الخاصة من ناحية . ومن ناحية أخرى كان بعضها الآخر ينكر على الحكومة المركزية أعمالها وتصرفاتها . وقد وجد هذا الفريق في الهرطقة والالحاد فرصة يعبر بها عن كراهيته وسخطه . وانتشرت في ذلك الوقت المنازعات المذهبية التي كانت بمثابة شعار للفرقة وللقومية .

وقد قامت هذه المنازعات حول ضيعة السيد المسيح فجماعة يغلبون الجانب البشري على الجانب الالهي في ذاته عليه السلام . وجماعة أخرى يغلبون الجانب الالهي على الجانب البشري وجماعة ثالثة يقولون بالطبيعتين . وهذا هو المذهب الرسمي للحكومة .

وما اقترب القرن الخامس من نهايته حتى قام أهل الشام وأهل مصر يحاولون أن يزيحوا عن كاهلهم سلطة الامبراطور الروماني وخاصة سلطته المدنية .

أما الناحية الدينية فقد كانوا يتبعون فيها مذهبين رأيا فيها تبسيطا لآراء الشعائر وهما المذهب القائل بأن للسبح طبيعتين ومشيتين ، وأتباعه قليلون . أما الأغلبية فقد كانوا يتبعون المذهب القائل بأن للسبح مشيئة واحدة وضيعة واحدة وهي تغليب الجانب الالهي على الجانب البشري . ومن قديم الزمن كان الساميون يحبون ان يكون دينهم على الدوام طابعه الجد والحزم ولكن في هوادة ولين .

ومنذ فجر التاريخ كانت صحراء العرب ترسل نورها الساطع الى البقاع المجاورة لها وخاصة أراضي (الهلال الخصيب) . وقد تأثر أهل مصر والشام مما ترسله لهم هذه الصحراء فأصبحوا من غلاة الساميين وخاصة أهل الشام المتأخمين لها . كما استطاعت صحراء العرب هذه أن تحصل تلك الأقاليم التي تحف بها على تعلقها العريية الآرامية منذ قرون بعيدة قبل الميلاد أو ادراك سهولتها على الأثلي .

وقد اندفع كثير من سكان الجزء الجنوبي من جزيرة العرب . الى الشمال بسبب الجذب الذي كان يصيب هذا الجزء . وقد حدث هذا قبل

ظهور « محمد » بزمن غير بعيد . ولذلك نرى كثيرا من رجال قبائل بني غسان الذين استوطنوا المناطق الملاصقة لحدود الامبراطورية الرومانية في بلاد الشام . قد اعتنقوا الديانة المسيحية . وهذا من أوضح الأدلة على أن هؤلاء العرب (دينيون بطبعهم لا يستطيعون ان يحياوا بغير عقيدة) .

ولقد كان لنشاط حركة التجارة وزيادتها أثر في اندماج السكان واتصالهم بعضهم ببعض . فالتجار العرب الذين يخرجون من حضرموت ليذهبوا الى فلسطين أو دمشق . يرون غالبا بسكة حيث الكعبة التي يقدسها العرب . وكذلك تجار المسيحيين واليهود الذين قدموا الى الجزيرة العربية واستقروا في الجزء الجنوبي من اليمن . عرفوا الكثير عن مكة وبيتها الحرام عند مرورهم بها .

وعلى ذلك نستطيع أن نقول : انه لم يكن هناك فاصل يميز بين سكان البدو وسكان الحضرة في الجنس والثقافة .

وكتب المستشرق الانجليزي « ستيفن رانسمان » عن عوامل اسلامية مهدت للفتح : نستطيع أن نقول ان السهولة التي لاقاها المسلمون في استيلائهم على هذه المناطق ترجع الى الضعف الذي انتاب الامبراطوريتين الرومانية والفارسية والى عدالة المسلمين في حكمهم . وكبير دليل على ذلك أن البلاد التي فتحوها لم يحاول أهلها أن يرحزحوهي عنها . وما ذلك إلا لأنهم وجدوا حكمهم أفضل من حكم من سبقهم . فعندما سعى المصريون عما يفعله المسلمون في بلاد الشام . ابدوا كامل استعدادهم لقبول ما يجري هناك . وتمنوا ان يعجل المسلمون بهاجبة مصر ليخلصوهم من الظلم الذي يرزحون تحت ثقله .

وكان أول شيء أحس به أهل البلاد التي فتحها المسلمون . هو الخفيف الضرائب عن كاهلهم وتنظيم ما يجمع منها . كما شعر الذين فتحوا الجزيرة الجزية لأنهم لم يدخلوا في الاسلام . بأنهم أحسن حالا من قبل . فالحكومات الإقليمية تقع تحت مراقبة الخليفة الذي لا يفتش في أموالهم كما أنهم رأوا ان ما يجمع منهم من أموال إنما يصرف فيما يعود عليهم والنفع والفائدة وخاصة عندما أصبحت دمشق مركز الخلافة .

ومما حجب الفاتحين المسلمين الى قلوب أهل هذه البلاد . التسامح
الذي منحوه الفوارق بين الطبقات والقضاء على الامتيازات . فقد كان
الإمبراطور الروماني يريد من المسيحيين جميعا الدخول في غمار كنيسة
والأ اعتبروا خارجين على طاعته . ولكن المسلمين لم يحاولوا ان يجبروا أحدا
على الدخول في دينهم كما لم يميزوا كنيسة على أخرى .

ولم يفارق الدنيا صاحب هذا النور صلوات الله عليه في أول السنة
الحادية عشرة من الهجرة إلا بعد أن كان قد فتح لنوره طريقا الى خارج جزيرة
العرب . ليبدد ما حولها من الظلمات وليكف بأس القوى الشريرة التي تأمرت
عليه في العنيفة (دولتي الفرس والروم) . ذلك أنه في السنة التاسعة من
الهجرة قاد بنفسه جيش المسلمين الى « تبوك » مسارعة الى صد الحملة التي
كان الروم قد تأهبوا لها في الشام . فكانت الهزيمة الأدبية التي لحقت بجيش
الروم يومئذ حيث لم يجروا أن يتقدموا لملاقاة جيش المسلمين هناك .
كانت هذه الهزيمة الأدبية ارهاصا قريبا لهزيمة الدولتين عسكريا وسقوطهما
نهایتا . في عهد خلفائه الراشدين .

ثم تتابعت هزيمة الظلام . وتدفق نور الاسلام على الأرض شرقا وغربا .
فكان ما فتحه المسلمون في قرن واحد (٦٣٢ - ٧٣٢) أعظم وأضخم مما
فتحه الدولة الرومانية في سبعة قرون كاملة .

غمرت الموجة الأولى من الفتح الاسلامي بلاد العجم والعراق والشام .
ثم مصر وتونس . ثم الجزائر ومراكش وصقلية واسبانيا . ثم تجاوزت جيوش
المسلمين جبال البرانس وأوغلت في فرنسا حتى اقتربت من باريس . ولو شاء
ربك لأأسمت أوروبا كلها . بل لو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا .
ولكن حسب حكيمته العليا الا يزال الناس مختلفين « وما كثر الناس ولو
حرصت بشؤونهم .

وهكذا واصلت الفتوح في هذا الجانب من العالم منذ سنة ٧٣٢ م وعادت
تتقدم في فرنسا لتستقر في اسبانيا . وليؤسس المسلمون فيها مملكة عظيمة
ظل حكمهم فيها قائما ثمانية قرون . ثم يشهد التاريخ فترة مثابها حضارة

وازدهارا ، على أنهم ان كانوا اليوم قد فارقوها ملكا وحكما ، فانهم لم يفارقوها أثرا ورسما .

ولم تكد موجة الفتح تنحسر هذا الانحسار اليسير فى الجانب الغربى حتى بدأت موجة أقوى منها فى الجانب الشرقى . امتد بها الفتح الاسلامى مشرقا الى « بلوخستان » و « الهند والصين » . بل تجاوز القارة الى « الجزائر الأندونيسية » . كما أنه انعطف غربا فدخل أوروبا من جنوبها الشرقى متجها نحو الغرب والشمال الغربى الى النمسا والى قرب بحر البلطيق .

هذه الفتوح كلها يعترف المنصفون من المؤرخين الغربيين بأن الأساس الأول والأعظم فيها لم يكن هو الحرب . فهم يقولون بصريح العبارة : ان المعارك الاسلامية الكبيرة كانت نادرة جدا . وان أكثر ما تم من الفتح الاسلامى انما كان بفضل التجارة . والدعوة السلمية . والاقناع الحكيم . والقدوة الحسنة . وفى الحق لو كان دخول هذه الأمم فى حظيرة الاسلام تحت سلطان السيف لخرجوا منها منذ دخلت السيوف فى أعينها . ومنذ غفل عن أسلحتهم وأمتعتهم .. فانعكست آية القوة المادية . وأصبحت فى يد غيرهم . ولكن الاسلام . كما قال هرقل (عاقل الروم فى عصر النبوة) شى خالط بشاشته القلوب لا يرتد أحد عنه ساخطا له . أو كتب فى نفس المؤرخين فى العصور الحديثة : انه لا تعرف حادثة واحدة ارتد فيها مسلم من دينه ردة حقيقة . بعد أن دخل فى الاسلام دخولاً حقيقيا . بينما حدثت الخروج من الأديان الأخرى الى الاسلام أكثر من أن تحصى

تقول : ان فى سرعة انتشار الاسلام هكذا فى عالم يبلغ مساحته البشرية على الأقل . وبين الأمم المختلفة فى تسميتها وتاريخها وبيئتها أرضها وطبيعة جوها وسلوب حياتها .. وان فى تباينها فى مستوى الرغم من كل عوامل التدمير التى سلطت ولما سلطت على كل من أرضه وفى خارجها وان فى تباينه لزيادة الانحسار الذى أصابها من الحواجز الصناعية من طريقته .. وان فى تباينها فى كل ما يربطها عليها دون مسراع ولا خداع . ان فى ذلك كله لربما يكون من أهم

ان الاسلام خلق للصحراء .. وللأمم التي تجاوزت طور الطفولة البشرية ان في ذلك كله لآية بينة على مبلغ ما في طبيعة الاسلام من اشباع لحاجات العقول والقلوب . وتوفية لمطالب الأفراد والجماعات . ومجاوبة للفتنة الانسانية العميقة التي لا تختلف باختلاف الأقطار والعصور . ولا باختلاف المظاهر وأساليب الحياة . بل ان في ذلك كله لآية على ان الذي فطر الانسان هو الذي شرع له هذا الدين ، وفصله على مقياس طبيعته ، وان ذلك هو السر الأول في بقائه وخلوده : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » ، « ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون » .

ولقد اتسم الاسلام في غضون تاريخه بستين آخرين . وكان لهما أكبر العون على استمراره واستقراره . ظاهرتان . من أهم مقومات الحضارة الحقيقية ، لم يسع المحققون من علماء أوروبا الا الاعتراف بهما ، والتنويه بشأنهما . ظاهرة داخلية بين معتقيه . وظاهرة خارجية . تجاه المخالفين له .

فأما الظاهرة التي أسبغها على أتباعه فيما بينهم . فتلك هي ظاهرة الأخوة الروحية التي جعل منها ظاهرة اجتماعية . تسمو على كل الفوارق العنصرية . وتمحو كل الحواجز الاقليمية، وان اختلفت ادارتها ورياستها العليا . فلقد أتى على الاسلام حين من الدهر في مدى القرنين الرابع والخامس من الهجرة (العاشر والحادي عشر الميلادي) كان يتولى الخلافة فيها ثلاثة خلفاء في وقت واحد . خليفة عباسي في العراق . وخليفة أموي في الأندلس . وخليفة فاطمي في مصر . ومع ذلك كان المسلم الذي يتنقل في سفره من أقصى المشرق الى أقصى المغرب . في امتداد يقطعه الراكب في عشرة أشهر على الأقل لا يجد حيشا حل الا أخوة في عقيدته . أخوة في عبادته . أخوة في شريعته . نظراء له في أخلاقه وعوائده .

وكما يقول المؤرخ الألماني « متر » في كتابه « نهضة الاسلام » Die Renaissance Islam كان المسلم يشعر أنه حيشا حل فهو في قلب وطنه . وأما الظاهرة الخارجية : فهي ظاهرة التسامح بازاء الأديان

الأخرى لا بازاء اليهودية والنصرانية فحسب . بل بازاء المجوسية . التي عاملها الاسلام معاملة الأديان السماوية .

ولم يقتصر الأمر في هذا التسامح على أنه ترك أصحاب هذه الديانات المختلفة يستعوزون بحرية عقائدهم وعباداتهم ولغاتهم . بل ان الخلفاء خولوا لكل رئيس دين ان يقضى في شئون طائفته الخاصة التي لا تضطده ومصالح الدولة . أضف الى هذا ان عددا كبيرا منهم كان أداة فعالة في جهاز موظفي الدولة . حتى ان منصب وزارة الحربية اسند الى المسيحيين مرتين . أثناء القرن الثالث الهجرى .

ولقد حاول المؤرخ الألماني « كريسر » في كتابه « حضرة الشرق » Kulturgeschichte des Orients Unter den Chalifen . في عهد « الخلفاء » . ان يحلل طبيعة هذا التسامح الاسلامي . ويتعرف أسبابه فانه يرى فاعلا أن تكون له بواعث سياسية . وان يكون هدفه في نظر أولى المسلمين هو تسكين قلوب الرعايا غير المسلمين حتى لا يشعروا على الحكم .

قال المؤرخ « كريسر » : كلاً . فان هذه القضية لم تكن محسنة بالكلية والرؤساء وحدهم . بل كانت سارية في الشعب عامة ثم لم يبق الا عصر المسلمين القدامى فحسب . بل شملت سائر العصور .

وينتهي المؤرخ من تحليله الى هذه النتيجة . وهي ان المسلم يقتصر فصلاً تاماً بين العقيدة التي يحترم حرمتها عند الآخرين . وبين المصالح الدنيوية التي تعتد الكفاية والأمانة والتي لا تميز بين دين ودين في سبيل التعاون .

ولن يفوتنا ان نعد من بين هؤلاء المؤرخين المنصفين الأستاذ الفرنسي « جوتيه » فقد خصص في كتابه « أخلاق المسلمين وعقائدهم » فقرات طويلة قارن فيها مقارنة رائعة بين هذا التسامح الديني خاصة والشرقيين عامة . وبين ما عند المسيحيين الغربيين من التسامح في توارثوها خلفاً عن سلف . وعلى سبيل التمثيل لهذه الحمية الجاهلية يشير المؤلف الى ما حدث في جنوب فرنسا على يد البارون « سيمون دي

موتفور « الذي توجه باذن البابا على رأس ليف من البارونات الفرنسيين .
ومعهم فرقة من الرهبان الى مقاطعة « لانج دوك » لاستئصال الديانة
المجوسية منها . فاغرقوا الاقليم كله في أنهار من الدم والنار . حتى أهلكوا
من كان فيه من المجوس .. ويستطرد المؤلف فيقول : ان هذا العنف لم يؤد
الى نتيجة حاسمة من وجهة نظر الكنيسة . فقد نبتت هذه الفرقة المارقة مرة
أخرى في بوهيسيا فحوربت وهزمت ثم نبتت مرة ثالثة في شمال ألمانيا باسم
« الاصلاح الدينى » La Reforment وقد حوربت في هذه المرة أيضا
بأساليب أشد عنفا . ودامت المعارك من أجلها ثلاثين عاما . ولكنها لم تفلح
فى اخضاعها .. فلما استفذت الحروب جهود الطرفين . ووضعت الحرب
أوزارها لم تطع أنفسهم قبول فكرة التسامح الدينى فيما بينهم ، بل فضلوا
ان تقسم المسيحية قسمين متناكرين . ليس بينهما تعايش سلمى فى دولة
واحدة . بل لكل دولة دينها بحيث لا يعيش فى كل أمة الا مذهب واحد ..
يقول المؤلف :

فأين هذا مما نشاهده فى داخل بلاد الاسلام قديما وحديثا حيث
يحتضن الاسلام دائما بين جناحيه من المحيط الهادى الى المحيط الأطلسى
طوائف من غير المسلمين يهود ونصارى ومجوسا ، وطوائف من المسلمين
المبتدعين . شيعة وخوارج وأباضية .
ولم يفكر العرب ولا المسلمون يوما ما حتى فى أشد أوقات حميتهم
الدينية . ان يظفوا بالدم دينا منافسا لدينهم . بل لم يفكر الخليفة يوما فى
ان يضطهد مسيحيا يعقوبيا أو مجوسيا ما نوبا .. انه مهما تكن الأسباب
والبواعث على هذا التسامح الدينى عند المسلمين . فانها فضيلة تستحق كل
اعجاب وتقدير .. وانه لمن الخطأ فى القياس ان تقارن بين هذه الفضيلة عندهم
وبين ما نسميه أحيانا بالتسامح الدينى عندنا .
فان هذا التسامح المزعوم ليس له أدنى قيمة خلقية ، بل ليس له وجود
حقيقى لأنه يقوم على أساس التحلل الدينى وعدم المبالاة لشئون العقيدة .
فلكى تقبل وجود ديانة أخرى فى بلادنا يجب ان تكون دياتنا قد ماتت من
قبل فى نفوسنا . أما المسلم فانه يتسامح مع اعتزازه بدينه . واستمساكه
التام بعقيدته .

وكأننا بالأستاذ « جوتيه » حين أشاد بفضيلة التسامح الدينى عند المسلمين ، وجعلها قاعدة عامة عندهم ، توقع ما يجول بذهن القارىء من اعتراض على هذه القاعدة العامة بالأمثلة المشاهدة فى المستعمرات حيث ان المسلمين فى الجزائر وغيرها يفتنون المسيحيين جميعا ، فرنسيين كانوا أم انجليز أم هولنديين أم غيرهم . فتصدى لدفع هذا الاعتراض قائلاً : انهم لا يفتنون فىنا مسيحيتنا . وانما يفتنون أوربيتنا . فان أوربا منذ قرن أو يزيد أصبحت خطراً يهدد اسلام الكرة الأرضية . فالأوروبي عندهم رمز للتدخل الذى يجرح كبرياءهم . ويحطم استقلالهم . ويفسد أسلوب معيشتهم بما عقائدنا الدينية وآراؤنا الفلسفية المخالفة لعقائدهم وآرائهم . فان أمرها كان يهون عليهم لو بقيت محصورة فى دائرة الاختلاف النظرى .. ولقد صدق هذا . انهما العنصران الأساسيان فى بناء الحضارة عند كل أمة رشيدة تطمح الى البناء والخلود . عنصر الوحدة الروحية والوطن المشترك بين أبنائها على اختلاف مذاهبهم واطوارهم . وعنصر التسامح والتعايش السلس مع جيرانهم المخالفين لهم فى عقائدهم .

غير ان هذين العنصرين لا بد انهما من عنصر ثالث يمازجهما ويكسبهما ويجبر ما قد يعتريهما من نقص . ذلك ان رحمة الاخوة كثيراً ما ينثلت زماماً فتصل الى حد التراخى والتهاون . والاعضاء عن الاثم والفوضى . والفساد الداخلى . كما ان نزعة التسامح وحب السلام العالمى ، كثيراً ما يختل ميزانها فتتهدر الى مستوى الضعف والاستسلام امام العدو الخارجى . لهذا وذاك جاء الاسلام منظماً لكلتا النزعتين . وحفظاً بينهما من خير ونفع نابذا ما فيهما من شذوذ وانحراف .

ويتلخص هذا التنظيم الاسلامى فى انه جهاز يتبعه جهوزيين داخلىين وخارجىين . وجعل كل واحد منهما يتألف من عنصرين : دنى . ومادى . فأما فى الداخلى فقد جهزهم معنويًا بالدعوة الى الخير . والمنكر والمنكر والتناسيح والتواصى بالحق .. لا يستند فى ذات الدين ولا يفتقر ولا يقل مأمور عن أمير . ثم جهزهم مادياً بجيشه العنصرى الذى يفتقد التى يوجب توقيعهما على كل من لم تنفعه الموعظة الحسنة . بالعلم والقدرة وخطره دون ان تأخذنا رافة فى دين الله .

وكتب المستشرق الانجليزى « ر. هـ. نولت » فى كتابه « حقيقة الاسلام » : ومن حيث أن أى دين من الأديان لابد أن يكون ذا تأثير قوى فى حياة معتقيه وتصرفاتهم فان للاسلام تأثيرا كبيرا ماثلا لأى تأثير لدين آخر . بل يزيد عليه . وذلك بما تنطوى عليه طبيعته .

ويقول « لوبون » : ولقد كان أثر حضارة المسلمين فى الغرب قويا فى النواحي العلية والأدبية والخلقية .. فى القرن السابع الميلادى . هب المسلمون من شبه جزيرة العرب . ليكونوا امراضورية عظيمة مترامية الأطراف . فسارت الحضارة فى ركابهم اينما حلوا وصاحبتهم المدنية كيفما اتجهوا . فلم يقتصر أثرهم الحضارى على الشرق وانما كان تأثيرهم فى الغرب لا يقل خطورة واهمية .

وكتب « توماس ارنولد » المؤرخ الانجليزى : يؤكد ان سوء حال فارس الدينية والاجتماعية كان علة ذلك الانتصار الذى حالف الفتح العربى . وجعله يظهر فى صورة تخلص الأهلين مما أصبحوا فيه . وما ان تم للمسلمين ما أرادوا على هذا الوجه حتى تنفس الفرس الصعداء . ورحبوا بالعرب .. وقال : ان الاسلام دين الفطرة الطبيعية السليمة . ولهذا تتقبله القلوب والضائير متى تفتحت له . وان المسلمين كانوا يقاتلون بكل قلوبهم رجاء الحسين وشتان بين من يقاتل لإعلاء كلمة الله . وبين من يقاتل دفاعا عن عقيدة فاسدة . ودولة عاتية . ونظام اجتماعى ظالم مستقوت .. « كتاب الدعوة الى الاسلام » ترجمة الدكتور « حسن ابراهيم » .

ومن الأسباب الجوهرية فى سرعة انتشار الاسلام . انه دين لا يعرف نظمه الى مبادئه سيلا ولا الطغيان الى تعاليمه ضريقا . دين الحرية والاخاء والمساواة . دين الساحة وسجايا الخلق وصفاء الطبع ونقاء الطوية . ولم يكن حد السيف أو أسنة الرماح سببا لانتشاره فى يوم من الأيام . فالرسول قد كتب الى مختلف الملوك والاقيان والحكام والأمراء انزعاء يدعوهم الى الاسلام وهداية الناس .. ولم تكن هذه الكتب وسائل عنف وارهاب . أو ذرائع للبطش والتنكيل .. انما كان يدفع بالتى هى الحسن . بل كان .. كما سلفنا القول يتحمل ألوانا من العنف والضيق ، مشروبا من الوعيد والتهديد من جانب هؤلاء القوم .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقابل هذا كله برحابة الصدر . ورضى النفس واطمئنانها ، تستمرىء العذاب فى سبيل الدعوة . وتتحمل الصعاب فى سبيل نشر الرسالة الالهية بين العالمين . وقد كان ينتصر على خصومه بنا أوتى من طهارة، نفس وصفاء قلب .. وكان ربه يسهل له كل أمر عسير ودائب وابدأ ينصره لأن الحق بجانبه أبدا .

لقد روى « الطبرى » فى الجزء الثالث من تاريخه : ولما وصل كتاب النبى الى « هرقل » ملك الروم وهو بالشام وكان يريد العودة الى القسطنطينية جسع الروم . وقال لهم : يا معشر الروم ، انى عارض غايده امورا . فانظروا فيما قد أردتها . قالوا : وما هى ؟ قال : تعلمون والله ان هذا الرجل لنبى مرسل . انا نجده فى كتابنا . نعرفه بصفته التى وصف بها فليسوا فلتتبعه فتسلم لنا دنيانا و آخرتنا . فقالوا : نحن نكول تحب بيتى العرب . ونحن أعظم الناس ملكا وكثرهم رجالا وافضلهم بندا . انى فاهلم فاعظه الجزية فى كل سنة كسر عنى شوكته . واسترح من حربته اعطيه اباد . قالوا : نحن نعطي العرب الذن والصغار بحراج يأخذونه منا ونحن أكثر الناس عددا وأعظمتهم ملكا وامنعهم بندا . لا والله لا نفعل هذا أبدا .. قال : فهلم فلاصالحه على ان نعطيهم أرض سمورية وتدعى بئر الشام . فقالوا له : نحن نعطيهم أرض سمورية . وقد عرفنا انها سرور الشام والله لا نفعل هذا أبدا فلما أبوا عليه . قال : ما والله لآخذنكم يدكم منى اذا امتنعتم منه فى مدينتكم . ثم جلس على بعل له : فانطلق حتى اذا انتهى على الدرب استقبل أرض الشام ثم قال : السلام عليكم أرض سمورية بئر الوداع . ثم ركض حتى دخل القسطنطينية .

وقد تشئت هذه الكتب مع ما جاء فى القرآن الكريم من دعوة الى نشر الاسلام بين العالمين . كقول الله تعالى : قل يا ايها الناس انى اعلم ان الله ليكم جيعا . . و « ومن احسن دينا من اسلام وجهه لله وحده » . واتبع ملة ابراهيم حنيفا .

والرسول . قبل هذا وبعد هذا كله . لم يجبر على التمسك بالدين اجبارا . انما جعل لهم الخيار بين الاسلام أو دفع الجزية . وقد قال الله

القرآن : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للمتقوى » .. أى تجب العدالة المطلقة مع غير المسلمين على وجه عام . سواء كانوا أصدقاء أم أعداء . من أهل الذمة أم من المحاربين . ونى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » . أى ان على المسلمين ان يلتزموا أدق قواعد العدالة . والانسانية والاستقامة حتى فى قتالهم مع من يعتدون عليهم للقضاء على الاسلام نفسه .. ولقد ذكرنا ما كان يوصى به رسول الله قواد جيوشه بعدم قتل الشيوخ والأطفال والنساء .

وفى حديث آخر نهى (صلى الله عليه وسلم) عن قتل الكهنة والرهبان المتعبدين فى الأديرة والصوامع . وبذلك ترى سماحة الاسلام حيث تنحصر أباحة القتل فى رجال العدو والقادرين الذين يدخلون بالفعل الى ميدان القتال .

والقتال نفسه لم يكن المسلمون ينفرون اليه الا تأميناً لدعوتهم . أو درءاً لخطر داهم أو شك أن يحيق بهم . ويدمر بيوتهم ومساجدهم . ويكاد يعصف بحياتهم . مخافة أن يتمكن العدو منهم فيستبيح أموالهم ومخارمهم . وينهب ديارهم ومنازلهم .

وعندما وقع النبى (صلى الله عليه وسلم) الصلح مع يهود « خيبر » أعطاهم صحائف التوراة معززة مكرمة . مما يدل على كرم خلاله وحسن سياجياه . وتزوج من صفية بنت حبي بن خطب حفظاً لكرامتهم واستبقى اليهود فى الأرض ، وحقن دماءهم ، وعاملهم معاملة طيبة .

ويذكر صاحب تاريخ الخبيس ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يترحم على بعض اليهود مثل « عبد الله بن أبى » . الذى بكى عليه اليهود . ووقف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . على قبره وعزى ابنه . وألبسه قميصه . وقد قام المسلمون باجراءات دفنه . وظل الرسول فى أثناء ذلك واقفاً صامتا لا يتحرك من مكانه حتى امتلأ الضريح بالتراب وتوارت الجثة عن العيون . وأخذ بنو قينقاع وغيرهم من اليهود ينثرون التراب على رؤوسهم من شدة الحزن والألم كما يقول « الواقدي » .

ولقد اتبع خلفاء وأمراء المسلمين أوامر الله ورسوله . وعملوا بوصية رسول الله الكريم : فوصية « أبي بكر » الصديق لجيوش فتح الشام تحت امره « أسامة بن زيد » جمعت آداب الحرب وحسن النصيحة : أيها الناس . أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى :

لا تخونوا . ولا تغلوا . ولا تغدروا . ولا تثلثوا . ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة . ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه . ولا تقطعوا شجرة مثمرة . ولا تذبحوا شاة . ولا بقره ولا بغيرا الا لماكلة . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الضعفاء فاذا أكلتم منها شيئا بعد شئ فاذكروا اسم الله عليها . وتلقون أقواما قد فحسوا توسط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا .. وعدالة « عمر بن الخطاب » فقد منح اليهود حياية دينهم ، وأمنهم على حياتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم . فلا تهدم كنائسهم . ولا تتخذ منها منازل . ولا يسها أحد بسوء .. وكل ما ورد فى هذا العهد مخفور باسم الله ورسوله وخلفائه والمسلمين عامة . على شرط ان يدفع الناس الجزية بانتظام .

وعاهد « خالد بن الوليد » . أهل الجزيرة فى جو من الحرية بلا تهديد ولا وعيد . فجاء فى هذا العهد :

هذا ما عاهد عليه « خالد بن الوليد » . نقباء أهل الحيرة ورضى بذلك أهل الحيرة وأمرهم به ، وعاهدهم على مائة وتسعين ألف درهم تقبل كل سنة جزاء على أيديهم فى الدنيا . رهبانهم وقسمهم . الا من كان منهم على غير ذى يد . حببسا عن الدنيا تاركا لها . وعلى المنعة وان لم يسعهم فلا شئ عليهم حتى يسعهم .

ولم يكتف بذلك بل قال : وجعلت لهم ايما شيخ ضعف عن دينه اصابته آفة من الآفات .. ان كان غنيا فافتقر . وصار أهل دينه يتصدقون عليه . طرحت جزيته . وعيل من بيت المسلمين وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الاسلام .

ويذكر التاريخ أن المسلمين كانوا يعرضون الناس عن الضرر الذي يلحقهم خطأً من المسلمين .

ومثال ذلك ان ذميا جاء الى « عسر بن الخطاب » في أثناء فتوح الشام . وشكا اليه ان بعض المسلمين قد قطعوا عنبا من كرومه دون اذن منه . فخرج « عسر » من المعسكر فاذا به يرى مسلما خارجا من الكرد وقد حمل بعض العنب على درعه : فصاح به في غضب وحدة : و أنت أيضا قد شرعت ترتكب مثل هذه الحماقات ؟ . فاعتذر الرجل بأنه لم يفعل ذلك الا لا شتداد جوعه فأمر عسر بأن يعرض الرجل عما فقد من عنبه حتى أرضاه .

وعندما شرع « عسر بن الخطاب » ينظم ادارة العراق عقب فتحها . استدعى زعماء البلاد غير المسلمين الى المدينة ليستشيرهم ويستأنس بأرائهم . وجاء في « المقرئى » انه كان يفعل كذلك فيسا يتعلق بصر . فاستشار متوقس عظيم التبط في أمور شتى :

وعندما فتح عسر بن الخطاب الشام صالح أهل « ايلياء » . وأمن أهلها على أنفسهم . وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم . واعطاهم عهدا بذلك . وهو المعروف بالعهد العسرية . وقد أوردها « محمد بن جرير الطبرى » في تاريخه . وهذا نصها : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عسر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان . أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمتها وبريئتها وسائر ملتها انه لا تسكن كنائسهم ولا يهدم ولا ينقص منها ولا من خيرها . ولا من صلبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم . ولا يضار أحد منهم . ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود . . وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن . وسليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص (١) فمن خرج منهم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم . ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية . ومن أحب من أهل ايلياء ان يسير بنفسه وماله مع

(١) اللصوص من عداوة أبناء العرب من الروم والمصوس ، فمن أبى المقام مواليا ، خرج وهو آمن على نفسه وماله . ومن أقام مواليا ، أقام وهو آمن ، وأبى ولانه دفع الجزية ، أو الضريبة التي لا يرى مدائن في دفعها غشاسة .

الروم ويخلى بيوتهم . حتى يبلغوا مآمنهم . ومن كان بها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية . ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع الى أهله . وانه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم ، وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذى عليهم من الجزية . . وقد كتب هذا العهد فى العام الخامس عشر للهجرة . وشهد عليه . « خالد بن الوليد . عمرو بن العاص . عبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان » .

وعندما انتشر نور الاسلام الى شتى الأقطار والامصار . كانت الشريعة الاسلامية كعادتها . تكفل لغير المسلمين كافة الحقوق . فالاسلام لا يعرف التعصب ولا الظلم . بل يفسح صدره للأقليات التى لا تدين به . وتبهر برعايتها وحمايتها .

وتوسع معاوية (٤١ - ٦٠ للهجرة ٦٦١ - ٦٨٠ للميلاد) فى تحريك المسيحيين بخدمته . وحذا حذود أفراد كثيرين من البيت الأموى . فعملوا شغل المسيحيون مناصب عالية فى بلاط الخليفة . ومثل ذلك فى عهد الاخطل - وهو عربى نصرانى . كان شاعر البلاط الأموى وهو يوحنا يوحنا الدمشقى . مستشار الخليفة عبد الملك . كما كان فى خدمة الخليفة المعتصم اخوان مسيحيان : أحدهما ييسى « مسلمويه » . كان يسهل على الربط فى كثير من أمور الدولة والثانى ابراهيم . وكان يحفظ خاتم الخليفة وعهد اليه بخزانة بيوت الأموال فى البلاد واختار الخليفة عبد الملك مسيحياً من مدينة « الرها » يدعى « اثناس » مؤدب لآخيه عبد العزيز . وقد رافق اثناس تلميذه الى مصر عندما عين « ابي علقم » وجميع رؤسائه من الأموال . وقيل انه امتلك أربعة آلاف من العبيد . كما امتلك من الدور والبساتين وكان الذهب عنده كأنه الحصى . وكان له ثلاثة أبناء كل جندى ديناراً عندما يتسلم راتبه .

وفى عهد الخليفة المعتضد (٢٦٩ - ٣٠٩ هـ) (٨٨٣ - ٩٠٣ م) « عمر بن يوسف » والى الانبار مسيحياً . وقد « تسلم » لخدمته غلبت عليه الولاية . ولم يجد فى ذلك غضاضة . بل التفت نجد فى عهد المعتضد بنى

الأيوبي « الذي كان يكيل الضربات تلو الضربات للصليبيين . وزيراً مسيحياً هو « ابن مساتي » . وكان صلاح الدين لا يجد مانعاً من الاستعانة بخبرته . والاستفادة بجهوده . والرجوع إليه في كثير من الأمور .

ولم تكن الضريبة التي يدفعها المسيحيون أو أهل الذمة في صورة « جزية » تعنى فرض سلطة القوى على الضعيف . أو الظافر على الخاسر . أو المنتصر على المخدول .. وإنما كانت تدفع مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف المسلمين . ولما قدم أهل الحيرة هذه الجزية ذكروا صراحة عند تقديمها أنهم إنما دفعوا الجزية على شريطة أن يمنعوا هم وأميرهم البغي من المسلمين وغيرهم . وكذلك سجل « خالد » في المعاهدة التي أبرمها مع بعض أهالي المدن المجاورة للحيرة قوله : فإن منعناكم فلنا الجزية . وإلا فلا .

وقد حدث أن رفع « هرقل » راية العصيان ضد المسلمين . وورغب في الانتفاض عليهم وأخذهم بالغدر والخيانة . فلما علم « أبو عبيدة » قائد العرب بذلك . كتب إلى عمال المدن المفتوحة في الشام يأمرهم برد ما جبي من الجزية في المدن . وكتب إلى الناس يقول : إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع . وأنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم . وإنا لا نقدر على ذلك . وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم . ونحن لكم على الشرط .. وما كتبنا بيننا وبينكم أن نصرنا الله عليهم . وبذلك ردت مبالغ طائلة من مآل الدولة . فدعا المسيحيون بالبركة لرؤساء المسلمين وقالوا : ردكم الله عايناً ونصركم عليهم (أي على الروم) . فلو كانوا لم يردوا علينا شيئاً . لأخذوا كل شيء بقى لنا .

ومن هذا يتضح أن المسلمين لم يكونوا ينوون المسيحيين أو غيرهم من الطوائف شراً ولم يكونوا ينهبون منهم أموالهم . أو يستلبون منهم حقوقهم .. إنما كانوا يفرضون الجزية عليهم حتى يدافعوا عنهم . ويحسوا بأنهم من عائلات المعتدى الأثيم . ويقفوا لأعدائهم بالمرصاد . فكانوا يحصنون المدن والشعور . يبنون القلاع والحصون ويرابطون في عدتهم وسلاحهم للدفاع عنهم . وحماية حقوقهم بالنفس والنفس . والسيف لم يكن مصلتنا على رأس أحد من الناس ليكون مسلماً . ولم يكن المسلمون يلجئون

الى وسائل التعذيب التي لجأ اليها المشركون لصرف الناس عن الاسلام .
 لم يكن المسلمون يقابلون تعذيب المشركين لآخوانهم في الدين بالمثل ولم
 يصنع المسلمون بمخالفهم في الدين صنيع المشركين . ولم يكن المسلمون
 يفعلون مع المذاهب الأخرى ما فعلته قريش مع المسلمين من أجل الايمان
 بالأوثان . وعبادة الأصنام . والكفران بالواحد القهار . بل كانوا على النقيض
 من ذلك كما رأينا . يتخذونهم اخوانا . ويعاملونهم معاملة طيبة كريمة .

كل هذه الحقائق تنهض أدلة ناصعة . وحججا دامغة على أن الاسلام لم
 يكن في فترة من الفترات دين عنف وقسوة . أو بغى وتسلط . حقا كان لابد
 للمسلمين أن يعملوا على نشر الدعوة . وحقا كان لابد لهم من حماية جانبيهم
 وصيانة موقفهم والذود عن حياضهم ومن أجل ذلك قاموا ببعض الفتوح بيد
 ان هذه الفتوح كلها لم تكن للبطش والارهاب وانما كانت للهداية والايان .

وجدير بالذكر أن الجزية التي كان يدفعها أهل الذمة في هذه الأسر
 كانت تعفيهم - فضلا عن النواحي سالفة الذكر - من الخدمة العسكرية
 الاجبارية التي كانت فرضا واجبا على المسلمين الذين يؤدون في الوقت نفسه
 فرض الزكاة من أموالهم . وهذا دليل قاطع على أن الاسلام لم يحارب البر
 دون فريق . وكانت الزكاة تنفق في وجوه البر والخير على الفقراء والمساكين
 وأبناء السبيل . ولم يعف الاسلام قادرا من ذنوبه . فأمسكوا لهم بوجوه
 أن ينعموا ويعفوا في الوقت الذي يتعذب فيه الآخرون بهم . وسمحوا لهم
 بيج لهم أن يسعدوا ويهنوا في الوقت الذي يشقى فيه آخرون لهم . بل
 الاسلام دين التعاضف والتألف والاخوة والمودة والتراحم . وهذه الخصائص
 كان يدفعها أهل الذمة مساهمة في توطيد أركان هذا الصرح العظيم الذي
 الإنسانية التي ترغب في بناء عزتها ومجدها على أسس من التضامن والتعاون
 والتواصل الروحي والترابط الأخوي بين الفئات المختلفة من الناس .
 تردد ولا احجام . وهذا يجب أن نوضح ان الاسلام لم يحارب البر
 أو الاستعمار انما كان يهدف الى حماية الحقوق وحماية الجاهل من
 على المسلم ان يدافع عن الدمى ويحياه . ولم يقاتل نفسه من اجل
 الدمى لخطر ولا قتال . ولا يملك هذا الدمى سوى قليل من أهل على

هيئة جزية وشتان بين ما يلجأ اليه الاستعمار في العصر الحديث وما اتبعه الاسلام من نظم سوية وقوانين عادلة . فالاستعمار يعد في هذا العصر الى تجنيد أهل المستعمرات وتعريضهم للأخطار ويرغسهم على القتال دفاعاً عن مستعمرى بلادهم . الاستعمار الأوروبى يضجى بالقادرين من أهل مستعمراته دفاعاً عن نفسه . وليبقى أهل المستعمرات خاضعين له فهو يذلهم ويستعبدهم فى سبيل تفوقه وانتصاره وتحقيق أهدافه والوصول الى أغراضه .

أما الاسلام فلم يكن ولن يكون فيه شىء من هذا فهو يسوى بين المحكومين والحاكسين فى الحقوق والواجبات لا يعرض أهل الذمة لخطر ولا قتل ولكن يدفع عنهم الخطر ويسوس أمور الدولة ويقيم حدود الله بين الناس فى ظل المحبة والعدل والرحمة ، دون تكبر ولا استعلاء ودون عجرفة ولا رياء ودون امتهان القوى للضعيف واحتقار الغنى للفقير . وقد ظل الاسلام راسخاً فى البلاد التى أخذته مأخذ العقيدة والايسان فأمنوا به بعد بحث طويل ونظر عميق وتأمل كثير . وانحصر فى البلاد التى لم يأخذ أهلها مأخذ الجذ . زد على ذلك ان قوى الشرق قد تضافرت على محاربة الاسلام . فما لبث ان انسحب من صقلية وايطاليا واسبانيا بيد انه ترك فيها حتى اليوم آثاراً هيئات ان تسحوها الأياد .. وقد توغل الاسلام فى أوربا عن طريق صقلية والأندلس وخرب المسلمون فى هذه البلاد المثل الأعلى للمساحة ونبل الخصال وعدم التعصب أو الانحياز .

وقد ذكر الكونت « هنرى دى كاسترو » فى كتابه « الاسلام خواطر » سوانح « . ان محاسن المسلمين للمسيحيين زادت فى بلاد الأندلس حتى صار سكانها فى حالة اهدأ من التى كانوا عليها منذ أيام خضوعهم لحكم قدماء الجرمانيين الذين يقال لهم « القوط الغربيون » .

ويقول « دوزى » : ان هذا الفتح لم يكن للأندلس مفر منه ، وما حصل من الاضطرابات والهرج بعده لم يلبث ان زال باستمرار الحكومة الاسلامية فى تلك البلاد وقد ابقى المسلمون سكانها على دينهم وشرعهم وقضائهم وقلدوهم بعض الوظائف حتى كان منهم موظفون فى خدمة الخلفاء وكثيرون منهم تولوا قيادة الجيوش . وتولد عن هذه السياسة الرحيمة ان انحاز عقلاء

الأمة الاندلسية الى المسلمين وحصل بينهم زواج كثير . وكم من اندلسي بقى على دينه ولكنه اعجبه طلاوة التمدن العربي فتعلم اللغة العربية وآدابها .. وأصبح التساوسة يلومونهم على ترك شعائر الكنيسة والتعلق بشعائر الفاتحين . .

وكانت حرية الأديان بالغة منتهاها لذلك لما اضطهدت أوروبا الموسويين لجئوا الى خلفاء الأندلس فى قرطبة ولما دخل الملك « كارلوس » الحاسر قطة . ثم جنوده بهدم جميع مباني اليهود ومساجد المسلمين . ثم يقول « دوزى » : ونحن نعلم أن المسيحيين أيام الحروب الصليبية ما دخلوا بلادا الا وعلموا السيف فى يهودها ومسلميها وذلك يؤيد أن اليهود انما وجدوا مجبرا وملجأ فى الاسلام فان كانت لهم بقية الآن فالفضل فيها راجع لحسنة المسلمين ولين جانبهم .

وقد تسكن الاسلام من التوغل فى افريقيا لأنه لم يفرق بين الأبيض والأسود فالناس جميعا سواسية كأسنان المشط . ولم يتخرج مسجون من الزواج من الزوجيات وانجبوا منهم عددا كبيرا من الأطفال المسلمين الذين يكادوا يبلغون سن الشباب حتى ازدادت حبيبتهم واشتد دفعهم عن الاسلام .

وذهب بعض الزوج الى ان الاسلام دين أسود وان المسيحية هى دين البيض وقد جاءهم هذا الاعتقاد لأن الاسلام سهل لهم أمور العبادات ومدايم من الوصول الى أرقى الدرجات .

وورد فى القرآن ما يفيد ان بعض الأنبياء كانوا من أسرى التواجد فى بلاد « موسى » عليه السلام الذى جاء فى وصفه فى سورة طه « من أسير منكم الى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء » . . كما جاء فى سورة البقرة « ونزع يده فاذا هى بيضاء المتأخرين قل الماء من فوهة فوعون ان هذا من عندنا عليم » . وقد أثر عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) انه قال « يا ايها الذين آمنوا اطيعوا واولوا علىكم عبد حبشى .

وكان من نتيجة دخول الاسلام فى افريقيا الاسم الذى كان يسمون به هؤلاء الزوج وامتنع المسلمون منهم عن كل وجه البنية والاندلسية .

والأهالي الذين لم يكونوا يغتسلون قط قبلوا على التطهر والاعتسال وكان
الوضوء من الأسباب الداعية الى نظافتهم . زد على ذلك أن الشعور بالقيم
الأخلاقية بدأ يتجسم ويتضح . فاختلفت وسائل السلب والنهب التي كانت
متفشية بين القبائل الزنجية وأصبح المسجد قبلة أنظار الزنوج يؤدون فيه
فرائضهم ويصلون فيه صلواتهم الخمس في جو يسوده الجلال والوقار .
وقد كتب « ميك » في كتابه « قبائل نيجيريا الشمالية » يقول : ان

الاسلام لم يترك أثرا عسيقا في التركيب الجنسي لهذه الشعوب فحسب بل
انه جاء بحضارة جديدة أتاحت للشعوب الزنجية طابعا اختياريا متيزا لا يزال
واضحا حتى اليوم مؤثرا في نظهم السياسية والاجتماعية ذلك أن الاسلام
حمل الحضارة الى القبائل المتبربرة وجعل من المجموعات الوثنية المنعزلة
المتفرقة شعوبا وجعل تجارتها مع العالم الخارجي ميسورة . فقد وسع آفاقهم
ورفع من مستوى الحياة بخلق مستوى اجتماعي أرقى وخلع على اتباعه
الكرامة والعزة واحترام الذات واحترام الآخرين . لقد حث الاسلام على تعلم
القراءة والكتابة وحره الخمر وأكل لحوم البشر والأخذ بالثأر وغير ذلك من
العادات الوحشية وأتاح للزنجي السوداني الفرصة لأن يصبح مواطنا حرا في
عالم حر . وليس من شك في أن هذا الاعتراف الصريح الذي ذكره « ميك »
في كتابه يقف بجانب الاسلام في دعوته انه دين مبادئ تهوى اليها النفوس
من كل جانب لا دين سيف تصلت على رقاب الضعفاء ليرغصهم على اعتناقه
عنوة وقهرا .

أما الاسلام في آسيا فقد توغل في الصين والهند والملايو واندونيسيا
والفلبين وغيرها من البلاد وكلهم من الشعوب الصفراء فهم لا يختلفون في
قائل أو كثير ولا يفترقون من قريب أو بعيد عن الشعوب البيضاء وقد كان
التعليم والاقناع وحدهما الوسيلة التي استخدمها الدعاة المسلمون في نشر
الاسلام . ولم يلبث الاسلام أن وجد تربة خصبة في هذه البلاد . وقد شجع
الخلجيون . وهم أسرة آسيوية عاشت في القرن الثالث عشر للميلاد والرابع
الأول من القرن الرابع عشر . أهل آسيا على اعتناق الاسلام وفي ذلك يقول
الرحالة « ابن بطوطة » في رحلته : انهم قد سنوا عادة تقديم الشخص الذي

دخل حديثا في الاسلام الى السلطان الذي كان يكسوه كسوة حسنة ويعطيه قلادة وأساور من ذهب بحسب قدره ومنزلته .

كما شجع الأمير « شاه تغلق » (۱۳۵۱ - ۱۳۸۸ م) الهنود على اعتناق الاسلام وقال في مذكراته لقد شجعت رعاياي الكفار على اعتناق دين النبي . وأعلنت لهم ان كل شخص يترك هذه العقيدة ويصبح مسلما يعفى من الجزية أو ضريبة الرأس .

ولما تقدم هذا النبأ بسامع الناس تقدم الهندوس زرافات ووحدانا وسمح لهم بان ينالوا شرف الاسلام ومن ثم أخذوا يأتون من كل حدب وصوب . ولما اعتنقوا الاسلام اعفوا من الجزية ومنحوا الهدايا ومظاهر التكريم .

وهكذا كان للأمرء والحكام دور كبير في نشر الاسلام بعد الرعية . زد على ذلك ان كثيرا من النفوس تفتحت لعقائد الاسلام الشريفة . وعرفت مزاياه الكثيرة . واستجابت لدعوة الداعين اليه . فنعت بما يكفله للمسلمين من حقوق رفيعة .

والاسلام أيضا دين الحرية بكل ما لهذه الكلمة من معان ومدلولات عند الغربيين وعند العرب . على السواء . ذلك بان « كيتاني » المؤرخ الايطالي المعروف يذكر في كتابه « حوليات الاسلام » (جزء ۳ من ۱۰ : ۱) لما أهلت آخر الأمر أنباء الوحي الجديد فجأة من الصحراء . لم تعد تلك المسيحية - التي اختلصت بالغش والزيف وتسزقت بفعل الانقسامات الداخلية . ونزعت عقائدها الأساسية . واستولى على رجاها الريب والشكوك لما صار الأمر هكذا - لم تعد المسيحية قادرة على مقابلة هذا الدين الجديد الذي يدد بضربة من ضرباته كل الشكوك . وقد مرزاة حليمة التي جانب مبداه الواضحة البسيطة التي لا تقبل الجدل . وحينئذ ترك الشرق المسيحية وارتضى نبي العرب .

وقال « أوجست كونت » الفيلسوف الاجتساعي مؤلف كتاب « ما يكون لنا من حرية هو ان نعمل بقدر استطاعتنا على سددها لمن نحبه على الميول السيئة . كما يرى « هيسون » ان الحرية هي سيطرة الانسان على نفسه . وهذا يكون بعمل الفكر والارادة ضد الشهوة والهوى .

وقبل هذين يقول : « ايكتوس » الفيلسوف الروائي المعروف : ان
على من يريد أن يكون حرا ألا يخف أو يرجو شيئا يملكه غيره . والا فلي
يكون حشا الا رقيقا .

كل ذلك تأييد لرسالة الاسلام . وان الاسلام دين فكر وبرهان . لا دين
سيف وسان . ومن أراد أن يفهم طبيعة الاسلام كما شرعه الله وجاء به رسول
مُسدِّين (صلى الله عليه وسلم) فليس له طريق الى استقرار أحكامه الا أن
ينظر في كتاب الله ويعتق النظر فيه . ويقرأ سيرة الرسول ويتبع سبيلها
ليتبين له ان الاسلام برىء من الاكراه . وبعيد عن قسر النفوس وسوقها الى
اعتناقه .

وليس بالرجل البصير ذلك الذي يأخذ الأمر بمجمله غير مفصله ويستع
الى البحوث العلية من فواد الناس الذين اعتهم العصبية عن نصره الحق .
وسدهم الغرور عن سواء السبيل . وانا سبيل أهل الحكمة البصيرة ان
يقصدوا الى المسائل العلية من ينايعها الصافية ويحشوا عن النظريات
الاجتماعية في نطاقها . ويطلبوا لكل قضية دليلها ليكون البحث مؤديا الى
الحقائق وهاديا الى الطريق المستقيم . وقد درج أعداء الاسلام على ان
يذيعوا عنه قالة السوء لينفروا الناس منه ويرموه بسا ليس فيه ، ليقيموا بين
العتول وبينه سدا منيعا . ومن عادة السذج من الناس أن يتلقفوا هذه
الشائعات على أنها علم يؤثر ومباحث قد أخذت حظها من التنقيح والتهذيب
فلا يلبثون أن يؤمنوا بها ايماناً ويجعلوها في محل العقيدة التي لا تتزعزع
وهذا نقص كبير في الناس حتى في المثقفين منهم لم يسلم منهم الا قليل من
خصه الله بالعلم والحكمة وآتاه الفهم في الأمور والصواب في التفكير . ومن
سوء الحظ أن هؤلاء قليل . واني أقرر هنا من يريد أن يعرف عن الاسلام
حكما أو ينشد من مبادئه صوابا ان المسلم لا يستقى دينه الا من آية محكمة
أو سنة متبعة . . . أما عمل المسلمين الذين لا يتحلون بفضائل الاسلام ، ولا
يعرفون منه الا اسمه ولا يتبعون الا ظاهرا يوافق أهواءهم فليس بحجة على
الاسلام وليس لأحد أن يقول : كذلك يفعل المسلمون ، وقد ذكرنا أسباب
الحروب التي شنها المسلمون والمعارك التي أقاموها وذكرنا أسبابها وهي في

شرعة الانصاف أسباب لا ترجع الى المسلمين ولكنها جميعا ترجع الى خصوه
الاسلام الألداء والى ما وضعوه من العقبات فى سبيل دعوة المسلمين الى
دينهم أو تهيئهم لقتال المسلمين والتكيل بهم . ووصلنا الى صلح الحديبية
وذكرنا بعض ما كان فيه من الأدلة على حب الرسول للسلام وان الاسلام
دين الأمان والسلام . وأن رسوله رسول طائفة وهدوء لا رسول شغب
يؤثر الشغب واراقة الدماء وأنه جاء الى الناس يحبل معجزة القرآن يدعوهم
فيه الى النظر بعقولهم ويطالبهم بان يصلوا فى نظرهم الى آخر ما تنتهى اليه
قوتهم . فان اذاهم النظر الى صحة الاسلام اعتنقوه والا فان الاسلام لا
يطلبهم الا بان يفسحوا الطريق امام دعوته ولا يصدوا احدا عنها . ولا
يكرهوا مخلوقا على الكفر بها ولا يعذبوا مسلما فى دينه ولا يفتنوا مؤمنا
لا يسانه فان آثروا لأنفسهم الدعة والهدوء . وتركوا دعوة الاسلام فى طريق
فقد آثروا السلامة وان كانت الأخرى فليس على الاسلام من جناح ان يرد
الى الخطة المثلى وأخضعهم لحكم العدل والنظام وقد كان الاسلام يحبل
ذلك عباء تنوء بها عزائم الرجال ويرضى بأقل من المعدلة . ليقر المسلمون
أغدادها ويبريء القلوب من احتادها .

كانت شروط الصلح فى الحديبية :

- (ا) وضع الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنون .
- (ب) من جاء المسلمين من قريش يردونه ومن جاء قريش من المسلمين
لا يلزمون برده .
- (ح) ان يرجع المسلمون من غير عسرة فى عدهم ثم يأتون العدة المتين من
مكة بعد ان تخرج قريش منها ويقيموا بها ثلاثة أشهر من السنة
السلاح الا السيف فى القراب .
- (د) من أراد ان يدخل فى عهد محمد من غير قريش دخل فى عهد
يدخل فى عهد قريش دخل فيه ولا شات ان من عهد قريش دخل
بالمسلمين اذ لم يكن فيها مساواة بين القريشيين ومن القاهم فادخل
تفرق قريش بين من يأتهم من المسلمين فلا يردونه ومن أتى المسلمين

من قريش أن يلزموا برده لذلك كان منها من المهانة ما لا يتحمله الا من يتحمل المظلمة في سبيل اقرار السلام ويرى بنظره الثاقب ان السلام خير للانسانية من الحرب وأبقى على كرامة الناس وأحفظ لما يستشرون من مال . أما نهاية الحرب فهي الدمار والفناء ومن أحق بادراك ذلك كله من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقد فطره الله على الحكمة وبرآه من الطيش والنزق في سياسة الأمور وتديرها .

وقد جمع النبي أصحابه ليخبرهم بهذه الشروط وذكر لهم حبه للسلام . وإثاره للمهدوء والطأنينة وأنه لذلك يرضى بهذه الشروط لأن السياسة البارة تقضى عليه بذلك وتقتضى ان يتهادن مع أعداء الاسلام ولعل في هذه الخطة ما يحمل هؤلاء الأعداء على مودة المسلمين . بل لعلمهم يعتقون الاسلام . وقريش هم قريش عبود العرب وعظمتهم رجالات . وأقواهم على حمل رسالة الاسلام . فمن حصافة الرأي ان يتساهل معهم . وسيأخذ بالرفق ما لا يأخذ بالعنف . وسيدخلون في الاسلام مع صون دمايتهم وأموالهم . كل ذلك كان ماثلاً أمام عين الرسول . ويرى أنه لازم وأكثر منه لاقرار السلام . وحققتنا المدماء وإبقاء على الأرواح . ولكن أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يدركوا شيئاً من هذه الأهداف البعيدة لهذه السياسة التي يسلكها النبي (صلى الله عليه وسلم) ولم يعلموا انه يريد أن يصل بالحق والحجة الى ما يريدون أن يصلوا اليه بالسيف والرمح ، لتكون سنة البشرية في صراعها جارية على المنطق . ومقارعة الرأي بالرأي لا على القوة والطغيان والعسف ! ولما خفى على الأصحاب كل هذا ، داخلهم من تلك الشروط أمر عظيم . وفي الحق أنها كانت شروطاً مقرونة بالتحدي من قريش . وكانت جديدة أن تشير حفيظة المسلمين . ليدفعوا عن أنفسهم بالسيف ولذلك قالوا للرسول (صلى الله عليه وسلم) : سبحان الله كيف ترد اليهم من جاءنا مسلماً ، ولا يردون الينا من جاءهم مرتداً ؟ فقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) : انه من ذهب منا اليهم بعده الله . ومن جاءنا منهم فرددناه اليهم ، فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً .

وكذلك برم المسلمون بأمر هذه الشروط وضجروا منها . وهاجت نفوسهم للحرب . لأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أخبرهم انه رأى في

منامه انهم دخلوا المسجد الحرام آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين : فكيف يرجعون دون امتشاق الحسام . لتصدق رؤيا النبي . ولكن الايسان المطلق بالله ورسوله هو الذي ألهم المسلمين أن يكفوا عن مجادلتهم وتبرمهم . و ألهم « عسر » أن يسأل أبا بكر في ذلك . فقال أبو بكر . بسا عرف به من رجاحة عقل وقوة ايسان . وهل ذكر أنه في هذا العام ؟ فرجع عسر الى رأى أبي بكر وسكت عنه الغضب ! ولم يزل النبي بأصحابه حتى قبلوا هذه الشروط حبا للسلام . وفي أنفسهم ما فيها وقد كانوا أقوياء . وكانت قريش ضعيفة . فلم يكن عليهم من بأس لو أشعلوها نارا حامية تأكل الأخضر واليابس ! . ولكن رسولهم كفكف من حدتهم . وقادهم الى التي هي أقوم ! ثم كان بعد ذلك من صبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) على استفزاز قريش ما قام دليلا قويا على أن الاسلام لا يريد للناس الشقاء . ولكنه يريد لهم السعادة . وينشر عليهم رحمته ورفقه . فقد وقع حين كتابة عهد الصلح ما يودى بصبر الحليم . ولكن الرسول احتل ذلك كله بأناة وهدوء . وقد كان ذلك جديرا أن يتبر عجاجة لا ينظفء شررها ! . فقد دعا السيد الرسول على بن أبي طالب ليكتب العهد وقال له : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم . فاعترف سهيل بن عمرو - مندوب قريش - على ذلك وقال : بل اكتب باسمك اللهم ! قال النبي لعلى اكتب باسمك اللهم . ثم قال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله . سهيل بن عمرو . فقال سهيل : أمسك ! . لو شهدت أنك رسول الله . ما أقاتلك . ولكن اكتب اسمك واسم نبيك . قال رسول الله : اكتب عهد ما صالح عليه « محمد بن عبد الله » هذا درس عظيم في حب السلام . والاعتناء بالانسانية عن مواضع التطاحن والشحناء . يلقيه النبي (صلى الله عليه وسلم) ولو كان الاسلام دينا يجب الخضاء . ويلتسب للمتناب أو هي لا تملك ما أجاب رسول الله سهيل بن عمرو الى ما طلب من هذه الامور التي لا يرضى سهيلا عليها الا العناد وحب السلطان والزهو بأعباء القساسة التي لا يعقل يعتقدونها أهل الجاهلية ! !

وما كاد هذا العيد يوقع حتى قبل أبو جندل بن عمرو بن عبد الله بن مسعود المسلمين . يريد أن ينضم اليهم ويسير معهم . فالتفت الى سهيل بن عمرو وقال : ما تأخذ بتلايبه . وجعل يجرد ليردد الى قريش . وأبو جندل انفسح إلى النبي

صوته : يا معشر المسلمين . أرد الى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟ وزاد ذلك فى قلق المسلمين . وعدم رضاهم عن العهد الذى عقده الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع سهيل ! لكن الرسول وجه الى أبى جندل قوله : يا أبى جندل اصبر واحتسب . فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين مخرجا . انا قد عقدنا بيننا وبين القود سلحا . وأعطيناهم على ذلك وأعطينا عهد الله . وان لا نغدر بهم . وعاد أبو جندل الى قريش نفاذا لعهد النبي ووعده . وقام سهيل راجعا الى مكة . والمسلمون قد وفوا له بما عاهدوه عليه . وقد جرى الله هؤلاء المؤمنين أحسن الجزاء على حبهم للسلام . وكرهيتهم للعدوان ففتح عليهم ذلك الفتح المبين الذى تحدث الله عنه فى كتابه الكريم : « انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما » . وهو فتح استحق به المؤمنون أن يدخلهم ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار . وان يكفر عنهم سيئاتهم . ولم يجرد فى هذا الفتح سيف . ولم يسل فيه دم . ولم تروع فيه نفس . ولم يهتك فيه ستر . بل كانت جنوده الظافرة وسلحته الماضية . هى الحلم والصبر والأناة ورعاية الرحم وحب السلام وارضاء النفس فى سبيل الله .

ومن أدب الإسلام . أن كل ما أطلقه الإسلام من حرية فى القول أو الفعل أو الرأى أو السياسة . أساسه عدم الاعتداء على حق الغير . فقد نهى عن الاعتداء نهيا مطلقا . وذكر الله سبحانه وتعالى فى أكثر من آية انه لا يجب المعتدين . فقال سبحانه « ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » . وقد وضع النبي (صلى الله عليه وسلم) قاعدة للتعامل العادل الذى لا اعتداء فيه : عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به . وان ذلك القانون هو مثل قانون يجد فيه الإنسان ما يباح له ان يفعله . وما لا يباح بالنسبة لحق الغير . ولقد قرر الفيلسوف الألماني « كانت » ان الميزان الصادق للأفعال التى يجوز للإنسان أن يفعلها . والتى لا يجوز هو ان يفرض الشخص عند القيام بعمل أن ذلك العمل يباح للناس أجمعين . ولينظر ما يترتب على ذلك فان كان الذى يترتب عليه صلاح لا شك فيه . فان ذلك العمل يكون متفقا مع الأخلاق . وان كانت أبحاثه لجميع يترتب عليها ضرر لا محالة فان ذلك العمل لا يكون متفقا مع الأخلاق .

وان الاسلام في تطبيق مبدأ منع الاعتداء قد قرر : ان الله سبحانه وتعالى يغفر لعباده ما يكون فيه اعتداء على حقوق الله تعالى اذا تاب العبد عما ارتكب .

فسن شرب الخمر وتاب فان الله يتوب عليه . أما من اعتدى على حق من حقوق العباد . فان الله تعالى لا يقبل توبته الا اذا أعاد المعتدى الحق الى صاحبه أو عفا صاحب الحق ، فمن اعتصب مالا لانسان . ثم تاب لا تقبل توبته الا اذا أعاد المال لصاحبه . أو عفا عنه صاحب المال ومن أصاب انسانا بأذى في بدنه لا يقبل الله توبته الا اذا عفا المجنى عليه . أو اقتصر من الجاني ، أو أدى من عليه الحق عوضا عما أصاب الآخر من أذى .

والاسلام دين المعاملة العادلة وبخاصة منع الاعتداء . والعدالة حتى مع الاعداء . واذا كان لكل دين سنة . فسنة الاسلام العدالة ومنع الأذى . ولذا ورد عن النبي أنه قال : المسلم من سلم الناس من لسانه ويده .

ولقد نفذ النبي (صلى الله عليه وسلم) مبدأ الاتحاد الدولي . عندما هاجر الى المدينة . فقد عقد مع اليهود الذين كانوا يجاورونه عهدا كان أساسه التعاون بينهم وبين المسلمين في دفع الأعداء وإقامة الحق وهذا ما يسمى في عرف العصر بالتعايش السلمي . ولما تم نقضوا عهودهم التي عاهدوا النبي عليها كما ذكرنا . فقامت معه ذات يوم أنزل الله بهم من عقاب على يد النبي وأصحابه .

وكان النبي يعقد المعاهدات مع القبائل العربية لم يجد عدوان المسلمين . لأعلاء المعاني الانسانية . وكان يجهد كل تعاون على الخير . ولم يتعاون على الشر . ولقد ذهب الى مكة حجا فعلم أن قريشا يريدون قتله فمد يد المسالمة اليهم وهو يقول : أو دعنتي الى خير فيه يدفعه الله اليهم لأجبتهم .

وقد يقول قائل : كيف يكون الاسلام وادعائه مسالمة بين المسلمين والنبي (صلى الله عليه وسلم) . وسحابته غيرهما ذلك خير من مسالمة العلاقة الانسانية هو التعاون بين بني الانسان . والحجرات عن ذلك ان الحرب العادلة هي من قبيل التعاون واحدى ابرائه . فليست تعسفا على

الاثم والعدوان . انما هي تعاون على البر والتقوى ومحافظة على الكرامة
الانسانية وان الاسلام ما سل سيفاً على طالب حق . وما اعتدى على أحد .
ولكن كان هناك اعتداء غاشم عليه وكان هناك ملوك قد أرهقوا رعاياهم ،
وضيقوا عليهم وحالوا بينهم وبين نور الحق . وقتلوا من آمنوا بالحق الذي
أدركوه . والدين الذي ارتضوه . فكان قانون التعاون أن يرد كيد الظالمين
وأن يرفع عن تلك الشعوب المنكوبة بحكم الطغاة نير العبودية والاسترقاق .
وقد كانت الحرب لذلك . وان السكوت في هذه الحال ليس من التعاون
بل ان الحرب العادلة هي من التعاون . لأنها منع للفتنة في الدين ولأنها
تسكين للمضطهدين من أن يتنسوا نسيم الحرية . ولذلك قال سبحانه :
« أذن للمذين يقاتلون بأنهم ظلموا . وان الله على نصرهم لقدير . الذين
أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس
بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله
كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز » .

وبهذا يتبين أن هذه الحروب التي تولأها محمد (صلى الله عليه وسلم)
وتولأها من قبله موسى وداود وسليمان كان الغرض منها التعاون على
الحق . وانه لولأها ما قامت عبادة في الأرض . ولهدمت البيع والصوامع .
وهي معابد النصارى واليهود . والمساجد . وهي معابد المسلمين . وان كلمة
الحرب اذا ذكرت في عصورنا ذكر معها الخراب والدمار واستباحة الحرمات .
ونشر الفساد والانحلال والانطلاق من كل روابط الانسانية . حتى انه
ليؤخذ بجرائرها الآمن في سربه والحامل لسيفه ، لا فرق بينهما في شيء .
وانه لا يسلم منها الذراري الضعاف . ولا الزراع الذين يفلحون الأرض .
بل ان ويلايتها تعم ولا تخص . يكون التدمير في موضع البر . وموضع السقم
على السواء . ولكن حروب النبيين والصديقين والشهداء والصالحين كانت
حروبا فاصلة تظلمها التقوى ، فلا يقتل الا من يقاتل بنفسه أو بتدييره . أما
الزراع والعمال فلا تستد اليهم يد بأذى . ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم
لبعض جيوشه : وسيروا على بركة الله . لا تقتلوا ولأمرأة ولا عسيفا (١)

وكان المسلمون يدعون الى التعاون بالمعاهدة يعقدونها معهم ، أو بالاسلام اذا ارتضوه ديناً . مختارين لا مكرهين . ولذلك كانوا اذا اضطروا الى مهاجمة دولة خوفاً ومنعاً لاعتدائها عليهم ، دعوها الى احدى خصائل ثلاث : اما الاسلام واما العهد واما القتال ، وليس العهد في ذاته الا تعاوناً على السلام . وكان أولو الأمر يشددون في حمل قوادهم على تكرار هذه الدعوة كلما ساروا الى بلد وأحاطوا به .

ولقد حدث أنه عندما أغارت جيوش المسلمين على « صفد » من أعمال سرقند ، لم يدعهم القائد الى احدى هذه الخصائل الثلاث . فشكوا الى « عمر بن عبد العزيز » فكتب « عمر » الى والي « سرقند » يقول له : اذا أتاك كتابي هذا فأجلس لهم القاضي . فلينظر في أمرهم ، فان قضى لهم . فخرج العرب الى معسكرهم . وقد قضى القاضي لأهل سرقند . وخرجت الجيوش الاسلامية من البلاد التي استولت عليها ليعرض القائد هذه الخصائل من جديد .

وذلك من الأدلة القوية على أن الاسلام لم ينتشر بحد السيف كما يتقول المتقولون ويتخرص المتخرصون . والدين الذي يتوارثه الناس كبراً عن كبر ، وجيلاً بعد جيل ، لا بد أنه متغلغل في القلوب . مستقر في النفوس . وانه يسرى في الصدور مسرى الدماء في العروق . وقد استقر الاسلام في آسيا وغيرها من القارات عشرات القرون ولو كان السيف وسيلته لاختفى باختفاء السيف . ولزال بزوال السلطان . فنادى على أنه عقيدة وايمان انه استمر هذه المئات من السنين دون أن يعتريه زوال أو انمحلال . ودون أن يدركه فتور أو خور . أو تزعمه قوة وتطوح به . بل على النقيض من ذلك تجد في الهند والصين واندونيسيا وغيرها من البلاد الآسيوية مسلمين يتسلون بأعتاد لا يفترون تسكاً شديداً . ويعانون المشاق والمتاعب من أجل السفر الى مكة للحج لتأدية فريضة الحج . وهم لا يعاونون بما يتجشون منه من تعب وإرهاق من آلام لأنهم يعتقدون كغيرهم من المسلمين في التواب والعقاب . ويؤمنون بأن في أداء هذه الفريضة ثواباً عظيماً . وأجراً جزيلاً وحق قول الله جل ثناؤه

فيهم : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » . وقوله وهو أصدق القائلين : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » . وقد مدح الله الأمة المحمدية في التوراة والانجيل والزبور . وفي هذا يقول الله تعالى في كتابه الكريم : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون » .

ومن الأسباب التي حبت الاسلام الى النفوس : وجعلت الناس يهرعون اليه ويسيلون الى تعاليمه . انه لم يحدث فجوة في الثقافة القائمة في ذلك الوقت . فالحضارة التي سادت أيام بني أمية لم تكن الا امتدادا لحضارة الاغريق . وكذلك الفن الذي انتشر في ذلك العصر لم يكن سوى الفن الشامي الاغريقي . الذي قام منذ آمام بعيدة كما أن الفنانين الذين ظهروا في تلك الحقبة كانوا هم الفنانون المسيحيون الذين تعلموا وتثقفوا بالثقافة البيزنطية . مع بعض المحاولات التي تضي على كل ذلك مسحة اسلامية حتى لا يكون هناك ما يخالف تعاليم الاسلام .

ولم يحاول المسلمون أن يأخذوا الأمر عنوة وقسرا ، بل ساروا في روية وحكمة . إذ أنهم تركوا أكثر الوظائف المدنية في البلاد التي سيطروا عليها في أيدي أهلها الذين يتكلمون اللغة اليونانية ، كما كانت حسابات الدولة نفسها تدون بنفس اللغة التي يتكلمها أهل البلاد . وقد ظلت هذه الحال ما يقرب من قرن من الزمان وعلى هذا نستطيع أن نقول : ان الشقة بين الاسلام والمسيحية لم تكن بعيدة ولم يكن الاختلاف بينهما كبيرا .

بل ان الكثيرين من ذوى الفكر من معاصريه قالوا ان تعاليم محمد ليست الا آراء متطرفة مكسلة لما جاءت به المسيحية . وهذا السبب بالاضافة الى البساطة والتقشف التي كان يضيفها الاسلام على الحياة . هو الذي حجب الاسلام الى المسيحيين الساميين فدخل الكثيرون في دين الله أفواجا .

وأما الذين لم يدخلوا الاسلام فقد اندمجوا مع العرب المسلمين الآتين من الصحراء وتزوج المسلمون من المسيحيات وأنجبوا منهن أطفالا مسلمين وذلك لأن العقيدة الاسلامية لم تكن عسيرة على أفهام المسيحيين .

وبهذا الاندماج وهذا التزاوج زاد عدد المسلمين زيادة كبيرة ، ثم أخذ الاغريق في هذه البلاد في الزوال . وخاصة بعد انتقال الخليفة من دمشق الى بغداد التي كانت في ذلك الوقت منعمسة في الخضم الفارسي . وقد أقبل أهل العراق على الاسلام ، وتقبلوه في يسر وسهولة وكذلك فعل الفرس فتركوا مسيحتهم في سرعة مدهشة وصارت لهم في الاسلام صورة مميزة لا يزالون يحتفظون بها الى الآن .

وقد أخذ الخلفاء العباسيون الذين أقاموا ببغداد ثقافتهم من الملوك الساسانيين ، وبذلك امتازت الحضارة العربية بأنها مزاج من الحضارات الاغريقية والرومانية والفارسية . ولم يحدث في تاريخ الثقافة الاسلامية ان شعر أحد بأية فجوة الا بعد ان غزا الأتراك والمغول بلاد الاسلام وأصبح لهم النفوذ والسيطرة .

وقصارى القول انه على الرغم من محاولتنا تلمس الأسباب التي أدت لها في الماضي أثر في نجاح الاسلام السياسي . هذا النجاح العظيم فلا يمكن أن نهمل التأثير العظيم النابع من البساطة والحكمة والاعتدال الذي تروا « محمد » في نفوس أتباعه فمتلأت به قلوبهم من بعده .

والواقع انه يحق للمسلم ان يعترف بكل هذه الميزات عندما يقرأ تاريخ هذه الحقب ولا سيما عندما يدرك ان هذا الدين الذي يعتنقه هو الدين الذي ارتضاه له ربه . وان أول دعامة من دعائمه : لا اله الا الله محمد رسول الله . دين المحبة والمساواة . دين السلام والاخاء .

قال المستشرق الانجليزي « ر. ه. فولت » في كتابه « حقيقة الاسلام » الجهاد في سبيل الله أو الحرب المقدسة دفاعا عن الدين والوطن ضد الكافرين الذين ينامسون المسلمين العدا . ويقفون في سبيل دعوته . عشرة ، عمل مطالب به كل مسلم وفي حكم الفرائض . وكثيرا ما استدل بها اليها بدليل نزول كثير من آيات القرآن تحض المسلمين على الجهاد وتشتعل على وعود فيها الخير الكثير والثواب العظيم في الآخرة . وهناك سورة كاملة تكاد تكون كلها حضا على الجهاد في سبيل الله : « كتب عليكم

القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خيرا لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم » .

« ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما »
« انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون » .

« ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن . ومن أوفى بعهدده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » .

« ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله » .

وللقرآن في هذا المقام طريقة فريدة عندما يحض المسلمين على القتال يشبثهم ويقوى روحهم المعنوية حتى ينزلوا الى المعركة وهم واثقون من النصر ماداموا متبعين لأوامر قوادهم ، لأنه يبين لهم أن النصر ليس معقودا على الكثرة العددية ولكن على قوة الايمان والصبر : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » .

« ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » .

ومع ذلك فان هذه الحرب لا تقوم اعتباطا ولا يتلمس لها المسلمون أوهى الأسباب ، لأن لديهم القوة التي تبدد شمل عدوهم ، وعندهم الوعد من ربهم بأنه يشتري منهم أنفسهم بأعلى ثمن ، ذلك الثمن الذي يتمناه كل مؤمن بربه .. بل على العكس من ذلك لا يقدمون على هذه الحرب الا مضطرين بعد نفاذ كل حيل السلم فهم يتلمسون طرق السلام والبعد عن مشيرات الحرب ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

« وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، انه هو السميع العليم » .

فليس الاسلام دين حرب وسفك دماء ، ولكنه دين سلم واخاء يعمل على نشر مبادئه بالحسنى كما يدفع أعداءه باللين ، فان عجز لجا بعد ذلك الى القوة . .

وقد كان خليفة المسلمين أيام الامبراطورية الاسلامية يجمع بين مختلف الزعامات ، فهو الزعيم الدينى والزعيم السياسى والقائد الأعلى للجيش الاسلامى فى مختلف الميادين ، وذلك لأن الحرب المقدسة لم تكن تختلف عن الحرب السياسية فى شىء بل انها تسيران جنبا الى جنب .

بيد أنه عندما ضعفت الدولة وفقد الخليفة مركزه هذا أصبح الجهاد فى سبيل الله عملا يتوقف على الصفات الأخلاقية الشخصية ، وعلى ما يتستع به المسلم من قوة الايمان وثبات العقيدة ، ولقد بذلت فى السنوات الأخيرة جهود كبيرة لاهياء تلك الحرب المقدسة ودفع المسلمين الى الجهاد فى سبيل الله وسوف تكمل هذه الجهود بالنجاح والفوز والانتصار ان شاء الله .

ولما كانت العقيدة الاسلامية قوية بالحق الذى تنادى به قوية بانها لا تجعل فضلا لعربى على عجمى الا بالتقوى ، وبأنها لا تجعل لغير الله على الانسان سلطانا ، أسرعت الى الانتشار فى ربوع الأرض كلها كما تسرع كل حقيقة صادقة الى الانتشار وتمكن الاسلام من العقول والقلوب بقوة سلطانه ، لذلك تعاقبت على أمه دول حكمتها وقهرتها وتحكمت فيها ، ولم يغير ذلك من اسلامها ولا غير من ايمانها وما تزال أوروبا اليوم تحكم بعض الشعوب الاسلامية وتتحكم فيها ، وان يغير ذلك من ايمانها بالله شيئا . فأما الذين يأخذون المسلمين اليوم بالسيف فيسيرهم . كى تصال عندهم كلمة الأنجيل . أن يؤخذوا بالسيف جزاء وفاقا .

وحكم العالم اليوم بالسيف هو سبب الأزمة الروحية والنفسية التى يجتازها العالم ويثن من هولائها . وقد آمنت الدول التى تحارب الاسلام بالسيف أثناء الحرب العالمية الماضية منذ كثر من خمسين سنة . فبمساعدة الحقيقة ، فأرادت أن تقر حكم السلام فى العالم . وقامت عصبة الأمم لتحقيق هذه الغاية .

لكن روح السلام لم تسد العالم بعد ، لأن أساس الحضارة الغالبة فيه هو الاستعمار ، الاستعمار القائم على أساس القوميات وتنافسها ومحاولة كل دولة قوية استغلال الدول الضعيفة . ومن حق كل أمة مغلوبة على أمرها ، بل أول واجب عليها ، ان تعمل لتحطم نير الغالب ، ولذلك كان الاستعمار بذرة الثورة والحرب نواتها . واذا ما بقى الاستعمار فلن يكون للسلاام الغلب ، ولن تضع الحرب أوزارها الا ظاهرا ، وستظل الأمم ينظر بعضها الى بعض نظرة التوجس والحذر ، بل نظرة التربص للاغتيال ، وان ما نشاهده اليوم من النضال بين الكتلتين الشرقية والغربية في سبيل التوسع في الاستعمار السياسي والاقتصادي ، والتنافس في التسليح ، والاختراعات الحربية الحديثة المهلكة ، مما يجعل العالم يعيش في حالة من القلق والتوتر وحرب الأعصاب ، وأنى يكون سلاام وهذه النفسية باقية .

اننا نكون السلاام . يوم يغير الناس في مختلف أمم الأرض ما بأنفسهم . ويؤمنون بالسلاام ايانا حقيقيا ، ويقيئون على أساسه تعاليمهم ويجسعون أمرهم باخلاص على الوقوف في وجه كل محاولة تعكر صفوه .

واننا يكون ذلك يوم لا يكون الاستعمار أساس حضارة العالم . ويوم يرى الناس جميعا في مختلف بقاع الأرض أن واجبهم الأول أن يعين قويهم ضعيفهم . وأن يرحم كبيرهم صغيرهم ، وأن يهذب عالمهم جاهلهم ، وأن ينشروا لواء العلم في نواحي الأرض جميعا ، حرصا على أن يسعد الناس به . لا على أن يتخذ أداة لاستغلال الشعوب باسم العلم ، وباسم الصناعة التي تستفيد من العلم ، يوم يؤمن العالم كله بهذا المبدأ . ويوم يشعر الناس جميعا بأن العالم كله وذن لهم ، وبأنهم جميعا اخوة يجب أحدهم لأخيه ما يجب لنفسه ، يومئذ يسود بين الناس التسامح ، وتسود بينهم المودة . ويومئذ يتخاطبون بلغة غير التي يتخاطبون اليوم بها ويتبادلون الثقة فيما بينهم . وان بعد بينهم المزار ويعملون الخير جميعا لوجه الله ، ويومئذ تنتفى الخصومة والبغضاء وتعلو كلمة الحق ويسود السلاام الوجود كله ويرضى الله عن الناس ويرضون عنه .

وحق قول الله تعالى : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنجاري والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

أين هذا مما يسود العالم اليوم باسم الحضارة الغربية من تعصب للقومية وللدين ، وما يجره هذا التعصب من حروب وكوارث ، فلو أمعن القارئ في التسامح الذي تحمله هذه الآية الكريمة السابقة ، لأدرك حقيقة التسامح والتسامي في الاسلام ، وأنه لا تفرقة مطلقا بين الناس ولا فضل لأحدهم على الآخر الا بالتقوى ، والمؤمنون في الآية الكريمة هم الذين صدقوا النبي عليه الصلاة والسلام ، والذين هادوا هم اليهود ، وقد سبوا باليهود من قولهم انا هدنا اليك أي تبنا ، والنجاري هم تبايع عيسى عليه السلام ، وتسميتهم بالنجاري هي من نسبته الى الناصرة وهي القرية التي ولد بها عيسى عليه السلام بفلسطين . والصابئون هم قوم يقولون لا اله الا الله ، وليس لهم كتاب ولا نبي .

هذا الروح السامي في تسامحه هو الذي يجب ان يسود العالم ، ان يريد ان يستقر في العالم كله السلام ليسعد الناس به ، وان حياة رسول السلام ، كما رأيت ، حياة انسانية بلغت من السمو غاية ما يستطيع انسان ان يبلغ ، وأى سمو في الحياة كهذا السمو الذي جعل حياة رسول ليس الرسالة مضرب الأمثال في الأمانة والصدق والكرامة ، كما كانت بعد الرسالة كلها تضحية في سبيل الله وفي سبيل الحق الذي بعثه الله به ، تضحية استهدفت حياته من جرائمها لسوت مرات ، ذلك بعد ان اغراد قومه ، وهم في الذروة منهم حسبا ونسبا ، بالمال وبالملك ، وبكل المغريات ، وهم اراد الجاه والمان والسيادة والملك بدعوته ، ليدانها العرب اليه في تقدير ، ولو لم يكن مؤيدا بتقوى قاهرة من فوق نسبه تحفظه من ان يلقضت على تبايعه الآلاف العديدة التي تحاط بهم أي الناس في ذلك زمان ومجال .

وخلاصة القول : ان البصير بالتاريخ يشهد بعد ان المصطفى عليه الصلاة والسلام لم يسئل في حياته شيئا لارغاه أحد من الناس على الملوك في دينه ، ولكن الهدى هدى الله يهدي به من يشاء .

ما كان للنبي والمؤمنين أن يدعوا الى الله ودينه سالكين طرق العسف
والارهاب وهذا كتاب الله يأمرهم بالحسنى في الدعوة كما قال : « ادع الى
سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن »
وقوله تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن » .

انظروا أيها المستشرقون المتقولون الى ابداع كتاب الله فى الرد على
اهل الكتاب القائلين بأبوة الله للسبيح مع اشتغاله على أحسن آداب
المحاجة حيث يقول الله فى هذا الصدد : « ما كان لبشر أن يؤتية الله الكتاب
والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ، ولكن كونوا
ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » .

هذا هو الاسلام ، وهذا هو نبي الاسلام الذى كان آخر وصاياه :
ضعوا على قبرى جريدة خضراء ، هذا هو الاسلام دين القوة ، دين
الحرية ، دين العزة والكرامة دين السلام . والمحبة .

الفصل الثالث الاستعمار والقرآن

لقد برع الاستعمار في أساليبه اللولبية ، فأراد أن يصوغ ذلك المجون والفساد فلسفة ويعتبره ثمرة التفكير وتيجته المنطقية . فقال انه مذهب فلسفي قديم ، ذلك هو مذهب « الوجودية » ، ولكي يوهون على الشباب ادعوا أن بعض علماء الدين في أوروبا اعتنقه وقبله ودرسه .

أما ذلك المذهب فقد ابتداءً في بيئة دينية وأساسه تحرير الإرادة الإنسانية من التقاليد والعادات التي تجبرها وتجعلها غير مسؤولة عن عملها . وما أرادوا إطلاقها من قيود الفضيلة ، بل أرادوا تحريرها مما يعوقها عن الفضيلة . وما أرادوا إطلاقها من حكم العقل ، بل أرادوا إطلاقها من كل ما يشوبها لتخضع لحكم العقل لا لحكم الهوى . فالمذهب في نظر رجال الدين كان لإطلاق العقل والنفس من القيود التي تحول بين المرء والحق والدين . ولكن ما أن تولاه الفرنسيون بعد هذه الحرب . حتى انحرفوا بها إلى غير جادته المستقيمة ، فأرادوا أن يقيدوا النفس بالهوى بدل العقل . وبالرذائل بدل الفضائل والمحامد . بل انهم يدعون إلى الإباحية . تلك الدعوى التي لا تجد قائماً إلا قوضته . وينشرون بين الشباب ما يشير غرائزهم . ثم يقولون مع ذلك ان الشباب في كبت .. يشيرون كل ما يدعو إلى الاندفاع نحو اللذة البهيمية . وليس كل شاب واجداً . فيكون اضطراب النفس . وانحباس الأهواء المندفعة التي آثاروها . ثم يشكون مع ذلك من شرارت جريمتهم وما علمنا أن انطلاق الإنسان من كل القيود الأدبية والاجتماعية والاستهانة بكل القيم الإنسانية الموروثة ، والتي بها سبورها وعلوها .

مذهبا يدرس . وفلسفة تدون ويدعى اليها . ولكن فاتهم أن شباب الإسلام قوى العقيدة ، متثل بخلق الحياء ، حسب بيئته التي تربي فيها بين عمله وعشيرته ، وان هذا المذهب الفاسد ليس له مكان بين شباب العروبة وبلاد

الاسلام ، لأن خلقه الحياء وهو خلق الاسلام . فقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ان لكل دين خلقا . وخلق الاسلام الحياء .. وبذلك سيذهب أملهم هباء منثورا . « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » .

ولقد أقيمت ندوة في دار مجلة « لواء الاسلام » في مارس ١٩٥٩ مناقشة «الوجودية» حضرها بعض من كبار العلماء الأفاضل . ولقد ذكر مساحته « أمين الحسيني » مفتي فلسطين آنذاك ، الوجودية : بأنها دعوة سائلة تدعو الى الانحلال الخلقى ، والى التردد على جميع الشرائع والأنظمة . الأخلاق والتقاليد ، ولا تقييم أى وزن لأى شىء . وقد عرفها أصحابها بأنها كما ينهم من اسنما تعنى بوجود الانسان ، أى بشخصه وذاته . وكل اتجاه وجودى داخلى يصفونه بالمحرك الداخلى كالتأطيرة التى تدفع القطار . وتدعو لاتباع الشهوات وطاعة النفس والشيطان ، على خلاف كلام البوصيرى :

مخالف النفس والشيطان واعصهما وان هما محضاك النصح فاتهم

والدعوة الوجودية أول من قام بها رجل دانسركى اسمه « كونراد » ثم تابعه آخرون الى أن قام بهذه الدعوة رجل فرنسى اسمه « مارسيه » وكان يدعو الى حرية الجسد واتلاق الشهوات . وفى العصر الحاضر صار الفسيد الأكبر لها هو « بول سارتر » ومن أساطينها « جان كوكتوه » وغيره . . . ولكن هذه الدعوة سبقت اليها فى المدنيات القديمة الدعوة المزدكية» فى فارس قبيل الاسلام . «ومزدوك» دعا دعوة مسائلة وواسعة . وكان جمهور فارس تحت اضطهاد شديد . فخرج مزدوك بدعوة شيوعية. دعا فيها الى التساوى بين كل الطبقات والأفراد . وكان يرى الاشتراك فى كل السلع والأموال والنساء أيضا . وقال ان التملك والزواج من البدع البشرية المخاطئة . ومن الغريب أن هذه العقيدة صارت عقيدة الدولة والملك . واستمرت عشرات السنين . حتى حكم فارس « قيادة الساسانى » فحاربها وحرمها وقتل أتباعها وشردهم . ويقرب من هذه الدعوة دعوة «المانوية»

التي تدعو الى الاشتراك في الأموال ، وكان داعيها . ولقد قال أحد علمائنا
 انفاضلين : المحاربة للوجودية جهاد في غير عدو ، وذلك ان الدين فطرة في بنى
 الانسان . ولا يطرح الدين وراءه ظهريا الا رجل فسدت فطرته . والدليل على
 ذلك أن الوجودية التي سموها بهذا الاسم قديمة جدا . ولم ينظر لها أحد
 بطائل ولا خرج باتباع . كان في العراق في زهو الاسلام جمعية تدعو الى
 الالحاد والوجودية . وتتكون من رجال فسدت فطرتهم . وطس على
 قلوبهم ، فلا يحسون بشفافية الروح ، ولا بالدين . وكان هذا قليلا جدا .
 ولكن من مكرهم أنهم أطلقوا على هذا الصنف من الناس لقب « المفكرين »
 وأما غيرهم من أتباع الأديان فهم مقلدون لهم . فأخذ بعض الناس يعتقد
 مذهب المفكرين لكي يقال عنه أنه مفكر .

ويروى أن أحد الناس زعم أنه زنديق ليقال أنه فكر ضريف . فقابله
 شاعر وقال له : تزعم أنك زنديق ؟ فأجاب : نعم . فقال الشاعر :

لست بزنديق . ولكنما أردت أن توسم بالظرف

وكم من رجل أغلق باب الضير ليتوصل الى شهواته وهؤلاء هم
 الكثرة في هذا الصنف ويسون أنفسهم وجوديين . وليسوا بوجديين .
 والدليل على ذلك أنهم حينما يأخذهم الشيب يعودون الى التدين والى
 صوت الضير .

ولقد قام الالحاد في بلاد العرب نفسها في زهو الاسلام . وقرأت
 يدعو الى هذا المذهب ويقول :

خذى الدف يا هذى واضربى وغنى بأثار هذا النبي

تولى نبي نبي هاشم رجائي نبي نبي هاشم

ثم قال كلاما لا أستطيع أن تذكره فحذفته . وهذا الكلام

تسام السقوط والانحلال . . والخلاصة أن هذه دعوات قديمة . والله
 خلق العالم فيه البر بجانب الفاجر . وفيه التمسك بجانب التمسك . وفيه
 المؤمن بجوار الكافر . وفيه المستقيم بجوار المومج . وفيه التدين بجانب
 أودع في الفطر البشرية ما يجعل المبتدئين يهابون التماسكين . وهؤلاء الناس

الشراذم لو أقسنا لهم ملء الأرض حججا لاستقبلوها صما وعيانا . كقوله :
 « فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » . وليس هناك
 من شك في أن الوجودية قائمة على انكار وجود الاله ، وعلى أن الانسان
 سيد نفسه ، وعلى أن الأخلاق شيء لا وجود له ولا اعتبار . وفي ذلك يقول
 زعيمهم « كيركجورد » : لا يصح أن يقال ان الله موجود لأن الموجود هو
 الانسان . والذي يتغير هو الانسان فله زمان . أما الله فلا زمان له ، فهو
 غير موجود ، بل هو غير كائن .

وفي هذا انكار صريح لوجود الله . وهو يقول : ان الله ان وجد فانه
 لا يستطيع القيام بنفسه لأن وجوده نافع لوجود الانسان . فالله عنده خادم
 للانسان لا سيد له .. وهذا الكلام ان كان فيه تردد في وجود الله وعدم
 وجوده عندهم فان « سارتر » يقول : ان الوجود الذاتي للانسان متقدم على
 الماهية .. ويعنى بذلك أنه ليس هناك خالق للانسان . وان الانسان هو الذي
 خلق نفسه . وعلى ذلك فليس له وجود ذاتي ، وليس هناك علة أولى خلقت
 الانسان . وان ما ندركه الآن في الذهن من الوجود الماهوي قد صنعه
 الانسان نفسه بعد وجوده . وكل انسان يصنع لنفسه الصورة التي يختارها.
 فهو في غير حاجة الى الله . فلا ضرورة لوجوده . وعلى ذلك تركوا الاله كما
 يقول « سارتر » ، يموت في غير ضجة ، وهو لون عن الانسان أنه وجد بلا
 داع . ويسعى لغير غاية ، ويسوت بالمصادفة . وهذا فيما اعتقد ما حكاه
 القرآن على لسان الدهريين حين قال : « وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا
 نسوت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر » .. فالانسان في نظرهم هو كل شيء .
 فهو الذي خلق نفسه ، وهو الذي يصنع لها الصورة التي يريدتها . ويفعل
 ما يشاء بحض ارادته وحده . وأما عن الأخلاق فانهم ينكرونها البتة لأن
 الذاتية المنفردة للانسان عندهم تتنافى مع الأخلاق الجماعية ، اذ أن التقويم
 في الأخلاق الجماعية أساسى ، والتقويم له معيار لا بد من وجوده . فلا بد له
 من العموم . والعموم يتنافى مع الفردية التي هي أساس المذهب ، فلا اعتبار
 عندهم لكل القيم الأخلاقية . وهذا يتنافى ويتعارض مع كل الأديان . الا أنبي
 أذكر على سبيل المثال ان الايمان بالله عندنا أول أركان الاسلام . والله تعالى
 يقول : « وان هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون » .. ويقول :

« قل هو الله أحد » .. والدين الاسلامي أعطى للفرد حريته ولكنه قيد هذه الحرية ، وأقام نظاما يؤدي التزامه لخير الدنيا والآخرة . وأما ترك الناس فوضى ، واعتبار كل فرد أمة بذاته فهذا الأمر هو الفوضى بذاتها التي تؤدي الى الهلاك ، والاسلام قد بنى على الأخلاق التي لا بد منها لاستقامة الكون: فهذه الدعوة تحمل عوامل هدمها وهي تناقض الدين والفضيلة السليمة .

والواقع أن الوجودية نشأت أول أمرها في بيئة دينية مسيحية . وكان يراد بها في بدء نشأتها لوزن من الإصلاح الديني . وهو تخلص الفرد من السلطات الكهنوتية المصطنعة على أيدي الذين ادعوا لأنفسهم سلطات روحية ودينية فوق اختصاص البشر . فجاءت الوجودية الدينية لتخلص الفرد من هذا الاسار ، ولتعطيه حرية وذاتية . ولكن الوجودية انحرفت بعد هذا فاعتسفت وخرفت . وابتعدت في الضلال والبهتان ، لأنها انتقلت من مجال الحرية المعقولة أو المحتملة الى منتهى الفوضى والانحلال .

والوجودية تخرف في تعابيرها أحيانا حتى لا تفهم كقول « بول سارتر » في كتابه « الكينونة والعدم » . مجال واقع الوجود في ذاته . ومجال تجارب الكائن لأجل ذاته . وهذا العالم وجد بلا داع . ويسمى لغير غاية . قبل بنظر هذا مع ما نرى في هذا الوجود من ابداع واتقان واحكام . وهذا الوجود في يوم في الكون من دقائق النظام والاتساق .

والوجودية تنكر الاله وتسخر من فكرته في جرأة وتجاوز . كقول « سارتر » مثلا : ان وجود الله افتراض غير نافع . وهو يفتقر كثيرا . فلهذا نلعنه . يقول هذا مع أن الله في كل شيء آية تدل على أنه الواحد . ومع ذلك الاله من الموضوع بحيث لا يحتاج الى دليل . وبسبب هذا الالهية الوجودية لله تراها تحارب الأديان . وتتعاون تعاون وثيق تعري الى الشيوعية . كما يقول « بول فولكويه » في كتابه المعنون « الوجودية الى الشيوعية » . واذا عرف المرء طريقته الى الوجودية فقد أصبح قادرا على الانتقال الى الشيوعية .

وان الوجودية قائمة على غير الفطرة . لأن الانسان مدني بطبعه . فلهذا أن يخضع لنظام يحدد العلاقة بينه وبين غيره . وهذا النظام لا يوجد إلا اذا

كانت الحرية حرية مدنية ، بأن يكون لهذه الحرية حد . فيجب أن تكون الحرية بحيث يتكون من الأفراد مجتمع . واذا لم توجد حدود للحرية الطبيعية سادت الفوضى بين أفراد المجتمع ، وانعدم التعاون ، واندثرت الحضارات ، وماتت كل المدن التي وصلنا اليها . ومن هذا يتجلى لنا الخطر الأكبر في وجود مذهب الوجودية .

قد لا يكون هذا الواقع قد تحقق بصورة عملية بسبب أن هؤلاء الوجوديين يعيشون على هامش مجتمعات صالحة ، ولو تصورنا مجتمعاً من هؤلاء يعيش لنفسه فلا يمكن أن يقوم في الأذهان الا صورة لمجتمع لا يؤدي التبعات اللازمة لحياة أفرادهِ . فتكون النتيجة هي العجز عن الحياة ثم الانعدام والفناء .. هذه هي الفطرة: حرية مدنية مقيدة ، لا حرية مطلقة، بغير هذا لا يعيش البشر ، والا استحال الانسان الى حيوان يعيش كما يعيش الحيوان في الغابة . ولا يوجد عاقل يقبل على نفسه أن يعيش كالحيوان أو خنس .

ومذهب الوجودية ضد فطرة الانسان ، وسيقتضى على نفسه بنفسه . ولا يمكن أن يوجد له أتباع ، ولا شك أن قيام هذا المذهب من شأنه أن يحرض الناس على الاعتداء على الأديان وأن يوجد التشكيك في الفضائل والأخلاق التي هي قوام المجتمع . والفلسفة التقليدية أو المثالية ، تقول : ان وجود الشيء دليل على وجود مثالي تصوري سابق عليه . ومن هنا يبدأ الفكر الإنساني رحلته المباركة في البحث عن وجود الله ، إذ أن وجود الصورة يقتضى وجود المصور لأنه هو الذي ينشئ الكائن على هذه الصورة التي وضعها ..

أما الفلسفة الوجودية فانها تؤمن بعكس ذلك تماما . فهي لا ترى أن هناك صورة مثالية سابقة على الوجود .. واذن . فالوجودية لا تعارض الفلسفة الهادفة فحسب حين تنفى وجود صورة مثالية للانسان يجب عليه تحقيقها ليترتب من الكمال المطلق . بل انها تعارض أيضا الأديان السماوية وغير السماوية على الاطلاق .. وهكذا يجد الوجودي نفسه وقد انقلت من عقال التقاليد والاعراف والأديان . انسانا منبت الصلة بساقيه بما حوله من

الوجود والعالم وعليه هو أن يحدد وجهته ويختار طريقه . بل بسعنى أوضح له أن يحقق وجوده ويؤكد ذاته بكل ما تزين له أهواؤه ونزواته من أساليب لا يحترم مجتمعا ولا يرجو وقارا لخلق أو دين لأنه ليس مسئولا أمام كل أولئك بل هو، يحمل هذه المسؤولية تجاه ذاته .. ومن ثم فالوجودى فى قلق دائم وحيرة لا تنتهى لأنه هو الوحيد المسئول عما يؤول إليه أمره . ان عليه وحده أن يسير لا يستشير دليلا ولا يأنس الى رفيق ولا يعرف له أيضا وجهة أو غاية .. كل الذى يعرفه أنه موجود بلا رابطة بغير ذاته . وهو لا يعنى لانطلاقات وجوده هذا أمرا . بل يجد فى هذه العبودية ما يؤكد وجوده ويحقق ذاته ثم هو لا يعنيه بعد ذلك فى شىء أن يسوقه نزوعه الى عمل ايجابى أو سلبى الى هدم أو بناء ، الى ايسان أو الحاد الى شىء أو لا شىء .. فكل هذه سفاسف يجب ألا يعكر بها الوجودى صفو وجوده .

ويعلق الأستاذ الفاضل « محمد لبيب البوهى » على مثل هذا الموقف بقوله : ويبدو أن الفرد الوجودى هو لا وجودى بالنسبة للحياة ذاته . ذات أنه خارج على نظنها ومقدساتها فهو ليس منها وقد يكون حربا عليها قد لا يبالى مثلها ولا يهتم مصيرها . فهو فى حالة عدم وجود معنوية أو لا وجودى .. اذن الوجودية . دعوة الى التحلل من قيود المجتمع والقيود هذه القيود أخلاقية أم دينية ليفرغ الانسان الى ذاته يحققها ويؤكد وجوده بمعاناة تجارب الحياة وممارسة لذاتها بمجرد أن يلجأ الى التسامح والى نزوع داخلى فهو دائما يلمث وراء نزواته وهوائه . ومعنى هذا أن الوجودى فلسفة هروبية لا تقدر مسؤولية الحياة فى مجتمع توافع على تضارب معانيه وآمن بقيم ثابتة . هى فرار من مسؤوليات البناء الحضارى للحياة الإنسانية أفضل .

ولعل من حسن حظ الوجودية أنها تجد فى بعض الأحيان مخرجاً للحياة ما ينبىء لها أن تبيض وتفرخ . فهذه الحروب التى تفتعلها المجتمعات تزعزع فى أعناق الانسان قيمه الثابتة فى الحياة التى تفتعلها المجتمعات الهدامة والنزعات الحسية والهروبية كالمجدهدات التى تفتعلها المجتمعات التى يجتذب الشباب الذى اهتز يقينه بالمبادئ . « المثل والأهداف »

ولو نظرنا الى الوجودية لرأيناها كلمة مرنة يمكن أن تتسع لأفكار كثيرة بينما نرى في الاسلام وجودية من نوع آخر ، وجودية محلقة تجمع في وثام وتكامل في صعيد واحد بين الفرد بدوافعه المهدبة القويمة والمجموع بأهدافه الايجابية البناء ..

انه لا يصادر حرية الانسان في تحقيق دوافع الآخرين . يجب أن يتحقق وجودي الى جانب وجودك . الى جانب وجود الآخر . لكل انسان في هذه حياة دوافعه النفسية وحتى لا تتنافر هذه الدوافع حين تنطلق الى اجراءات عملية على مسرح الحياة يجب أن تتناولها لمسات قادرة على تهذيبها وتقويتها وليس أقوى من الدين على تطهير دوافع النفس وتصعيدها الى الكمال المطلق لى « الله » .

فالاسلام يحدد للانسان معالم وجوده مع نفسه ومع الناس ومع وطنه . وجوديته من حيث هو فرد تلزمه أن يكون فردا مثاليا متحليا بالفضائل . وجوديته من حيث هو رب أسرة أو عضو منها تحدد له واجباته العائلية التي لا يتحقق وجوده العائلي الا بها .

ثم يأتي دور « سارتر » كبير الوجوديين المعاصرين فيعلن أن الوجودية عنده نوعان :

- ١ - وجود ثابت يتشثل في الأشياء الجامدة ..
- ٢ - وآخر متغير يتشثل في الانسان .

ويذهب سارتر الى أن الوجود أصله اللاوجود (والانسان يحاول أن يوجد نفسه أي يخرج بذاته من اللاوجود - من الوجود - من العدم) . فالحركة المستمرة القائمة على حرية الاختيار الارادى للفعل هي المحاولات اللازمة لتحقيق الوجودية . وسارتر يرفض كسابقه من الفلاسفة الوجوديين فكرة وجود الله ، ويحتقر رصيد الفكر البشرى ثم يروح مثلهم يدور في حلقات مفرغة .

وفي عنفوان هذه الثورة على مقدسات البشر ، لا يتحرج الوجودي من تسفيه المعاني الكبيرة واهدارها : الدين ، الثقافة ، العقل ، التقاليد .

الأديان حتى الحب استحال هو الآخر على أيديهم من مشاركة وجدانية مشرقة الى استمتاع فردي ، الى تبادل منفعة الى عملية تجارية كل طرف فيها يحاول جاهدا أن يكون هو الرابح على حساب صاحبه ، ثم يذهب البائع والمشتري كل الى حال سبيله .

والا فالحب هو سقوط الذات لأنها أسلمت مقودها الى شيء ليست لها ارادة في اختياره وينتهي المطاف « بسارتر » بعد كل هذا الجهد الى أن الانسان يستحيل عليه أن يحقق ذاته كما ينبغي فيظل هائسا وراء الوجود المثالي الذي يستحيل عليه تحقيقه وذلك هو سر قلقه -- فليظل هكذا ما دام كذلك قد وجد ..

ويرى « مارسيل » أن الأصل الذي وجدت الذات أنه قيد نفسها هو الجسد الانساني . ومن هذا الجسد بدأ بعد ذلك الانبعاث الخارجي لتحقيق الاتجاهات الوجودية -- وحين يحتضن الجسد هذه الذات تتولد الأحاسيس أحاسيس لا ترتبط بتجارب ماضية . وانما هي تتدفق تلقائيا عسالا تسلا فراغ الفلك الوجودي .

واذن فالوجودية عنده تتركز تركيزا تاما في قوة ايجابية صاعدة نحو الذات المطلقة ويقف مارسيل عند هذا الحد فلا يبين لنا كيف يكون الاتجاه الى الأعلى ؟. وكيف يكون ذلك الاسراء أو المعراج الوجودي الى المطلق ؟. ثم ماذا يقصد بهذا المطلق ؟ . كل هذه أشياء لا تنهم « مارسيل » في شيء بقدر ما يهم أن يلحق جواريه فن الاندماج مع الغير حتى لا يفقد الوجودي ذاته في الزحام . انه لا ينكر وجود الناس والأشياء من حول الذات على أن يكون دورها في حياة الوجودي مجرد أدوات يارس عن طريقها وجوده ..

ان ثمة اتصال بينه وبينها بيد أنه اتصال حسي يتدرج على نحو الانحاء الى اتصال عاطفي !. ثم يخطو « مارسيل » بعد ذلك خطوة « ماركس » يقف بعدها حائرا قلنا اذ تصدمه مشكلة الخلود فهو يعترف به « لا حياة ولكن لا يجد له تفسيراً . ويبقى « مارسيل » وحساده من رحلته الطويلة الشاقة القلق والعجز والذهول والتسرق الداخلي !

وان انتقام الحياة من الذين ينحرفون عن طريقها الطبيعي المرسوم ،
لواضح كل الواضوح من موقف الوجودى حينما يفشل فى تحقيق ذاته على
الصورة التى تسليها عليه دوافعه النفسية ... ما هو تفسيره مثل هذا
الإخفاق ؟ هل يرجع الى قوة غالبية على نفسه يسميها بعضهم التدر ويسميها
آخرون الله ؟.. وبعد أن يكون الوجودى قد أعلن انكاره لوجود الله ، يقف
حائراً لا يجد ما يقول وحينئذ لا يسعه الا أن يفر الى ذاته .. الى قوقعته
النفسية ليمارس فى ظلستها وجوديته الغامضة .. ويجتر فى عزلة مرارة
تفشل والقلق والخطيئة !.

والإنسان عند الفيلسوف الوجودى « مارتن هيدجر » قد وجد
لتحقيق رسالة السو لكى يحقق وجوديته بالصعود دائماً ، فوجود الإنسان
عنده يتحدد من رسالته ووجوده وحده هو الوجود الأساسى فى الكون
، ما عداه ليس الا اطاراً لنشاطه أو عوامل مساعدة له فى ممارسة وجوده .
واذن ثمة علاقة تربطه بالوجود البشرى العام أو تربط الوجود البشرى العام
بوجوده هو . وهو لا ينكر أن مثل هذا الوضع ينشئ الزامات معينة على
عائق الإنسان باعتباره مسئولاً عن تحقيق ذاته أمام نفسه فى الاطار البشرى
نعام . وحين يهتم الوجودى بالانطلاق فى سبيله على هذا الضوء الخافت
يسارع « هيدجر » الى حواريه ليكشف فى قلوبهم الرعب والشك والقلق
انه يوهسهم أنهم فى حرب مع الحياة والأحياء .

وان الطريق ملىء بالأشواق والذئاب والعموض .. واذن فالقلق
والاشفاق والخوف وما اليها أسلحة ضرورية ليواجه بها الإنسان الوجودى
مصيره حين ينشئ فى تحقيق ذاته وحين يعن للوجودى أن يتساءل عن
المصير . ولماذا خلقنا ؟. يجيبه « هيدجر » فى بساطة : خلقنا لنسوت ..
لنموت فى منطق الوجودى هوة ليس لها من قرار ، انه عدم . والعدم
مجهول وغامض وخيف .

ومع ذلك « هيدجر » لا يلبث أن تتعد به شطحاته فترى له نظرية
تقول : ان الإنسان غير موجود ثم يسير وراء دوافعه الذاتية التى عليه أن
يتحققها ليصبح موجوداً !.

والوجودى له مفاهيمه ومعاييره الخاصة فالمجتمع عنده خرافة كبيرة يتذرع بها الانسان الضعيف ليستر بها ضعفه ويمتنع شخصيته في شخصيات الآخرين . لقد عجز عن تحقيق دوافعه النفسية وتأكيد ذاته من بين القطيع البشرى فلم يبق أمامه الا أن يعترف بهذا الاضطبوط الذى يسمونه المجتمع وراح يتعبد في غباء لقواعده ومبادئه وتقاليده .. واذن فلكى تكون انساناً جديراً بوجودك . حقق هذا الوجود . اهزأ بالمجتمع ، اسخر من مفاهيمه صر خدك للناس وافعل بعد ذلك ما يأمرك به هواك !

وما يكاد الوجودى ينفذ هذه الوصايا الخرقاء فينفض من المجتمع يده حتى يلقيه كاهنهم الكبير « سارتر » أنه لا يوجد لدى الله أى حل لأى مشكلة من مشاكل الوجود ، لأن الله غير موجود . ولأن الحلول الدينية للمشاكل تحد من الحرية الوجودية !.

واذن فالدين عند الوجودى باطل الأباطيل . صنعه خيال الانسان لعنه يجد في رحابه الفرار والسلوى . اذا أصابه مكروه أو ضل في الحياة سعيه أما الوجودى فيكفيه أنه عاش حياته طويلاً وعرضاً ومارس حريته دون قيد ولتكن النتيجة بعد ذلك ما تكون قلقاً أو ضياعاً أو حيرة .

فاذا وضعنا بعد ذلك العقيدة - أية عقيدة - والوجودية في كفتير الميزان ترى أن العقيدة تجبع التطيع الضال في تيه الحياة على طرف من طرفه واضحة وتقوده الى هدف كبير .

ومع هذا يابى الوجودى الا أن يتكذب الطريق ويصنع من كل شيء ويتود !!..

واذا كانت العقيدة ترتفع بتساحبها الى الأفق الانساني الروحى حتى تتجاوز نشاطه اليومى مدى الاحداث الكمونية فان الوجودى يابى الا أن يترك نفسه في سجن ذاته ليضمن ممارسة معارف حابطة . وانما الوجودى يرى انها جوهر الحياة .. ان اللغة الحسية عنده هي كل شيء . فلا شيء على الاطلاق !!

والوجودية تعتبر خيانة للمثل العليا . والتميل الى الظلم الممارس والروح كفاحية أو تقدمية . وتحدير متنع للتقوى العاملة . وايحاءات جنونية

في وثبات هستيرية من داخل النفس ، وتصميم أحق على تنفيذ اللاشيء
وهي أخيرا فرار من كل ما اصطلح الناس على أنه خير وحق وجمال ..
والخلاصة أن الوجودية بوضعها الحاضر اباحية مطلقة ، وانطلاق
من كل القيود الدينية والخلقية والاجتماعية . وعندئذ تجد الشيوعية بعد حل
العروة الدينية الفراغ النفسى الذى تسأله . ولمحاربة الشيوعية لا بد من
القضاء على الاباحية والدعوات المنحرفة .. وبيان ما يؤدي اليه المذهب
الوجودى من انحلال اجتساعى وقضاء على نظام الجماعة . ولا بد من تثبيت
العقيدة لتكون سدا منيعا دون هذه الدعوات المنحرفة .

وإذا كانت الوجودية تنافى الاسلام . فان على الدولة أن تبادر بالقضاء
على هذه الآراء الهدامة وهذه المبادئ . وهذا من حق الحاكم . وأبو بكر
الصديق رضى الله عنه يقول : لا بد لهذا الدين من يقوم به .. والواجب
هنا مدنى ودينى ، والنظم الاسلامية دينية وحيوية واجتساعية ونحن نعيش
في مجتمع مسلم لا يقبل أن تفشو بين أفرادها أمثال هذه الدعوات الاجرامية
الهدامة . ولقد صدق من قال : ان القرن العشرين يسمى بعصر «الايديولوجية»
أو عصر الحياة على مبدأ وعقيدة .. وليس أكثر من المبادئ والعقائد التى
نسمع عنها فى هذا القرن ويسونها «الايديولوجيات» هذه العقيدة الدينية
توجد كما ينبغي أن توجد ، وانما الضلالة فيمن يريد لها على غير سوائها الذى
نستقيم عليه ولا تستقيم على سواه .

هذه العقيدة الدينية لا توجد اليوم لتبذ غدا . ولا توجد على الأيام
لنعرفين دون الجاهلين ، وللعاملين دون الخاملين . ولمن يطلبون الخير للناس
دون من يطلبون الخير لأنفسهم . ولمن يعتقدون دراية ومحبة دون من
يعتقدون تسليبا ورهبة . ولمن يسعون سعيهم الى العلم والايمان دون من
يعتقدون فى مواضعهم منتظرين . وقد يعتقدون ، وهم يجهلون أنهم قاعدون
لا يعدون ما الخير وما المنتظر ؟ ان علموا أنهم منتظرون !

هذه العقيدة بنية حية ، قوامها دهور وأمم ، ومعاش وآمال ونفوس
خلقت ونفوس لم تخلق ونفوس يخلق لها تراثها قبل أن يصير اليها . وسيلها
جميعا أن تهتدى الى قبلة واحدة تنظر اليها فنضى قدما أو تفقدها فى الأفق
فهي أشلاء مزرقة كأنها أشلاء الجسم المشدود بين مفارق الطريق .

ان القرن العشرين منذ مطلعہ يعرض العقيدة بعد العقيدة على الانسان وعلى الانسانية ولا نعلم أنه عرض عليها حتى اليوم قديما معادا أو جديدا مبتدعا هو أوفق من عقيدة القرآن وأوفق ما فيها أنها غنيت عن الاختراع والامتحان . وانها على شرط العقيدة الدينية من بنية حية . شملت ملايين الخلق وثبتت معهم وحدها في كل معترك حين خذلتهم كل قوة يعتصم بها الناس وان المنصف لا يستطيع أن ينصح لأهل القرآن بعقيدة في الانسان والانسانية أصلح من عقيدتهم التي يستوحونها من كتابهم . وان القرن العشرين سينتهي بما استحدث من مبادئ ومذاهب وبيولوجيات . ولا ينتهي ما تعلمه أهل القرآن من القرآن .

وان أهل هذا الكتاب يتدبرون القول . فيتبعون أحسنه اذا تدبروا فيه يأخذوا بعقيدة من هذه العقائد التي يروجها دعايتها باسم المادية أو الفاشية أو العقلية . ويريدون بها أن تكون على الزمن بديلا من العقائد الإلهية . ومن عقائد الغيب الذي يحسبونه معدوما أو موجود المعدود وقد استمع الناس الى المادية التاريخية فقالت لهم ان الانسان عسلة اقتصادية في سوق الصناعة والتجارة تعلق وتهبط في ضيقاتها بغير العرض والطلب وحسنت أرباح والكساد . أما الانسانية فقد نعتت الى المادية التاريخية فقالت انها (الانسانية عسلة اقتصادية في سوق) شيء لا وجود له مع طوائفها التي تحمق الأسعار والأجور .

واستمع الناس الى الفاشية فقالت لهم ان الانسان واحد من عنصرين أو عنصر مسود . وان أبناء الانسانية جميعا عبيد لعنصر السيد . والسيد قبل ذلك عبد السيد المختار بغير اختيار . واستمع الناس الى العقلية فقالت لهم قائل منها : ان « انسانيته » شيء لا وجود له وهو من الأذهان . وان الشيء الموجود حقا هو الفرد الواحد . وهو من محدوده حين يفعل ما استطاع من نفع أو كذا كلما أمن المغبة في آده وحده .

سمعوا أنه روح وجسد . ودنيا وآخرة . بيده مسود يفتد . وما شأنا شطره ويصبح له الوجود بقدر ما مسح له من غنبي الفناء .

وسمعوا انه انسانان . انسان صحيح مقبول ، وانسان زائف مدخول .
صحيح مقبول كل من اجتباه مولاه على هواه . وزائف مدخول كل من
خلقه ونفاه ، أو لعله لم يخلقه ودعاه اليه من دعاه . وسمعوا أن الانسان
يولد بذنب غيره ، ويسوت بذنب غيره ، ويبرأ من الذنب بكفارة غيره .
ويسوى بين النعمة واللعنة بقدر من الأقدار . لا نصيب له فيه من عصيان أو
نفاعه ومن اباة أو اختيار .

وسمعوا من القرآن غير ذلك فهم متدبرون يستمعون الى العقل كما
يستمعون الى الايسان اذا اطمأنوا اليه وثبتوا على اطمئنانهم اليه .

والانسان في عقيدة القرآن هو الخليفة المسئول بين جميع ما خلق الله
بدين لقلبه فيما رأى وسمع ويدين بوجوده فيما طواه الغيب . فلا تدركه
الأبصار والأسماع .

والانسانية من أسلافها الى أعقابها أسرة واحدة لها نسب واحد واله
واحد أفضلها من عمل حسنا واتقى سيئا وصدق النية فيما أحسنه واتقاه .

والله ميز الله سبحانه وتعالى الانسان بالعقل ، لأن العقل وازع يعقل
بما يحبه عما ياباه له التكليف . العقل فهم وفكر يتقلب في وجوه الأشياء وفي
واحد الأمور ..

العقل رشد يميز بين الهداية والضلال . العقل روية وتدبير . العقل
سيرة تنفذ وراء الأبصار . والعقل ذكرى تأخذ من الماضي للحاضر . وتجسج
لعبرة مما كان لما تكون . وتحفظ وتعنى وتبدىء وتعيد .. والعقل بكل هذه
الحالي موصول بكل حجة من حجج التكليف . وكل أمر بمعروف . وكل
شيء عن محذور ..

أفلا يعقلون ؟ أفلا يتفكرون ؟ أفلا يبصرون ؟ أفلا يتدبرون ؟ أليس
منكم رجل رشيد ؟ أفلا تتذكرون ؟

ان هذا العقل بكل عمل من أعماله التي يناط بها التكليف حجة على
المكلفين فيما يعنيه من أمر الأرض والسماء . ومن أمر أنفسهم . ومن أمر
خالقهم .. خالق الأرض والسماء لأنهم « ويتفكرون في خلق السموات
والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا » (آل عمران) .

« أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما
إلا بالحق وأجل مسمى » (الروم) •• ومن تمام التوافق بين أركان التبليغ في
هذا الكتاب أن الأمر فيه يجرى على هذه السنة فيما أتى به ، فريداً غير
مسبق عن رسالة النبوة .

إن الرسالة التي لم تعرف قط في التاريخ البشري قبل الإسلام هي
تسيير الإنسان بخاصة التكليف واعداده لخطاب العقل وبيانات الاقناع •
كانت الأمم قبل البعثة المحمدية ، تفهم أن النبوة استطاع للغيب وكشف
للأسرار والمخبات ، يستعان بها على رد الضائع ، واعادة المسروق أو الدلالة
عليه • ويستخبرونها عن طوابع الخير والشر ومقادير السعود والنحوس •
وكان من تلك الأمم من يحسب أن النبوة وساطة بين المعبود وعباده للتشفع
إليه بالهدايا والقرابين • وكانوا يطلبون وساطة الأنبياء دفعا للنوازل التي
يستحقونها وتنزل بهم • لأنها قضاء مبرم يتوقعه الصالحون والعارفون •
ويسألون المعبود في دفعه قبل نزوله ، فجاءت نبوة الإسلام بجديد باق له
تسبق له سابقة في الدعوات الدينية بل لاحاجة بعده إلى جديد ولا استطاعة
للتجديد • لأنه يخاطب في الإنسان صفته الباقية ، وخاصته الملازمة • وهي
خاصة النفس الناطقة بين عامة الأحياء أو خاصة الضمير المسئول الذي يحس
تبعته ولا تغنيه عنها شفاعاة ولا كفارة عن سواه •

فهى نبوة فهم وهداية ، وليست نبوة استطاع وتنجيب • وهى نبوة
هداية بالتأمل والنظر والتفكير • وليست نبوة خوارق وأحوال ثمرة البصر
والبصيرة ، وتروع الضائير بالتخويف والارهاب حيث يعيها قبول الاقناع •
إنها نبوة مبشرة منذرة لا تسلك لهم نفعا ولا ضرا ، ولا تعطل أناسا
غير ما يعملون لأنفسهم بشيئتهم إذا اهتموا بهداية العقل المنطقى •
السليم : « قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله • وأمر كنت أعلم
الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء • إن أنا إلا نذير مبشر •
يؤمنون » •

نعم ولا اغراء ولا مساومة على قربان أو على جزاء من ارتعد العناء
« قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول انى ملك إن
أتبع إلا ما يوحى الى • قل هل يستوى الأعشى والبصير أفلا تتفكرون » •

وقد جاءت سسته المعجزة ميسرة لصاحب هذه النبوة يوم مات ابنه ابراهيم وكسفت الشمس . فظن الناس أنها كسفت لموته . وأبى النبي - صلى الله عليه وسلم - الصادق الأمين أن يسكت عليها . فتكلم ليعلمهم أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفاً لموت أحد ولا لحياته .

وفيه بين للناس أن المعجزة لا تجدى من يكابر العقل ويأبى الاصغاء الى بينات الاقناع : « ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا اسنا سكرت ابصارنا بل نحن قوم مسحورون » •

ولقد تقدمت نبوة الاسلام دعوات كثيرة ، من أكبر الدعوات شأنها في تاريخ العقيدة ، وانكن لو عرضتها على مؤرخ ينظر في أدوار التاريخ لم يستطع أن يختتم دور النبوة في تاريخ الانسانية بدعوة من تلك الدعوات على جلالة شأنها ، لأنها جميعاً قد بدأت وانتهت قبل أن توجد في أذهان الناس فكرة الانسانية العامة وفكرة الانسان المسئول المحاسب على أمانة العقل والضمير

فنبوة بنى اسرائيل لم تزل مقصورة على سلالة بشرية واحدة ، تنزل بحاضرها ووعود مستقبلها عن سائر الأمم • و«عيسى» عليه السلام قد نقل الرسالة ثقلة واسعة حين أدخل أبناء ابراهيم بالروح في عداد أبنائه بالجسد ، وانكنه أدى رسالته وبقي الانسان بعد ذلك محتاجاً أشد الحاجة الى رسالة تخلصه من الاعتساف على غيره في النجاة من أوزاره والتكفير عن سيئاته والنهوض بشعبات صلاحه وتربيته روحه • ولن تفرغ أمانة النبوة في تاريخ الانسانية قبل أن يوجد الانسان الذي يخاطب بخطاب العقل ويحاسب بحسابه • ويحصل تبعاته على عاتقه ويشترك على سواء بينه وبين اخوانه من البشر في عبادة اله واحد هو رب العالمين • وليس بالرب الذي يخلق نعته لسلالة واحدة من خلقه ، أو لعشيرة واحدة يدركها الخلاص بفضل لم تفضله ، وحساب لم تضعه في موازينها بعسل يسينها •

فلم جاءت نبوة التكليف ، صرح في حكم العقل أن تختتم بها النبوات لأنها حاضرة في كل وقت يحضره الانسان العاقل المسئول ، وتحضره آيات الله لقوم يعقلون : « ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار

والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » •

ان قيام النبوة على اقناع العقل المسئول بآيات الكون . قد اختتم سلطان الأحبار والقادة . كما اختتم سلطان النبوات بالمعجزات وخوارق العادات • فلا يعذر الاسلام انسانا يعطل عقله ليطيع السادة المستكبرين أو ليطيع الأحبار المتسلطين بسلطان المال والدين : « قالوا فيم كنتم • قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » و« قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن سددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم . بل كنتم مجرمين » و « يأيها الذين آمنوا ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله » • « اتخذوا آحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » •

فلا يسقط التكليف عن العاقل أن يطيع المتحسين بطغيان الحكم أو طغيان الكهانة . ولا يسعه التكليف أن يسأل من يعلم ان كان لا يعلم لأن طلب العلم يحقق واجب التكليف ولا يعطله أو يلغيه • ويوجب على المتعلم أن يتبين من يسأل وهو مسئول عما يفعل : « وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » • فإذا سئى ختام النبوة باسم الحق في تاريخ الانسان . فاسم الحق أنه هو فاتحة عهد الرشيد في حده الانسانية الخالدة • قبل عهد الرشيد الذي أخرجته القرون الوسطى بسبعه قرون •

ومن عبث الجتهالة . ان يفهم هذا الميثاق الجليل فهم العنود الضعفاء فلا يعطى حقه من الفهم ولا حقه من التقديس . وتوسع من يفهمه في العلم فلا يفهم منه الا أنه حكر الأثرة يعلقه النبي على من بعده . ويسبق علم السخف وهو صورة لا تقبل التصور عن هذا النبي كيف تصوروه . على حقيقته أو على دعواه •

فهذا الحكر صنيع لا يصنعه نبي أم أتباعه بتصديق الأنبياء من بعده . وجهد جهده لينفى سلطان الغيب عن نفسه . ويطرد سعة المعجزه عن دعواه .

وهي طيبة منقادة بين يديه . فان جاز في حقه هذا الحكر المغتصب . فهل يجوز في حقه أن يفتصبه من الله وأن يأمن تكذيب الله اياه . وقدرته عليه ؟

يكثر في هذه الأيام لغط حول القرآن الكريم . فقد نقلت احدى الصحف ان الذين يدعون الى الشيوعية قد اتخذوا القرآن هدفا ليوهنوا من شأنه وشأن شريعته ورسالته وتعاليمه . وقالوها صريحة . لأنهم علموا أن مذهبهم هو والقرآن تقيضان لا يجتمعان . فاما القرآن واما ذلك المذهب الهدام . لأنه اما الأخلاق . واما الشيوعية . واما أديان السماء واما تلك المبادئ الأرضية . اذ أنها لا تفرض في الانسان الا فرضا واحدا ، وهو أن يتوافر له الغذاء والكساء . ولا تفرض له حياة روحية ومعنوية ومعان سامية مشتقة من معنى الانسانية فيه التي يتسيز بها عن سائر الحيوان ، ان لسان حالهم ينطق بأنهم يقولون ان هي الا حياتنا الدنيا نوت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر . كما قالها أهل الجاهلية قبل ظهور الاسلام ، وانتشاره . فكأنهم بعثوا من مراقدهم في ذلك المذهب الشيوعى . . . وقد اختص أولئك القرآن بسعاول هدمهم . وتوجيه ريبهم . واتخذوه هدفا يرشقون سهامهم المسمومة له . ويوجهونها نحوه . عساهم ينالون من هديه أو ما اختصه الله تعالى بحفظه خالدا باقيا الى أن يرث الله الأرض ومن عليها تحقيقا لقوله تعالى « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

لقد تهجسوا على القرآن الكريم فضعفوا عن جهل مبین في تواتره وجسعه وأخذوا يضربون بعضه ببعض بما يوحى اليهم شيطان الهوى والشهوة . فزعسوا ان في القرآن اختلافا كثيرا . فقد ذكر أن الانسان خلق من طين ، ثم ذكر أنه خالق من ماء مهين . وضمنوا هذا تناقضا ، وقالوا ان الاسلام أباح الرق ومكن القرآن لهذه الاباحة . . . وبذلك كشفوا عن حقيقة نواياهم . ليستيقظ المسلمون . ويستبين الأمر ان ساد هؤلاء وحكسوا . . .

وقالوا ان في القرآن أغلطا نحوية وبيانية ، ومن سخر عقول هؤلاء ، وضيق عقولهم . وقصر تفكيرهم . ان يقولوا في القرآن المجيد : انه لا يلزم من فصاحة كتاب من الكتب أن يكون من عند الله تعالى . الخ ، ما هو مفصل في هذا الباب وغيره من الكتاب . . . ولكي نبين لهؤلاء المستشرقين

الذين بعدوا عن طريق الحقيقة وساروا في دروب ملتوية لا يبغون من لفهم هذا ودورانهم الا تضليل صغار العقول والجهلاء عن الطريق الواضح المستقيم والبعد عن الحقيقة ، ولكن الحق ساطع لكل من يتبعه •

نزل القرآن على النبي - صلى الله عليه وسلم - منجبا في مدى ثلاث وعشرين سنة ، وذلك ليسهل حفظه ، فيودع صدور المؤمنين ، ولا يكتفى بوضعه في قرطاس يأتي عليه المحو والاثبات ، وليلتقى المؤمنون الوحي القرآني عن النبي - صلى الله عليه وسلم - فيتلون كما يتلو ، وكما تلى عليه من جبريل الأمين . ويكون ترتيل القرآن في مدى الأجيال المختلفة على النهج الذي رتل به النبي - صلى الله عليه وسلم - وبالأحرى على النهج الذي أوحى اليه . وبذلك لا يكون القرآن قد تواتر بالتأخر فقط ، بل تواتر مع ذلك بترتيبه . ولذلك لما اعترض المشركون ، وقالوا لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة . أشار الله سبحانه وتعالى الى هذا المعنى السامى ، وهو حفظ القرآن مرتلا ، كما جاء به الوحي ، وكما رتل محمد - صلى الله عليه وسلم - ولذا قال سبحانه في الاعتراض والرد : « وقال الذين كفروا لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا . فالترتيل الذي رتل الله تعالى به قرآنه المحفوظ الى يوم القيامة هو الذي توارثناه عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

ولقد كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يأمر بكتابة الآية ، كما نزلت ساعة نزولها ، ويقرأها على المؤمنين ليحفظوها . وبذلك تواتر القرآن مع الحفظ والترتيل فيلتقى حفظ السطور مع حفظ الصدور وهو الأصل وهو أيضا الذي حفظ القرآن باقيا هاديا مرشدا . « قالوا لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة ، لا نؤمن به . فأنزلناه قرآنا عربيا لعلهم يحذرون » .

ولما أتم الله نعمته ، وكملت هدايته بنزول القرآن كله ، دعا الله تعالى على الرسول - صلى الله عليه وسلم - مراتب ذم الرسول ، ووضعته في موضعها ، وضعت كل آية في موضعها من السورة التي اختارها الله تعالى ، والنزول قد فرق الآيات في الأزمان . فقد جمع الله تعالى ذم الرسول في آية واحدة أوحى به الى الرسول الأمين ، وبقراء جبريل وعرض الرسول لرباه وتربيته .

عليه . والمذاكرة المستمرة بين الروح الأمين والرسول الأمين ، والصحابة من بعد هذين الرسولين يحفظون ويرتلون ، حتى اشتهر جمع كبير بالحفظ والترتيل للقرآن كله .

ومافارق الرسول هذه الأرض ، الا بعد أن أودع القرآن الكريم قلوب المؤمنين . فحفظه كله الأكثرون . . . ولقد قال « عبد الله بن عمر » رضی اللہ عنہ . وعن أبيه الذي جعل الله سبحانه وتعالى الحق على قلبه ولسانه : من حفظ القرآن فقد أدرك النبوة بين جنبيه .

ولما ارتدت جزيرة العرب ، وحاول المرتدون أن يزيلوا الاسلام ، انبرى لهم أولئك الصديقون والشهداء والصالحون ، ليحفظوا الاسلام ، ويعملوا كلمته . وأثناء القتال . . . تنبه عمر رضی اللہ عنہ أن حفظة القرآن يتهافتون على القتال تهافت الفراش على الموت . فأشار على أبي بكر الصديق ، وهو خليفة المسلمين الأول أن يجتمع القرآن في مصحف ليسكن الرجوع اليه ، فتأبى أبو بكر أن يعسل عملا لم يعمله الرسول — صلى الله عليه وسلم — واستشار أصحابه فاتتهى رأيهم الى موافقة «عمر» فيما ارتأى . . . وأمر أبو بكر جماعة من عشرة عرفوا بحفظ القرآن الكريم حفظا جيدا ، فقد كانت الأصابع تشير اليهم بالحفظ . منهم زيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل وعلي بن أبي طالب . وقامت هذه الجماعة . وخطبت لنفسها الطريق الصحيح المتين في جمع القرآن . فقد رأيت ألا تعتمد على نفسها فقط ، بل تعتمد على حفظها وعلي ما كتب على الرقاع وسعف النخل ، والجلود في عصر النبي — صلى الله عليه وسلم — وعلي حفظ الصحابة من الذين ليسوا في هذه الجماعة .

لذلك كانت تبتدىء الآية بمن حفظها . وانهم جميعا لحفظة كرام . ثم يلتسسونها مكتوبة في عصر النبي ، وأعلنوا ذلك الطلب فاذا وجدوها أوجبوا شهادة اثنين على أن هذه الرقعة كتبت في عصر النبي — صلى الله عليه وسلم — فاذا توافرت الآية حفظهم والعثور على الرقعة التي كتبت عند نزول الوحي بها . وشهادة اثنين بأنها رأيا الرسول — صلى الله عليه وسلم — وهو يأمر بكتابتها وانها كتبت على هذه الرقعة ، اذا توافرت ذلك كتبوها ، وفي اعلان طلبها مكتوبة اشراك لكل حافظ بالمدينة في عملية التدوين .

وقد تم للجماعة كتابة المصحف كله على هذا النحو ، ولكن آيتين من كتاب الله تعالى لم يتوافر لهما شهادة الاثني ، بل توافر لهما شهادة واحد هو خزيمية ، ولما كان النبي قد قال له : شهادتك كشهادة اثنين في حادثة تبين فيها ايمانه القوي بالرسالة المحمدية ، فقد وضعت هاتان الآيتان في المصحف بعد ثبوت الحديث النبوي بسا اختص النبي به شهادة خزيمية . وقد أجمع الصحابة مع حفاظ القرآن على نزول هاتين الآيتين ، وهما قوله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فان تولوا فقل حسبي الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » .

تم تدوين القرآن في المصحف بعد هذا الاحتياط الشديد في الجمع والتدوين . في عهد «عمر» وأودعه عند أم المؤمنين «حفصة» ابنته . وقد كتب برسم لم ينقط ولم يشكل ، حتى لا يكون محصورا في قراءة واحدة . ومن الواجب أن تروى القراءات كلها . وأن يحتل المصحف قراءاتها ، لأن كل قراءة حجة بذاتها ، وهي قرآن ، وتركها ترك لجزء من القرآن الكريم . ولم يكن ثمة فراغ عند الصحابة يستطيعون معه أن يكتبوا لكل قراءة مصحفا ، وأنهم كانوا قريبي عهد بالأمية ، وإن جمعه قد استغرق مع الجماعة وقتا طويلا . فقد كانوا يقفون عند الآية الواحدة يوما أو أكثر حتى يجدها مكتوبة عند نزول الوحي بها .

وإن عدد نقطه وشكله مما يجعل القاريء لا يعتمد على مجرد كتابته بالكتابة والقراءة المسطور . وبذلك قد يتعرض القرآن للتحريف والتغيير في المكتوب ، الذي يعتمد عليه . فيقرأه القاريء ، محرق ثم يبتعد عن القرآن كما رتلته النبي - صلى الله عليه وسلم . فكان لا بد من من يقرأه يقرأ عليه القاريء ، وبذلك يروى القرآن بالمشافهة ويحفظ في الصدور ويرتل القاريء القرآن كما روى عن النبي - صلى الله عليه وسلم . ويبتعد القرآن عن كل نطاق التحريف والتبديل الذي تعرضت له النسخ السابقة المتفاوتة السابقة ، ويتحقق قوله تعالى : « وان له آيات ظاهرة » . وحفظ القرآن في المسطور . ولقد كان القرآن لهجة بلغة أهل مكة . بعد تسام نزول القرآن ، وكانت العريضة الأخيرة على جبريل بلغة أهل مكة .

واللغة الواحدة تحتل قراءات القرآن المتواترة كلها ، وقد لوحظ أنه في بعض الأمصار وجد من يقرأ باللغات المنسوخة ، أو بالأحرى اللهجة المنسوخة . وهي بالاجماع غير القراءات ، فاختلف الناس ، فاتجه عثمان رضي الله عنه الى جمع القرآن مرة أخرى ، فأعاد تأليف الجماعة الأولى . وأضاف اليها سعد بن العاص وسلكت ماسلكت أولا في جمعه ، ثم عرض ماجمعه على مصحف حفصة . فتطابقتا تطابقا تاما ، ولم يكتب عثمان رضي الله عنه في هذه المرة نسخة واحدة ، بل كتب نسخا بسقدار الأقاليم الاسلامية ، وأرسل لكل إقليم مصحفا سمي المصحف الامام . وقد كان خاليا من النقط والشكل للأسباب السابقة .

وهكذا نحفظ القرآن ونرتله ترتيلا صحيحا كما رتله النبي — صلى الله عليه وسلم — كقوله تعالى : « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » .

ومما يؤسف له أن المبادئ الشيوعية أخذت تفرض نفسها في بعض الأقاليم العربية ولم تجد حاجزا حصينا يحول بينها وبين القلوب العامرة بالإيمان منها الا القلوب الضعيفة فقد غرتها تلك المبادئ الزائفة ، وزين لها شيطان مثلها .

سلفوا أدوات التخريب . والهدم على الاسلام . يريدون أن ينقضوا بناءه . ويأتوه من قواعد حتى اذا تهدم البناء ، وذهب الايمان من القلوب ملئوها بسبائهم المخربة الهادمة وآرائهم التي تقضى على كل المعاني الانسانية العلية . ولكن أنى يكون لهم ذلك انه لن يكون الا اذا ارتد المسلمون . ومعاذ الله أن يرتدوا . وقد وعد الله سبحانه وتعالى أن يبقى الاسلام الى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وقد قال سبحانه : « من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه » .

ولقد ابتدأ المبشرون وغيرهم في هجومهم على القرآن الكريم منذ أكثر من ثلاثين عاما بالتشكيك فيما اشتمل عليه من أخبار عن النبيين السابقين كإبراهيم واسماعيل عليهما السلام ، ونقلوا ذلك التشكيك من كتاب أوربيين لا يريدون بالاسلام الا خبالا ويريدون أن تخفق راية الاستعمار على البقاع

الاسلامية ، ويكون المسلمون لهم تبعاً ، ولقد تهاجموا على المنهاج العلمي ، وظلموه ، اذ سموا ذلك الانحراف الفكري منهاجاً علمياً ، وما هو من المناهج العلمية في شيء ، ولكن الاسلام اتصف منهم . فانبرى لهم خيرة العلماء يبينون الحقائق الصادقة ، والبراهين الساطعة ، ويعلنونها في المنهاج العلمي السليم . . حتى صمتوا بعد أن أذهلتهم الصدمة اذ سكتوا من هول ما قام في وجههم من تحقيق علمي يزيف قولهم ويرده الى أصله الا فرنجي الذي اتحلوه لأنفسهم اتحالا ، وانهم في هذه السنين الأخيرة قد ابتدءوا يخصصون بالهجوم تواتر القرآن ، وتواتر القراءات السبع التي أجمع العلماء على تواترها والتي يقرأ الناس بها من عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - الى يومنا هذا ، وهم لا ييغون الا الشك في تواتر القرآن ، ولا ييغون الا مستحيلاً ، فان كتاب الله حجة قائمة الى يوم القيامة تنزل من عزيز حسيده لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ولنتركهم وتأخذ بقول الله سبحانه وتعالى : « فذرهم وما يفترون » ، وسنتكلم فيما أثاروا حول القرآن وان الله حافظه كما وعد .

كثيراً ما ظهرت مؤلفات للبشرين يحاولون بها الدعاية الى دينهم منذ أكثر من ثلاثين عاماً وهي محشوة بالمطاعن البذيئة على دين الاسلام وكتابه المجيد ، ولقد وضعت الكتب العديدة في الرد على هؤلاء الضالين رداً علمياً قاطعاً بالأدلة والبراهين التي تدل دلالة قاطعة على ان دين الاسلام هو الدين الحق الذي لا يرتاب فيه الا الجاهلون ، ولا ينسك في صدقه الا المبطلون المعاندون . وهو الدين الذي تدعى له العقول السليمة والمنطق القلوب ، وان القرآن هو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حسيده . وان ما عداد من الكتب المسماة قد اشتهرت اليها يد التحريف والتبديل .

وبالمطالع العلماء على كتب المبشرين الضالين والجاهلين ، وترجع في معظمها الى كتابين أحدهما كتاب « ميزان الحق » وهو كتاب قديم ألفه قسيس يقال له الدكتور « فندر » ويعتبر هذا الكتاب هو النبيوع الذي منه يستقى أكثر المبشرين والمستشرقين مطاعنهم على الاسلام . وثانيهما

كتاب « تذييل مقال في الاسلام » وضعه قسيس مجهول سمي نفسه «هاشما
العربي» وهو لم يخرج عن مطاعن ميزان الحق قيد شعرة ، غير ما اشتمل
على نهاية ما يمكن من السفاهة والقحة .

ولقد جاء بعد ذلك قسيس آخر اسمه الدكتور « تسدل » فأضاف الى
هذا الكتاب مطاعن كثيرة . وحذف منه عبارات جملة ليرد بذلك على الأستاذ
الشيخ « رحمة الله الهندي » أكرم الله مثواه . وكان قد بذل مجهودا كبيرا
في الرد على بعض نظريات هذا الكتاب وأقام الدلائل القاطعة على تحريف
التوراة والانجيل في كتابه « اظهار الحق » .

ثم ظهر كتاب قيم لأحد العلماء الأفاضل هو المرحوم الشيخ « عبد
الرحمن الجزيري » عضو اللجنة العلمية لهيئة كبار العلماء باسم « أدلة
اليقين » في الرد على كتاب ميزان الحق وغيره عام ١٩٣٤ م . جاء فيه : وانني
أؤكد للقراء أنني نظرت في كتاب ميزان الحق الذي هو عسدة المبشرين نظرة
المتأمل الذي لا يريد الا تأييد الحق بالبراهين الحازمة التي تقرها العقول
الانسانية السليمة . وتضمن لها القلوب .

فما وجدت في ذلك الكتاب الذي سناه صاحبه ميزان الحق الا ما يدل
دلالة قاطعة على أن دين الاسلام هو الدين الحق الذي لا يرتاب فيه الا
الجاهلون . ولا يشك في صدقه الا المبطلون ، وان القرآن هو كتاب الله ،
وكل ما ذكر في كتاب الحق من دليل كان بحمد الله دليلا لنا لا علينا ، فله
يحوجني في الرد عليه الا ترتيب مقدمات بعيدة عنه أو الى الوقوف على
معلومات زائدة على ما فيه فهو وحده حجة قائمة على أن الدين عند الله
الاسلام . فاذا كان لاسم هذا الكتاب مدلول صادق فذلك لأنه قد أيد
الاسلام من حيث يريد مؤلفه أن يطعن به عليه وأثبت تحريف التوراة والانجيل
من حيث يريد اثبات سلامتهما من التحريف وعمل على هدم دينه من أساسه
من حيث يريد بناءه .

وننقل ما يقول ذلك المبشر في القرآن ، يقول : انه غير فصيح وغير
بليغ وقد اشتمل على أغلاط عربية وتاريخية ومتناقضات لفظية ومعنوية الخ

والحق أنهم لا يحسنون ايراد أى شبهة عليه ، وقد يأخذ بعضهم فى تفسيرها فلا يحسن صوغها فتظهر فى شكل مضحك ينادى بجهل موردها وسخافته ، وليس لهم من ذلك غرض سوى أنهم يوهمون العقول أن القرآن ليس من عند الله وأن محمدا رسول الله ليس نبيا واذا سألتهم لماذا يجاربون القرآن والمسلمين يقولون : ان القرآن رفض ألوهية المسيح وصلبه ، كما رفض الثالوث ولا ملة لهم سوى ذلك . ومن أجل ذلك كانت مناقشتهم لا فائدة لها الا تحذير ضعاف العقول من شرهم وتعليم الناس حقيقة الأبحاث الجدلية التى يوردها المسلمون فى تفسير آيات كتابهم ، ولفت نظرهم الى جهالة المبشرين وسوء قصدهم .

والكلام فى هذا الموضوع يشتمل على أمرين أحدهما بيان مايقوله المسلمون فى القرآن ، وثانيهما ما يقوله المبشرون فى القرآن وما يناقضون به أنفسهم من الطعن عليه ورد شبههم .

فأما الأول فهو أن المسلمين يقولون : ان القرآن هو كلام الله تعالى بلفظه ومعناه ، فليس لبشر فيه كلمة واحدة ولا حرف واحد . أوحاه الله تعالى الى نبيه «محمد بن عبد الله» على لسان جبريل عليه السلام . وهذا القرآن هو المعجزة الخالدة التى أتى بها سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - وقد أيدته الله تعالى به وأظهره على معارضية الذين حاربوه بكل ما تمكنهم . فقد ثبت ثبوتا قطعيا لا شك فيه أنه أعجز أبلغ الناس قولا وأفصحهم منقلا وهم عرب قريش . فتنهقروا أمامه واعترفوا بأنه ليس من كلام الإنس ولا من كلام الجن . وهؤلاء هم الاختصاصيون الذين يجب أن يكون حكمهم فى هذا الموضوع نهائيا خصوصا اذا لم يوجد مثلهم فى الصناعة يعارضونهم فى حاسنهم أو يقاومهم فى صناعتهم . فالقرآن الكريم قد فصل فى أمره من حيث أن كل الاختصاصيون ببضاعة البيان كثيرين . وكانوا متأبين على النبي - صلى الله عليه وسلم - مجسعين على مناوآته لا يرون السعادة الا فى المنع من حبه . وأديبا لأنه كان سيغير كل شىء كانوا عليه .

وأما معاملات العرب فقد كانت تغلب عليهم فيها الأبحاث ان كان دورهم يغير على ضعيفهم فيسبى نساءه ويسلبه ماله ولا يبالي بقتله فى سبيل سهواته

ولا يستحيى من هتك عرضه مادام قادرا على ذلك فلم يكن لهم قانون يرجعون اليه ولا حاكم يخضعون له اللهم الا من كانوا يدينون له بميزة يقدسونها فيه كالكرم أو قوة العصبية . كما كانوا يفعلون مع بعض أجداد النبي - صلى الله عليه وسلم - « كهاشم وعبد المطلب » فانهم كانوا يعاملونهم معاملة الملوك والأمراء لما لهم من الكرم وعلو الهمة والاباء . وقد كانت لهم مجالس سر يتناشدون فيها الأشعار ويتفاخرون فيها بما بتاح لهم من السلب والنهب والغارات ونحو ذلك مما لا يليق فكان من عصمة الله لنيبه أن حفظه من مجالسهم هذه .. روى أنه حضرها مرتين فألقى الله النوم عليه فلم يدر ما دار فيها .

أما أخلاقهم فان العرب وان كانوا قد امتازوا بكثير من الصفات الكريمة مثل الشجاعة والاباء والمحافظة على حقوق الجوار والكرم والنجدة والصدق والوفاء وغير ذلك ، لكن الفوضى التي كانوا عليها بسبب الجهل قد ذهبت بسحاسن تلك الصفات وقضت على آثارها .

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : اذا سرك أن تعرف ما كان عليه العرب قبل الاسلام فاقرا قوله تعالى : « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم » . ولا ريب أن الجهل الذى يفضى بالانسان الى أن يقتل أبناءه لمجرد توهم الفقر لهو من شر ما منى به النوع الانسانى بل العقل الانسانى لا يتردد لحظة فى الحكم على من يفعل ذلك بأنه شر من الحيوان المفترس الذى لا يقتل ابنه ولو مات جوعا .

ذلك بعض ما كان عليه العرب قبل الاسلام . وما لاشك فيه أن ذلك يرجع الى الجهل . فان الأمية كانت تغلب عليهم ولم تكن لديهم علوم تربي مداركهم وترشدتهم الى سبيل الحكمة والصواب اللهم الا ما كسبوه بالتجارب وورثوه بحكم العادة على أنهم قد امتازوا بشيء واحد وصلوا الى ذروته ، واقتربوا الى غايته . وهو البلاغة فى القول والفصاحة فى المنطق فانهم قد ملكوا زمام الفصاحة والبلاغة فلم يكن قبلهم ولا بعدهم أفصح منهم ، خصوصا قريشا فانها كانت أفصح العرب قولا وأبلغهم منطلقا فلم يكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذا مال وكذلك عنه أبو طالب فانه مع كونه

من أشرف قريش لم يكن ذا مال كثير أيضا ، فكان يساعده في أمر المعاش بالوسائل المعروفة عند العرب فكانت الظروف التي نشأ فيها عليه الصلاة والسلام سيئة من جميع الجهات فقد نشأ يتيما لا أب له ولا أما . كما ذكرنا . فقيرا لا مال له ، وربى بين قوم كانت فوضى الأخلاق والعقائد سائدة بينهم فضلا عن كون مربيه أبى طالب كان يعبد الأصنام التي يعبدونها . ولم تكن لهم معاهد علمية يتعلمون فيها العلوم التي تهذب أخلاقهم . وتتقف عقولهم . ولم يكن بينهم علماء يعلمونهم ما لهم وما عليهم . وكل ذلك ثابت بالتواتر الذي لا شك فيه ولقد ذكر القرآن شيئا كثيرا منه . وإذا كان ذلك فمن ذا الذي عصم ذلك النبي الأُمى اليتيم الفقير من أخلاق قومه الفاسدة ونجاه من صفات أهل بيئته الذميمة ، وعصمه من أن يدين بدين مربيه ؟ من علمه ذلك العلم الذي ترتب عليه انقلاب عام في جميع العالم في العقائد والشرائع والأخلاق .؟ من علمه فلسفة الشرائع والأحكام فجاء من ذلك بما أدهش العقول وحير ذوى الألباب ؟ من علمه قوانين الاجتساع . وفلسفة التاريخ فأتى من ذلك بما لا يستطيع أحد أن ينقض قضية واحدة من قضاياها . من علمه نظام العمران ومكارم الأخلاق فوضع له أساسا لا يزال العلماء والباحثون يبنون عليه آراءهم في كل زمان ومكان ؟ من علمه ذلك القرآن الذي أعجز جميع البلغاء والعظماء . فلم يستطيعوا أن يأتوا بشيء من مثله .

لاشك أن الذي علمه ذلك هو الإله العليم الخبير .

اذن لا يعقل أن ينجو الإنسان من أخلاق بيئته من مبدأ فسادها . ولا للعقل أن يتصور انسانا استثناع أن ينجو من أخلاق أهله ومربيه . وعقيدته وعقيدته مربيه . فذلك انما يكون بعد أن يبلغ أشده . وينسل من رحمته ويهديه . أما أن انسانا ينشأ كذلك منذ نعومة أظفاره في بيت من البيوت والادراك . وكذلك لا يعقل أن يوجد شخص علمه بتمامه من قبله وهو وهو أُمى وليس في زمانه علم ولا علماء . فذلك دليل على أن العلم قدير أدبه أحسن الأدب وعلمه أحسن التعليم .

ولقد هال المشركين ذلك الأمر ، أدهشهم ، فاجتمعوا مرة عند «الوليد بن المغيرة» . وأذن لهم بالسعي في طلب العلم .

يفكرون فيما عساه أن يطعنوا به ذلك الرسول ، فقال بعضهم: تقول عنه انه كاذب ، فقال الوليد : هل كذب « محمد » قط ، قالوا : لا . قالوا تقول عنه انه كاهن . فقال : هل رأيتموه قط يتكهن . فقالوا : لا . قالوا تقول عنه انه شاعر . فقال : هل رأيتموه قط يتعاطى شعرا . ثم قال لهم : والله انى قد سمعت من « محمد » آتفا كلاما ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن ، ان له لحلاوة . وان عليه لطلاوة . وان أعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق وانه يعلو ولا يعلى عليه وانه ليحطم ما تحته .

وكان قد سجع أول «سورة فصلت» وكاد يسلم لولا تأثير أبى لهب عليه فانه قال له ان الناس يزعمون أنك أصبت بالفقر وأن « محمدا » يجمع لك مالا ، فغلبت عليه حمية الجاهلية وغلبت عليه شقوته ففكر ثم فكر ، وعبس وبسر ، بسر وجهه كالحج ، وقال لهم : قولوا عنه انه ساحر . وفى ذلك نزل قول الله تعالى : « انه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال : ان هذا الا سحر يؤثر » (الآية) .

فانظر كيف أن أشد الأعداء وأكبر المعارضين لم يجدوا مطعنا يطعنونه به ، سوى أنهم قالوا عنه انه ساحر . وهذا سلاح العاجز الذى ينكر حقائق الأشياء عنادا ويزعم أنها خيال وأوهام، ولو أمكنهم أن يطعنوا فيه بشيء معقول سوى ذلك لما تأخروا عنه لحظة واحدة ، ولا ريب فى أن قول الوليد الذى ذكرناه لك آنفا فى وصف القرآن الكريم من أوضح الدلائل على أن القرآن معجز للبشر وانه قد بلغ فى بلاغته وفصاحته مرتبة لا يستطيع أحد أن يدنو اليها لأن الوليد هو أعلم العرب بسواقع الكلام نثرا ونظما وأقدرهم على تمييز القول الجيد من الردىء وقد وصف القرآن بأنه ليس من كلام الانس ولا من كلام الجن ، وأنه يعلو ولا يعلى عليه . فلا بد أن يكون حينئذ كلام اله قادر عظيم خبير . وهكذا شأن كل من كان يسمع كلام الله من العرب ويتدبر معانيه : فانه كان لا يرتاب قط فى كونه معجزا للبشر أجمعين . فالقرآن هو المعجزة الكبرى التى هدى الله بها كثيرا من أساطين العرب وبلغائهم فقد كان الاصغاء لسع ما تيسر منه كاف للايمان له والالتقياد لدين الله الصحيح وهجر عبادة الأوثان .

ومن ذلك ما وقع لسيدنا عمر بن الخطاب فانه ذهب يريد قتل النبي - صلى الله عليه وسلم - في نظير جعل يأخذه فسر على دار أخته وعندها زوجها فسمع تلاوة القرآن ، فسألها في ذلك فأجابه زوج أخته بأنه اعتنق الاسلام . وكان عمر قويا فصرع زوج أخته فقامت أخته لتناضل عن زوجها فطلب عمر منها أن تعطيه الصحيفة التي كانت تقرأ فيها .. فقالت له انك نجس ، وهذا المصحف لا يسسه الا المطهرون ، فأعطته اياها بعد أن توضأ .. وهي تأمل أن يهديه الله للاسلام ، فلما تدبر معنى ما فيها من الآيات البيّنات انقلبت عداوته الشديدة لرسول الله محبة وولاء ، فذهب اليه وأعلن اسلامه ولم يلبث أن أصبح أشد أنصار الاسلام وأقوى أركانه رضى الله عنه وجزاه أحسن الجزاء .

ومثله « أبو ذر الغفارى » رضى الله عنه فانه سلم بسجود سماع بعض آيات القرآن من النبي - صلى الله عليه وسلم - وكذلك غيرها . ولهذا كان بعضهم ينصح بعدم الاصغاء للقرآن والبعد عن سماعه كى لا يتأثر سامعوه ببلاغته فانهم هم أهل البلاغة وأقدر الناس على ادراك معانى الكلام وتقديره . فكانوا يتأثرون بسجود سماعه . وكذلك معجزات الرسل عليهم الصلاة والسلام فانها كانت من نوع ما نبغ فيه أهل زمانهم . « فسوسى » صلوات الله عليه قد جاءهم بما يلائم السحر الذى نبغ فيه أهل عصره . و « عيسى » عليه الصلاة والسلام قد جاءهم بما يلائم الضب واحياء الميت . لأن أهل زمانه قد نبغوا فى الضب . وسيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - جاءهم بالقرآن البليغ لأنهم قد نبغوا فى البلاغة والفتوح كما تقدم . فالقرآن الكريم معجزة قائمة لا تقضى على مر الدهور والأزمان . كما قال تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وان له لحافظون » .

وبعدما تقدم فان كل من يزعم أن بعض القرآن خال من الجاهلية أو انسان تافه لا يعى ما يقول ولا يفقه فى الدين والعلم شيئا . بعد ما تقدم من الجزم أن أساطين العرب وفتوحاءهم الذين خضعت أعناقهم ببلاغته لم يرد عجزوا عن أن يأتوا بسورة من مثله . وثبت أن هؤلاء العفشاء قد بذلوا مجهودا عظيما فى محاربة الرسول وحاولوا غير مرة أن يعارضوا القرآن .

فمعجزوا عن ذلك وأقروا بعجزهم ، ولو أنهم قدروا على ذلك لتقهقروا بالاسلام
 أمامهم قطعا لأنه تحداهم على أن يأتوا بسورة من مثله ، فلو أنهم فعلوا لكانت
 لهم الغلبة ولكنهم خابوا وخسروا وتقهقروا أمام تلك العظمة التي قضت على
 عبادة الأوثان • وجعلت كلمة الله هي العليا وهي عظمة القرآن الكريم في
 بلاغته وفصاحته وامتانة أسلوبه واحكام مبانيه ، وجمال معانيه ودقة تراكيبه
 وعذوبة ألفاظه وصدق قضاياه وصحة أخباره في كل صغيرة وكبيرة واشتماله
 على كل ما فيه سعادة الانسان وخيره • فهو حجة الله القاطعة ، وبرهانه الدائم
 ونوره الساطع . أنزله الله هدى ورحمة للعالمين . فلو اجتمع البلغاء جميعا
 على أن يذكروا مناقبه ويبينوا عجائبه ويشرحوا أسرارها لما استطاعوا أن
 ينتهوا من ذلك الى غاية أو يقفروا على نهاية ، فان عجائب كتاب الله لا تفتنى كما
 قال رسول الله ، وأسرار معانيه لا تستقصى ، فمن استمسك به فقد استمسك
 بالعروة الوثقى لا انفصام لها ومن حاد عنه فقد ضل سواء السبيل •

والأثر أن المسلمين في مبدأ أمرهم كانوا من أرقى الأمم سعادة ومجدا
 وعزها مكانة وقدرها وماذاك الا لأنهم كانوا بالقرآن متمسكين وبآدابه
 متأديين فخضعت لهم رقاب القياصرة وذلت بسطوتهم جباه الأكاسرة وكانوا
 سادة الدنيا وعنوان الشرف والفضيلة ومكارم الأخلاق ، فلما غلبت الأهواء
 على زعماء المسلمين وتركوا نصائح القرآن وراءهم ظهريا وصلوا الى ما هم
 عليه من سوء الحال •• نسأل الله تعالى أن يلهم المسلمين رشدا ويوفقهم الى
 التآدب بآداب كتابهم •

ما سبق ذكره من بعض سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام وأن القرآن
 الكريم معجزة تدل على أنه صلى الله عليه وسلم رسول من عند الله حقا ،
 وأن كل ما جاء به وبلغه عن ربه صدق لا يرتاب فيه عاقل منصف يدرك
 طبائع الأشياء ويعرف ما يمكن أن تنتهي اليه العقول البشرية ، على أن
 هناك كثيرا من دلائل نبوته ومعجزاته لا يسكننا استقصاءه في هذا المقام ،
 وكيف يسكننا استقصاء ذلك وله عليه الصلاة والسلام في كل حركة من
 حركاته وكل عمل من أعماله ما يدل على أنه رسول الله وأنه خير خلق الله ،
 ليس هو ذلك اليتيم الفقير الذي نشأ في تلك البيئة التي وصفناها وكل

أهل زمانه أعداء له لا ناصر له فيهم حتى أن أبا طالب الذي كان يناصره مات وتركه لهم فأصبح مضطهدا من جميع جهاته ، يتأمر عليه أعداؤه ويتربصون به الدوائر للقضاء على حياته وهو يصبر على كل ما يصيبه من بلاء ، ويحتمل كل ما يلاقيه من ضرر وايداء ، ويجاهد بنفسه منفردا في سبيل الدعوة الى الله تعالى كما أمره الله تعالى بقوله : « فاصدع بها تؤمر وأعرض عن المشركين » .

وقوله : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » .
 أليس هو ذلك الأُمى المضطهد من قومه وعشيرته قريبيهم وبعيدهم ، غنيهم وفقيرهم ، حتى النساء والصبيان والعبيد ، فانهم كانوا يعبرونهم به ويضربونه بالأحجار كلما مر ومضى .

ومع ذلك فقد كان راغيا بكل اضنياد وتعذيب قريبي العين بكل ما يصيبه من ايداء وتشريد ، لا مطمع له الا هداية الناس وارشادهم ، ولا غرض له الا اخراجهم من الظلمات الى النور . أليس هو ذلك الرجل الذي عرض على أعداؤه أن يبايعوه بالملك ، وأن يشاظروه جميع أموالهم ، في نظير أن يكتفوا عن الدعوة الى الله ويسايرهم في عبادة أوثانهم ، فرفض ذلك ، وبه وتسم وقال لعنه أبي طالب الذي عرض عليه ذلك : « والله يا عم لو شعروا بالنسب في يميني والقصر في يساري ما تنازلت عن هذا الأمر حتى يظن الله أني قد انصفت فيه » .

أليس في ذلك دلالة فاضحة على صلته بربه ..

ثم أليس من الانصاف : الاذعان لهذا الأُمى بأنه رسول من عند الله بعد أن قلب نفاث العالم في الشرائع والعقائد والأخلاق ، وهم قد اتفقوا على أن أعداء يحدقون به من كل حدب وصوب .

أليس من الانصاف : الايمان بأنه رسول الله ، ذلك الرسول الذي أعجز البلغاء والفصحاء جميعهم ، ومع ذلك لم يذبح منه قطرة واحدة ، بل قال انه جسيعه من عند ربه . قال تعالى : « ولما دعوا بالآيات بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين » .

ولقد بلغ ذلك القرآن عن ربه بكل أمانة وصدق مع أن في بعضه عتبا عليه أو مؤاخذاة له ، وليس من المألوف أن يعنف الانسان نفسه ، ويظهر أمام الملا بسظهر المخطيء من غير ضرورة تلجئه الى ذلك .

ليس من الانصاف التصديق برسالته ، وقد ظل دينه محفوظا وقرآنه باقيا قرونا عديدة مع وجود أعدائه العاملين على هدمه وهدم دينه من الداخل والخارج ، الا أن ذلك ليس في طاقة البشرى أن يأتى به وحده بل لا بد فيه من تأييد اله فادر لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ..

والينات عادة نماذج قرآنية .. اعترض عليها الجهال من الناس وقالوا انها لا تسير مع القواعد النحوية والبلاغية .. الخ . وغرضهم من ذلك هو التشكيك في الكتاب المبين .. ولكن هيهات .

ففي سورة الأعراف : « وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا » فأنت العدد وجميع المعدود . والصواب التذكير في الأول والافراد في الثاني ...

والرد بالصواب : ان تمييز اثنتي عشرة ليس هو أسباطا بل هو مفهوم من قوله تعالى « وقطعناهم » ومعناه وقطعناهم اثنتي عشرة قطعة أى فرقناهم اثنتي عشرة فرقة . فاسم العدد مؤنث والمعدود مؤنث طبقا للقاعدة النحوية .. ومن القواعد القياسية التي لا يخلاف فيها جواز حذف ما يدل عليه الكلام . وان هذا التركيب في الذروة العليا من البلاغة لأنه حذف التمييز لدلالة قوله وقطعناهم عليه دلالة بديهية لا تخفى الا على الأغبياء . ثم ذكر الوصف الملازم لفرق بنى اسرائيل وهم الأسباط بدلا من التمييز .. وذلك لأن أبناء يعقوب اثنا عشر وكل ولد منهم جاء بأبناء ، فهؤلاء الأبناء هم أسباط يعقوب فكانوا اثني عشر سبطا بعدد أبنائه . ولو جعل الأسباط تمييزا فذكره مفردا وقال وقطعناهم اثني عشر سبطا لكان الكلام ناقصا لا يليق بما يصد عن البليغ ، وذلك لأن السبط يصدق على الواحد فيكون معنى الكلام على هذا أن أسباط يعقوب اثنا عشر رجلا فقط ، وذلك غير الواقع .

لهذا جسع الأسباط على أنه لم يقتصر على الجمع لأن الجمع يصدق لغة على الاثني مع أن أسباط يعقوب كثيرون . وقد عدت التوراة أسماء

أبنائه وأبنائهم الذين جاءوا الى مصر فقط ستاوستين نفسا (تكوين عدد ٢٧) فلذا قال الله تعالى بعد ذلك « أمما » لأن الأمة الجماعة الكثيرة العدد .. فمعنى الآية أن الله فرق أسباط يعقوب اثنتى عشرة فرقة وجعل كل فرقة جماعة كثيرة، العدد .

وفى سورة البقرة قوله : « تلك عشرة كاملة » ، والصواب : تلك عشر كاملة ..

والرد بالصواب هو أن المعدود فى هذه الآية هو الأيام ، جمع يوم ، واليوم مذكر ، والقاعدة فى ذلك تأنيثه ليكون منطبقا على القواعد النحوية فى ظاهرها وباطنها .

وقال فى سورة النساء آية ١٦٢ : « لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر » ، والصواب : والمقيمون الصلاة .

والرد بالصواب هو : أن معنى قوله تعالى « والمقيمين الصلاة » وأخص أو وأمدح المقيمين الصلاة .

وذلك لأن الصلاة اذا أقيمت فى وقتها على وجهها فانها تنهى فاعلها عن الفحشاء والمنكر ، فكل ذلك من الأسباب التى تجعل للمقيمين الصلاة ميزة يمتازون بها ، فلهذا جاء القرآن الكريم بنصب المقيمين .

وقال فى سورة المائدة آية ٦٩ : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، والصواب : الصائبين .

والرد بالصواب : أن « والصابئون » مبتدأ والنصارى معطوف عليه ومن آمن .. الخ خبر المبتدأ وهو يدل على خبر ان المحذوف . فالمعروف أن لفظ « ان » وان كان ينصب المبتدأ لفظا لكنه لا يزال مرفوعا محلا للمبتدأ لفة ان يعطف الصائبون على محل اسم ان سواء كان ذلك قبل مجئ الخبر أو بعده .. والآية الكريمة شاهدة على ذلك فهى جارية على القواعد العربية لفظا ومعنى .

وقالوا ان في سورة المنافقين آية ١٠ : « وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني الى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين » والصواب وأكون ، بالنصب .

وقال في سورة آل عمران آية ٥٢ « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » والصواب : فكان .. وهكذا .

ومما أخطأ فيه مراعاة للروى — على زعمهم — قوله : « سلام على ياسين » والوجه الياس . وقوله : « وطور سينين » والوجه سيناء .

ومن أخطائه في الضمائر قوله في سورة الحج آية ٢ : « هذان خصمان اختصموا في ربهم » والوجه اختصما في ربهما .. وقوله في سورة الأنبياء : « وأسروا النجوى . الذين ظلموا » والوجه وأسروا النجوى .. وقوله في سورة الحجرات : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » والوجه اقتلتا أو بينهم . هذا ما وقف عليه المبشرون من الأغلاط النحوية والبيانية في القرآن الكريم .

ولقد فات هؤلاء الجاهلين بالعربية البعيدين عن لغتها وقوميتها وأصولها وأسسها أن قواعد النحو والبيان انما هي موضوعة على أساس القرآن الكريم لأنه هو الأصل العربي الذي تواتر عن « محمد » عليه الصلاة والسلام ، رسول الله العربي ، وتحدى به أفصح العرب منطقاً وأبلغهم قولاً . فعجزوا عن الاتيان بسثله ، فكل ما يخالفه من العبارات يكون غير عربي بدون نزاع ، فهل يظن هؤلاء الغارقون في الجهالة أن قواعد سيبويه والخليل أصل يطبق على القرآن ، فيقال لما خالف هذه القواعد انه لحن . ان كانوا يظنون ذلك فقد بلغ بهم الجهل غايته لأن الواقع أن قواعد الخليل وسيبويه وغيرهما من واضعي العلوم العربية انما تكون صحيحة اذا وافقت القرآن الكريم ، أما اذا خالفته في شيء لا يمكن تأويله فانها تكون غلطا بلا نزاع .

والظاهر أن هؤلاء المتقولين يرجعون الى كتب بعض المفسرين ويأخذون من أبحاثهم ما يسوقونه في صورة اعتراض ، وينسبونه الى أنفسهم مع انهم

يعلمون ان المعترض قد أجاب عن اعتراضه بعدة أجوبة ومع ذلك ترى كثيرا من المدعين لا يحسن نقل الاعتراض فيظهر جهله .

فأما القول : وما أخطأ فيه القرآن مراعاة للروى قوله : « سلام على الياسين » والوجه الياس .

فيجب أن يعرفه المبطلون والمستشرقون الكسوفون أن ذلك قوله لا روى في القرآن لأنه ليس بقصود شاعر وإنما هو قول الله تعالى القصص في البقرة والبيبة على ما في القرآن من قوله تعالى : « سلام على الياسين » قال : سلام على الياسين .

وقد عرفت القرآن في الياسين .

وذلك لأن الياسين اسم من أسماء العرب .

له أيضا الياسين .

وتصرفوا فيه ذلك الشرك .

ولهذا ذكر كل من

بيننا من بين العرب من

عرب من بني كنانة

لغة العربية تكون

وقول من العرب

عربي من بني كنانة

سبب من بني كنانة

المؤنثين من بني كنانة

لاستعمال اسم العربي

عربي من بين

وآية من آيات

الوجود . قوله تعالى

بيننا . « والذين آمنوا

العبارة بما يفيد أنهم جماعة .

دليل على أنهم جماعة فيتنصرف اللفظ إلى الجماعة .

كلام الله تعالى . ومن القواعد المقررة في اللغة العربية التي لا جدال فيها أن مرجع الضمير يصح أن يلاحظ فيه لفظه ويصح أن يلاحظ فيه معناه .

أما الرد على ما في « وآكن من الصالحين » من شبهة ، فالواقع أن معنيين : « أصدق ، وآكن » والأول صالح للارتباط بلولا ، إذ يقال لولا آخرتني فأصدق ، والثاني غير صالح للارتباط بها . إذ لا يقال من حيث المعنى لولا آخرتني فأكون من الصالحين . لأنه لا ارتباط بين التأخير والكور من الصالحين ، فقد يؤخره ولا يكون من الصالحين .

وبذلك يكون التقدير المناسب للمعنى : لولا آخرتني إلى أجل قريب وأصدق . وإن أصدق آكن من الصالحين .

« ثم قال له كن فيكون » رد الشبهة هو :

أن هذا من باب التعبير بالمضارع في موضع الماضي . لاستحضار صورة كما يقول أهل البلاغة

وهكذا في كل ما نسبوه وينسبونه إلى كلام منزه عن الأخطاء وهو من عند الله . ولكنها جرأة خاطئة على الحقائق العلمية منهم ونزولهم إلى ميادين المناظرات وهم عزول من كل سلاح مجردون من كل دليل ، ولا هم لهم إلا تهويش والتضليل .

وبعضهم أيضا اعترض بأن القرآن يناقض بعضه بعضا ، وذلك لأنه قال « فيه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » وقال في مواضع كثيرة انه : قرآن عربي مبين ، فكيف يكون عربيا مبينا مع أن فيه المتشابهات؟

ويظهر أن هذا الاعتراض قد نقلوه من كتب علماء الكلام، وقد أجابوا عنه أنفسهم بأجوبة كثيرة . أحسنها وأقربها أن المراد بالمتشابهات ، الحقائق التي لا يمكن الماعتول البشرية جميعها أن تدركها كمعرفة حقيقة ذات الاله أو الروح أو حقيقة الأمور المادية البسيطة التي لا يمكن تحليلها وكذلك للأمور الغيبية كأحوال الآخرة ونحو ذلك . فهذه الأمور قد وردت في قرآن بعبارة عربية فصيحة لا يتوقف أحد في ادراك الغرض المطلوب منها

ومن ذلك قوله تعالى : « ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي » .. وقوله تعالى : « ليس كمثله شيء » .. وقوله تعالى : « ان الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث » .. الخ .

ولكن لا يسكن للعقول ادراك هذه ، فالعلماء المفكرون لا يحاولون معرفة هذه الحقائق ولا يطالبون الرسول ببيانها لأنهم يدركون أن المعتل الانساني حدا يقف عنده .

أما المتشابه فهو نحو قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » وقوله : « يد الله فوق أيديهم » ، فانهم لا ينكرون أن هذه العبارات لها مدلولات ظاهرة تنطبق على اللغة العربية ، ولكنهم يقولون ان ظاهرها غير مراد ولا تعرف براء الله منها على التطبيق ، بل ان الله عز وجل لا يحد الله تعالى ، فالفرقان يقولون ان مدلولات الآيات في نهاية الظهور والتمسح

والآيات أن معجزة القرآن هي التي تستعملها النبي صلى الله عليه وسلم والسلام .. قد ادركت براء القرآن من التفسير الخبيث الذي يفسد الاسلام ، وحادوا عن حرك الحق والهدى ، فذكر بعض ما ذكره الله عز وجل فقد قال الأستاذ : ذكر من يروى ان القرآن انزل في ليلة القدر التي يجب أن تجعل البرهان الرئيس على المعجزة مستجابا ، ان القرآن الاستعداد القلبي مستدق المعجزة عند النبي صلى الله عليه وسلم ، والله جاهد آياته لس جاهدتهم آية كرهة من بعد ، فمن ذلك ان آية القدر انزل في شهر رمضان ، فاشعر كما أنها اذا جاءت لا يؤمنون ، وثقلت القلوب ، ومن بعد انزل به نور مرة ، ونذرهم في ضياعهم يعصون ، بل انهم يفترون ، وكلهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا بالآيات ، ولكن أكثرهم يجهلون ،

وقال أيضا : ان علم الله يظهر في القرآن شواهد كناية من نواحيها ، وهو وارد في ذلك الكتاب ، والقرآن في حيث لا يقل في ثبوته عن القدرة نفسها ، وما تعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من السماء الا حبات الذر في ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين ،

ان القرآن يؤكد في وضوح روحانية الاله (١) التي يلاحظ صلتها
لوثيقة بالوحدانية والقدرة والعلم والجلال ، كما يؤيد أن الله هو الذي
يحيط بكل شيء ، ولا يمكن أن يحاط به . وهو المنزه عن كل ما يلحق
الأبدان . وهو أسى من طبيعة الانسان ، ومن طبائع جميع الكائنات الأخرى
وهو أرفع من كل ما عداه رفعة تجعل حتى رؤيته بحاسة البصر مستحيلة
« لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » .

من هذه النقطة ، وهي نقطة الجلال الالهي ، نشأت بين المسلمين
مشكلة كبرى ، احتده حولها الجدل في عصورهم الفكرية الأولى كما احتده
بين المسيحيين من قبل . وهي مشكلة رؤية الاله في حالة الغيبوبة أو في مقام
شهود ثم يقول :

ومن الملاحظ أن الفوز بهذه الرؤية فيما يرى القرآن أمر شديد العسر
حتى السور التي تحوى القصص النورانية ، يرى القارىء هذا العسر جلي .
ذ يشاهد أن آدم لم ير الله حين كلمه ، وان نوحا لم يفز بهذه الرؤية بعد
جذاته من الطوفان ، وان ابراهيم مع انه خليل الله - لم ير الا ملائكته ،
ان موسى حين طلب ان يراد تجابه بقوله « ان ترانى ، ولكن انظر الى
الجبل ، فان استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ،
وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك » ، وان محمدا لم ير
لا الروح الأمين ، الملك جبريل ، وأن الأوصاف القرآنية للجنة تنص على أن
لمختارين يستتعون برأى مساكن جميلة ، وحدائق ومخلوقات من
الجنسين . وانكها لم تنص على أنهم يستتعون برأى الاله . أما في حالة
الحكم بينهم ، فهم سيحشرون في حضرة الاله ، ولكن دون أن يفهم أحد
الكيفية التي سيتحقق عليها . نعم ان في القرآن آيات غريبة في بابها ، إذ
يقول بعضها : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم
وبأيسافهم » .

والبعض الآخر يقول : « الله نور السموات والأرض مثل نوره
كشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى

(١) الألوهية في الإسلام ليست مسبوقة بشوائب المادة كالالوهيات في الأديان الأخرى

يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ولو
لم تمسه نار ، نور على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء . ويضرب الله
الأمثال للناس والله بكل شيء عليم »

وإذا فتشنا في كتب التفسير ألفيناها لا ترى في هذه الآيات الا تشبيها
وتشبيلا (١) .

والأستاذ « كارا دي فو » له آراء في المشكلات التي يعرض لها
القرآن ، والتي دار حولها الجدل في البيئات العربية قبل ترجمة الفلسفة
الاغريقية ، والتي تحل بين ثناياها أقطع الردود على دعوى محاربة الاسلام
للفكر والنظر . وله آراء لا تتفق مع روح الاسلام . كقوله مثلا عن الآيات
القرآنية : قال محمد . . وان محمدا لا يرى كذا . ويقصد ان القرآن من
صنع محمد .

وقد ضربنا صفحا عن هذه الهفوات . واكتفينا بما ثبته من شهادات
قوية للقرآن فيما نحن بصددده من احتوائه على النظريات الفلسفية المهمة
وحلولها القوية . فقد أثبت الأستاذ « كارا دي فو » ان القرآن عرض
لمشكلات : نزلية الباري ووثباته . وبدء الخلق . ومصير العالم في الحسد
الأخرى .

فقال في الأولى : ان نزلية الاله مثبتة في القرآن . وان لم يكن كذلك
عليها كثيرا .

وقال في الثانية : ان ثبات الاله يتجاوب في القرآن مع نزليته . والله
وعليه . وهو نتيجة لها . وهذا الثبات الالهي يتضح على الأخص في آية
الكون : « سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » .
ان الثبات الالهي الوارد في القرآن يتعلق بالنواميس التاريخية والاعتقادية
أما عن الثبات الميتافيزيقي . فلم يتساءل كيف يمكن التوفيق بين
ايجابية الاله وتأثيره في الكون .

(١) توهم انكاف من ان الذي يسمى الله هو الله نفسه . لان القرآن اطلق عليه اسم الله .

كيف يعد « كارا دي فو » القول بثبات الاله مع القول بايجابيته في
 لقرآن أمرا غريبا ؟ مع ان أرسطو - وهو الذي أسرههم بفلسفته - قرر
 ان الاله ثابت وانه هو المحرك الأول لجميع المتحركات ، وأن الاجساء
 يعتقد على أن التغير دليل الحدوث ، والتحرك دليل التأثر بالمحرك والثبات
 لا يتعارض مع الإيجابية . وان الفرق جلي بين من يفقد الحركة لعجزه عنه
 وبين من يتجرد منها لتزهره عنها .

وقال في الثالثة : ان فكرة بدء الخلق ليست محددة في القرآن تحديد
 . لأن نسوومه كبصوص التوراة لم ترفض وجود الكاءوس (أ) الذي
 صنع منه العالم .

وقال في المشككة الرابعة : ان الانسان ليدهش من العبارات غير
 محددة الواردة في القرآن فيما يختص بأبدية الجزاء أو اثنائه : « فو
 الذين شقوا قنى النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدون فيها مادامت
 السموات والأرض إلا ما شاء ربك » ان ربك فعال لما يريد . وأما الذين سعدوا ففى
 الجنة خالدون فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير
 محدود .

ويلجح الأسناد هنا على هاتين الآيتين بما يفيد أن فكرة أبدية الجزاء
 من مؤلف صراحة من القرآن وانما من الأبدية . ولكن لا يصرح بها . وان
 المتكلمين هم الذين قنوا بالأبدية بعد تأثرهم بالفلسفة الاغريقية فان كان
 قد استنتجه من التعليق على دوام السموات والأرض فان القرآن لا يريد
 سموات والأرض الموجودة الآن . وانما يريد تلك التى عنها بقوله : « يوم
 نحن الأرض غير الأرض والسموات » وهذه خالدة شبيهة بالعالم الآخر
 حتى خلقت فيه . وان كان قد استنتجه من التقييد بالمشيئة الالهية ، فان
 هذا لا يفيد إلا امكان الزوال اذا تعلق المشيئة به .

ومن السروف أن كل ما عدا الله فى نظر الاسلام مكن . فنصر
 لقرآن على امكان الزوال فى هاتين الآيتين لا يفيد ضرورة تحقق هذا
 الزوال بل بالعكس هو يفيد تحقق الدوام وامكان الزوال .

انما هو السرف الذى خلقت منه المخوفات . وهو الماء عند بعض الفلاسفة . الهواء عند
 آخرين . والدار عند غيرهم . وهناك آراء وأقوال كثيرة حول هذا الموضوع .

ومما تقدم يتبين جليا أن القرآن هنا قد عرض لاحدى عشره مشكله
 هى من أعقد المشكلات الفلسفية وأعظمها خطرا ، وهى : الألوهية
 الوحدانية . القدرة . التنزه عن الانسان . مخالفة واجب الوجود لكل من
 عداه من الموجودات . علم الله بالجزئيات الكونية المجردة وأجزائه المتحمده
 استحالة ادراكه بحاسة البصر . أزلية البارى . ثباته . بدء الخلق . مصير
 العالم فى الحياة الأخرى . وليس هذا هو كل ما عرض له القرآن عن
 المشكلات الفلسفية . بل هناك نظريات أخرى سوف تعلم بدراسة عدد
 الكتاب ، ولا نحسب أن كتابا يعرض لهذه المشكلات الفلسفية المعقدة
 ويكلف معتقيه بالنظر فيها . يصح أن يتهم بأنه اضطهد الفكر . وحارب
 النظر . ولكنه الجهل أو الغرض هو الذى يحيد بصاحبه دائما عن الصراط
 المستقيم .

وعرض الأستاذ « كارا دى فو » لما فى القرآن من أخلاق فلسفية
 فكان عرضه اياها بمثابة رد قاطع على أولئك الجاهلين الذين زعموا أن القرآن
 ليس فيه الا نوع من الأخلاق العسليه الساذجة المألوفة عند الشريفين . من
 الأمر بالصدق والأمانة والنهى عن الكذب والخيانة وما شاكل ذلك
 واليك ما قاله الباحث وأثبت أنه قد احتوى بين آياته على حقائق
 فلسفية هى أسى درجات النظر قال : ان علم الله وقدرته وحكمته ليست
 مقصورة فى القرآن على زمن ايجاد الكائنات بل هى نحوها فى مستنسخه
 أيضا لأن هذه الكائنات لها عند الله غاية معينة قصد اليها من ايجاد المجموعه
 الكونية . وقد أبان هذه الغاية بكل بساطة فى قوله : « وما خلقناهم
 والانس الا ليعبدون » .

ويلاحظ الباحث فى القرآن أن كل جزء من أجزاء الطبيعه مدروس
 لصالح المجموع . وللوصول الى الغاية القصوى منه . ولا يفتقر الى
 هى عينها نظرية التناؤل المستنبطة من الادراك الأولى لانه « شئ لا يبدى
 قادر ، خير .. وكل ما يفعله هو بقدره » وهو المصالح العام « والارض
 مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شئ ، موزنه » . وجعلنا لكم

فيها معاش ومن نستم له برازقين . وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم .

وقد سبت نظرية تضحية الجزء للسجوع « بأرسطو » الى اوج
الحد في شئ ان فيه : انه مادام ان الكمل هو في مجموعته خير . فلا اهدب
لغيره . واما في تضحية غيره فلا يوجب الي الشرور الجزئية العارضة في
الجزء . فلو كان ضروري للمصالح العام . فاذا افسد طعاء غير
الجزء . فليس له ان يتركها . بل يجب ان يسالحينه . و لا ينقله من مرتبة
الخير الى الشر . فلو كان الله تعالى في النظرية في القرآن كان ذلك يريد
الذات . فلو كان في غير ذلك . فلو كانت في كبر راحة ادق للمساكنات

فانها في القرآن . فلو كان في القرآن قد نجح كثيرا على ذكر الله
في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن .
فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن .
فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن .
فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن .
فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن .
فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن .
فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن .

فانها في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن .
فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن .
فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن .
فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن .
فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن .
فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن .
فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن .
فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن .

فانها في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن .
فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن .
فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن .
فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن .
فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن .
فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن .
فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن .
فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن . فلو كان في القرآن .

بين الطريقتين . ولهذا لن يستند في جزائه الى ما هو مكتوب في الكتاب
السابق ، وانما يستند فيه الى الكتاب الذي سجلت فيه أعماله . وفي هذ
برهان على أن الجزء منوط بالعسل الفعلى ، لا بالتقدير قبل الوقوع .

والى هذا يشير القرآن بقوله : « انا نحن نحى المسوى ونذكره
قدموا وآثارهم وكل شىء أحصيناه فى كتاب مبين » لأن الكتاب المذكور فى
الآية الأولى لم يخرج عن كونه منهج الكون الذى قدر الله به شىء من
.. أما الكتاب الثانى فهو سجل قيد فيه ، عدلنا كل فرد بمسأله ، فمن
مقال ذرة خيرا يره . ومن يعسل مثقال ذرة شرا يره .

غير أن المرعب فى هذا التوسيع
مثلا : « ولو شئنا رأينا كل نفس
نجسنا من الجنة وما فى
بناء » .

فان نحن

لا يخرجون غير ذلك من
لكنا لا نعلم ان
لاختيار الفردى
سماح الرشد
بأنه لا يملك

ما . وانهم أعين لا يبصرون
بل هو أصل .

لا شك أن ما

تصريح بأن الفريق الذى
سيستبدون كذا
ويحولون قلوبهم عن عقله . وكل ذلك
عن كل تأثير . إذ ليس بين المقدر عليهم وبين
تجدد بهم بالرغم منهم الى

هذا مجمل آراء الأستاذ « كارا دي فو » في المشكلات التي عرّض
 لها القرآن ودار حولها الجدل في البيئات العربية قبل ترجمة الفلسفة
 لاغريفية ، والتي تحيل بين ثناياها قطع الردود على دعوى محاربة الآساء
 لمفك « النظر »

من سواحي القرآنية الخفية الهامة التي أهاجت عزيزة حب الاستطلاع
 مستشرقين وأثارت في نفوسهم رغبة البحث في القرآن ، ودفعت
 بعضهم إلى بحث أسرار ومخبوءاته ناحية فواتح السور ، ومن افتر
 بحساب الخفير من الأساتذة المستشرقين « نولدك » وشفالي
 « هيرشفلد » و« بول » و« بلاشير » وغيرهم

من سواحي تلك الآراء تسميها الآسامي والأوربي ، ينبغي أن
 نذكر في شيء من الفواتح الخاصة المميزة لتلك الفواتح
 فذكرت هذه الفواتح في سبع وعشرين سورة من القرآن ، وقد رتب
 هذه السور التي ابتدأت بها ووضع لها جدولاً على النحو الآتي

١	بقرة	٢	آل عمران
٣	الأعراف	٤	المص
٥	يونس	٦	الر
٧	هود	٨	الر
٩	يوسف	١٠	الر
١١	الرعد	١٢	المرا
١٣	ابراهيم	١٤	الر
١٥	الحجر	١٦	الر
١٧	الزمر	١٨	كهيعص
١٩	م	٢٠	طه
٢١	الشعراء	٢٢	ضم
٢٣	الزلزل	٢٤	ضس
٢٥	القصص	٢٦	ضم

سورة	٢٩	العنكبوت
سورة	٣٠	الروم
سورة	٣١	لقمان
سورة	٣٢	السجدة
سورة	٣٦	يس
سورة	٣٨	ص
سورة	٤٠	غافر
سورة	٤١	فصلت
سورة	٤٣	الشورى
سورة	٤٣	الزخرف
سورة	٤٤	الدخان
سورة	٤٥	الجاثية
سورة	٤٦	الأحقاف
سورة	٥٠	ق
سورة	٦٨	القلم

ومن الطوائع التي ميزت تلك الفواتح أنها تبدأ بحرف في إحدى عشرين حرفاً من الحروف الهجائية . وأنها صفت في أربع عشرة موضعاً من المصحف وهي : ص . ق . ن . طه . طس . يس . حم . هـ . الم . المصم . المصم . المصم . المصم . حسق

ومن هذه الطوائع أيضاً أن ثلثي وعشرين سورته تبدأ بحرف في إحدى عشرين التي بدئت بالفواتح واقعة في الحسين سورة آدمي حم . المصم . المصم . في المصحف . وأنه لا يوجد منها في النصف الأول من المصحف . ومنها كذلك أنه يلاحظ في بعض خاتم السور من سورته وجود كلمات : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » . « انيك » الأعراف . أو « تلك آيات الكتاب المبين » . وآيات الكتاب المبين « آيات الكتاب المبين » الشعراء . والبعض الآخر من سورته كقوله : « يس والقرآن الحكيم » أو « من أنزل القرآن هو العزيز الحكيم » . والقلم وما يسطرون »

منذ فجر الاسلام والفواتح مجال كثير من المجادلات الحادة. والتأويلات
متباينة. والتخريجات المتعارضة. بل لقد تسبب الغموض الذي أحدق بها
في اتجاه عدد من الخرافات التي ما كان ينبغي أن تتصل بالقرآن الكريم.
أو أن تلتصق بتاريخ تفسيره الجليل.

وان المستشرقين لهم العذر في حب الاستطلاع كل العذر. فلظالم
مدت هذه الفواتح بالرهبة في القلوب. ولشد ما أفعست النفوس بالهيبة
والجلال حينئذ. وبالعرب والفرع حيانا أخرى. وان ننس لا ننسى موقف
عتبة بن ربيعة حين تلا عليه الرسول عليه الصلاة والسلام سورة حم. الى
قوله تعالى: « فان تعرضوا فقل نذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود »
فذهب الى حنديد قريش وقال لهم: والله لقد سمعت « محسدا » يتلو
القرآن وهو يتسعر. ولا بأسحر. ولا يقول البشر. فقالوا له: تالله لقد
سحرت محسدا. وقد فقدتلك منذ الآن.

ولا عرو فأنه جن شأنه حين أمر رسوله عليه الصلاة والسلام بتلاوة
هذه الآيات الرهيبة على أحد أعدائه المستازين كان أعلم العالمين بما ستحدثه
من أثر فعل في نفوس أولئك المعاندين الأذكياء من فصحاء العرب، الذين
هم خير من يقدرون هذه الآيات، ويشعرون من طريق الفطرة السليمة
بقيمتها. وان خفيت عليهم معانيها وأسرارها.

ولقد سرد لنا المفسرون في هذه الفواتح عددا كبيرا من الآراء. نود
أن نلمح بأهمها قبل أن نشير الى آراء المستشرقين فيها..

ذهب فريق من علماء السلف الى أن فواتح السور ما استأثر الله
بعبثها. وإنما يحظر الخوض فيه على أي نحو من الأنحاء.

واتجه فريق آخر الى أن محاولة الاجتهاد في كشف معانيها وفي
تفسيرها من غير الموقوف على أسرارها، والاتفافع بها تحقيقا للهدف
الذي رسي اليه القرآن من ذكرها. والا لو أراد الله أن تبقى مخبوءة لكاد
من العبث الاكثار من ذكرها الى هذا الحد الذي بلغ تسعا وعشرين مرة
تعالى الله عن العبث علوا كبيرا.

ولقد تفرع هذا الفريق الذي أوجب الاجتهاد في تعقب مراميها . الى فروع كثيرة . اذ قد أنبأنا الطبري أن جمهرة القراء قد اختلفوا في قول الله تعالى : « ألم » . فقال بعضهم هو اسم من أسماء القرآن . وقال بعضهم هو اسم للسورة التي يفتح بها . وقال بعضهم : هو اسم الله الأعظم . وقال بعضهم : هو قسم أقسمه الله بها . وهي من بين أسمائه . وقال بعضهم : هي حروف متقطعة من أسماء وأفعال . كل حرف من ذلك يعنى معنى غير معنى الحرف الآخر ، وقال بعضهم : هي حروف هجاء موضوعه . وقال بعضهم : هي حروف يشتل كل حرف منها على معان شتى مختلفة . وقال بعضهم الكرم كتاب سر . وسر القرآن فواتحه . ولقد استند الطبري وابن كثير . في القول بأسرار الفواتح الى حديث رفعه سنده الى « أبى جعفر الرازى » عن « الربيع بن أنس » عن « أبى العالية » . في قوله تعالى « ألم » قال هذا الأحرف الثلاثة من الأحرف التسعة والعشرين حرف . دارت فيها الأسرار كلها . ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه . وليس منها اسم إلا وهو من آياته والآياته . وليس منها حرف إلا وهو كلمة أو حرف . وهناك فريق آخر كان جراً وأكثر سراحة في تفسير أن يفتي بأن « ألم » الجلالة « الله » واللام رمز لطيف والميم رمز لتسجيت . ثم أن يفتي بأن « ألم » رمز للفظ الجلالة . والراء رمز للرحمن . والميم رمز للرحيم . ثم أن يفتي بأن من قوله تعالى : ألمص . رمز لكلمة ألم . واللام رمز لله . والميم رمز للمص . أعلم . والصاد رمز لكلمة أفصل . فتكون ألمص اختصاراً لعبارة أفصل أعلم وأفصل . وقد أرجع الرازى أساس هذا التأويل الى ابن عباس . وكذلك أعلن البعض أن « ق » رمز لجبل . و « هـ » رمز لسان . فندرى كيف يكون معنى الآية الكريمة . ثم ان هذا القول لمجرباً . صاحب هذا الرأي الأخير . يتكلم معناه اسم القرآن . ثم ان هذا القول هذا لغز الحق كلامه خبيث . معناه أسس في القول . الى أن يفتي بأن التاويلات قد بلغت من الغرابة ما لا يحصى . فلو كانت هذه التاويلات استوجبت في التصدير العلمية . لكانت من العلوم التي لا يفتخر بها الباحثون الرجحة . واستهزاءهم . وما وجدوا في هذا القول من الغرابة والجهل . في العصر الحديث من السخرية . كما ان ابن عباس لم يفتي بهذا القول .

ونحن نود أن نختم سلسلة هذه الفروض القديمة بذلك التأويل الذي
 واد لنا السيوطي في فاتحة سورة « طه » ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى .
 ويقول : إن حرف التاء يقابله في الجمل عدد « ٩ » والهاء يقابله عدد « ١٥ »
 معسوع هدين العديدين « ١٤ » وهو الميلة التي يبلغ فيها البدر تمامه
 تكون كلمة طه رمزا نقوله يا بدر « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » ونحن
 حسب أن ما في هذا التأويل من التعمل وتحصيل الآية الكريمة ما لا تطير
 على لا يحض على أحد .

وبعد فصل الأوهام ببعض المستشرقين إلى درجة تجاوز كل فك
 سروف . من كل حد ما لوف . وفي الحق أن الباحث يجب كثيرا حين يتعمق
 هؤلاء أو الذين الذين لا يبنون فروضهم على دعائم معقولة . ولا يعتمدون
 في نظرياتهم على أسس منطقية .

ومن أمثلة هؤلاء المستشرقين الأستاذ « لوت » الذي يتصور أن
 شبي صية الصلاة والسلام تأثر بفكرة الفواتح بتأثير جنبي . وهو يرجع
 أنه تأثير يهودي . وما ذلك إلا لأنه : لفرط جهله وسطحيته ، يتصور أن
 سور التي بدئت بالفواتح مدنية خضع فيها الرسول لتأثير اليهود . وقد
 أنه أن : ما وعشرين سورة من تلك السور التسع والعشرين مكية . وليس
 منها من السور المدنية سوى اثنتين . وهما سورة البقرة وآل عمران ، ولكنه
 اجمل وكفى بذلك وبالاً .

والمستشرق « تولديك » يقرر في كتابه « تاريخ القرآن » الذي نشر
 سنة ١٩١٤ أن تلك الفواتح ليست من القرآن في شيء ، وإنما هي رموز
 بمخارج الصحف التي كانت عند المسلمين الأولين قبل أن يوجد المصحف
 المكتوب . حيث حرف ميم كان رمزا لصحف المغيرة ، والهاء كانت رمزا
 لصحف أبي هريرة ، والصاد رمزا لصحف سعد بن أبي وقاص ، والنون
 رمزا لصحف عثمان وما إلى ذلك . واذن فهي ليست سوى اشارات ملكية
 لصحف . تركت في مواضعها بدافع النسيان ، والاهمال ، أو عدم اليقظة
 تم صارت على مر الزمان قرآنا .

وقد اندفع المستشرقان «هيرشفيلد» و «بول» الى تقليد «نولديك»
 وأشادا بنظريته هذه . رغم أنه اقتنع بخطئه فيما بعد . وعدل عنها .
 وقد رد على هذا الرأي الخاطيء «لوت» و «بوير» بأنهما قد
 استيعان أن أولئك المسلمين الأتقياء الذين نسخوا المصاحف يقبلون أن
 ضيفوا الى كلام الله ما ليس منه . أو يقرأوا اضافته اليه . وهذا بجزء من أنه
 لا يتصور عاقل أن أولئك الأعلام الدقيقين الذين كلفوا بجمع المصحف
 لأخير . يسكن أن يجيزوا انضمام رموز شرعية الى كتاب الله . أو يستتمه
 فيما كلفوا بمراجعته رموزا معاصريه .

هاتان النظريتان هما أحضر م فذف به المستشرقون في ميدان علوم
 السور من عدوان على العلم . وافتيات على الحق . فمن أن يكون
 الاسلام . وافتياتا على القرآن

والمستشرق «اسبرالجير» يرى أن اسم «بوير» على قوله
 غلب التكون رموزا لقول القرآن «ب» في نسخة الأناضوليين .
 «لوت» بهذا الرأي . ويبدد «هيرشفيلد» و «بول» في
 و «بوير» يرى أن في كل نسخة من نواحي السور في نسخة
 في سورتها : فالطاء مثلا في قسم تشير الى «بوير» والسين تشير الى «بوير»
 والميم تشير الى موسى . وان هذه السورة تحدث من موسى «بوير»
 وكذلك حم تشير الى جهنم . واعلمنا منى «حرف الجيم الذي يدل
 الحاء تماما فاختلف ذلك على العرب فنظنوه حاء . وهو في الحقيقة جيم
 إشارة الى جهنم . ونحن لا نسعنا أن نعلق على هذا الرأي . ولكن
 يستوجب الضحك .

والمستشرق العصري «بلاشير» وهو من المعاصرين . يرى
 ترجمة لا بأس بها كرى العلماء بعد أن استمعوا من كتابه .
 يقول : وأذن فينبغي الرجوع الى نظرات المسلمين لا سيما في
 والآراء التي سردها «الطبري» «الذي يرى أن «بوير» في
 اختصارات لأسماء الهية . ومن أمثلة ذلك أن «بوير» في
 اختصار الاسم «الحسن»

ويسائل « بلاشير » نفسه في حيرة من تعثره وتعثر اسلافه ومعاصريه من المستشرقين بقوله : ماذا تمثل فاتحة « ألم » ؟ . أتمثل اسم الرحيم ؟ أو تكون اختصاراً . لكلمة « اللهم » ولماذا لا تكون فاتحة « حم » اختصاراً للآية الأثرى من فاتحة الكتاب . وهي الحمد لله رب العالمين ثم يتساءل عن سبب أن يكون قد اختبأ من الأسرار وراء هذه الفواتح الخفية في منه وضمه ككبيرهم . وما لم يتوصل إلى اكتشاف هذا السر العميق .. قال : ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم رواه من العبث محاولة معرفة سر اغوار هذه الأسرار كقولهم :
 .. دبر الحكيم ..

فإنه لو كان يريد أن يخفي عن الناس أسرار الله تعالى لكانت أسرار الله تعالى في كتابه

مكتوبة بلسان عربي مبين . ولما كان الله تعالى يريد أن يخفي عن الناس أسرار الله تعالى

فكانت أسرار الله تعالى في كتابه مكتوبة بلسان عربي مبين . ولما كان الله تعالى يريد

أن يخفي عن الناس أسرار الله تعالى لكانت أسرار الله تعالى في كتابه مكتوبة بلسان عربي

مبين . ولما كان الله تعالى يريد أن يخفي عن الناس أسرار الله تعالى لكانت أسرار الله تعالى

في كتابه مكتوبة بلسان عربي مبين . ولما كان الله تعالى يريد أن يخفي عن الناس أسرار

الله تعالى لكانت أسرار الله تعالى في كتابه مكتوبة بلسان عربي مبين . ولما كان الله تعالى

يريد أن يخفي عن الناس أسرار الله تعالى لكانت أسرار الله تعالى في كتابه مكتوبة بلسان عربي

مبين . ولما كان الله تعالى يريد أن يخفي عن الناس أسرار الله تعالى لكانت أسرار الله تعالى

في كتابه مكتوبة بلسان عربي مبين . ولما كان الله تعالى يريد أن يخفي عن الناس أسرار

الله تعالى لكانت أسرار الله تعالى في كتابه مكتوبة بلسان عربي مبين . ولما كان الله تعالى

يريد أن يخفي عن الناس أسرار الله تعالى لكانت أسرار الله تعالى في كتابه مكتوبة بلسان عربي

مبين . ولما كان الله تعالى يريد أن يخفي عن الناس أسرار الله تعالى لكانت أسرار الله تعالى

في كتابه مكتوبة بلسان عربي مبين . ولما كان الله تعالى يريد أن يخفي عن الناس أسرار

الله تعالى لكانت أسرار الله تعالى في كتابه مكتوبة بلسان عربي مبين . ولما كان الله تعالى

يريد أن يخفي عن الناس أسرار الله تعالى لكانت أسرار الله تعالى في كتابه مكتوبة بلسان عربي

مبين . ولما كان الله تعالى يريد أن يخفي عن الناس أسرار الله تعالى لكانت أسرار الله تعالى

في كتابه مكتوبة بلسان عربي مبين . ولما كان الله تعالى يريد أن يخفي عن الناس أسرار

الله تعالى لكانت أسرار الله تعالى في كتابه مكتوبة بلسان عربي مبين . ولما كان الله تعالى

يريد أن يخفي عن الناس أسرار الله تعالى لكانت أسرار الله تعالى في كتابه مكتوبة بلسان عربي

مبين . ولما كان الله تعالى يريد أن يخفي عن الناس أسرار الله تعالى لكانت أسرار الله تعالى

في كتابه مكتوبة بلسان عربي مبين . ولما كان الله تعالى يريد أن يخفي عن الناس أسرار

الله تعالى لكانت أسرار الله تعالى في كتابه مكتوبة بلسان عربي مبين . ولما كان الله تعالى

أما قصيدتا الألياذة والأوديسة فلا أدري كيف يحتج بهما القسيس
وكيف يمكن المقارنة بين كتاب جامع لكل ما فيه سعادة المجتمع وبين قصيدتين
فصيحيتين . ومع ذلك هل عرف القسيس انهما في غاية الفصاحة من أرباب
اللغة ؟ أو هل تعلم اللغة اليونانية . وعرف أنه لا يمكن لأحد من اليونان أن
يأتي بمثل هاتين القصيدتين . فإن كان الأول فانه يتقصد أن يظن من يقرآن
فهم عجزوا جميعا عن الاتيان بمثلهما . وإن كان الثاني فانه يكرر معتمدا
كل الخطأ الذي قد يقع في لغة من اللغة . فانه لا يمكن أن يكون
الذين فطروا عليهما . وقد يكون عليهما من أمم أخرى . فانه يمكن أن يكون
الدخيل .

فان كان الأول فانه يتقصد أن يظن من يقرآن
فهم عجزوا جميعا عن الاتيان بمثلهما . وإن كان الثاني فانه يكرر معتمدا
كل الخطأ الذي قد يقع في لغة من اللغة . فانه لا يمكن أن يكون
الذين فطروا عليهما . وقد يكون عليهما من أمم أخرى . فانه يمكن أن يكون
الدخيل .

فان كان الأول فانه يتقصد أن يظن من يقرآن
فهم عجزوا جميعا عن الاتيان بمثلهما . وإن كان الثاني فانه يكرر معتمدا
كل الخطأ الذي قد يقع في لغة من اللغة . فانه لا يمكن أن يكون
الذين فطروا عليهما . وقد يكون عليهما من أمم أخرى . فانه يمكن أن يكون
الدخيل .

بلا نزاع فلا يصلح معارضتهم في حكمهم . ولقد نبغ كثير من كتاب المسلمين
 وأدبائهم الى درجة عظيمة وهم أقرب الى العرب الفصحاء من غيرهم . ومع
 ذلك فكلهم يدعون بانهم عيال على القرآن الكريم في بلاغته وفصاحته حتى
 ان امهرهم في صناعة الكتابة وتقديرهم على تسوغ الكلام لا يجد سبيلا الى
 لمفاخره الا باقتباس آي القرآن فيما يكتب أو يقول واذا كان هذا حال
 العرب المحضين من خلفهم قبل ان تفسد اللغة . فهل يليق بمن لا يعرف من
 سائس اللغة العربية شيئا ان يتصدى للحكم على بلاغة القرآن وفصاحته

بعد احسن التدبير « محمد خلف الله أحمد » حينما كتب عن القرآن
 قوله « قد حفظ الله للأمة الإسلامية فيما اختصها به من ضروب البر
 والتكريم ما لا يحصى على رسالتها كتابا مبينا محفوظا على الأيام جمع لها فيه
 أصول الفقه والسياسة الفلسفة . ورسم لهم موازين الحياة الانسانية .
 وحكمة في ذلك ان يجعل هذا الكتاب مصدرا ثقافتها ومحورا علومها التي
 مرت على يد الأمم في عصورها وتاريخها التي كتبت التي أثرت في الحضارات
 الإسلامية . فحسرت كل أمة بنصيبتها منها . كان من حق الأمة الإسلامية
 ان تضع على رأس قائمتها كتابها الأكبر الذي سارت وتسير على عهده مئات
 الملايين من البشر . شاركت وتشارك في دراساته جهود العلماء من مختلف
 الأجناس والملل »

جاء القرآن والناس في الأرض بين امي لا يعلم الكتاب الا ظنوا
 وأمانى . ومقلد ملكك ذؤاده تعاليم الأبحار والرهبان وأساطير الآباء
 الأولين . وياحى لا ديني استرقته الشهوات والأهواء فهو عدو لكل وازع
 . خصم لكل مصلح . دهرى يقول : ان هي الا أرحام تدفع وأرض تبلى
 . ما تهلك الا الدهر .

ثم قام دجال . هؤلاء أقوام كانوا يرون الخطر كل الخطر في أن تستتير
 الصائغ . وتسير العتول . وأن يعرف الناس أن الناس عباد الله كلهم لأدم
 . آدم من رب . وأن يعلموا أنه لا تغنى نفس عن نفس شيئا وان الله أقرب
 الى الانسان من حبل الوريد . يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات
 . يعلم ما يفعلون .

جاء القرآن والناس في كل أرض . فكأن لا بد له من الجبلولة بين
 أفعال المسيطرين المفترسين من أشباه الناس . وبين فرائسهم المسكبة
 لصرعى . تلك التي تزعمهم يقظتها ويبولهم اتعاشها ويهدم صريح مظالمهم
 فيها بعثها ونشورها .

ولقد كان ماشاء الحكيم الرحيم بعباده المستضعفين فى الأرض . عار
 البعثة المحمدية لم تختب إلا والناس كافة ملأها طمنا . وفسرا حارا . وما
 وفعلا .

بذلك الجهاد المتساوي لقرآن ورسول القرآن . يدين عبادة البعث والبط
 بولت دولة الجور والظلمة . وما كان كالمسألة . من قرين بينه وبينه . عند
 لكون العاقبة بعد ذلك . ما كان كالمسألة . من قرين بينه وبينه . فى
 لقرآن تمت . وفى قتل لقرآن عرو . وما كان .

سأول التوزيع هل كليت من لقرآن . وكان لقرآن . وسأول لقرآن . وسأول
 . ديفريف . وفكس . جبراس . ما كان كالمسألة . من قرين بينه وبينه . فى
 على عهد الفلسفة ومنهجه . ما كان كالمسألة . من قرين بينه وبينه . فى
 . وأرسطو . وأرسطو . وفكس . جبراس . ما كان كالمسألة . من قرين بينه وبينه . فى
 . رومانية فلسفة . رومانية . ما كان كالمسألة . من قرين بينه وبينه . فى
 والمطردة .

وهل استشهد القرآن . ما كان كالمسألة . من قرين بينه وبينه . فى
 . ديفريف . وفكس . جبراس . ما كان كالمسألة . من قرين بينه وبينه . فى
 على عهد الفلسفة ومنهجه . ما كان كالمسألة . من قرين بينه وبينه . فى
 . وأرسطو . وأرسطو . وفكس . جبراس . ما كان كالمسألة . من قرين بينه وبينه . فى
 . رومانية فلسفة . رومانية . ما كان كالمسألة . من قرين بينه وبينه . فى
 والمطردة .

فظهر القرآن كونه من مخلوقات الله . ما كان كالمسألة . من قرين بينه وبينه . فى
 . ديفريف . وفكس . جبراس . ما كان كالمسألة . من قرين بينه وبينه . فى
 على عهد الفلسفة ومنهجه . ما كان كالمسألة . من قرين بينه وبينه . فى
 . وأرسطو . وأرسطو . وفكس . جبراس . ما كان كالمسألة . من قرين بينه وبينه . فى
 . رومانية فلسفة . رومانية . ما كان كالمسألة . من قرين بينه وبينه . فى
 والمطردة .

من الحق شيئا » وقوله : « وما أوتيتهم من العلم الا قليلا » وقوله :
 « وفوق كل ذي علم عليم » . وغير ذلك من الآيات البيّنات التي علمهم بها
 المولى عز وجل ان العقل ليس بعربى ولا عجمى . وان العلم ليس بشرقى
 ولا غربى .

وقف السلف الصالح بتعاليم هذه الآيات القرآنية عند حدود التفويض
 فيما لم يعلموا حتى فتحت أبواب بلاد الروم لعقول المؤمنين بعد ان عدهم
 الاسلام لاغتناء ثروتها العلمية وذخايرها الفلسفية . فتفجرت لأهل القرآن
 حيوية النضاحة وتقدمت لأيديهم قسوفها شهية دانية . فكان ما شاء الله ان
 يكون أعداد المؤمنين . سبق في كل مسمار . وتقاية خالصة لهم في سائر
 شعب الحياة . وقيادة عامة في ميادين الحضارة والسياسة والصناعة والزراعة
 والأدب وفنون الجمال .

اجل . هل ين يدى التمسار لأول . المسمى بالسلف . قلت نفوسهم يوم
 انما الخمسة الافريقية تجد سبيلها بين المؤمنين . حتى رأوا الكثير منها خطر
 على دين الاسلام . وحرية على تعاليم القرآن .

كما حفظ اد ذلك لعلامات بها الأهواء والزغارع الفكرية الى مسالك
 شعبة من الشك والابتداع والالحاد حتى اذا ركبت تلك الأعاصير . وثابت
 العقول الى رشدها . وامتنحن الناس موقف القرآن ازاءها . سكنت النفوس
 القلقة . وامامت الأفئدة المضطربة . اذ وجدوا في آياته المحكمة ما كان جنة
 لهذا الدين . ومناارا للمحصلين . وحجة قائمة على الجامدين . ورجوم
 لشاكين الانس من المرجفين والجاحدين . ثم أخذ أمراء المؤمنين وخلفاؤهم
 ذهب كنههم على دين الاسلام الجامون لجماد يتشبهون بامر تلك العلوم
 ويرجعون الى العربية ما كان موضوعا منها باللغات الأخرى . كما أخذوا
 سائر دلتهم من سائر لغاتهم استلذذوها وفضاحلها . ولو كانوا من غير
 المؤمنين . لكانت مثل القرآن ومصادق دعواته الحارة الى الدرس والبحث
 والتفكير العميق . تعانق العلم ودين الاسلام . عدة قرون لم تتخللها وحشة
 ولم يعوزها سناء ولا سلام . وما زال ذلك الأمر قائما في البلاد الاسلامية

حتى فسدت الملكة العربية وعجز الناس عن تفهم كتاب الله وادراك تعاليمه
ومقاصده بمستقبل مداركهم وحر عقولهم .

وهناك حيل بين العقول والعلوم ، وبخاصة في بغداد ، فنصب طائفة
من الفقهاء أنفسهم للفتيا والتفسير حاجرين على المدارك أن تتحرك في ميادين
المعقولات . وعلى الأبصار أن تتقلب في صحائف الأرض والسماوات . وما زال
شيوخ الدين هنالك يستأثرون بكل أمر .

والخلفاء والأمراء الترك من ورائهم يجنون ثمار الجهالة التي تفشت
في أممهم . ويستغلون العامة من شعبهم . استغلال بهم الأنعام . حتى عاد
الإسلام غريبا كما بدأ . وانقلب الناس إلى جاهليتهم الأولى ولفسدهم
المسلمون في هذه النوبة حذو مسيحيين في البلاد الغربية . فقاموا في بغداد
ما قامه الأوربيون في مسالكهم من محاكم التفتيش وأوقدوا ليران العداوة
والبغضاء على من خالفوهم في الرأي والاجتهاد . ولو كان مرجعهم في ذلك
كتاب الله وسنة رسوله الكريم . فلقد نوسدوا أبواب الاجتهاد أمام العقول
وقطعوا الناس في العقائد والأحكام بأشياء وضعت في أيديهم . ثم قاموا
من عند الله ليشتروا به ثمن قليلا فويل لهم من كتب أيديهم به من
يكسبون .

احتكرت هذه الطائفة . لاسيما في بغداد . علم العقائد والشرائع
وتأويل الكتاب والسنة كما احتكروا علم السنن الكونية والشجرت الطبيعية
واتبعوا في استبدادهم بالعامة بل بكثير من الخامسة من رجال العلم
شبرا بشبرا . وذراعا بذراع . فحرموا حلالا . وقسموا كذبا وحبا .
الناس عواقب مخالفتهم فيما ينهون ويأمرون فقاموا بذلك لأنفسهم سلبا
الناس والسرائر والعقول . واتخذوا من عقائدهم الدينية مذاهب
والأمراء الجاهلين آلات يبلغون بها ما بهم السبب والفساد .
فالأغراض سياسية صيغت بألوان دينية كان كبرها في عيونهم
المصادمات والإضطهادات الدهوية التي دبت بسبب الخرافات
الدين في شيء . ولكنها شجوات المغالين وفضاع الجاهلين .

في بغداد القرآن ويظفأ بها نورد الذي جعلها في عدة قرون كعبة المحصلين
بمناة المستيرين ومهاد توأمى العلم والدين .

وما جاء المغول بغارتهم الساحقة الماحقة كتب الفوز والغلب للجهل وتم
على المسيف على العقل فهام الناس في أودية الضلال . ورجعت العقول الى
جاهليت الأولى اقتناعاً عن التحصيل وتقيداً بالتقليد . وأخذوا بالخرافات
الاسايل .

يردد النظرية العممة التاريخية لموقف القرآن ازاء العلوم العقلية
الغربية . يتبين أن حياة تلك العاوم وذيووعها في سائر البلاد التي شملها
القرآن كانت محقودة ببلاغ وتعرف الناس على معانى هذا الكتاب .
فإن أرواكهم لأمراره وأخذهم بتماليمه . ولعل القارىء لاحظ كيف ابتدأ
من ضلالتها عن الربوع الاسلامية . ومتى انضمت معالمها فى الحواضر التي
كانت زاهية زاهرة وتضرب اليها آباط الابل من كل صوب . ويقصدها
البلد المدنية والعرفان من أطراف الأرض .

ولقد يدرك المؤرخ البصير أن أرواح الأمم وعقلياتها . يعدى بعضها
عالمنا ولا سيما ماكان منها خبيثا فالشعوب الاسلامية فى الشرق عندما غشت
ظلمات الجهالة فعل فيها رجال الدين مافعل فى الغرب رجال الكنيسة
المسيحيين . وكم من مرة اتحدت أو تقاربت فيما الأوقات التي كانت تقام
في محاكم التفتيش فى أواسط أوروبا . والاضطهادات المذهبية فى بغداد
حولها .

« شارل لا اتحدث بما فعل الكاثوليك بأم « شارل التاسع » ملك فرنسا عام
١٥٦٤ م بالبروتستانت من المذابح التي أحصيت ضحاياها . فبلغت سبعين
الف نفس . مقال ذلك بالجناية الكبرى التي قام بها السلطان سليم عام
١٥١٧ م فى بلاد اعجم . يوم أحصى الشيعة فى تلك البقاع بطريقة سرية لم
يعرف بها أحد . حتى اذا عرفت مساكنهم وأشخاصهم « أمر السلطان بآبادتهم
بيلدوا فجأة عن آخرهم . وكانوا نحو أربعين ألفا . ولم يكن لذلك من
سب سوى القصد الى اثاره نفس عبيد الشيعة الشاه « اساعيل » ملك

العجم واستفزازه للمخاربه طمعا في ملكه ، وقصدا الى ابادة دولته فالسبب في هذا - كما ترون - سياسى بحت ظهر للناس في شكل دينى ، وكذلك كان شأن القرآن ازاء العلوم وقد كان من موسوعات العلوو العقلية من الرياضيات والطبيعات وما وراء الطبيعة ، فهو الذى قاد بالدعوة الهب والترغيب في البحث عن دقائقها واسرارها وهو الذى يبركته يوجد بين المؤمنين آلافا من الباحثين أمثال « الكندى ومحمد بن موسى والخوارزمى وبخى بن أبى منصور والعباس بن سعيد الجوهري ومحمد بن كثير الفارسي وجعفر بن محمد البلخي ونصير الدين الطوسي وثابت بن قرة وغيرهم من الخيام وابن سينا وأبى نصر الفارابي وابن رشد والحسن بن الهيثم وأشباة هؤلاء من فضايل العلوم الرياضيه والطبيعه والموسيقية وغيره .
والحق ان الذى يتعرض للمحدث عن هذا الكتاب الكريم محمد بن عبد الله حرى لا مجال له فهو من جيله آخر الكتاب من حيث العلوم والادب في الأرض والى بشر ان يحفظ بأسرارها وحسن استنباطها وهو من جيله برهان صدق مكن الله به بيده وقطع حججه غداه ونمعه وسنة من ثلثة دستور محتاج ، ذات على أسامة نوحه منوية ومنه من حيث المناهج سلوك وأخلاق وتربية ومدارس صوفيه وفلسفيه ومن مناهج آية بيان واعجاز ، سنت الامة العربية طريق البلاغه والتصحاح وحفظ عبقرية اغتها حية منجددة على مر الأزمان وكل واحد من هذه الجوانب فتحت أمام الباحثين في مختلف العصور والبلاد آفاق واسعة من التعمق والتصنيف ، وأوجت اليهم بدراسات خصيه ما زالت تسد ذاتها حتى استوت في النهاية علومه واضحه المعالم والحدود .

وعلى هذا استفاد المسلمون في حياة رسولهم على يد هذه الدولة لدولتهم والمنظماحياتهم والموجه لغتهم فلو بهم وأدبهم حتى اتدب أخبارهم المعنايه بهذا الكتاب درس وانفسيا لغير لفهم ماثور أدبهم ولغتهم ، وما كاد يذوق من عبقريتهم لبعث والتأليف حتى أخذوا يبدون أسئلة وأجوبة القرآن ومجازره ونظمه وبيانه ومجمله ومناجيه وعديده من آيات

تعدى تماره منذ نهاية القرن الثالث . فألفت الكتب الجامعة في التفسير
 الإعجاز . وفهرت كتب النقد والبيان متأثرة بأدب القرآن كاشفة عن وجود
 لإعته وجلال نظمه . وتتابع جهود المؤلفين المسلمين في الميادين القرآنية
 مختلفة واتسعت المكتبة الإسلامية في هذه الميادين اتساعاً لم تحظ بمثله
 في الأمم الأخرى وأخذت البلاد الإسلامية في الشرق والغرب نصيبها
 هذه النهضة . وكان مصر ومعاهدها وعلماؤها في العصور الوسيطة نصيب
 نور من أنوارها في العصور الحديثة فكانت المصادر في دراسات
 العلوم الإسلامية التي تفرمت منه .

في القرنين الثالث والرابع للهجرة كان في الأندلس حركة فكرية إسلامية لم يقف عند
 حدودها الدينية بل تعدت ذلك إلى ميادين العلوم الطبيعية والسياسة
 والفلسفة والعلوم الإنسانية . وكان الأندلس في القرنين الثالث والرابع
 من القرنين الهجريين منارة للعلماء المسلمين في مختلف العلوم . وكان
 في الأندلس في القرنين الثالث والرابع من القرنين الهجريين منارة للعلماء
 المسلمين في مختلف العلوم . وكان في الأندلس في القرنين الثالث والرابع
 من القرنين الهجريين منارة للعلماء المسلمين في مختلف العلوم . وكان

في القرنين الثالث والرابع للهجرة كان في الأندلس حركة فكرية إسلامية لم يقف عند
 حدودها الدينية بل تعدت ذلك إلى ميادين العلوم الطبيعية والسياسة
 والفلسفة والعلوم الإنسانية . وكان الأندلس في القرنين الثالث والرابع
 من القرنين الهجريين منارة للعلماء المسلمين في مختلف العلوم . وكان
 في الأندلس في القرنين الثالث والرابع من القرنين الهجريين منارة للعلماء
 المسلمين في مختلف العلوم . وكان في الأندلس في القرنين الثالث والرابع
 من القرنين الهجريين منارة للعلماء المسلمين في مختلف العلوم . وكان

تعاليم دينهم التي وضع نظامها ذلك الكتاب قد اثبتت على مر الأيام أنها أقوى غاية وأهدى سبيلا من النظم التي تحاول المقبول البشرية الاتفاق عليهم والوصول بها الى ما يحقق سعادة المجتمع الانساني «

ولقد أعلن الرئيس الباكستاني «أيوب خان» ان الدين العربي ستتولى قيادة العالم كله قريبا فانتم الذين كنتم تترددون انتم ان مرحلة التوعية العربية الراهنة من ستتولى قيادة العالم العربية ستتولى ولقد قال الشيخ الفاضل

في الجمعية الجعفرية في باكستان ان بين الدول العربية طريقا موحدا طريق هذه الوسائل التي هي العشرات من الدول العربية التي تجاهد بجهاد التي الوطن العربي تتسابق في المسيرة العربية التي هي

من شأنها ان يكون لها دورا كبيرا في انقاذ العالم العربي من ازمته كما ان كتابها الذي كتبه محمد ناجية

اسلم مع بعضه في انتم قد اشتمل على بعض

قائما في انتم انتم من تعاليم الانجيل كما ان الانجيل الذي على ان الانجيل الذي في انتم روحية كسلامة القلب والظهور

ثالثا : ان القرآن وان كان يعلم شيئا كثيرا عن علم الله وعن الآداب وعن
الحكم بالعدل وعن الحياة الآتية ولكن ليست هذه التعاليم بأرقى من تعاليم
الأنجيل لأن القرآن قد اشتمل على الأخبار بأن جهنم ستملا بالناس .

وقد رد أحد كبار العلماء فضيلة المغفور له « عبد الرحمن الجزيري »
في كتابه « أدلة اليقين » على هذه الأمور الثلاثة بقوله :

فأما قوله أنه لا يلزم من اشتمال كتاب على الفضائل أن يكون من عند
الله فهو كذلك . وما كان للمسلمين وهم أهل النظر الصحيح والمنطق السليم
أن يقولوا ذلك وإنما قالوا : ان محمدا رسول الله . قد جاء بكتاب اشتمل
على كل ما فيه هداية النوع الانساني وصلاحه وقال : ان هذا الكتاب وحى
من عند الله ليس له فيه حرف واحد . وكان من مصلحته يومئذ أن يقول ان
ذات الكتاب تنبئ به هو من عند نفسه ليكون له به مفخرة خالدة . ولا يعقل
أن يكون قد ادعى انه من عند الله ليؤثر به فيهم فانه لم يكن له حاجة الى
ذلك بعد ما ثبت أنهم رضوا أن يشاطروه أموالهم ويبيعوه بالملك وينفذوا
ما يأمرهم به بشرط أن يكف عن سب آلهتهم .. الى ما هو مدون في كتب
سيرة . فهل من احتمال كل هذه البلوى في سبيل الدعوة الى توحيد الله .
والقضاء على عبادة الأوثان . يكون كإذبا في دعوى الرسالة ليظفر بجاه أو
مال أو لذة .. أو يكون متصلا بالاله حقا وعالما بعظته وجبروته ؟ أظن أن
الجواب بديهى لا يحتاج الى كبير عناء ومع هذا فهل جاءهم محمد
صلى الله عليه وسلم — بالفضائل الانسانية وقال انها من عند الله من
غير أن يقيم لهم الدليل على صدقه ؟ .. كلا فانه قد قال لهم : ان هذا
القرآن من عند الله فى أسلوبه وتراكيبه وأنا عاجز عن الاتيان بثله وعاجز
عن الاتيان بسورة منه .. وتحداهم وهم أفصح العرب وأبلغهم أن يأتوا
بسورة من مثله ان كانوا صادقين . فحاولوا ذلك وعجزوا عجزا تاما .
واعترفوا بأن هذا الكلام ليس من كلام الجن ولا من كلام الانس .
وقد كانت حياته — صلى الله عليه وسلم — بينهم قبل البعثة وبعدها
كلمها معجزات وخوارق عادات تدل على أنه رسول من عند الله حقا .

وأما قوله : ان محمدا ليس هو أول من أتى بالتوحيد . ولهذا لم يؤمنوا به فهو غريب وعجيب . ألا فليسمع العقلاء جميعا وليعلموا أن الذي منع المبشرين من الايمان بمحمد هو انه أقر الفضائل التي جاء بها الأنبياء من قبله وأنهم لا يؤمنون برسول الا اذا كان من المخترعين المجددين . ونحن نقول لهم : كان عليكم حينئذ الا تؤمنوا بالمسيح « عيسى ابن مريم » الذي الأنجيل الذي جاء به مصدق للتوراة التي قبله . ونقل كثيرا من عباراته بنصها ومنها : اسع يا اسرائيل الرب الهنا اله واحد . وكل الوصايا الموجودة في الأنجيل مأخوذة من التوراة غاية ما هناك ان الأنجيل المحرف قد نسخ كل الأحكام النافعة الموجودة في التوراة مضافة شهوات المشركين الذين انسلخوا من الشكائيف الشرعية كما أمرهم « يولس » الذي نكسروا دينهم رأسا على عقب .

على أن النضائف الاسانية لا يظنهم يستأنف آراءه في تلك العقائد العقائد . وقد اعترف بذلك الكافر الذي ذكره في كتابه من ان النضائف المبادئ الجوهرية التي هي الحق فلا تقبل تلك الآراء التي هي من المبادئ واختلاف التصور كالتسمية الزهدية ذلك ان كانت تلك الآراء هي كذلك في كل الارض من مجدهم وحرمة نور من التوراة التي هي من المبادئ وابراهيم والمسيح يمشي على في هذا الزمان وفي هذا الزمان وهذا القول يدل ذلك حريجة من ان النضائف النضائف قابلة للتجديد .

فالرسول الذي يظنها لا يحول مسجود بل هو مسجود في الحانة لا يكون متصنعا ثم تشكلت في بناء من الآراء التي هي غير غيره ..

وبعد فمن ذا الذي يستطيع ان يقول ان التوحيد بتوحيد الاله على الوجه الذي فهمه يولس والمسيحيون ان الاله في زعمهم ثنائيم ثلاثة وقد اقرت في كتابه من الآراء التي هي لقولهم هذا والاعتراف بتعدد الالهة او تركيب الله تعالى وكلاهما ينال

التوحيد بالبداهة التي لا ريب فيها عند أرباب العقول السليمة الخالية من
التأثر بسُلطان الاعتقاد الفاسد .

فاذا كان المشركون يبحثون عن توحيد الاله الصحيح فانهم يجدونه في
ذلك الدين القيم دين الاسلام الذي يصف الاله بانه ليس كمثله شيء وينزهه
عن الحلول في رحم امرأة من عباده وتجسده في شكل واحد من خلقه
فيصبح ذلك المخلوق الها .. ذلك الذي جاء به القرآن هو التوحيد الخالص
أما غيره فهو وثنية معقدة لا تقل عن وثنية المشركين الذين يقول عنهم كتابه
نهم كانوا موحدين . وانه يعتقد أن توحيد الاله لا ينافي العقول بتعدد
داته وتركيبها كما لا ينافي عبادة البشر والبقر والحجر فيصح لمن يعبد
عيسى ابن مريم " وهو انسان يأكل ويشرب أن يكون موحدًا وكذلك من يعبد
الأحجار التي ينحتها بيده ويسجد لها ويعتقد أنها تمطره اذا أصابه القحط
وترزقه اذا ضاق به الحال فانه يكون موحدًا .. والغريب أيضا أن يقول
القسيس . ان مشركى العرب كانوا يعرفون الله تعالى ويسجدونه .. وليت
شعري اذا كان المشركون كذلك فما الذي دعاهم لمقاومة الرسول - صلى
الله عليه وسلم تلك المقاومة التي لا يثبت أمامها الا من أيدده الله العليم
بقدير . ألم يرض المشركون بأن يبائعوا النبي بالملك ويشاطروه مالهم
ويخضعوا لكل ما يأمرهم به اذا كف عن سب آلهتهم . ولكن الرسول أبى
الا أن ينفذ ما أمره الله به من ازالة الأوثان والقضاء عليها مهما كلفه ذلك
حتى ولو قتل في سبيله فهل كان الخلف بين المشركين وبين محمد ضئيلا الى
هذا الحد فاضطهدوه وأخرجوه من وطنه ولم يتركوا فرصة تمر بدون أن
يتآمروا على قتله . لا شيء سوى انه قال لهم : انى رسول من عند الله
أقول بما تقولون به من توحيد الاله ؟ يا لضيعة العقول الانسانية ويا لجرأة
المشركين !

وأما قوله : لو كان القرآن من عند الله لكانت تعاليمه أرقى وأشرف
من تعاليم الانجيل .. الخ .

فهذا قول لا يليق برجل يكتب في فلسفة الأديان الالهية أن يقول ان
المتأخر من الوحي يجب أن يكون أرقى من المتقدم .. كلا . ان الواقع أن كل

ما يصدر عن الاله حقا رفيع شريف بنسبة واحدة لأنه لا يصدر عنه الا ما هو صالح ومناسب لعباده فالتوراة التي هي كلام الله حقا كالانجيل والقرآن بلا فرق ما ولكن المبشرين لا يفقهون شيئا من الدين الصحيح ولا يقدرور عظمة الاله الخالق . بل كل ههيم منحصر في تسجيد المسيح .

ومع ذلك فلنقطع النظر عن التوراة والانجيل الحقيقيين ولننظر فيما بين أيديهم من توراة وانجيل محرفين . اننا اذا نظرنا نظرا نزيها نرى ان لتوراة تسمى بكثير من الانجيل في كل باب من أبوابها فان القارىء يمكن ان يستخرج من التوراة بعض الوقائع التاريخية الصحيحة ويستخرج منها بعض العظات . ويستخرج منها بعض الأحكام . ويستخرج منها بعض العقائد الصحيحة . أما الانجيل فليس فيه أكثر من قصة تاريخية خيالية منسوبة لا أكثر ولا أقل وما عدا ذلك فهو منقول من التوراة بنصه . على ان يونس قد نسخ كل الأحكام النافعة الموجودة في التوراة واعتبرها لغته

فكيف يكون الانجيل تسمى من التوراة ؟ ما كونه تعاليم الانجيل تسمى من تعاليم القرآن . فاني استنكف من ان تجيب عن هذا الكلام الذي نو عرض على أطفال المكاتب لسخرؤا منه .

وقد حصر الدكتور التعاليم التي ينسبونها في أمرين :
الأمر الأول : هو ان الانجيل يعد المؤمنين في الأخذ بالبروح والوحدة لا بنعيم جثمانى بخلاف القرآن .

الأمر الثانى : ان الانجيل صرح بأن الاله قد أرسل ابنه الوحيد ليخلص العالم ويخلص العالم وليس فيه عذاب ولا عقاب . فقد صرح مؤلفه في من لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية (انظر يوحنا ٣ : ١٦) فالانجيل يعلم بوضوح انه لا يهلك أحد الا الذين يرفضون محبة الله والى المقدسة فى شخص يسوع ولا يؤمنون به ولا يقبلونه . والى الله الواحد عند الله الى أن قال : واذا كان القرآن هو آخر ما أتى به وحى الله فلا بد أن يبين لنا أحسن من الانجيل عن قداسة الله وعذابه .

هذا هو الذي ذكره المبشرون في الاستدلال على دعواهم بأن الأنجيل
تسمى من القرآن فلنعرض على العقلاء تعاليم القرآن في هذين الأمرين .

فأى عاقل يقول ان نعيم الجنة ومتاعها نقيضة من النقائص التي تنافي
لوحى الالهي .. واذا سألت مبشرا عاقلا في ذلك لا يسعه الا أن يهز رأسه
ويقول : ما الحياة وقد ورد في الأنجيل أن الناس يوم القيامة يكونون
كالملائكة لا يزوجون ولا يتزوجون .. ولكننا اذا شئنا أن نحلل هذه العبارة
نطبقها على السنن الكونية التي سنها الله تعالى في خلقه نجدتها صحيحة
لو من بعض الوجوه .

كلا . ثم كلا .. وسأل الأجييين . هل يبعث النوع الانساني يوم
القيامة ولكن يتزوج الله منه الجنس وما يتعلق به من دواعي اللذات أو ينقرض
لنوع الانساني في هذه الحياة الدنيا ويبعد وتبقى الأرواح كالملائكة .. ان
سأرة الأنجيل لا تخلو من هذين العيين . كلاهما باطل بالبداهة .

من البيهيم أن فقدان حواس الانسان التي يستمتع بها نقص واضح
في تكويبه الطبيعي . وعلى ذلك ينبغي ان يكون الانسان في اليوم الآخر
أرض من تكويبه الشديوي . وبالتالي تكون حواسه التي هي سبب في اللذات
اقوى منها في الدنيا اضعافا مضاعفة . وذلك يقتضى سنة الرقى الطبيعية .
وليس من العقول أن يعيد الله الانسان في الآخرة وفيه وسائل اللذات كاملة
ثم يحرمه مما يندد به لان ذلك يكون عذابا لا نعيما . بل يكون عذابا شديدا
ويستحيل ان يعيد الله النوع الانساني في الآخرة ناقصا مع أن الآخرة دار
خلود .

والثاني . وهو ان الانسان يبعث يوم القيامة كالملائكة ، فهو مع
كونه ينفذ اعتناء بعض المبشرين بحشر الأجساد ، وان كانوا على رأى من
يقول من المسلمون ان الأجسام التي تحشر فيها الأرواح تكون غير هذه
الأجسام . فكيف من نوع الانسان .. فمعنى ذلك الغاء النوع الانساني .
والاعتراف بأنه كغيره من الحيوانات ، مع أن الله خلق الانسان وكرمه عن
جميع مخلوقاته فلا يصح الغاؤه وهو ذلك المخلوق العظيم الذي يشبه الله

تعالى . واذا ساغ لأحد أن يعتقد الغاء النوع الانساني في آخر أمره فان ذلك لا يسوغ للانجيليين الذين يزعمون أن الاله تجسد في رحم « مريم » وظهر بنفسه في ذلك النوع . فهل يصح أن يذهب ذلك النوع « لا يكون » أثر وقد كان منه اله الأنجيليين ومعبودهم ؟

لاشك في أن النوع الذي يظهر فيه الاله هو تكميل الأنواع وارتفاعها فلا يصح اهماله والقضاء بآبادته من الوجود . وقد فصله الله على خلقه وخصه فيه بين العقل الروحاني والجسم الحيواني . وميزه بالعلم والادراك . وسخفه في أرضه ويستحق أن يبقى محفوظا أبد الآبدين . بل يستحق أن يرفى إلى الفرد الكامل منه بحيث يكون انسانا كاملا في الخلق والخلق « كانت مفرقة » الشريعة الاسلامية : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا » .

كما أنه يستحيل أن يكون الناس يوم القيامة كالملائكة لأن الملائكة مستوون في الخلقه والعنصر ولا معنى لهذا الا مساواة الصالحين بالمتقين والمؤمنين بالكافرين . فهل يبعث الكافرون والفاسقون ملائكة أيضا ؟ يبعثون على شكل الانسان ليعذبوا على كفرهم فاذا قالوا ربنا انزل علينا كونيون ملائكة وان المؤمنين يفرحون بأرواحهم والكافرين لا يفرحون فقد مهدوا للناس سبيل الخروج على الله تعالى الى بعد مدى فاسبب جحدون ويفعلون ما يشتهون في الدنيا بدون خوف من عذاب الله تعالى على أن علماء الأرواح قد أجمعوا على أن الروح المجردة من مادة لا يمكن أن تكون متعلقة بالمادة فالروح لا تدرك اللذة والآلم . لا تشعر بالفرح والحزن الا اذا كانت متصلة بالمادة أما المجردة فانها لا تدرك المعاني المختلفة فانقول أن الناس يكونون ارواحا في الآخرة لا معنى له لأنهم لا تتعمون ولا يبعثون

وكذلك يعترض المشركون على القرآن الذي حرم الخمر وأحلها في الآخرة . ولم يعلموا أن الذي أحله القرآن في الآخرة هو الخمر الذي حرمه في الدنيا بدليل قوله تعالى : « لا ينهايكم عن الخمر المعتدل العقل ويسكره .. فأى تناقض في تحريم اللذات الفاسدة التي هي حرام في الدنيا

يقرب عليها الاعتداء على أرواح الناس وأموالهم وأعراضهم وبين التنعم
 باللذات الطيبة التي لا تضر بأحد من خلق الله ولا تؤذي صاحبها في الآخرة
 أما الاعتراض على أن القرآن قد أوعد المجرمين والكافرين بالعذاب
 وقال : لا ملأ من جحيم من الصخرة والناس أحمقين . فهو اعتراض الأباحن الذي
 يورد للناس سبيل النسيان والقسوة والقسوة على حدود رجل ولا خوف من
 حساب الله عز وجل .

والجواب على هذا الاعتراض هو أن القرآن قد أوعد المجرمين والكافرين
 بالعذاب وقال : لا ملأ من جحيم من الصخرة والناس أحمقين . فهو اعتراض الأباحن الذي
 يورد للناس سبيل النسيان والقسوة والقسوة على حدود رجل ولا خوف من
 حساب الله عز وجل .

والجواب على هذا الاعتراض هو أن القرآن قد أوعد المجرمين والكافرين
 بالعذاب وقال : لا ملأ من جحيم من الصخرة والناس أحمقين . فهو اعتراض الأباحن الذي
 يورد للناس سبيل النسيان والقسوة والقسوة على حدود رجل ولا خوف من
 حساب الله عز وجل .

النار ويرى أن الله أنجاه منها يدرك لذة النعيم كاملة ويعرف قدر النعمة التي أنعم الله بها عليه فقد أنجاه الله من نار وقودها الناس والحجارة ورآها بنفسه وعرف هولها بالمشاهدة . ولقد فسر جمهور المفسرين معنى ورودها (رؤيتها من بعيد) أي أنه لا يلزم من وروده أن يدخل فيها فعلا . والناس يوم القيامة لا بد أن يروا النار التي أعدت للعقاب .

وعلى كل حال فلا معنى لقول المبشرين : ان القرآن يخيف الناس بالعذاب حتما لا فرق بين مؤمن وغيره . على أن القرآن قد أعلن كثيرا عن رحمة الله ورضوانه بعباده فقال تعالى : « لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا » . وقال : « انه غفور رحيم » . وكرر ذلك في غير موضع منه وقال : « ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » وقال : « ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » .

ومن الآيات السابقة نعلم أن الله جلت قدرته يقبل التائبين من عباده ويغفر لهم ذنوبهم ومن لم يتب ومات موحدا فان الله لا يخلده في النار كما يخلد المشركين بل ان شاء يغفر له مادون الشرك وان شاء يعذبه ..

وبعد، فان التسييس زعم أن القرآن لم يصف «محمدا» حتى بالصفات الأدبية الحسنة ولم يذكر له معجزات ! وفاته أن القرآن قرر في شأن الرسول حقائق ثابتة معلومة عند أعدائه وأتباعه .. فقد قال تعالى : « وانك لعلى خلق عظيم » (سورة ن) وقد انفرد بهذا الوصف محمد - صلى الله عليه وسلم - .. وهذا اقرار حقيقى وتاريخى اعترف به أعداء الله ورسوله . فقد كانوا يصفونه في الجاهلية أيام الإباحية والقوضى بأنه الصادق الأمين . ومن ذلك رضاؤهم بحكمه فيمن يضع الحجر الأسود في بناء الكعبة . وقد كان أزهد الناس وأكرمهم وأعفهم . فكان يقنع من الحياة بلبقبات . لا يغضب الا لله تعالى ولا يرضى الا لله . وكانت حياته بين الناس كلها ورحمة وحنان وليس قولهم : ان القرآن قد فضل محمد - صلى الله عليه وسلم - الا جهلا بأى القرآن الكريم أيضا . لأن القرآن قد قرر ان محمدا افضل

الأنبياء على الاطلاق . كقوله « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

وإذا كانت أمة خير أمة فهو خير الأنبياء . على أن من قواعد المسلمين تكريم الأنبياء والمرسلين جميعا . فهم معصومون عن كل معصية تخل بمقامهم الكريم قبل النبوة وبعدها .

ولما يئس أعداء الثقافة الاسلامية من أن ينالوا من القرآن عندما هموا بذلك من قبل : اتجهوا الى أمور حوله وحول الاسلام وعلومه . وكل أثر فكري عاش في ظل الاسلام . لقد أخذوا يدعون الى هجر الحروف العربية . لأنها أصعب قراءة وتعلما في زعمهم . وأخذوا يرددون قول : « قاسم أمين » .. وكأنه تنزيل يتبع : غيرنا يقرأ ليفهم . ونحن نفهم لنقرأ . وذلك عجز ممن لم يقوم لسانه تقويا عربيا .. قالوا : ان الكتابة بالحروف اللاتينية فيها تصوير الحركات الصوتية بحروف . ونسوا أن ذلك ممكن في العربية بالشكل . والشكل أسهل من الحروف كتابة . وأقل منها حيزا . وان الناس منذ أقدم العصور يعلمون أولادهم الحروف العربية من غير أن يشكو صعوبة . ولكنهم يخلقون فكرة الصعوبة ويشيرونها في كل مكان ليحلوا الحروف اللاتينية محل العربية .. ومقصدهم واحد وهو قطع الشباب العربي المسلم عن ثقافته الاسلامية قطعا تاما . وبالتالي قطع صلة الناشئة بالقرآن . لأنه اما أن يكتب باللاتينية ، وهي لا تصور نغماته ولا مده واما أن يهجرها هجرا . وذلك ما ييغون . ولقد ضل سعيهم وذهب هباء منثورا .

وأخيرا قالوا : ان الحروف العربية جميلة . وهي أجمل حروف يكتب بها . ولكن نريد أن نغير رسم الكلمات بها وهي ما يسمى بالاملاء . فيكتب ما ينطق به فبدل أن نكتب طه هكذا نكتبها (طاهها) وبدل كلمة (على) نكتب (عليين) .. وان هذا يؤدي الى ما يؤدي اليه استبدال الحروف العربية باللاتينية ثم قاموا بضجة أخرى ، وهي اختصار الكتابة العربية واختصار الحروف والكلمات .. ولا ندري ماذا يقصدون ؟ ونسوا أن العربية هي لغتنا ولغة الاسلام فقد اقترنت به . وهي لغة بنى الاسلام . واليوم نجد بعضا من الشباب الملحدين يروجون ويطالبون أن يحيوا الأدب العامر

ويجعلوا لكل اقليم من الأقاليم العربية أدبه الخاص . بل يغالون ويطالبون
 أن توضع قواعد للغة العامية في كل اقليم .. وقد فاتهم أن آراءهم المتطرفة
 الفاسدة تمزق وحدة العرب . وهم أعوان الاستعمار وعملاؤه . وانهم لا
 يقصدون العربية فقط بل يقصدون الاسلام أيضا . لأنه بانتشار العامية
 ينقطع الشباب العامى انقطاعا معنويا عن القرآن والسنة والمأثور العربي
 الاسلامى . وذلك هو ما يرغبون ويرمون اليه ، فيفنى الشرق فى الغرب
 والاسلام فى الديانات الأخرى . ويذهب اليقين والايمان . ويكون المسلمون
 قوما بورا .

وأخيرا بعد أن أعيتهم الحيل . وانكشف أمرهم . وخابت مظناتهم ولم
 يتوصلوا الى أغراضهم الخبيثة ونواياهم الدنيئة . أرادوا أن ينشروا
 صناعتهم الوحيدة ومثلهم السافله . أرادوا أن يثيروا فى الشباب العربى
 المسلم كل الغرائز الحيوانية فى نفس الشباب . واتخذوا لذلك طرائق كلها
 هوجاء ليس فيها طريق مستقيم وأول هذه الطرق التى أثاروها ما يسمونه
 بالأدب المكشوف تارة والأدب الجنى تارة أخرى . والهدف اثاره الغريزة
 البهيمية فى نفس الشباب . ووجدوا لهم أعوانا من ضعاف الايمان ومحبي
 المادة . وجدوا صحفا معينة مملوءة بالصور الخليعة . والمنظر المثيرة بل
 تجاوز الأمر الى نشر اعلانات بها مناظر مغرية لتجتذب الشباب بهذه المناظر
 الاباحية الى دور السينما . والاستعمار حينما وجد اعتصام البلاد الاسلامية
 بالفضيلة والأخذ بأهداب الدين . والاستمسك بتعاليمه وعروته الوثقى .
 لم يجدوا سبيلا للنيل منها الا بتسليط الشهوات والكتابات التى يثيرونها فى
 نفوس الناشئة المراهقين لينشئوها على المهو والعبث والرذيلة . ولا شىء يفتك
 عروة الأمم الا المجنون وانهبان الحواجز الخلقية التى هى حصن الأمم
 والجماعات . وان تسلط الأهواء والشهوات يضعف الإرادة الإنسانية .

ولقد جعل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) السبب الجوهري لهو هو
 هو الهوى والشهوة . فقد سئل عليه السلام عن الوهن . فقال : حب الدنيا
 وكراهية الموت . ولقد رأينا فرنسا تحترق صاغرة تحت سنايك الخيل الألمانية

فى أول الحرب العالمية . وفى الجولة الأولى . وعلل ذلك قائدهم بأن الهوى وفساد الأخلاق هما سبب نكبتها .

ولقد كانت مع الأسف الشديد احدى الصحف الصباحية منذ مدة تهاجم الدين الاسلامى . فقالت عن الزكاة . انها بقية من بقايا الهمجية . ورمت علماء الاسلام بالتضليل . وطعنت فى الحقائق الاسلامية بقولها : ان الاسلام روح لا نصوص . وان الشريعة تنسخ نفسها . وان الزكاة لاتصلح للمجتمع ! نفس الكلام والأضاليل والأكاذيب التى ينسبها للاسلام المبشرون المستشرقون الذين حادوا جانب الصواب وانحرفوا عن الحقائق ليطعنوا الاسلام . ومن المؤسف أن يأخذ الضلال بعض الصحفيين من المسلمين الذين يريدون من رجال الدين أن يشاركوهم فى التمرد على حكم القرآن والخضوع لحكم الدول المستعمرة التى تاهت فى ظلمات الضلال ، وتخبط فى دياجير الالحاد والاباحية !! بحجة حرية الفكر والرأى . ونحن ننفى عنهم هذه الحرية . لأنهم رضوا لأنفسهم أن يكونوا تابعين فى التفكير لغيرهم . فهم مرددون لما يكتبه غيرهم . طعنا فى الدعوة الاسلامية من كتاب الغرب .. من غير أن يعنوا بدراسة الفقه الاسلامى وتاريخه .. والعلم بالكتاب والسنة . كلا ! انهم لا يوافقون . لأنهم لا يعرفون تفسير الشريعة الاسلامية الا بالمصلحة التى ترضى أهواءهم وترضى من يريدون اتباعهم من الشيوعيين أو الأمريكان أو الانجليز أو الفرنسيين .

ولكن هيات للمستشرقين والمبشرين وأتباعهم من المستعمرين أن يتسكنوا من ما ربههم من اهتال النصوص الاسلامية وتعطيلها .. وأن يتعد المسلمون عن كتابهم المجيد وما جاء فيه من أحكام . وان يضرب بها عرض الحائط . فلا حدود . ولا قصاص . ولا ميراث ولا زكاة ولا شىء من ذلك . ولكن نقول لهم جميعا اننا متمسكون بكتابنا القرآن الكريم لا نتركه . بل نحفظه ونستهدى بهدى نبينا الذى أوتى الحكمة وفصل الخطاب . ولن تنالوا من الاسلام شيئا فان هذا الدين خالد . وهو خاتم الأديان . هو الدين الحنيف المتين .

واليك رأى الأستاذ المستشرق « ليبون » فى القرآن : حسب هذا الكتاب جلالة ومجدا أن الأربعة عشر قرنا التى مرت عليه لم تستطع أن تجفف ولو بعض الشئ .. من أسلوبه الذى لا يزال غضا كأن عهده بالوجود أمس، ولم يكن هذا النبى الجليل داعيا للأخرة وحدها بل أمر أتباعه أن يأخذوا بنصيهم من هذه الحياة .

كما يقول الأستاذ « بلانشيه » المستشرق الفرنسى المشهور : ان النبى محمدا يعد من أبرز وأشهر رجال التاريخ . فقد قام بثلاثة أعمال عظيمة دفعة واحدة وهى :

أنه أحيا شعبا . وأنشأ امبراطورية . وأسس دينا .
ويقول الدكتور « موريس » الفرنسى : ان القرآن أفضل كتاب أخرجته العناية الأزلية لبنى البشر وانه كتاب لا ريب فيه .
ويقول « هنرى دى كاسترى » : ان القرآن يستولى على الأفكار ويأخذ بمجامع القلوب . ولقد نزل على محمد دليلا على صدق رسالته ..
ويقول « ألكس لوازون » : خلف محمد للعالم كتابا هو آية البلاغة وسجل الأخلاق وهو كتاب مقدس وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثا أو المكتشفات الحديثة مسألة تتعارض مع الأسس الإسلامية . فالانسجارد بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعية .

أما « واشنطن ايروينج » فيقول : يحوى القرآن أسس المبادئ وأكثرها فائدة واطلاصا .

ويقول « جوته » : ان تعاليم القرآن عقلية ومطابقة للمحاجات الفكرية ويقول جيمس متشر فى مقال له : لعل القرآن هو أكثر الكتب التى تقرأ فى العالم وهو بكل تأكيد أيسرها حفظا وأشدّها أثرا فى الحياة اليومية لمن يؤمن به . فليس طويلا كالعهد القديم . وهو مكتوب بأسلوب بسيط أقرب الى الشعر منه الى النثر . ومن مزاياه أن القلوب تخشع عند تلاوته وتزداد ايمانا وسموا وأوزانه ومقاطععه كثيرا ما قورنت بدقات الطبول الطبيعية . والأغاني المعروفة فى الجباعات القديمة . هذا هو القرآن الكريم ، معجزة نبى الاسلام ورسول السلام . خاتم الرسل والأنبياء .

وصدق الله العظيم الذي يقول : « وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » . (البقرة : ٢٣)

وقوله : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (الاسراء - ٨٨) .
و « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » (النساء - ٨١) .

الفصل الرابع الإسلام والمستشرقون

يمر الغرب الآن بمرحلة جديدة من عنايته بدراسة الإسلام وحضارته وهي مرحلة ينبغي لنا أن نتعرفها وتبين اتجاهاتها ومراميها .. وقد سبق هذه المرحلة مرحلتان أخريان :

أما الأولى فهي تلك الحقبة من التاريخ التي تبدأ من القرن الثامن الميلادي وتستمر حتى النهضة الأوروبية الحديثة في القرن الخامس عشر .. وفيها احتك الإسلام بالغرب سياسيا وحربيا • وأسس مراكز لحضارته في جنوب أوروبا وغربها الجنوبي • ووقف فيها موقف المعلم يلقنها حضارة خصبة الجوانب • كثيرة الروافد : امتزج فيها تراثه العربي بتراث الفرس والهند واليونان وغيرهم من الأمم التي دانت لسلطانه • وكان موقف أوروبا في ذلك الدور أشبه بسوقفنا نحن من الحضارة الغربية في أوائل نهضتنا الحديثة • فقد نبغ فيهم مترجمون نقلوا جوانب من التراث الإسلامي إلى لغاتهم • وأسماء بعضهم مشهورة في تاريخ الثقافة الغربية •

ثم تجيء المرحلة الثانية منذ أوائل النهضة الأوروبية إلى القرن الحاضر • وفيها احتلت دراسة الفلاسفة الإسلاميين مكانها في الجامعات القديمة مثل باريس ولوفان • وظهر أثر الفكر الإسلامي في بعض الفلاسفة الغربيين • مثل «ديكات» وترجمت بعض روائع الأدب الشرقي مثل «الف ليلة وليلة» الذي ترجم إلى الفرنسية في نهاية القرن السابع عشر ثم ترجم بعد ذلك إلى غيرها من اللغات • واتجهت العناية إلى دراسة سيرة الرسول عليه السلام والسلام • وبدأت تظهر الكتب الأوروبية عن الإسلام وتاريخه • في النصف الثاني من القرن التاسع عشر • وأسست الجمعية الآسيوية في إنجلترا دار نشر في النصف الأول من القرن التاسع عشر • وأخذ العلماء الأوروبيون يتقبون عن المخطوطات الشرقية ويحققونها وينشرونها •

والحق أن كثيرا من كتب المراجع التي نعتمد عليها اليوم في دراساتنا العربية والشرقية • انما يرجع الفضل في ظهورها أو تيسير الانتفاع منها الى أولئك العلماء من الانجليز والفرنسيين والألمان والايطاليين وغيرهم .

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ابتدأت سلسلة المؤتمرات الدولية لأولئك المستشرقين يعرضون فيها ما وصلوا اليه في البحوث الكلاسيكية الاسلامية والعربية والشرقية ، ويعقد بعضهم أواصر الصلات مع بعض . ومع البارزين من العلماء الشرقيين •

وكان للجمهورية العربية المتحدة جولات موفقة في تلك المؤتمرات ففي المؤتمر الذي انعقد في جنيف سنة ١٨٩٤ قدم شوقي ملحمة الخالدة :

همت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تقل الرجاء

وقبل ذلك في المؤتمر الذي عقد في استوكهلم سنة ١٨٨٩ ، قدم «عبد الله باشا فكرى» بحثا علميا عن تحقيق قصيدة حسان بن ثابت في فتح مكة ، وتحليلها وشرحها •

وفي الحلقات الحديثة من هذه المؤتمرات برزت جهود العلماء المصريين والشرقيين في مختلف فروع الاستشراق وأصبحت لهم مكاتتهم في أوساط المستشرقين ، وفيما تقوم به من مشروعات علمية ، ومن هذه المؤتمرات المؤتمر الحادى والعشرون في باريس ١٩٢٨ م ، ثم المؤتمر الثالث والعشرون في كبردج بانجلترا .

أما المرحلة الثالثة ، وهى التى نشهد مظاهرها الآن : فهى مرحلة العناية بالاسلام فى أوضاعه واتجاهاته الحديثة ، فلم تعد الدراسات الشرقية الكلاسيكية هى الشغل الشاغل للمستشرقين المحدثين ، أو لمختلف الجمعيات والمعاهد وأقسام الدراسات الشرقية فى الجامعات الأمريكية والأوربية ، بل انتقلت العناية الى دراسة الأمم الاسلامية فى نهضاتها الحديثة والى ماينشأ فيها من حركات تجديدية واصلاحية ، والى مقدار تأثير التعاليم الاسلامية من أسيلة فى تفكير الشعوب الاسلامية المعاصرة . وماذا بين تلك الشعوب من مظاهر الاتفاق أو الاختلاف فى النزعات وألوان التفكير • وما مدى كل

واحدة في التوفيق بين تعاليم الدين ومقتضيات الحياة العصرية والمعقدة .
وعلى الأخص في التشريع ونظم الاجتماع والاقتصاد وأساليب الحكم ، وهل
هناك معضلات تواجهها تلك الشعوب في التوفيق بين المعتقدات الدينية ونتائج
الفكر العلمى الحديث .

ولقد نظمت جامعة برنستون ومكتبة مجلس الشيوخ الأمريكى مؤتمرا
للثقافة الاسلامية وأقيمت ندوة فى معهد هوفر بجامعة ستانفورد ، ومؤتمر
في متيسونا ، وفى معهد الدراسات الاسلامية فى كندا .

والآن يدرس أحوال الشرق الاسلامى الحديث والتصوف الاسلامى
فى جامعات اكسفورد وكبريدج وجامعات أوروبا كافة . كما أنه المادة الرئيسية
فى كلية الدراسات الشرقية والافريقية بلندن .

والظاهر أن عناية أمريكا وأوروبا . بالاسلام قد أخذت فى السنوات
الأخيرة شكلا جديدا ، نتيجة لشعور الغربيين بأن العالم ينقسم الآن الى
معسكرين : أحدهما دينى والآخر لادينى . وان واجب أهل الديانات
الساوية أن يقفوا متكاتفين فى وجه الانحاد والمادية .

ومن مظاهر هذا الشعور ذلك الاجتماع الذى عقد فى لندن فى الأعوام
الماضية بدعوة من جماعة أصدقاء الشرق الأوسط . وحضره بعض زعماء
الفكر من المسلمين والمسيحيين ، وحاولوا أن يتعرفوا نواحي الاشتراك فى
المعتقدات والتعاليم بين الديانتين الكبيرتين . وأن يبرزوا معالم النظام الذى
وضعه الدين لحياة انسانية فاضلة تقوم على الايمان بالله والتسكك بمثل
والقيم الروحية العليا .

واليك نموذج من دراسات الباحثين الغربيين عن الاسلام وعن علماء
علمائه ومصلحيه .. فهذا مقال لعالم أمريكى عن « نظرة الاسلام فى الغرب »
وأثر تلك النظرة فى التفكير الاجتماعى والنظرية السياسية . وفى
الأمريكى : ان موضوع الانسان ومصيره ومكانه من أوجه دلائل شعور
أذهان المفكرين الغربيين لماله من صلة بنظرات السياسة والأخلاق . ولما له
من علاقة بفلسفات الحكم والاجتماع فى المعسكرات السياسية المختلفة .

ولهذا الموضوع مكان بارز في التفكير الاسلامي ، وأسسها الأولى مستمدة من نصوص القرآن الكريم : فهي تقرر أن الانسان مدين بوجوده لخالقه الذي أنشأه وصوره ونفخ فيه من روحه وفضله على سائر الكائنات ، وهذا الكائن المفضل أبدعته يد القدرة من ماء وطين • فهو من هذه الوجة أرضي المادة والتكوين ، وهو بما نفخ الله فيه من روحه كائن يمت الى السماء بسبب ، وقد شرفه الله بأن جعله خليفة في الأرض ، وأخضع له سائر المخلوقات ، وزوده بالعقل والارادة . وأعطاه القدرة على تكييف السلوك ، والحكم على الأشياء ، ومعرفة الخير والشر ، والنافع والضار ، وكل أولئك مقرر وصريح في نصوص القرآن .

على أن هناك ناحية من الانسان حار في أمرها المفكرون طوال العصور وهي مسألة حرية الفرد و ارادته بجانب القانون الالهي • وما جرى به القلم من قضاء وقدر ، وقد أخذ علماء المسلمين بنصيهم من بحث هذه الناحية ، ورجعوا فيها الى نصوص القرآن ، فوجدوها من جهة تؤكد سلطان الله المطلق وأنه لا يحدث في ملكه الا ما أراد ، وان مشيئته الأزلية لا بد نافذة ، وأنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء •

ووجدوها من جهة أخرى تؤكد بجانب الحرية والمسئولية في الانسان ، فكل امرئ مسئول أمام الله عن أفكاره وأعماله وأحكامه ، ولا تستقيم المسئولية الا مع حرية الاختيار ، ومعنى هذا أن الله يرشد الانسان عن طريق الوحي والنبوات والفطر السليمة الى المبادئ الأخلاقية العامة المنبثقة عن الارادة الالهية . وان الانسان بما أودع الله فيه من قوة في استطاعته أن يختار بين أن يتقبل هدى الله أو أن يتحول عنه •

هذا ومن الأفكار الأساسية في الاسلام فكرة المساواة الكاملة بين بني البشر ، اذ هم جميعا من خلق الله ، فلا يفضل انسان انسانا بشرف مولده أو نوع وظيفته أو جاهه في قومه ، وليس في الاسلام جماعات ممتازة ، ولا أمم مختارة ، والطريقة الوحيدة التي يمكن أن يتميز بها بعض الناس عن بعض هي كيفية استجابتهم لله ، وقبولهم لهديه ، وموقفهم من وحيه •

هذه الفكرة تضمنتها أصول الاسلام وشعائره التي ترمى الى أن يفقه الناس أنهم جميعا سواسية أمام الله . ففي الصلاة يقف العظيم والصغير ، متجاورين في عبادة الله ، وفي الصوم يستشعر الناس غنيهم وفقيرهم الخضوع لله ، ويدركون قسوة الجوع ، ومرارة الحرمان . وفي الحج يتجرد المسلمون الا من لباس من قطعة واحدة يشعر بالوحدة والمساواة ، ويقضى على التمييز الطبقي والمالي اللذين يظهران عادة فيما يلبس الناس . أما الزكاة فتبرز الاحساس بالمسئولية نحو خلق الله الذين تركتهم صروف الدنيا بلا ضمان .

وهناك من أصول التشريع الاسلامي أصل يمكن أن يكون له اثره في اخذ النزعات الاستبدادية عند بعض الحكام والفقهاء . ذلك هو مبدأ الاجماع الذي يعتبر مظهرا للارادة العامة ، والذي يحصل في طياته بذرة مهمة من بذور الديمقراطية .

هذه النواحي التي ذكرناها اذن ، تؤكد أهمية الفرد في نظر الاسلام . من حيث هو موجود يضيء بين جوانحه قيس من نور النساء ، ومن حيث هو كائن حر ، ذو ارادة وعقل واختيار . ومن حيث هو ذات لها قيمتها وأهميتها التي لا تتوقف على مال أو منصب أو جاه .

وبجوار هذه الأهمية التي خلعتها الاسلام على الفرد . سار تعريف الاسلامي على تصور آخر يتعلق بالفرد في الجماعة . ويسخ الناس وسيلة للترابط واحساسا بالاتحاد لا يوجدان حيانا في التصورات الغربية الحديثة للانسان . ذلك هو ما يعرف عند المسلمين بدار الاسلام . وهو يضمن معنى كل مسلم شعورا بالترابط الوجداني مع كل مسلم آخر . ويهب له حساس بالأمن ، ذلك أنه يشعر بكونه في داره أيضا سار في أية بقعة من تلك البقاع الشاسعة المتناثرة من الساحل الأطلنطي لأفريقيا الى قلب المحيط الهندي .

حيثما كان الاسلام هو الدين السائد والثقافة الغالبة . وهذا هو الحال في خلق - لو أحسن فهمه واستخدامه - روحا جماعية . ويحدد بين شعوب لها أهميتها البالغة ، ومن الملاحظ أن هذه الروح تظهر أقوى ، وتظهر عندها يهدد العالم الاسلامي ، أو أي قسم من أقسامه مصدر غير اسلامي .

وأنها عرضة أن تنسى حين لا يهدد المجموع خطر من الخارج ، ومع ذلك فهي قسوة حقيقية يمكن أن تصبح عاملاً له أثره في حياة العالم الاسلامي كله .

ومما أورده العالم المسيحي الأمريكي ، موقف الاسلام من الفرد ومن الجماعة الانسانية مستدلاً في حديثه بنصوص من القرآن الكريم ، ودراسات العلماء السالفين ، ثم يتابع موضوعه الى العصر الحاضر ، فيحلل آراء بعض المحدثين من العلماء والمفكرين المسلمين من أمثال المصلح المصري « محمد عبده » والفيلسوف الباكستاني « محمد اقبال » اللذين يتفقان في أن كلا منهما يؤكد استقلال الارادة الانسانية . ويبرز الباحث الأمريكي عناية الشيخ « محمد عبده » بأن يصحح ما درج عليه الغربيون ورميهم لنا بالجسود والتأخر بسبب ما يعتقد المسلمون في القضاء والقدر .

صحيح أن العامة قد اصطبغ تفكيرهم بالتسليم القائم على الاعتقاد في القضاء الالهي . ولكن مفكرى الاسلام من جميع الفرق يعتقدون مذهب حرية الفرد في الاختيار .

ويقرر «محمد عبده» في رسالة التوحيد أن الانسان يدرك أعماله الاختيارية ويزن عواقبها بعقله ، وينسب اليها القيم عن طريق ارادته ، ويقوم بها بدافع في نفسه . عالماً أن هناك قوة أعظم من نفسه ، هو مسئول أمامها ، وأن هدى الله ميسور لمن يجاهد في سبيل الاهتداء الى الحق والخير والصواب مصداقاً لقوله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبيلنا » . وكما أن الناس تحكسهم في حياتهم الاجتماعية قوانين خاصة . كذلك تحكسهم في كل مكان وزمان قوانين الله الخلقية . والناس قادرون على ادراك هذه السنن الالهية بالتدبر وعن طريق الوحي ، ولكنهم أحرار حين يعملون بها أو يخرجون عليها ، والأمم تصل الى الرفعة أو تقصر دونها حسب اختياراتها الأخلاقية الارادية ، أو حسب الاتجاه الأخلاقي العام لسياساتها الاجتماعية . وقد وهب الله الانسان الحس والعقل . وفي هذين : الكفاية ليستكشف ما هو ضروري للحفاظ على النفس ، وليميز الصواب من الخطأ ، ووهب له العاطفة والشعور اللذين يدفعان ادراكه العقلي ، ووهب له الارادة الحرة ليتصرف فيما يصل اليه عقله وتوجهه اليه عاطفته .

ويصل الباحث من كل هذا التحليل الى نتائج عامة أهمها أن الحضارة الإسلامية ذات أساس متين يمكنه من الإصلاح في ميادين السياسة الاجتماعية فإن ما في نظام الإسلام الأساسى من مساواة ومن ديموقراطية يبعث على ضروب من المشروعات ترمى الى تخفيف الحرمان والضعف اللذين تعانيهما أية طائفة داخل الجماعة ، وحيثما أتتج النظام الطبقي للمجتمع أقلية غنية وأغلبية فقيرة . فإن المصلحين يستطيعون أن يعتمدوا على المبادئ الأخلاقية الأساسية في الإسلام فى الوصول الى تشريع يكون من شأنه رفع مستوى المعيشة وفتح طبقات المجتمع كلها فرصا متكافئة فى التعليم وفى الدخل المناسب وفى التعبير الاجتماعى . أما فى الميدان السياسى فإن العالم الإسلامى فى وضع يسمح له أن ينسى فلسفته الخاصة دون أن يدفعه التقليد الأعسى الى اتباع نظريات سياسية واقتصادية تجلب اليه من هذا المعسكر أو ذاك . والأمم الإسلامية بسا بينها من أواصر الوحدة والترابط تستطيع أن تكون فى طليعة المنتصرين لخلق نوع فاضل من المجتمع العالمى ومن العاملين على ايجاد مثل ذلك المجتمع الذى ينظمه ويسيطر عليه قانون دولى .

ومن المستشرقين الذين كتبوا فى الإسلام الأستاذ « اميل ديرمانجم » وقد سلك فى الإسلام طريقا وسطا بين الافراط والتفريط ووفق الى كثير من الحقائق وان كان له هو الآخر هفوات سنعرض لها فى حينها ، ولكننا نكتفى الآن بأن نسجل بعض آرائه فى الإسلام (قرآنه ونبيه) . التى جاءت فى كتابه « حياة محمد » .

قال : ان محمدا قد أبدى فى أغلب حياته اعتدالا لافتا للمنظر ، فقد برهن فى انتصاره النهائى على عظمة نفسية قل ان يوجد لها مثل فى التاريخ . اذ أمر جنوده أن يعفوا الضعفاء والمسنين والأطفال والنساء ، وحذرهم أن يهدموا البيوت أو أن يسلبوا التجار . أو أن يقطعوا الأشجار المسندة . وأمرهم ألا يجردوا السيوف الا فى حالة الضرورة القاهرة . بل قد قيل انهم يؤنب بعض قواده ويصلح أخطاءهم اصلاحا ماديا ويقول لهم : انفسوا واحدة خير من أكثر الفتوح ثراء .

ان الغنائم الحربية كانت فى ذلك العهد . النتيجة العادية لكل جهاد . بل يمكن أن يقال : انها كانت مع التجارة وتربية الحيوان . هى الصناعة الوحيدة

العربية ، فأعلن « محمد » اباحتها لأتباعه استجابة لضعفهم ، ولكنه حددها بقواعد دقيقة ، فخصص الجزء الأكبر منها للصدقات ولحاجات الجيش ، وانه قد حذر في قسم الأسرى ابعاد الأطفال عن أمهاتهم ، انه لم يكن ليستطيع أن يغير أخلاق شعبه تغييرا تاما ، ولكنه نجح في أن يقومه في نقط كثيرة .

انه شخصيا لم يكن الا رجلا أميا خلوا من الثقافة تقريبا . كجميع بنى بلده في عصره ، ولكنه كان يعلم أن الاله رحيم رحمة لا حد لها ، فأجهد نفسه في أن يعلو على الطبيعة البشرية وأن يقهر في نفسه الميول الانتقامية ، وهو في هذا يقول : كاد الحليم أن يكون نبيا .

بل يمكن أن تكون آلامه التي كان يعانيها ناشئة من أنه لم يلحق الكمال الذي كان يبغيه ، ان اخلاصه لا يمكن أن يكون في العصر الحاضر موضع شك . فان حياته كلها تشهد أنه كان يؤمن برسالته ايسانا عميقا وأنه تقبلها — لا بغير بطولة — كعبء يجب عليه أن يحتسل ثقل أوزاره .

ان قوة عبقريته الانشائية واتساعها ، وذكاءه العظيم ، ونظره الصائب الى الحقائق ، وسيادته لنفسه ، وقوة ارادته ، وحكته واستعداده للعسل ، وحياته الواقعية . . كل ذلك يجعل الزيف في مبدأ رسالته يستحيل القبول . فكيف يتصور أن ينقلب كاذبا فجأة ، ذلك الذي كان نجاحه يظهر له كبرهان ساطع على تأييد الاله لدعواه ، وكيف يمكن أن يجرؤ على تشويه رسالته في الوقت الذي كان يرى فيه أنها مقدسة مؤيدة من الاله .

ويقول عن النبي كحكيم : ان محسدا كان رجلا مؤمنا بالعالم الروحاني ، انه ذلك الانسان الذي كان للأشياء الخفية عنده أهمية تفوق أهمية الظواهر الحسية ، والذي عنده تتقدم اللامرئيات على المرئيات ، والذي يرى أن النظام الروحاني هو النظام الأساسي .

بل انه هو النظام الوحيد الذي يوجد حقا ، انه قبض على الحقيقة العسيقة ، ثم صدع بين بنى الانسان باكتشافه . ان هذا القلب الخالي من كل كذب . ومن كل ثقافة مزيفة ، ومن كل غرور ، قد ظهر دفعة واحدة بالصخرة المتينة ، واذا كان واقعييا بالمعنى الكامل لهذه الكلمة « Réaliste »

فقد كان بخاصة في الحياة العملية ، حين وكلت اليه أعمال العالم الخارجي ، أتم وأكمل ، لأن المرئي هو ميناء الساعة التي عليها يرتسم اللامرئي ، ولأنه هو جذر النبتة الحقيقية ، إذ أن ما هو أدنى ، صورة لما هو أعلى ... وذلك رأيه في الرسول كنبى : ان النداءات الداخلية هي لتاريخ الانسانية أشبه الأشياء بمفاصل الجسم البشرى التي تسبح له بأن يتحرى ويؤدى مهسته في الحياة ، فن وقت الى آخر ترن دعوته ، وتسبح صرخة في الليل ، وينادى صوت فى السكون فيهب اذ ذلك رجل قافز من نومه ، ويسير دون أن يدري الى أين يتجه بالضبط ، كابراهيم والياس ، ثم يستتر فى سيره . بلا راحة ولا فتور ، ويظل يتكلم حتى يوقظ الآخرين من نومهم الثقيل . وبهذا يتكون سلام الانسانية فى سلسلة من الأفعال الحرة .

وهكذا نهض محمد ليدعو بنى جنسه الى دين واحد ، هو دين الاله الواحد ، وليوقظ جزءا من آسيا وافريقيا . وليحرر من عبودية الجامدين كل الذين يفهمون رسالته الحقيقية ، ولكى يحرر بلاد فارس التى كان النعاس يشلها ، ولينعش المسيحية الشرقية التى شوهتها المجادلات البيزنطية الخالية من الحماسة ومن الاعتقاد المجرد من الوحدة .

ان الأنبياء يفرضون أنفسهم على العالم كالتقوى الطبيعية العظيمة الخيرة القاسية كالشمس والمطر . وكعواصف الشتاء التى تصيب الأرض الجرداء لتكسوها بالخضرة فى بضعة أيام ، فبشارهم ينبغى أن يحكم عليهم . ان أفضل براهين رسالاتهم . هى تلك العقول المطبنة . والقلوب المنعسة بالسكينة والارادات القوية . والمخاوف المستحيلة الى هدوء . والأمراض الأخلاقية التى أبرأوا الانسانية منها والصلوات التى تصعد الى السماء النقية .

انهم قد هوجسوا بالكبرياء العالمية . وهم بلا معتد وبلا قوى مادانية . ومع ذلك فقد حملوا وحدهم سرا على أنواع الحرية الذى يسكن ان يتجاوز فى هذه العبارة : لأن تعصى الناس خيرا لك من أن تعصى الاله السيئ وحده يجب أن يسجد الجميع متساويين .

ان محمدا كان يجهل كل ما ليس علما مطلقا . وكان أميا بالمعنى الكامل لهذه الكلمة وليس معناها . فبما أرى . العامية أو الخلو من التأديب

الأمى هو بالأحرى الرجل النقى الذى جمع بين الطبيعة وما فوق الطبيعة ، والبرىء من الأحكام العقلية والقلبية المتسرعة •• ومع ذلك فقد نهض لكى يدعو العلماء الى أن يفهموا مايقولون • وليقوم الطرق المتتوية التى يضل فيها من يزعمون أنهم حكماء •

ان الناس حالة سماعهم خطبه المهمة ، وكتاباتہ الملتئمة مع عصره ، قد تحسوا بجاذبية تصلهم بالسر الخفى الذى يحوطهم اليه وخضعوا للاله ، فأروا كيف يستطيعون أن يهدبوا وجودهم المؤقت وهكذا وجدوا فيه مثالا حيا لا يستطيع الفلاسفة ولا رجال الحكومات أن يقدموه •

ان «محمدا» قد جاء فى عصر يعد أحد عصور التاريخ المظلمة ؛ اذ أن جميع المدنيات ، من حدود «الغان» الى أقاصى «الهند» كانت منهاره أو مضطربة ، ان دعوة «محمد» قد أوجدت فى جزيرة العرب تقدما غير قابل للاعتراض سواء كان ذلك فى دائرة الأسرة أم فى دائرة الجماعة . أم فى الناحية الصحية ، وان حظ المرأة قد تحسن ، وان الفحش والزواج المؤقت والمعاشرة الحرة قد حظرت . وقد حرم أيضا اكرام الاماء على اتخاذ الفحش وسيلة لثراء موالين كما كان متبعاً فى ذلك العهد « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا » انه قد أباح الرق ، ولكنه نظمه وضيق حدوده ، وجعل العتق عملا خيرا ، بل كفارة عن بعض المعاصى .

ان «أباذر» دعا «بالالا» يوما بابن الأمة ، فقال له النبى : انك لا تزال تشعر بشعور الجاهلية الأولى •

ان الالهيين والأخلاقين والفقهاء والمتسكين ، قد وجدوا فيما بعد فى دعوة محمد الأسس الأولية لمعارفهم ، فاسترشد بها كل منهم فى طريقه الخاص مع حفظ المبدأ الجوهرى • وهو أن الاله هو المحور الرئيسى فى كل شىء ، ولقد اعتسدت المذاهب المختلفة فى تأسيس آرائها المتناقضة على أحاديث حقيقية أو مزيفة عزيت الى النبى •• بل ان المشكلات الميتافيزيقية العظيمة ، التى لم يكن «محمد» يحب أن يلح عليها ، قد عولجت فيما بعد استنادا الى تلك الأحاديث نفسها • ففىما يتعلق بحرية الفرد مثلا نجد أن الجبرية وخصومهم القدرية قد فتنوا عن أدلتهم فى الكتاب والسنة ، وهذه المسألة

قد بسطت بعد ذلك أمام المدرسين المسيحيين ، كالقديس « توماس » ، وعند بعض المحدثين « كبوسويه » ، و « الجانسينيين » و « المولينيين » بالعبارة نفسها التي بسطت بها عند العرب ، وحلت بالحلول نفسها التي وضعوها لها .

وفي الواقع أن القرآن يلح على بيان القدرة والعلم الالهيين الكاملين ، ويعلم أن كل شيء آت من الاله ، ولكنه يصرح أيضا بأن الشر وليد الارادة الانسانية الفاسدة ، وبالاجمال يستطيع الباحث أن يجد في القرآن نصوحا لحرية الفرد أو عليها • وهاتان النقطتان هما طرفا السلسلة التي لم يعثر العقل البشري بعد ، على حلقاتها الوسطى . فاذا كان المسلمون وعلى الأخص في عصور التدهور . قد أبدوا انعطافا نحو الجبرية الشرقية . فإنه ليس في الاسلام ما يضطرهم الى هذه الجبرية . على عكس ما كان « لينيز » يعتقد مسايرة للرأى العام ، اذ حين سأل أحد الأعراب « محمدا » عما اذا كان يكتفى في حفظ ناقته بالتوكل على الله ، أجابه قائلا : اعقلها وتوكل ••• •• . وحينما قيل له : انه مادام أن كل شيء معلوم لله مقدما . فإن العمل عبث . قال : كلا ••• •• . اعملوا فكل ميسر لما خلق له ••• •• وهذا معناه ، ساعد نفسك تساعدك السماء ••• وقال كذلك : اعسل لدنياك كأنك تعيش أبدا . واعسل لآخرتك كأنك تموت غدا (وهي حكمة لعلى كرم الله وجهه ونسبها الى النبي صلى الله عليه وسلم) ••• وهذا هو الحل الذي ارتضته الأخلاق . فشهدت بالحكمة •

وهذا رأى للكاتب نفسه في القرآن واعجازه . قال : ان كل نبي يجب أن يأتي ببرهان من طبيعة خاصة يكون آية على صدق رسالته . وهذا البرهان يسمى بالمعجزة . وهو يختلف عما يأتي به الأولياء . ويسمى كرامة . والقرآن هو معجزة محمد الوحيدة . فان جلاله الأدبي الفائق وقوته الثوراتية ، لا يزالان الى اليوم لغزا لم يحل . وهما يضعان من يتلوه . ولم كان قبل ذلك تقوى ، في حالة خاصة من الحساسة •

لقد تحدى « محمدا » الأناسي والجن أن يأتوا بمثله . وهذا هو برهان رسالته بالمعنى الكامل . ولم يكن الأمر في القرآن يتعلق بقضية أدبية استثنائية فان محمدا كان يحتقر الشعراء ودفع عن نفسه أن يكون واحدا منهم •••

ولكن الأمر يتعلق بشيء آخر غير هذه القيمة ، وهو الفرق بين وحى الاله والهام الشياطين .

وغير خاف على المتعمقين في التاريخ الاسلامى أن العالم المسيحى كان بطبيعة الحال في أيام الحرب الصليبية وفي أثناء الفتوحات العثمانية في أوروبا سىء الرأى فى صاحب الدعوة الاسلامية . وكانت الكنيسة الكاثوليكية تتجاهل كتب السيرة النبوية ليتسع المجال لتصوير « محمد » على خلاف صورته التاريخية دون تعرض للدعوة الدينية . كما كانت تتجاهل القرآن ، ولا تعترف بوجوده ، وقد بلغ من ذلك أن أحرقت نسخة القرآن العربية في البندقية عام ١٥٣٠ ، وأن حرم البابا اسكندر طبعه وترجمته . وكانت التراجم الأولى للقرآن في القرنين السادس عشر والسابع عشر (١) مشفوعة دائماً بالمقدمات والحواشى والتذييلات في دحضه وتفنيده من قبيل الاعلان من جانب المترجمين عن حسن ايسانهم ، ودفعاً للشبهة عن أنفسهم وتزكية لعملهم ، وتكفيراً عنه في عقيدتهم وعند أهل ملتهم .

١١. ان أول ترجمة للقرآن الكريم كانت بأشعاره " بطرس فيزابلس رئيس كنيسة كنيية . وندت ١١٤٣ ميلادية . وظلت مخفية نيفا وأربعمائة سنة حتى تم طبعها سنة ١٥٤٣ ونقلت بعد ذلك الى الايطالية والهولندية . ثم ترجم القرآن الى الفرنسية وطبع عام ١٦٤٧ وترجم الى اللغة الانجليزية عام ١٦١٦ والنهريدييه سنة ١٦٤١ والروسية ١٧٧٦ والايطالية ١٥٤٧ والانجليزية ١٧٣٤ والنجارية ١٩١٣ والسلمانية ١٩٠٨ . والهندية والارامية ١٧٩٠ والفارسية ١٨٢١ والتركية ١٩١٣ .

وقد ظهرت ترجمات ممددة للمفكرين الغربيين من مشرقين ومبشرين وكلها ترجمات تفسيرية بها نقص أو زيادة وليس كاملة .
لما أن القرآن ترجم في عهد حسام بن عبد الملك الى اللغة السريانية وهى لغة ذلك العصر . . .
ويوجد في متحف لندن المجموعة الخطية التى وهبها " ادوار كاربوري " في ٥٠ ألف مجلد وتشمل ترجمته بديته للقرآن منذ ٦٩٠م وبها آيات كاملة ليست من القرآن .

ولعبت الترجمات ٣٤ ترجمة نشرت في مختلف أنحاء العالم على أنها ترجمة حقيقية للإسلام . . . وهى ترجمات محرفة ومغلوطة . . . استعمالها بعض من لا يعرفون اللغة العربية . . .
وكانوا قد ترجموا القرآن منذ منتصف القرن الخامس عشر عام ١٤٥٧ عن طريق المبشرين . . .
حتى عام ١٩٢٢م - فجرت مناقشات فكرية حول ما اذا كانت الترجمة للقرآن هى ترجمة كاملة أم ترجمته معانى القرآن . . .

ونسيت مشرقية الازهر في ١٦ أبريل عام ١٩٢٦ - ان تراجم القرآن الى مختلف اللغات الانجليزية قد سارت في هذا العصر وان بها اخطاء وانلأطا شائكة نشأت مع ما جاء في الدين الاسلامى الحديث . وهى من أجل ذلك قد أنشأت قسماً خاصاً من مجلة « نور الاسلام » .
واستهدفت الاحصائيين فى اللغات الذين ناطت بهم ترجمة تفسير بعض الآيات وأخذت من تفسير الالوسى والبضاوى وغيرهما من التفاسير . . .

وبينت ان المراد من ترجمة معانى القرآن هو تبسيط هذه المعانى تبسيطا معكماً وتفسيرها تفسيراً دقيقاً على أن تنرجم المعانى بعد ذلك . وقالت : ان القرآن لفظ عربى معجز وله معنى . أما نظمه العربى فلا سبيل الى نقل خصائصه لان هذا مستحيل استحالة قطعية .

ثم أخذ الموقف مع دخول القرن الثامن عشر الذي يسونه عصر النور يدخل عليه التحسن شيئاً فشيئاً على نحو مستمر ، ولكنه لا يكاد يحس به من فرط بطئه .

وكان انعام الهولندي « أدريان ريلان » Adriaan Reland أول من أمسك القلم من العلماء الأحرار للعسل على رد الاعتبار للإسلام ، وصاحب الرسالة في كتابه عن الديانة المحمدية ، ثم طلع من بعده المستشرق الفرنسي « ارنست جانيه » Ernst Gani بكتابه « حياة محمد » عام ١٧٣٣ م وقد نقل فيه الى اللاتينية سيرة النبي - صلى الله عليه وسلم - عن المؤرخ العربي « أبو الفدا » ولا شك أن اعتياد المستشرق على مصادر جديدة غير مصادر القوم الخرافية دليل على ترفعه عن التعصب الأعشى . واعتصامه قدر الاستطاعة بروح الانصاف والتزام المنهج الموضوعي ، واقتفى أثر هؤلاء وتقدم عليهم غيرهم مثل « هنري كونت دي بولانفلييه » Henri Comte de Boulanvlliers في كتابه « حياة محمد » الذي يأخذ عليه المتعصبون

وكانت فكرة ترجمة معاني القرآن . . لتسرحوم الشيخ مصطفى المرانوي سنة ١٧٤٢ م . ثم عام ١٧٦٩ م - حتى أعقبه المنفور له محمد فريد وجدي ودعا الى ترجمته العربية في كتابه « حياة محمد » كاملة حتى يواجه تحريف المحرفين وحده هذا العس حين لا يترك المستشرقون العرب في الامم المختلفة مجال لتحريفه وتشويه معانيه . وحيث ان الإنجليز قد ساءوا في الغرض المطوب من نشره . لان المفكرين في العالم حين ان ساءوا في تحريفه والتشويه والشروح واللوان الآراء والافهام لمعرفة الدائرة المأثورة . بعض من اعداء بعض العلماء المسلمين الاسلام في الدوائر العربية التي لا تحس فيهم . فليسوا في الايمان واليقين والحيوية والحيية للدفاع عن نفسه . وعن ان وضع اليوم في المعركة في مسائل كثيرة . فليسوا منكرة تقع نتائجها علينا وعلى اعدائنا قروننا طرفة . فبعدها من اعدائنا في اعدائنا العسائية مع غيره من كتب الادبيات واستفاد الداعين .

وان كل ما يخشى منه ان يوكل امر النبي في هذا الشأن من الاعداء . فليسوا في اليهم انها لغات بربرية تخلو من جميع الحروف المتكلمة والمفردة التي لا يمكن ان تعطيل القرآن عن الترجمة الحرفية والرجوع في معبره الايمان التي لا يمكن ان تضل انصارا من الامم الغربية فصار قاسرا على الامم العربية التي رسلها في اعدائنا في البيداء .

وانشاز الى حركة الاتراك التي اثرت في العالم العربي المظفر زكي واصحابه في اعدائنا اقدمهم على كسر هذا السياج القلادي الذي وسعه المناخون في اعدائنا في اقدم المذاهب الفقهية التي في حريضة الاعراب بتاريخ ٧ مايو ١٧٣٢ م . وقد عارض ترجمة معاني القرآن كتروني في مقدمته المسمى « محمد بن عبد الله عليه السلام » الذي وصفها بان وراها « رسالة مما اعم النصارى من اعدائنا على الاسلام وتابعه » محمد الهياوي . وناقشها ذلك الشيخ الطاهر في كتابه « حياة محمد » ارتاتته مشيخة الازهر من استعالة ترجمته الذي كان بطئه العربي لا يحس الا من اعدائنا ولا مانع من ترجمة معانيه .

من أهل ملته أنه يتحدث عن صاحب الدعوة الاسلامية ، باعتباره رسولا
للعناية الالهية .

ولقد اطلع الشاعر جوته في عام ١٧٧٢ على الجزئين الأولين من تاريخ
« محمد » مشرع العربية Mobamet Cegiateur de l'Argbie لمؤلفه الفرنسي
« ترين » Fracais Henrit Turpin وهو من قبيل من ذكرناهم على وجه
العموم .

ولكنه لا ينبغي أن يغيب عن البال أن مايسمونه عصر النور لغلبة
الفلسفة العقلية التي مهدت للثورة الفرنسية في أواخره ، كان دعائه يحملون
حملة شعواء على الأديان عامة ، ولا يريدون أن يروا في أصحاب الدين الا
أصحاب خرافة ودجالين ، يزعمون للناس أنهم من المرسلين الملهمين .

ومن هؤلاء « فولتير » الذي أراد أن يروج لهذا التفكير اللاديني على
المسرح بطريقته الملتوية غير المستقيمة . وقد كان هذا دأبه ومنهجه الذي درج
عليه منذ البداية . فنراه في مسرحيته الأولى « أوديب » عام ١٧١٨ يتظاهر
بسهاجة الكهان في الوثنية ، وهو يعنى الكنيسة المسيحية كما فهم من أراد
الفهم من القارئين والسامعين من منطوق قوله : ان رجال الدين عندنا ليسوا
كما يتخيله عامة شعبنا ، ان عليهم المنوعوم كله انما هو من صنع وهمنا
واعتقادنا .

بيد أن فولتير في هذه المرة أراد أن يتقدم خطوة أخرى الى الهدف ،
فاستدبر خلفه رجال الدين ، وابتغى نحو النبين ولما لم يكن في الاستطاعة ،
حتى لو واثته الشجاعة ، أن يتعرض في مواجهة جمهور المسرح الأوروبي ،
وهم في جبلتهم على الدين المسيحي ، لأحد الأنبياء الذين تقدم ذكرهم في
الكتاب المقدس سواء في العهد القديم أو في العهد الجديد ، فلم يبق أمامه
الا أن يتعرض نبي المسلمين ، ليتوصل من ذلك الى الطعن من طرف خفى
على كل نبي . فكتب مسرحيته « التعصب ، محمد النبي » عام ١٧٤١ م . .
ورأى امعانا في التعبية على رقابة المطبوعات فضلا عن الأخذ بالحيلة
والاعتصام بالتقية أن يجعل ، وهو المشهور بعدائه اللدود للكنيسة - اهداء
المسرحية الى البابا « بنوا الرابع عشر » مختصا الاهداء بقوله : وبعد .

فليأذن لي صاحب القداسة أن أضع المسرحية ومؤلفها عند موطنه قدميه .
وان ازداد جرأة فالتمس منه للمسرحية الرعاية ، ولمؤلفها البركة ، ولم يكن
البابا ليفوته ما يستهدفه « فولتير » من وراء مسرحيته ، فرد عليه بعد أسابيع
بكتاب اقتصر فيه على القول بأنه قرأ مسرحية « محمد » باهتمام . وقد مثلت
المسرحية في مدينة « ليل » أولا عام ١٧٤١ ، ثم قدمتها « الكوميدي
فرانسيز » في باريس عام ١٨٤٢ ، فاحتج عليها السفير التركي لدى الحكومة
الفرنسية ، وعقد مؤتمرا دعا اليه كتاب فرنسا الأحرار فأوقفت الحكومة
تمثيلها ولم تزد حفلاتها على الثلاث ، وظلت بعدها تسعة أعوام متوالية في
الظلام . . . وطبيعي أن لا يعيننا هذا الموقف من فولتير . مادام هو وأمثاله
من كتاب الثورة الفرنسية معدودين من الملاحدة حيناً ، ومن منكري النبوات
عامة في أكثر الأحيان .

وأما الذي يعيننا في هذا المقام فهو رأى غير المتعصبين من أهل الديانات
الأخرى ، والذين لم يختم الله على قلوبهم فلم تظلم بصيرتهم ولم ينضب منها
معين الايمان . وقد ذكرنا كيف تطور هؤلاء . واعتدل موقفهم وزاد اعتبارهم
بفضل الاسلام واعجابهم بشخصية محمد ، بقدر امعانهم في دراسة التعاليم
القرآنية ، واطلاعهم على السيرة النبوية من مصادرها الحقيقية . جدير
بنا مع ذلك أن نتوقع منهم وهم على غير هذا الدين أن يتحدثوا عن صاحب
الدعوة الاسلامية . كما نتحدث نحن المسلمين . بل حسبهم . وهذا قصارى
جهدهم ، هدم الخلافات المزرية التي أشيعت عن محمد في العالم المسيحي .
واظهارهم محمدا للعالم المسيحي مؤمنا صالحا يعبد الله ثابت اليقين .
ومجاهدا أرادت مشيئة الله أن تتخذه من المرسلين لنشر عقيدة التوحيد بين
العالمين .

وهاهو ذا « جوهان وانفانج جوته » كبير أدباء الألمان وشاعرهم
الأعظم . في فرانكفورت عام ١٧٧٣ . يعكف على تلاوة القرآن في مسجده
المانية أنجزها يومئذ أحد أبناء بلدته . المستشرق العلامة « ميرجلين »
Mergelin حتى اذا فرغ منها عكف بعدها على تلاوة القرآن في ترجمة
لاتينية سابقة لها . طبعها في مدينة « بادوا » في الشمال الشرقي من ايطاليا

القس الجزويتى « ماراتشى » Maracci عام ١٦٩٨ م ، وأعيد طبعها عام ١٧٢١ بمدينة ليبزج الألمانية •

وما أن أتم جوته تلاوة القرآن فى الترجمتين ، حتى اقتبس بعض الآيات القرآنية ، نقلا عن الترجمة الألمانية ، ونحن نعرف اليوم ما اقتبسه الشاعر الألمانى من الآيات ، بفضل طبعها بعد ذلك فى مجلد للمرة الأولى بمعرفة « شول » Sholl عام ١٨٤٦ • وهذه الآيات هى قوله تعالى :

« بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » •

« والله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله • ان الله واسع عليم » •

« ان فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلون » •

« ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء • صم بكم عسى فهم لا يعقلون » •

« ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس • أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » ، وكلها من سورة البقرة ، ثم من سورة آل عمران قوله تعالى : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزي الله الشاكرين » •

« وما كان الله ليطلعكم على الغيب ، ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فأمنوا بالله ورسوله ، وان تؤمنوا وتتقوا فلکم أجر عظيم » •

ومن سورة النساء : « مذبحين بين ذلك ، لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء
ومن يضل الله فلن تجد له سيلا » •

ومن سورة المائدة : « ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم
سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ، ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما
أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، منهم أمة مقتصدة
وكثير منهم ساء ما يعملون » •

« يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم ، وان
تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم ، عفا الله عنها . والله غفور حلیم .
قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين » •

ومن سورة الانعام : « وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض
وليكون من الموقنين » •

ومن سورة يونس : « دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام .
ومن سورة يوسف : « اذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منك
ونحن عصبه ان أبانا لفي ضلال مبين » •

ومن سورة طه : « قال رب اشرح لي صدري » •
ومن سورة العنكبوت : « خلق الله السموات والأرض بالحق . ان
في ذلك لآية للؤمنين » • « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تحفظه
بيمينك اذن لارتاب المبطلون »

« وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه . قل انما الآيات عند الله . والله
أنا نذير مبين » •

وقد ظل جوته طويلا يمعن في دراسة القرآن امعان الباحثين . وهم
يقول : ان القارئ الأجنبي يسله لأول قراءته . ولكنه يعود فينجدد اليه
وفي النهاية يروعه ويلزمه الاكبار والتعظيم . ويستشهد « جوته » في
عن القرآن الكريم وما جاء به من تعاليم الدين بهذه الآيات :

« ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب
ويقومون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل اليك

وما أنزل من قبلك وبالأخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون . ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم .

ويقول جوته : ان القرآن يردد قواعد هذه التعاليم ، ويكرر البشير والندير سورة بعد سورة وهو لا يرى في هذا التردد والتكرار ما يراه النقاد الغربيون لأن محمدا لم يرسل برسالة شاعر للتفنن في القول والتنويع في ضروب الكلام وعرض الصور المزوقة من الأخيلة والأوهام ، لاستحداث اللذة وادخال الطرب . بل هو بنص القرآن بعيد عن هذا الوصف . وانما محمد نبي مرسل لغرض مقدر مرسوم يتوخى اليه أبسط وسيلة وأقوم طريق . وهذا الغرض هو اعلان الشريعة وجمع الأمم حولها لينضوا تحت لوائها ، فالكتاب المنزل على محمد انما بعث به الى الناس ليقتضيه القنوت والايضان ، ومن ثمة نراه اذا ما عرض للقصص الديني لم يعرضه معرض التاريخ والأخبار بل يقتصر منه على مكان الحكمة ومضرب الأمثال ومواضع الاعتبار .

ويظهر في شعر «جوته» الأخير الذي أسماه «الديوان الشرقي للمؤلف الغربي» تأثيره بالقرآن في روحه وعباراته . . . فالقارئ المسلم لا يسعه الا أن يذكر من الآيات القرآنية أكثر من واحدة حين يقرأ المقطوعة التالية لجوته : لله المشرق والله المغرب ، وفي راحته الشمال والجنوب جميعا . هو الحق ، وما يشاء بعباده فهو الحق سبحانه له الأسماء الحسنى ، وتبارك اسمه الحق وتعالى علوا كبيرا ، آمين . ينازعني وسواس الغي ، وأنت المعيد من شر الوسواس الخناس ، فاللهم اهدني في الأعمال والنيات الى الصراط المستقيم . ومهما زينت النزعات والشهوات ، فالنفس لا تذهب شعاعا ولا تضيع ضياعا ولا تلبث بسا أودع فيها من الحفاظ والاباء أن تنطلق عارجة الى أوج العلا .

« وللناس في ترداد أنفاسهم آيتان من الشهيق والزفير . هذا يفعم الصدر . وهذا يفرج عنه كذلك الحياة عجيبة التركيب . فاشكر ربك اذا بليت . واشكر ربك اذا عوفيت » .

ويعمد « جوته » أحيانا الى التضمين الصريح ، ومن ذلك تضمينه
للآية الكريمة : « ان الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » .
فيقول في مقطوعة له بعنوان التشبيه : « لم لا أصطنع من التشايه ماأشاء ،
والله لا يستحي أن يضرب مثلا للحياة ببعوضة ؟ » « لم لا أصطنع من
التشايه ماأشاء ، والله يجلو لى فى جبال عينى الحبيبة ، لمحة من جماله
رائعة عجية » .

ولا يسعنا اذا ذكرنا هؤلاء المنصفين الا أن نضع فى طليعتهم صاحب
هذا القول المبين وهو الشاعر جوته ، اذ يقول فى بعض أشعار الحكمة من
ديوانه :

من حماقة الانسان فى دنياه .. أن يتعصب كل منا لما يراه .. واذا
الاسلام كان معناه التسليم لله فاننا أجمعين نحيا ونموت مسلمين ..

وكثيرا ماينشر فى هذه الأيام من الكتب التى يكتبها أعداء الاسلام
وخصومه • فى كل شهر توزع العشرات منها .. وهى الأسلحة السامة
التي يحاربون بها ديننا وقوميتنا ، وتؤذينا فى ديننا وحضارتنا •

ونعرض أيضا لأقوال عميد مستشرقى الروس « أغناطيوس
كراتشوفسكى » صاحب كتاب « تاريخ الأدب الجغرافى عند العرب » الذى
نشرته الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية وترجمه عن الروسية الأستاذ
السودانى الدكتور « صلاح الدين هاشم » . ونخص بالذكر الفصل
الخاص « بالجغرافيا فى القرآن الكريم » والذى جاء فيه :

وكلام المستشرق الكبير عن القرآن . مسبق بحديث عن التصورات
الجغرافية للعرب قبل الاسلام .. انتهى فيه الى أن ما فى « ترات الجاهلية
من هذه التصورات هو من نوع المعلومات الجغرافية الموجودة لدى هذه الجزيرة
ولكن وجدت الى جانب هذا مراكز حضارية بلغت درجة ارتفاع من الحضارة
ويمكن أن تنشأ فيها تصورات جغرافية أوسع وأكثر تنوعا من تلك التى
دولتى العساسنة واللخيين . أو أنها دخلتا فى « محيط حضارتين متقدمتين
هما البيزنطية والىرانية . ولم تخلفا مادة عربية يسكن أن تفس موضوع

تسعى موضوع دراستنا . أما فيما يتعلق بالمراكز الحضارية الكبرى في بلاد العرب نفسها حيث اختلط بالسكان الأصليين عدد من اليهود والنصارى . فانه يمكن الاعتسادا اعتسادا تاما على القرآن .

ومن هذه النقطة انطلق يتناول ما في القرآن الكريم من مادة جغرافية قائلا : ان المعلومات الأساسية منها التي كانت تحت تصرف « محمد » لم تكن غريبة على الوسط الذي عاش فيه . اعنى وسط الحياة الحضارية في الحجاز ومن الجلى أن محمدا كان رجلا أميا وتكتسب هذه الحقيقة مغزى خطيرا . لأنها تسوقنا الى الافتراض بأن القرآن هو جماع تلك المعارف التي حصل عليها محمد عن طريق السماع وهي تمثل نموذجا عاما لمستوى الثقافة العام في هذا المجال . . .

وقد أعجبتني مناقشة الدكتورة الفاضلة السيدة عائشة عبد الرحمن « بنت الشاطيء » لكتابه والتي نشرت في عدد الجمعة الخاص لجريدة الاهرام الغراء (عدد ٢٨٥٨١ لسنة ٩١) .

قالت : ومن العبث العقيم أن نناقش أساس فكرته بالمنطق الدينى ، أو أن نلزمه بما تؤمن به من أن هذا القرآن من وحى السماء . وما محمد إلا رسول قد أبلغ رسالة ربه . وانما نأخذه بالمنطق العلمى الذى يفرضه المنهج على كل من يتصدى للبحث التاريخى . سواء أكان متدينا أم ملحدنا .

وأساس الخطأ في فكرته . انه بدأ من نقطة لا مجال للتسليم بها . ثم مضى يرتب عليها نتائج فاسدة بفساد مقدماتها ، فبما من عالم بتاريخ الأدب العربى يمكن أن يسلم له بأن تراث الجاهلية خاص بالبدو دون عرب المراكز الحضارية .

والشواهد التي نقل منها « كراتشكوفسكى » معارف العرب الجاهلية ولكن وجدت الى جانب هذا مراكز حضارية بلغت درجة أرفع من الحضارة . ويسكن أن تنشأ فيها تصورات جغرافية أوسع وأكثر تنوعا . ولا نقصد بهذا دواتى الغساسنة واللخيين . أو أنها دخلت في « محيط حضارتين متقدمتين هما البيزنطية والارانية ، ولم تخلقا مادة عربية يسكن أن

ربيعة • وفيها ذكر جبل أحد • ومواضع أخرى حول يثرب • وليست من البادية ••

كما أشار في هذا المقام الى « الأعشى والنابغة » وليسا من شعراء البدو • وأولهما طال تنقله في المراكز الحضرية ورحلاته الى الحيرة والشام والفرس ، والآخرا كان ملازما للنعمان بن المنذر في بلاط اللخمين بالحيرة . فالقول بأن تراث الجاهلية خاص بالبدو خطأ هان به على « كراتشكوفسكى » أن يفسر ما بدا له من تفاوت واضح بين تراث الأدب الجاهلي وبين القرآن الكريم •

فكان هذا الربط الخاطيء بين ماضى القرآن وبين المعلومات الجغرافية للمراكز الحضرية وكان يكفى لرفض هذا الربط وضوح خطأ الأساس الذى بنى عليه • لكننا نلتفت هنا الى ما فى زعمه بأن القرآن هو جماع تلك المعارف التى حصل عليها محمد بطريق السماع •• من فساد يكشفه ان تلك المعارف التى كانت تحت تصرف « محمد » - صلى الله عليه وسلم - كانت كذلك تحت تصرف كثير من شعراء العربية وخطبائها قبل المبعث وان ما وصل الى « محمد » عن طريق السماع • لم ينفرد به دون معاصريه من فحول الفن القولى • فلماذا جاء نموذجاً فريداً : لاشبيه له فيما بقى لنا من تراث العصر؟ « وكراتشكوفسكى » الذى يعترف بأن محمداً كان أمياً • ليس بحيث يجهل أنه كان بين شعراء العرب فى عصر المبعث وقبله • عدد من غير الاميين فقيم اختصاص محمد بالسماع .. لمعارف المركزية الحضرية . حيث اختلط بالسكان الأصليين عدد من اليهود والنصارى • وقد كان ضياع القول من الاميين ، أولى باستيعاب المعارف الحضارية من ذلك الرجل الامى . الذى لم يعرف له التاريخ مشاركة فى أى فن من فنون القول قبل مبعثه فى الأربعين من عمره •

ويعرف المستشرق أيضاً ان من شعراء الجاهلية من كانوا يهوداً كالسوءل ونصارى كعدى بن زيد . الذى عاش ما بين فارس والحيرة . وروى ان يقوم بالترجمة بين كسرى والناذرة • والمعارف التى كانت تحت تصرف محمد عن طريق السماع • كانت متاحة لهم بصفة أصيلة ومباشرة مما يبطل الاحتجاج

لتفرد القرآن بأن جماع تلك المعارف التي حصل عليها « محمد » بطريق السماع .

وسكت « كراتشكوفسكى » • عن « الحديث الشريف » فلم يشر اليه من قريب أو بعيد وقد كان بحيث يجوز اعتماده مرجعا لما سمع صاحبه من معارف حضارية لعصره ، أو ليس الحديث لمحمد ؟ فقيم اذن لم يجرؤ أحد ممن زعموا أن هذا القرآن جماع ما حصل عليه « محمد » من معارف بطريق السماع على ادعاء مماثلة الحديث للقرآن ؟

من هذه المقدمات التي وضع فسادها وبطل الاحتجاج بها لتفرد القرآن الكريم انتقل « كراتشكوفسكى » يستقصى ما فى كتابنا مما يتصل بالجغرافيا والفلك ولا مطعن لنا على دقته فى التتبع والاستقصاء . ولا جدال فى أنه باستقراء ذلك فى القرآن الكريم ، قد أدى خدمة جليلة لمؤرخى الحضارة الانسانية والمشتغلين بالدراسات الاسلامية والعربية ، لكنه جاوز هذا الاستقراء الى التعليق والشرح • فوقع فى اخطاء جوهرية • نحتكم فيها الى أصول المنهج ، حين يعز علينا أن نأخذ المستشرق الروسى بسنطق العقيدة وحكم الدين •

من تلك الاخطاء أنه فى محاولته الربط بين المادة الجغرافية فى القرآن وبين قديم المعارف الدينية وغيرها • كان يتجه بها عمدا الى الاستدلال على مقدماته الخاطئة • وقد تجاهل هنا أن القرآن الكريم صرح فى مواضع عدة بأنه مصدق لما بين يديه من الأديان السماوية السابقة • • وتجاهل معه أن هذا القرآن لم يأت بمفردات لم تعرفها العربية قبله • وان كان قد استعملها بملاحظة دقيقة فى الدلالة • لانعرف مثيلا لدقتها فى أى نص عربى آخر • ومن ثم فلا مطعن على القرآن الكريم بما استعمل من مصطلحات جغرافية أو فلكية سابقة على عهد نزوله • ولا يجرحه أن يكون بعضها قد ورد فى التوراة أو الانجيل أو الفلك البابلى •

من أخطائه كذلك أنه يوجه النصوص القرآنية توجيهها يعوزه فقها العربية وادراك أسرار البيان القرآنى • ثم يتخذ من هذا التوجيه الخاطيء ما يستشهد به لمزاعم يباها صريح لفظ النص وترفضها دلالة سياقه •

من ذلك مثلا قوله : بأن صورة السماء في القرآن مادية بشكل واضح مستدلا على ذلك بأنه في أكثر من موضع يردد الكلام ولو مجازا . بإمكان سقوط قطع منها كسفا الآيات ١٧/٩ ، ٢٦/١٨٧ ، ٣٤/٩ ، ٥٢/٤٤ وانها قد شيدت بناء أو سقفا . الآية ٢/٢٠

ووضوح الاستعمال المجازي في آية البقرة المستشهد بها « الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء » . وفي آية الطور « والسقف المرفوع » . وآية الأنبياء « وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون » .

أقول : ان وضوح الاستعمال المجازي فيها ينفي أن يراد بالسقف والبناء أصلهما المادى الحسى . ونحن نقول اليوم : بناء الأمة وبناء المستقبل . فلا يتصور من له أدنى حظ من حس العربية ، أن المقصود بالبناء هنا مفهومه المادى .

فكيف اذا قررنا أن القرآن الكريم في محكم نظمه . يفرق بين صيغتي بيان وبناء وهما مصدران للفعل بنى . فيخص البناء بالدلالة المعنوية وينلق البنيان بدلالته العامة ! وقد جاءت صيغة بنيان في الكتاب المحكم في سبعة مواضع ، اما بصريح دلالتها المادية في الآيات :

الصف (٤) — « ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » . الصفات ٩ . في سياق قصة ابراهيم : « قالوا ابنوا له بنيانا فالقود في الجحيم . فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين » .

والكهف ٢١ -- « اذ يتنازعون بينهم أمرهم فقاتلوا ابنوا عليهم بنيان ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لننخذن عليهم مسجدا » .

واما بطريق الاستعارة من البنيان المادى مع ترشيحها بشئ من خصائصها افتا الى أصل استعماله الحسى في آيات :

النحل ٢٦ : « قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بشئ جديد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون » .

التوبة ١٠٩ : « أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله فوجدها غرورا . من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم » .

الظالمين . لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم الا أن تقطع قلوبهم والله
عليم حكيم » •

ولم يستعمل القرآن قط مع السماء صيغة ببيان التي تأتي فيه بدلالاتها
الحسية المادية • وانما يخص السماء وحدها بصيغة بناء التي لم يرد استعمالها
فيما هو بيان مادي محسوس • وذلك من عجيب الملاحظ البيانية في دلالات
الألفاظ القرآنية . التي لم يع المستشرق الروسي وأى مستشرق آخر لمجها
وادراكها . فيتصور أن بناء السماء مستعمل بدلالته الأصلية على البيان
الحسي ، ثم يحكم بأن صورة السماء في القرآن مادية بشكل واضح
مستشهدا بآية البقرة وآيات أربع (يرد الكلام فيها بإمكان سقوط قطع
من السماء : كسف) .

ونقرأ الآيات المستشهد بها على مادية السماء في القرآن فلا نراها تقول
بإمكان سقوط كسف من السماء . الا أن يكون القول بذلك نذيرا لجاحد
وآية لمعتبر . أو انكارا للضلال الكفار حين سألوا النبي — فيما سألوا —
اسقاط السماء عليهم كسفا • برهانا على صدق نبوته » •

والنذير في آية سبأ : « ان نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم
كسفا من السماء ان في ذلك لآية لكل عبد منيب » •
ومجادلتهم للرسول في آية الاسراء ٩٢ : « وقالوا لن تؤمن لك حتى
تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار
خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة
قبلا • أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء • ولن تؤمن لرقيق
حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه • قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا » •
ومن قبل قال قوم شعيب : « وما أنت الا بشر مثلنا وان نظنك لمن
الكاذبين . فأسقط علينا كسفا من السماء ان كنت من الصادقين » •
(الشعراء ١٨٧)

والآية الرابعة المستشهد بها هي آية

الطور : « وان يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم » •
بيانا لعتو الكفار وابطالا لحجتهم • فلو انهم رأوا السماء تسقط عليهم كسفا

كما اقترحوا ، لبلغ بهم عتوهم وجهلهم أن يغالطوا أنفسهم فيما رأوه عيانا
 وقالوا : هو سحاب تراكم بعضه على بعض وليس بكسف ساقط للعذاب .
 ولا شيء من هذه الآيات ، بشاهد على الصورة المادية للسماء في القرآن ،
 وإنما هي جميعا من سياق مخاصمة الكفار وبيان فحش عنادهم وعقم جدلهم .
 ووهم « كراتشكوفسكى » كذلك فى لفظ « النسيء » فى القرآن .
 فقال : ويلوح أن الاختلاف بين السنتين القمرية والشمسية كان معروفا ،
 الأمر الذى يشير إليه معنى الشهر الكبيس فى لفظ النسيء ، وهو لفظ لم
 يتضح معناه تماما الى الآن .

ولا صلة على الاطلاق بين الشهر الكبيس • وبين النسيء الذى ورد فى
 القرآن الكريم مقصودا به ما اعتاد العرب فى الجاهلية أن يفعلوه كلما أرادوا
 قتالا فى الأشهر الحرم ، فینسأ ناسئوها هذه الحرمة بتأجيلها الى شهر أو
 شهور آخر . وذلك ما أبطله الاسلام بأية التوبة :

« انما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما
 ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله » .

ولفظ النسيء فيها . من النسء بمعنى التأخير والتأجيل . وهو واضح
 تماما لأصحاب العربية . والناسئون من العرب هم الذين كانوا يتقصدون
 بوظيفة النسيء .. ويقول شاعرهم مفاخرا :

ألنا الناسئين على معد شهر الحبل نجعلها حراما
 وكان المنتظر من مثل « كراتشكوفسكى » بعد أن مرح بأن لفظ
 النسيء لم يتضح معناه تماما الى الآن • ان يتوقف عن تفسيره تاركا الكلمة
 فيه لأصحاب العربية • ومعناه تام الواضح لهم ولا مسألة له بضم كبيس
 غير كبيس .. انتهى تعليق الدكتورة بنت الشاطىء .

واقدم ظهر أخيرا كتاب « مجد الاسلام » وهو لغة الأندلس
 فييت » . يحاول فيه ايجاز تاريخنا الطويل فى ثيف « وديت » .
 فيها المؤلف أن يقدم « بانوراما » لتاريخ الاسلام . وطريقة
 طريقة معروفة اتبعها غيرد فى تلخيص تواريخ غيرد من الأندلس .

التاريخ عن طريق صفحات مختارة من أقوال المؤرخين والكتاب المعاصرين لكل فترة من فترات هذا التاريخ اذا أمكن ، والمؤلف هنا فرنسي .. والفرنسي مهسا بلغ علمه ، ومهما قيل عن تجرده لا يسكن أن ترضى نفسه بانصاف العرب والمسلمين بحال .. وهو رجل معروف لنا لأنه كان مديرا لمتحف الفن الاسلامي سنوات طويلة . وقد كتب تاريخا عاما لمصر الاسلامية مرتين ، ولقد عرض وعلق على كتابه هذا الدكتور « حسين مؤنس » بقوله : فهو اذن رجل كان من المنتظر أن يعرفنا جيدا ، وكنا نحسب أننا نعرفه جيدا .. ولكن كتابه هذا يدل على أننا كنا مخطئين في الأمرين معا . فلا نحن عرفناه ولا هو عرفنا كما ينبغي أن يعرف الناس الناس .

ففي عرضه المجهد لتاريخنا فاتته أهم الحقائق التي سیرت هذا التاريخ .. استحوذت على اهتمامه حوادث السياسة والوقائع والحروب . فمضى يتابع قيام الدول وسقوطها . والحروب ووقائعها . فليس بين فصول كتابه فصل واحد عن انتشار الاسلام وكيف كان . وليس هناك سطر واحد عن لغة العرب . وكيف أصبحت لغة الملايين . ولا ذكر في كتابه لنواحي حضارتنا كل ما هنالك هو أنه يقف في نهاية الكتاب ليقول : ان حضارتنا ركزت بعد القرن الخامس عشر لأنها لم تقم على أساس حضارة اليونان .

وهذا أعجب ما سمعناه من مؤرخ . وهذا أغرب ما يمكن أن يقوله عالم له هذه الخبرة بتاريخ المسلمين . ان صاحبنا يجري في تيار هذا الخيال الفرنسي الذي يعود الى حضارة الاغريق بكل شيء . والمؤرخون في الدنيا كلها قد نزعوا عن ذلك الوهم الذي ساد الفكر الأوروبي الى الحرب العالمية الأولى لأن حضارة أوروبا اليوم ليست استمرارا لحضارة الاغريق . ولو كانت استمرارا لها لكانا نقول اليوم بهذا الشطط الذي قاله أفلاطون في الجمهورية داعيا الى جعل الحكم في أيدي طائفة مختارة من الناس يتصاهرون فيما بينهم ويلدون أطفالهم بصورة جماعية ، ثم تربيهم الدولة محافظة على سلامة الجنس الممتاز .

وماذا أقول ؟ : ألا يعرف المؤلف أن أحدا من الشعوب لم يدرس « أرسطو » كما درسناه ؟ وان قوما لم يهتموا ببطليموس كما اهتمنا به ؟

ولكنى أعود فأقول ان المؤلف فرنسى ، والفرنسى لا يفهم العربى أبدا .
 • هناك ستار من الحقد عند أصحابنا أبناء فرنسا يحول بينهم وبين أن يفهمونا ، حقد قديم يرجع الى الحروب الصليبية . والفرنسيون يعتقدون أنها كانت حربا بين فرنسا والاسلام ، وحقد جديد بدأ سنة ١٨٣٠ م عند ما اعتدى الفرنسيون على الجزائر . حقد على عرب المغرب لأنهم لم يستسلموا لفرنسا ويقدموا بلادهم هدية لها . وحقد على عرب المشرق لأنهم لم يتركوا اخوانهم لها تفعل بهم ما تريد . وحقد لأن فرنسا لا تعرف كيف تخرج من المشكلة التى أوقعت نفسها فيها فى المغرب .

راحت الجمهورية الرابعة ، وستروح الجمهورية الخامسة . هلك الألوف وضاعت الملايين . حقد نحن ضحيته ، ونحن ناره التى تنقد . حقد يفسد كل مايكتبه الفرنسيون هنا . فلنر اذن كيف آفسد الحقد هذا الكتاب . فالتشويه ، يبدأ ذلك من الفصل الأول عن محمد صلوات الله عليه ، وهو كغيره من المستشرقين الفرنسيين يردد نفس الأفكار التى حانت بين جمهور قرائهم . وفهم صاحب الرسالة عليه السلام .

من هذه الأساطير مثلا : ان بنى أمية كانوا قبل الاسلام أغنى وأمر من بنى هاشم . مع أنهم يعرفون ان على ذرية بلعيت قريش قبل محمد صلى الله عليه وسلم . كان عبد المطب ، وهو ابن هاشم ، هو الذى كان يباشر . وبنو عبد شمس بن عبد الدار كانوا فقرا ، ولعنت بنو هاشم . ابن عبد مناف . وهو يعتد فى حوادث السيرة على كتب الهند والتاريخ للمقدسى . والمقدسى من أهل القرن العاشر . وهو يصور لقب الله ان القرآن الكريم كتاب غير منزل . ونحن لانظلمه بان يعتقد . ان القرآن الكريم لا يكتب عن الاسلام غير مسلم . ولكن ايدي المسلمين يهتدون برسالته هو الأساس الذى يقود عليه الكيان الإسلامى كله . ان المؤرخ لقرائه ذلك . ولا بد أن يعينهم على ادراك قوة هذا الكتاب الذى يضعوا أيديهم على سر القوة فى تاريخ المسلمين . أما الماء الساك والسكرية فيترك القارىء وهو لا يدري كيف حقق المسلمون ذات كله .

وعلى هذا فان محمدا الذي يصوره أولئك المستشرقون ليس محمدا رسول الله الذي نحن على دينه • انه رجل من صنع خيالهم وتصورهم • •
واذا كان محمد — صلى الله عليه وسلم — هو عماد تاريخ الاسلام كنه
فان تاريخ الاسلام الذي يصوره أولئك المستشرقون ليس تاريخ الاسلام

ولكن « فييت » يختم هذا الفصل من السيرة بعبارة « للطبرى » فى
صفة الرسول — صلى الله عليه وسلم — صفته الجسمانية . أما صفته
الروحية وشأنه الخلقية فيوجزها فى عبارة لا تخرج منها الا بأنه كان
سياسيا ماهرا .. ويسر المؤلف مسرعا بأبى بكر وعمر دون أن يخطر بباله أن
يفكر لحظة فى ملكات هذين العشريين .

الفتوح الإسلامية فى نظره غزوات • ومعاهدات الصلح لا هدف لها
الا الحرية •

ثم ينتقل الى بنى أمية • • والفرنسيون معجبون ببنى أمية ، وسر
الاعجاب أن جدهم أبو سفيان كان عدو الرسول — صلى الله عليه وسلم —
والأمر اذا أردت ما كتبه عندهم « هنرى لامانس » عن معاوية ويزيد
وعبد الملك وبقية بنى مروان ونحن معجبون ببنى أمية . ولكن شتان بين
الاعجابيين فهم يعجبون بهم عن طريق الحق . ونحن معجبون بهم عن طريق
الحب . يعجبنا حلم معاوية ورجولته وسياسته ، وتوحيد أمر المسلمين
وتعجبنا مروان عبد الملك بن مروان وإيمانه بها ، فهو الذى سار بالتعريب
خطوات حاسمة الى الأمام .

ويعجبنا ايمان الوليد وسليمان وماتم على يديهما من فتوح . وتعجبنا
من بنى أمية جميعا الفحولة والأصولة والشهامة والعروبة .. ولكن ماذا يعجبنا
الفرنسى فى بنى أمية ؟ يعجبهم أبو سفيان لأنه حارب الرسول — صلى الله
عليه وسلم — ويعجبهم معاوية لأنه انتزع الخلافة من يد على ، ويعجبنا
يزيد لأنه قتل الحسين وأمر جنده بهاجبة مكة .. ويعجبهم تشييل الحجاز
بأهل العراق ويعجبهم خبث المغيرة بن شعبة .. وهذه هى معظم الصفحات
المختارة من بنى أمية .

وينتقل الى بنى العباس .. فماذا يختار عن بنى العباس ؟ .. بناء بغداد
(عن ابن واضح اليعقوبي) وهو يختار هذه القطعة ليقول : ان الدولة
الإسلامية خرجت من يد العرب ، وهو يصر على هذه الفكرة اصرارا غريبا
.. كأنها وجدت من نفسه هوى .

ثم ينقل عن أبي يوسف القاضي نص رسالة ابن المقفع في معاملة أهل
الذمة .. ينقلها لكي يؤكد مايقوله غيره من المستشرقين من سوء حالهم في
ظلال الاسلام .

وهذه الرسالة مكذوبة وقد أثبتت في أبحاثنا أنها من مخترعات طوائف
من الفرس الحاكمة على العرب والاسلام . ثم ينقل عن ابن خلدون فترة
قصيرة عن نشوء مذاهب التشريع الاسلامي .

وأى مؤرخ يعرف ما هو التعريف الحقيقي ان يفتخر بالذمة عبديت
مالك ، وأبي حنيفة والشافعي وابن مزيل . كتب امرى وحضرت تشريعت تروى
النفس عاشت بها ، وفيها جماعات مسلمين جهول بجمع حقيق .

وأي العبقريّة التشريعية اليونانية من عبديت مسلمة ان يفتخر بها
وعندما يصل الكذب الى هارون الرشيد ، لا يورثه عندهم الا
يوميات « اجنبار » مؤرخ شارون نفس سفارة الرشيد الى

وهذه السفارة على ما هو معروف المشهورة من زمانه . ان كان
هارون الرشيد اعنى بشارون هذا ، ورسالة سفارة رشيد الى شارون
العربي يتسك بها .. لأنها تقول ان الرشيد اراد ان يفتح بيت المقدس
الفرنسي ! .. وهذا هو بيت القصد . وليس في تلك السفارة التي
يعرف بسفاتيح امدن . ولا يمكن ان تصور سبب دعوتها الى بيت المقدس
في هذا .. ولكن ما حيلتنا انهم يشعرون بالسعادة ان يرددوا ذلك ، وانما
أخرى يذكرها عن الرشيد . فكتبه البراهمة برواية المسعودي ..

وتلى ذلك حروب الأيمن والامان .. انه يخصص اليه بيت المقدس
خصص لرسول الله صلى الله عليه وسلم أربع عشرة سنة .. وفي أثناء ذلك
يقف طويلا ليتحدث عن انفصال الأندلس .. والى يتكلم عما يسيه استقلال

المغرب . وهو لا يسميه المغرب . وانما باسم يولع به الفرنسيون . وهو « لا بريرى » أى بلاد البربر .. وهذه التسمية فى ذاتها دسيسة . دسيسة تافهة ، لأن أهل المغرب عرب وهم يؤكدون للفرنسيين انهم عرب .

ولكن المستعمر الفرنسى خلال القرن الماضى تصور انه يستطيع أن يفصل المغرب عن الوطن العربى اذ أوهم أهله انهم ليسوا عربا .

وقد فشلت الدسيسة . ولكن الوهم لا زال يعمر أذهان الفرنسيين . وهم سعداء جدا . فيما يبدو بذلك الوهم ..

وبدلا من أن يقف المؤلف طويلا عند قيام الدولة الأموية بالأندلس . ويدل قراءه على عبقرية عبد الرحمن الداخل .. لا يذكره الا فى سطور . ثم يسرع للتحدث عن بنى رستم الخارجين فى تاهرت (برواية الخارجى أبى زكريا) وعن الادارسة . بل عن بنى مدرار أصحاب سيجلساسة . ثم يقول بكل سعادة : وهكذا سيكون الشمال الافريقى كتلة ترفض الطاعة للخلافة المشرقية .

ثم يعود الى المشرق ليتحدث عن المأمون .. وماذا يقول عن المأمون .. ان دولته دولة فارسية لا أثر للعرب فيها ! وما دام قد انتهى الى أن المأمون غير عربى فهو لا يجد غضاضة فى أن يتحدث عن نهضة العلوم أيام المأمون .. فهى نهضة غير عربية ؟ .. ويتبع ذلك بفقرة ينقلها عن « ميخائيل الصورى » يتحدث فيها عن مدرسة حران .

ثم يقف طويلا عند المعتزلة ، ومن عجب أنه ينقل كلامه عنهم عن المسعودى دون غيره من الأصول . وينتقل للحديث على المعتصم . والترك . ويتخير بالذات فقرات من رسالة « الجاحظ » فى فضلهم . ولم ترض نفسه قبل ذلك بايراد فقره — ولو نصف هذه — عن فضل العرب لأن العرب بانسبة له ولأمثاله سم ينبغى أن يتحاشاه .

وهو يختار من تاريخ الأعصر العباسية ما يحس فى نفسه أنه يسئ الى العرب والاسلام يروى قصة مصرع الخليفة المتوكل (برواية الطبرى) . ويقص تفاصيل فتنة الزنج فى جنوب العراق (برواية النويرى) . ويغليل الحديث عن القرامطة برواية الطبرى .

ويأتى بنص خطاب أحمد القرمطى الى الخليفة المقتدر وهو خطاب بصورهم فى صورة طلاب عدالة واصلاح !. ويتلذذ اذ يورد فقرة للمسعودى تصف سرقة القرامطة للحجر الأسود .

وهكذا تتوالى الصفحات والمختارات كلها ترمى الى تصويرنا كما يود أن يرانا العدو اللدود .

فهو يتحدث مثلا عن قيام دولة الفاطميين فى المغرب . فلا يجد ما يختاره الاقطعة طويلة لابن الأثير تصور ثورة أبى يزيد مخلد عليهم ، وهى ثورة كادت تقضى على دولتهم . وأبو يزيد هذا مشعوذ محتال .

وينتقل الى الأندلس ليتحدث عن « عبد الرحمن الناصر » ، فلا يجد من الصفحات الجميلة التى كتبها المؤرخون عن ذلك الخليفة المجيد . الذى كان أعظم حكام أوروبا فى عصره . الا وثيقة اعلان نفسه خليفة .

ويعود مسرعا الى الشرق يتحدث عن الدول المنشقة . تلك التى انتهت بالقضاء على وحدة الدولة العباسية الصفاريين والسلمايين والظاهرين والبهوليين ، ويظيل الوقوف عندهم وينقل الصفحات بعد الصفحات .. لماذا ؟ . لأنه يرى أنها دول فارسية .. وللفرنسيين من زمن بعيد دلائل عليهم . كما حاولوا فى المغرب فصل المغاربة عن العرب .. وكذلك فى أقصى المشرق . حاولوا ، ولا زالوا يحاولون الايقاع بين العرب وبين شعب فارس ومسحبا هذا يكاد يرد كل شىء فى تاريخنا الى الفرس .. وهو اذ يظيل الحديث عن رجل مثل يعقوب بن الليث الصغار يعود بين الحين والحين فيأتى نظرات سوداء على خلافة بغداد «المقتدر والراضى والمتقى .. الخ» والصفحة المسرفة الوحيدة التى يأتى بها هى التى تتحدث عن التجارة وكيف كان تجار المسلمين يقطعون الأرض بتاجرهم من خرعانة الى غانة كما قال الحريرى على لسان صاحبه أبى زيد السروجى . وقد اعتمد فيما نقله على ابن خرداذبة وشمس بن خسرو والبيرونى والادريسى وابن جبر ..

ويعود ليتحدث عن الفاطميين .. يقف طويلا عند خطاب الامان الذى أذاعه جوهر الصقلى عند دخوله القاهرة ثم يحكى قصة اختطاف القاهرة برواية المقرئى ..

وهو معجب بالفاضيين. لأن مذهبهم لم يلق قبولا من جماعة المسلمين .
 انه ينقل الصفحات بعد الصفحات عن ناصري خسرو .. ويتف طويلا عند
 الخليفة الحاكم .. وينتقل الى السلاجقة فيسر بهم تمهيدا للحملة الصليبية
 الأولى .. ويختتم الفصل بعبارة « لوليم الصوري » يقول فيها ان الصليبيين
 عندما دخلوا بيت المقدس قتلوا من أهله ٦٥ ألفا ..

ويطول الحديث لو مضينا نستعرض المقتطفات حتى آخر الكتاب .. انه
 لا يقف به الا عند سليمان القانوني .

وعنوان كتابه هذا « مجد الاسلام من محمد الى فرنسوا الأول » ..
 ولا ندرى ما العلاقة هنا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا الملك
 الفرنسي الذي يذكره التاريخ بوزيسته المشينة عند « مارينافو » سنة ١٥١٥ م
 ولكنها بدعة جروا عليه هناك .. فمؤرخ البلجيكي « هنري بيرين » له كتاب
 مشهور عنوانه « محمد وشرمان » .. وفي العهد الماضي نشر راهب كندي
 كتاب عنوانه « محمد والقديس فرانسوا » ونحن لا يرضينا ان يذكر اسم
 بيانا على هذه الصورة مجرد الحسون على أسماء جذابة لمؤلفات .

والسبب هنا ان جاستون فييت يقول في آخر كتابه انه يتف بالكتاب
 عند أسماء بدمرة كآساء « البابا ليون العاشر . ومارتين لوثر . وهنري الثامن
 وفرانسوا الأول وشرمان وكاثين وسليمان القانوني » . وهم في رأيه أعلاء
 التاريخ الصليبي في القرن السادس عشر .

وهذا القرن يعتبر في رأيه نهاية مجد المسلمين وأول مجد الأوروبيين ..
 شكل اسمه ذكره يعني في حسابه نهضة شعب من شعوب أوروبا أو قيام حركة
 اسلحجة كبرى فيها . وسليمان القانوني هو في حسابه آخر العظماء من ملوك
 الاسلام .

وان اعلم الاسلامي اتجه بعده الى الانحدار السريع .. وهنا ينبغي ان
 نقف ونفكر .. لأننا كآمة ناهضة وكأناس يأخذون الحياة مأخذ الجد لا يلبو
 بنا اذا رأينا شيئا لا يعجبنا أن نلقيه بعيدا ونقول : كلام فارغ .. صحيح ان
 فيه كذبا وتضلليا .. صحيح انه صادر عن حقد عميق . ولكنه ليس كلاما

فارغا ولا يخدمنا فى شىء أن نلقيه بعيدا . ونقول : كلام فارغ لأن هذا الكلام الفارغ . هو الحديد والنار اللذان يحاربنا بهما أعداؤنا — والحديد والنار لا يقابلان الا بالحديد والنار .. وليس أمام العلماء الأفاضل الا العمل .. العمل حتى الموت .

فإذا كان هذا الذى كتبه فييت كلاما فارغا فليشسر باحثونا الأفاضل عن سواعدهم وليكتبوا الشىء المليون .. ولنذكر العبارة المضحكة التى قالها « مراد بك » عندما سمع أن الفرنج نزلوا ساحل الإسكندرية .. قال : هؤلاء مثل حب الفستق . للكسر والأكل !! ثم تبين بعد ذلك أنهم ليسوا فستقا ولا بندقا . وإنما هم حرب ودمار .. ونده مراد بك على كالمسه . وهو يجمع ملابسه ليجرى هاربا الى الصعيد بعد معركة الزمران ..

انعمل إذن . ففى اعتقنا سنوية عام كبير . فغير أنى من أسهم على قدر الرجال . ورحمهم الله به الغيب حين قال : على قدر العلم تكبر العزائم .. « انتهى تعليق الدكتور حسين مؤنس .

وهذا مستشرق فرنسى آخر ذات حلاوة الألسنة . وهو من المستشرقين المنصفين الذين هداهم الله الى الإسلام الكونى . « المستشرق الفونس ايتين دينيه الفرنسى . وكان له فضل كبير على امتزج فيه الفن بالدين فكان مثالا واضحا للإنسان المثلوم . وعلى مر الزمن أخذت تستبين فيه طبيعة الفكرة التى هى أصل شعور بالتلق والحيرة من الناحية الدينية ..

ولكن ما العلاج لطبيعته الدينية التلقة لا يسجد لها على الأقدام والتأمل وإطالة التفكير فى الكون .. وفى التصور من مقدسه . التى يدين بها الوسط المباشر والبيئة المحيطة . فدار الفونس فى كنفه وفى الكنيسة . وفى البابا المعصوم . وفى عقيدة التمسك بالأساس المسيح ابن الله !! وقد سلب ليظهر بنى البشر من العبادات التى بسبب خطيئة آدم !! انه سلب ليفتدى البشر . ثم هم ابن الله . وهم الله . وهو بشر . وهو اله !! ويدور رأس الفونس فلا يكاد يرى بارقه من أمل فى

أن يهتدى الى الحق فى كل ذلك . وهل فى ذلك من حق ؟ وهل فى الظلمة من نور ..؟!

ومع ذلك فلم ييأس . بل اعاد قراءة الأناجيل من جديد محاولا جهده أن يراها تتسم بسمة الحق .. فيؤمن بابن الله ، وبالكاثوليكية ، ولكنه رأى فيها ما يتنافى مع الصورة المثلى للانسان الكامل ، فضلا عن الصورة التى تريد المسيحية أن توحى بها .

فسن أقوال المسيح التى فيها حطة واحتقار لأمه العذراء ما صدر منه نبي عرس « قانا » وفى اليوم الثالث كان عرس قانا فى الجليل . وكانت أم يسوع هناك ودعا أيضا يسوع تلاميذه الى العرس . ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع له : ليس لهم خسر . قال يسوع : مالى ومالك يا امرأة (انجيل يوحنا . الاصحاح الثانى عشر) .. هذا ما يقوله الانجيل فيما يتعلق بصلة المسيح بأمه .

أما القرآن فانه يقول : فأشارت اليه ، قالوا : كيف نكلم من كان فى أمه صبيا ؟ قال : انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا . انى كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا . وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا . والسلام على يوم ولدته ويوم أموت ويوم أبعث حيا .

ومن أقواله التى تحيل فى صياتها اللعنة على شجرة تين لم تحبل ثمرها لأنه لم يكن موسم تين فنظر شجرة تين من بعيد عليها ورق . وجاء لعله يجد فيها شيئا . فلما جاء اليها لم يجد شيئا الا ورقا لأنه لم يكن وقت التين . فأجاب يسوع وقال لها : لا يأكل أحد منك ثرا بعد الى الأبد . وكان تلاميذه يسعون (انجيل متى : ١٥) .

كذلك من أقواله الدالة على كره الغريب : واذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت اليه قائلة : ارحمنى يا سيدنا يا ابن داوود . ابنتى مجنونة جدا . فلم يجبه بكلمة . فتقدم تلاميذه وطلبوا اليه قائلين : اصرفها لأنها تصيح وراءنا . فأجاب وقال : لم أرسل الى خراف بنى اسرائيل الضالة (انجيل لوقا : ١٤) .

ومن أقواله التي توجب كراهية الأقرباء : ان كان أحد يأتي الى ولا
يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده واخوته واخواته حتى نفسه أيضا فلا يقدر
أن يكون لي تلميذا .

ومن أقواله التي فيها اعتراف بالجهل . وأما ذلك اليوم وتلك الساعة
فلا يعلم بها أحد ولا الملائكة الذين في السماء . ولا الابن ولا الأب (انجيل
مرقص ١٣) .

هذه النصوص تبعث في النفس التثك في صحة الأناجيل التي بين
أبدينا (عن كتاب : أشعة خاصة بنور الاسلام) .

وأداء ذلك البحث الى معرفة صحة الأناجيل وفي قيستها من الناحية
التاريخية وكانت نتيجة بحثه : انه لا شك أن الله قد أوحى الانجيل التي عيسى
بلغته ولغة قومه . ولا شك أيضا أن هذا الانجيل قد ضاع واندر . ولم يبق
له أثر وانه باد . أو انه قد آيبد .. ولهذا قد جعلوا مكانه تواليات أربع
مشكوك في صحتها وفي لبيتها التاريخية . كما انها مكتوبة بلغة اليونانية
وهي لغة لا تتفق طبيعتها مع لغة عيسى الأصلية التي هي لغة سامية . لذلك
كانت صلة السماء بهذه الأناجيل اليونانية ضعوف بكثير من مستلها من
اليهود (أشعة خاصة بنور الاسلام) .

ورأي في النهاية . في وضوح : ان الديانة الكاثوليكية لا تتحلى بصدق
والمناقشة . فقد أظهرت الأدلة العديدة . سواء كانت أخلاقية أو تاريخية أو
علمية أو لغوية . أو بيكولوجية أو دينية . ان كاثوليكه الذي يترجم
الواضحة .. ولم يكن أن يقول ما قاله القديس غريغوريوس العظيم
كل مسيحي : اني تؤمن بذلك . لأن ذلك غير معقول . ولا يمكن
على أوضاع مبينة . والمناقشة غامضة . ومشاكل لا يحل . ولا يمكن
بعد بحث وجدل ومنافرات وتذمات التي رفض المسيحية . ولا يمكن
حينئذ أشدها . ولكن اليأس لم يتطرق الى نفسه نظرا الى ان
في المسيحية فليس معنى ذلك انه لن يجدها . ذلك . ان المسيحية
ولكنها موجودة والسبيل اليها البحث .

ورأى الفونس أن يتجه الى العقل : يستمد منه الهداية الى الطريق المستقيم . ولكنه انتهى الى أن العقل عاجز في ميدان ما وراء الطبيعة . وفي الواقع يسعى كثير من ذوى العقول المستتيرة بعد أن أفادت من غفلتها . وبعد أن عرفت اخفاق مذهب استقلال العقل بالمعرفة لتعرف طريق الهداية . وان مذهب الحدس الذي يتهافتون عليه خلف حامل لوائه المسيو برجسون الشهير هو عبارة عن رد فعل واضح لمذهب استقلال العقل بالمعرفة . أو هو — وهو الأصح — رد فعل لعجز هذا المذهب .

فقد جدد هذا المفكر في قلوب الناس النهميين الى الايمان آمالا كان يظهر أنها ضاعت ضياعا نهائيا . فهو يآذن لهم بأن يتأملوا في خلود الروح ويقول لهم : ان الدنيا ليست مشتبكا عظيما لقوى عبياء . وان العقل ليس هو الطريقة الوحيدة لمعرفة (ناصر الدين محمد) ..

أخفقت امسيحية في ارضاء ضميره الدينى . وأخفق العقل في قيادته الى نور الام يتجه اذن ؟ وتلفت حوله ونظر ماذا فعل أمثاله من شكوا في امسيحية وشكوا في العقل فرأى ان نفرا من النصارى في مختلف الأقطار الأوروبية دانوا بالاسلام في الأعوام الأخيرة . ويكثر عددهم على مر الأيام . وفي لندن واينسبول جماعات اسلامية ذات شأن حقيقى . منهم فريق من اعيان لانجليز (الشرق في نظر الغرب تأليف ناصر الدين) ..

ورأى : ان الذين يعتنقون الاسلام في وقتنا هذا من امسيحيين وغيرهم إنما هم من الذميمة سواء كانوا في الهيئات الاجتماعية الأوروبية أو الأمريكية كما ان اخلاصهم في ذلك لا شك فيه ، لأنهم أبعد ما يكونون عن الأغراض المادية (أشعة خاصة بنور الاسلام) ..

وتبين له : انه يوجد في جميع أنحاء أوروبا وأمريكا من اعتنقوا الاسلام . واذا كان هذا الأمر لا يزال قليل الأهمية اذا نظرنا الى قلة عدد المعتنقين . وان كان عددهم لا بأس به . فانه ذو أهمية كبرى . نظرا لمركز هؤلاء المعتنقين الذين ينتسبون الى الطبقات الراقية المتعلمة .

ونذكر منهم على سبيل المثال « اللورد هيدلى » الانجليزى . وصديقنا المأسوف عليه المرحوم « كرستيان شرفيس » أحد تلاميذ « اغست كومت »

وأديب من أدباء فرنسا المعدودين وفيلسوف من فلاسفتها المشهورين (الحج الى بيت الله الحرام ، لناصر الدين) ..

ولكن ما الذي يدعو هؤلاء الى اعتناق الاسلام ؟ وما الميزات والخصائص التي تجعل الانسان ينسج الاسلام من الثقة ما لا يمنحه للسيحية ؟ ووقع في يده نسخة من مجلة انجليزية فاذا به يرى الجواب عما أخذ يعتدل في ذهنه من أسئلة :

لماذا صار بعض الانكليز وغيرهم من الأوربيين مسلمين ؟
ذلك لأنهم أولا : كانوا يتلسون عقيدة سهلة معتواة عملية في جوهرها لأننا معاشر الانجليز تتبجح بأننا أكثر أهل الأرض تشبها بأعمل .. عقيدة تكون ملائمة لأحوال جميع الشعوب وعاداتهم وأعمالهم . عقيدة دينية صحيحة يقف بها المخلوق أمام الخالق بدون أن يكون بينهما وبيننا وبين « شلدراك » . الحق هذا ؟ ان ناصر الدين لا يأخذ الأشياء قضية مسلمة واذا كان العقل يعجز عن اختراق الحجب ليصل الى ما وراء الطبيعة لكنه مع ذلك الأداة التي ترشدنا الى وجه الحق فيما يعرض لنا من أمور .
فأخذ يزن الأمور . وأخذ يبحث .. الحق ان الاسلام : عقيدة دينية صحيحة ..؟

وكان من التوفيق ان سافر « القونس » الى بلاد المغرب فخالط المسلمين وعاشهم . وسمع منهم . وسمع منهم . وفكر وتأمل فرأى كما يذكر في رسالته (سورة خمسة بقوله ان الاسلام) ان العقيدة المحمدية لا تقف عقبه في سبيل المنكير . بل هي من الحق صحيح الاسلام وفي الوقت نفسه كثير يبحث في العقيدة .
وكما ان الاسلام قد صلب منذ نشأته لجميع الشعوب من جميع انحاء العالم كذلك اكل انواع العقلات وجميع درجات المنطق . بل ان العقيدة المستترة والصلة الخفية بتعاليم الصوفية التي هي من حسننا ورضاء سهلا . وسواء عند العالم الامرين والفقراء والفقراء وهو الذي يصعب على المرء تخليصه من معتقده الخفية والظلمة والجهل واصنامه وبيننا تجد الاسلام يهيج من نفس الرجل العربي في السباق لنذل

حيث مبدأ القوم . الوقت من ذهب . اذ هو يأخذ بلب ذلك الفيلسوف
الرومانى .

وكما يتقبله عن رضا ذلك الشرقى ذو التأملات ورب الخيال . اذ يهواه
ذلك الغربى الذى افناه الفن . وتملكه الشعر (عن اشعة خاصة بنور الاسلام
للسؤلغ - وترجمة الأستاذ راشد رستم) . لقد وقرت هذه الفكرة فى
نفس الفونس حتى انه ليردها فى الكثير من كتبه فيما بعد . . يقول فى
آخر كتبه « الحج الى بيت الله الحرام » : لو كان الاسلام الحقيقى معروفا
فى اوروبا لسكان من المحتمل أن ينال أكثر من أى دين آخر . من العطف
والثبوت من جراء روح التدين التى نجست عن الحرب الكبرى . فانه ، والحق
قائل . يلائم جميع ميول معتقيه على اختلاف مشاربهم . فهو يسامته
القتالية يهدى علماء أوروبا وآسيا الى الطريق المستقيم ويجدون فيه تعزية
مسلوى من غير أن يحول بينهم وبين حريتهم النامة فى آرائهم وأفكارهم .

كما انه تعزية وهدى لزواج السودان حيث ينتزعهم من احضان أوهمهم
عرقية . . ويرقى بروح ذلك التاجر الانكليزى . رجل العسل الذى يعتبر
الوقت من ذهب . كما يرقى بروح الفيلسوف المتدين . ويسمو بنفس الغربى
الضعوف بالفن والشعر . بل هو يسحر لب الطيب العصرى بنا قرود من
الوضوء المتكرر كل يوم . وبنا فى الصلاة من حركات منتظمة تقيل الجسم
والروح معا . وفى وسع حر الفكر - وهو ليس ملحدا حتما - أن يعتبر
الوحي الاسلامى عسلا من أعسال تلك القوة الخفية التى نسيها الالهام . وان
منه - به من غير أية مسعوبة كما انه لا يحتوى على سرار خفية لا يسيفها
العقل . ويردد الفكرة نفسها فى كتابه عن حياة سيدنا محمد - لقد رسخت
هذه الفكرة فى نفسه من أول وهلة واستمرت معه الى نهاية حياته . لقد
وقر فى ذهنه ان الاسلام دين عام خالد ولكنه لأجل أن يتبين فى وضوح
البروق الجوهرية بين الاسلام والمسيحية ، ولأجل أن يصل الى الحد الاسى
فبب يتعلق بالاخلاص لتسيره الدينى ، أخذ يوازن موازنة قيسة بين الاسلام
والمسيحية فرأى :

١ - فيما يتعلق بالاله - الدين الاسلامي هو الدين الوحيد الذي لم يتخذ فيه الاله شكلا بشريا . أو ما الى ذلك من الأشكال . أما في المسيحية فان لفظ « الله » تحيطها تلك الصورة الآدمية لرجل شيخ طاعن في السن قد بانث عليه جميع دلائل الكبر والشيخوخة والانحلال .

فمن تجاعيد بالوجه غائرة . الى لحية بيضاء مرسله تثير في النفس ذكرى الموت والفناء ونسبع القوم يصيحون ليحيا الله فلا ترى للغرابية محلا . ولا تعجب لصيحتهم وهم ينظرون الى رمز الأبدية الدائسة وقد تمثل أمامهم شيخا هرما قد بلغ أرذل العسر .. فكيف لا يخشون عليه من الهلاك والفناء ؟ وكيف لا يطلبون له الحياة !!!

كذلك « ياهو » الذين يستلمون به طيارة التوحيد اليهودي فهم يجعلون « في مثل تلك المظاهر المتهاكمة . وكذلك تراها في متحف الغاتيكال . وفي نسخ الأناجيل المصورة القديمة .

أما الله في دين الاسلام الذي حدث عنه القرآن . فلم يجز في تصويره نحات ان تجرى به ريشته أو ينحته زميله . ذلك لأن الله لم يخلق في صورة صورته . وتعالى سبحانه فلم تكن له صورة . ولا حدود ومحسوس . والواحد الأحد الفرد الصمد لم يكن له كفوا أحد .. وفيه يتعلق بالصفات والنظافة : ان الحركات والإشارات في الصلاة الإسلامية هي ذات طهارة ولطافة ونبالة لم يسبق لها مثل من نوعها في صلاة غيرها .

كما أننا لا ندعو بوجوده بالتظاهر والتكلف . ولا نعبد من أجله الى السماء واستئزال الدموع الذي تذكره المذموم الجريد . بل يصطنعها مثلوا السيدا في عصره الحاضر حتى ان الصورة الإسلامية من تلك الأمور الشائنة التي خصها المسيحيون بالصلاة المسيحية . في غير جبال ولا جلال ولا وفور . والأقوال والحركات التي هي الإسلامية هي ذات دلالة على الرزانة والهدوء والإيمان . وبالصفات وبالغيات الورع وتكلفات الخضوع . والتظاهر بذلك . من أجل العبادات . لأن الله سبحانه وتعالى عليم بما في الصدور وهو العلي الحميد .

ثم ان من الأمور العربية . تخصيص وجود الاله في السماء عند دعوته وهذه الحال تحصل في طياتها الحادا ، اذ تجعل السماء منفى الاله ، وتنفي بذلك عنه صفة الوجود في كل مكان وحركات الصلاة الاسلامية . فوق تعبيرها التام عما تحصل نفوس المؤمنين من العاطفة النبيلة نحو المولى الكريم . تقوى للجسم باعظم مزايا الحركات الرياضية . فهي مفروضة الأداء خمس مرات في اليوم الواحد . وكم من شيخ كبير . وبدين سمين يستطيع كلاهما السجود والركوع والوقوف دون كبير عناء ولا مشقة . مما لا يستطيعه المسيحي في مثل هذه السن . او في مثل هذا الحال ما لم يكن قد تريض على ذلك من قبل . نضف الى ذلك حكمة الوضوء الذي يسبق كل صلاة . ففيها للمبدن التعاش ووضحة ونظافة . والنظافة من الايمان .

في التسامح -- يقول القس « ميشون » في كتابه « سياحة دينية في الشرق » : انه من المحزن ان يتلقى المسيحيون عن المسلمين روح التسامح وفضائل حسن المعاملة وهم قدس قواعد الرحمة والاحسان عند الشعوب والأمم .

في العلم -- رفع النبي محمد نور العلم الى أعظم الدرجات . وأعلى المراتب . وما قاله فضيلة الشيخ « الأخضر حسين » شيخ الأزهر السابق .

نهض الاسلام بالعتول من وحدة الخمول . واذن لها ان تبحث في كل عام . وتذهب في البحث كل مذهب . فوجدت الأمم من العرب وغير العرب في هذه المساحة ما أثار نشاطهم للبحث في كل ناحية من فواحي العلم . فلما يلبثوا ان جمعوا القرآن الكريم في مصحف . ودونوا الحديث النبوي بعد ان كان محفوظا في الصدور . وكتبوا في تفسير القرآن . وشرح السنن النبوية . وبحثوا النظر في تقرير أصول الدين وأصول الفقه . وحرروا وجود استنباط الآيات العلية . ووسعوا ازاءها العلوم العربية . من النحو والصرف . والبيان وفقه اللغة . ودرسوا العلوم النظرية المعربة عن الكتب اليونانية وغيرها . فأصبحت بلاد الاسلام . ولا سيما عواصم الممالك كبغداد وقرطبة . ومصر ودمشق . وتونس . موارد العلوم الاسلامية والأدب والكوتية .

ومن هذه الموارد استحدثت الأمم الأوربية معارفها وفنونها . وقد اعترف بهذا كثير من علماء أوروبا المنصفين .

وجعل الرسول من أول واجبات المسلم .. العلم وفي ذلك يقول : اطلبوا العلم ولو بالصين . ويوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء . وسراير العلماء الذين يأتون الأمراء . وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء . وفضل العلم خير من فضل العبادة .

قال الأستاذ بريفوت الانجليزي في كتابه « تكوين الإنسانية » : في القرن التاسع تعلم كثير من المسيحيين عند علماء الإسلام . وقل :

ان رئيس دير كلوتى يفس على انه رأى كتابا قدمته بالأنديس ان الطلبة من فرنسا ومانيا وانكلترا يردون افواجا الى المراكز العلمية العربية . وقال : فالعلم هبة عظيمة الشأن جاءت بها الحضارة العربية على العالم الحاضر .

ولم يكن فضل الاسلام على أوروبا من ناحية العلم فقط . بل كان في الفضل في نهضتها المدنية قل الأستاذ بريفوت في الكتاب المذكور ان الطلبة ايطاليا مهدا لحياة أوروبا الجديدة . بل اسبانيا (الأندلس) لان أوروبا كانت بلغت أشد عماق الجبل والنساق ظلمة . بينما العلم العربي في الأندلس من قرطبة وجليظلة . كان مركز الحضارة والنشاط العلمي . ومن ثم مهدت الحياة الجديدة التي نمت في شكل ارتقاء انساني جليل .

وخلاصة القول : ان دعوة حاتم التبريزي من اهل الأندلس الى اهل أوروبا في العالم بضرور خيرة من الإصلاح له ذات به دعوة سبقت . فالتبريزي لما لما يوجد في العالم من هداية صادقة أو علوم نادرة . أو مدونة تراثية . يرجع الفضل فيه الدعوة هذا الدين القومي . في ثم العلم المسلم . في اهل الأندلس بدين رفع الإنسانية من حضيض الجبل الى امج العاين . وهدى من اهل الأندلس الباقية ، والمدنية المهذبة « ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل مسالماً . وقال انى من المسلمين » (من رسالة عن سيدنا محمد) .

وقد نظر المسيو « كازانوف » أحد كبار أساتذة الكوليج دي فرانسى
بپاریس فى هذه الكلمات الغاليات وكيف يقولها أحد أصحاب الديانات .
فعلق على ذلك بقوله :

يعتقد الكثيرون منا ان المسلمين لا يستطيعون تمثيل آرائنا وهضم
أفكارنا .. يعتقدون ذلك وينسون ان نبى الاسلام هو القائل بأن فضل
العلم خير من فضل العبادة !! فأى رئيس دينى كبير . أو أى قس من
القساوسة العظام كانت له الجرأة أن يقول مثل هذا القول القوى الفاضل
المتين ؟ ! . هذا القول الذى هو نفسه عنوان حياتنا الفكرية الحاضرة .. نعم
ان هذا هو مبدؤنا اليوم . ولكن ليس العهد بقريب يوم كانت الكافة عندنا
من أهل العقول تنظر الى مثل هذا الشعار كأنه رمز العار ومجلبة الشنار ؟ !
كما أنه سوف يقال : أن أوضح مبادئ الحرية الفكرية قد كشفت أمثال
« نوثير » و « كالفين » وعاد الفضل فيها الى رجل عربى من رجال القرن
السابع . ذلك هو صاحب شريعة الاسلام . (عن كتاب تعليم اللغة العربية .
نقلا عن شعبة خاصة بنور الاسلام للمؤلف نفسه) .

فى الفروسية : ينظر المسيحيون الى « سان لويس » كأنه النموذج
الأعلى للشرة المسيحية الناضجة . غير أن الوثائق التاريخية تثبت فى وضوح
وسهولة أن خصه « سلاح الدين الأيوبى » كان رفع منه قدرا فى
الحضارة وفى الشجاعة وفى معاملة الخصوم .

فى العبقرية العلمية : ثم انهم يفخرون بالعالم « باستور » الفرنسى
ويجعلونه درة فى تاج الحضارات الحديثة . ولكن فاتهم ان « جابرايل
والرازى . لا يقلان عنه فى مرتبة العلماء والمفكرين . فهما المؤسسان
الحقيقيان لعلم الكيمياء . بفضل ما كشفاه من طرق التقطير من الكحول ومن
حمض النتريك وحمض الكبريتيك . وغيرها ، واستر صاحبنا فى الموازنة
والمقارنة والتأمل والتفكير واطال النقاش ثم أراد الله له الاسلام دينا فأسلم
« ايتين دينيه » واختار اسم « ناصر الدين » . وان هذا الاختيار
لهم الذى يحدد اتجاهه بعد ذلك . خير تحديد . ناصر الدين : انه حقا
خصص حياته لنصرة الدين الاسلامى ورأى أن نصرته انما تكون ب :

(ا) نصرته سياسيا .

(ب) نصرته دينيا :

ولقد حصر « ناصر الدين » أعداء الاسلام في عنصرين هما :

١ - رجال السياسة الاستعماريون .

٢ - رجال الدين المتعصبون .

ولا بد - لتكون نصرته الاسلام كاملة - من أن يتوجه الدفاع نحو
التهدفين وتطلع « ناصر الدين » نحو الغاية التي يريد أن يسعى اليها . فبناه
الأمر . وكتب معبرا عن الواقع يقول :

ان أهل السوء من أهل الكتاب لا ينفكون يهاجبونا نحن المسلمين
بالأباطيل ويحاربونا بالمفتريات . واذا نحن شئنا ان نحصى أكاذيبهم علينا
لوجدنا فيها صفحة هي أسود الصفحات خزيا في سجل التعصب . يشترط في
تسويدها أعداء الاسلام قديهم وحديثهم . سواء منهم العلماء والرواد
والقساوسة . ورجال الحكومات . والكتاب . أمثال « بيرون . وبيجراف .
وجلادستون . ومرجليوس وقسيس كاتربري . والأب لامانس . والكتاب
لوى برتران سرفيه » . وغيرهم . وغيرهم .

اما انتصار ناصر الدين للاسلام سياسيا : فكان يتحدث لى كل من
يجد فيه روح الانصاف من الغربيين ذوى النفوذ . والعهد على ادعاء
ما يمكنه اذاعته من آراء المنصفين منهم . ويشئى على قضية الشرق المظلمة
ومن أمثلة ما كان يذيعه مثلا : ما يلي :

نشر المسيو « أوجين يونج » وكيل حكومة التونكين الفرنسية
كتابا عنوانه « استعباد الاسلام » الحرب الصليبية الجديدة

L'Islam ou le jour de la nouvelle Croisade

وهذا الكتاب معروف بأنه من الكاثوليك المتسلمين بدينهم . وقد
كذلك بأنه فرنسى من خيرة الفرنسيين وقد ذكر فى كتابه
شجاعة وصراحة تلك الحروب الصليبية الجديدة التى
الفايكان . ذلك المركز الرئيسى المقدس حيث اجتمع
وقد أظهر أنهم يقومون بذلك دون أن يفتقروا
منهم

ينال منهم أي تهاون أو كسل . وانا يقومون به من وراء ستار المداهنة
وفي ثوب من الرياء يشف عسا تحته .

ومما جاء في كتاب المسيو «يونج» قوله : انا نهىء من اليوم مقدمات
حرب دينية شديدة الفزع والهول ثم أظهر ان مصالح فرنسا الحيوية انا هي
في التفاهم والاتفاق الودي مع الاسلام . وانا لندرجو ان يكون الكلام هذا
الفرنسي الكبير مدى بعيد وثر محمود في مصلحة فرنسا والاسلام
على السواء . ومن جهة أخرى ينشر ما يصحح فكرة الأوربيين عن الشعوب
الاسلامية . ويبين انها شعوب بعيدة كل البعد عن الهسجية والتوحش وانها
تتأثر بالوفاء وعرفان الجليل والكرم والشجاعة والفضائل المحسودة . ويبين
ان ماضيها خير نبراس يرسل اشعته على الفكرة الخاطئة الموجودة عند
الفرنسيين . فيزيل ما غشى عليها من ظلمة .

ويلفت نظر الفرنسيين في قوة التي ما آداه لهم المسلمون من ايداد جليلة
في ميدان الحروب منذ أعداء فرنسا .

ومن ادع توجيهاته للفرنسيين في هذا الميدان انه حينما ألف كتابه في
تسيرة النبوية آهداه لأرواح الجنود الاسلامية التي استشهدت في الحروب
كبرى وهي تحارب في صفوف الفرنسيين .

وانتصر ناصر الدين للاسلام عليا : فكان ميدانه الفسيح . باعتبار
دينا مساويا . لقد استنات في الدفاع عن عقيدته التي يؤمن بها في يقين حار
مضبطن . وما زاد من قسوة دفاعه هذه الموازنات الكثيرة الدقيقة بين الاسلام
والمسيحية في كثير من الأصوول وفي كثير من الفروع . لقد درس الاسلام
في عمق ودرس المسيحية في عمق . ورأى ان هجوم رجال الكنيسة لا يفتر .
وتزييفهم باباطل لكل ميزة للاسلام لا ينقطع فدافع واشتد في دفاعه .
وهاجم . وكان لا بد من الهجوم . واشتد في هجومه . وتوالت ضرباته
للمسيحية مشنة في رجال الكنيسة . ولكنه كان يعلن دائما - كما هو الشأن
في كل مسلم - احترامه للمسيح : لأنه رسول الله . واحترامه للمسيحية
الصحيحة التي يتحدث عنها القرآن . لا تلك التي ابتدعها رجال من بني
البشر . كان يعلن دائما أن دين الله واحد . وأن الاسلام أتى مصدقا لما

سبقة . مصححا لما ناله من تحريف . ومهيئنا عليه . وقد وعد الله بحفظ كتابه المقدس : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » . فالقرآن في العصر الحاضر هو الكتاب الساوي الوحيد الذي لم ينله . ولن يناله — تحريف أو تبديل . كان يصحح الأخطاء . ويرد الهجوم . ويهاجم . ويوازن بين الآسلاء والمسيحية . وكان قبل كل ذلك . وبعد كل ذلك يبين الآسلاء ويوضحه ويشيد به .

وكانت وسيلته : تلك المقالات والمحاضرات والرسائل والكتب : فضاء عن الأحاديث الشفهية .. ومن كتبه في ذلك (١) الرسالة القبية « أشعة خاصة بنور الآسلاء » وقد ترجمها ترجمة أدبية مستازة الأستاذ راشد رستم وهي رد على الفكرة التي يذيعها القساوسة : ان الآسلاء لم يأت بجديد (٢) « الشرق كما يراه الغرب » .. وقد ترجمه الأستاذ عمر فخوري ونشر بدمشق مع رسائل أخرى تحت عنوان « آراء غربية في مسائل شرقية » (٣) ومن أهم كتبه ما جعله تاريخا لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم . وهم السيرة النبوية . في مجلد كبير جليل . وضعه باللغة الفرنسية مع صدق الجزائري الحسين السيد الفاضل سليمان بن ابراهيم وزينه وأصدره تملوا البديعة الكثيرة المتعددة من ريشته الخاصة . يشتمل على الآسلاء الإسلامية في بلاد الجزائر ومغربي الدين فيها . وطبعه طبعة ثانية في لاهاي والعمارة . وذلك لأرواح الجنود الإسلامية التي استشهدت في الحرب الكبرى . وهي منشورة في صفوف الفرنسيين . ولكن ما يؤسف أنه أن فرنسا حرمت المسلمين من ذلك جزاء سنار . ونحن قد رأينا ما عداه هي الجزير والفرنسيين والخراب والضحايا من أمجاهدين حتى نالت هذه البلاد استقلالها ونشره كذاك باللغة الإنجليزية بنفس الحجج والبراهين التي هي في النسخة الواحدة من هذا الكتاب خمسة جنبات وهو في الآسلاء الإسلامية والآسلاء للمسلمين ونبي الآسلاء .. (٤) وآخره « فتح مكة » وهو بيت الله الحرام .. وقد ترجمت خاتمته . ونشرت في مجلة المسلمين بقلم الأستاذ . توفيق أحمد .

ويقول الأستاذ راشد رستم بحق عن فهم الدين في الآسلاء والآسلاء واسع الاطلاع . لذلك هو صحيح الحجج . فهذه البراهين . ثم هم

الهجوم . شديد الدفاع . ذلك لأنه غيور على دينه الذي لم يتخذه الا بعد ان بحث وفكر . وهكذا كان في عقيدته مكينا . وفي اسلامه كاملا وحينما ألف السيد « ناصر الدين » كتابه عن حياة سيدنا محمد . ثارت ثورة النقاد متجهة على الخصوص . الى الشكل . لا الجوهر . لقد زعموا ان الابحاث العلمية الحديثة قد وضحت جوانب من سيرة الرسول وان المستشرقين في مختلف الأقطار قد كتبوا عن سيرة نبي الاسلام كتابة تعتمد على الأبحاث العلمية الدقيقة . ورأوا ان الأستاذ ناصر الدين لم يعبأ بشيء من ذلك . وخذوا عليه انه لم يقيم وزنا لانتاج المستشرقين في السيرة النبوية . وان اغتصاده انما كان على السير القديمة . كسيرة ابن هشام وابن سعد .

والواقع انه فعل ذلك . وفعله متعمدا . فقد كتب السيرة معتصدا على المنقول من الأخبار الاسلامية الصحيحة . ولكنه فعل ذلك بعد ان قرأ ما كتبه المستشرقون عن سيرة الرسول فوجد انه لا يساوى شروى نقير . . لقد رأى انه من المتعذر . ان لم يكن من المستحيل . ان يتجرد المستشرقون من عواطفهم وبيئتهم . ونزعاتهم المختلفة . وانه لذلك قد بلغ تحريفهم لسيرة النبي والصحابة مبلغا شوه صورتهم الحقيقية . من شدة التحريف فيها ؛ ورغم ان يزعمونه من اتباعهم لأساليب النقد البرينة ولتوانين البحث العلمي الجاد . فانهم من خلال كتابتهم : محمدا يتحدث بلهجة المانية اذا كان المؤلف ألمانيا . ومحمدا يتحدث بلهجة ايطالية . اذا كان الكاتب ايطاليا . وهكذا تغير صورة محمد بتغير جنسية الكاتب . واذا بحثنا في هذه السير عن الصورة الصحيحة فانا لا نكاد نجد لها من أثر . ان المستشرقين يقدمون علينا سورا خيالية . هي أبعد ما تكون عن الحقيقة . انها أبعد عن الحقيقة من أشخاص القصص التاريخية التي يؤلفها أمثال « واتر سكوت » و « اسكندر ديماس » . وذلك لأن هؤلاء يصورون أشخاصا من أبناء قومهم . فليس عليهم الا ان يحسبوا حساب اختلاف الأزمنة . أما المستشرقون فلم يمكنهم ان يلبسوا الصورة الحقيقية لأشخاص السيرة بقصورهم حسب منطقتهم الغربية . وخيالهم العصري . وان الدكتور « منوك هيرغيرنجة » ليقول بحق في نهاية نقده لكتاب المستشرق « جريم » : اننا نرى ان الأستاذ جريم . لو اقتصر على درس السيرة النبوية القديمة وبحثها

فى عسق لكان أفضل . وان الثمار التى كان يسكن ان يجنيها من مثل هذا
الدرس لهى أجدر ببلوغ الغاية التى توخاها . ولكنه ظن ان هذا عمل ليست
له أهمية كبيرة وأراد ان يطرف الناس نبأ جديد . ففشل فى وضع السيرة
النبوية التى حاول فيها ان يطبع محمدا بطابع الروح الاشتراكى . وفى جعل
محمدا اشتراكيا وفى أن تقود الاشتراكية نفسها محمدا لأن يضع الدين
الذى أتى به . ان الاشتراكية الاسلامية ، لا الاشتراكية الحديثة ، كما
يتصورها « جريرم » . ثرة من ثمار الرسالة الاسلامية وليست الرسالة
الاسلامية ثرة الاشتراكية .

ولنضرب بعض الأمثلة للنتائج التى توصل اليها المستشرقون فى أبحاثهم
التي يزعمونها علمية صحيحة . وينصرف بعضها ببعض لتنتهز . ولو كانت
علمية حقا لما اختلفت ولما تعارضت ولما كان مصيرها التلاشى .

١ - كيف كان خلق محمد لا . وما هو السر فى تأثيره العظيم على
أبناء وطنه ؟ عن هذا السؤال يجيب « دوزى » : لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم
يلقب نفسه - لم يكن أسى من مواطنيه . ولكن من المؤكد انه لم يكن
يشبههم . كان صاحب خيال فى حين ان العرب مجردون من الخيال . وكان
ذا طبيعة دينية ولم يكن العرب كذلك (دوزى) مسلمو الأندلس حينئذ
ولا يرضى القس « لامانس » بهذا فيصرح متأثرا بحقده الجارف ضد الاسلام
ويقول : كان محمد رغم معاييه (معاد الله) يفتن البدوى الذى كان يرمى
فى شخص النبى العربى كما يدعو القرآن . وفى هذا الفصل « فى هذا
المناقحة التامة بين محمد وبينته لحد أولا وقبل كل شيء ، النبى محمد
السلطان الضخم الذى كان محمد على مواطنيه (لامانس عند الاسلام)

٢ - السؤال الثانى : ماذا كانت ميول محمد قبل بعثته ؟
« دوزى » ان محمدا كان مسوداوى المزاج يمتاز بحسب « دوزى »
التنزهات الطويلة فريدا . والى التأملات المستغرقة فى شعوب « دوزى »
ويرد القس لامانس ضاربا بكل حقيقة عرض الحقائق « دوزى »
ما يثبت اعتكاف محمد وعزلاته : فذلك لا يتفق مع نظرة محمد عن محمد .
وكراهيته المشهورة للنسك (لامانس) هل كان محمد صادقا (

٣ - وسؤال ثالث : ما هي العوامل في بعثة محمد ورسالته ؟ . انها نوبات الصرع كما يفترى « نلدكه » . وكيف تكون نوبات الصرع عاملا في البعثة ؟ . سلوا عن ذلك « نلدكه » ولكن المستشرق « دوغويه » يعتقد ان هذا بعيد الاحتمال . ويعلل ذلك بان الحافظة في المصروعين تكون معطلة على حين ان حافظة محمد كانت غاية في الجودة كلها هبط عليه الوحي (دوغويه .. مباحث شرقية) .

ولا نكاد ننتهي من هذه « نوبات الصرع » حتى يؤكد « اسبرنغر » اننا نوبات هيبتريا اشتهرت باسم شوتلاين (اسبرنغر - حياة محمد وعمله ج ١) .

ولكن « سنوك هرغرنجه » يرى ان هذه الأسس التي يراد ان تقام عليها البعثة أسس واهية . ويقول : يجب أن نقر بأن قبيلة محمد انما في ما يميزه عن سائر الهستيريين ويدل على المستشرق « جريم » بدلوه هو الآخر فيرى ان الآراء الاشتراكية لا الآراء الدينية هي التي قادت محمدا الى الرسالة .

اما مستنده في ذلك . فهو تشديد محمد في الزكاة التي يسيها جريم شريفة . ولما كان القول بذلك في مكة سهل من التنفيذ فقد حاول النبي فيما يرى « جريم » ان يؤثر على المكيين بتخويلهم من يوم الحساب . متخذا الاكراه الروحاني وسيلة للبدل والسخاء (جريم - محمد) ولكن « سنوك هرغرنجه » يرد على جريم ويرى ان رأى جريم واستشهادته في كل ذلك غريب سواء نظرنا الى المنقول في السيرة . أو نظرنا الى ظروف البيئة العربية اذ ذلك . وينوار تحت قلم « سنوك » الرأى القائل بان الاسلام في الأصل تقرب الى ان يكون اشتراكية نشأت عن بؤس ذلك الزمن وفقر بنيه من ان يكون ديننا .

بيد ان « سنوك » يزعم . ولا بد له من الزعم لأنه لا بد له من التعليل ان الباعث على رسالة « محمد » انما هو فزعه العظيم من يوم القيامة والحساب . وتفكيره المتواصل في مصيره . وفي الجنة والنار .

وارادة الاغراب في المستشرقين قوية جامعة . وقد بلغ القصة في الاغراب المستشرق « مرجليوث » : لقد خطأ كل الآراء التي ذكرناها ، وأراد

أن يأتي ببدع من القول يتناسب مع القرن العشرين فرأى أن الباعث على بعثة الرسول إنما هي أعمال الشعوذة . لقد عرف « محمد » خدع الحواه وحيل الروحانيين ومارسها في دقة وفي لباقة . وقد كان يعقد في دار الأرقم جلسات روحية . وكان المحيطون به يؤلفون جمعية سرية . تشبه الماسونية ولهم اشارات تعارف مثل : السلام عليكم — وعلامات يتسيزون بها كارسان طرف العمامة بين الكتفين ، كتب المشرق « مرجليوث » كتابا عن الرسول أتى فيه بكل غريب وبكل باطل . وظهرت كراهيته للإسلام من خلال هذا الكتاب ظهورا بشعا .

أرأيتم المدى الذي يصل اليه المستشرقون في تعصبهم وانفسارهم وتعصبهم . واراوتهم الأغرار . ان فيما مر ما يكفى تصوير حالة المستشرقين .. ومع ذلك فستحدث عن آرائهم في مسألة رابعة محددة بعد ما تكون عن الفروض والتحسينات .

والسؤال الأخير .. ما هي الأسباب في مرض الرسول وبوته ؟
يعتصر التيسيس « لامانس » خياله حتى يعزج برون يلمنى نبينا من غليله ضد الإسلام . ضاربا بالمعتون . وبالتاريخ وبالحقيقة عرطن التناقض فيقول : كان محمد شبيهة قوية جدا وقد كتبت جسمه علامات وحسنات أعضاءه فأصبح مهيدا بداء السكته .

وعلى الضد من ذلك تماما يرى المستشرقون بينه وبين روث محمد كانت في بعض الأحيان أثرا لضعفه الشديد من الجوع . والشد أن يسمع أثناء صومه ما يشبه مواء القطط وسموات الأناجب . فبأنه صام هاذية استمرت يومين .

ويعارض هذا وذاك المشرق « كليسان هير » فيقول أنه قد فهدر على « محمد » أعراض التهاب رئوي فخارت قواه بسرعته عظمى في ربيع الثالث عشر من شهر ربيع الأول سنة ١١ هجرية (كما أن هذا هو العرب ج ١) .

ومن قول المشرق « ناصر الدين » : والقاعدة التي يحزن علماء المسلمة في علاقاته بأصحاب الديانات الأخرى هي التي حددها القرآن في الآية

التالية « لكم دينكم ولي دين » وكيف لا يكون المسلم متسامحا وهو يجعل الأنبياء الذين يجهلهم اليهود والنصارى فموسى بالنسبة اليه كليم الله . وعيسى روح الله . يجب تبجيلهما كما يبجل محمد « حبيب الله » لا نفرق بين أحد من رسله .

ولن يجرؤ مسلم قط على التفوه بأقل بادرة في حق عيسى . وكذلك لن يقبل ان يدع أحدا يتفوه بثل هذا في حضرته . حتى وان كان محدثه من هؤلاء المسيحيين الأصليين الذين يريدون ان يحصلوا من عيسى المسئول عن الأخطاء الكهنوتية وسب المسيح لا شك يعتبر سباً للإسلام الذي يأمر باحترامه .

ولنتقارن الآن بين موقف الاجلال هذا الذي يقفه المسلمون من عيسى . وبين ما صنعه الأوروبيون من سيرة « محمد » .

ففي العصور الوسطى كان الرهبان يصورونه تارة في صورة صنم بشع . وتارة في صورة سكير مدمن .. الخ .

ولو أننا أردنا أن نثبت هنا كل ما تسخضت عنه قديما مخيلات أعداء « محمد » الخصبة لما انتهينا الى حد لم يكن المستشرقون الأول بأقل عنفا في مهاجمته من هؤلاء .

والعالم « جانبيه » في القرن الثامن عشر . يعيب على القس «مراكشي» والدكتور « بريدو » اسفافهما المتحيز ضد « محمد » ولكنه فيما بعد يسف أكثر من اسفافهما . ويصف محمدا بأبعد الأوصاف عن سيرته . ومع هذا فالعالم جانبيه يزعم أنه معتدل كل الاعتدال في حكمه ومن زمن بعيد وأعداء الاسلام يلحقون الأذى بأصحاب محمد أيضا . وقد ألف بعضهم تلك الأسطورة الذائعة التي تقول بأن الخليفة عمر أحرق الأسكندرية . ولم يكن غرضهم من ذلك الا أن يجعلوا الناس تنسى العمل الوحشي الذي قام به الكاردينال كسيمنيس من احراق دور الكتب البديعة التي كانت للمسلمين بإسبانيا . وهم في زعمهم هذا يريدون استخفافا لاحد له . بوقائع التاريخ . ذلك أن مكاتب الأسكندرية كانت قد خربت قبل مجيء الاسلام بقرون

متعددة . وأولى هذه المكاتب هي مكتبة البروخيوم التي كانت تحتوى على
أربعمائة الف مجلد . وقد أحرقت أثناء الحرب التي نشبت بين قيصر
والأسكندريين .. وثانى المكاتب هي مكتبة السرايوم التي ضمت فى يوم من
الأيام مائتى الف مجلد أوصى بهم لها أنطونيوس . وقد نهبت هذه المكتبة
وخربت تماما فى عهد ثيودوزيوس .

وقد أخذت هذه الخرافات السخيفة تتلاشى فى أيامنا هذه . وعلينا أن
نفصل ما فيها من تعصب صريح على تلك الدسائس الخبيثة التي يريد بعض
الكتاب الذين لم يتخلصوا بعد من ضائع القرون الوسطى المسيحية . أن
يذيعوها . تحت ستار من العلم الاستشراقى الظاهرى . فى حق رجل من
الرجال الذين يشرف بهم أكثر من غيرهم تاريخ الانسانية نفسه .

وقد يسأل سائل : ألا ينتهى الأمر بالمسلمين . بعد أن تبنا حضارة
المسيحيين ، الى أن يتدينوا كذلك بالمسيحية . ويكفينا للاجابة عن هذا
السؤال أن نورد رأى كاتب صريح فى اعترافه بالواقع رغم تسكته الشديد
بدينه . ذلك الكاتب هو « الكونت دى كاستر » الذى يقول فى مؤلف له
ممتاز عن الاسلام : « الاسلام هو الدين الوحيد الذى لا يوجد عنه مرادون
ومن العسير . بل من المحال أن تتصور مسورة دقيقة للحجة النفسية التي
يكون عليها المسلم اذا ما حاول أحد المسيحيين أن يقنعه باعتناق المسيحية فلنا
نجد صورة مقاربة شيئا ما لهذا اذا ما تخيلنا احساسات وشعور رجل مسيحي
مستتير . يحاول أحد الوثنيين أن يجتذبه الى اعتناق خرافاته المرذولة

(الكونت هنرى دى كاستر - الاسلام) .

مما سبق تظهر لك آراء بعض المستشرقين الذين جاهدوا من قبلهم
الصواب والتحرى والامناع ولزموا التحيز والبعد عن الحقائق .
الدعوة المحمدية الناصعة كالنور الساطع الذى يبهى كل عين .
الظلام وأن ما ذكرناه من اختلافهم وتخبئتهم فى آرائهم .
كثير يهدم بعضه بعضا مما يدمعهم بالحق على الاسلام وعلى رسول الاسلام
وان الصرح الذى شيده بعض المستشرقين فى سيرة الرسول صلى الله عليه

وسلم انما هو صرح من الورق قد أقيم على شفا جرف هار . والسبب في ذلك واضح ، ذلك أن المستشرقين لم يتبعوا الخطة المثلى فيما ينبغي أن يعتمدوا عليه في السيرة النبوية وهو التجرد من الشهوة والهوى والعصية والبعد عما أوحته اليهم الكنيسة من أباطيل عن الاسلام . وكل ما غرسته في نفوسهم من ترهات خاصة بتأسيس الدين الاسلامي واذا لم يفعلوا ذلك فان ما يكتبونه سيكون لامحالة وهسا باطلا . ويجب عليهم ثانيا أن يعتمدوا على الأخبار الصحيحة التي رواها المسلمون في أول عهدهم بالتدين كسيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد .. الخ .

وقال « رينان » في كتابه حياة المسيح : حقا ان لسيرة محمد العربية مثل سيرة ابن هشام ميزة تاريخية أكبر من الأناجيل (كتاب « رينان » - حياة المسيح ط ١٣ ص ٩) .

وهذا يكفيننا ردا على المستشرقين الذين يتعدون عن الصورة الواقعية التي رستها كتب السيرة القديمة .

واليك مستشرقان من الغربيين المنصفين الذين قرأوا بسماحة الاسلام :

١ - قال الكونت « هنرى دي كاستر » :

ان المسلمين امتازوا بالمسألة ، وحرية الأفكار في المعاملات ومحاسنة المخالفين . وهذا يحملنا على تصديق ما قاله « روبنسون » : أن شيعة « محمد » هم وحدهم الذين جمعوا بين المحاسنة ومحبة انتشار دينهم . وهذه المحبة التي دفعت العرب في طريق الفتح فنشر القرآن جناحه خلف جيوشه المظفرة .. ولم يتركوا أثرا للعسف في طريقهم الا ما كان لابد منه في كل حرب وقتال . ولم يقتلوا أمة أبت الاسلام (الاسلام خواطر وسوانح) .

٢ - وقال جوستاف لوبون :

ان القوة لم تكن عاملا في نشر القرآن . وان العرب تركوا المغلوبين أحرارا في أديانهم . فاذا كان بعض النصارى قد أسلموا . واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذي لم

يكن للناس بمثله عهد . ولما كان عليه الاسلام من السهولة التي لم تعرفها
الأديان الأخرى .. وقد عاملوا أهل سورية ومصر وأسبانية . وكل قطر
استولوا عليه بلطف عظيم . تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم . غير
فارضين عليهم سوى جزية زهيدة في مقابل حمايتهم لهم . وحفظ الأمن بينهم
والحق .. أن الأمم لم تعرف فاتحين رحاء متسامحين مثل العرب (حضارة
العرب -- جوستاف لوبون -- ١٤٥) .

الفصل الخامس الحجر الأسود

لقد تصدى كثير من الباحثين الأوربيين للإسلام بالبسط والشرح والتحليل والتوجيه والاستنباط . ولكن عددا غير يسير من أولئك الباحثين قد أذعنوا لعاطفة التعصب ، فقادتهم أهواء التحيز الى طرق ملتوية ، مليئة بالأشواك ، يزيد بعدها عن العدالة والنزاهة بقدر ما يسع أولئك العلماء فى الخضوع لغاياتهم الخاصة ومنافعهم الفردية .

وهناك فريق آخر من العلماء قد عرضوا للإسلام تحديق بهم النزاهة . ويحف بهم نبل المقصد ويحدوهم الأمل فى الوصول الى كشف بعض الحقائق المجهولة لدى بيئاتهم .. ولكنهم انزلقوا الى حضيض الهفوات . وهووا فى سحيق الكبوات رغم نقاء نياتهم وسمو غاياتهم . وسر ذلك الاخفاق اما أن يكون هو الجهل بروح اللغة العربية ، والقصور عن ادراك مراميها . واما الاعتماد على مصادر زائفة مليئة بالأباطيل المضللات .

ومن علماء الفريق الأخير الذى ثبت حسن نيته بعد أن درس العلماء المسلمون منتجاته وتعقبوا أفكاره وآراءه . الأستاذ « دينيس سورا » الأستاذ فى جامعة لندن فانه ينظر الى الاسلام بالعين التى ينظر بها الى المسيحية والاسرائيلية . وانه يستعمل فى حديثه عن القرآن العبارات نفسها والصيغ عينها التى يتحدث بها عن الأنجيل والتوراة . والأستاذ ينظر الى الاسلام فى كتابه « تاريخ الأديان » الذى نشر فى عام ١٩٣٣ م . نظرة واقعية وانه أثبت الموجودات .. وهذا مما يجعله عالما تجريبيا محايدا . لا يروقه من الأديان الا ما تشتمل عليه من مبادئ خلقية نافعة ، أو قواعد اجتماعية مفيدة للانسانية . والاسلام أكثر الأديان اشتمالا على هذه المبادئ

القوية وتلك الأسس المتينة .. ويبدأ حديثه عن الاسلام بقوله : ان محمدا يكاد يكون هو الوحيد الذي نعرفه عن طريق التاريخ من بين عظماء مؤسسي الأديان ، اذ أن الخرافات لم تستطع أن تخيفه ، وان دين موطنيه ، ابان ظهوره كان قد هوى الى أدنى الدرجات ، أو قل انه كان لميما من بقايا عقائد بدائية . قد تفككت عندما ارتقت الحياة الاجتماعية في الأمم التي كانت تدين بها . ولم يبق فيها راكد سوى الدين .

ولا غرو فقد كان العرب يعبدون الجن والأرواح التي تقطن الأحجار . الى جانب عدد من آلهة القبائل المختلفة . ولقد محا الاسلام هذا كله . ولم يبق منه سوى الحجر الأسود . فقد ظل موطن القداسة الجوهرية . اذ وضعه محمد تحت حماية الخليل ابراهيم . ومن الممكن أن تكون هذه سياسة قصد بها التوفيق . كما يمكن أن يكون ذلك ناشئا عن احترام شخصي .

ولا شك أن للباحث العذر اذ أن عددا ضخما من الاعتراضات قد وجه الى هذه الشعيرة . منذ وفاة الرسول الى اليوم . « فابو العلاء المعري » وصفها بأنها بقية أوثان وانصاب وغيره نعتها بأنها أحد تقاليد قريش الأثرية المتفق عليها من الجميع اتفاقا منحها من المتانة والقوة قدرا لم يجرؤ معه النبي على محوها ، وزعم فريق ثالث أن النبي قد احتفظ بهذا الحجر وأمر بتعظيمه تخليدا لذكرى ابراهيم . وادعى فريق رابع أنه تصوير لهبوط آدم من الجنة . ورأى خامس أنه أحد أحجار الفردوس . وهوى لأمر ما في هذا المكان . وكان يوم هويه لأولوة بيضاء وقد أمر الناس منذ آدم أو غيره ابراهيم أن يمسوه لنتقل اليه خطاياهم وآثامهم . وهذه الآثام هي التي صيرته على مر الزمن أسود . ولما كان واسطة في تطهيرنا من آثامنا وحملها عنا . فقد أمر النبي بتقبيله اشارة الى عرفان الجميل .

ونحن لا نستطيع أن نؤمن برأى من هذه الآراء . لأننا لانجد بيننا ما يرضى الشك . ولا ما يقنع اليقين . ولما كنا نعلم أن الاسلام ليس من مظاهر خارجية فحسب . وان كل جانب من جوانبه المتعددة يشتمل على رموز لا تحصى . وأسرار لا تندرج تحت العد . لأنها مسادرة عن الذي لايتناهى . لما كنا مؤمنين بهذا أتم الايمان وأصدق . فاننا نستطيع

ان نجزم بأن هذا الحجر الأسود رمز لسر الهى . علم النبى صلى الله عليه وسلم
 انه يدق عن عقول الكافة من المسلمين فى ذلك الحين . فاقترضت الحكمة ألا
 يكشف لهم عنه ، كما اقتضت الحكمة الالهية ، ألا تكشف لهم أسرار الروح
 حين سألوا عنها اذ أجابهم القرآن عن سؤالهم بقوله : « ويسألونك عن
 الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .

ولقد عالج الأستاذ « بيري بونسواى » فى كتابه « الاسلام والجرال »
 عالج فيه طائفة من الرموز الموجودة فى أسرار الدين الاسلامى والمسيحى .
 وأشار الى رمز الحجر الأسود بالذات وأسند القادح المعلى فى ميدان الرمز
 لى الاسلام وحده . وشهد له بالقيادة والارشاد . واليك اجمال هذه
 تنكرة :

الجرال : هو شىء مادى يرمز الى سر خبير مقدس . وهذا الشىء المادى
 هو عند فريتس من الباحثين الرمزيين . حجر نقيس نزل من السماء الى الأرض
 بواسطة الملائكة . وهذا المعنى هو الذى سيعيننا هنا من الحيشية الاسلامية
 التى يعرفونها ذلك الفريق . ففى أواخر القرن الثانى عشر ظهرت بعثة فى أوروبا
 ثلاث أقاصيص تعالج موضوعا واحدا ، وهو التنقيب عن الجرال المقدس .
 تحدثنا هذه الأقاصيص ان ذلك الجرال مودع بطريقة غامضة فى قصر سرى
 فى مشاهق جبل يجرسه عدد من الترسات توافرت فيهم الفضيحة .

وقد اتفق مؤلفو هذه الأقاصيص الثلاث على أنهم ليسوا سوى
 رواين لرواية ماثورة . ظلت الى ذلك الحين شفوية . وهى راجعة الى
 أصل مسوى . ومنذ ذلك العهد ظل لغز الجرال يكتنفه شىء من الغموض
 يتفاوت كثرة وقللة . ولم يتضح قط تمام الاتضاح . ومما لا ريب فيه ان
 المعنى الرمزى لهذا الجرال محقق . ولكن الافتراضات كثيرة . فعند البعض
 ان هذا الجرال رمز للغوث الالهى وعند الآخرين هو رمز لنهج صوفى معين .
 ويذكر لنا الأستاذ « بونسواى » مؤلف الكتاب . تأويلا جديدا .

مؤسسا على معارف قيمة اقتبسها من مؤلفات المغفور له الأستاذ « رينيه
 جينون » أو الشيخ « عبد الواحد يحيى » الذى أسلم وحسن اسلامه وكتب
 عن الاسلام صفحات خالدة مفعمة بالجلال .. ومن المنابع التى انتهل منها

مؤلفنا في هذا التأويل أيضا .. كتب الشيخ الأكبر « محيي الدين بن عربي »
« وابن مسرة » و « الجيلي » .

ومن دواعي الانتباه هنا أن مؤلفنا يعني على الأخص بالأقصوصة
الثالثة التي كتبها المؤلف الألماني « فولفرايم ايشمانياك » لأنها أكمل
الأقاصيص الثلاث وأكثرها اشتمالا على العناصر الإسلامية والتي تمت إلى
الإسلام بصلة وثيقة . والتي يبدو أن مؤلفي الأقصوصتين الآخرين قد
أخفياها قصدا .. لا سيما وأن فولفرايم يتزم علنا أحد سائقيه بأنه ذلك
الأقصوصة أو شوهاها على أقل تقدير .

ويرى الأستاذ « بيير بونسواي » أن الجران هو رمز لوجود الأله
على الأرض . وأن البحث عن سر ذلك الجران . هو طريق حصولنا للوصول
إلى كنه الحياة الكونية . وأن النظر به هو الشهود الألهي . ويستنتج أن
منبع هذه الأقصوصة ليس مسيحيا . وأنه هو يرى أنه بعد عربي لتفسير
الكوني الفطري الذي اختفى أصله في غيباب الزمن . وفي هذه الحالة
البشرية وأنه يتعلق بالسر الجوهرى لكل وعى حقيقى . أى سر معرفة الله
والمساهمة في العرفان الساموى وما لا يسبى إلى النفس أي حركتها
في العصور الوسيطة وئاد روى . وتعاليم خفية بين الحضارة الإسلامية
والمسيحية واليهودية . وأن الإسلام قد قد في كنهه غدا في كل من هذه العصور
بدور الملهم والمرشد .. وأن تلك الصفة تلي اختلاف هذه العصور
كانت مقتنعة برسالة الإسلام في هذا المظهر . من أن الإسلام
إلى كلمة سواء بيننا وبينكم لا نعبد إلا الله ولا نعبد شيئا غيره
بعضنا بعضا أربابا من دون الله ..

ولقد كانت هذه الصفة تنظر إلى الإسلام على أنه دين كونه
وأنه هو النبوة التشريعية الأخيرة التي ستسود قبل نبوة المسيح
محمدا هو خاتم النبيين وأنه تلقى من السماء جوامع الدين من قبل
الإسلام يشتمل على وسائل روحية لأنواع من التجارب العدمية . مع العصور
الفطرية الأخرى التي تدخل مع مؤسسيها « كوسى » « عيسى » « نبي نفاذ

اسلامى كلى رفيع من أنظمة الكون . ومن ثم أيضا كان الاسلام هو الوسيط الكونى .

وعند مؤلفنا أن الذى يبدو جليا من نصوص « فولفرام » الألمانى هو أن الاسلام كان فى وقت محدد هو المختار للرسالة والمعين من قبل الممثلين العالمين بالحكمة والفطرة الكونية لكى يتولى مع المسيحية واليهودية . مهمة إعادة التشييد الروحى الذى يبدو أن أحد مظاهره الأساسية هو إعادة تثبيت رابط واضح متين بين الغرب والشرق الذى هو المركز الروحى للعالم . هذا هو المعنى المختبىء فى أقصوصة الجرال . ومجمله أن الاسلام هو الذى قدمه الى المسيحية معونة خفية سمحت للجرال . الذى هو رمز الوجود الالهى المختبىء فى قلب كل فطرة حقيقية . بان يتفتح فى الغرب على صورة جلية يردحا من الزمن لعله يهتدى .

وتقرر أن المؤلف لا يستغل اثبات سمو الاسلام . مبادئه الظاهرية التى يعرفها جمهور المسلمين وانما هو يستغل التعاليم الاسلامية الخفية التى تمثل قدرته وامتيازه وتفوقه وصلاحيته لكل زمان ومكان أدق تمثيل . واننى يقتبسها مؤلفنا من عضاء صوفية الاسلام . ولا سيما الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى .

ومما يدحض أقوال هؤلاء الملحدين الذين يتناولون على الدين . ويقولون ان استلام الحجر الأسود وثنية . ويرفضون كل الآثار الواردة فيه تلك الندوة التى قُيِّمت بدار لواء الاسلام فى ١٧ فبراير ١٩٥٩ عن « الحجر الأسود » ونحن نشبت هنا ما قيل فى هذه الندوة ، ذاكرين آراء بعض كبار علماء المسلمين فى هذا الموضوع .. عسانا نستطيع اقتلاع ذلك الجحود من قلوب أعداء الدين . ونقنعهم الاقناع العلمى الذى به يوقنون ، ولعل الله يهديهم الى الدراط المستقيم .. ويرشدهم الى الصواب .

قال سماحة أمين الحسينى مفتى فلسطين : القول بأن استلام الحجر الأسود وتقبيله وثنية ، غير صحيح البتة .. فقد ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم قبله ، كما قبله بعد ذلك سيدنا « أبو بكر وعمر » وغيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم . ويروى عن « زيد بن أسلم » عن أبيه انه قال :

رأيت « عمر بن الخطاب ، يقبل الحجر ويقول : اللهم انى أعلم أنك لا تضر ولا تنفع ولولا انى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك » . قال الطبرى : انما قال عمر ذلك مع أنه معلوم بالضرورة أن الحجر لا يضر ولا ينفع . ليعلم الناس وكانوا حديثى عهد بالجاهلية .. والحجر الأسود جزء من الكعبة المشرفة التى بناها سيدنا ابراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام . وحين أراد سيدنا ابراهيم أن يجعل مبدءا للطواف وضع الحجر الأسود فى مكانه من ذلك الركن . ليسهل على الطائفين بدء الطواف بمجرد النظر اليه . لئلا يضرب الطائفون فى الأركان فليس الحجر الاسود من آثار المشركين كما يدعى بعض الذين يشككون فى هذا الأمر . بل هو من آثار ابراهيم عليه السلام . ومن الحجارة التى وضعها فى الكعبة . لأن الكعبة المشرفة جدد بناؤها مرارا قبل الاسلام وبعده فالحجر الأسود بهذا يذكرنا بالنشأة الأولى للاسلام والتوحيد . وجاء فى عدة مواضع من القرآن ذكر خاص لسيدنا ابراهيم . وكذلك فى الحديث الشريف . ففى يوم عرفة فى الحج قال النبى صلى الله عليه وسلم : قنوا على مشاعركم فانكم على آثار « ابراهيم » فلا يمكن أن يضر تقبيل الحجر الأسود بأنه وثنية لأن الوثنية معناها عبادة الوثن . وليس هناك مسلم حين يستلم الحجر الأسود أو يقبله أو يشير اليه أنه يفكر فيه تفكير العبادة .

وإذا قبل الانسان يد والده أو يد استاذه . فليس معنى هذا أنه يعبدهما . بل التقبيل معناه الاحترام والاجلال . فتقول القائل بل التقبيل الحجر الأسود واستلامه من الوثنية لا يقو على أساس . وليس له أية قيمة .

ومما قاله العالم المحقق الأستاذ مصطفى الزرقا : ان التساؤل : هل يربط قائل هذا القول أن يخرج بأن الآثار الواردة بهذا بلغت من الصحة ثبوت فى نظره مشكوك فيها ومتواضعا على وضعها . وأنه برغم تساويه بشبه الوثنية والآثار فى أمر الحجر الأسود يرفضها ولا يتقبلها لأن عقله يرفضها . أعالج الأمر على كلا الاحتمالين .. وأنا أعالجه معالجة الرجل الذى يمشى قبل كل شيء . لأننا اذا أردنا أن نترك الايمان كأساس للبحث فنداد لا نستطيع أن نصل الى نتيجة مع الجاحدين والمكابرين لأنك تصل معهم الى

أن يقولوا : أين الله ؟. امسكنى اياه . ولن تستطيع أن تمسكهم اياه بيديك لذلك أعتقد أن البحث المجدى فى هذا الموضوع هو الذى يبنى على أساس الايمان وبعد أن نكون مؤمنين تتحرى ثبوت الأخبار . فما ثبت منها قبلناه . وان لم نفهم حكمته لأننا مع الايمان يجب أن نفرض أن هناك حكمة وراء معيشتنا . وان لم تظهر لنا وأمثلة ذلك كثيرة مما كان خفى الحكمة دهورا طويلة . ثم ظهرت حكمته لمناسبة من المناسبات أو لاكتشاف علمى .

ومن أساس ايماننا أن نسلم بما ثبت عن الرسول عليه الصلاة والسلام كما نسلم بما يوجبه القرآن الكريم ، فأخبار الحجر الأسود ، ان كان هذا القائل يرى أنها موضوعة . فمعناه أنه يسلم بأنها لو كانت ثابتة لأخذ بها . فلنبحث فى ثبوتها . أنا لا أستطيع أن أجد أى نقص فى الأخبار الثابتة حول الحجر الأسود عما يقول عنه العلماء أنه تواتر . لأن جميع شرائط التواتر التى تتطلبها العلماء فيها متوافرة والتواتر يوجب القطع عقلا بثبوت الخبر متى توافرت شرائطه . لأنه من المقرر أن التواتر يوجب العلم عقلا . لاتسليما وتصديقا مبنيا على الثقة بالناقل . لا .. بل لأنه خبر يرويه جماعة بلغوا من الكثرة . دون نظر الى كونهم ثقات أو غير ثقات . مبلغا يستحيل عقلا أن يتواطئوا معه على الكذب . كالأخبار التى نسمعها عن كثير من البلدان التى لم نرها .

فحكم التواتر اذا لم يكن متوافرا فى اجماع الأمة بالنقل من عهد الرسول عليه الصلاة والسلام الى الآن فما هو التواتر اذن ؟ واذا كانت أخبار الحجر الأسود لا تعتبر متواترة . فما الذى يمنع مثل هذا القائل غدا أن يقول ان صلاة الظهر ليست أربع ركعات مثلا . وان صلاة الصبح ليست ركعتين أو أن الصلوات ليست خسا لأن القرآن لم يقل بعددها . اذ التحديد بالخسا سنده السنة !!

فاذن التطرق الى زعم أن الأخبار موضوعة هو أسلوب من أساليب الهدامين للاسلام . الذين يريدون أن يشككوا الأمة . عن طريق اثاره شهاد قد تحدث فى نفوس غير أهل العلم والرسوخ شيئا من الشكوك فى دينهم

وأما إذا أراد قائل أن يقول : انه برغم ثبوتها لا يأخذ بها . لأن عقله يأبأها . فاعتقد أن هذا عندئذ هو العنوان البارز لعدم الايمان . لأننا لانستطيع أن نفترض أن شخصا يؤمن بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن . ولا يقبل ما هو معلوم من الدين بالضرورة وبالنقل الثابت عن الله تعالى ورسوله ويرفضه لأن عقله لم يتقبله . وعندئذ لا يجب أن نتقل من البحث على أساس الايمان . الى البحث مع الجاحدين على أساس اننا نريد أن نقنعهم بأمور فرعية لا يسلمون بأساسها . وأن نقنعهم بحكمة أمر من أوامر الاسلام على أنها أوامر الهية .. وهم لا يسلمون بنبوة ناقلها . فيصبح البحث عبثا فيما اعتقد .

بقي أن نقول : ان هذه الشبهة التي يتذرع بها التائل ميمنا كان أساسها ليس فيها مجال للاشتباه بمعنى من معاني الوثنية . والواقع أن هذا بعيد كل البعد عن معاني الوثنية . ولا سيما أن أحد أئمة الاسلام الذين تطأى لهم رؤوس أصحاب العقول المنيرة . والنفوس المتحررة الى اليوم . وهو عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : اننى قبلت لا لعقيدتى انك تنفع وتضر . بل لأنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك . وانما صح أن ترى فى تقبيل الحجر شبهة من الوثنية . فما الذى يمنع عندئذ تقبل هذا من أن يرى فى الطواف حول الكعبة نفسه شبهة . أو الاستقبال نفسه شبهة . والحقيقة أن الحكمة فى وضع البيت هى توجيه النفوس الى اتجاه واحد . لأن هذا الاتجاه اذا لم يجعل له نقطة ارتكاز فإنه يبقى مشتتا فى كل نفس . وليس فى هذا شئ من معاني الوثنية أبدا .

ومما قاله الأستاذ حسرى عابدين : القرآن نفس على اتجاه مفاه ابراهيم صلى . فاذا فتحنا هذا الباب . حينئذ لن نستطيع أن نأخذ مقام ابراهيم صلى . وأقول ان أئمة الحديث فى كتبهم كلها قد روه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبل الحجر الأسود . فاذا ثبت هذا النبي يقول : انى انى عنى مناسككم وهذا من المناسك التى تأخذها عنه . تأخذها مناسككم من مناسككم رضوان الله عليهم . فنحن تقبل الحجر الأسود انما نقبل الرسول . فنحن مأمورون بأن تتبعه . وتأخذ المناسك من عمله . وانما ظهرت لنا الحكمة

فالحمد لله . والحكمة هنا أن هذا الحجر ثابت عندنا أن ابراهيم وضعه بيده وان جبريل سلمه لابراهيم . وان رسول الله صلى الله عليه وسلم وضعه حين بنت قريش الكعبة وحينئذ نحن نقبل مكان أيدي ابراهيم وجبريل ومحمد صلى الله عليه وسلم . وهذا ليس فيه أى شىء يتعلق بالوثنية .

والمبدأ الأساسى فى الاسلام . هو محاربة الوثنية بجميع أشكالها . ومحاربة الأوثان وتحطيمها . وقد حطمها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما روى البخارى فى صحيحه عن ابن عباس وغيره من الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . لما جاء الى البيت وجد حوالى الكعبة ثلاثمائة وستين صنما فأخذ يدفعها حتى تقع ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا » .

فحطمت الأصنام وطهرت الكعبة منها . حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . طهر الكعبة من الصور أيضا . كما بعث الرسول الى مختلف الجهات التى حطموها فيها الأصنام .

ويؤكد أن شبهات هؤلاء لا يقصد بها الا التشكيك فى هذا الدين وهم من ألد أعداء الاسلام . وأبعد الناس عن العمل به . ولا يريدون أن يسيروا مع اجماع المسلمين . فهؤلاء الشاذون الذين لا يتبعون سبيل المؤمنين ويخرجون على الاجماع يجب أن يفهموا حقيقة الدين قبل كل شىء وأن يعرفوا أن للحج مناسك كثيرة لا يعلم حكمتها الا الله . كرمى الجمار وقد قال الامام محمد عبده فى هذه المسائل انها من الأمور التعبدية التى يجب أن نعتقدها ونسلم بها . مادامت ثابتة عن الله ورسوله . وما دما تؤمن بالغيب ونصدق الرسول .

وقال الأستاذ محمد البنا : أنا لا أعلم ان مسلما يقول فيما ثبت عن رسول الله ورواه الناس بالاجماع أن فيه شبهة الوثنية . واذا تبجح مسلم أو بالأحرى من ينتمى الى الاسلام اتساء باطلا وقال هذه وثنية فالجواب عليه شىء واحد . وهو أن المسلمين جميعا لا يقبلون الحجر الأسود على وجه العبادة . انما يقبلونه اتباعا لما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم . وليس

هناك مسلم واحد يقول ان الحجر الأسود يعبد . حتى يقال ان هناك شبهة وثنية . لأن معنى كلمة وثنية هو اشراك وليس في المسلمين من يقول ان الحجر الأسود يشارك المولى في ملكه . ولكنها أوامر جاءت عن الرسول وعن المولى جل شأنه قال : والايان أساسه العبودية والخضوع . وفي سور الكتاب العزيز : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة » . أى يؤمنون بما غابت حكمته عن عقولهم لأن المؤمن بما أدرك حكمته ليس فى الدرجة العالية التى يصل اليها من يؤمن بما لا يدرك الحكمة ، لأن ما يفهمه الانسان يسيل اليه بالطبع . وميل الطبع باعث على العمل . ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يوجد فى عباده طبقة تؤمن بالغيب وتؤمن بما خالف نفوسها وهذه هى الطبقة الممتازة من الناس .

والايان بالحجر الأسود وبمناسك الحج كله من هذا القبيل . ولذلك كان النبى صلى الله عليه وسلم فى الحج يقول : لبيك حقا لبيك بحجة حقا . لبيك تعبدا ورقا . ولم يقل هذا فى عبادة من العبادات . أى ان هذه العبادة هى العبادة التى يكون معيار الايمان فيها تصديقا غيبيا لما خفيت حكمته علينا .

جاء فى الحديث الصحيح : ان الحجر الأسود بين الله فى الأرض . يضاف الله به عباده . كما يضاف العبد أخاه . ومعنى هذا أن الذى يضاف الحجر الأسود لا يعبده . ولكنه يعطى عبدا على نفسه بضاعه الله . ثم من جهة أخرى لا يمكن أبدا للمسلمين على تفرق بلادهم وكثرة عددهم . أن يجتمعوا فى سعيد واحد . ويضع كل منهم يده فى يد أخيه المسلم . ليعاهده عن دفع العدوان عن الاسلام ومحاربة من سدد عن سبيل الله . وهذا من غير شك أمر فى غاية المشقة والتعذر . لذلك كان الحجر الأسود فى مكة بمثابة هذه المعاهدة بين العبد وربيه . وبين المؤمن وأخيه المؤمن . وكل من يضع يده عليه فكأننا يعاهد أخاه المسلم على أنه سيعمل بسبيل الاسلام وسيجاهد فى سبيل الاسلام وسيحارب أعداء الاسلام . لأن المؤمن جميعا أجمعوا على تقبيل الحجر الأسود لا على أنه عبادة . بل على أنه تكريم لما كرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم . ونحن جميعا نكلم الله الله ومرشدنا كلام الله .

ومما قاله الدكتور عبد العزيز عامر : والعلّة في استلام الحجر الأسود وفي تقبيله أن الشارع أراد أن يختبر الناس بالمشاهدة ليعلم ان كانوا يطيعون أوامرهم أو يعصونها ، وقول عمر رضى الله عنه فيه دلالة على أن المسلم يجب عليه أن يحسن اتباع أوامر الشارع حتى ولو لم تظهر حكمتها لأن العقل قد يعجز عن فهم حكمة التشريع والقول بوقف الاتباع على ظهور الحكمة قول لا سند له .

والأستاذ عبدالوهاب حمودة يقول: أولاً: الثابت أن العرب كانوا يحترمون الحجر الأسود فانهم عندما اختلفوا فيمن يضعه في مكانه واتفقوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن ذلك الا احتراماً للحجر الأسود . لأنه من آثار أبيهم ابراهيم عليه السلام . فلو كان مما يعبد أولاً ، لكنا وجدناه في الكعبة مع الأصنام .. ثانياً : لو كان الحجر الأسود يعبد في الجاهلية لما نفاقل عنه جميع المستشرقين من الباحثين في الأصنام التي كان يعبدها العرب فلم يستطع واحد منهم أن يقول : ان الحجر الأسود من لأصنام التي كان يعبدها العرب . أو أى قبيلة من قبائل العرب فلو كان للمتشككين أو مشيرو الشبه أى ذرة من العقل . لما أنكروا هذه الشبهة . ويكفيهم فضلا عن الأدلة الشرعية التي ذكرها الزملاء . ان هذا « أى التقييل » ليس عبادة ويكفى عمر بن الخطاب قد وضع لهم آداب البحث حيث قال : لولا أن الرسول قبلنا لما قبلتكم اذن واجب على المؤمن أن يتأدب بآداب عمر . فليس في العصر الحاضر . ولا فيما بعد العصر الحاضر من يدعى أن ايمانه أشد اخلاصاً من ايمان عمر .

والأستاذ محمد أبو زهرة يقول : ان الحجر الأسود لم يتعرض للهجوم في هذا العصر فقط بل انه تعرض لهجوم أشد وأعنف . وهو هجوم عملي في عهد القرامطة . فان القرامطة قد اتزعوه من مكانه . وعبثوا به ولأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يحمي شريعته . أدال بهم من وقت تهجموا على الحجر الأسود فأعادوه مكانه . وكان غريباً كل الغرابة . القرامطة الذين كانوا يقدسون أمثال حكام الفاطميين . ومن ذريتهم ، اعتقد أن الاله قد حل في الحاكم . ومن مبادئ كثيرين منهم أن الألوه

أجل في أئمتهم . كان من الغريب أن ينتزعوا الحجر باعتباره بقية من بقايا الوثنية . واني أعلم أنه الى عهد قريب كان بعض الشيعة يلوثون الحجر الأسود في موسم الحج . كانوا يفعلون ذلك حتى استقامت الأمور في عهد آل سعود . ولعل هذه احدى حسناتهم . فالحجر الأسود . قد اعتدى عليه لا بالقول فقط بل بالفعل .

وأخيرا أقول : ان هذا القائل بمسارعة برفض السنة . انما يكون قوله حلقة من سلسلة الحاد متصلة . فقد وجدنا كتابا لا أريد أن أسميه ينكر السنة ويتهجم على أفاضل الصحابة تهجما يزرى بكاتبه . ولا يزرى بهم أبدا . ثم وجدنا جماعة تؤلف لكى تنكر السنة انكارا وكان هذه الجماعة شعبة من جماعة فى باكستان رأيناها وسمعنا أقوال منتحلها . أولئك ينكرون السنة . حتى انهم يقولون : ان الثرائض ليست خمسا وليس عدد الركعات عسى ما نعلم من السنة . انما الصلاة ركعتان .

اذن فهذا القول حلقة من سلسلة الاحاد . ومنتسود بها توهين شأن الاسلام باسم الدفاع عن الاسلام . لانعرف استلاء حجر عبادة . ولا أن تقبيل حجرة عبادة . وكما يقول الأستاذ الزرقا : لو كان استلاء الحجر عبادة وثنية . لكان الطواف أيضا حول الكعبة عبادة وثنية . ولعلهم سيقولون ذلك اذا وجدوا آذانا مصغية لهذا الكلام : ان هؤلاء كاشفون . وقد ينس الشيطان أن يعبد فى الاسلام كما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقد يشعروا أيضا من أن يجيئوا الى رهوس المسائل . فجاءها من نوافذها . حتى انهم هدموا النوافذ جاءوا الى الاصل ...

والخلاصة : ان البيت الحرام قد بناه ابراهيم عليه السلام ليكون مسجدا للناس وأمنا وليتوجه الناس فيه الى الله مؤمنين وموحدين . كما قال الله عز وجل « واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت لا تشرك بهى شيئا » . وكان « من » اليه هو تطهيره ليكون معبدا يعبد الله فيه عبادة مسريحة كعبادة « من » الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للمطائفين والعاكفين . « الركن السجود » « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » . أى معبدا يعبد الله فيه . هو ربكم ورب

السموات والأرض ويقول سبحانه : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به » . و « الهكم اله واحد فله أسلموا » .

ولكن كيف أصبح في الجاهلية موثلاً للأصنام وعبادتها ؟ قد يجاب عن ذلك : أن سبب ضلال العرب في عبادة الأصنام بعد تمسكهم بملة إبراهيم أن أولاد إسماعيل لما حلوا بمكة وانتشروا في البلاد في طلب الرزق كان المطاعن منهم يحمل حجراً من حجارة الحرم . وأينما نزل وضعه وطاف به طوافه بالكعبة ثم انجر بهم ذلك إلى المبالغة في تعظيم تلك الأحجار فعبدوها ثم ظهر « عمر بن يحيى الخزاعي » أيام تغلبت خزاعة على مكة ونفت منها جرهم وكان قد تولى سدانة البيت فدعا إلى عبادة الأوثان . وسبب ضلال عمر هذا فيما يروى أنه دخل البلقاء من أرض الشام فرأى قوما يعبدون الأصنام ويقولون : هذه أرباب نتخذها نستنصر بها فنتنصر ونستسقى بها فنسقى وكل من سألها يعطى فرجع إلى مكة ومعه صنم نصبه على الكعبة ودعا القوم إلى عبادته ففعلوا فتنفشت في العرب عبادة الأصنام فقاموا في جوف الكعبة عدة تماثيل فكان أعظمها « هبل » واتخذ أهل كل دار من مكة صنماً يعبدونه وللعب في غير مكة أصنام منها « ود » كان في قبيلة كلب وسواع في قبيلة هذيل ويعوث في قبيلة مراد ويعوق في قبيلة همدان ونسر في حسير .. وقد ذكر القرآن الكريم هذه الأصنام في قصة نوح عليه السلام فقال تعالى : « وقالوا لا تدرن آلهتكم ولا تدرن ودا ولا سواها ولا يعوث ويعوق ونسرا » .

هذه الأصنام منها ما كان يتخذ من الأحجار النفيسة كهبل فإنه كان فيما يروى من عقيق أجمر على صورة إنسان ومنها ما كان يتخذ من حجارة وحسب كسنة فإنه كان صخرة مربعة .

والتاريخ الحديث المعروف يحدثنا أن الناس كانوا يخالون الأحجار البركانية ساقطة من السماء منحدره من النجوم وكان الصابئون من عباد النجوم الذين كان لهم سلطان كبير في بلاد العرب يعتقدون ذلك فيعبدونها . وفي هذا يقول الأستاذ الدكتور إبراهيم محمد فرج أستاذ الجيولوجيا العام بكلية علوم جامعة القاهرة والذي أدى فريضة الحج : ان الصخور

فى الأصل نوعان منها ما هو نارى ويرجع أصله الى جوف الأرض حيث خرج منها اما الى سطحها فتصلب بسرعة كحجر البازلت البركانى . واما بسبب الحركات الأرضية العنيفة .. ومنها ما هو رسوبى قد تصلب تحت الماء . ثم ارتفع على هيئة جبال عالية مثل صخور تلال المقطم وجبال الألب والهسلايا وكلها من الحجر الجيرى والرملى طبقاتها تكونت تحت قاع بحر عميق غضى معظم أفريقيا الشمالية . وأوروبا الجنوبية وآسيا حتى اليابان فى العصور الجيولوجية القديمة وقد يتغير أى من هذين النوعين بسبب الحرارة والضغط الأرضية الشديدة الى صخر متحول مثل حجر الجنييس من الجرانيت ، والرخام من الحجر الجيرى والاردواز من الحجر الطينى والجبال حول مكة معظمها ، ان لم يكن كلها ، من النوع النارى أساسا قد تحول بعضها كما ذكر وهذه الصخور مختلفة الألوان فمنها الأحمر والأخضر والأشهب كما أن منها جددا بيضاء وأخرى سوداء « جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود » .

وبديهى أن الكعبة بنيت مرارا من أحجار أخذت من حواشي من هذه الجبال .

وأغلب الظن أن الحجر الأسود بالذات قطع من صخر أسود مختلف لونه لونه لبقية الأحجار ووضعه بانى الكعبة علامة لبدء الطواف « يؤذ لا يفسد » يكون حجرا ناريا كبقية الأحجار وقد يرجع لونه للأسود الى طبيعة التربة من معادن دكناء مختلفة لم تكن معرفتها بالتفصيل عند وجود الأسماء والاستعدادات اللازمة مثل هذا البحث على أن هذا الحجر لابد أن يكون قطعة من البازلت أو من أحد الصخور النارية المتحولة لذلك ، ومنه الشهب التى سقطت قديما من السماء . ولا يزال يستقظ مثلها حتى الآن

والتاريخ المعروف يحدثنا أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يمشى فى حياكة الحجر الأسود إلا عندما اختلفت قريش . أنهم ينادون أنه وضع هذا الحجر فى مكانه ثم رأى المخزومى الذى كان من قريش مطاعا أن يجعلوا الحكم لأول داخل . فكان محمد الأمين أول داخل فى ذلك قبل الرسالة . قالوا : هذا الأمين رفضت بغيره . فاصدأ محمد بن

وسمع قولهم ، ورأى العداوة تبدو في عيونهم ففكر قليلا ثم خلع رداءه ووضع الحجر فوقه ثم قال : ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب فحملوه جميعا الى ما يوازي موضع الحجر من البناء ثم تناوله الرسول ووضعوه في موضعه .

وبذلك انحسم الخلاف وانقضى الشر . فأنت ترى أن اسراع قريش الى الرضا بحكمه يدل على ما كان له من مكانة سامية في نفوس أهل مكة لما عرف عنه من سمو النفس ونزاهة القصد .

ولقد وردت آثار كثيرة في فضل هذا الحجر . وفيها ما يدل على أنه من الجنة . ولا بد لنا أن نقف أمام هذه الروايات ووقفة المتأمل الفاحص الذي يلتزم الحيطة التامة ولا ينخدع بالعاطفة التي كثيرا ما تحجب الحق وتطمس معالمه .

فلقد روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان الحجر والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما . ولولا أن طمس نورهما لأضاء ما بين المشرق والمغرب (ذكره الترمذي في صحيحه . وقال حديث غريب)

وفي رواية أخرى : لأضاء ما بين المشرق والمغرب ولأبرءا من استلمها من الخرس والجذام والبرص .. وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضا من اللبن فسودته خطايا بني آدم .

ويذكر العلامة تقى الدين الفاسي . رواية أخرى عن ابن عباس تتعارض والرواية السابقة المذكورة عن ابن عباس نفسه : اذ يقول : وانما غيرد بالاسود لئلا ينظر أهل الدنيا الى زينة الجنة وانه لياقوته بيبضاء (شفاء الغرر باخبار البلد الحرام . لتقى الدين الفاسي ح ١ ص ١٦٨) .

وتأتى بعد ذلك روايات وأحاديث يقول بعضها ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقبل الحجر الأسود في طوافه بالكعبة المشرفة في حيا الوداع . وليس هذا فحسب . بل كان يضع خده عليه وكان يسجد عليه ()

وغيرها يقول : انه طاف على بعيره يستلم الحجر بمحجنة أو أشار لشيء معه
وكبر ، وغيرها أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال :
هذا الحجر يبعث يوم القيامة وله لسان وشفطان يشهد لمن استلمه يوم
القيامة بحق (رواه الامام أحمد في مسنده صفحة ٢٣١٨ . ومما يحسن ذكره
أنه ذكر أن الحديث ضعيف) .

وقال : الحجر الأسود يمين الله في أرضه يصابح بها خلقه كما يصابح
الرجل أخاه (عن ابن عباس صحيفة ٢٤٢ من هذا الجزء من الغزالي . وتجد
مثل ذلك كثيرا في ابن كثير . (البداية والنهاية) .

وفي رواية : الحجر الأسود من الجنة وكان أشد بياضا من الثلج حتى
سودته خطايا أهل الشرك .

وهذه الروايات وأمثالها تحمل في طياتها ما يوهنها إذ يتعارض بعضها
مع بعض ثم هي في ذاتها لا تقوم على أساس ولا تستهدف عرضا سليما .
فاما تعارضها فلأن الروايتين المذكورتين عن ابن عباس مختلفتين . وأما التي
لا تقوم على أساس . ولا تستهدف عرضا سليما . فلأن قيمة هذا الحجر
لا تزداد اذا كان من حجار الجنة ولا تنقص اذا كان من حجار الأرض .
ذلك بأن قيمة الشيء انما تكون في الجوهر لا في العرض . وفي الباب ذهب
القشور . فالذهب وسط التبر هو الذهب وسط التراب . وسدعة أشرفه
قد بنيت من أحجار الأرض . ومع ذلك فهي بيت الله المنير ومعها نور
والنور . ويسمو على ما في الجنة من بيوت وقصور .

وهكذا فقد نشأ الاختراع في الرواية والتأويل ووضع الأحاديث من قبل
من تجرأ على ذلك هم الشيعة في العراق بعد قتل «عالي» محدث الخلافات
السياسية ..

وقد أشار الى ذلك أئمة الحديث حيث كان الزهري يقول في شرحه
الحديث من عندنا شبرا . ويرجع الينا ذراعا . وكان مالك يسمي العراق
دار الضرب أي أن الأحاديث والمرويات تضرب فيها وتخرج الى الناس كما

(١) رواه الحافظ البيهقي وعكفته عن ابن عباس العراقي الجزء الأول من كتاب الحجج من ٢٣٥

تضرب الدراهم وتخرج للتعامل ، وقال حماد بن مسلمة : حدثني شيخ منهم
يعنى الشيعة قال : كنا اذا اجتمعنا فاستحسننا شيئا جعلناه حديثا . وقد بذل
آثمة فن الحديث والرواية والاسناد منتهى الجهد فى تحرى أحوال الرواة
وثنونهم . وكثيرا ما كان السلف رضوان الله عليهم يروون بعض الروايات
ويتخذون من عدم انطباق المتن على قواعد الشرع الجليلة دليلا على ضعف
اسناده ، وصدق نسبه الى الرسول - صلى الله عليه وسلم - .. ووهم
راويه كما رد ابن عباس حديث أبى هريرة رضى الله عنهما : من حمل جنازة
فلينوضأ . وعلل هذا الرد بقوله لا يلزمننا الوضوء فى حمل عيدان يابسة
والمسلمون عانوا ويعانون من أكاذيب وضاع الأحاديث والمرويات . وقد
وضع العلماء القواعد لنقد الأحاديث لمعرفة الصحيح والحسن والضعيف منها
مثلا نساد المعنى : بأن يكون الحديث مخالفا لبدهييات العقول من غير أن
يمكن تأويله مثل : أن سفينة نوح طافت بالبيت سبعا وصلت عند المقام
راكعتين !! فهذا لا يمكن أن يقبله العقل .

بل جعلوا للذوق الفنى مجالا فى نقد الأحاديث وردها وكانوا يقولون
هذا حديث عليه ظلمه أو ينكره القلب . ويكفى ان يذكر الانسان ما كابدته
البخارى من مشاق وأسفار فى مختلف أقطار الدول الاسلامية لجمع الحديث
وتمحيصه وما رواه بعد ذلك من أنه ألفى الأحاديث المتداولة تربو على
مئائة ألف حديث لم يصح منها أكثر من أربعة آلاف . ومع ما أبداه
جامع الحديث من حرص على الدقة لا ريب فيه فقد قال النووى فى شرح
مسلم : وقد استدرك جماعة على البخارى ومسلم أحاديث أخلا بشرطها
ونزلت من درجة ما التزمه وروى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
أنه قال : انكم ستختلفون من بعدى فما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب
الله فيما وافقه فسنى وما خالفه فليس منى .

وها هو حديث : لو اعتقد أحدكم فى حجر لنفعه . ليس أظهر منه
إفغالا وامعانا فى الكذب وهو حديث من وضع الزنادقة . وناهيك عن تلك
الأحاديث الكثيرة الموضوعية المتبدلة . فهل هى الا أحاديث متداولة على

ألسنة الناس ، في استشهادهم وتحاجهم في معاملاتهم فهي أشيع الأحاديث وأقربها الى التواتر .. لكنها ليست مقبولة عقلا .

واليك ما كتبه عالم صحيفة الشعب في عددها الصادر في ٢٩/٤/١٩٥٨ بعنوان (من معانى القرآن) : صحيح أن الأحاديث الضعيفة طغت أو كادت تغطي على الأحاديث الصحيحة لأن يد الغرض والمرض وضعت أحاديث كثيرة يبرأ منها الدين والعقل والذوق الى أن قال : فيجب أن نطبعها وننبه الناس اليها ونحذرهم منها .. والقصد هو أن العلماء والمسلمين يجب أن يعرفوا الضيب من الخبيث مما دس في الحديث وتصفى الكتب الإسلامية في كل بلد إسلامي حتى تخرج محرزة مطهرة من الخرافات والأسرائيليات التي قصد بها افساد الاسلام وهدم كيان المسلمين .

كل هذه الخواطر التي تجول في النفس تجعلك تنظر الى مثل هذه الروايات في حذر وحيطة . ونشك في نسبتها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم — لا سيما أنه لم يذكر شيء منها في الصحيحين . وحينئذ ذكر الترمذي الحديث المروي عن عبد الله بن عمر وقال : انه حديث غريب . ولنا اذن أن نتلمس السبيل الى رواية أخرى لا يتطرق اليها مثل هذا الضعف والوهن . ولقد ذكر « ابن الأثير » في تاريخه : أن ابراهيم عليه السلام حينما أمره الله ببناء البيت الحرام . قال أولاده اسماعيل ان الله أمرني ان أبنى له بيتا . قال اسماعيل فاطع ربك . فقال ابراهيم : قد أمرك الله ان تعيش على بنائه . قال : اذن تفعل . ففعل معه فجعل ابراهيم يبنى واسماعيل يساهم بالحجارة . ثم قال ابراهيم لاسماعيل : انتنى بحجر حسن تضعه على راسه فيكون للناس علما . فأخذ حجرا من جبل « بنى قبيس » وقيل ان جبل أخبره بحجر هو الحجر الأسود . فأخذه ووضع في موضعه فلبس الرافع البنيان كان ابراهيم يقف على حجر واسماعيل يناءه . وهذا الحجر في مقام ابراهيم . وهكذا تعاون ابراهيم واسماعيل حتى رفعوا هذا وأتموا بناءه .

من هذه الرواية الهادئة وما يؤديها من روايات ذكرها أمهات الكتب التاريخية . يتبين لنا أن الحجر الأسود لم ينزل من الجنة . والله هو من

أحجار جبل أبي قبيس أراد الله أن يوضع في ركن من أركان بيته الحرام ليكون علما • أى علامة يبدأ منها الطواف وينتهي إليها •

فلما أذن إبراهيم فى الناس بالحج كان الحجر الأسود موضع بدء الطواف ونهايته • وكان الطائفون يبدأون باستلامه وكأنهم يسجلون أنفسهم فى هذا السجل الخالد • ويقترن ذلك فى نفوسهم بأجل الذكريات عن النبى الكريم إبراهيم عليه السلام • فيزداد حبهم لهذا الحجر المبارك • وينتقل ذلك من شعب الى شعب • ومن جيل الى جيل •

وقد فرض الله الحج على كل مسلم مستطيع وجعله الركن الخامس من أركان الاسلام « وجعل من أركان الحج الطواف ببيت الله الحرام • وجعل من شروط الطواف أن يكون الحجر الأسود نقطة البدء • ونقطة النهاية فى المظاف • ومن السنن المأثورة عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - - تقبيله واستلامه •

بيد أن بعض المسلمين على طول الزمن وبعد العهد بالرسول صلى الله عليه وسلم قد تغير تفكيرهم فأصبحوا يغالون فى تعظيم هذا الحجر حتى لقد خيل اليهم أن الحج لا ينفع الا بتقبيله ووضع الجباد عليه • ولقد رأيت بنفسى مرارا ، كثيرا من الحجاج أثناء طوافهم بالبيت اذا جاءوا أمام الحجر الأسود لم يكتفوا بالاشارة اليه كما هو المطلوب عند الزحام ، بل سلكوا من أجل الوصول اليه سبيلا يوقظ الفتنة والجدال • فترى الحاج بينهم يدفع نفسه نحو الحجر دافعا بكل قوة مناجما • وكأنه فى موقعة حربية مع اخوانه الطائفين ، لا يرعى شعور الباقين ، ولا ما يسببه للآخرين من أذى نتيجة زحامه هذا ، وخصوصا اذا كان بين الطائفين من الحاجات ، وبمثل هذه التصرفات يفتح المجال أمام الخرافات والأباطيل التى لا تعتمد على أساس ولا ينهض بها دليل •

أجل : لقد كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يستلم الحجر ويقبله أحيانا • ولكن ليس ذلك شرطا فى صحة الطواف ولا فى صحة الحج والعمرة • وانما هو لحكمة يعلمها الله • وان خفيت علينا • وليس لنا وقد آمننا بهذا الدين عن بينة الا أن نؤمن بهذه الجزئيات ولو لم يذكر لها تعليل •

ويعجبنى قول بعض الشعراء حينما منعه الزحام عن تقبيل الحجر واستلامه
فاكتفى بالإشارة إليه ثم أنشد :

أقول وقد زوحت عن لثم أسود من البيت ان تحجب فما السر يحجب
فانك منى بالمحل الذى به محل سواد العين أو أنت أقرب
والعرب كانت تحج من تسعة عشر قرنا وأكثر الى الكعبة (١) المكرمة
لأنهم كانوا يعتقدون أنها بيت الله على ما كانوا عليه من اختلاف الآلهة
وتعدد الديانات وتغاير المذاهب . وكانوا يقصدونها سنويا للطواف بها من
غير أن يدعيها لنفسه فريق منهم دون الآخرين لأنها كانت عندهم بيتا لله الذى
هو اله العالمين ورغما عن شيوع عبادة الأوثان فى سواد قبائل العرب فانه لم
يرد عنهم أنهم عبدوا هيكل الكعبة أو « الحجر الأسود » مع احترامهم لها
ذلك الاحترام الذى لا يسكن تصويره . وكانوا يعتقدون أن هذا الحجر نزل
من السماء وبه أخذ بعض الفقهاء . ونحن لا ندرى ان كان وحل اليهم من
طريق النيازك أو من طريق آخر .

واحترام الأحجار (٢) فى الناس قديم جدا فمنهم من كانوا يعبدونها
لذاتها ومنهم من كان يجعلها رمزا لآلهتهم كما كان الشأن فى الدول الراقية
فى عيرانها كدولة الرومان واليونانيين الذين كانوا يرمزون بها لمعبوداتهم
من الكواكب وغيرها . ولم يكن نبوغهم الى الآن فى نحت الأحجار وعمل
التسائيل وتبريزهم فى التصوير إلا لاحترامهم إياها من قديم الزمان
واستعمالهم لها فى الأزمنة الخالية تشيلا لمعبوداتهم . واليابانيون والهنود
لا يقلون عنهم فى هذه الصناعة ولهم فيها دقة غريبة وخصوصا فى الأعمال
الخشبية التى يشلون فيها كثيرا من معبوداتهم مثل بوذا وكوثوشيوس
وغيرهما ..

أما العرب فقد كانت أبنامهم ساذجة مثل جميع طبائع الأشياء فليس
وقد كانوا يعبدونها لتقربهم الى الله زلفى . وفى عتبة باب السلام الشريف
ترى حجرا ضخما أشبه شئ بدرجة سلم غير منتظمة نازلة فى الأرض يعلونها

(١) كل شئ علا وارتفع ، فهو كعب ومن ثم قيل للمكة كعبة .
(٢) فى باريس بجهة التروكاديرو متحف اسمه حسب من مجموعة أسماء من الأحجار
الدينية

بنعالهم . وأهل مكة يقولون عنه : انه صنم من أصنام الجاهلية واسمه اساف ! •

وكان أنبياء بنى اسرائيل يقيمون الأحجار في مناسبات كثيرة • منها ما هو تذكار لحادثة من الحوادث الجسيمة • كما فعل يعقوب عندما تراءى له ربه جل شأنه في نومه فانه أقام حجرا تذكارا لهذه الحادثة الكبرى في مكان سماه بيت ايل (بيت الله) • كما أقام حجرا غيره تذكارا للعهد الذي تم بينه وبين لابان (آية ٤٤ ، ٤٥ من الاصحاح ٣١ من سفر التكوين) • ومن ذلك الاثنا عشر حجرا التي نصبها يشوع تذكارا لعبور الاسباط نهر الأردن بتابوت العهد (آية ٩ من الاصحاح الرابع من سفر يشوع) • ومنها الحجارة التي نصبها موسى في ذيل الجبل تذكارا لكتابة كلام الرب (الآية الرابعة من الاصحاح ٢٤ من سفر الخروج) •

ومن حجارة التذكار • تلك الحجارة التي كان يقيمها صغار الحجاج على حافة طريقهم مع القافلة . فتراهم اذا سادفوا في طريقهم أحجارا صغيرة تسابقوا اليها وأخذ كل بين يديه ما أراد ووضعها على بعضها حجرا حجرا قائلا : هذا لأبى • وهذا لأمى وهذا لأخى • • وهكذا ، ويسون كل كوة منب ناطورا • وهم يزعمون أنه ما دامت هذه الرجفة على وضعها كان أمسح بها على قيد الحياة !! .. ولو لم يكن في عملهم هذا من حسنة سوى تنقية الطريق من الحجارة التي يتعثر فيها الانسان والحيوان لكفى •

ومن الحجارة ما كانوا يقيسونه للعهد والميثاق كالحجر الذي أقامه « يشوع » عندما أخذ العهد على شعبه قائلا لهم : هذا الحجر يكون شاهدا علينا (الآية ٣٦ ، ٢٧ من الاصحاح ٢٤ من سفر يشوع) ومن حجارة الشهادة ما كان يستعمله الناس للاقتراع على الأشياء أو الأشخاص •

وكان المصريون يقيسون الأحجار الجسيمة كالمسلات وغيرها تذكارا للحوادث التاريخية الكبرى وقد اقتفت آثارهم الدول المتمدنية وعلو الخصوص ما يقيسونه اعترافا بفضل من ينبغ من أفراد الأمة وهذه الآثار لا يكاد يخلو منها ميدان من ميادين عواصم أوربا •

وجميع الحكومات من قديم الزمان تقيم الأحجار لتعيين تخومها وتحديد ممالكها وقد عم هذا الاستعمال في تحديد ملكية الأفراد حتى أطلق لفظ الحجارة على الحدود وأجمعت الشرائع كلها على احترامها •

واليهود الى الآن يقدسون قطعة من حائط السور الذي للمسجد الأقصى من جهة القبلة يسونها البراق • ويبلغ طولها نحو ثمانية وأربعين مترا في ارتفاع مترين • لزعيمهم أنها القطعة الوحيدة التي بقيت من قاعدة سور الهيكل الأصلي الذي بناه سليمان عليه السلام وهدمه « بختنصر وسنحاريب » . وغيرهما من ملوك الآشوريين والرومانيين . وهم يحججون الى هذه القطعة مرتين في كل سنة وخصوصا في العيد الذي يسونه عيد الدجاج (عيد القربان) • ويهود القدس يجتمعون عندها كل يوم وعلى الخصوص في عصر يوم الجمعة مع رؤسائهم الدينيين • ويستلصقون حجارتها باكين شاكين منتحبين متضرعين الى الله بأن يرد عليهم ملكهم وأن يعيد الى اورشليم فخامتها وجلالتها • وقد وصل بهم احترامهم لحجارة ذلك الهيكل الى أنهم لا يدخلون في حوش بيت المقدس أصلا بل لا يدخلون من باب مطلقا خوفا من أن تطأ أقدامهم حجرا من الحجارة التي قد تكون تحطفت من هيكلهم القديم واثقت بها يد الصدفة في أرضية هذا المكان •

وللنصارى حجار كثيرة يقدسونها ومنها شيء كثير في بيت المقدس • وقد بلغ تقديسهم لها الى حد لا يمكن تكيفه • ومن تلك الاحجار • الحجر الذي تحت قبة الصعود • وفيه اثر من قدم يسوع يقولون انه اثر قدم المسيح عندما سجد الى السماء •

وفي سفلى جبل الزيتون من الجهة الغربية من وادي سدفون (وادي مريم) • قطعة من سخرة خارجة عن سور الكنيسة الروسية الشمالية فيها تقعر راسي • يقولون : ان السيد المسيح استند فيها الى جبهته عندما نزل من جبل فوريث (جبل الزيتون) الى المدينة • والكنيسة الروسية في ادخاله فيها ولكن قامت من اجل ذلك الكنيسة الروسية الأخرى • وكادت تحصل لذلك فتنة كبيرة لولا ان الأمر انتهى بجمع من منطقة عامة لجميعهم حتى لا يحرم السكك من التبرك بها • وازاء ذلك

الصخرة الى جهة الشمال توجد صخرة أخرى محاطة بسور للأروام .
يقولون أن السيد المسيح كان يجلس عليها اذ ذاك ليشاهد فيها صخرة
بيت المقدس . وباب هذا السور يفتح للزيارة في أيام مخصوصة . وللقوم
في كنيسة القيامة أحجار كثيرة تكاد تفوق حد التقديس منها حجر نصف
الدنيا الذي نراه في وسط هيكل الأروام . وحجر المغسل الذي يزعمون
أنهم غسلوا المسيح عليه . وحجر الكأس الذي نزل به جبريل الى المسيح
ووضعه عليه . وعامود الجلد الذي كان المسيح مربوطا به عندما جلده
تعداؤه وحجر الأكليل الذي أجلسوا عليه المسيح وقتنا وضعوا على رأسه
أكليل الشوك . ويوجد في بيت لحم كثير من هذه الحجارة المقدسة .

ومن الحجارة المقدسة المحترمة عند اليهود والنصارى والمسلمين على
السواء صخرة بيت المقدس (١) والمسلمون يزورونها ويقولون لمن زارها
أنه قدس ويعتبرون زيارتها بعد زيارة الحرم النبوي الشريف مباشرة . .
وهذه الحجارة محل قربات ابراهيم واسحاق ويعقوب وداود وسليمان
وغيرهم من أنبياء بنى اسرائيل عليهم السلام والتي كانت قبلة للمسلمين
قبل الكعبة . ثم صخرة النبي أيوب التي في قرية الشيخ سعد ويزورها خلق
كثير للتبرك بها من جميع الديانات والأجناس ، من ذلك نرى أن هذه
الحجارة لم تقدر لذاتها ولكن لعلاقتها بشيء مقدس محترم . وعليه فالحجر
الأسود الذي وضعه ابراهيم عليه السلام في الكعبة اما أن يكون وضعه
تذكارا لصدعه بأمر ربه برفع قواعد البيت المعظم ، واما أن يكون للعهد
الذي أخذه ابراهيم حجة عليه وعلى ولده بأن هذا البيت قد انتقل من
ملكيتهم الى الله تعالى ليكون للناس مصلى ومسجدا للطائفين والعاكفين
والركع السجود . ووضعه في الركن الأقرب الى الباب ليكون أول حدود
هذا البيت المكرم الذي يتدىء منه الطائفون وجعل لونه أسود لسهولة
تعيينه وتحديد مكانه . لذلك كان هذا الحجر محترما من ابراهيم ، محترما
من ولده ، محترما من المسلمين الى اليوم وإلى الغد .

(١) هي صخرة كسرة ضربت عليها قبة عظيمة جدا فيها من أعمال القيشاني والفسيفساء
والنوزانك والنفوش الذهبية وغيرها ما يدهش العقل ويحار له الفكر ، وهذه الاعمال من عهد
عبد الملك بن مروان وابنه « الوليد » ، ثم السلطان « سليمان القانوني » وعلى ظهرها آثار
أقدام يزعمون أنها أقدام الرسول ليلة الإسراء .

ولا عبرة بما ذهب اليه بعض السائحين الذين قصدوا مكة والمدينة تحت ستار شعار الدين الاسلامي وكتب عنها كل بحسب نزغته سياسية كانت أو دينية بأن المسلمين في حجهم يعبدون الحجر الأسود الذي هو أثر من آثار الوثنية العربية الأولى . واني لا أذكر شيئا أدحض به مفترياتهم فيما يختص بالمسلمين سوى عبارة عمر رضى الله عنه المشهورة ، ودرجة اسلام عمر لا تخفى على أحد .

أما فيما يختص بعرب الجاهلية فانه لم يسمع عنهم مطلقا أنهم عبدوا هذا الحجر فيما عبدوا من الأحجار بالمرّة مع احترامهم له كل الاحترام واجلالهم له كل الاجلال . وعلى كل حال فإن الحجر الأسود عند المسلمين محترم مكرم ، معظم لا لذاته ولكن لكونه شعارا لربوبيته تعالى ورمزا لسلطانه ، يعرض عليه المسلمون فيستلمونه ويقبلونه أو يسلمون عليه بكر احترام واحتشام ، وعليه فهو في ذلك كاعلام الدول التي لا تحترق الكوفة قطعة بسيطة من القماش مرفوعة على قطعة من الخشب أبسط منها ، بل لأنها تمثل سلطان الدولة أو الجمهورية . ولذلك فانهم يحضون رؤوسهم وسيوفهم احتراماً وخضوعاً .

والآن ألا ترى معنى أن أمر تقبيل الحجر الأسود يكاد يكون راجعاً في جملته وتفصيله الى ما روى من أن عمر قبله . اقتداء برسول الله عليه الصلاة والسلام ، وقان عبارته المشهورة .

قد روى ابن شيبه والدارقطني في العلل عن عيسى بن ماجة عن رجل رأى النبي عليه الصلاة والسلام واقفاً عند الحجر فقال : يا رسول الله ما لك بالحجر لا تضر ولا تنفع ؟ ثم قبله .

ثم حج أبو بكر فوقف عند الحجر ثم قال : انى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله عليه الصلاة والسلام يقبل ما قبلتك .

وقال عمر : أما والله انى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله عليه الصلاة والسلام قبلك ما قبلتك . ثم دنا فقبله . رواه أبو بكر بن أبى شيبة والامام أحمد والبخارى ومسلم وغيرهم .

وبعد .. فقد سردنا عليك فيما سبق جملة من الأحاديث التي يحيط بها الشك والاضطراب . والتي لا يقبلها عقل ولا يقرها ذوق مما جعل الشباب يشعر بالجزع والحيرة .. ولذلك هرع الشباب الى تلك البحوث التي يقوم بها علماء الغرب يتسابقون اليها -- كما يتسابقون الى كل جديد -- كأنها عذب فرات .

وبحوث علماء الغرب ودراساتهم لا تخلو من طعون تدس على الاسلام ما يبرأ منه الاسلام ، وعلى سيرة النبي عليه الصلاة والسلام من خرافات وأباطيل لا يسيغها العقل ولا يقبلها الذوق ، ينهل الشباب من ذلك الوباء القذر في اضطنان ويشيع في نفوسهم فيفتح لهم بها أبوابا عراضا يرتعون من خلالها في مباءات الجهل والالحاد ، ونهاية هذه البحوث أن نرجع الى كتاب الله ، فهو السياج الذي يحسى الحق ، ويقيم العدل ، ويصون الحريات ، ويكفل المساواة العادلة ويرد الدعوة الظالمة ويهذب النفوس ويقوى دعائم الأخلاق .

وعلى أصحاب الفضيلة الموقرين أن ينقوا الأحاديث النبوية الشريفة ، ويصفوها من تلك الأكدار التي أحاطت بها فزجت طيها بخيئتها وخلطت صحيحها بفاسدها . ودرءا لكل شبهة قد تساور النفوس ودفعا لكل شك قد يجور في الخواطر ، حتى تبقى المسنة المحمدية المظهرة نقية ناصعة من كل الشوائب .

الاسراء والمعراج

قد أنكر كثير من المستشرقين ، كسا أنكر من قبلهم المشركون المعاندون الذين لا يؤمنون بحق ولا يخضعون لحجة ولا بينة ، وقوع الاسراء والمعراج في زمن الرسول عليه الصلاة والسلام .

فانكار هؤلاء وهؤلاء لهذين الحادثين بعد ما أراهم النبي عليه الصلاة والسلام الآيات البينات ليس الا من قبيل كفرهم وجحودهم بكل ما آتاهم من الحق والجاهد المكابر لا سبيل الى اقتناعه ، ولا حاجة في تصديقه مادام لا يريد أن يقتنع أو يسلم بنتائج تقضى بها المقدمات .

وما أروع تلك الكلية القبية لصاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ يوسف الدجوى :

ان الناس اليوم يقدسون عقولهم ويسيروا وراء ما يبله عليهم علمهم القاصر ، ونظرهم الضعيف ، وكل من سار وراء عقله ، ووزن كل ما جاء عن الرسول عليه الصلاة والسلام بيزان فكره ، قلما يؤمن ايدها مسجيحاً ، فاذا راقك من العقل ما يشقشق به في بعض الأحيان ، لم يلبث أن يسوءك منه ما يهذى به في وقت آخر ، ولا غرو فالجهل حليف الانسان ، والضعف لازم من لوازم البشرية ، وقصور العلوم من صفاتها الدائمة ، والحدود التي لا تلازمها ، وكل من لم يصدق الا بما وصل اليه عقله وبلغته حدود نفسه ، ليس مؤمناً بالرسول على الحقيقة ، وانما هو مؤمن بعقله .

وما جاءت الرسل الا لتخبرنا بما وراء الطبيعة مما لم يتصور العقل البشري التي لا تستمد معلوماتها الا من المحسوسات ، وما تنتزعه منها من المعنويات الثانية ، مما هو راجع اليها ومتوقف عليها ، ومقدورات الله لا نهاية لها ، وعوالمه لا حد لها ، ولكل عالم قانون يخصه .

فمن الخطأ البين الحكم على عالم من العوالم بأحكام عالم آخر ، وإذا كنا نرى من بعض أنواع الحيوان ما لا يعيش الا في الماء ، ومن بعضها ما نو مكث في البحر لمات ، ومن بعضها ما يقتله « ثانی أوكسيد الكربون » كالانسان ، ومنها ما يقتله « الاوكسيجين » ككثير من الحيوانات الدنيا . لعلنا كنا لا نصدق ذلك قياسا على أنفسنا ، لولا مشاهدتنا اياها . فكيف بما لم نقف له على عين ولا أثر من العوالم الأخرى التي تحس والتي لا تحس .

وانى لأعجب لهم كيف يتبجحون ويحكمون في كل الأشياء بالأحكام الجازمة ، اعتسادا على بضع قوانين وصلوا الى ظواهرها من قوانين هذا الكون التي لا يحصيها الا الله . ولا يدري كنهها غير مبدعها الذي لا حد لقدرته ، ولا نهاية لعله .

وليت شعري بعد ذلك كله ، أى عقل نحكسه فيسا ورد عن الشارع ؟ هو عقل الأفراد أم عقل الجصاصات ؟ وما هو الضابط اذا اختلفت العقول . وليس هناك نوع من الأنواع وقع التفاوت بين أفرادها مثل نوع الانسان الذي هو مظهر المتناقضات ، ومجمع العجائب والغرائب ، وقد خاطب الله الخلق جميعا بقوله : « وما أوتيتهم من العلم الا قليلا » ويقول في حق الانسان « انه كان ظلوما جهولا » .

واننا لنرى في تخبطه وتناقضه ، وارتبائه في أحواله ، واضطرابه في أعماله ، الدليل الساطع على أنه مخلوق من الطيش والجهالة والعجز والتصور فعلاَم تلك الكبرياء ، وهو من الضعف بحيث يرثى له ، ويشفق عليه .

لا يستند هؤلاء المنكرون الا الى الاستبعاد العقلي وقياس الغائب على الشاهد ، وارجاع ما لم يعلموا الى ما علموا . والجاهل لا يعرف قدر نفسه ، ولا قدر العلم ، ويعتقد أن كل ما خرج عن دائرة علمه في دائرة العدم : « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، ولما يأتهم تأويله » .

ومن الغريب الذي يؤسف له ، انهم اذا سمعوا أن بعض الأوربيين يريد الوصول الى القمر ، ويفكر في اعداد العدة لذلك لم يتحرك منهم

ساكن ، بل ربما انتصروا لما سمعوا وقالوا : ان العلم يلد العجائب ، والاكتشاف يأتي بالغرائب ، ولكنهم اذا سمعوا أن الرسول عرج به الى السماء ، قامت قيامتهم ، وهدرت شقاشقهم ، وظهر كل ما في نفوسهم الضعيفة من خبث والحاد .

وستكلم معهم بما يخضعون له اذا سمعوه عن سادتهم الأوربيين ، الذين لم يعلموا علمهم ، ولا أحسنوا محاكاتهم .

أما الكلام من الجهة النقلية ، فأظنه لا يعنيه كثيرا ، ولا يقنعهم كثيرا أو قليلا ، ومع هذا فنقول فيه كلمة موجزة ، من أجل الفريق الثانى الذى ينتسب الى العلم . ولا يمكنه الخروج عن الكتاب والسنة . ولكنه يؤول ويحرف اغترارا ببعض الروايات . واجابة لنزعة عنده ، وعقيدة لديه لا تبعد كثيرا عن عقيدة الماديين ، وان كان مذبذبا بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، فنقول :

ان من قال : ان الاسراء بالروح ، تمسك ببعض روايات مطعون فيها كرواية عائشة رضى الله عنها ، التى ردها الحفاظ . وقالوا : انها غير صحيحة من وجوه عدة ، لا نطيل بها الكلام ، وكرواية شريك بن أبى نصر التى طعن فيها الحفاظ بما يطول شرحه ، وليس غرضنا الا أن نشير الى ذلك اشارة خفيفة ، يعرفها ذلك الفريق من الشيوخ المتفهمين . والعالم ، كل العالم ، من لا يتأثر بكل ما رآه أو يهوش بكل ما روى . بل العالم ، كل العالم ، من يعرف المقبول والمردود ، والصحيح والضعيف ، ويجسع بين الروايات المختلفة اذا أمكن الجسع ، ويرجع الراجح ويستقط المرجوح اذا تعذر التوفيق ، ولا أدري كيف يقبل الذوق السليم أن الاسراء كان بالروح بعد قول الله تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا . انه هو السميع العليم البصير » .

فها أنت ذا ترى الآية الكريمة قد افتتحت بسبحان المتر باستعظام ما كان من الأمر ، والتعجيب منه لجلاله ، وذلك اللفظ لا يصح موقعه ، ولا

يتناسب وبلاغة القرآن الحكيم الا اذا كان الأمر غير معهود ، ولا مقدور لأحد من البشر .

ولو كان الاسراء بالروح فقط لم يكن ثمة ما يقتضى هذا الاستعظام وذلك التعجيب ، اذ لا خطورة في اراءة النبي عليه الصلاة والسلام آيات ربه في نومه ، فان هذا أمر يقع لكل أحد . بل قد يرى الانسان في نومه رب العزة الذى هو أكبر من كل شىء ، وانما يظهر وجه الاستعظام والتعجيب لو قلنا : ان ذلك الاسراء كان بالجسد والروح ، كما هو ظاهر لكل ذى فطرة ظاهرة وعقل سليم .

ثم تراد يقول « أسرى » وهو لا يقال في النوم كما قال القاضى « عياض » ، لأن ما يقع في النوم انما هو تخيل وضرب مثل لا غير ، ولا يحسن أن يعبر عن ذلك بأنه أسرى به ، وانما يحسن ذلك اذا أسرى به ليلا اسراء حسيا على ما هو معهود ومعروف .

ثم يقول « بعبده » ، وهو نص قاطع في الموضوع . لأن العبد لا يطلق فيما تعرفه العرب الا على الشخص المكون من الروح والجسد ، ولم يعهد في لغة العرب اطلاقه على الروح فقط ، فهم لا يعرفون من العبد الا الشخص المحسوس المتطور ، كما في قوله تعالى : « رأيت الذى ينهى عبدا اذا صلى » وقوله : « وانه لما قام عبدا لله يدعو » الى غير ذلك .

ثم يقول : « لنريه من آياتنا » ، ويقول في سورة النجم : « أفتتارونه على ما يرى . ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنات المأوى . اذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى » .

ولا شك عند من له ذوق سليم أن هذه الآيات الكريمة تدل على أن النبي عليه الصلاة والسلام أسرى به الى بيت المقدس ، وأنه عرج به الى السموات العلا بجسده وروحه ، وأنه رأى جبريل عند سدرة المنتهى . وأنه رأى من آيات ربه الكبرى .

وانى أستحلفك بعلمك وذوقك وانصافك ، أن تنظر معى الى قوله : « أفتتارونه على ما يرى » . ثم قل لى بعد ذلك ماذا ترى . أفيسهل عليك

أن تسلم أن المرء والجدل كانا في رؤيا منامية ؟ وهل يكون في رؤيا الروح وحدها في النوم جحود ومجادلة ؟ وهل لذلك وقع عند القائل والسامع ، حتى تذكر فيه تلك الآيات ، وتحصل به تلك المجادلات ، وينوه بشأنه في القرآن هذا التنويه العظيم ؟ وهل عهد مثل ذلك في الرؤى المنامية ، وهل ينكرون على أنفسهم ذلك ، حتى ينكروه عليه صلى الله عليه وسلم ؟

لاشك أن مناكرتهم ومجادلتهم ، ما كانت لعلمهم أنه يدعى أن ذلك كان يقظة لا نوما ، فهذا محل الاستبعاد والاستنكار ، لأنه غير معهود لديهم ولا هو في متناول قدرتهم .

أما أحلام الأرواح ، فيجوز أن تقع لكل امرئ حتى للمشركين أنفسهم . وهل ينكر الله عليهم انكارهم بقوله : «أفتتارونه على ما يرى» .. ويقرعونهم على مجادلتهم بالباطل ، ويقسم ان صاحبهم ما ضل وما غوى ، ويقول : انه رأى . ولا يليق أن تثاروه فيسارآه . هل يكون كل ذلك لرؤيا منامية ؟ وهل يقول المنكر : ان رؤيا جبريل في المرة الأولى التي جاءت في الحديث الصحيح ، حين رآه صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم بحراء على صورته التي خلقه الله تعالى عليها قد سد الأفق ، كانت حلما أيضا ؟ أم يفرق بينهما والقرآن لم يفرق ، وجعل الرؤية في المرة الأخرى عند سدرة المنتهى ، كالرؤية الأولى في الأرض ؟

وهل يقال ذلك اذا كانت احدي الرؤيتين صادقة والأخرى حلما . وهل يحسن أن تجعل الضمير في قوله تعالى : « ولقد رآه نزلة أخرى » لروح النبي دون جسده ، وتغاير بينه وبين ما قبله وما بعده من الصائر العائدة على شخصه صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم لا على روحه فقط ؟ وهل يسئل عليك أن تقول : انها رؤيا منامية . مع قوله تعالى : « ما زاغ البصر وما طغى » ؟

وهل يقال في الرؤيا المنامية : « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس » ؟

ومتى كانت رؤيا المنام فتنة لأحد ، فان كل انسان يرى بروحه ما شاء الله أن يرى من الكون فما وجه الافتتان وما معناه ؟

وأما التشبث بلفظ الرؤيادون الرؤية، فقدرده أهل اللغة، واستشهدوا عليه بقول الشاعر :

ورؤياك أحلى في المنام من الغمض

على أنه جاء في القصة ما هو قاطع في الموضوع : فإن النبي عليه الصلاة والسلام لما أخبرهم بذلك هاج هائجهم وقامت قيامتهم ، فمنهم الواضع يده على رأسه تعجبا ، ومنهم المصفق ، حتى ورد أنه ارتد بعض من كان قد دخل في الإسلام ، فهل ترى - أيدك الله - أن ذلك كله كان من أجل رؤيا منامية ؟

بل في القصة ما هو أكثر من هذا ، وهو أنهم سألوا النبي عليه الصلاة والسلام عن غيرهم التي كانت فيها تجارتهم فأجابهم بأنه مر بها وقد ند منها بعير فانكسر ، وأنه مر بعير أخرى قد ضلوا ناقة لهم وكان معهم قدح من الماء فشربه صلى الله عليه وسلم ، وقد سألوهم عندما قدموا الى مكة فصدقوا ذلك كله .

و في القصة أكثر من هذا ، فهل ترى أن الروح شربت الماء من القدح ، وهل يمكننا أن نقبل أنهم يسألونه عن غيرهم وعن بيت المقدس وأبوابه وكل ما يتعلق به اذا كانت الرؤيا منامية ؟ وأي علاقة بين رؤيا المنام وغيرهم التي تجيء من الشام ؟.

ولا نزال نقول : أي معنى لقصة قدح الماء اذا كانت الرؤيا منامية وأظن أن هذا القدر كاف للنصف ، ولو شئنا لأطنا .

والخلاصة أن الاسراء لو كان حلما ما كانت فيه آية ولا معجزة ولا استبعده الكفار ، ولا كذبوه فيه ، ولا ارتد به ضعفاء الايمان ، مثل هذا من الأحلام لا ينكر ، ويؤكد ذلك مجيء جبريل له بالبراق ، والمعراج واستفتاح السماء ، فيقال : ومن معك ؟ فيقول : محمد .

ولقاؤه الأنبياء فيها وترحيبهم به ، وخطبهم في بيت المقدس وردده عليه وصالاتهم وراءه ، وتعيين محل كل واحد منهم والخبار عنه بخبر خاص وحديث فرض الصلاة ومراجعة موسى في ذلك : وقوله : ثم عرج بي حيا

ظهرت بمستوى أسمع فيه صريف الأقلام ، وانه وصل الى سدره المنتهى وقد ورد أن جبريل تأخر عنه بعد سدره المنتهى ، وقال له : لو تقدمت أدبته لاحتقرت . ما يدل أن الرسول عليه الصلاة والسلام كانت روحانيته عند العروج به كانت تفوق روحانية جبريل عليه السلام . الى غير ذلك ما جاء في القصة .

وهل عهد مثل ذلك في رؤيا المنام ، وهل يقال في رؤيا المنام : «ما زاغ البصر وما طغى» . أو ينوه بشأنها هذا التنويه كله ؟

وهل يحسن أن يكون فرض الصلاة -- وهى عماد الدين الاسلامى فى النوم مع أن غيرها فرض فى اليقظة ؟

ولست أفهم الا أن هذا انكار لقدرة الله . واذا فتش عن ايمان ذلك المنكر وجد ضعيفا به خلل ، وفيه دخل . وما أدري ماذا يصنع فى مثل قوله تعالى : « قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيتك به قبل أن يرتد اليك طرفك » . وقوله : « فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكهم آياته لعلكم تعقلون » . وقوله : « فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا . ثم ادعهن يأتينك سعيًا » الى غير ذلك من الآيات والمعجزات .

وان الايمان بذلك كله سهل لدى من يعتقد أن الله على كل شيء قدير ، واننا ما أوتينا من العلم الا قليلا .. ونترجع الى الموضوع فنقول باختصار :

لو كان حلما لم يكن فيه آية مع ان الله يقول : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » ولو كان فى النوم عند عائشة رضى الله عنها . كما يزعم بعضهم ، لما أنكرت رؤيته صلى الله عليه وسلم . فبئس ثم تنكرها الايمان . أن ذلك كان يقظة لا نوما . لأن رؤيا المنام لا تنكر من عائشة الا فى غيرها .

وبعد . فقد عرج به صلى الله عليه وآله وسلم . ليسبين بذلك العروج ، أن مقامه فوق مقامات الأنبياء . اذ ارتفع عليهم جميعا . حتى سبع

صريف الأقدام ، وكانت مناجاته فوق السموات العلاء على غير ميعاد ولا رياضة سابقة لكمال استعداده عليه الصلاة والسلام ليعلم ما بينه وبين غيره من الفرق في التقريب والاصطفاء .

وكان العلو الحسى مستتبع العلو المعنوى ، فكلما ارتقى في درجات السموات وما فوقها ، كان يرتقى في درجات الروحانية والاستغراق في جلال الله وعظمته ، ولا غرو ، فالأماكن لها خصائص ومميزات ، انظر الى الكعبة وما اختصت به من الرفعة والتعظيم ونزول الرحمات والبركات ، حتى استحقت أن تسمى بيت الله ، وحرم الله .

وقد حدثت هذه الآية الكبرى حين نبذت الدعوة المحمدية في كل مكان . وعرض الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاشتد كربته ، وذلك بعد رجوعه من الطائف كئيباً حزينا حتى لم يستطع أن يدخل مكة وطنه الا بجوار مجير هو « المطعم بن عدي » ، فاتجه الى مولاه يستمد منه العون . ويتضرع الى ربه ، يسأله الحول والقوة ، فأرسل اليه بعطفه من عالم الغيب مدداً ، ومن القوة الروحانية والعوالم الغيبية عوناً ، فصرف اليه نفراً من الجن حين بات بنخله في رجوعه من الطائف ، وقد قام في جوف الليل يصلى ، فاستمعوا له وهو يقرأ سورة الجن فلم يشعر بهم ، ثم رجعوا الى قومهم ، فأعلمه الله بذلك في قوله تعالى : « واذا صرفنا اليك نفراً من الجن يستسعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا .. » الى قوله : « في ضلال مبين » (الأحقاف ١٩ - ٣١) .

يقول « ارفنج » في كتابه « حياة محمد » : ان هذه الزورة من الجن فيها عزاء وتسلية « لمحمد » بعد رجوعه من الطائف ، تلك الرجعة المؤلمة . اذ فيها اشارة له انه اذا كانت دعوته قد نبذت وتعاليمه قد رفضت من معشر الانس ، فقد قوبلت باحترام واعجاب من الجن ، عالم الذكاء الغيبى غير المرئى .

ثم حدث الاسراء في هذه الفترة ، وكان على التحقيق قبل بيعة العقبة . نى في الليلة السابعة والعشرين من شهر رجب . أسرى بالرسول الأمين الى بيت المقدس وعرج به الى السموات ، وفرضت عليه الصلوات الخمس .

لاشك أن في معجزة الاسراء ترفيها روحانيا ، ونسوا نفسانيا ،
 واتصالا ومشاهدات ، وأنسا وتفحات ، وكل ذلك تسلية أى تسلية . وعزاء
 أى عزاء ، حتى لقد رجع صلى الله عليه وسلم من اسرائه ومعراجه . وقد
 خرج من همومه وأحزانه ، وفارقه ضيقه وكربه ، وفتحت أمامه أبواب
 السماء ، وصفت له النفوس ورحبت به أرواح في العالم العلوى فتبدل من
 الوحشة أنسا ، ومن الاعراض اقبالا ، ومن الضعف قوة ، ومن الفشل
 نصرا ..

ولذا كان الاسراء ليلا تمكينا للتخصيص بمقام المحبة ، اذ الليل تخفى
 زمان للسحيين يجتمعان فيه ، فقصة الاسراء والمعراج من أشهر المعجزات .
 وأصدق الأنباء والآيات . وحديثها مختصر على ضوء الروايات صحيحها
 وحسنها ، فهو : انه عليه الصلاة والسلام أسرى به يقظة لا مناما من مكة
 الى بيت المقدس راكبا البراق ، فلما انتهى الى باب المسجد الأقصى ربط
 الدابة عند الباب ودخله فصلى ثم عرج به فى تلك الليلة من بيت المقدس الى
 السماء الدنيا . فاستفتح له جبريل ففتح له . فرأى هناك آدم بابا البشر
 فسلم عليه ورحب به ورد عليه السلام . وأقر بنبوته . و أراد الله أرواح
 السعداء عن يمينه وأرواح الأشقياء عن يساره . ثم عرج به الى بئس
 السنوات السبع . فلتقاه من كل ساء مقربوها . وسلم على الأنبياء الذين
 فى السنوات بحسب منازلهم ودرجاتهم . حتى مر بسوسى الكليم فى
 السادسة . و ابراهيم الخليل فى السابعة . فسلم عليه ورحب به . ثم جاوز
 منزلتيهما . حتى انتهى الى مستوى سبع فيه صريف الأقاليم . ورأى مسند
 المنتهى . وغشيها من أمر الله ما غشيها . ورأى البيت المعسور و ابراهيم
 الخليل مسندا ظهره اليه يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة يتعبدون
 فيه ، ثم لا يعودون اليه الى يوم القيامة .

ثم عرج به الى الجبار جل جلاله فدنا منه . فأوحى الله الى عبده
 ما أوحى . وفرض عليه خمسين صلاة . فرجع حتى مر بسوسى فقال
 أمرت ؟ قال : بخسين صلاة . قال : ان أمتك لا تطيق ذلك . فرجع حتى
 ربك فاسأله التخفيف لأمتك . فالتفت الى جبريل كأنه يستشير في ذلك .
 فأشار اليه أن نعم ان شئت .

فرجع صلوات الله عليه الى ربه ، فوضع عنه عشرة . فقال موسى :
ارجع الى ربك فاسأله التخفيف .

فظل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل حتى جعلها خسبا ، فأمره
موسى بالرجوع وسؤال التخفيف ، فقال عليه الصلاة والسلام : قد
استحييت من ربي ، ولكن أرضى وأسلم . فلما بعد نادى مناد : قد أمضيت
فريضتي وخففت عن عبادي ، خمس في العدد ، وخسون في الأجر .

ثم هبط الى بيت المقدس وهبط معه الأنبياء ، فصلى بهم فيه لما حانت
لصلاة . ومن الناس من يزعم انه أهمهم في السماء .

والذي ذكره « ابن كثير » في تفسيره ، وتظاهرت به الروايات أنه
بيت المقدس ، ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله اليه . والظاهر أنه بعد
رجوعه اليه . لأنه لما مر بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحدا
واحدا ، وهو يخبره بهم . وهذا هو اللائق ، لأنه كان أولا مطلوبا الى
أجناب العلوي ليترض عليه وعلى أمته ما يشاء ، ثم لما فرغ من الذي
أريد به اجتمع هو واخوانه من النبيين ، ثم ظهر الله شرفه وفضله عليهم
بالتقدم في الامامة . وذلك عن اشارة جبريل عليه السلام له في ذلك ، ثم
خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد الى مكة بغلس .

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي عليه الصلاة
والسلام : لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي ، فسألتنى عن
أشياء من بيت المقدس لم أثبتها ، أي لم أكن أثبت صورتها في ذهني وفكري
لاشتغاله بما هو أهم منها ، فكربت كربا لم أكرب مثله قط ، فرفعه الله لي
أنظر اليه . فما سألتوني عن شيء الا أنبأتهم به ، فأمن من آمن وأنكر من
أنكر : « انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » .

وفي حديث أبي هريرة عند الطبراني والبخاري وابن جرير وأبي
يعلى : انه عليه الصلاة والسلام مر على قوم يزرعون ويحصدون في يوم
كلسا حصدوا عاد كسا كان ، فقال لجبريل : ما هذا ؟ قال : هؤلاء المجاهدون
في سبيل الله . تضاعف لهم الحسنه الى سبعمائة ضعف ، وما أنفقوا من شيء
فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين .

ثم أتى على قوم ترضخ رءوسهم وتكسر بالصخر ، وكلما رضخت عادت كما كانت ، ولا يفتر عنهم من ذلك شيء ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين تتأقل رءوسهم عن الصلاة المكتوبة .

ثم أتى على قوم على اقبالهم رقاع ، وعلى أدبارهم رقاع ، يسرحون كما تسرح الأنعام ، يأكلون الضريع (الشوك اليابس) والزقوم (تسر شجر كرية الطعم) ورضف (الحجارة المحمأة) جهنم . قال : ما هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين لا يؤدون زكاة أموالهم ، وما ظلهم الله ، وما الله بظلام للعبيد .

ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج في قدر ولحم نبيء خبيث في قدر ، فجعلوا يأكلون من النبيء الخبيث ويدعون النضيج . فقال : ما هؤلاء يا جبريل ؟ قال جبريل : هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيب فيأتي امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح . والمرأة تقود من عند زوجها حلالا طيبا فتأتي رجلا خبيثا فتبيت عنده حتى تصبح .

ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بسقاريض من حديد . كما قرضت عادت كما كانت ، لا يفتر عنهم من ذلك شيء . قال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هؤلاء خطباء الفتنة يقولون ما لا يفعلون .

فهذا تصوير وتشيل ، ورمز وارشادات المحل التي علينا أن نروا هؤلاء بعد الموت من عذاب أليم . وما ينتظرهم في الآخرة من تعذيب وتشكيل فما رآه صلى الله عليه وسلم أشبه شيء بالصور السينائية الصغيرة في حجمها الكبيرة في مرآها . العظيمة في العبرة بها والاتعاف بسفراها .

فاذا قيل : ما الحكمة من الأسراء به راكبا مع القنطرة على طي الأرض له طيا ؟ قلنا ان ذلك كان تأنيسا له بالعادة في مقام خرق العادة . لأن العادة جرت أن الملك اذا استدعى من يختص به بعث اليه بمركب مني يحسن عليه في وفادته اليه . فعامله الله تعالى بذلك تأنيسا له وتعظيما . وقد اختلف في الصفة التي رأى عليها نبينا الأنبياء . والمرئي الذي ارتضاه المحققون أن تلك الرؤية كانت لأرواحهم متشكلة بصور أجسادهم الا عيسى ، لما ثبت أنه رفع بجسده .

ويؤيده حديث أبي هريرة عند الحاكم والبيهقي ، فلقى أرواح الأنبياء ، وفيه دليل على تشكيل الأرواح بصور أجسادها في غير هذا العالم ، وقد أطال ابن القيم في كتاب الأرواح ، من ترجيح أن رؤيته إنما هي لأرواحهم ، إذ الأجساد في الأرض قطعاً . وهي إنما تبعث يوم القيامة ، ولو بعثت قبل ذلك لكانت انشقت عنهم الأرض قبلها ، وكانت تذوق الموت عند تفخ الصور ، وهذه مودة ثانية ، وهذا باطل قطعاً .

وقد قال صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد الرحمن تاج شيخ الجامع الأزهر السابق :

وقد ثبت أن النبي عليه الصلاة والسلام وهو الصادق الأمين ، قد حدث صبيحة الليلة التي كان فيها الأسراء أنه أسرى به في تلك الليلة من مكة إلى بيت المقدس حيث المسجد الأقصى ، وأنه قد عاد من ليلته إلى مكة . وإن أول من حدثهم بذلك « أم هانئ » بنت عمه أبي طالب . فعجبت لهذا الأمر العظيم ، ونصحت له ألا يحدث به الأقوام من كفار قريش حتى لا يكذبوه ، لكنه عليه الصلاة والسلام ، لم يستمع لها . وخرج إلى المسجد ، وجلس إلى جوار الكعبة ، فصر به أبو جهل ، وهو مسعن في تفكيره ، فقال له : هل مني خبر ؟

قال عليه الصلاة والسلام : نعم .

فقال : وما هو ؟

قال عليه الصلاة والسلام : اني أسرى بي الليلة إلى بيت المقدس .

قال : إلى بيت المقدس ؟

قال عليه الصلاة والسلام : نعم .

قال أبو جهل : رأيت ان دعوت قومك لك لتخبرهم أتخبرهم بما

أخبرتني به ؟

قال عليه الصلاة والسلام : نعم .

فنادى أبو جهل : هيا معشر قريش ، فاجتمعوا من أنديتهم . فقال

لرسول عليه الصلاة والسلام : أخبر قومك بما أخبرتني به .

فقص عليهم رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه قد ذهب الى بيت المقدس تلك الليلة وصلى فيه ، فأخذوا يصفرون ويصفقون تكديبا له واستبعادا لخبره .

وانتشر خبر ذلك في مكة ، وذهب الناس الى أبي بكر يخبرونه الخبر . فقال لهم : انكم تكذبون عليه . فقالوا : والله انه ليقوله . فقال : ان كان قد قاله لقد صدق . قالوا : تصدقه على ذلك ؟

قال : انى أصدقه على أبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السباء غدوة أو روحة .

ثم جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواؤه مشركو قريش يسألونه ويستنعتونه صفات بيت المقدس وأحواله . وكان فيهم من رنى بيت المقدس من قبل ، وعرف شيئا من معالمه وصفاته . قال النبي : فجعلت أخبرهم عن آياته ، فالتبس على بعض الشيء . فجعل الله لى بيت المقدس . حتى جعلت أنظر اليه دون دار عقيل وأنعنه لهم ... فقالوا : ما النعت فقد أصاب . ثم قالوا : أخبرنا عن غيرنا فهى لهم الينا . وهل لقيت منها شيئا ؟ قال : نعم . مررت بعير بنى فلان وهى باروحاء . وقد أضلوا بعيرا لهم وهم فى طلبه وفى رحالهم قدح من ماء . فعوضت وأخذته وشربته ووضعته كما كان ، فاسألوا : هل وجدوا الماء فى القدح حين رجعوا . قالوا : هذه آية . قال : ومررت بعير بنى فلان . وفلان وفلان راكبان قعودا . فنظر بعيرهما منى فانكسر ، فاسألوهما عن ذلك . قالوا : هذه آية أخرى .

ثم سألوهم عن العدة والأحبال والهيئات . فسئلت له العير . فأخبرهم عن كل ذلك ، وقال : تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس . وهىما قائلان . وهىما يقدمها جبل أورق عليه غرارتان مخيطان . قالوا : هذه آية أخرى . فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو النبية فجعلوا ينظرون منى تطامع الشمس ليكذبوه . اذ قال قائل : هذه الشمس قد طلعت . وقال آخر :

هذه العير قد أقبلت ، يقدمها بعير أورق ، فيها فلان وفلان كما قال ، لكنهم لم يؤمنوا وقالوا هذا سحر مبین .

ثم قال فضيلته : نود هنا أن نقف من حادثة الاسراء عند أمرين جديرين بالنظر والاعتبار :

الأول : ما كان من المشركين من اللجاجة في الجدل . والالحاق في السؤال عن العير وعدتها وأحسابها ، وعن صفات بيت المقدس ، دقتها وجليلتها ، خفيها وجليلها .. ولم تكن أسئلة انصاف ومنطق عاقل . يقصد بها تعرف الحقيقة . وانما كانت أسئلة عناد ومشاغبة ، يراد بها اظهار الرسول عليه الصلاة والسلام بمظهر العاجز عن اجابتهم الى بعض ما سألوا ليكذبوه فيما أخبر به .

فهل كان المقصود من الاسراء برسول الله هو أن يعلم تفاصيل بيت المقدس ، ويعلم أيضا على وجه التفصيل حال عيرهم ، وأحسابها واقتابها ، وعددها وعدتها ؟

لكن الله العلي القدير أراد ألا يمكنهم من أن يصلوا الى غايتهم . فكشف لرسوله عن المواقع والمعالم . لما التبس عليه بعض الشيء مما سألوا عنه . وجلى له بيت المقدس . حتى كان ينظر اليه أقرب من دار عقيل . فجعل ينعتهم لهم . ويستملى اجاباته من مشاهداته . يسددها طعنات في صدورهم . ونما وكمدا في أفئدتهم . وأظهره الله عليهم . والله غالب على أمره . وهم القوي العزيز .

الأمر الثاني : أن بعض الناس قد حاول — بحسن نية — أن يقرب الى الأذهان مسألة الاسراء من مكة الى بيت المقدس بتلك السرعة الخاطفة التي لم يعهدها أحد . فقال : ان الاسراء بتلك السرعة بين هاتين البلديتين المتباعدتين . وقطع المسافة بينها في فترة قصيرة جدا . اذا كان عجيبا غريبا قبل ان تستخدم قوة البخار وقبل أن تستحدث الطائرات العادية والطائرات النفاثة . والصواريخ الموجهة . فانه يجب أن يعتقد وأن يسه به من غير تردد بعد ظهور تلك المخترعات وتلك المستحدثات . فان المسافر

البعيدة التي يحتاج في قطعها راكب البعير أو الفرس الى ثلاثين وأربعين يوماً يمكن أن تقطعها الطائرات في بضع ساعات .

يريد أصحاب هذه المحاولات حسنو النية بهذا التقريب أن يضعوا واقعة الاسراء في المحل الذي لا غرابة فيه والذي يثبت التقدم العلى وقوع نظائر له ومشابهات . ليقتنعوا -- بصحة ذلك الاسراء وامكان حصوله . أصحاب العلوم المادية الذين لا يسلمون الا بما تلمسه أيديهم ، ويقع تحت أبصارهم . ويخضع لتجاربهم وقوانين علومهم . في الحوادث والكائنات .

نية حسنة . ومقاصد طيبة . ولكنها تنطوى على شيء غير قليل من الغرارة وعدم التبصر . في مجازاة الماديين الذين لا يؤمنون بمعجزات . فانه لا سبيل الى التقريب أو الربط بين أمور هي من فعل الانسان . يقدر عليها بتفكيره واستنباطه . ويتوصل اليها بأسباب مادية تخضع لقوانين علمية . ومعارف انسانية . وأمور أخرى لا دخل لقدرة الانسان فيها . وانما هو مظهر كونها . ومحل جريانها . يخلقها الله فيه . ويجريها على يديه . كما قال تعالى : « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » فان رمية واحدة بقبضة من الرمل أو الحصباء يصيب بها الرسول صلى الله عليه وسلم - عيون فريق كبير من الأعداء في غزوة بدر - حتى يكون ذلك من أسباب هزيمتهم واندحار جيوعهم - ليس أمراً عادياً مما يكون في عاقبة الانسان . وانما هو فعل الله الخالق لكل شيء . القادر على كل شيء . القاهر فوق عباده . وهو الحكيم الخبير .

انه مهما تقدمت العلوم وارتقت الصناعات . ووجد من المخترعات ما يبلغ في غرابته وطرافته اضعاف اضعاف ما كشف عنه العلم الحديث الآن . فانه على كل حال يكون نوعاً آخر غير نوع المعجزات التي يجدها الله على أيدي المختارين من رسله . فان هذه المعجزات ليست لها أسباب ومقدمات ولا أسباب وأدوات . مما يدخل في مقدمه العباد .

أما المخترعات الانسانية فانها لا بد أن تنبني على قواعد وقوانين علمية . ولا بد فيها من استخدام أجهزة وأدوات يتوصل فيها بالتحليل

والتركيب واحكام الصنع الى ما يراد تكوينه من مخترعات ، فالطيران فى السماء باستخدام الأجهزة والآلات البخارية وغيرها أمر بديع • وعمل انسانى عجيب ولكن له أسبابه ومقدماته العلمية التى يستطيع الطيران بها فى الجو كل من يعرفها ويعرف طريقة استخدامها فى ذلك •

أما الطيران من غير تلك الأسباب والمقدمات • فليس فى مقدور أحد من الناس • وعلى هذا الأساس يكون الفصل بين المعجزات وبين كل غريب عجيب من المبتكرات والمخترعات التى تنبنى على قوانين علمية • وأفكار واستنباطات انسانية •

ويصور العلم المسألة على الصورة المادية المنطقية التالية :

المسافة بين البيت الحرام بسكة وبيت المقدس بفلسطين تقرب من ١٥٠٠ كم ومثلها للعودة يقطعها الراجل فى ٣ شهور والابل فى نحو شهرين والسيارات فى أسبوع أو أسبوعين والطائرات فى ساعات •• ولم يكن فى زمن الرسول سوى الجبل • فلا بد من معجزة •• والله العظيم يدعونا أن نفقه من أسرار الوجود ما نستطيع فى أرض وسموات • فى مادة وحياة « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شئ » • أما عباد الرحمن الكرام فأولئك الذين جاء فى وصفهم : « والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليه ساء وعيانا » •

واستجابة لأمر الله العظيم نستهدى حكمته العالية فى فهم آية من آيات ربنا الكبرى عن بصيرة ويقين ••

ان معجزة الاسراء فى هذا المدى برسول الله الكريم جسدا وروح أمر يقبله العلم الحديث • حيث يسلم بجواز قطع هذه المسافة بهذه السرعة دون خطر على الجسد الحى وطائراته اليوم وصواريخه تقطع بالانسان ما هو أبعد من ذلك ••

فان قيل : ان رسول الله ركب البراق فانطلق به ، اكتفى العلم الحديث بهذا الانطلاق • وان كان لا يعرف البراق •• وبعد : فحديث الاسراء أجيب

عليه المسلمون. وأعرض عنه الزنادقة الملحدون : « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » .

أما المعراج فهو قضية العقل والبصيرة حقا • فلنستفت في العلم •
ان المعراج صعود الى السماء الأولى حتى السابعة حتى سدرة المنتهى
التي عندها جنة المأوى •

فماذا يقول العلم في البعد بين الأرض والسماء الأولى !؟

علم الفلك والطبيعة لا يعرفان عن السماء أكثر مما في كتب اللغة
— السماء — سو وارتفاع وكل ما علاك فهو سماء • ومن ثم فليس في
مقاييسها ادراك حقيقة عليا محيطة بالوجود المادي منفصلة عنه اسمها
• سماء •

بيد أنها يقولان : ان سعة الكون المادي من نجوم ومجوعات
شمسية ومجرات وسدم تبلغ في حد علنا ومراسدنا وعدسات مصوراتنا
تبلغ ١٠٠٠ مليون سنة ضوئية • فقد سجل مرصد جبل بالومار بكاليفورنيا
مجرات تبعد عنا بمقدار بليون سنة ضوئية • ومعناه ان الضوء الذي ينطلق
بسرعة ٣٠٠ ألف مليون سنة في فضاء شاسع لا ندرى له حتى اليوم نهاية
ومع ذلك فالعلم يلم بكون فسيح أرحب من هذا بكثير • فعدالة
رياضية عند انيشتين تحسب لاتساع كرة الكون المادي ما يقرب من ٣٥
بليون سنة ضوئية لنصف قطرها • أي أننا نعيش في كون مادي يتسحح إلى
٧٠ ألف مليون سنة ضوئية • • وقد يكون تسحح من ذلك •

ونسمة نظرية أخرى تقول : اننا ان نرى من هذا الكون المادي كتب
٢٠٠٠ مليون سنة ضوئية أي بليون سنة من ٣٥ بليون لنصف القطر
تقول المعادلة الرياضية •

أما سبب ذلك : فهو ما سجلته المراصد من كونها لا ترى من
عنا بسرعات جبارة حتى تصل الى سرعة تعادل سرعة الضوء على مدى ٣٥٠
مليون سنة ضوئية • حيث تتعادل السرعتان • سرعة تباعد المجرات •

مقدم الضوء اليها فتتلاشى رؤيتها وتسجيلها على هذا المدى فتصبح نهاية معرفتنا عن كرة الكون المادى لملايين الملايين من الشسوس والنجوم والمجرات والكواكب والأقمار عند ٢ مليون سنة • ويظل ما بعدها مجهولا لنا تماما • والعلم في حيرة من تعليل نظرية تباعد هذه النجوم بهذه السرعات الجبارة والمطرده •

ومن ثم فالعلم المادى لا يعرف - - - بتقاييسه الحالية - سوى جزء يسير من الكون المادى ولا يدري شيئا عن كون مستقل اسمه السماء • ذلك الشيء الذى ان كان فهو من فوق هذه المجرات والنجوم متساميا بطبيعته عن المادة ومجالاتها وأفلاكها •

ونرى أن نستفتى في صنعة الوجود كتاب الوجود اتاما لصورة الوجود فأين وضع السموات كما يقول القرآن العظيم ؟ يحدثنا القرآن عن الكون المادى بنجومه ومجراته التى لا نجد ما نراه ومما يخفى عنا سواء أرىنا مليون سنة ضوئية أو رأينا غدا بليون سنة ضوئية أو نراه بعادلاتنا الرياضية ٧٠٠ بليون سنة لكرة الكون المادى •

يقول القرآن ان كل هذه الأجرام انما هى ثريات لزينة السماء الأولى التى تحيط بالكون المادى كله ثم من بعدها ست سموات طباقا فى هذا الجلال والجمال بل أروع • تسكنها الملائكة خلق النور • يسبحون بحمد الله آناء الوجود لا يفترون • يسبحون فى الكون المادى كله بأمر الله لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون • والآيات فى ذلك كثيرة وانقرأ منها : «تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير» «الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور» « واولقد زيننا السماء الدنيا بصايبح » « والصفافات مسفا » « انا زيننا السماء الدنيا بزينة الكواكب » « ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين • فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بصايبح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم » (فصلت) • فالسمااء الدنيا اذن زينتها القدرة الربانية بصايبح الشسوس والكواكب والأقمار ••

ثم يحيط بها ست سموات ما بين كل سماء وسماء كما بين الأرض والكون المادى والسماء الدنيا ••• و « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » • « له ما في السموات وما في الأرض وهو العلى العظيم • تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض إلا ان الله هو الغفور الرحيم » (الشورى) •

وفى ذلك يقول الرسول الكريم : أظت السماء وحق لها أن تظ • ما فيها موضع قدم الا وفيه ملك راعع لله أو ساجد • أما الملائكة فهم خلق النور كما يقول الحديث الآخر •

ومعنى هذا أننا وبين السماء الدنيا • نحو - سكان الكون المادى - بلايين السنين بسرعة الضوء فما بالنا بالسموات السبع فسفرة المنتهى التى عندها جنة المأوى ؟ ومن ثم فليس فى مقاييس العلم المادى ولا قوانينه ما يفسر معجزة المعراج • بالجسد الشريف • وهنا يتدخل الصوفية الكرام ليقدّموا حلاً ملخصه •• أن الجسد الشريف قد تحول الى نور حتى يتكيف مع طبيعة السمو الى ما فوق السموات •

والعلم الحديث يسلّم بأن الجسد الشريف من النور • بل انه يقول : أن كل الكون المادى من النور • ذلك لأن الأرض كانت قطعة من الشمس أو من نجم آخر • والأرض والشمس تشمل نيفا وتسعين عنصراً غازياً وسائلاً وجامداً • وكل العناصر مكونة من ذرات لا ترى باكبّر المجاهر • وكل ذرة عبارة عن مجموعة شسية كجيوغتنا الشسية مكونة من شحنة كهربية موجبة فى المركز تدور من حولها الكترونات - شحنات سالبة - ومعنى ذلك أن طبيعة كل مادة من الكهرياء هى النور ••• ويزيد على ذلك ما رأى

ان تحويل ذرات المادة الى اشعاع ونور ينطلق بسرعة الضوء • المسلم به • فظاهرة التليفزيون والرادار ونقل الصور بالراديو الى القمر والمجالات • انما يتم بتحويل ذرات الصور المادية فى القوتوغراف (الكاميرا الالكترونى) الى ذبذبات كهربية تنطلق عبر الأثير ثم تجتمع فى جهز الاستقبال (على شاشة التليفزيون أو الرادار) •

ومن قبل كانت معجزة النبوة الكريمة لدى سليمان - عليه السلام -
اذ طار عرش بلقيس من اليمن الى فلسطين بنفس هذه القوانين • بسرعة
الضوء بعد تحويله الى ذراته الأولية • فسجد سليمان شاكرًا لله أنعمه
وقضله •

وقص القرآن ذلك بعدها بعشرات القرون ومضى على المسلمين أربعة
عشر قرنا فما دروا - يقينا - هذه القوانين • وما حاولوا أن ينظروا في
ملكوت السموات والأرض بالعلم والمعرفة • فسبقهم اليها غيرهم • ولكنها
اليوم تعود اليهم بعون الله وتبصرهم في آياته •

ومن ثم فهم يتطلعون مستقبلا الى نقل صور كاملة بل قطعًا مجسدة
بل مناخد وأرائك عبر الأثير بعد تحويلها الى ذبذبات كهربية أى الى ذراتها
الأولى النورانية • • وتشاهد أوروبا اليوم في السينما العلمية شرائط لهذه
النظرية • وشوهدت كذلك عندنا •

بيد أن العلم ان سلم بنقل المادة المجسدة بعد تحويلها الى ذبذبات
كهربية فهو يرفض ذلك التفسير بالنسبة للجسد الحى الذى لا بد أن تفارقه
الحياة عند هذا الحد فضلا عن أنه لو قد تم ذلك لاحتاج الانتقال فى الكون
المادى فقط بسرعة الضوء ٧٠ بليون سنة • فضلا عن السموات العلاء
والعودة منها • فرأى الصوفية وان كان مسلما من تحويل الجسد الشريف
الى نور فهو غير مسلم لنهايته •

ويرى علم النفس أن المعراج رؤيا مع الحس ومن فوق الحس • فى
ساعة من الصفاء النفسى الرفيع حلقت فيها القوى الإدراكية والخيالية
والتصويرية الجبالية الى آفاق عالية فى لحظات من اليقظة الواعية • فمرت
بهذه المشاهد الرائعة التى كونت قصة المعراج والاسراء •

ولا شك أن الرسول الكريم • نفس تسامت حتى أصبحت الأرض
والسموات بالنسبة لها دوائر صغيرة لا تسأ كيان نفسه • فتعالى عن كل
ذات فتبها لهذه الرؤيا فى آفاق من النور العالية • • مناما أو بين المنام
واليقظة • • وأهل التفسير الظاهرى قد يسهم هذا الرأى يهشون له

ليكونوا بعيدين من أعباء التحليق في سموات الفكر والبصيرة • ويقرب
منه تصور المعتزلة وعليه بعض الصحابة • • وبمثله يقول الاستاذ محمد
حسين هيكل في كتابه « حياة محمد » حيث يرى أن لحظة من لحظات
الصفاء النفسى أحاطت نفس « محمد » العظيم بالوجود كله أرضه وسواته
وما فوق سمواته • وبالزمن سابقه ولاحقه • حتى شاهد الأنبياء قد تجسعوا
من حوله يصلى بهم ويصعد اليهم في سمواتهم ويشاهد مستقبل الأحداث
كما بصوره له القرآن العظيم • •

ولقد لخص المستشرق « درمنجم » قصة الاسراء والمعراج من كتب
السيرة ما ترجمته :

في منتصف ليلة بلغ السكون فيها غاية جلاله • وصتت فيها ظيور
الليل • وسكنت الضواري وانقطع خريز الغدران وصفير الرياح • استيقظ
محمد على صوت واضح كالطبل : أيها النائم قم ! وقاه فإذا أمامه الملك
جبريل يلسع في الظلام الدامس • وكان النور يشع من أجنحته التي كانت
من كل الألوان ترتعش • ومن وجهه الأبيض كيباض الثلج مرسل شعره
الاشقر واقفا في ثيابه المزركشة بالدر والذهب • وكرر الملك نداءه • وانصرف
لمحمد أن يتبعه الى الطريق وكان أمام الدار دابة عجيبة هي البراق •
أجنحة كأجنحة النسر • انحنت أمام الرسول فاعتلاها وانطلقت به الى
السهم فوق جبال مكة ورمال الصحراء • • الخ !

وها هو « ر.ف. بوداي » يقول في كتابه « الرسول حياة محمد »
عن الاسراء والمعراج (ص ١٢٩) : وعلى الرغم من أن الأمر يدعو الى
التسلية الا انه لا اثر له في الاساءة • فقد كانت هذه ليلة « ليلة الاسراء »
وقصة الاسراء تظهر في معظم الكتب التي كتبت عن « محمد » في كل زمان
ومتبانة • وان بعض ما جاء بها ملهم وبعضه ملئ بالاحترار والحماس •
عديم الحجة • • وقال : ودخل محمد المراحة عند العس • •
وروحه مثقلين مما لاقى من جهد في سحابة يومه • فقام فقام فقام على
سجادة ابن عمه « المطعم بن عدي » • وتحطم السكون الثقيل فجأة • وبلغ
أذنيه صوت واضح كالطبل : أيها النائم قم • وقام فإذا أمامه الملك جبريل

يلسع في الظلام الدامس • وكان النور يشع من أجنحته التي كانت من كل الألوان ترتعش ، ومن شعره الأبيض بياض الثلج، ومن ثيابه المزركشة بالدر والذهب • وكرر الملك نداءه • وأشار لمحمد أن يتبعه الى الطريق • وكان أمام الدار دابة براقه المظهر كجبريل • لها أجنحة براقه كأجنحة النسر • وكانت عيناها كالعقيق • وكان رأسها جميلا • وكانت تشبه الانسان • وقدم جبريل الدابة الى محمد وسأها البراق • وصهلت البراق • ثم سمحت لمحمد باعتلاء صهوتها • وانطلقت به تسابق الريح ••• الخ •

ولم يعرض النبي - صلى الله عليه وسلم - في حديثه عن أمر الاسراء حينما تحدث به الى قريش عند الكعبة كما علمنا - لأمر المعراج • وهو مسعود الى السماء في تلك الليلة التي كان فيها الاسراء •

والسر في ذلك الاقتصار هو أن المعراج ما كان يسكن • في أغلب الأمر • أن يصدق به رجل مشرك أو كافر لا يؤمن برسالة الرسول • ولا يدعن لما يدعن له المؤمنون من أن الرسل معصومون من الكذب والافتراء • فالتحدث الى أولئك المشركين عن المعراج لا تكون له حينئذ جدوى • ولا يفيد أية فائدة • بل قد يكون من نتائجه أن يزيدهم كفرا الى كفرهم • وامعانا في شركهم •

فانه ليس لأمر المعراج شواهد ودلائل مادية • يسكن أن يدلى بها اليهم • ليثبت لهم حقيقة ما يقول • سواء آمنوا بعد ذلك أم لجوا في العناد والاباء • كما كان في الاسراء •

لكن الرسول - صلى الله عليه وسلم - تحدث في غير ذلك الموضع عن المعراج : حدث به أصحابه المؤمنين • وأخبرهم بما شاهده في السموات من بديع الآيات • وما تلقاه من الأمر الالهي بفرض الصلوات الخمس اليومية •

هذا والقرآن الكريم قد اشتملت آيات منه في سورة النجم على ما يثبت المعراج : ذلك قوله تعالى : في الاخبار عن رؤية النبي - صلى الله عليه وسلم - لسيد الملائكة جبريل عليه السلام : « ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى • عندها جنة المأوى • إذ يغشى السدرة ما يغشى • ما

زاغ البصر وما طغى • لقد رأى من آيات ربه الكبرى « • • أى أن الرسول
 صلى الله عليه وسلم - رأى جبريل مرة أخرى في صورته الحقيقية
 الملكية في السماء عند سدرة المنتهى • بعد مرة أولى رآه فيها على تلك
 الصورة • وكانت رؤية عينية بصرية كما نبأنا بذلك قوله تعالى : « ما زاغ
 البصر وما طغى » •

وبعد .. فحديث الاسراء أجمع عليه المسلمون ، وأعرض عنه الزنادقة
 الملحدون : « يريدون ليظفوا نور الله بأفواههم • والله متم نوره ولو كره
 الكافرون » •

واقدم أذاع الامام الأكبر المغفور له الشيخ « محمود شلتوت » شيخ
 الأزهر كلمة في ذكرى الاسراء والمعراج قال : انه حادث اسلامى كان له
 أثره في سير الدعوة المحمدية • وفي نفس الرسول وثقوس المؤمنين •
 وأعلن أن عبرة الاسراء توحى للسليين بضرورة حماية الروح وتطهيرها
 من بذور الشرك والوثنية والظلم والفساد • وبخاصة في مبدأ الاسراء وهو
 المسجد الحرام وبيت المقدس الذى تألقت عليه قوى البغى والعدوان متشكلة
 في اسرائيل •

ودعا الى توحيد كلمة المسلمين لتطهير أرض الله مقدسة منهم وذل
 ان حادث الاسراء يوحى للسليين • • بسببته وهو « المسجد الحرام »
 ومنتهاه وهو « المسجد الأقصى » • يوحى اليهم بتذكر مهابط الوحي
 الأول الذى تلقاه ابراهيم واسماعيل ، ومهابط الوحي الثانى الذى تلقاه
 « موسى وعيسى ومحمد » • ويوحى أيضا بان كل مهابط الرسالات
 الالهية التى جاء بها « محمد » تكسبها والهيئته عليه • • كما يوحى بان
 الرسالات - - وان اختلفت زمنيتها وتعددت رسالتها - - واحدة في دعواتها
 وغايتها ، وان جميع الرسل الذين اصطفاهم الله لتبليغ تلك الرسالات
 بيت واحد • يضع آخر ائمة فيه خاتمهم محمد بن عبد الله صلي الله عليه
 والسلام وصاحب الاسراء والمعراج •

واذن فلا بد أن يخفق عليها دائما علم التوحيد والاسمان على المنجده
 الذى جاء في رسالته عليه السلام • ولا بد أن تطهر رقعته من بدو الشرك

والوثنية والظلم والفساد • وان يعلو فيها سلطان الحق وعدالة السماء والعدل وحرية الايمان والفكر والعسل : «يايها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » .

واذا كان المبدأ -- وهو المسجد الحرام -- يجب على المسلمين تطهيره وتطهير اقليمه مما تأباه الرسالة الالهية -- وقد طهروها فعلا -- فان منتهاه وهو المسجد الأقصى واقليمه يجب كذلك تطهيرها مما تأباه الرسالة نفسها : «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر • ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله • ولا يدينون دين الحق » •

ولعل هذا الايحاء كان أقوى ما حفز المسلمين الأولين الى العسل على رفع راية الاسلام على بيت المقدس واقليمه بعد أن رفعوها على المسجد الحرام واقليمه .

ولعل حديث سورة الاسراء عن كتاب موسى : « وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني اسرائيل » وعن افساد بنى اسرائيل فى الأرض وخروجهم على مقتضى كتابهم « وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين » • وعن وعيدهم فى الآيات نفسها بالتكليل والعذاب اذا استسروا على الافساد أو عادوا اليه : « وان عدتم عدنا » • وأخيرا عن شأن القرآن ومركزه فى هداية الله التى ختم بها رسالاته الى الأرض : « ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » •

لعل حديث السورة عن كل هذا بعد حديثها عن الاسراء مباشرة من أوضح ما يدل على هذا الايحاء ويرشد اليه •• وما حلقات التاريخ • وأحداث العدوان التى مرت ببيت المقدس واقليمه الى عيد النصر القريب (نصر بورسعيد) (٢٣ ديسمبر) ، ونهضة المسلمين فى مكافحتها الا شاهد عدل على صدق هذا الايحاء وتوجه النفوس الى تليته فى كل عصر وكل مكان •

واذن فجدير بالمسلمين اذا أرادوا أن ينتفعوا بذكرى الاسراء • وقد قص عليهم القرآن ما قص ، ورأوا بأعينهم من أعوام مضت ، أن الشياطين

عادوا الى ميدان الاسراء والمعراج ليلعبوا فيه من جديد دور الافساد الذى ورثوه عن أسلافهم وأخذوا يتكثرون ويتعاونون — من هنا وهناك — على تثبيت أقدامهم فى أرض المسلمين •• أرض بيت المقدس وضواحيه • بعد سلبه من أهله • وقد تسللت منهم اليهم أفراد أعماهم الهوى وأضلتهم الشياطين وغرتهم الدنيا بزخرفها •

جدير بالمسلمين أن تنفعل نفوسهم بهذا الايحاء الذى تسليه عليهم ذكرى الاسراء ويرشدهم اليه كتابهم • عليهم أن يتنبهوا الى هذا الايحاء ويسيروا فى طريقه كما سار فيه أوائلهم من قبل • فيوحدوا كلمتهم ويستردوا مكاتبتهم • ويظهروا أرض الله المقدسة من عبث المفسدين ويزيلوا عن أنفسهم تلك الوصية التى كادت تقطع نسبهم بأبائهم الأولين ومكنت منهم أعداءهم الذين توعددهم الله بقوله : « وان عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا » • (نشر بجريدة الجمهورية فى : ديسمبر ١٩٦٢) •

الفصل السادس الرسول والمستشرقون

قوبل رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر دعوته بكثير من الاعراض وكثير من النفور والانكار . قوبل بكثير من الايذاء وانقلب عليه سفهاء القوم يسبونونه ويشتمونه ويرمونونه بقوارص الكلم وزواجر اللفظ دون تردد ودون احجام ودون مراعاة ولا هيبة لمقامه الكريم . ولكن يشاء الله ان يعلى كلمة الحق وينصر رسوله المختار . ويجعل كلمة الذين آمنوا هي العليا . وكلمة الذين كفروا هي السفلى . فلينتشر الاسلام وترفرف ألويته الخفاقة على شتى البقاع والأصقاع ومختلف الأقطار والأمصار . يجد أناسا يلتفون حوله ويقدررون دعوته ويقدمسون رسالته بل يجد نفرا من المستشرقين ؛ قتلوا الأديان بحثا وتمحيصا ودراسة وتحليلا . ثم خرجوا من ذلك بنتيجة طيبة تعزز كلمة المسلمين وتنصر دين الاسلام على العالمين .

ومن هؤلاء المستشرقين الكاتب الانجليزي المعروف « كارليل » الذي يقول : انه لا يمكن ان يكون « محسد » كذوبا ، فانه ان كان كذلك فلا يستطيع ان يأتي بشئ هذا الدين العجيب ، والله ان الرجل الكاذب لا يستطيع ان يبني بيتا من اللبن اذا لم يكن عليا بسواد البناء على اختلاف انواعها . فبا بالك بسواد بناء صرح شامخ البنيان مدعم الأركان مثل دين الاسلام الذي ظل على قوته وعظته قرونا ضواليا .

ومن هؤلاء المستشرقين أيضا الكاتب الانجليزي المشهور « هـ . ج . ويلز » الذي قال : ان من أدفع الأدلة على صدق « محسد » كون أهـ وأقرب الناس اليه يؤمنون به فقد كانوا مطلعين على أسرارهم ولو شكوا في صدقه لما آمنوا به .

ويقول « برناردشو » : اننى أعتقد أن رجلا « كمحمد » لو تسلم
زامام الحكم المطلق فى العالم أجمع لتم له النجاح فى حكمه ولقاده الى الخير
ولحل مشاكله على وجه يكفل للعالم السلام والسعادة المنشودة .

والواقع أن برنارد شو اذ ينطق بهذه الشهادة انما يسجل حقيقة
واقعة . وانما يرد الحق الى ذويه . والقوس الى باريه . رغم أن الجبيع
يعرف عن شو سخريته اللاذعة . وتهكسه المرير الذى لا ينجو منه شىء
حتى الدين ورجاله .

وقال « فنلى » فى كتابه « اليونان تحت حكم الرومان » : ان نجاح
« محمد » كشرع بين أقدم الأمم وأثبت البلدان قدما فى القانون مدى
أجيان ضويلة فى شتى نواحي الهيكل الاجتماعى دليل على أن هذا الرجل
الخارق قد كوز من مزيج من كفايات مستازة !

وقال « كارليل » أيضا : تريد دليلا من يدعى لك أنه بناء . أقوى من
أن يبنى لك دارا تسع الملايين الكثيرة من الناس وتدود قسرون ضويلة
لا يعترىها تصدع ولا يعنورها أقل خلل . . كذلك هل يطلب فاب من مدعى
النبوة دليلا أقوى من أن ينشر دينا بين ملايين من البشر يسسرون عليه
قرونا ضويلة ويتحسون له تحسا كبيرا ؟

« فمحمد » قال بأنه رسول من عند الله . وبرهن على صدق قوله
بدين نشره فى الناس أخذ به مئات من الملايين ومضى عليهم فى ذات قرون
ضويلة وهم يحبون دينهم هذا ويتحسون له كبر تحسن . فنادا براد من
الأدلة على نبوته بعد ذلك ؟ .

لا فليعلم الناس أن التعاليم كأوراق « البنكنوت » فاصدفة مبهمة
تداول بين الناس ولا تشير أقل شبهة . والزائفة منها تخدع بعض الناس مرة
أو مرتين ثم يفتضح أمرها وتعرف أنها زائفة فتسرق كل مسزون .

وذكر المؤرخ الكبير « جوستاف لوبون » عن التبركى لدرهم « المدعى »
المحمدية : حسب هذا الكتاب جلاله ومجدا أن الأربعة عشر قرنا الى موت
عليه لم تستطع أن تجفف ولو بعض الشىء من أسلوبه الذى لا يزال غطس

كان عهده وعهد رسالته بالوجود أمس • وقال العالم الفرنسي « بلانشيه » :
ان الفتى « محمدا » يعد من أبرز وأشهر رجال التاريخ • فقد قام بثلاثة
تعال عظيمة دفعة واحدة • وهى أنه أحيا شعبا وأنشأ امبراطورية وأسس
دينا • وقال الشاعر الفرنسي اللامع « الفونس لامارتين » الذى عرف بحبه
لمشرق وتعنته فى الدراسات الشرقية والاسلامية :

ان حياة مثل حياة « محمد » وقوة كقوة تأمله وتفكيره وجهاده. ووثبته
على خرافات أمته وجاهلية شعبه • وبأسه فى لقاء ما لقيه من عبدة الأوثان •
وايانه بالظفر • واعلاء كلمته ورباطة جأشه لتثبيت أركان العقيدة
الاسلامية • ان كل ذلك أدلة على أنه لم يكن يضر خداعا أو يعيش على
باطل • فهو فيلسوف • وخطيب • ورسول • ومشرع • وهادى الانسان الى
العقل • وناشر العقائد المعتولة الموافقة للذهن واللب ومؤسس دين لا فرية
فيه ولا صور ولا رقيات • ومنشئ عشرين دولة فى الأرض وفتح دولة فى
السماء من ناحية الروح والفؤاد • فأى رجل أدرك من العظمة الانسانية مثل
ما أدرك • وأى انسان بلغ من مراتب الكسان مثل ما بلغ •

وقول « طوراندرية » و « جورج مارسيه » فى كتابهما « العالم
الشرقى » عن محمد (صلى الله عليه وسلم) : كان شجاعا يخوض المعركة
بنفسه ليرد الثبات الى قلوب الذين يضعفون • وكان رحيفا بالضعفاء يؤوى
فى بيته عددا كبيرا من المحتاجين • وكان مع احتفاظه بهيئته كاملة • بسيط
الحركات لا يتكلف شيئا • بشوشا سهل المعاملة • رقيق الحاشية • لا يثير
غضب أهلى الفضول والساحة • وكان محمد رجلا • وكان فيه لا شك كثير
من الخلال التى اتسم بها رجال عصره • ولكنه حمل الى هؤلاء الرجال مثالا
رفيعا فى الدين والأخلاق وسوا سوا بالغا عن الآراء القديسة التى كانوا
يرزحون تحت ثقلها وهو إذ جمعهم عصابة واحدة تحت راية ذلك المثل الرفيع
قد صنع منهم قوة قدر لها فيما بعد • أن تهز أركان العالم القديم •

كما وصف الكاتب الفرنسى « اتيان دينيه » مولد الرسول الكريم
فى كتابه « حياة محمد » • • ولم يغفل اعجابه بالاسلام وتعاليمه حين قال :
المح الآن شعاعا ورديا يتدفق فى الأفق والنجوم يبهت لونها • ويترق سمر

لحن موسيقى يتردد صدها في هدأة الليل — الله أكبر لا اله الا الله ! محمد رسول الله ، حي على الصلاة . حي على الفلاح — والألحان الأخيرة من هذا النداء الذي يرسله المؤذن ترتفع من المنارات الشاهقة الرشيقة فوق أعالي البيوت • وذوائب نخيل الغابة ذاهبة الى حيث تغنى في جنبات الصحراء اللانهائية . وفي كل يوم كلما غيرت الشمس من ألوان ضوئها في فجرها الأرجواني • وفي ظهيرتها المحتدمة • وفي عصرها المذهب وفي مغربها المخضوب بصفرة الحزن على فراقها • وفي تكفيها أخيرا بأوشحة من ظلام الليل يرى المسلمون جميعا أنه من المحتم عليهم أن يتجردوا من أعمالهم وشواغلهم • ليس فقط في المساجد • بل أيضا في البيوت • وفي الشوارع والأسواق . وفي الحقول والصحارى . وفي كل مكان لكي يسجدوا مبيض الخير جل سناه ..

ولقد أثبت المؤتمر الوطنى التاسع عشر لمكافحة المسكرات الذى عقد فى مدينة « انفرس » ببلجيكا منذ سنوات صدق الدعوة المحسنية وحكمة الاسلام فى تحريم الخمر . اذ وقف أحد أعضاء المؤتمر الدولى وقال : ان جزيرة ايسلندة • وهى من أشد البلدان بردا • كان أهلها يستعينون على مكافحة البرد بتعاطى المشروبات الروحية • فكثرت بينهم الوفيات الى حد أقلق بال ولاة أمورهم فأنفوا لجنة لتبحث فى الأمر وتعرف أسبابه فأثبتت هذه اللجنة أن كثرة الوفيات ترجع الى أن القوم يستنفذون حرارة أجسامهم بما يتعاطونه من الخمر مما تعجل بوفااتهم لانتفاء الحرارة تدريجيا من أجسامهم •

كما نهض عضو آخر من أعضاء هذا المؤتمر وذكر أن الدكتور « سكوت » ورفاقه حين ذهبوا فى منقاد لارتباد القطب الجنوبي أدرك سكوت سوء تأثير الخمر فأوصى أصحابه ألا يشربوا خمرًا لئلا يمتنع مناعة أجسامهم فلا تقوى على تحمل البرد الا أن بعض رفاقه لم يسمعوا الى نصيحته •• وتجرعوا بعض قداح من الخمر • حدث النتيجة كما دونها الدكتور سكوت فى مذكراته أن الذين اتبعوا سبيله • واجتنبوا شرب الخمر بتاتا نجوا من الموت دون غيرهم •

وهكذا نجد بعض المستشرقين وعلماء الغرب يؤيدون الدعوة
المحمدية • ويقدرّون محمدا ودعوته بطريق مباشر أو غير مباشر • ولعمري
أن هذا النصر العظيم للإسلام يحق له أن يتيه بذكره على مر السنين والأيام •

وقد كتبت دائرة المعارف البريطانية Encyclopaedia Britanica
الطبعة الحادية عشرة : كان « محمد » أظهر الشخصيات الدينية العظيمة •
وكثرها نجاحا وتوفيقا • ظهر النبي في وقت كان العرب فيه قد هوروا الى
الحضيض • فما كانت لهم تعاليم دينية محترمة • ولا مبادئ مدنية أو
سياسية أو اجتماعية • ولم يكن لهم ما يفاخرون به • من الفن أو العلوم •
وما كانوا على اتصال بالعالم الخارجي • وكانوا مفكرين • لا رابض بينهم • كل
قبيلة وحدة مستقلة • وكل منها في قتال مع الأخرى • وحاولت اليهودية أن
تهديهم فما استطاعت وباءت محاولات المسيحية بالخيبة • كما خابت جميع
المحاولات السابقة للإصلاح • ولكن ظهر النبي « محمد » الذي أرسل
هدى للعالمين • فاستطاع في سنوات معدودات أن يقتلع جميع العادات
الفسدة من جزيرة العرب • وأن يرفعها من الوثنية المحضة الى التوحيد •
وحوّل أبناء العرب الذين كانوا أنصاف برابرة الى طريق الهدى والفرقان •
فأسبحوا دعاء هدى ورشاد • بعد أن كانوا دعاء وثنية وفساد • وانتشروا في
الأرض يعملون على رفع كلمة الله وعبدوا الله حق العبد • حتى فاقوا النساك
والزاهدين • ولكنهم كانوا يأخذون من الدنيا • فاذا ما أذن للصلاة تركوا
التجارة والبيع وتوجهوا الى الله رب العالمين • وكانوا يقضون القسم الأكبر
من الليل في عبادة وتسبيح • وكانوا خاشعين لله حتى فاقوا النساك المنقطعين
في الصوامع للتعبد • فسبوا بفضل الإسلام الى ذروة السمو الخلقى • وكانت
أعمالهم في دنياهم مصداقا لتقواهم • فاحتلوا مكانا مرموقا بين غزاة العالم
العظام • لقد ذاب الامبراطوريات العظيمة تحت حرارة ايسانهم كما يذوب
الجليد تحت حرارة الشمس اللافتحة • ولم يكتفوا بغزو الأقطار الشاسعة • بل
قاموا بركان دولة عظيمة دامت أكثر من ثلاثة عشر قرنا • قوية عزيزة
الجانب بغض النظر عن الأجيال التي تضععت أخيرا • لقد وصل المسلمون
الى ذروة السمو الروحي • والرخاء الاقتصادي • وتثقفوا بعلوم الإسلام

التي فاض خيرها على العالم أجمع في ذلك الوقت ، والتي تغلغل ضوءها ليبدد دياجير الجهل المتفشى في كل مكان ، وانه لعجيب حقا أن يتم هذا في عشرين عاما فقط . اذن لقد كانت تعاليم النبي سهلة من الميسور الأخذ بها ، وناجعة قاضية على جميع العلل الاجتماعية والأمراض الخلقية . وليس الطبيب البارع من يدعى أنه الطبيب الأول ، بل الطبيب البارع من يشفى أكبر عدد من الحالات المستعصية . كذلك المصلح الناجح ليس من يدعى أنه المصلح الأول بل من يقوم باصلاح العالم فيهديه الى الصراط المستقيم . وهذا هو الذي رفع النبي فوق هامات المصلحين والهادين في أعين المفكرين من ذوى العقول الناضجة .

والميزة الثانية التي تجعله مبرزا بين المصلحين والرسل . هي أنه أرسل الى العالم كافة . فان رسالته عالمية على عكس الرسل الآخرين . فقد أرسل كل رسول لأمة واحدة خاصة . وقد كان في يد كل منهم كتاب . ولكنه كان كتابا لشعب معين . وكان غرض كل منهم تطهير النفس الانسانية . ولكن كان عملهم محددًا . أما النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) فقد أرسل الى الناس كافة ، وكانت رسالته عالمية ، قال الله تعالى : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » . « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » و « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » و « قل يا ايها الناس اني رسول الله اليكم جميعا » .

هذا بعض ما جاء في عالمية رسالة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) . وانه ما أرسل الا هدى للعالمين . ويقول القرآن أيضا : « وما كنا نبيهم عليه من أجر ان هو الا ذكر للعالمين » .

وكانت البشرية فيما مضى منقسمة الى أقسام منفصلة . لا يوجد بينها . وكانت وسائل المواصلات جد محدودة . فما كان من المأمور في هذه الظروف أن تنتشر فكرة روحية بين الشعوب المتباعدة من الراسخ المنتظر أن تظل كل فكرة حيصة في موطنها . لذلك كانت هذه الفكرة مع الظروف . فكانت رسالة الرسل لشعبهم فقط المنفصل عن العالم . كما كانت كل رسالة تناسب الشعب الذي نزل له . وتتفق مع حاجته .

رسول منهم بما طلب منه • فدعا قومه لعبادة الله ، ولما كانت رسالتهم محدودة . فقد كانت قوتهم الروحية محدودة أيضا . فكان نور رسالة كل منهم يلمع فترة ، ثم يخبو رويدا رويدا حتى ينطفىء ، فتعود الحاجة الى ظهور نور يبدد ظلمات الجهل التي يتراكم بعضها فوق بعض • وهكذا ظهر الأنبياء بعضهم في اثر بعض . وكان من نتيجة ارسال كل رسول الى أمته، أن جهلت كل أمة بسن أرسل لغيرها من الرسل • فظن كل منها أنه شعب الله المختار . وان السماء خصته برحمتها • وساء ظن كل شعب بالشعوب الأخرى • فأراد الله أن يزيل هذه الفوارق بين الناس ، وأن يجعل الناس أمة واحدة • فأرسل نبيا عالميا الى الناس كافة وأمدّه بقوة روحية لا حد لها . فكانت عالمية في الزمان والمكان ، لتبقى الى أبد الأبدين ••

انتهت سلسلة الأنبياء المرسلين لهداية شعوبهم وحدها بظهور « عيسى ابن مريم عليه السلام » . وقد قال انه ما جاء الا لهداية أغنام بنى اسرائيل الضالة ، ولما حان وقت ارسال رسالته الى العالم أجمعين . أرسل النبي محمد صلى الله عليه وسلم فظهرت شمس الهداية في سماء بلاد العرب لتتير العالم كله ، وتهديه الى الطريق القويم .

أرسل الرسل وفي يد كل منهم مشعل من نور الهداية ، وما كانت هذه المشاعل لتضىء الا أفقا خاصا ، ولكن ما أشرقت شمس الاسلام ، حتى بهرت الناس هذه المشاعل وأصبح نورها وحده كافيا لانارة السبيل أمام العالم حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ومن الواضح استحالة الوصول الى هدف في الحياة ، ما لم يكن أمام أعيننا هذا الهدف واضحا جليا ، وكان هدف كل نبي هداية شعبه ، وضم الأفراد المتنافرين في جماعات متحابّة . وكان هدف النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، ضم هذه الجماعات في اخاء عالمي عام .

فقد كانت الديانات السابقة ترمى الى ضم الأفراد في جماعات ، وهي خدمة جليّة • أما محمد فقد كان يرمى الى جعل هذه الجماعات المتفرقة أمة واحدة •

وعلى ذلك فميزة النبي محمد الثالثة هي أنه أرسل ليهدى الناس كافة إلى دين الله على حين أن الرسل الذين أرسلوا قبله كانوا لهداية شعوبهم فقط .

كان هدف الرسالات السابقة السمو بطبيعة من طبائع البشر المتعددة . فكان كل نبي من الأنبياء آية في صفة واحدة من الصفات . ولكن النبي محمد كان آية في جميع السجايا وجاء ليسو بأخلاق الناس كلهم . وكان المثل الأعلى للانسان الكامل . كان كل نبي من أنبياء بني اسرائيل يتصف بصفة واحدة جليلة . أما النبي محمد فقد كان يتصف بجميع الصفات الحميدة . وجمع في شخصه جميع سجايا أنبياء بني اسرائيل . فكانت فيه رجولة موسى ، ورحمة هارون ، وصبر أيوب ، وجرأة داود ، وعظمة سليمان ، ووداعة يحيى ، وتواضع المسيح . وكان موسى ، أول أنبياء بني اسرائيل مثال القوة والعظمة . وكان عيسى آخر أنبيائهم . مثال التواضع والحكم والوداعة . وقد جمع النبي محمد هذه الصفات جميعا . وكانت ظاهرة فيه ظهورا واضحا . لقد كان كل نبي منهم يشع شعاعا في السجايا الحميدة . وكان محمد مجمع هذه السجايا فكان يشعها جميعا مجتمعة وهذه هي ميزته الرابعة .

لكل شخصية عظيمة ناحية تظهر فيها هذه العظمة . ومجال واحد لشاؤها . ولكن « محمد صلى الله عليه وسلم » كان عظيما في كل ناحية . وكان مجال أثره العالم أجمع . فلو كان مقياس العظمة هو اصلاح تسعب متدهور . فمن ذا يتناول الى مكان « محمد » انه سادامة متدهورة وانتشلتها من الجهل . ورفعتها الى أعلى عليين . وجعلتها مشعلا للمدنية والعلم والعرفان .

ولو كان مقياس العظمة في توحيد البشرية المتفككة الأهمسال . فس أجدر بهذه العظمة من « محمد » الذي جمع شمل العرب الذين كانوا في متافرة متشاحنة . وجعلهم أمة عظيمة جديدة بالوقوف في « حجة الوداع » الامبراطوريات يومئذ . ولو كان مقياس العظمة هو اقامة حجاب سماء على الأرض . فمن ذا الذي ينافس محمدا . وقد محا الوثنية من الأرض محمدا . ورفع اسم الواحد النهار ! . ولو كان مقياس العظمة هو السمو الخلقى . فس

يقف بجوار محمد في السمو والرفعة والأخلاق بعد أن سماه أعداؤه قبل أصحابه « الأمين » ؟ ولو كان مقياس العظمة الانتصار ، ومد النفوذ والسلطان فمن يدانيه في هذا وقد كان يتيما وحيدا ، لا حول له ولا سلطان؟ فأصبح مؤسسا لامبراطورية بقيت ١٣ قرنا صامدة في وجه جميع المحاولات الخائبة التي بذلت للنيل منها ، ان هذا ليس له نظير في تاريخ البشرية جمعاء ولو كان مقياس العظمة هو الأثر الذي يخلد في النفوس على مر الأجيال ، فان « محمدا » فريد في هذا الباب ، فان ذكره لا زال حتى اليوم مستحوذا على أفئدة أربعمائة مليون من الناس في مختلف البقاع ، وانهم مرتبطون بفضله بروابط الاخوة ، بغض النظر عن أوطانهم وألوانهم وطبقاتهم ، وهذه ميزته الخامسة ولا شك .

وميزة محمد السادسة : أنه ليس وليد بيته ، فان الظروف كثيرا ماتكون عاملة على خلق ما نسيهم عظماء الرجال ، فاذا ما ظهر الجدل بين قوم من الأقوام ، عن حقيقة عليية ، فرعان ما يظهر بينهم فيلسوف يجلو لهم الحقيقة . واذا أصبح الغزو طبيعة عصر من العصور ، فرعان ما يظهر القائد المرتقب . كذلك الحال في مختلف النشاط الانساني كالشعر والفن والنحت والتصوير والموسيقى ، وحتى التعاليم الخلقية والنفسية والوعظية ، والبيئة والجو هما اللذان يسهدان الطريق لظهور الشاعر والمثال ، والمصور ، والموسيقى ، والواعظ ، وغيرهم . وان جل الزعماء الذين اشتهرت أسماؤهم ، ما ظهروا الا تحت ضغط الحاجة اليهم . فاذا ما اشتدت الحاجة الى بطل من الأبطال ، ظهر هذا البطل . ولكن ظهور النبي كان يخالف ذلك كل المخالفة . فسا كانت حالة بلاد الغرب ، وقت ظهوره ، تبشر بظهوره . بل ان ظهوره كان مضادا لحالة العرب ، آتئذ كانت الوثنية ، وتعدد الآلهة شيئا عاديا فاشيا ، ولكن النبي هاجم الأوثان وعباداتها ، وهو في السادسة عشرة من عمره . وكانت الخزعات ، والأمراض النفسية فاشية . فكان ذلك لا يبشر بظهور نور الحق . وكان المجتمع العربي غارقا في لجج الجهالة . أفكانت هذه الظروف مبشرة بظهور فيلسوف أعظم كالنبي ؟ . كان الأفراد في جميع بلاد العرب يفاخرون بالخروج على القبيلة ، وكانت كل قبيلة في قتال مع الأخرى . وكان

الجميع يكرهون فكرة الحكومة المركزية ، أو سلطان الحاكم • فهل كان من المرجو ظهور رجل يدعو الى الوحدة والحكم المنظم !. كانت الخسر والميسر ، واللذات الجنسية هدفهم • وكان وأد البنات فاشيا بينهم • وكانت النساء تعامل معاملة الأنعام ، أفكانت هذه الظروف مبشرة بظهور نصير المرأة ومحررها والمدافع عن حقوقها ؟ • مما لا شك فيه أن يد الله القوية . التي أودعت اللؤلؤ قاع البحار ، هي التي أخرجت هذا النور الساطع من وسط هذا الليل الحالك الظلام ليبدد سحب الفساد ، وليظهر العالم من أدراجه وأوزاره •

واليكم ميزة النبي العظمى ، ألا وهي وضع أساس للسلم العالمي . فهو لم يضع الأسس التي يعيش الأفراد بسقتضاها في سلام . جنبا الى جنب فحسب . بل عليهم كيف تعيش القبائل والشعوب في سلام . وعليهم كيف تعيش العقائد والأديان جنبا الى جنب في سلام ووثام . ألم يكن أعظم من ظهر على وجه الأرض ؛ ومع ذلك كان عظيمه التواضع . لا يعتبر نفسه إلا انسانا عاديا كسائر البشر : « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى انى » . كان يعتبر نفسه فردا من الأفراد . له ما لهم من حقوق . وعليه ما عليهم من واجبات . حقوق للجميع متساوية . وواجبات على الجميع متساوية . لا فرق بين كبير وصغير ولا ذكر وأنثى . ولا عربى وأعجى . وعهد هي غداة الاسلام .

وتلك هي أيضا آراء بعض كبار رجال الفكر العلمى فى رسول الاسلام صلوات الله عليه ..

قال الفيلسوف الروسى « تولستوى » : وخلاصة الديانة التي نادى بها محمد صلى الله عليه وسلم هي أن الله واحد لا اله الا هو . واللذات لا تجوز عبادة آرباب كثيرة وان الله رحيم عادل وان مصير الانسان العلمى معتمد على الانسان نفسه فاذا سار حسب شريعة الله وانتشر بأوامره اجتنب نفسه فانه يظفر بالقوة فى الحياة الدنيا ويؤجر اجرا حسنا فى الحياة الآخرة . كل شىء فى هذه الدنيا زائل ولا يبقى الا الله ذو الجلال والانه يمدد بالهدى بالله واتمام وصاياها لا يمكن أن تكون حياة حقيقية وان الله تعالى يأمر الناس بمحبته ومحبة بعضهم . ومحبة الله تعاون فى الصلاة . ومحبة الناس فى

مشاركتهم في السراء والضراء ومساعدتهم . والصفح عن زلاتهم . وان الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر يقتضى عليهم أن يبذلوا وسعهم لا يعاد كل ما من شأنه اثارة الشهوات النفسية ، والابتعاد أيضا عن الملذات الأرضية ، وانه يتحتم عليهم ألا يخدموا الجسد ويعبدوه بل يجب عليهم أن يخدموا الروح والجسد معا و « محمد صلى الله عليه وسلم » لم يقل عن نفسه أنه نبي الله الوحيد بل اعتقد أيضا بنبوة موسى وعيسى . وقال : ان اليهود والنصارى لا يكرهون على ترك دينهم .

وفي سنى دعوة « محمد صلى الله عليه وسلم » احتسب كثيرا من اضطرهاد أصحاب الديانات القديمة شأن كل نبي قبله نادى أمته الى الحق ولكن هذد الاضطهادات لم تكن عزمه . بل ثابر على دعوته فى قوة . وثقة وايمان لا مثل نه فى التاريخ . ومسا لا ريب فيه ان النبي محمدا من أعظم الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمات جليلة ويكفيه فخرا أنه هدى مئات الملايين الى نور الحق . والى السكينة والسلام . وفتح للانسانية طريقا للحياة الروحية العالية . وهو عمل عظيم لا يقوم به الا شخص أوتى قوة والهام وعونا من السماء .

« ما السير » (وليام ميوير) الانجليزى . فيقول فى كتابه « حياة محمد » :
ومن صفاته (عليه السلام) الجديرة بالتنويه والاحترام . الرقة والاحترام اللتين كان يعامل بهما أتباعه حتى أقلها شأنًا . فالتواضع والرفقة والانسانية وانكار الذات والساحة والاخاء تغلغلت فى نفسه ووثقت به محبة كل من حوله .

وقد قالت عنه السيدة عائشة : انه كان أشد حياء من العذراء فى خدرها . وكان اذا ساءه شئ تبيناه فى سارير وجهه أكثر من كلامه . ولم يسس أحدا بالضرر الا فى سبيل الله . ويؤثر عنه أنه كان لا يستنح عن اجابة دعوة الى بيت مها كان حقيرا . أو يرفض هبة مهداة اليه مها كانت صغيرة . واذا جلس الى صاحبه لم يرفع نحوه ركبته تشامخا منه وكبرا . وكانت له تلك الخلقة النادرة التى يجعل بها كل فرد من صحابته يظن أنه المفضل المختار . وكان يرثى كثيرا للشكالى والمنكوبين واليتامى ، كما كان سهلا لين العريكة

مع الأطفال وكان يشرك غيره في طعامه حتى في أوقات العسر والاملاق ، ويهتم جهد الطاقة بتوفير أسباب الراحة لأنصاره وتابعيه . وكان صديقا وфия . كما كان في ممارسته للحكم عادلا رحيمًا رفيقا حتى بأعدائه . وقد أصدر عفوا عاما عن مشركى مكة رغم ما لاقى منهم من سخرية واهانة واضطهاد . وتلك الخلال العالية هي جناس الفضائل الانسانية . وهى آية على أنه كان مؤسسا لديانة سماوية لا متطلعا الى ملك دنيوى .

ومما قاله « توماس كارليل » أيضا فى كتابه « الأبطال » لقد أصبح من أكبر العار على أى فرد متدين من أبناء هذا العصر أن يصغى الى تلك الاتهامات التى وجهت الى الاسلام والى نبيه • وواجبنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة ، فان الرسالة التى أداها ذلك الرسول الكريم ما زالت السراج المنير لنحو أربعمئة مليون من الناس •

والرجل العظيم فى نظرى مخلوق من فؤاد الدنيا واحشاء الكون فهو جزء من الحقائق الجوهرية للأشياء . ومحمد صلى الله عليه وسلم كان كذلك . وكان فوق ذلك الرجل العظيم الذى علمه الله العلم والحكمة . وهى كاسته إلا صوت صادق صادر من السموات العلاء .

والعالم الهندى « ت. ل. فسوانى » قال : تأملت أمر محمد صلى الله عليه وسلم فتعجبت من هذا الرجل العظيم الذى نشأ بين هؤلاء القوم المحلى النظام . الفاسدى الأخلاق العابدى الأحجار . هذا الرجل ، محمد صلى الله عليه وسلم وقف تقريبا وحده شجاعا متحديا غير هيب ولا وجل فى وجه التوعد بالقتل فسن أعضاء القوة التى قاد بها .. كان بطلا من أبطال الأساطير . ثم استسعوا لكلامه . فسن أين جاء سحر بيانه . ثم انظروا الى أممته التى ألف بين النبلاء الأشراف والسعاليك المنبوذين حتى مسره الخوفا وظلالا . فنحن هنا فى الهند الى الآن لا تزال تقتتل من أجل جوارس من بعض الآخر وعدمه . ولا تزال عاجزين عن اباحة الدخول الى بلادهم للمنبوذيين من أبناء جلدتنا .. من أين استمد محمد صلى الله عليه وسلم هذه حياته الغالبة ؟

الهند الآن مصابة بشرب الخمر والرجل محمد صلى الله عليه وسلم . كما تقول الكتب المقدسة اقترح مقاطعة الخمر وكل شراب مسكر فقام أصحابه وألقوا دنان الخمر فى أزقة المدينة وحطبوها تحطيمًا .

لقد كان تصرف محمد صلى الله عليه وسلم فى قومه كالتنويم المغناطيسى فمن أين جاءه سر هذه القوة ..؟

ألم تر أنهم كانوا أشتاتًا قد عستهم الفوضى فألف بين قلوبهم وجعلهم أمة واحدة وكانوا راسبين فى التوجس فرفعهم وآنقدهم ، وجعلهم عطاء أقوياء فى عين أمم الأرض كلها فصارت الأمة العربية صاحبة القيادة العليا فى التمدن وصارت اللغة العربية آخذة يمينها مصباح التهذيب والرقى ..

والتهذيب العربى هو الذى أنشأ فى آسيا وأوربا نشأة جديدة وانسانية جديدة ..

إليك يا محمد صلى الله عليك وسلم وأنا الخادم الحقيق أقدم اجلالى بخضوع وتكريم ، إليك أطأطىء رأسى . انك لنبى حق من الله .. قوتك العظيمة كانت مستعدة من عالم الغيب الأزلى الأبدى .

وهذه بعض من الآراء الصحيحة التى هى الى جانب الاسلام والحق .. وسنكتفى ببعض عبارات موجزة قيسية . شهد فيها أصحابها لرسول الاسلام . أو سجلوا فيها شيئًا من سبو كتاب الله « القرآن المجيد » ورفعته .. أو خلدوا بها جانبًا من جوانب عظمة الاسلام وامتيازه على غيره من الأديان الأخرى .. والفضل ما شهدت به الأعداء .

قال الأستاذ « كازانوف » فى الجزء الأول من كتابه « محمد ونهاية العالم » : ان كل تاريخ النبى العربى يدل على أنه عملى ، جدى ، محمود . انه حين اعترف الجميع بسلطانه المطلق . عرف كيف يستمع آراء الغير ويعترف بهفواته ويصلحها . ان محمدا وأصحابه قد أوضحوا بعناية تامة الفرق بين آرائه الخاصة وادراكاته للحياة الواقعية من جهة وبين تعاليم السناء من جهة أخرى .

وقد ظلت هذه الفروق خالدة في الاسلام الذي لا يخلط بين القرآن والسنة . بل انه في السنة نفسها يفرق بين ماله صفة الموحى به . وما هو شخصي « لمحمد » ..

وقال الأستاذ « كارادى قو » في كتابه « المحمدية » : ان محمدا أتم طفولته في الهدوء . ولما بلغ سن الشباب اشتهر باسم الشاب الذكى الوديع المحمود .. وقد عاش هادئا في سلام حتى بلغ الأربعين من عمره . وكان بشوشا تقيا لطيف المعاشرة . وقال أيضا : ان محمدا كان هو النبي والملمهم والمؤسس . ولم يستطع أحد أن ينازعه المكانة العليا . ومع ذلك فلم ينظر الى نفسه كرجل من عنصر آخر . أو من طبقة أخرى غير طبقات بقية المسلمين . ان شعور المساواة والاخاء الذي أسسه بين أعضاء الجمعية الاسلامية كان يطبق تطبيقا عمليا حتى على النبي نفسه .

وقال الشاعر العظيم « لامارتين » : ان محمدا نقل من اله . وأعظم من انسان عادى . أى أنه نبي .

وقد أسلم شاب استرالى واعتنق الاسلام . ولف كتابا قيسا عن الدين الاسلامى وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم .. يدعى الأستاذ « على أسير الدين » . يقول : صحيح ذلك الراعى . قوى العزم . تقى القلب . ضاهر النفس . دعاه قومه بالأمين . أحبه جده . وأوصى بذلك الصبي الجميل خيرا . فهو خير ثرة لخير شجرة نبتت بين ربوع قريش . وقريش هذه من أعظم قبائل العرب فى ذلك الحين .

ويقول الأستاذ « جارسان دى تاسى » فى كتابه « الاسلام » : ان محمدا ولد فى حضان الوثنية . ولكنه منذ نعومة أظفاره ظهر بعقيدة فذة . انزعاجا عظيما من الرذيلة . وحبا حادا للفضيلة . واخلاصا ونية حسنة غير عاديين الى درجة أن أطلق عليه مواضعه فى ذلك العهد اسم الأمين ..

ويقول الأستاذ « ديزيريه بلانشيه » أيضا فى صفحات كتابه « من جانب آخر ينبغى أن نذكر أن الدين الاسلامى مخالف كل المعادفة الهدد الأبراج المتشامخة التى تسقط من ضربة واحدة . لأن فيه قوة كافية وسلاية

ومتانة تجعله قادرا على المقاومة والاستمرار فيها . فبماذا يمكن أن يهاجمه النقد ؟ أفى تاريخ محمد ؟ انه تقريبا خال من الخوارق والمدهشات وليس فيه تقريبا من المسلمات الا ما فى الديانة الكاثوليكية من معتقدات طاهرة نقية . فهل توجد هذه الخوارق فى الشعائر والطقوس ؟

انك لو رجعت بالدين الاسلامى الى قواعده الأساسية لما وجدته قد زاد على الدين الفطرى الا نبوءات محمد . وادراكا حقيقيا وفهما صحيحا لمعنى القضاء والقدر . وهذا الفهم الصحيح للقضاء والقدر يعد صفة عامة لكل الذين يدركون بعقولهم ودقة شعورهم . انهم فى احتياج شديد الى أن يسيروا فى هذه الحياة بنظام دقيق . وخطة محكمة . أكثر مما يعد عقيدة من العقائد ، أو أصلا من أصول الايمان .

ان للسراء الحق المطلق فى اختيار أى مذهب من المذاهب الأربعة التى تسود فيها حرية الرأى بأجلى مظاهرها وأدق معانيها . أما العبادات والشعائر الدينية المستخلصة من اعتقادات ثانوية . فلا يمكن أن تقارن من جهة البساطة الا ببساطة البروتستانتية التى هى عبارة عن الاعتقادات الطاهرة النقية والأصول الصادقة الصحيحة التى هى فى الكاثوليكية . وانى أعتقد أن الشرق اذا تغلب على جموده تخلص منه . وان الاسلام لن يضع أية عقبة جدية فى سبيل التفكير الحديث . ولقد أتى محمد بكتاب تحدى به البشر جميعا أن يأتوا بسورة من مثله . فقعد بهم العجز ، وشلتهم الخيبة ، وبهتوا أمام ذلك الأحرار القوي الذى أقفل فى وجوههم كل باب .

وفى كتاب « محاولة حول أصول المفردات الاصطلاحية للتصوف فى الاسلام » للأستاذ « ماسينيون » جاء فيه : اننا بفضل التصوف كان الاسلام ديناً دينا دينا وعاماً ، انه دولى بفضل الأعمال التقية التى قام بها الصوفية فى زياراتهم لبلاد غير المؤمنين . أى بفضل المثل الرائع الذى قدمه نساك المسلمين من شيوخ الطرق : الكيروية والشطرية والنقشبندية الذين كانوا يتعلسون لغات الهند وسكان جزائر الهند الشرقية ويندمجون فى حياتهم . هذا المثل هو الذى هدى أولئك القوم الى الاسلام أكثر مما فعل الغزاة .

والمصوفية هم أول من فهموا الأثر الخالد الفعال للدين الحنيف . وهو وجود توحيد عقلي طبيعي لجميع بني الانسان .

وقول الأستاذ « سنوك هورجرونج » المستشرق الهولندي في كتابه « سياسة هولندا تجاه الاسلام » : ان الاسلام بفضل تصوفه . قد وجد وسيلة صعوده الى مكانة مرتفعة يستطيع منها أن يرى أبعد من آفاقه الخاصة أي أن هذا التصوف مشتمل على شيء من دولية الدين .

وقال الأستاذ « بير يونسواي » المستشرق الفرنسي في كتابه الحديث « الاسلام والجرال » : وما لا سبيل الى الشك فيه انه كان هناك في العصور الوسيطة وثام روحى وتعاليم خفية بين الصفوة الاسلامية . أي شيوخ الصوفية . والصفوة المسيحية واليهودية . وان الاسلام قد قام في أثناء عدة قرون في هذا الوثام بدور الملهم والمرشد ..

ونحن نحسب أن في هذا التصريح برفعة الاسلام ودوليته واشتماله على التوحيد الطبيعي للبشرية . شهادة من جانب أولئك المستشرقين الاعلام تفوق قول كل خطيب كما أنها شهادة لهم أنفسهم --- منا نحن المسلمين بالنزاهة والبراءة من التعصب كفيلا باسكات المتحاملين .

ومما تقدم نرى أن بحوث المستشرقين عن الاسلام في هذا العصر الحديث في تقدم ظاهر نحو الاهتداء الى الرشاد . وانى فهم هذا الدين على حقيقته وأخصهم :

« برناردشو » ذلك الكاتب العظيم الذى يقول : لقد وضعت دائما دين محمد صلى الله عليه وسلم موضع الاعتبار السامى بسبب حيواته المدهمة .

فهو الدين الوحيد الذى يلوح لى انه حائز أهلية ان يضب لأنداء الحضارة المختلفة بحيث يستطيع أن يكون جذبا لكل حيل من الحضارات المختلفة .

ولقد تنبأت بأن دين محمد صلى الله عليه وسلم سيبقى دائما حيا وحيويا في أوربا غدا .. وقد بدا كونه مقبولا لديها اليوم ..

وقد صور « الكيروس » القرون الوسطى التى كانت فيها أوروبا فى ظلمة واما بسبب التعصب الذمىم أو بسبب الجهل الذى كان يفتقر اليه

ثم قال : ولقد كانوا فى الواقع يمرنون على كراهية محمد صلى الله عليه وسلم وكراهية دينه .. وكانوا يعتبرونه خصما للمسيح . ولقد درستته باعتبارهم رجلا مدهشا فرأيتهم بعيدا عن مخاصمة المسيح ، بل يجب أن يدعى منقذ الانسانية .

وانى لأعتقد بأنه لو تولى رجل مثله زعامة العالم الحديث لنجح فى حل مشكلاته بطريقة تجلب الى العالم السلام والسعادة اللذين هو فى أشد الحاجة اليهما . ولقد أدرك ذلك فى القرن التاسع عشر مفكرون مخلصون أمثال « كارليل » و « جوت » .. وهكذا وجد تحول حسن فى موقف أوروبا من الاسلام .

ولكن أوروبا فى القرن الراهن تقدمت فى هذا السبيل كثيرا ، فبدأت نعشق عقيدة محمد صلى الله عليه وسلم وفى القرن التالى ربما ذهبت الى أبعد من ذلك فتعترف بفائدة هذه العقيدة فى حل مشاكلها .

فبهذه الروح يجب أن تفهسوا نبوءتى .. وفى الوقت الحاضر كثيرون من أبناء قومى ومن أهل أوروبا قد دخلوا فى دين محمد صلى الله عليه وسلم . حتى ليسكن أن يقال : ان تحول أوروبا الى الاسلام قد بدا .. وانه لن يبر القرن العشرين حتى تعتنق الامبراطورية البريطانية الاسلام .

ان محمدا صلى الله عليه وسلم أكمل البشر من الغابرين والحاضرين . ولا يتصور وجود مثله فى الآتى .. ولقد أتى محمد بكتاب تحدى به البشر جميعا أن يأتوا بسورة من مثله . فقعد بهم العجز وشلتهم الخيبة . وبهتوا أمام ذلك الاحراج القوى الذى أقفل فى وجوههم كل باب ..

هذا هو رسول الاسلام الذى حفظه الله منذ أن كان نطفة طاهرة فى رحم طاهر . ولقد كان للرسالة الكريمة — التى غير بها سيد البشر وخاتم النبيين تاريخ العالم — أثرها فى قلوب المشركين والكفار . فحاولوا النيل من هذه الرسالة . فلما لم يجدوا مطعنا على الاسلام اتجهوا الى رسول الاسلام يحاربونه . لذلك لم نجد فى التاريخ رجلا قام ضده محاربون متحمسون كمحمد صلى الله عليه وسلم الذى كلما مرت الأعوام ورفرفت

رسالته لتتشر السلام والمحبة والصفح والمساواة وتدعو الى الخلق بين الناس كلما ازدادت الدعوة قوة وانتشارا .

ولكن قام بعض خصوم الدين لتهوى بهم ألفاظهم الى أعسق الحضيض بسا يقولونه من فحش العبارة وقدر السباب وبسا يختلقونه من المفتريات والأكاذيب أمثال « رودلف ولوهيم وهوتنجر وبلياندر » .

نشرت مجلة « التاريخ » مقالين للأستاذ « سوندرس » المحاضر الأول بقسم التاريخ في جامعة « نيوزيلانده » .. وقد جعل عنوان المقالين « الخليفة عمر » المستعمر العربي .. وذهب فيها الى أن ابتداء انتشار الاسلام خارج الجزيرة العربية انما كان من عمل هذا الخليفة ولم يكن عملا داخلا في برنامج الدعوة المحمدية . لأن محمدا عليه السلام لم يفكر في دعوة أحد غير العرب الى الاسلام .

ولا يسعنا الا أن نلتمس للكاتب العذر لأنه تجنب الحقيقة وكتب على هواه .. وقد رد عليه المرحوم الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد في مجلة الأزهر في عدد أغسطس ١٩٦١ بقوله : وقلنا انها مع حسن النية وأسوأ تطبيق للعلم . المقارنة بين الأديان . التماسا لوجود الشبه التي لا وجود لها بين الدعوة الى الموسوية والدعوة الى المسيحية والدعوة الى الاسلام فان أتباع موسى عليه السلام قد دخلوا أرض الميعاد بعد وفاته . وأتباع عيسى عليه السلام هم الذين قاموا بتوجيه الدعوة الى العالم بعد حصرها في بني اسرائيل . فينبغي على هذا القياس ذهابا مع شهوة المقارنة بين الأديان في غير موضع للمقارنة . أن يكون خلفاء النبي صلى الله عليه وسلم هم الذين نشروا الاسلام بين الأمم غير العربية . ولو لم يكن ذلك من برنامج محمد عليه السلام ولا من أصول رسالته الى قومه .

وقد نشر أيضا في عدد سابق للمجلة تصحيح للدعوى الأستاذ النيوزيلاندى بقلم الأستاذ « أحمد ابراهيم الشريف » نشر فيه في مجلة كثيرة التي ثبتت دعوة الاسلام العامة قال فيه : اننا اذا نظرنا الى جانبها واكتفينا بالنظر في القرآن الكريم وحده فهناك آيات كثيرة تذكر فيها الله سبحانه وتعالى باسم رب العالمين . وهذا عندنا الذي ذكر

فيها بالنص الواضح أنه عليه السلام . قد أرسل الى الناس كافة . وأن القرآن قد تنزل عليه ليقرأه على الناس .

فرد الأستاذ « سوندرس » عليه يقول : ان هناك أدلة أخرى تفيد أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد أراد بدينه أن ينشر على الناس ، كما أن هناك أدلة أخرى تفيد انه لم يفعل ذلك . فهي اذن مسألة من مسائل الشك لا يقطع فيها بأى القولين .. قال : أما ان محمدا قد آمن بأن الله هو اله الجميع فليس محل مناقشة ولكنه ليس بسوضع البحث فيما نحن بصدده . ولنا سند من القرآن نفسه حيث ترد الآيات التي يمكن الاستدلال بها على القولين .

فقوله في أول سورة الفرقان : « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » قد يقابله في سورة القصص قوله : « لتندر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون » .

وهو يشير ، كما هو واضح ، الى العرب .. ومثله قوى في سورة الشورى : « وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتندر أم القرى ومن حولها وتندر يوم الجمع لا ريب فيه » ..

وهذا يدعو الى التساؤل عن القرآن العربي : هل يخاطب به أناس غير المتكلمين بالعربية ؟ ثم قال : ان الأوروبيين المتخصصين في الاسلاميات ينقسمون انقساما شديدا في هذه المسألة . فان « موير » يرى أن الدعوة من البداية الى النهاية كانت دعوة للعرب وحدهم . ولم يدع بها أحد غيرهم . ولكن « نولدكة وجلدزيهر وأرنولد » وكلهم ثقاة .. يقولون : ان محمدا عليه السلام أراد بدينه منذ أوائل الدعوة أن يكون دينا عالميا ولم يرد به أن يكون مجرد عقيدة وطنية محلية . ونقول : انه لو كان قد ثبت أنه كتب الى هرقل وملك الفرس وغيرهما من الملوك يدعوهم الى الاسلام لا تنفى الشك بالواقع . ولكن آراء الباحثين -- مع الأسف -- لا تميل الى قبول هذه الأخبار ..

و « فوتنومري وات » يقول : ان هذه القصة لا يمكن أن تقبل على هذه الروايات ثم ختم جوابه على تعليق الأستاذ الشريف قائلا : وعندنا

صعوبة لهذه في أمر المسيحية فهل كان المسيح عليه السلام ينظر الى نفسه كأنه صاحب ديانة جديدة كما جاء في « متى » حيث يقول : اذهبوا وعلّموا جميع الأمم ؟ أو كان ينظر الى نفسه كأنه مصلح لليهودية ليس الا وانه ما جاء الا لهداية خراف بني اسرائيل الضالة ؟ وأحسب أنني أمام هذا الخلاف قد كنت متحرزا حيث قلت : ان البرهان القاطع غير موجود .

والأمر البين بعد قراءة هذا الجواب أن الأستاذ لم يكن متحرزا كما قال في ختام جوابه ولكنه كما قدرنا . قبل الإطلاع على هذه المقارنة بين الدعوة المسيحية والدعوة المحمدية في كلامه الأخير كان منساقا مع أجزاء المقارنة في غير موضع للمقارنة . فلم يظهر له الفارق الشاسع بين موقف الخلفاء من الدعوة المحمدية وموقف « بولس » الرسول واخوانه من الدعوة المسيحية . فان بولس الرسول واخوانه من الدعوة المسيحية ، لم يكن في وسعهم أن يشرخوا اليونان والرومان بمسيح منتظر في بني اسرائيل لخلاصهم واسعادهم ملكهم الذي قضى عليه الرومان أنفسهم . فلا جرم أن تنحول الدعوة من اسرائيلية الى عالمية لهذه الضرورة التي لا يحصى عنها .

وليست هناك مشابهة قط بين الدعوة الخمسة ببني اسرائيل وبين الدعوة الى الناس كافة كما وردت في التران الكريم بذلك التوضيح الذي عرضه الكاتب ولم يستطع أن يتجاهله في جوابه على اعتراض الأستاذ السرفند . فهذه هي الثغرة التي نفذ منها خفا القيس الى رأى الأستاذ النيوزيلاندي مع تقدير حسن النية فيما قرره من حصر الدعوة الاسرائيلية بين أبناء الجزيرة العربية .

ولسنا نرى دليلا على التحرز . ولا على الجهد في استبعاد الدعوة الى غير نزول القرآن باللغة العربية لتعزيز حجته على تخصيص الدعوة باللغة العربية . اللغة العربية . اذ كيف كان يريد أن تكون الدعوة ان كانت باللغة العربية . تكن مقصورة على المتكلمين بلغة الرسول لا انه يستعجل ان يعلن الدعوة الى العالم دعوة عالمية انسانية على الإطلاق أو يفترض ان ليس كان يوسع المقامه الدعوة أن ينطق بألسنة الناس أجمعين ..

ولا نحسب قراء الأستاذ النيوزيلاندى قد استفادوا شيئاً من اليقين أو الترجيح بما استشهد به من أقوال المختلفين على عموم الرسالة المحمدية أو خصوصها بين زملائه المستشرقين بل كل ما يستفیده القارىء المتطلع من وقوع هذا الخلاف أن أناساً غير قليلين بين جهابذة المستشرقين يقرءون الكتاب المبين ولا يستبينون منه أظهر معانيه . بل أظهر كلماته التى لا تحتاج الى مراجعة أخبار الاسلام أو أخبار التواريخ .

فاذا كانت كلمة « الى الناس كافة » تحتل اللبس فى أذهان هؤلاء المستشرقين لسبب من أسباب التأويل فى اللغة أو فى المنطق فما هو اللبس فى وصف العباد الذين تكرر الخطاب بانذارهم ودعوتهم الى الدين . اننا نذكر من وصف هؤلاء العباد فى الكتاب العربى مثلاً واحداً وهو قوله فى خطاب النبى بالعربية : « قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ... الى قوله « وسخر لكم الليل والنهار » .

فمن يقرأ وصف هؤلاء العباد الذين سخر لهم البحر وسخرت لهم الأنهار وسخر لهم الليل والنهار لا يخطر له لحظة أنهم أبناء الجزيرة العربية دون غيرهم من بنى الانسان فى جميع البلدان .

واذا كان عرب الجاهلية قوما لم يأتهم نذير من قبل فالدين الذى جاء به صاحب الدعوة المحمدية يعم المتدينين الذين سبقت اليهم الرسل ويقوم النبى العربى بالدعوة اليه ليظهر على الدين كله : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » .

وأيا كان القول فى اللغة التى تكلم بها النبى . وفى صلاح هذه اللغة للدعوة العالمية . فان النوع الانسانى يشمل أم القرى وما حولها ولا تعتبر هداية أهلها عزلاً لهم من عداهم من الناس . كأنه يمنع أن يكون الخطاب مقصوراً على أم القرى ومن حولها ولا يمنع أن يعم الناس أجمعين ..

وبعد : فكيف يسيغ العقل أن يكون صاحب الدعوة المحمدية خاتم النبيين اذا كانت رسالته مقصورة على قوم لم يأتهم من قبل نذير .

ان طائفة من المستشرقين تسيع ما يسيفه العقل فى أمر القرآن وأمر الاسلام . ولا نحب أن يشيع لأحد من هؤلاء قول مسوع فى العصر الحاضر . لأننا نقرأ لغيرهم من فضلاء الأوربيين المحدثين صفة من الآراء السديدة فى الاسلام ونبهه ينزهونها عن هوى الاستعمار وبتفسير ما استطاعوا ويحسنون بها الى قرائهم وقراء العربية غاية احسان العالم الأمين على علمه ..

وهكذا فقد كان أنصار التجديد من المستشرقين يعلنون الثورة على الجامدين من رجال الدين ومنهم من كان يوارى ويوارب . فيتخذ لهذه الثورة أسلوباً غير الأسلوب الصريح ..

وهكذا صنع « فولتير » فى المسرحية التى كتبها باسم « محمد » وقال فيها كل ما أراد أن يقوله عن رجال الدين فى عصره كأنه يتكلم عن نبي الاسلام وأئمة المسلمين .

ولم يشأ فولتير أن يهجم على سلطان رجال الدين فى العرب هجئة صريحة — كما بينا ذلك من قبل — وكان يهجم عند كتابة تلك المسرحية على إعلان آراءه ولا يتعرض من جرائمها للسخط والحرمات . فاتخذ لها هذا الأسلوب المنحرف . ولم يكثر لحقائق التاريخ ولا للأدب فى الخطاب . ونسب الى النبي عليه السلام أموراً كان يريد أن ينسبها الى الجامدين من رجال الدين فى عصره . فلم يخف قصده على العارفين . ولامه هؤلاء على التوائه . وعلى نفاقه وريائه . وكان من هؤلاء اللاتين « ديبون الكبير » فى حديثه مع الشاعر الأمانى « جوتيه » فإنه أنكر تلك الصورة السوءة . وقال أنها لا تصدق على محمد . ان محمداً لرجل عظيم . ولا يجعل تصويرونه بهذا الأسلوب ..

ويعتبر كلام فولتير عن الرسول نموذجاً للمصراحة المبرقة فى هجوه على أنصار الجمود وقد كان كل كلام عن الرسول من هذا القبيل يفتقر الى الرىاء والجهل بحقيقة الاسلام وتصوير نبيه الكريم بتصويره فى صورة ضالة ولقد أراد « فولتير » فى هجومه على الاسلام وتصوير نبيه الكريم بصورة ضالة أن يتخذ رمزا لجميع الديانات لأنه كان يظن عليها من غير

استثناء . ولما خشي اضطهاد الكنيسة والحكومة اتخذ نبي المسلمين ستارا يحتسى وراءه لمهاجمة جميع مؤسسى الأديان . وقد وصل فى النفاق الى حد أن أهدى هذا الكتاب الى «البابا» لينال رضاه أو ليتقى غضبه على أقل تقدير وضحى فى سبيل ذلك بالنزاهة والحق والكرامة . ولكنه لم يفز منه بهذا الرضا المنشود فخر الصفقة وثمنها . وكان ذلك فى العصر الحديث « القرن الثامن عشر » .

وأقبل القرن التاسع عشر بحالة نفسية وحالة فكرية غير تلك الحالة .. أقبل بمعرفة أوفى وحرية أكثر صراحة وأقوى ، فمن تكلم عن محمد عليه السلام ، فانما كان يتكلم عن علم لم يكن مسورا للغربيين قبل ذلك . اذ كان العارفون منهم باللغة العربية وباللغات الشرقية عامة قليلين . وكان المنقول من كتب الدين الاسلامى نادرا مشوها محصورا فى المشتغلين به من الباحثين المتفرغين للدراسات الشرقية .

فلما أقبل القرن التاسع عشر كثرت هذه الكتب ، ووصل العلم بها الى غير المستشرقين وأصبح الاطلاع عليها بدعة محمودة بين طلاب الثقافة والتبحر فى الاطلاع . فظهرت الكتابة عن الاسلام . وعن نبي الاسلام . على نهج جديد .

واذا كان « فولتير » نموذجا للكتابة الغربية عن الرسول فى القرن الثامن عشر . فان « توماس كارليل » هو النموذج الصادق لهذه الكتابة فى القرن التاسع عشر . وقد كانت كتابته عنه متسمة بسمة الاعجاب والانصاف لا ينتظر من فيلسوف غير مسلم أن يكتب خيرا منها عن نبي الاسلام .. ويكفى للدلالة على موقف كارليل أنه أراد أن يختار مثلا واحدا للبطولة فى صورة النبي ، فلم يجد أحدا أجدر بالاختيار فى هذا المقام من محمد عليه السلام . وكان من همه أن يفند كل شبهة شائعة عن الدعوة الاسلامية فى مبدئها .. فقال : ان الذين يزعمون أن محمدا نشر دعوته بالسيف لا يتصورون ما يقولون . فقد كانت دعوة محمد دعوة رجل واحد أمام قوم مجسعين على تكذيبه وليس أعجب من صورة رجل واحد يحمل السيف ليقنع به كل مفكره .

ولقد تقدمت دراسة التاريخ في القرن العشرين. وتتبع الاوربيون اصول حضاراتهم فعرفوا أنها مدينة بالقسط الوافر للحضارة الاسلامية . وان عصر العرب في الأندلس كان من العصور الذهبية في تاريخ القارة الأوربية . وعمل رد الفعل الذي عمله : فكان أشد الناس اعجابا بالحضارة العربية . أولئك الكتاب الذين نشأوا في الأندلس نفسها ، وفتحوا عيونهم حيث بلغ التعصب على العرب غايته ومداه . فاذا قرأت كتابهم الأشهر «بلاسكو أبانيز» لمست في كلامه حزنا عميقا على زوال الحضارة العربية من الأندلس . وحيننا واضحا الى العهد الذي ازدهرت فيه تلك الحضارة وقد ختم بعض فصوله عنها قائلا : ولت ساعة العلم وانزوت الفكرة الأسبانية في غياهب الظلمات . حيث ترتعد بردا في عزلتها المظنية وتخبو شيئا فشيئا الى أن تموت وان بقيت منها بقية فهي تلك التي تنصرف الى الشعر والمرح والجدل الديني مذ كان العلم يفضى بصاحبه الى نار الحريق .

هذه النظرة الى تاريخ الحضارة والى المقارنة بين الحضارات . قد كان لها أثرها في تعديل الميزان الذي يوزن به رسل الأديان وأولهم رسول الاسلام .

فمن كتب عن محمد عليه السلام في القرن العشرين علم انه مضان بحكم العصر الذي يعيش فيه . أن يقول شيئا يوافق العلم ولا ينسب الى التعصب والجهالة . فلا يزن محمدا بميزان غير الذي يزن به الرسل والأنبياء من سائر الملل والدعوات ومن لم يكن من هؤلاء الكتاب مرتزقا بالدين فهو يخجل من التحامل على صاحب دين كبير لغير سبب الا أنه ولد على غير دينه . وهو يبرىء عقله من وصمة التعصب الضيق بسحاولة الانصاف ما استطاع .

بل وجد من أولئك الكتاب من يشره أن يسع تحدا يعيب على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه راعى ابل ليجيبه صاحبه : أن أتباعه كانوا يفتخرون بتعلموا منه درسا غير الذي تعلمته من دينك فانهم يسبون بالاميد السيد المسيح بالحواريين وكان في وسعهم أن يقولوا عنهم انهم جماعة من الصيادين .

وإذا قلنا ان المرتزقة بالدين هم وحدهم الذين يصرون على بضاعة العيب والتجريح ، فليس معنى ذلك أن رجال الدين الأوربيين جميعا ينكرون فضل النبي ويستبيحون العيب فيه . بل معناه ان هذا الخلق الشائن محصور في طالب الرزق باسم الدين .

أما العلماء الدينيون فمنهم أناس يحاسبون ألسنتهم وأقلامهم ويجتهدون في قول الحق على حسب طاقتهم .

وقد كتب أحدهم الدكتور « بوكيه » كتابا عن « الأديان المقارنة » فقال عنه : انه نشر في الشرق مثلا أعلى للحكم وللأخلاق الانسانية أوسع ونظف وأحدث وأقوى من أمثلة الدولة البيزنطية .. ثم قال : وان الحكم على شخصيته أيضا ليتطلب الانصاف من أولئك الذين ينظرون اليها بعين الغرض . فان الأخبار التي لا داعي للشك فيها تصوره لنا في صورة رائعة من الجمال بوجه مليح فظن وعينين سوداوين نفاذتين ولحية سابعة وورصانة في القول وبلاغة صادقة مع عطف في طيب حالاته وحنان على الأطفال . وينبغي ان نذكر ان هؤلاء الكتاب غير مسلمين فهم لا يقولون في النبي كل ما يقوله المسلم . ويكفي أنهم لا ينكرون كل ما يقوله عن تعنت أو مكابرة .

وظهر في هذه السنة كتاب عن الاسلام لمؤلفه « الفريد غليوم » أستاذ الدراسات الشرقية بجامعة لندن قال فيه عن نبي الاسلام : علينا من المبتدأ أن نقرر أن محمدا كان واحدا من أعلام التاريخ العظاء وكان يقينه الغالب أنه لا اله الا الله وأنه يدعو الى ملة واحدة . وكانت قدرته على التدبير بين المسائل المعقدة التي كانت تواجهه قدرة خارقة بغير مرء فسا استطاع عربي بعزة الجيوش والشرط والدواوين أن يجمع شمل قومه كما فعل . فان قيل ان العالم الاسلامي عند وفاته كان عالما صغيرا بالقياس الى دولة خلفائه ، فالجواب عن ذلك : ان اخلاص خلفائه لدعوته ، وايمانهم بها ، وفهمهم لها ، قد جعلهم يعملون على تعظيم الدعوة الرحيمة ، مصداقا لقوله تعالى : وما أرسلناك الا رحمة للعالمين .

ثم قال بعد استطراد وجيز : كان رجلا لم يخذاه الرأي الشديد قط . ومن أنكرك عليه ذلك فانما يلج في انكاره على الرغم من الدلائل البينة على

رجاحته وفطنته وفهمه الصحيح للآخرين . ولما كان يجرى فى العالم من حوله .

ومن كتاب التصوف الدينى فى العصر الحاضر « بول برنتون » صاحب كتاب « النفس العليا » وكتاب « الحقيقة الباطنة » الذى صدرت منه ثمانى طبعات . وفى هذا الكتاب يضرب المثل لمن يعملون فى الدعوة الى الحق فيقول : ان كثرة العدد لا تهم . وأولئك الأقوام الغافلون ليس لهم حساب . فانما هم زيادة فى حجم الانسانية ليس الا وكل ما كانت له قيمة فانما يفعله ويهتدى اليه فى أول الأمر فئة قليلة . وقد كان محمد يقول عن السيدة خديجة زوجته انها صدقتنى حين كذبنى قومى . وقد مضت عليه ثلاث سنوات وليس له من الأتباع غير ثلاثة عشر .. ثم انتشرت دعوته بين الملايين .

وفى الكتاب الذى أصدرته مطبعة جامعة برنستون عن الأديان العظيمة . يقول « ادوارد جورج » صاحب الفصل المخصص للدين الاسلامى : ان اياته الذى لا يتزعزع برسائته الالهية وصدق دعوته بقى مثلاً فريداً فى التاريخ . وان اعتقاده بالغيب الذى هو لباب الكثير من وحيه لهو المحنة التى تسبب حولها بشارته وعظاته . ومن ثم أصبحت رسالة السيادة الربانية العليا ضرورية عاجلة ملحة وتلك نواة تلك الرسالة العلوية الموحاة الى محمد . وبغيره لا يتأتى لنا أن نفهم الوحدانية فى الاسلام .

ومن أحدث المترجمات الى اللغة الانجليزية كتب العالم البلجيكى « هنرى بيرين » عن « محمد وشارلمان » . ومضسوته يتلخص فى بيان أسباب الانقلاب الأوروبى الذى ينسب فى أوروبا الى شارلمان . ولكن المؤلف يرى ان الفضل فيه لمحمد واتباع محمد ويقول فى فاتحة الجزء الثانى منه : ان العربى الذى أوقع ما أوقع من التلق فى أوروبا وآسية لم تكن له يد فى ذلك . تقارن سرعته بغير السرعة التى قامت بها دولة المغول بقيادة جنكيز خان و « تيسورلنك » . لولا أن هذه الدول زالت ودولة الاسلام بقيت . فلم يزل الاسلام اتباعه فى كل بلد دخله الخلفاء الأولون وقد كان دونه كذبوع البرق معجزة حقيقية ..

ويقول الأستاذ « جولد زيهر » ان الاسلام رسم للحياة مثلا أعلى غير
المثل الأعلى للحياة فى الجاهلية . وهذان المثالان لا يتشابهان . وكثيرا
ما يتناقضان .

فالشجاعة الشخصية والشهامة التى لا حد لها والكرم الى حد الاسراف ،
والاخلاص التام للقبيلة . والقسوة فى الانتقام والأخذ بالثأر من اعتدى عليه
أو على قريب له أو على قبيلته بقول أو فعل . هذه هى أصول الفضائل عند
العرب الوثنيين فى الجاهلية . أما فى الاسلام فالخضوع لله وحده . والانقياد
لأمره . والصبر واخضاع منافع الشخص ومنافع قبيلته لأمر الدين . والقناعة
وعدم التفاخر والتباهى . وتجنب الكبر والعظمة هى المثل الأعلى للانسان فى
الحياة .

ويقرر الشاعر الألماني « جيته » ذلك بقوله : اذا كان هذا هو الاسلام
فدحن جميعا ندين بالاسلام .

ويقول « وينسون » فى كتابه « الحركات كأساس للحضارة » : وفى
القرنين الخامس والسادس . كان العالم المتسدين على شفا جرف هار من
الموضوعى لأن العقائد التى كانت تعين على اقامة الحضارة كانت قد انهارت .
لم يك ثم ما يعتد به ما يتوهم مقامها وكان يبدو اذ ذاك أن المدنية الكبرى
التي قامت بعد جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال . وان
البشرية توشك أن ترجع ثانية الى ما كانت عليه من الصهجية ، اذ القبائل
تتحارب وتتناحر ، ولا قانون ولا نظام . أما النظم التى خلفتها المسيحية فكانت
تعمل على الفرقة والانهيال بدلا من الاتحاد والنظام وكانت المدنية كشجرة
خشبية متفرعة امتد ظلها الى العالم كله واقفة تترنح . وقد تسرب اليها
العطب حتى اللباب . وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذى وحد
العالم جميعه ..

أما « جيس متشر » فيقول : ان محمدا هذا الرجل الملهم . الذى أقام
الاسلام . ولد حوالى ٥٧٠ ميلادية فى قبيلة عربية تعبد الأصنام ، ولد يتيما
محبيا للفقراء والمحتاجين والأرامل واليتامى والأرقاء والمستضعفين وقد أحدث
محمد بشخصيته الخارقة للعادة ثورة فى شبه الجزيرة العربية . وفى الشرق

كله . فقد حطم الأصنام بيديه . وأقام ديناً يدعو الى الله وحده . ورفع عن المرأة قيد العبودية التي فرضتها تقاليد الصحراء ..

ولقد اتهم الاسلام في ذلك العصر بأنه خلو من التفكير الاقتصادي . بل لقد اتهم بالرجعية الرأسالية ، وانه استغلال للطبقات المستضعفة الكادحة وسر اتهامهم الجهل بالاسلام ونظمه وروحه ورسالاته وتعاليمه الدينية السخنة لقد جاء الاسلام في كافة نظمه وتشريعاته . دعوة تحريرية على الجبود والضعف والرجعية المادية والعقلية . فهو توازن وتعادل فلا روحانية حاملة تحلق بعيداً عن واقع الحياة ، ولا مادية مظلمة جشعة حقود . تنكر لروح وللفضيلة . وما أُصدق قوله تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيى . والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً » .

فقد جاء في نظامه الاقتصادي باشتراكية رشيدة هادفة لتخمس الطبقات بين الطبقات فى ظل المحبة . وتكفل التصور المبدع فى نطاق كبريت هادئة تتسع آفاقها لكل خطو بشرى واتجاه حضارى .

ولبذا فالنظم الإسلامية فى سيرها وتطورها لا تجد حرجاً فى ان تفسر من هنا وهناك ما يتفق مع روحها . ويتواءم مع وجهتها . ويتشعب مع أهدافها فى نطاق نظرتها الإنسانية الربانية .

يقول العلامة « سينيون » فى كتاب « الاسلام والنظم الجديد » : ان لدى الاسلام من الكفاية ، يجعله يتشعب فى جميع المبادىء المساواة . وذلك بفرض زكاة يدفعها كل فرد لئيب المال . وهو يضمن المبادلات التى لا تضبط لها . وحبس الثروات . كما يضمن المساواة والضرائب غير المباشرة التى تفرض على الحاجات الأولية فى نفس الوقت التى جانب حقوق الولد والزوج واليتيم . ورأس المال التجارى . وبهذا يحل الاسلام . فكرة الخبز والخبز نظريات الرأسالية البورجوازية . نظريات لها ثمنها البشري .

وهكذا فالحياة الاقتصادية فى نظر الاسلام حرة ورحمة . ورحمة . حياة انسانية لها مثل عليا تستمد من ربها .

بينما هي في النظرة الرأسمالية والشيوعية على السواء ، حياة صراع وتقتاتل ، وسيطرة واستعباد ، صراع تحترق فيه وتفضى كافة القيم العليا ، تبقى قيمة واحدة ، حية مهيمنة هي قيمة رأس المال الفردي أو الجماعي .

وبذلك نجد أن الرأسمالية تنظر الى الانسان كسلعة . وتنظر الشيوعية اليه كآلة مسخرة . وينظر الاسلام الى المادة كشيء مسخر لخدمة الانسان . يقول الصحفي الأمريكي « جون جنتر » في كتابه « في داخل أوروبا » : ان الانجليز انما يعبدون بنك انجلترا ستة أيام في الأسبوع . ويتوجهون في اليوم السابع « الأحد » الى الكنيسة .

ويقول العلامة « جود » رئيس قسم الفلسفة وعلم النفس في جامعة كولومبيا : ان شعار أوروبا هو : لا نستطيع أن نجتمع بين عبادة الله وعبادة المال . ويقول : وعيننا ان الثروة . ولا سواها ، هي القياس الصحيح لعظمة الفرد .

ويقول « كارل ماركس » : ان المال هو الذي يخلق الأدب والأخلاق والدين والمنطق ونظام الحكومة .. ويقول : ان النظام الاقتصادي . هو روح الاجتماع وان الدين والحضارة وفلسفة الحياة والفنون الجميلة كلها انعكاس لهذا النظام الاقتصادي .

لقد أصبح المال هو الاله الأكبر الذي تسجد جباههم جميعا في محرابه فاقدموا للإنسان في النظامين الرأسمالي والشيوعي ذاتيته وحرية وكرامته ،

لقد قيم كل شيء في الفلسفتين بالمال . وأصبح الانسان أرخص هذه القيم . وأحقر هذه السلع .. ان كل ما أصاب الإنسانية في عصرنا من فجور وتحلل والحداد وتحرر واستعباد واستعمار . وكل ما تتقلب في الحياة اليوم من جاهلية ومادية . وبربرية وحشية ومذاهب وجودية . وفلسفات مادية .

ومن هنا كانت الفروق الأساسية النفسية والجذرية بين النظم الاقتصادية العائنية والنظم الاقتصادية الاسلامية واضحة وضوحا مبينا في روحها وأهدافها ..

ولقد ذكر عن الأستاذ « بوزورت سمث » انه قال في احدى محاضراته عن « محمد والمسلمين » ما يأتي : أما الاسلام فكل شيء يختلف فيه عن غيره . وانا لنعرف الكثير عن محمد كما نعرف عن « لوثر » و« ملتون » .

ومن الأمور التي دفعتني الى اعتناق الاسلام . دعوته الى المساواة بين الناس ومن الانصاف لهذا الدين ان نذكر أنه الدين الوحيد الآن الذي يستطيع أن يقضى على ما ينتاب العالم اليوم من نزعة عدم الرضا .

وذكر « ج. وئينز » في محاضرة له عن « المسلمين » قوله : كل مسلم معبد في نفسه وكل مسلم له أن يبدي ما يعن له من شئون دينه . ذلك لأن المسلمين ليسوا عبيدا لرؤساء دينهم . انهم يؤدون الصلاة لله دون حاجته الى وسيط يأخذ بيدهم لأداء هذا الواجب . ومكان عبادتهم غير محدود . وقد حان وقت الصلاة بادروا الى أدائها حيثما يوجدون .

وان المساواة التامة لتبدو للعيان بين المصلين في المساجد . لا فرق بين عظيم وحقير وغنى وفقير .

ولما كان الاسلام دينا عسليا فقد أقبلت عليه وارتضيته . وفي الحق لقد قام هذا الدين على أساس حاجة الناس الحقيقية اليه . ولم تكنه مباحة . خيال . ويأخذ بعض المسيحيين على الاسلام اباحته لتعدد الزوجات . من يذهب أكثر من هذا فيسب النبي بغير حق . ولكن كل من درس التاريخ ووعاه يعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل قانعاً بزوجته واحدة حتى الخمسين من عمره . ومعلوم أن الانسان حين يبلغ هذه السن يخسرها القوة الجنسية . ولما ماتت زوجته الأولى عند علي فتاة في السبعين من عمره لم تزوج آخرى غيرها . الا أن هذه الزوجات جميعاً بددت في الدنيا من أجل المتعة . فتزوج بعض النساء حبا في أن يكون لهن خير معين في الدنيا . أفضل الصلاة والسلام بنظام التعدد بشروط مقبولة « معدة » . النظام المالك الاسلامية من نبذهن المجتمع فصرن يجهولن في ذلك . لندن وباريس وفيينا وكلكتا . ولا ريب أن نظام التعدد المحكم خير من ذلك من ارتباط المرأة برجال لا يحصيهم العدد . وشتان بين زوج « خليل »

ويقول « جيمس متشنر » : كثيرا ما أحسست وأنا أعيش بين المسلمين ان الله عندهم حقيقة أكبر مما هي عند المسيحيين .
ومما قاله الأستاذ « انسو ووكس » في كتابه « لماذا ارتضيت الاسلام دينا » .

ولمنا في حاجة الى ذكر ما يجول بخاطر بعض المفكرين من الأوربيين عن الاسلام . فقد أشادوا به وامتدحوه . ومن بينهم « جوث وفليتر وجيبون وتولستوى وكارليل » وغيرهم .. ويكفى ان نقول : ان بعض النبلاء من عظماء الانجليز قد ارتضوا الاسلام دينا مثل « لورد استانلي اف الدرلي » و « لورد هداي » وغيرهما .

وقال رينان « : لم أدخل مسجدا أبدا الا شعرت بانفعالات نفسية عظيمة بالغ معنى ذكر النبي لست مسلما .. وانى لعلى يقين من أن في أوروبا وأمريكا آلاف يتسبون مخلصين أن يعتنقوا الاسلام ولكن تعوزهم الشجاعة منبروا مسرعة دون .. والنبي لأقونها كلمة حق مدوية بأننى ارتضيت الاسلام دينا .. ورائدى في ذلك قول الله سبحانه وتعالى : « قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين » .. هذه بعض اشارات عاجلة نوردها هنا بعض المؤلفات القديمة التى كتبت قبل القرن التاسع عشر واننى لم يجد بعض كتابيها عن طريق الحقيقة بينما لزم البعض طريق الغواية والضلال . وتحدثنا قصيدة « رولان » وهى أهم منتجات العصور الوسيطة المعروفة على الإطلاق . بان فرسان شارلمان قد اسقطوا الأصنام الاسلامية .. ان العرب يعبدون ثالوثا من « محمد » و « ابولون » و « بتر فاجان » .

يزعم مؤلف القصيدة ان المسلمين يعبدون ثالوثا . وهو أمر لم يعرفه الاسلام يوما ولا المسلمون لأن المسلمين يوحدون توحيدا خالصا تقيا . لا يعرف الموارب ولا اليهودية . بل ان كلمة الاسلام التى لا يثبت الا بها هى : لا اله الا الله وحده لا شريك له « لا كما يزعم صاحب القصيدة . انه صنع النبي محمد تثنال من الذهب والفضة الخالصين . وان قاعدته هى تثنال فيل وضع فوقه كانه يثنال النبي وهو راكب .. وقد وصلت الجرأة على الحق ، والتجنى على التاريخ بهذا الشاعر . الى حد أسقطه من صفوف المؤرخين

الذين يسجلون الحوادث على غير حقيقتها اسقاطا تاما . لأن أولئك الغربيين الخادعين أنفسهم اقتنعوا بعد الدرس والبحث ان مهمة الاسلام الأولى كانت القضاء على الوثنية ومحو آثارها . والحكم بالاعدام على جميع ما يست اليها بصلة من قريب أو من بعيد . بل ان هؤلاء يأخذون على المسلمين فعالاتهم في هذا التشديد .. ويقولون ان المدنية الحاضرة تتطلب منهم الأخذ بنصيب من الحفر والتصوير . وقد رد المسلمون على هذه الملاحظة .. والخلاصة ان دعوى هذا الشاعر القديم سخيفة لا يؤيدها الحق ولا يعززها المنطق ولا يسندها التاريخ .

وهناك رواية سخيفة آلت بعد الانتهاء من الحروب الصليبية زعم فيها مؤلفها ان الاسلام يبيح زواج المرأة الواحدة من عدة رجال معا . ونهت هذه الفرية وتلك الأكذوبة في حاجة الى رد . لأنها ساقطة ومنهينة لا تستحق الجدل والنقاش .. وقد بينت في الفصل السابع من كتابي ..

هذا نموذج من المؤلفات القديمة التي تناهت الاسلام بلطف من علماء المسلمين المؤسسين على المعلومات الخاطئة . أو على الأوهام والأخراس . وفي كتابي طويل في سرد هذه الآراء الباطلة . أو ان تذكر عددا من الكتب التي ذكرنا .. ومن اراد الاستزادة من كتب القرون الوسيطة فها هي في كتابي وردت في كتب المحدثين حديثة نساء تلك المؤلفات القديمة الخاطئة . أو الباطلة التي أوردها العالم الكبير الكونت « دى كستري » في كتابه « التاريخ الاسلامي » وقد ترك العلماء المحدثون من أوربيين تلك الكتب . ولم يوردوها في كتبهم .. لأنها أغفلت العلم وحادت عن الحقيقة شيع الأرواح . فربما تكون الباطل لدوى السلطان . وبعبارة من طريق المعرفة بوجه جهل بالاسلام . وليست العصور الوسيطة وحدها هي المتشعبة على هذه الباطل بل ان عصر الانتقار والنهضة في القرنين السابع عشر والثامن عشر احتوى من هذه الأخطاء العلية والتاريخية على هذا . وفي كتابي سقط كتاب القرون الوسيطة وشعراؤها في الأخطاء التي أوردها في كتابي آنفا . كذلك هوى كثير من علماء هذه القرون الأربعة .

مثلاً « باسكال » . « مالبرانش » . فى القرن السابع عشر .
و « موتسكيو » و « فولتير » فى القرن الثامن عشر و « رينان » فى القرن
التاسع عشر و « كازانوف ودير مانجيم » و « ر. ف. بودلى » فى القرن
العشرين .

كل هؤلاء قد اقترفوا أخطاء جسيمة نحو الاسلام . وهووا فى مخالقات
جدية للعلم والتاريخ . كما ان لهم ولغيرهم من المؤلفين الآخرين أمثال
« كارادى فو » و « ديزيريه بلانشيه » و « كليسان هوا » و « ماسينيون »
واقرانهم عن الاسلام آراء قيمة جدية بالاحترام .

أما « رينان » فقد تناول الاسلام فى كثير من مؤلفاته الأولى بالقدح .
سيما فى كتابه « الاسلام والعلم » . الذى ضمن فيه على العرب والاسلام
نحوفاً دفعت المغفور له السيد « جمال الدين الأفغانى » و « الامام محمد
عبدو » الى الرد بسا أفحسه . وألزمه الحجة . والاعتراف بضعف كثير
من المصادر التى استقى منها معلوماته .

ويلاحظ « ديرمانجيم » كذلك أن بعض الاختصاصيين قد هووا مع
الأسف فى الافراض فى النقد . فكانت كتبهم . وهى لا تعد فى الحقيقة الا
ملائع للبحث . معاون للهدم . وانه هرء شخصيا قد عول على ان يسلك طريقا
وسطا بين الافراض والتفريط . فيتبع الرواية الى الحد الذى لا يتعارض فيه
مع النقد الحر . أى لا يسلم بالمعقول وغير المعقول . ولا يعانى فى الهدم كما
فعل بعض المستشرقين الذين عرضوا لدراسة الاسلام .. وهكذا ترى ان
الكاتب التزيه يحترم كرامة علمه . ويجتنب اللغو الذى شاع فى القرون
الماضية . ولا يزال يشيع فيما يكتبه المرتزقة من ادعاء ان الدين والتبشير بالدين
وانه ما من أحد كتب عن الاسلام ورسوله . وتوخى امانة العلم الا ردد فيه
قول القرآن الكريم : « وانك لعلى خلق عظيم » .

الفصل السابع

فهوم نبي الإسلام

يبدو أن النقاد الأوربيين قد حادوا عن الصواب ، واتتهجوا طريقنا بعيداً عن الانصاف ، فما استطاعوا أن يكبحوا شهوة التحامل على نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم فكان دائماً واقفاً تحت تأثير واحد لا يتغير ، هو أخذ كل ما ينال من النبي ، ويسيء إلى سمعته وكرامته كسبي ، فهم دائماً يتلمسون ما عساه أن يشين سمعته أو ينتقص كرامته . دون بحث منهم أو تحييص .. ومثال هؤلاء المستر « كاش » في كتابه « السبع رقيقة الإسلام » الذي خصص الصفحات النهائية الأربعة فيه لما سماه « جرائم القتل » التي وقعت بإيعاز الرسول . والتي استنتج منها أنه غليظ القلب ، غاد ، لا يعرف الرحمة كما لقبه من أجلها بالمخادع القاسي القلب .. وقد استقى أكاذيبه جميعها مما كتبه « السير وليم » في « حياة محمد » . ولم يبدل أقل جهد في البحث والتحييص . قبل أن يدين نبي الإسلام ، على الرغم من ظهور مؤلفات عديدة قيمة بعد كتاب السير « وليم موير » . عرفت لنبي قدره . « لكنه لم يلتزم إليها ، ولم يقدر ما جاء بها . قبل أن يصدر حكمه على رجل يعتبره حياً من ٥٥ مليون نسمة المثل الأعلى للفضيلة والرحمة والمثل الكامل للبر والكمال .

وحالات الإهانة الكاذبة التي يدعيها النقاد ، حجبها عنهم باليهود . والأخيرة هي زعمهم أن النبي قد أتى من السماء ، وهو من علي بن أبي طالب كذبها فانها لم يرد لها ذكر عند « موير » فحسب نقاد الإسلام .. وهذا هو تفنديها جميعاً .

وأول ما يسترعى النظر في هذه المفتريات أن حسبنا منها واحدة باليهود وهم أهل كتاب آمن به المسلمون . وجاء ذكره في القرآن في كثير من آياته لذلك كانوا أحق الناس بالتسامح . وأجدرهم بالعطف . وإذا كان المسلمون

لم يقتربوا هذه الجرائم ، كما هو معروف في السيرة ، مع المشركين الذين عبدوا الأصنام من دون الله ، واضطهدوا النبي وأنصاره ، وآذوهم أشد الأذى ، وفرقوا جساعتهم ، فهاجروا من أوطانهم ، فكيف يتصور اقدام المسلمين على مثلها مع اليهود . وهم أهل كتاب ودين ؟ اللهم ان محمدا ما كان يطلب ملكا ، أو يريد مالا . ولكنه النبي المصلح لا يبغي من وراء دعوته إلا اصلاح ما فسد من أمرهم ، وجمع ما تفرق من شملهم ، وهدايتهم الى اقوام الضلالت ، بعد أن فسدت عقائدهم ، وطمست معالم دينهم .

وقد قرر « كاش » ومن هذا حذوه ، أن جميع هؤلاء الذين وقعت هذه الجرائم عليهم قد قتلوا بغير حق . سوى أنهم نظموا الأشعار في هجو المسلمين ولعلهم نسوا أو تناسوا أن الشعر والهجو لم يكن خاصا باليهود ، بل هو من خصائص العرب جميعا . فقد كان الشعر هو سلاحهم وديوانهم . وقد اتخذه كثير منهم أداة للتشهير والازدراء بالاسلام والمسلمين ولجأ المسلمون الى النبي يستأذنونه في الدفاع عن أنفسهم والذود عن حياضهم ، فلم يزد عنى أن أذن « لحسان » في الرد عليهم بشعر مثله .

وقد أمر القرآن الكريم المرسلين بالصبر على احتسال الأذى : « وتيسع من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا . وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور »

هذه الآية انطوت على اشارة الى موقعة « أحد » التي كانت في العام الثالث للهجرة . فلا بد أن يكون نزولها بعد ذلك . ومن العجيب أن يدعى المفترون في ذلك الوقت وقوع ما نسبوه الى النبي صلى الله عليه وسلم زورا وبهتانا . وهو أول من يأتمر بأمر ربه ، ويلتزم بنص كتابه ، وهو القدوة لقومه . ولما كان القرآن لم يكتف بأمر المسلمين بتحصيل الأذى والصبر عليه ، بل نهاهم عن مقابلة الشر بثلثه ، كان مما لا يعقل أن يجرؤ مسلم على قتل شخص يقترب اثما ، أو يرتكب جرما لمجرد أنه هجا المسلمين . . . واذا كان بعض المؤرخين قد زل ونسب الى الرسول بعض تلك الجرائم من غير دليل ، فلن نقيم لكلامه وزنا لأن كتاب الله يأمر بغير ذلك ، ولا يتصور من الزعيم الديني الذي كان القرآن الكريم دعوته وحجته أن يستفتح دعوته ب مناقضة نفسه ، ومخالفة ما يدعو اليه .

وأولى الادعاءات كما رواها الناقد قتل «عصماء بنت مروان» الشاعرة
ومن قبيلة الأوس ، ولخص ذلك فيما يلي :
كانت هذه اليهودية من بنى خطمة ، وكثيرا ما كانت تعيب الاسلام
وأهله ، وتسب النبي لاسيما بعد مقتل أبي غفك اليهودي ومن شعرها :

قطعتم أتاوى من غيركم فلا من مراد ولا مدحج
أترجون بعد قتل الرءوس كما يرتجى مرق المنضج

فرد عليها « حسان » بقوله :

بنو وائل وبنور واقف وخطمة دون بنى الخزرج
متى ما دعت سفها ويحها بعولتها والمنايا تجي
فهلا فتى ماجدا عرقه كريم المداخل والمخرج
فخرجها من جميع الدما بعيد الهدو فلم يخرج

فقال النبي . حين بلغه ذلك : ألا رجل يكفيننا هذه ؟ فقال « عير بن
عدى » وكان من قومها : أنا أكفيكما يا رسول الله . وهم يقتلها . فذهب
اليها ووضع سيفه على صدرها حتى أنقذه من ظهرها . ثم جاء النبي فقتل
اه : أقتلت ابنة مروان ؟ قال : نعم : فهل على في ذلك من شيء ؟ فقال
الرسول : لا ينتضح فيها عنزان . فأثما أهدرت دمه . ثم ثمنى عدية .
البصير وكان كفيفا . ثم رجع عير الى قومه . فوجد بنيها في جساءة يدفون
فقالوا : أقتلت عصماء ؟ قال : نعم . أنا قتلتها فكيدوني جميعا ثم لا نظروا
فوالذي نفسى بيده لو قتلتم بأجمعكم ما قالت لضربكم بسيني هدا .
أموت أو أقتلكم . فلما رأى المستضعفون من قومها . الذين أخذوا اسلمهم
اتقاء شرها ، ان الاسلام عز بعد قتلها أظهروا اسلامهم . . .

هذا ما قاله « كاش » في هذه القرية . وان الأسانيد التي في
الحادث هي « ابن هشام والواقدي وابن سعد . . . » والذين في
الرواية غير صادقة . ان القرآن نهى عن قتل المسيئين . . .
من الأوامر المشددة بعدم قتل النساء ولو اشتركن في القتال اشتركا

ضد المسلمين .. فهل من المعقول أن النبي الذي يأمر بعدم قتل النساء
المشركات في الحرب يأمر بقتل امرأة ، لا لشيء الا لأنها قالت شعرا يكرهه
المسلمون !

لقد كان المسلمون يعلمون علم اليقين نهى الرسول عن قتل النساء ، حتى
انهم عندما هموا بقتل « ابن الحقيق » ، حالت زوجه بينه وبينهم . فأمسكوا
سيوفهم احتراماً لأمر النبي بعدم قتل النساء (كتاب فتح الباري ، قصة قتل
ابن الحقيق) .

وانتقد « البخاري » وهو ثقة في روايته . باباً سماه « كتاب الجهاد »
.. قتل النساء في الحروب » جاء فيه عن ابن عمر ما يأتي : ان امرأة وجدت
قتيلاً في احدى الغزوات التي حضرها النبي صلى الله عليه وسلم فنهى النبي
عن قتل النساء والأطفال .. فهل بعد ذلك يقال : ان النبي أمر بقتل امرأة
لأنها هجرت المسلمين ؟ أينهى النبي عن قتل امرأة خاضت غمار الحرب ،
وصوبت سهامها الى صدره ، وسلت سيفها في وجهه ، ثم هو يجيز ، بل
يستحسن ، أن تقتل امرأة لم تكن جريرتها سوى السب ، أو نظم قصائد في
البيداء ؟ قد يقال أن بعض أصحابه فعل ذلك ، ولكن هذا أيضاً افتراء فانهم
جميعاً كانوا عارفين بأوامره منفيدين لأحكامه ، حتى أن الأئمة حرموا لذلك
قتل النساء حتى في الحروب ، فعند مالك والأوزاعي لا يجوز قتل النساء
والأطفال مطلقاً ، فلا يصح أن تقتل امرأة في حال ما ، حتى لو احتسى
المقاتلون بجماعة من النساء والأطفال أو لجأوا الى حصن أو سفينة بهما
نساء وأطفال ، فلا يرمى هذا الحصن أو تحرق هذه السفينة .

كل هذا دليل ساطع على نقض هذه الأكذوبة المختلقة .

والفريفة الثانية التي أوردها المستر « كاش » هي مقتل « أبي غفك » :
وقصته كما نقلها عن بعض السير ما يلي :

كان أبو غفك مسناً بلغ مائة وعشرين سنة ، ولكنه كان يحرض على
ايذاء النبي ، ويهجو به بشعره فقال صلى الله عليه وسلم يوماً : من لى بهذا
الخبث ؟ فقال « سالم بن عمير » : على نذر أن أقتله أو أموت دونه ، وظل

ينتظر غرة منه حتى استراح بفناء منزله ، فذهب اليه ووضع سيفه على كبده .
ثم اعتمد عليه حتى نفذ الى ظهره ، فصاح عدو الله ، فحضره قوم ممن كانوا
على موافقته في الكفر والتحريض ، فقبروه .

وهذه القصة الكاذبة أقل دناءة وحطة وتلفيقا من سابقتها ، وظاهر
ضعفها للملأ ، لأنها دست على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي أمر
بتحريم قتل النساء والطاعنين في السن والأطفال ، ثم يعود فينقضه بقتل أبي
غفك . ومعلوم أن الخلفاء الراشدين اقتدوا بالرسول ، « فأبوبكر الصديق » .
أوصى « يزيد » عندما ولاء امارة الجيش الخارج الى سورية بتنفيذ أوامر
الرسول بعدم قتل النساء والأطفال والطاعنين في السن ، وهو دليل ناصح
واضح على اقتداء أوائل المسلمين بالرسول صلى الله عليه وسلم .

أخرج أبو داود عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
انطلقوا باسم الله ، وعلى ملة رسول الله ، لا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا ولا
صغيرا ولا تغلوا وضموا غنائمكم ، واصلحوا وأحسنوا ان الله يحب
المحسنين .

واليك بعض من وصية أبي بكر لجيش يزيد : لا تخونوا ولا تغدروا
ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة . ولا تعقروا
نخلا أو تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة « وهذا خير دليل على كذب
وبهتان تلك القرية أيضا .

أما الادعاء الثالث فهو القول بأن النبي أصدر أمرا عاما لبادئة اليهود
جميعا حتى يتسكن من مقتل أبي سنية . . وهذا الادعاء مكذوب من أساسه
أيضا . . لأن النبي قد أمر بتحريم : قتل النساء والأطفال والطاعنين في السن
ومن لا يشترك في القتال والأعشى . . وبذلك لا يحل القتل في هذه
الظروف وأيا كانت الأحوال الا اذا كان قاتلا أو مقاتلا . وقد حرم النبي
النساء والأجيرين لأنهم يقومون بأعمال غير القتال . . فان كان
قتل انسان لم يشترك في القتال اشتراكا فعليا . فهي اما مدد به أو مخافة
عن سوء قصد . وان كانت سائفة متواترة . ولا يسكن الأخذ بالروايات
الشخصية التي يرويها الرواة عن أنفسهم . وعلى ذلك لا يسكن تصديق

رواية مقتل أبي سنيينة فهي مكذوبة من أساسها . فان الادعاء بأن النبي أصدر
 أمرا عاما لآبادة اليهود ، كان من نتيجته قتل أبي سنيينة وحده ، ادعاء يناقض
 نفسه بنفسه . فكيف يكون مقتل رجل واحد نتيجة أمر عام لآبادة اليهود
 جميعهم !

أما الرابعة : فهي مقتل « كعب بن الأشرف » . وكان والده من قبيلة
 طييء ، فلما أتى الى المدينة تحالف مع اليهود من قبيلة بني النضير ، وأصبح
 ذا نفوذ وشأن حتى تسكن من الزواج من ابنة أحد زعماء اليهود ، وبذلك
 أصبح مركز كعب ممتازا لقربته من العرب ومصاهرته لليهود ، وعندما وفد
 الرسول على المدينة ، تعاهد هو واليهود معه على أن يعيشوا فيها جنبا الى
 جنب . لكل منهما عقيدته الدينية . واذا ما وقع اعتداء على المدينة من الخارج
 فعلى كل منهما أن يهب لنصرة حليفه . وقبل الطرفان أن يكون للنبي الحكم
 الأخير فيما يختلف عليه من نصوص العهد . . . ولما انتصر المسلمون في بدر
 ازدادت نار الحقد في صدور اليهود وأخذ كعب يستغل مواهبه الشعرية في
 هجاء حلفائه من المسلمين والنيل من الاسلام . بل لم يكتف كعب بذلك .
 بل شد الرحال الى مكة واضعا يده في يد أعداء الاسلام محرضا لهم على
 مهاجمة المسلمين اذا ما هوجبت المدينة ، ولم يكتف بتأليب أعداء الاسلام
 عليهم . بل وضع خطة عقب عودته من مكة لتمتل النبي غيلة .

ولكن روح التبشير المسيحي المحض تغلب على السير « وليهم موير » .
 فيجعله يسل كل هذه الاتهامات والخيانات بالوقائع التاريخية الثابتة ، ولا
 يذكر منها شيئا في كتابه « حياة محمد » ثم يأخذ في شرح مقتل « كعب »
 ذاكرا لنفسه التفاصيل ، متناسيا الدوافع المهمة ، بل انه ليفضح دخيلة نفسه
 عندما يتكلم عما ساء الاغتيالات عندما قال : ان انتشار الاسلام بدأ يأخذ
 مظهره لا يدعو الى الاغتباط اذا قورن بالمسيحية ، فان من دخلوا في دين
 « عيسى » دخلوا فيه لاعجابهم بثبات معتقيه حتى الموت ، أما من دخلوا
 في الاسلام . فانهم دخلوا فيه لما رأوا استعداد المسلمين لقتل معارضيهم ،
 فكان المؤمن في الحالة الأولى يدخل دين « عيسى » معرضا حياته للسوت ،
 أما في الحالة الثانية فانه كان يدخل في الاسلام ، لأن الدخول فيه هو الحل

الوحيد لا تقاذ حياته .. فاذا كان « موير » تعمد اخفاء الحقائق التي تثبت أن « كعبا » قد نافق ، وقد انقلب من حليف الى عدو مقاتل ، فان « كاش » تعمد ارتكاب نفس المغالطة على الرغم من ترديده لمختلف المراجع :

مما سبق يتبين للسيد القارىء خيانة وغدر « كعب » وجهره بالانضمام الى أعداء الاسلام والمسلمين وعزمه اغتيال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما جاء في صحيح البخارى بشأن مقتل « كعب » : ان كعبا انطلق الى قريش ، وحالفها عند أستار الكعبة على قتال المسلمين ، وان النبي قد ذكر أنه جهر بالعداء للاسلام ، وان تآمر على الفتك بالنبي فى وليمة يدعوها اليها . وقد روى « ابن سعد » : ان اليهود لما جاءوا الى النبي يشكون اليه مقتل « كعب » قال لهم : انه آذانا ، ولو وفر كسا وفر غيره من هوى على مثل رأيه ما أصابه شر . . وعرض النبي عليهم أن يكتب لهم كتابا فقبلوه . وبقي هذا العهد عند « على » .

ان هذه الاثبات الصريحة ، كلها تدل على ان كعب ما قبل الا الا انه قتل عهد النبي ، وظاهر أعداءه الذين كانوا فى حرب معه وقتلوه فهو على هذا يعتبر محاربا ويجوز قتله شرعا ، وقد قتل « كعب » على يد من المسلمين غدرا وأن النبي لا صلة له فى وضع خطة قتله . فقد كان من يجهل كعبا وضع خطة قتله . هناك رواية تقول : لما سأل محمد بن مسلمة النبي عن قتل « كعب » ، سكت النبي ولم يجر جوابا . وجاء فى رواية اخرى ان النبي قال : ان كنت فاعلا فلا تعجل حتى تشاور « سعد بن معاذ » . فدل على ان يجهل تفاصيل قتله ولا شك . ويبدو أن التفاصيل المتواترة كثيرا عن مقتل « موير » نفسه يبدى شكها فيها أيضا . ولو فرضنا جدها ان قتله كان من صريحة فما كان للنبي علاقة بها . . ومن الغريب ان عدولا كاشا لم يكتفوا بخلطون بين الظروف التي كان يعيش المسلمون فيها فى المدة التي مضت التي يعيشون فيها هم فى القرن العشرين . كانوا يريدون مثل ما كان عليه معه ما كان مألوفاً فى مثل ظروفهم . فقد دخل كعب فى حادى حادى مع المسلمين المحاربين لهم . فجميع الشرائع الوضعية والسادية اعتبرت عدواً مستمرا . فدبر بعض المسلمين أمر قتله

أن يختار أفضل الطرق لتسديد ضربته ، فاختار رئيسهم « محمد بن مسلمة »
 طريقة كانت مألوفة عند العرب . اعتبرها خير طريقة لنيل الفرصة ، نظرا
 للظروف والملابسات . فلو انه اختار مقاتلة كعب جهارا ، لأريق دم كثير ،
 ولهبت قبيلة بنى النضير اليهودية كلها لمشاركة كعب . فاختار طريقة استدراجه
 وقتله حرصا على دم أبرياء عديدين ، هذه هي تفاصيل مقتل كعب ، فما
 علاقة الرسول بها ؟ لاشيء البتة .

وخامس فرية هي قتل « سلام بن الحقيق النضري » . يقول « موير »
 لقد أقامت جماعة من بنى النضير بعد نفيهم مع اخوانهم في خيبر ، ثم اتصل
 ابن الحقيق زعيمهم بالقوى المتحالفة التي حاصرت المدينة وأخذ يشجع بعض
 القبائل من البدو على السلب والنهب ، فجدت حملة . بقيادة « علي » ، علي
 يهود خيبر ، ثم صمم « محمد » علي وقف عدوانهم ، فلم يجد بدا من أن
 يتخلص من محرضهم المزعوم .. ولكن قتل ابن الحقيق لم يسدد مخاوف
 « محمد » من يهود خيبر ، لأن « أسير بن رزام » الذي خلفه في الزعامة
 أبقى علاقته مع « غطفان » ، وقيل : انه أخذ يرسم الخطة للزحف علي
 المدينة .

والمعروف أن « بنى النضير » قبيلة يهودية سكنت المدينة ، وكانوا في
 حلف مع المسلمين ، ولما سلكوا سبيلا شائنا باتصالهم بالقبائل المعادية ، وكان
 من اثر ذلك هجوم احدى القبائل العربية المتحالفة لهم وقتلهم كثيرا من
 المسلمين غدرا . طلب اليهم النبي أن يراعوا عهودهم ويكفوا عن مناصرة
 أعداء المسلمين ، فلم يستجيبوا الى طلبه . فأخرجوا من المدينة ، فلجأوا الى
 « خيبر » ، وهي حصن اليهود المنيع ، وأصبحوا بذلك مصدر فتنة ومبعث شر
 المسلمين . لأنهم دأبوا على تحريض القبائل المجاورة وبث روح العداوة
 والبغضاء المسلمين ، ثم اشتركوا في محاربتهم .

« كان » ابن الحقيق « هذائفا في موقعة الأحزاب التي اجتمع فيها كثير
 من القبائل العربية واليهودية ليستأصلوا شأفة المسلمين ويناوئوا النبي ومن
 تابعه . وأعدوا ما استطاعوا من قوة ، وجسعوا ما وصلت اليه أيديهم من عدد
 . عدد . ولكن الله نصر المسلمين ، وارتد الأحزاب مهزومين مخذولين . .

واستمر ابن الحقيق في مناصرة القبائل العربية التي تناوىء المسلمين واستمر
ببث روح العداة على المسلمين •

فراى المسلمون حقا للدماء وحفظا للأرواح أن يطفئوا جذوة الشر ،
فأرسلوا جماعة للقضاء على مصدر الفتنة ، وهو ابن الحقيق ، فذهبت تلك
الجماعة وقتلت هذا الزعيم المناوىء ، ولكن ذلك لم يؤد الى الغرض المنشود
فكان لا بد من ارسال جيش لفتح خيبر .

هذا رجل قاتل المسلمين وحرض عليهم القبائل وناصر أعداءهم وتزعم
مخاريبهم ، فهل اذا بعث اليه المسلمون بن يثار منه لاموهم على ما فعلوا
ووصفوهم بالقسوة والغلظة ؟

أما « اسير بن رزام » فانه قام وحرض اليهود ، وسار الى غطفان ،
وجمعهم وهم أن يذهب بجسعه الى المدينة ليفزوا النبي في عمر داره .. فلهذا
بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم ما هو فيه .. أرسل اليه « عبد الله بن
رواحة » فى سرية تبلغ الثلاثين من الأصحاب ، فقدموا عليه .. وهبوا بالغدر
بهم .. ولكن المسلمين تغلبوا عليهم وقتلوهم . وعلى الباغى تدوير الدوائر
ومن نكث فانما ينكث على نفسه .

وأخر ما افتراه المستر « كاش » على النبي صلى الله عليه « سيد دعوى
كاذبة هى اباحتة سبى نساء بنى المصطلق ، وهى فرية وضيفة كاذبة . وهو
افتراء صارخ ، على الحقيقة ، وبهتان عظيم .

وقد غابت هذه الفرية عن أقى نقاد الإسلام أمثال « موير » .. ما
ما جاء فى هذه الفرية . هى رواية « أبى سعيد الخدرى » التى جاء فيها أن
نقرا من المقاتلين المسلمين ، شاءوا أن يتزوجوا بعض الأسيرات ، ويأخذوا
على أن يعزلوا ، حتى لا تحبل الزوجات ، ولكن لم يثبت مطلقا أن
ذلك قد وقع ، والتصد من رواية أبى سعيد هذه ، لا يثبتها
ولكنه لم يقل شيئا عن الاتصال بنساء بنى المصطلق •

والمعروف أن زواج المتعة كان لفترة قصيرة ، وكان مائة د فى الجاهلية
ولكن الإسلام نهى عنه فانهى تدريجيا ، وخير الإصلاح ما جاء تدريجيا .

والقرآن يصرح بحل زواج سبايا الحرب . والآية التالية تكذب تكذيباً قاطعاً دعوى المستر كاش اذ تقول : « ومن لم يستطع منكم طويلاً أن ينكح المحصنات فسن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن باذن أهلهن . وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان ، فإذا أحسن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب . ذلك لمن خشي العنت منكم ، وإن تصبروا خير لكم . والله غفور رحيم » .

أما نساء بنى المصطلق على الخصوص . فقد أطلق سراحهن جميعاً ، دون فدية ، عقب أن أطلق النبي سراح جويرية . وتزوجها ، وهذه شهادة قاطعة على كذب وبهتان دعوى المستر كاش .

هذا هو نبي الإسلام الذي حفظه الله منذ أن كان نطفة ظاهرة في رحم طاهرة . ولقد كان للرسالة الكريمة التي غير بها سيد البشر وخاتم المرسلين تاريخ العالم أثرها في قلوب المشركين والكفار . فحاولوا النيل من هذه الرسالة . فلما لم يجدوا مضعنا على الدعوة الإسلامية . اتجهوا إلى صاحب الدعوة يحاربونه . لذلك لم نجد في التاريخ رجلاً قام ضده محاربون متحسون « كمحمد صلى الله عليه وسلم » الذي كلما مرت الأعوام ورفرفت رسالته نشر السلام والمحبة والصفح والمساواة . وتدعو إلى محاسن الخلق . قام بعض خصوم الدين لتهوى بهم ألفاظهم إلى أعسق الحضيض بسا يقولونه من فحش العبارة وقدر السباب وبسا بختلقونه من المفتريات والأكاذيب أمثال « رودلف ولوهيم وهوتنجر وبليندر » . لم يجدوا في حياة النبي الكريم . ولا في أخلاقه . ما ينكثهم من الطعن فيه ، فجدوا أقلامهم وجسعوا صحفهم ليفتروا على الله الكذب . فيقولون كان محمد قسا رومانيا غضب لأنه لم ينتخب الكرسى البابوية .. وانه وهو الفيلسوف الحكيم عز عليه ذلك . فلم يشأ أن يصبح شيخاً لقبيلته أو رئيساً لأمة ، انما أراد أن يكون الها أو في مصاف الآلهة ، وما ثبت كذب هذا الافتراء أن الرسول جاء برسالته في وقت تناحرت فيه الفرق الدينية وتشعبت المعتقدات ، وتناول البعض الرسالات الدينية السابقة بالتحريف والتغيير . وبلغ الأمر أشده في الفساد والبهتان

والطغيان والضلال ، فلو كان الرسول يرجو مجدا دنيويا لقبيل الملك الذي عرضته عليه قريش ، ولكان ترك لأنصاره أن يتخذوه الها .. أو نصف اله ولكنه يتلو عليهم قرآن الله ليقول عن نفسه : « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » (الكهف) .. كما يتلو قول الله تعالى : « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحد فاستقيسوا اليه واستغفروه وويل للشركين » (فصلت) .

ويحسم رسول الله تلك الافتراءات حسما باتا فيقول في حديثه الشريف (لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح . فانما أنا عبد الله ورسوله ، فقولوا عبد الله ورسوله) . فهل بعد ذلك يستقيم قول قائل انه كان يريد مجدا أو كان يريد أن ينصب نفسه الها .

الصرع :

كما أشاع أعداء الاسلام أن نبي الاسلام كان مريضا بالصرع ، وإن ما يعتريه في ساعات الوحي ، انما هي نوبات الصرع التي كان يسمع أثناءه كلاما ردهه فأصبح قرآنا . ولقد رد على ذلك كثير من الأساتذة الاختصاصيين في الأمراض العصبية وشرحوا أن النوبات الصرعية ليست نوبات نفسية كما يتبادر الى أذهان المتقولين . ولكنها ناتجة من تغيرات فسيولوجية عضوية في المخ .. ولقد أثبتوا علميا في حالات عديدة من الصرع أن المريض يفتقد شعوره تماما ويكون التغير العقلي هو المظهر الأساسي للنوبة . ولقد حذرنا الى حد ما تذكر التجارب النفسية التي حدثت له أثناء النوبة بعد انتهائها . وهذه التجارب تكون على شكل انفعالات مثل الخوف أو على شكل أفكار في اتجاه معين كأن يردد المريض في ذهنه سؤالاً ما . أو على شكل مشاهد أو هلاوس أو الاثنين معا .

وفي ذلك أمثلة كثيرة . وعديدة . لتنوع الهلامس المرئيه لأن يرى المريض أثناء النوبة شبحاً أسود يهدده ولا يسكنه أن يقين ملامحه ومسورته ويتكرر هذا في جميع النوبات ، ومريض يسمع أصواتاً أو قطعة موسيقية

من الراديو القريب منه ولكنه لا يتبين الكلمات أو النغمات مما يسمع ..
وأحيانا نسمع من مريضة أثناء النوبة أغنية كانت تغنيها لها أمها في صغرها ،
وتتكرر هذه الأغنية في جميع النوبات •

من ذلك نرى أن الأحلام والهلاوس التي تمر بذهن المريض في أثناء
النوبة الصرعية ما هي الا تنبيه لذكريات قديمة مرت بالانسان أو فكر فيها
ثم حفظت في ثنايا المخ ، وقد ثبت ذلك علميا بأن نبهت مراكز المخ المصابة
بتيار كهربائي من الخارج فشعر المريض بنفس الهلاوس التي تنتابه أثناء
النوبة الصرعية •

ومما تقدم نرى أن الهلاوس تكرر الشكل بتكرار النوبات ، وقد يكون
هناك أكثر من نوع واحد من الهلاوس في المريض الواحد ، ولكنها تتكرر
كلها أو بعضها بالشكل نفسه وان المريض يتذكر التجارب النفسية التي مرت
به في أثناء النوبة .

وبتطبيق ماوصلنا اليه من هذا العرض السريع المختصر للصرع على
الافتراء الذي يفتره خصوم الاسلام على الوحي الذي نزل على رسول الله
نجد أن الهلاوس والأحلام التي تمر بذهن المريض بالصرع ما هي الا أجزاء
من ذكريات قديمة نبهتها النوبة ، ولا يمكن للمريض بالصرع أن يؤلف أثناء
النوبة شيئا ، فكيف بالقوانين والآداب والقصص والعلوم وغير ذلك مما
اشتغل عليه القرآن الكريم ؟••

كذلك لا يمكن أن تتحسن لغة المريض بالصرع أثناء النوبة أو بعده
لأن هذا التحسن يحتاج الى تعليم • أما الصرع فهو ارتباك مفاجيء في كهرباء
المخ ووظيفته • وقد نزل القرآن بلغة عربية فصحة لم يتعلمها النبي قبل
الرسالة •

كما أن الأحلام والهلاوس التي يشعر بها المريض في أثناء النوبات
الصرعية تتكرر بعضها أو كلها بنفس الشكل بتكرار النوبات ، كما أن
المريض لا يمكنه أن يصفها وصفا دقيقا • أما القرآن فأنزلت آياته واضحة
محددة متممة بعضها بعضا • شاملة كل ما يهم الناس في شؤون دينهم ودنياهم

.. فهل يمكن أن يقال بعد هذا العرض العلمي البحت أن القرآن ما هو الا هلاوس رجل مصروع ؟ ..

والرد المتقدم هو رد الدكتور « يحيى طاهر » اخصائى وأستاذ الأمراض العصبية بكلية طب جامعة القاهرة مختصرا ، كما ورد فى كتاب « الاسلام والعلم الحديث » للأستاذ « عبد الرزاق نوفل » .

وحتى نفى هذه الأكذوبة حقها من اثباتات كثيرة للمتخصصين فى هذا المرض نذكر ما قاله الدكتور « عبد العزيز الشريف » اخصائى وأستاذ الأمراض الباطنية وعضو كلية الأطباء بأدنبرة ، يقول : المرض علة تصيب أى عضو من أعضاء الجسم ، فتسبب خلافا فيصبح الانسان لذلك معتلا . والشخص المريض هو الذى تغيرت حالته بسبب المرض فأصبح غير عادى ، اذ يقل فى قوته وصحته .. وبالتالي فى اتناجه وتفكيره . ولم يعرف الطب .. ولم يحدثنا التاريخ العلمى ، ان شخصا أصيب بمرض فوهبه المرض علما أو عقلا أو مقدرة اذ أن العقل السليم فى الجسم السليم .

فكيف يقولون عن الرسول انه أصيب بالصرع ، ففتحسن لغته تحسنت بحيث لا يمكن أن تقارن بين حديثه العادى وبين القرآن الكريم الذى يقولون انه حديثه وهو فى نوبة الصرع ؟

وكيف يشرع مريض هذه التشريعات التى تعتبر الأسس النبوية التى القوانين التى تهدف الى العدالة ، الرحمة والتقدم . وهل يستقيم ذلك والصرع مدته تتميز بالاختلال المفاجئ فى المواقف المخ ؟ ..

وكيف يكون ما عند الرسول نوبات صرع ، وهذه النوبات تسبب للمريض آلاما شديدة فى عضلاته تكون مصحوبة بالصداع والعدس . مدة بعد النبوة هى عبارة عن تشنج وتصلب فى العضلات . ومنه حزن ووجل ؟ .. فقد فتر الوحي عن النبى فترة فتولاه الحزن والوجل . وحزن ، حتى نزل قول الله سبحانه وتعالى له : « والضحى والميل اذا سجدى ماودعك ربك وماقلى » .

ويقول السيد الدكتور « عز الدين عبد القادر » الأستاذ بجامعة القاهرة : تخبط الناس منذ بدء الخليقة في تعريف مرض الصرع ، فمن قائل أنه يرجع الى أرواح شريرة تسكن مخ المريض ، الى غيره يقول : انه من آثار الآلهة ، وان كل حركة يحدثها المريض انما هي من فعل اله من الآلهة ، ولهذا سموه بالمرض المقدس ، حتى جاء «أبقراط» العظيم في القرن الخامس قبل الميلاد وأظهر كذب هذه الأقوال ونادى بأن هذه الأعراض انما هي أعراض مرض لا يختلف عن باقى الأمراض الأخرى من أن له سببا ينشأ عنه . . . ووصف نوبات الصرع بدقة متناهية لا تختلف فى شىء ، عما تصفه به أحدث المراجع الطبية . . . فالمريض يفقد النطق ، ويخرج الزبد من فمه ، وتصطك أسنانه ، وتنقبض يداه ، وتزوغ عيناه ، ويفقد الوعي تماما . كما يفقد القدرة على ضبط البول أو البراز .

ومن هذا نرى أن مريض الصرع يفقد حواسه ويفقد السيطرة على نفسه ، فيصبح لا عقل له ولا وعى عنده ، ولا سيطرة على حواسه جميعا .

فلينظر الى ذلك من يقولون : ان القرآن الكريم انما هو هلوسة مصروع وحديث الرسول وهو فى نوبات الصرع . . فكيف يمكن لمريض هذه حالته أن يأتى بجوامع الكلم والآيات البينات وبالبلغة التى أعيت جهابذة العرب وأرباب البيان ؟

ويذكر « ر. ف. بودلى » فى كتابه « حياة محمد » فى هذا الشأن : يذكر الأطباء أن المصاب بالصرع ، لا يفيق منه ، وقد ذخر عقله بأفكار لامعة وانه لا يصاب بالصرع من كان فى مثل الصحة التى يتمتع بها « محمد » حتى قبل مساته بأسبوع واحد . وما كان الصرع ليجعل من أحد نبيا أو مشرعا ، وما رفع الصرع أحدا الى مراكز التقدير والسلطان يوما . وكان من نتائجه مثل هذه الحالات فى الأزمنة الغابرة يعتبر مجنوناً أو به مس من الجن . ولو كان هناك من يوصف بالعقل ورجاحته فهو « محمد » ولاشك . وينفى عن الرسول تلك الفرية الظالمة .

تعدد الزوجات

ولما لم يجد خصوم الاسلام جدوى في هذه المفتريات التي لم يعرها من كان عنده عقل سليم أية التفاتة ولوا وجوههم الى زواج الرسول فأسرفوا في نقدهم ، وكيف أنه أحل لنفسه ما حرمه على غيره ؟

فقد حشا الأوربيون كتبهم بالطعن على الاسلام ورسوله متمسكين بما أباحتها الشريعة من حل التزوج بأكثر من واحدة ، ولو كانوا يعرفون العربية ويفقهون كتاب الله وقواعده ما استطاعوا أن يلصقوا بالاسلام ما ليس من شيمه .

والظاهر أن للاسلام خصوما محترفين ، وخصوما ينكرونه على قدر جهلهم به وبسيرة نبيه ولاخفاء في خصومة المحترفين ، فهم جماعة المبشرين الذين اتخذوا القدح في الاسلام صناعة يتفرغون لها ويعيشون منها . وصناعتهم هذه لا تصطنع عملا لها أهم وأخطر من عملها في تشكيك المسلمين أو تبشير الوثنيين وأشباه الوثنيين لكيلا يتحولوا من الوثنية الى الاسلام . فلا غنى لأصحاب هذه الخصومة أو هذه الحرفة من اختلاق المآخذ وتصيد التهم التي تجرى بها أرزاقهم وتتصل بها أعمالهم سواء عرفوا الحقيقة من وراء هذه المآخذ وهذه التهم أو جهلواها وأعرضوا عن البحث فيها . لأنهم يريدون الاتهام ولا يستريحون الى معرفة تهديم كل ما عملوه وتصرفهم عن كل ما ألفوه وعقدوا النية عليه .

أما خصوم الاسلام من غير زمرة المبشرين فكثرتهم يخاصسونه على السماع ولا يعنيه أن يبحثوه ولا أن يبحثوا دينا من الأديان حتى الدين الذي آمنوا به وشبوا من حجور أمهاتهم عليه . وقليل من أولئك الخصوم غير المحترفين من يتلقف الدراسات الاسلامية تلقفا لا يفيد الدارس ولا يتغنى منه الا أن يعلم ماتعلمه لفائدة من التلاميذ يكتفيهم منه أن يعرفوا من خصوم الاسلام ما لم يعرفوه . وبعض هؤلاء الدارسين المدرسين حسن النية الذين أن يعترف بالحقيقة اذا استمع اليها وبعضهم سيء النية لأنه مستغر في خدمة الاستعمار وما اليها من الدعايات الدولية ، فلا يعنيه من المعرفة الا ما يسلم له في عمله ويسهد لدعايته . . .

وما اتفق خصوم الاسلام سيئو النية على شيء كما اتفقوا على خطة التبشير في موضوع الزواج على الخصوص ، فكلهم يحسب أن المقتل الذي يصاب منه الاسلام في هذا الموضوع هو تشويه سمعة رسول الله ، وتمثيله لاتباعه في صورة معيبة لا تلائم شرف النبوة ولا يتصف صاحبها بفضيلة الصدق في طلب الإصلاح وأي صورة تغنيهم في هذا الغرض الأثيم كما تغنيهم صورة الرجل الشهوان الغارق في لذات الجسد العازف في معيشته البيئية ورسالته العامة عن عفاف القلب والروح .

انهم لعل صواب في الخطة التي تخيروها لاصابة الاسلام في مقتله من هذا الطريق الوجيه . وانهم لعل أشد الخطأ في اختيارهم هذه الخطة بعينها ، إذ إن جلاء الحقيقة في هذا الموضوع أهون شيء على المسلم العارف بدينه لمطلع على سيرة نبيه . فاذا بمقتلهم المظنون حجة يكتفى بها المسلم ولا يحتاج إلى حجة غيرها لتعظيم نبيه وتبرئة دينه من قالة السوء الذي يفترى عليه . فلا حجة للمسلم على صدق الرسول في رسالته أصدق من سيرته في زواجه وفي اختيار زوجاته ، وليس للنبوة من آية أشرف من آيتها في معيشة نبي الاسلام من مطلع حياته إلى يوم وفاته .

ما الذي يفعله الرجل الشهوان الغارق في لذات الجسد إذا بلغ من المكانة والسلطان ما بلغه النبي صلى الله عليه وسلم بين قومه ؟.. لم يكن عسيرا عليه أن يجمع إليه أجمل بنات العرب وأفطن جوارى الفرس والروم على تخوم الجزيرة العربية ولم يكن عسيرا عليه أن يوفر لنفسه ولأهله من الطعام والكساء والزينة ما لم يتوفر لسيد من سادات الجزيرة في زمانه .

فهل فعل رسول الله ذلك بعد نجاحه ؟ هل فعل الرسول ذلك في مطلع حياته ؟ .. كلا .. لم يفعله قط . بل فعل نقيضه وكاد أن يفقد زوجاته اشكائتهن من شظف العيش في داره .

وقبل أن نبين للقارىء الأسباب التي من أجلها تزوج الرسول من زوجاته « أمهات المؤمنين » . نذكر ما قاله المرحوم الشيخ « عبد العزيز جاويز » في تعدد الزوجات في الاسلام : ان النقائص التي مثلت بالاسلام في أعين غير أهله ، انما نشأت من اعتبار أعمال الخلف الصالح . ميزانا لنقدر

بها قوانين الشرع ونواميسه . فمن قائل بسد باب الاجتهاد ، ومن امام او خليفة قضت عليه أغراضه البهيمية أن ينتهك حرمانات الله ثم يحارب الله فينسب اليه ما ليس من دينه في شيء .. ومن عالم اشترى الحياة الدنيا بالآخرة ، فأفتى بما يطابق أهواء ملك أو أمير تذرعا الى الزلفى منه ، ومن أحقق أرعن لم يرض من اليسر بما رضى الله لعباده فشط بالناس واعتسف بهم ، حتى ضاقت نفوسهم ، وأيقنوا بالعجز عن احتمال تكاليف الدين فانقطعوا عنه ظانين بالدين الظنون .

جاء القرآن فأباح أن يتزوج الانسان مثنى وثلاث ورباع . ولكن الله تعالى يقول : « فان خفتهم ألا تعدلوا فواحدة » . فتراه قد شرط اباحة تعدد الزوجات بالعدل ، كما جعل مجرد خوف الجور والظلم سببا كافيا في تحريم التعدد ، ثم نراه قد اعتبر البشر عاجزين عن العدل بين الناس ولو حرصوا . فما بالناس مع جميع ذلك نرى كثيرا من القواعد الاسلامية التي يجب تقدير الأعمال بها ووزنة التصرفات الانسانية بميزانها — قد أهلت وتركت فتهريا لا

واعلم أن المعتزلة . وهم كما تعلم من المسلمين . يقولون بعدد جوار أن يتزوج الرجل ثمانية مادامت الأولى في عصمته . كما ذكره « الأمير على في كتابه « سر الاسلام » . وما ذلك الا لأنهم تتبعوا ما يجلبه ذلك من المناسد والمضار ، وعرفوا أن من أصول الشريعة المحمدية اعطاء الوسائل والغايات من الأحكام . فأوا آثار تعدد الزوجات كثيرة سيئة لا يستحسنها عقل ولا يرضى بها شرع فحكموها بتحريمه .

لم يصرح القرآن بتحريم تعدد الزوجات بتاتا . وذلك لأنه أرسل رسوله للناس كافة بشير ونذيرا . ولا ريب أن هناك احوالا يحسن أن يجب فيها تعدد الزوجات . ولا يمكن لأحد الفرار من الاعتراف بوجود كثير من الأحوال التي تقتضى ذلك . ولأضرب لك مثلا : رجلا تزوج امرأة ذات مرض مزمن . ورجلا تزوج امرأته فكان يستتر معها الحيض البرصى عشر يوما . ورجلا تكره امرأته المباشرة في كثير من أشهر الحمل . وهم جرا . فأمثال هؤلاء الرجال اما أن يصبروا مع العنت والمشقة . أو في الصابرون ، واما أن يأتوا الفاحشة ، وأولئك هم الخاملون .

اننى لأرى كما يرى كل عاقل ، ان تعدد الزوجات بالغة مثالبه ما بلغت
 سلم عاقبة من اتيان الفاحشة ، ومن الشواهد التي يحسن ذكرها ما نقله
 « الأمير على » في كتابه « سر الاسلام » عن السيدة غوردون الانجليزية :
 انما تأملت في أحوال كثيرة من البلاد الاسلامية أو الشرقية اجمالا ، فرأت
 ان تعدد الزوجات أكثر ما يكون في البقاع التي تكثر فيها الفاقة ، وتقل فيها
 المرافق ، فيصعب على النساء الاعتماد على أنفسهن في تحصيل الرزق
 والأخذ بأسباب العيش ، وقد رأت تلك السيدة ان هذه احدى الضرورات
 التي يخول معها التعدد .

ولقد حاول خصوم الاسلام أن يجعلوا من مبدأ تعدد الزوجات وإباحته
 في الاسلام هدفا يحاولون أن يحاربوه به . فكثيرا ما قالوا : ان الاسلام يهدر
 كرامة الزوجة حين أباح للرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة ويزيد من النسل
 الذي يؤدي إلى الفقر والعوز .

واعلم العلم الحديث قد أفصح عن الأهداف الانسانية والعمرائية التي
 توخاها الاسلام في تعاليمه بالنسبة الى سماحه بالزواج من أكثر من واحدة
 فقد قرر أساتذة علم الاجتماع أمثال « جينزبرج ووستر مارك » : ان تعدد
 الزوجات كان النظام المتبع في الشعوب المتدينة في حين كان نظام الزوجة
 الواحدة هو النظام المتبع عند الشعوب المتأخرة . وان الشعوب التي كانت
 تحرم الزواج بأكثر من واحدة انما كانت تتبع تقاليد لا تتصل بالدين من
 قريب أو بعيد ، كما أن الشعوب التي أجازت الزواج بأكثر من واحدة انما
 أجازته طبقا لما رأت فيه من فوائد اقتصادية أو عمرائية دون نظر كذلك الى
 الدين ، فلم يرد في الانجيل نص صريح يدل على تحريم الزواج بأكثر من
 واحدة وان الاسلام في إباحته تعدد الزوجات قد أباحه في حدود عينها
 وظروف حدها . . . وبقيود تجعل من العسير الأخذ به الا في حالات
 اضطرارية .

ويثبت علم الاحصاء أن نسبة الوفيات في الذكور أكثر منها في الاناث
 وذلك من ساعات الولادة حتى أول مراحل الشباب ، الأمر الذي يسبب
 زيادة نسبة الأحياء من الاناث على الذكور أما في الحروب التي قد تنشب بين

بنى البشر فتكون نسبة الوفيات ، قتيل واحدة لكل أربعة آلاف قتيل ، ويرجع كذلك الى أخطار العمل فى المصانع والمعامل حيث نجد الوفيات بين الشبان أكثر قطعاً مما هي بين الشابات ، وكذلك بسبب التزاحم فى طلب الرزق وما ينجم عنه من حوادث وكافة الأعمال التى تنتج الأمراض الخطيرة والموت المفاجيء والحوادث القاتلة يقوم بها الشبان لا الفتيات كرجال المطافىء والغواصين ورجال الانقاذ ورجال الملاحة والصيادين .. وغيرهم مما يجعل نسبة الأحياء من الشابات أكثر من الشبان .

وقد يصرف الشبان عن الزواج أسباب معيشية فلا يزيد الشبان الذين تسكنهم حالتهم الاقتصادية من الزواج على الربع بأى حال ، ويبقى ثلاثة أرباعهم بلا زواج . . . ومعنى ذلك أن تظل ثلاثة أرباع الشابات بلا زواج وهذا اذا تساوت نسبة العدد . فما بالنا والنسبة لا تتساوى ؟ كل ذلك يسبب تخلف نسبة كبيرة من الأناث عن الزواج . والنتيجة الحتمية لذلك ما نراه واضحاً من انتشار البغاء العلنى والسرى فى الأمم التى تحدد الزوجات انتشاراً يفوق انتشاره فى غيرها أضعافاً مضاعفة . كما تنتشر ولادة الأولاد غير الشرعيين . وهم نتيجة الزنا ، فى كثير من البلاد الى نسبة خطيرة تصل أحياناً الى ما يقرب من ربع المواليد الشرعيين ان لم تزد . كما تزيد الاصابة بالأمراض السرية كالزهري وغيره فى مثل هذه البلاد زيادة كبيرة . أفلا يكون تعدد الزوجات فى بعض الحالات علاجاً ناجحاً لمثل هذه المشاكل . ولا سيما أن هناك ظروفاً قاسية تمر بالإنسان يجد ألا مندوحة من الزواج بامرأة غير زوجته . أفلا يكون أكرم للزوجة أن تقاسمها غيرها زوجها فى هدوء وبلا ضجة . خصوصاً اذا ما كان بهذه الزوجة من العيوب ما لا يسكن للزوج احتساله ؟؟

وقد نشرت مجلة « هاربر » مقالاً لـ « سيليج جرينبيرج » « نشأته وجماله » المختار فى عددها الصادر فى فبراير ١٩٥٨ جاء فيه : ان مدخل الزواج فى الولايات المتحدة يتنبأ بأن النساء سيرتفع عددهن فى أمريكا بحلول عام ٢٠٠٠ كل عشر سنوات وان الدكتورة « ماريون لانجر » العالمة الاجتماعية المتخصصة فى استشارات الزواج تقول : ان لدى المجتمع حلين مساكين فقط للتعطيل المنقضى

المتزايد في الرجال .. اما تعدد الزوجات أو ايجاد طريقة ما لاطالة أعمار الرجال . فهل يمكن ايجاد طريقة لاطالة عمر الرجال دون النساء ؟ أم نرى هل سيلجأ العالم الى اباحة تعدد الزوجات ..؟

وقد يكون بالزوجة عيب يمنعها من انجاب الأولاد . أفينقطع عقب الرجل لأنه لا يستطيع أن يتزوج من أخرى ؟ وهل من المعقول ومن عدالة التشريع أن يجلس مثل هذا الرجل على مثل هذه الزوجة ؟ ! انها اذن حياة نكدة ، وبعدها يضيع ما جمعا من ارث ومال أهذا أفضل أم أن تعيش معها زوجة أخرى تنجب فتكون حياة مبسطة ؟ ولعمري ان هذا لمنتهى الرحمة والشفقة بالزوجة والزوج .

وقد يكون بالزوجة عيب لا تستطيع معه القيام بخدمة زوجها على الوجه الأكمل في أى شأن من شئونه .. أفلا يكون من الأرحم بالزوج أن يتزوج من تعنى بشئونه وشئون زوجته الأخرى .. ان ذلك ممكن وميسور . الأمثلة على ذلك في حياتنا كثيرة وعديدة .

هذه الأمثلة وغيرها قد تتعرض لها حياة الزوجين فتكون شفيعة لأن تزوج الرجل بأخرى .

وقال الدكتور « حسين المفتى » في هذا الشأن : أصبح من المعتاد اعتبار مبدأ تعدد الزوجات منكرا اجتماعيه واعتاد المسلمون أن يبرروا وجود هذا المبدأ في دينهم تبريرا هو أقرب الأشياء الى الاعتذار وما ذاك الا لأنهم يسمحون لأنفسهم أن يتأثروا بوجهة نظر الناقدين الذين هم قطعا يفكرون في أمر الزواج على أساس ميول وعواطف الأفراد بينما الاسلام يعالجه على أساس مصلحة المجتمع ويضع الحلول التي ان لم ترض ميول الأفراد فانها لا تتنافى مع خيرهم ثم هي لا مناص منها لخير المجتمع عامة .

ويتبين لنا لأول وهلة الاتجاه الذي يجب أن تتوخاه في معينا وراء مصلحة المجتمع . اذا ما قارنا عدد كل من فريقى البشر : الرجال والنساء .. فالمعروف أنه بالرغم من تساوى عدد المواليد من الذكور والإناث الا أنه بعد فترة قصيرة من حياة هؤلاء المواليد يتناقص الذكور لكثرة الوفيات بينهم عنها بين الإناث حتى تبلغ زيادة الإناث على الذكور فى العادة واحدا فى المائة

وهو أمر اقتضته حكمة الله تعالى إذ جعل الإناث أكثر احتمالاً لمشقة الحياة في ساعاتها الأولى . وأكثر مناعة ضد الأمراض لكونهن الجنس الأهم في وظيفة التناسل . فعلى صحة الأم في الغالب وعلى مدى قوة احتمالها تتوقف حياة الجنين وصحته ثم حياته في دورة الطفولة .

ومعنى هذه الزيادة الطبيعية في الجمهورية العربية المتحدة مثلاً التي يقطنها ثلاثون مليوناً من الناس هو أن يزيد فيه عدد النساء اللاتي في سن الزواج . ومن الطبيعي عقب الحروب أن يزيد الفرق العددي بين الذكور والإناث إلى حد بعيد حتى يصل في بعض الأقطار عدة ملايين . فمما إذا يكون مصير أولئك النساء اللاتي لا مقابل لهن من الرجال إذا ساد مبدأ وحدة الزوجة وخاصة إذا لاحظنا أن هذه الزيادة قد تتكون نسبة كبيرة منها من الأرمال ذوات الأولاد اللاتي تقل رغبة الرجال في الزواج منهن . وهنا يبدو لنا بكل وضوح مغزى كل من المبدأين المتعارضين . فبينما مبدأ وحدة الزوجة يكتفي بأن يتزوج كل الرجال مع غض النظر عن مصير النساء اللاتي لا مقابل لهن من الرجال . إذ سبباً تعدد الزوجات يتيح فرصة الزواج لكل امرأة ولو تكلف بعض الرجال في سبيل ذلك أن يتكفل كل منهم بأكثر من امرأة . فالواقع أن مبدأ تعدد الزوجات يمكن أن يسود في المجتمع لمصلحة المرأة لا لمتعة الرجل . وعلى هذا الوجه قد طبّقه النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون في صدر الإسلام كما يتبين من تاريخهم .

إن الثابت في تاريخ النبي أنه ظل ذا زوجة واحدة حتى بلغ من العمر والخمسين من عمره ثم أخذ يعدد زوجاته في فترة امتدت من السنة الثامنة إلى السنة الثامنة من الهجرة وهذه الفترة هي التي تأسست فيها المساواة بين المسلمين والمشركين حتى انتهت بفتح مكة ونتيجة فتح مكة من السنة الثامنة من الهجرة توازن العددي بين الذكور والإناث في مجتمع المسلمين الذين كانوا يفتقرون من المحتم اغالة الأرمال واليتامى اللذين هم في حاجة إلى الرعاية والتمتع . وما كان لمصالح اجتماعي كالتبني مسان له غاية في الأهمية . والأرمال دون الاهتمام بحماية عفتهم وهو أمر هام في التاريخ الإسلامي .

شيء مغروس في الطبيعة البشرية . وان اهمال شأنها خليك بأن تؤدي الى
فساد المجتمع ..!

وان كون الزوجات الجديديات للنبي وصحابته كن في الغالب من
الأرامل ذوات الأولاد لينفى كل شك في الدافع الذي دعا الى تعدد الزوجات
في صدر الاسلام ويبين أى غرض نبيل قام عليه هذا المبدأ . وان التأمل
في موقف مجتمع صدر الاسلام ازاء الأرامل ذوات الأولاد ليجلو لنا
بوضوح نظرة الاسلام الى الزواج واعتباره اياه واجبا على الأفراد نحو
المجتمع يقابله واجب على المجتمع نحو الأفراد بتيسير الزواج لمن لا يجدونه
كالأرامل والمطلقات .

ويكفى لبيان فضل الاسلام وسمو أهدافه أن نقارن مبدأ تعدد الزوجات
بالحلول التي يقترحها مفكرو أوروبا وأمريكا اليوم لعلاج المشكلة الاجتماعية
التي تنشأ دائما عقب الحروب بوجود عدد كبير من النساء اللاتي لا يجدن
الزواج . والحل المفضل لهم حتى الآن هو اباحة العلاقة الجنسية وحماية
الأمومة غير الشرعية . والفرق بين الحلين هو الفرق بين مجتمعين يقوم
أحدهما على أقوم المبادئ ويرغب في تأدية واجبه كاملا نحو أفرادها بينما
يتجاهل الآخر واجبه نحو صيانة الأسرة ويتساهل الى حد بعيد في القيم
الأخلاقية التي يجب أن تسود بين الناس . وهو على كل حال زواج قانوني
يكفل للمرأة ولأولادها احترام المجتمع وهو ما لا يكفله لهم الحل الآخر
عسلت الدولة على كفالة احتياجاتهم المادية .

ومن الخطأ الادعاء بأن مبدأ وحدة الزوجة هو المبدأ الذي تعتنقه المرآة
بوجه عام إذ أنه لا يعدو أن يكون وجهة نظر الزوجة الأولى فقط . أما
الزوجات الأخريات فلهن وجهة نظر أخرى فهن سيدات فضليات اضطررن
تحت ضغط الظروف الى قبوله بل وربسا الى السعى وراء تعدد الزوجات
مُلبا لِحَقْنِ المشروع في الزواج وقد أخذ الاسلام بوجية نظرهن اعترافا
بحقهن وحماية لِكِيَانِهِنَّ الاجتماعي والخلقي .. ومما يؤسف له أن بعض
مسلمى اليوم لا يقدرُون مبادئ الاسلام على الوجه الذي أنزلت عليه وكن
فهيها وولبقتها المسلمون الأوائل ، فاذا بهم يدعون الى الغاء مبدأ تعدد الزوجات

بتشريع وضعى دون وجود ما يدعو الى ذلك من واقع الحياة الاجتماعية فاذا أخذنا الأقليم المصرى مثلا فاننا نجد أن الاحصائيات تدل على أن نسبة المتزوجات من النساء المسلمات فى مصر قد هبطت من ٩١٥ فى الألف فى سنة ١٩٠٧ الى ٨٨٥ فى الألف فى سنة ١٩٢٧ بينما ارتفعت نسبة المتزوجات من النساء المسيحيات من ٨٩٤ فى الألف فى سنة ١٩٠٧ الى ٩٠٥ فى الألف فى سنة ١٩٢٧ . وكانت النتيجة أن هبطت نسبة المسلمين من السكان من ٩١٨ . فى سنة ١٩٠٧ الى ٩١٢ . فى سنة ١٩٢٧ فلو كان تعدد الزوجات مشكلة اجتماعية تحتاج الى علاج لانعكست الآية فى هذه الاحصائيات ولكن الواقع الذى تدل عليه هذه الاحصائيات هو وجود أزمة زواج بين المسلمات هى أولى باهتمام المصلحين الاجتماعيين وباهتمام هؤلاء الذين يشورون على مبادئ الدين الاسلامى لا لانهم يلمسون مشكلة اجتماعية اهتموا الى علاجها بعد دراسة . بل لأنهم يستوردون آراءهم من الخارج .

ويرى بعض الناقدين استبدان تعدد الزوجات بتعدد الأزواج ولاشب أن هذا القول امعان فى الخطأ . فمن ناحية مصلحة المجتمع فإن مبدأ تعدد الأزواج لا يحل مشكلة اجتماعية ومن ناحية مصلحة الجنس فلا فائدة من تعدد الأزواج لبقاء الجنس حيث لا تحتاج المرأة لكى تأتي بالنسل الا لرجل واحد بينما مبدأ تعدد الزوجات ينطبق تماما على منطق الطبيعة وهو مبدأ الجنس التى تقضى بالا تظل امرأة ما معطلة بدون نسل .

وبالرغم من عدم تبين بعض المسلمين توجه الحكمة فى شرعهم فان فى الأزمات الاجتماعية التى نشأت بسبب الحرب فى كثير من فواحي العالم بين بجلاء حكمة العلاج الذى وضعه الاسلام مثل هذه الأزمات مسونة للمجتمع وحماية للمستوى الخلقى وذلك بمنح المرأة نصف بيت كالمثل حصولها على بيت كامل . ونصف البيت هو بيت على كل حال . وفى كثير من تركها بدون بيت . وتعدد الزوجات الشرعى خير من تعدد الزوجات غير الشرعى .

ولا شك أن العالم سينتدى يومه الى حكمة تعدد الزوجات الشرعية . وأن اهتدى الى حكمة الطلاق . وقد كان شهرا من فواحي حكمة الاسلام .

أما تعدد الزوجات فإن الاسلام لم يبتكره . كما أنه لم يستعره . فتعدد الزوجات من حيث هو نظام اجتماعي . من المرجح ان كان ثمة داع لوجوده . كان مألوفاً أزمنة طويلة قبل أن يبزغ فجر الاسلام على شبه الجزيرة العربية والكتاب المقدس مليء بقصص عن زوجات ابراهيم وسليمان والذي صنعه الاسلام هو تقييد تعدد الزوجات وعدم التشجيع عليه ، وتلك هي عبارات القرآن في هذا الشأن وقد سبق ذكرها .

وان اباحة الاسلام الزواج حتى أربع زوجات . هذه الاباحة التي تعد تقييداً لما كان سائداً قبل الاسلام . قد الغاها من الناحية العملية تحذير الله أن تتزوج أكثر من واحدة واياً ما كان فقد احتفظ بحرية الزواج بأكثر من واحدة . وترك للرجل أن يتصرف بحكمته .

ان تعدد الزوجات لا يبدو مشكلة خطيرة بناء على ما في أيدينا من احصائيات . فمن لهم أكثر من زوجة هم ثلاثة في المائة ليس غير من مجموع الرجال المتزوجين . وفضلاً عن هذا . فالظاهر أن الزواج بأكثر من واحدة يزداد قلة بدرجة ملحوظة . لاسيما بين جماعات المثقفين الذين يتزايد اتجاههم الى اعتبار تعدد الزوجات أمراً غير مشروع من الناحية العملية . وذلك بسبب ما قد أخذ يلابسه من وصمة اجتماعية . ان ما يقع من الرجال والنساء من اساءة الاستعمال لأي رخصة اجتماعية . كتعدد الزوجات أو الطلاق . ليعالج خير علاج عن طريق التعليم والتهديب . هذا هو ما استخلصه كل المصلحين الاجتماعيين من الأفغانى ومريديه في نهاية القرن الماضي الى «هدى شعراوي» في مطلع القرن الحاضر . وحتى يومنا هذا تقوم لجنة من مجلس الأمة ببحث هذا الموضوع .

ولما كان كل مجهود المبشرين والمستشرقين المسيحيين في مطاعنهم يكاد ينحصر في أن الدين الاسلامي قد أباح الجمع بين اثنتين فأكثر الى أربع . وان النبي صلى الله عليه وسلم قد تزوج أكثر من ذلك الى أن جمع بين تسع نساء . وانه قد تزوج امرأة « زيد » . ويقولون : ان ذلك اباحة للشهوات الى أبعد مدى . فالدين الذي يقرها لا يكون من عند الله (أدلة اليقين ص ٦٤٠)

ولو نظرنا فيما يزعمون من أن تعدد الزوجات في ذاته ينافي النبوة ويناقض الوحي الالهي لعلمنا بطلان ما يدعون وما يفترون ، فان الله تعالى قد أباح للرجل أن يجتمع بين أربعة من النساء بشرط العدل بينهن في المأكل والمشرب والمسكن وأن يكون قادرا على اعفافهن وصيانة أعراضهن وقادرا على الاتفاق عليهن ، وعلى أولاده منهن . وكما أنه مكلف بالعدل بين الأبناء ، فلا يحل له أن يجحف بأحد أبنائه من غير سبب صحيح فاذا عجز الانسان عن اقامة العدل بين أسرته المكلف بها ، أو عجز عن صيانة زوجاته وعرضهن للفسوق والفساد أو عجز عن الاتفاق عليهن أو على أولاده فانه يحرم عليه أن يتزوج بحيث لو فعل يكون مستوجبا التعدير . ذلك هو حكم تعدد الزوجات في الاسلام .. فان المفروض في اباحة التعدد أن يكون فيه منفعة للمجتمع ، فاذا ترتب ضرر عنه مادي أو أدبي كان ممنوعا كقوله : « وان خفتن أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتن أن لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذات ذى القربى لا تعولوا وآتوا النساء صدقاتهن نحلة » .. ومعنى الآية : أن الناس كانوا في الجاهلية يتخرجون من أكل أموال اليتامى ويخافون من عدم العدل بينهم ولا يتخرجون من ظلم النساء ، اذ كان الواحد منهم يتزوج العشر من النساء أو أكثر بدون مبالاة من العدل بينهن فيؤذى منهن من يشاء ويرفض من يشاء على حسب ما تدفعه اليه شهوته ويسوقه مياله . فكان الواحد منهم يتزوج كما يشاء وان المرأة كانت في نظرهم كالحيوان فلا حرج على الزوج أن ينهرها أو يصلها ولا ضمير عليه في أن يؤمنها في عيشها ولا يسوقها في وبيها غيرها في طعامها وشرابها ونفقاتها ولا حرج عليه في أن يعاملها كالعاملات الانسان أو الحيوان .

وهكذا حرر الاسلام المرأة تحريرا كاملا ورد اليها نسائها من العبودية الى طريق العزة والكرامة . نسوى بينها وبين الرجل الحقوق . وقد علم الله من طبيعة خلقه أنه يمكن أن يعامل بينه وبين امرأته بين أربع فيؤدى لهن حقوقهن كاملة . أما ما زاد على ذلك فهو من غير العدل الانسان من حيث هو انسان . فمن خاف عدم العدل فلا يحل له أن يتزوج

والزوجات . وان أقدم عليه فهو آثم اثما كثيرا . وكفى بذلك زاجرا للمسلمين
ومن هنا يرى بعض الناس أن تعدد الزوجات يكاد يكون ممتنعا في نظر الدين
وعن عائشة رضی اللہ عنہا ، أنها قالت : ان رسول اللہ صلی اللہ علیہ وسلم كان
يقسم بين نسائه فيعدل ويقول : اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما
تسلك ولا أملك .

من هذا يتضح أن اباحة تعدد الزوجات في الشريعة الإسلامية ليست
كما يتصوره الجهلة الذين يتخذون من هذه الاباحة وسيلة الى قضاء شهواتهم
فيقدمون على تعدد الزوجات بدون حساب لما يترتب على عقد الزواج من
الحقوق الشاقة التي لا يستطيع أداءها كاملة الا اولو الأخلاق الفاضلة
والعزائم المتينة .

ورب قائل يقول : مادام تعدد الزوجات مقترنا بهذه الشروط فلماذا
يباحته الشريعة . ولماذا لم تحظره كما حظرت كثيرا من عادات الجاهلية من
أساسها كسرب الخمر . والجواب : أنه هنا يظهر أسرار التشريع الإسلامي
وتتجلى عظمتة في أكمل معانيها فان التشريع الذي لا يبيح تعدد الزوجات
يكون تشريعا ناقصا لا يلائم كثيرا من أحوال الانسان ولنضرب لذلك أمثلة

١ - ففي الحروب يهلك معظم الرجال وتبقى النساء ، وحينئذ تضطر
الأمم الى تكثير نسلها ، أليس من الضروري تعدد الزوجات .

٢ - اذا كثرت النساء في أمة . فماذا يكون الحال ؟ أيترك الزائدات
عن الرجال عاطلات من الزواج فيصبحن عاهرات .

٣ - اذا أصيبت الزوجة بمرض يمنع الرجل من الاستمتاع بها . أو
شوه وجهها أو جسمها بعاهة تمنعه من ذلك ولها منه أولاد . أليس من سماحة
الدين أن يضم إليها أخرى ليصون نفسه ويحتفظ بأولاده وأمهم حتى لا يظل
معدبا ولا يضيع أبناءه وأمهم .

٤ - اذا تزوج الرجل بامرأة عقيم وكان ذا مال كثير وكان بينه وبين
زوجه ود يمنع من الفراق وخشى على ماله من الضياع أفلا يكون من سماحة

الدين أن يبيح له أن يتزوج بأخرى لينجب منها ، وقد يلد ذرية صالحة تنفع المجتمع وتفيده .

٥ - ان عظمة الأمم ومجدها انما يكون بكثرة العاملين من أبنائها وبناتها . فمن ضرورات النوع الانساني تكثير النسل بحسب ما يناسب حال كل أمة فاذا كان عدد أمة من الأمم قليلا وأرادت تكثير نسلها أفلا يكون التشريع الذي يمنعها من تعدد الزوجات شرا ووبالا لا ينبغي لها أن تعمل به في هذه الحالة واذا نحن نظرنا الى المسألة نظرا نزيها في زماننا هذا .. لا يسعنا الا الجزم بأن تعدد الزوجات يدفع كثيرا من المفاسد الاجتماعية والخلقية والغريب أن الناس الذين يعترضون على تعدد الزوجات ويعتبرونه سبة هم في الغالب الاباحيون الذين لا يرضيهم الا أن تكون المرأة متعاشا بين الناس جميعا فهم لا يكتفون بربيع من النساء بل هم يزيدون في سبيل شهواتهم البهيمية التي لا تقف عند حد . فهل ذلك حسن مقبول في نظر هؤلاء الظرفاء والتزوج الذي لا اعتداء فيه على الأعراس قبيح تأبه العقول ان ذلك لمن غرائب نزعات العقول ..

وقد عرفنا أن تعدد الزوجات مباح في الشرائع كلها من ابراهيم الى موسى . واننى لا أظن أن الأنجيل الذي أنزل الى « عيسى » حرّمه انفسدين قد فهموا من شرائط الجمع بين الزوجات ما ساعدتهم على فهمه فحرفوها هذا التحريف .

والاسلام اذا كان قد أباح هذا المبدأ فقد قيده بقيد عسيرة لا يباح لكل رجل حتى يحفظ كرامة المرأة . فأوجب على الرجل الذي يتزوج من امرأة من واحدة أن يعدل بينهما . وهيئات أن يستتيع .

انظر الى ما كان معروفا في بدء النصرانية من استباح الزوجات المتزوجين وتفضيل الرهبانية . واتقد قفس الرهبانية في الأندلس التي يقبر في الديور كثير من العقول الذكية . اما منشأ ذلك . فقد انشأه للمسيح عليه السلام . أو لبعض أسباب أخرى كما فرغ المفسر لعمدة الحق تعالى . ولا يزال قساوسة الكاثوليك يذهبون ذلك المذهب . ويرددون

المتزوج لما دنس نفسه بميله الى الشهوات الحيوانية . قالوا : ان المسيح عليه السلام روح الله . فكان أقدر الناس على غلبة شهواته . قارنوا بينه وبين الرسول القائل : لا رهبانية في الاسلام .. ثم انتهى بهم القياس الى الحط من كرامة الأخير . وقالوا : شتان بين من غلب نفسه . وبين من استرسل مع هواها فأرضأها . ولا يخفى بطلان هذه القضية فانه لا تناف بين الصلاح والزواج . على أن تقليد المسيح في رهبانيته لا يبلغ غايته الا بخراب البيوت وتلاشي الأمم وانقراض النوع الانساني ولا يخفى أن هذا ينافي مقتضيات العمران . ومطالب نظم الكون .

لم يكن الرسول فيما أتاه بدعا من الرسل . فان « موسى وداود » عليهما السلام . تزوجا بكثيرات من النساء . وهما الرسولان اللذان لا يسع نصرانيا ولا يهوديا . انكار نبوتهما . أو احتقار ما أتيا به من الصحف السماوية الأولى .

زوجات النبي صلى الله عليه وسلم

اتفق أكثر المسلمين على أن للنبي من الخصائص ما لم يكن لغيره من أمته . وذكروا أشياء منها تجاوزته بالزوجات العدد الذي أباحه لغيره بشروطه . ولا يخفى أن مثل هذا لا يكفي لاقتناع غير المسلمين ، الذين نددوا بالنبي . ولم يجدوا في كتب المسلمين ما ينهض حجة لهم ، اللهم الا قليلا ممن أيده الله بروح منه . ولم يحدث قط أن اختار زوجة واحدة لأنها مليحة أو وسيمة . ولم يبين بعدد قط الا عائشة التي علم قومه جميعا انه اختارها لأنها بنت سديقه وصفيه وخليفته من بعده « أبي بكر الصديق » رضی الله عنه .

هذا الرجل الذي يفترى عليه الآثون الكاذبون بأنه الشهواني الغارق في لذات حسه قد كانت زوجته الأولى في الأربعين وكان هو في عنفوان الشباب لا يجاوز الخامسة والعشرين وقد اختارته زوجا لها لأنه الصادق الأمين . وعاش معها الى يوم وفاتها . ثم ظل وفيا لها بعد موتها فلم يفكر في الزواج حتى عرضته عليه « خولة بنت حكيم » التي رقت له في عزله فخطبت له

السيدة عائشة بأذنه . ولم تكن هذه الفتاة العزيزة عليه تسمع منه كلمة ترضيها غير ثنائه على زوجته الراحلة ووفائه لذكراها .

ومعروف عن الرسول صلى الله عليه وسلم النزاهة والبراءة من كل عيب فلم يجمع بين الزوجات لشهوة فاسدة أو لغرض خسيس وحاشاه أن تتحكم فيه شهوة وهو المربي العظيم للعالم أجمع الذي أسس للبشر قواعد الفضائل التي ينبنى عليها صلاح المجتمع ، حاشاه أن ينقاد لشهوة أو يخضع للذة جثمانية ، وهو الذي كان يهجر كل اللذات الدنيوية الى حد أنه كان يعصب بطنه من الجوع ، بينما كانت الأموال توضع أمامه كواما فيوزعها على الناس ولا يأخذ منها الا قليلا .. أنا لا أريد أن أقول أنه صلى الله عليه وسلم كان مجردا من الشهوة الطبيعية ، كلا فإنه كان أكمل الناس خلقا وخلقا وحسنا وصحة وقوة ، وأنا أريد أن أقول : انه كان ما كان زمان نفسه ، فهو الحازم الحازم الذي لا يسرح لها أن تطغى عليه في أى حال من الأحوال فلم يجمع صلى الله عليه وسلم بين نساء كثيرات الا لمصلحة اقتضتها ضرورة الدعوة الى الله تعالى .

وكيف لا .. وهو الذي سن لأُمَّته مراقبة الله في كل حركة وسكون وعلمهم أن هذه اللذات التي هي في الواقع من لوازم الأجساد الممثلة لها أن يراعى فيها ما يسور بالإنسان الى الروحانية فلا يسرح لهم أن ينسحبوا لذاتها مطلقا وقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن المرأة لما لها وحسبها وجسالتها ودينها فانقر بذات الدين تبت بذلك وعليه الصلاة والسلام : لا تنكحوا النساء لحسنهن فلعله يرديهن ولا ينكحهن إلا بطغيهن وانكحوهن للمدين ولأمة سوداء خرقاء ذات دين أفضل .

فهل الذي يضع للناس ذلك النظام الخلق الكمال تغلب عليه شهوة فتدفعه الى أن يجمع بين زوجات كثيرات مجرد قضاء شهوة لا كمن يجمع بين زوجات من ضرب من ضروب المحال . فلم يتزوج عليه الصلاة والسلام الا ما اقتضتها الدعوة الى الله تعالى وهذه الضرورة تنوع الى ما اقتضته الحاجة الى ايجاد لحمة نسب بين كبار أصحابه الذين بذلوا مهجهم وأمهاتهم في سبيل الله تعالى .. ومنهم « أبو بكر وعمر وعثمان » .

وقد كان لرابطة النسب قيمتها عند قبائل العرب . وهي تخفيف وطأة العداة الشدید بین النبی و بین من لم یؤمن من أقارب أصحابه المقربین منه . والدلیل علی ذلك عقده علی عائشة وهی بنت ست سنین وبنی بها وهی بنت تسع . فأی شهوة تتصور مع فتاة فی هذا السن ؟ خصوصا والثابت أنها بومئذ كانت نحيفة . وقد ثبت فی الصحیح أيضا أن « عمر » قال « لحفصة » اننی أعلم أن رسول الله ما تزوج بك الا لأجلی اذ لیس بك من الجمال ما یبعثه علی التزوج بك .

ومنها تزوجه بعض النسوة لضرورة نشر الدعوة الی الله تعالی لأن الشریعة الاسلامیة قد أبانت كل ما یتعلق بحقوق الاستمتاع وآدابه كما أبانت مسائل الحيض والنفاس وغيرهما من أحوال النساء . ولا ریب فی أن الأحكام المتعلقة بهذا تحتاج الی عدد من النساء یباشرنها عمليا فلا مناص للنبی علیه الصلاة والسلام من أن یعاشر عددا منهن معاشرة الأزواج لینقلوا عنه شریعته كاملة . ومنهن « أم سلمة وسوداء بنت زمعة » رضی الله عنهما وقد تزوجهما وهما فی سن الشیخوخة تقریبا لارمق فیهما حتی أن سودة لم تكن صالحة للرجال ، ومنها تزوجه علیه الصلاة والسلام بعض النسوة لغرض هداية قومها للإسلام كما حصل مع « جویریة بنت الحارث » فانه لما تزوج بها سلم قومها .

وما بنی الرسول بواحدة من أمهات المسلمین لما وصفت به عنده من جمال ونضارة وانما كانت صلة الرحم والضمن بهن علی المهانة هی الباعث الأكبر فی نفسه الشریفة علی التفكير فی الزواج بهن . ومعظهن كن أرامل وأیامی فقدن الأزواج أو الأولیاء و لیس هناك من یتقدمه اخطبتهن من الأكفاء لهن . « فالسيدة سودة بنت زمعة » مات ابن عمها المتزوج بها بعد عودتها من الهجرة الی الحبشة ولا مأوی لها بعد موته الا أن تعود الی أهلها فیکر هوها علی الردة أو تتزوج بغير كفاء لها أو بكفاء لها لا یریدها .

والسيدة هند بنت أبی أمیه « أم سلمة » . مات زوجها عبد الله المخزومی وكان أيضا ابن عمها أصابه جرح فی غزوة أحد ففقی علیه . وكانت كهلة

مسنة فاعتذرت الى الرسول لكبرها لتعفيه من خطبتها فواساها قائلا : سلى الله أن يأجرك في مصيبتك وأن يخلفك خيرا . فقالت : ومن يكون خيرا الى من أبي سلمة ؟ وكان الرسول يعلم أن « أبا بكر وعمر » قد خطباها فاعتذرت بمثل ما اعتذرت به اليه . فطيب خاطرها وأعاد عليها الخطبة حتى قبلتها .

« والسيدة رملة بنت أبي سفيان » تركت أباهما وهاجرت مع زوجها الى الحبشة فتنصر زوجها وفارقها في غربتها بغير عائل يكفلها . فأرسل النبي الى النجاشي يطلبها في هذه الغربة المهلكة لينقذها من أهلها اذا عادت اليهم مرغبة بعد هجرتها في سبيل دينها . ولعل في الزواج بها سببا يصل بينه وبين أبي سفيان بوشيجة النسب فتسيل به من جفاء العداوة الى مودة تخرجه من ظلمات الشرك الى هداية الاسلام .

« والسيدة جورية بنت الحارث » سيد قومه . كانت بين السبايا في غزوة بني المصطلق فأكرمها النبي أن تذل ذلة السباء فتزوجها واعتقها وحض المسلمين على اعتاق سباياهم فأسلموا جميعا وحسن اسلامهم . وخيرها أبو بكر بين العودة اليه والبقاء عند رسول الله فاخترت البقاء في حرد الرسول .

« والسيدة حفصة بنت عمر » مات زوجها . فعرضها أبو بكر على أبي بكر فسكت وعرضها على عثمان فسكت . وبث عمر سنة للرسول : فلم يشأ أن يرضى على صديقه وحامى دعوته بالمصاهرة التي شرف بها أبو بكر قبله . وقال له : تتزوج حفصة من هو خير لها من أبي بكر وعثمان .

« والسيدة صفية الاسرائيلية » بنت سيد بني قريظة . خيرها الرسول بين أن يردها الى أهلها أو يعتقها ويتزوجها فاخترت البقاء عنده على العودة الى ذويها . ولولا الخلق الرفيع الذي جبلت عليه نفسه الشريفة لما خيرها هذا التخيير خصوصا اذا علمنا أنها كانت قصيرة ، وحينا سمع النبي صلى الله عليه وسلم -- احدى مباحيها تعيبها بقتلها قل لها ما معناه من قوله --

لا تخرج عن هذا المعنى : انك قد نطقت بكلمة لو التفت في البحر لكانت له موجة وجبر خاطر الأسيرة العربية وحذر أن تسمع في بيته ، والله أعلم بقرينة .

« والسيدة زينب بنت خزيمة » مات زوجها عبد الله بن جحش قتيلا في غزوة أحد ولم يكن بين المسلمين القلائل في مسجته من نقده لخطبتها فتكفل بها . اذ لا كفيل لها من قومها .

ومنها تزوجه بعض النسوة لضرورة التشريع . وهو ما وقع له مع « زينب بنت جحش » مطلقة « زيد » . والمبشرون يعتبرون هذه القصة سبة وعارا وقد أعانهم على ذلك بعض المحدثين الذين لا هم لهم الا اشاعة أكاذيب الرواة وتميقها واخراجها فى ثوب قشيب لا يبر الا الملحدين .

غير أن الدين له قواعد يجب أن يرجع اليها فى تطبيق كلام الله ورسوله ومن هذه القواعد العامة أن محمدا نبى الله معصوم عن كل ما يخل بمقامه الكريم قبل النبوة وبعدها فكل ما يخالف ذلك يكون هراء من القول لاقيمة له فى نظر المسلمين . ومع ذلك فان هذه القصة قد ذكرها الله فى القرآن الكريم فكل معنى زائد على القرآن لاقيمة له : « واذا تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت اليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخفى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكمها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا . « كان أمر الله منعولا » (الأحزاب — ٣٧) .. وقال : « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » (الأحزاب ٤٠) .

والقصة : كانت زينب لا ترغب فى زواجها من « زيد » ولكن النبى عليه الصلاة والسلام أمرها أن ترضخ وتم زواجها . ولكن زينب كانت تفخر بنسبها على زيد وتتعاظم عليه لاعتقادها أنه أقل منها منزلة وحسبا لأنه تربي تربية الموالى (العبيد) . وقد كانت من أشرف قريش ولها صلة قرابة بالرسول . ولكن زيدا كان عظيما فى ذاته لأنه لم يكن من الموالى بل قد خطفه بعض الرحالة وباعوه لأخى خديجة فأهدته بدورها للنبي عليه الصلاة والسلام . وعلم أبوه وجاء الى الرسول فأعتقه ، وخيره النبى عليه الصلاة والسلام فى البقاء عنده أو الذهاب الى قومه مع أبيه ، ولكن زيدا تمسك بالنبي . فأعلن الرسول على الملا بنوة زيد له . ولذلك كان زيد عظيما لأنه تربي فى حجر النبوة الشريفة . ومثله لا يذل لامرأة مهما كان حسبها ونسبها فساءت العشرة بينهما وحلت البغضاء محل المودة ، ولم يكن لزيد مناص من طلاقها ولكن لم يستطع ذلك بدون مشورة الرسول عليه الصلاة والسلام الذى زوجه اياها

فأمره النبي بامساكها ونهاه عن طلاقها . وقد كان يعرض على زيد ما يرغبه في البقاء معها .

أوحى الله الى النبي أن يرخص لزيد في طلاقها وأن يتزوجها هو . وكان أمر التكليف هذا شاقا على النبي في ذلك الوقت لأنه وإن كان قد قضى على كثير من عادات الجاهلية خصوصا الأكلحة ككناح الاستطراق وغيره . إلا أن عادة تحريم زوجات الأدياء (الأبناء المتبنين) كانت بسنلة تحريم زوجات الأبناء الشرعيين بلا فرق . والشريعة الإسلامية قد حرمت كناح زوجة الابن الشرعى ولا فرق بينه وبين الابن الادعائى فى نظر القوم . فابطال هذه العادة لم يكن أمرا هينا فلماذا أمهل الرسول أمر تنفيذه رجاء أن يرفعه الله عنه ولكن المولى الفعال لما يريد عاتبه على ذلك وأمره بأن ينفذ هذا الفعل وإن يتحمل هذه التضحية الشديدة بنفسه ليكون قدوة لغيره . ولأنه إن لم يفعلها فلا يستطيع أحد سواه أن يجرؤ على فعلها كقوله : « وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » . والحكمة البالغة فى ذلك الزواج هو القضاء على اعتبار الأدياء كالأبناء الشرعيين ، لأن فى ذلك مخالفة لحكم الله الذى قصر التحريم على زوجة الابن نسا أو رضاعة فقط .

وعلى هذا يكون زواجه عليه الصلاة والسلام بزيب من الضرورات التى اقتضاها التشريع وهو فرض عليه ولا مناص له منه .

ولقد كانت قصة زيب هى احدى هذه الأكاذيب التى احتفل رواة القرون الوسطى بتزويقها وترويجها . كتبها الراهب «فيدزيو» (Fidzio) فى مقال بعد تنميق مقدماتها على أسلوب القصص الغرامية :

كان هناك رجل يسمى سيدروس (زيد) له زوجة تسمى زيب -- هكذا -- وكانت هذه الزوجة أجمل نساء الأرض فى زمانها . «محمد» بجمالها الرائع فشفقت بها حبا . وأراد أن يراها . فتمسك بفرصته فى غيب زوجها يسأل عنه . فقالت له الزوجة ! ماذا تبغى يا رسول الله . ماذا جاء بك عندنا ؟ إن زوجى قد ذهب الى عمله . ولم تخف المرأة خبير الزيارة عن زوجها الذى سألتها عند عودته : هل كان رسول الله هنا ؟ فقالت : نعم كان

هنا .. قال : هل رأى وجهك ؟ قالت : نعم رآه وأطال النظر اليه . فقال الزوج حينئذ : لا عيش لى معك بعد الآن .

ومضى الراهب (الملقب) فى سرد القصة على هذا النمط مستشهدا لها بسا ورد من حديث زيد وزوجته فى سورة الأحزاب . فتست (الأحدث) عند سامعها بشاهد من كتاب الاسلام ، وأضاف اليها هذا المؤلف وغيره ما اختاروا أن يضيفوه من كلام السيدة عائشة . ومن مناسبات الوحي فى هذه السورة . فخيّل اليهم أنها حديث لاحيلة فيه للسامع غير التصديق والتأمين . وغير العجب بعد ذلك من خلائق نبي المسلمين .

وكتب « ر . ف . بودلى » فى كتابه الرسول « حياة محمد » ص ٢٤٠ فى هذه الأكذوبة قوله : وان السيدة الثانية التى صادفت فى نفس محمد هوى . قد أحدثت رجّة فى دور النبي أكبر مما أحدثته « أم سلمة » .. وقد كانت فى الواقع صدمة لكل انسان . وقد أصبحت هدفا للنقد وموضوعا للتندر خارج دائرة الأسرة . وكان اسمها « زينب » . وما كانت تتصل « بزینب » الأخرى التى كانت ترقد رقدتها الأخيرة بأى سبب .

وكانت زينب هذه حفيدة عبد المطلب وابنة عمّة محمد . وقد هاجرت الى المدينة قبل محمد بقليل . ولكنها لسبب من الأسباب لم تتزوج على الرغم من أنها اقتربت من الثلاثين . وقد زوجها محمد عقب الهجرة بقليل من صديقه وعبد المحرر زيد بن حارثة . وكان زيد قبيح المنظر وكان قصيرا ألقى الأنف . غير مثقف . ولو نحينا أماتته للاسلام وشجاعته الشخصية العظيمة . لما كان له الا القليل ليقدمه الى سيدة جذابة ارستقراطية كزينب . وقد قبلت زينب الزواج بسبب اصرار محمد . ولكنها لم تحب زيدا أبدا . وما كان زيد نفسه رجلا يفهم الناس فلم يكن يدرى كيف يعامل زوجته المدللة .

وفى يوم من الأيام ذهب محمد ليزور زيدا . فلما لم يجبه أحد طرق الباب ونادى ، ثم دخل بيت زيد حيث اطلع على زينب الفاتنة . وكانت نصف عارية . فأثر هذا فى عواطفه حتى قال : سبحان مقلب القلوب . ثم هروا خارجا فى ارتباك .

رأت زينب نظرة محمد في عينيها . وقد سمعت ما قال ولاحظت كيف نطق بما قال . فقدرت ما سيعقب هذا القول . فلما عاد زوجها الى البيت أنبأته بما حدث فما تركت تفصيلا . وأضافت تفاصيل قليلة من عندها . وان أول شيء فكر فيه زيد بعد أن انتهت من سرد قصتها كان سيده الحبيب . فانطلق الى محمد رأسا وعرض عليه أن يطلق زوجته . فأثرت تضحية زيد بنفسه في محمد . فأخبره أن يعود الى زينب والا يفكر في ذلك ثانية .

وكان لزينب أفكار آخر : فكانت تعرف ما يحسه محمد نحو النساء . وكانت متيقنة من احساسه نحوها . وكانت قد ضاقت ذرعا بزيد . وكانت ترغب في أن تعيش كما يؤهلها كرم مولدها فابتدأت بجعل حياة زيد جحيما فطلقها ليفر من الاضطهاد المنظم . وانتظر محمد حتى انقضت الفترة المقررة بين الطلاق والزواج . ثم ضم زينب الى زوجاته فابتدت المتاعب .

وقول بودلى : وان هؤلاء الرجال . على كل حال . لينظرون الى الأمر من زاويته الخطأ فانهم لا ينقلون أنفسهم الى مجتمع ذلك الوقت أو حتى الى المجتمع الشرقي . فان للعرب اليوم . وانما للرجال العطاء أمثال ابن السعود . والمحكام أمثال سلطان مراکش أن يعيدوا قصة زينب مرات عديدة في حياتهم التي يحيونها في القرن العشرين هذا . فلو أن « عائشة » لم تضع الخطأ في الحروف لكان من المحتمل أن لا يقول أحد شيئا عن ذلك في المدينة عام ١٩٠٠ .

كانت العلاقة الجنسية شغل العرب الشاغل في ذلك الوقت . كما هي اليوم الى حد ما . وما كان يتحدث فيها محرما كما هو حدث بين كثر من الغربيين . وكانوا ينظرون اليها كعامل من عوامل السرور والسرور والسرور . ويعتبرونها شيئا عاديا . ويقولون :

وانه لما يذهل العرب تفاق الغربيين العجيب فيما يتعلق «بأملاكهم» فانهم ليرون أن رجال القارة الأوربية والقارة الأمريكية «تسعدون» بالسرور عنهم في شيء فان لهم نفس شعورهم ولكنهم ينظرون الى «سرور»هم بالسرور بالعواطف الجسدية المزروجة للذكر والأنثى كمنظورهم التي وديلة كمنظور السرور سرا . ولذلك يبدو لكثير ممن كتبوا عن محمد أن ارتباط محمد بزينب .

ومحمد بعائشة ومحمد بجورية بنت الحارث وقد أسرت في غارة ولم تدفع ديتهما وقد أصبحت زوجة محمد الثامنة بعد زينب شيئا غير عادى . ولكنه ليس بشيء غير عادى اذا قورن بعادات زواج الحكام الآخرين في هذا الجزء من العالم كسليمان وداود . فلم يكن لمحمد حريم كبير كحريم سليمان أبدا . وان قصة زينب أكثر بساطة ولا ريب من قصة يتشيبا أو أحنوم زوجة أبيجبال التي أعجب داود بها في ليلة عرسه .

وينبغي ألا ينظر الى حياة محمد الزوجية من وجهة النظر الغربية . وألا تقاس بالشرائع المسيحية . فان هؤلاء الرجال والنساء ما كانوا غربيين وما كانوا مسيحيين فقد كانوا يعيشون في زمن وفي قطر لا يعرف فيه الا أقيستهم الأخلاقية فحسب . حتى اذا كان ذلك فليس هناك من سبب لا اعتبار الأحكام الأوربية والأمريكية أعظم من الأحكام العربية . ان عند رجال الغرب الشيء الكثير الذى يعطونه لأهل الشرق . وانهم في احتياج الى أخذ الشيء الكثير أيضا . والى أن يستطيعوا أن يترهنوا على أن طريقة عيشهم أعلى خلقيا من أى شعب آخر . فان عليهم أن يحتفظوا بحكمهم على العقائد والطوائف في البلاد الأخرى .

وقوله : وان هذا الزواج من زينب قد مكن الغربيين وعلى الأخص أولئك الذين يعتقدون أن محمدا لا يصلح لشيء طيب من أن يقولوا : « لقد قلنا لكم ذلك ! فما الذى تنتظرونه غير ذلك من هذا المخادع الكبير » . ويعلق الأستاذ الكبير المرحوم عباس محمود العقاد على هذا الافتراء فيقول :

ليس أسهل من شيوع هذه الأكذوبة وترويجها وتنميقها واخراجها في قصة غرام تذاع للتشهير برسول الاسلام . كما شاعت في القرون الوسطى . وليس أسهل من اسقاطها واسقاط المروجين لها بخبر واحد لاشك فيه من أخبارها الكثيرة . وهو أن زوجة زيد كانت بنت السيدة أميمة بنت عبد المطلب عمه النبي عليه السلام . وان النبي عليه السلام . هو الذى زوجها من ربيبه وعتيقه زيد . وما كان جمالها خفيا عليه قبل تزويجها بمولاه . لأنها

كانت بنت عمته يراها من طفولتها وتراه . ولم تفاجئه بروعة لم يعهد لها . وهو لا يطمع الى الزواج من مثلها . ويكفى أن يعرف هذا الخبر لتسقط الأكذوبة كلها . وشيء من التفصيل القليل لهذا الخبر يعكس الفضيحة على المبطلين ليعلموا حقيقة القصة المحرفة ويعلموا أنها آية الخلق الكريم في نبي المسلمين وأن زيدا الذي زوجه النبي من بنت عمته لم يكن الا أسيرا عتيقا رباه النبي فأخلص له ولدينه .. وآثر المقام في جواره على الرجوع الى أهله بعد تسريحه ، ورفع السيد الكريم عن عبده العتيق ذلة الرق بصاهرته . والمساواة بينه وبين كرام أهله . وأطاعت الزوجة أمر النبي كما ينبغي لمثلها مع مثله ، ولكنها عاشت مع زوجها كسيرة الخاطر لما كانت تتبينه من نظرات لداتها وقريناتها اليها . ويشعر زيد بما تضره من الحزن والأنتفة ، فيهم بتطليقها ولكنه يستكبر أن يقابل جليل النبي برفض الزوجة التي اختارها له وميزه بها على صحبه . فارتفعت بنبي الاسلام مروءته الى حيث ينبغي أن ترتفع مروءة الأنبياء ، وأحل زيدا من حرجه . وعوض زينب عن مهاتها بعد ويعلم الناس أنها كفاء له وان كان قد اختارها لنفسه التي كان يتبناه . ولولا ذلك لعاشت الزوجة المطلقة معضلة بين لداتها وأترابها . وهي لا ترضى في الزواج من كفاء لها بعد تطليقها . وليس مما يجبر خاطرها تكبير أن ترضى اليها الزوج الذي يكافئها وتكافئه مأمولا بزواجها .

وقال الأستاذ العقاد : تلك قصة أرسلوها في غياش الحروف ليوستين لينظر الناس في ظلماتها الى وحشة انسانية يعاف من أجلها خلق الاسرار ويعاف الدين الذي يدعو اليه من أجله .

ويزيد عليها خبر صغير لاشك فيه . فإذا هي شهادة وأنبؤد كالحب ما تكون الشهادة للأنبياء . لأنها شهادة بغاية البر والاحسان التي تولى الضعيف الغريب عن أهله ووطنه . وغاية البر والاحسان التي تولى في عزتها ، بعد أن غلبها ضعف الأنوثة والعرف على شعورها . وكانت فضيلة الصدق . مع فضيلة العفة . أكبر الإهدى التي تسادها أصحاب هذه المكيدة بالانكار فيسا زيفوه من القصص المحرفة عن مصنفات النبي (صلى الله عليه وسلم) .

وفي هذه أيضا كانت لهم مهارتهم الرخيصة لأنها سهلة الشيوع سهلة التنفيذ ، فكل ماتوارد من الأنباء بين القرآن والكتب الاسرائيلية فهو وحى صادق في كتب بنى اسرائيل ، ونقل غير صادق في كتاب الاسلام ، مع التحريف والخطأ أحيانا في الرواية عن الكهان اليهود والكهان المسيحيين وقد كان رواج هذا الزعم سهلا سريعا بين أبناء القرون الوسطى ، لأنهم كانوا يعتقدون جسيما أن الكتب الاسرائيلية هي مصدر تلك الأنباء الأول ، وان الاختلاف فيها انما يكون بطبيعة الحال تحريفا أو خطأ في النبأ الذي جاء بعد تلك الكتب بترتيب التاريخ .

ولقد فند الأستاذ الكبير مزاعم المستشرقين وغيرهم عن علاقة محمد بالمرأة في كتابه « عبقرية محمد » فقال : فهو أولا رجل يطلب ما يطلبه الرجل في المرأة . ونحن قبل كل شيء لا نرى ضيرا على الرجل العظيم أن يحب المرأة ويشعر بتعتها ، هذا سواء في الفطرة ، لا عيب فيه ، وهذه النفس السوية يمكننا أن نفهمها بجلاء حين نرى أن المرأة لم تشغله عما تشغل المرأة الرجل المفروض في معرفة النساء من مهام الأمور والقيام بالأعباء الجسام . فسيما قال هؤلاء فلن يستطيعوا أن ينكروا أن محمدا قد حقق ما لم يحققه بشر قبله ولا بعده ، ولم يشغله عن هذا شيء ، لا امرأة ولا غير امرأة . فان كانت عظمة الرجل قد أتاحت له أن يعطى الدعوة حقها ويعطى المرأة حقها ، فالعظمة رجحان وليست بنقص ، وهذا الاستيفاء السليم كمال وليس بعيب . ومحمد الذي خير نساءه بين أن يرضين بحياة الكفاف أو يصرهن سراحا جسيلا ليس بالضرورة رجلا خاضعا للذات حسه ، فلو شاء لأغدق عليهن النعمة وأغرقهن في الحرير والذهب وأطايب الملذات ، وليس هذا فعل رجل يستسلم للذات حسه .

ويقول العقاد : قال لنا بعض المستشرقين : ان تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية . قلنا انك لاتصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية لأنه لم يتزوج قط . فلا ينبغي أن تصف محمدا بأنه مفرط الجنسية لأنه جمع بين تسع نساء . . .

فالنبي --- صلى الله عليه وسلم --- أمكنه أن يسوس تسع زوجات ولم يؤثر عنهن خصام أو نزاع الا مرات تعد على أصابع اليد ، فمن أتيح له أن

يجمع بين عدد من الزوجات فعليه أن يقتدى به في معاملة زوجاته بالعدل ومعالجة الشؤون المنزلية بالأناة وسعة الصدر ، وعلى النساء أن يتخذن من زوجات النبي الكثيرات مثالا صالحا يحتذينه من العفة والزهد وتدبير المنزل والرضا بما قدر لهن من متاع في هذه الحياة الدنيا ، وبذلك تسعد الأسرة بتسامها وتقوم بواجبها نحو الله ونحو المجتمع الانساني .

ولو أن المسلمين وغيرهم تأملوا في حياة النبي -صلى الله عليه وسلم- مع نسائه ، واقتدوا به في معاملة الأزواج والأبناء والأقارب كما أمرهم الله لعاشوا عيشة راضية مرضية (انتهى تعليق العقاد) .

هذه بعض الأسرار التي من أجلها شرع الله لنبيه أن يجمع بين عدد من الزوجات ، فلم يعدد النبي الزوجات لمجرد قضاء الشهوة . كما يدعى الداعون ويتشدق المتشدقون من المبشرين والمستشرقين الذين لم يتعقبوا في الدراسة ويقفوا على حقيقة الأمور . ولكن العصبية الدينية هي التي ضمت قلوبهم . وأبعدت الحقائق عن عقولهم وشلت القلم من أن يكتب الحقائق . لينقصوا من قدر نبي الإسلام ، وهو كسل خلق الله أخلاقا وأعفهم نفسا وزهدهم في متاع الحياة الدنيا . وقد حرم الله عليه أن يتزوج غير نسائه أو يمس واحدة منهن بغيرها وقد عرفت أنه كان منهن الطاعنة في السن ومنهن غير الجميلة ولم يكن من بينهن من يصح أن يستمتع بها سوى واحدة أو اثنتين . فإذا كان محمد شهويا . وكان يشرع لنفسه ما يوافق شهوته فإف حرم على نفسه أن يتزوج من تصبو إليه نفسه . ويلزمها أن تبقى مع من لا تشتهي النفس عادة . انه بهذا التشريع يعذب نفسه لا يعذب . ثم قيل له : « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن » . ويقول البعض أن هذه الآية منسوخة . ولكنهم عدوا أن الآية أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يتزوج أبدا بعد هذه الآية . كان محمد شهويا لأجاب داعي الشهوة وهو في عنقوان شبيهة منسوخة في بيئة تغلب عليها الإباحة والفوضى في الفروج الى حد أن الزوج كان يبعث بامرأته الى من ينكحها لتلد مثله . وهو نكاح الاستطراق . ومع هذا فلم يستطع أعداؤه الألداء وخصومه الأقوياء أن يأتروا عنه صغيرة ولا كبيرة

تخل بمقامه الكريم . وهل يصدق العقل أن شابا قوى البدن جميل الصورة ينشأ في بيئة اباحية في النساء ، فيعف عنها ويتجنبها في كل ملاذها وشهواتها الى حد أنه يهجر مجالسها التي تشتمل على اللهو والخلاعة فكان لذلك مقدسا عندهم جميعا يلقبونه « بالصادق الأمين » فهل تصدق أنه حينما انقضى عهد شبابه ودخل في سن الشيخوخة انقلبت طبيعته وأصبح شهويا كلفا بالنساء خصوصا بعد أن ينصبه الله لارشاد الناس ، ويسن لهم قواعد الفقه والبعد عن الشهوات الضارة ؟ حقا انه كذب وافتراء على نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم . ألم يقض محمد عهد شبابه كله مع السيدة خديجة التي تزوج بها وهي أكبر منه سنا فكان لها وفيا كل الوفاء في حياتها وبعد مماتها . واذا كان محمد شهويا فما باله اقتصر على السيدة خديجة مع أن بيئته كانت مسلووة بالنساء اللاتي يحدقن به من جميع النواحي ؟ هل يستطيع أحد من جهلة المبشرين أو المستشرقين أن ينقل عن أحد من المشركين أعداء محمد الألداء أن محمدا اعتدى على امرأة أو ساقته شهوته الى الاشتراك مع أهل بيئته في ملاذهم الفاسدة مرة واحدة .

وهل من المعقول أن يحكم المرء شهوته وهو شاب جلد سليم البدن حتى اذا ما فات سن الخمسين غلبته شهوته .. هذا كلام والله لا يقوله الا قوم غافلون .. هذا هو الافتراء المشهور في أباطيل المبشرين وأشباه المبشرين ، وهذه هي بواعث النفس التي استعصى على المبطلين أن يفهموها على جليتها ، فلم يفهموا منها الا أنها بواعث انسان غارق في لذات الحس ، شهوان .

وهؤلاء المضللون يعرفون من كتب السيرة والحقائق أن هؤلاء الزوجات أقمن في بيت لا يجدن فيه من الرغد ماتجده الزوجات في بيوت الكثير من الرجال مسلمين كانوا أو مشركين . وعلى هذا الشرف الذي لا يدانيه عند المرأة المسلمة . شرف الملكات أو الأميرات . شقت عليهن شدة العيش في بيت لا يتسبب فيه من الطعام والزينة فوق الكفاف والقناعة بأيسر اليسير . فاتفقن على مفاتحته في الأمر واجتمعن يسألنه المزيد من النفقة وهي موفورة لديه لو شاء أن يزيد في حصته من الفء فلن يعترضه أحد ولا يحاسبه عليه غير أنه حكيم في الأنفس والأموال ، سيد الجزيرة العربية ، لم يستطع أن

يزيدهن على نصيبه ونصيبهن من الطعام والزينة ، فأمهلهن شهرا وخيرهن بعده أن يفارقه ولهن منه حق المرأة المفارقة من المتاع الحسن ، أو يقبلن ما قبله لنفسه معهن من ذلك العيش الكفاف .

ولو أن هذا الخبر من أخبار بيت النبي كان من حوادث السيرة المحمدية التي قد تخفى على غير الباحثين ، لكان للسبطين بعض العذر فيما يفترونه على نبي الإسلام من كذب وبهتان . إلا أنه خبر يعلمه كل من اطلع على القرآن ووقف على أسباب التنزيل ، وليس بينها ما هو أشهر في كتب التفسير من أسباب نزول هذه الآيات : « يأيتها النبي قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراح جميلا وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما » (الأحزاب) .

وقد ذكر « واصف باشا بطرس غالى » فى كتابه « فروسية العرب المتوارثة » وهو وان كان قبطيا مسيحيا فان لأقواله قيمة عظيمة الرد الصحيح على ما جاء به (بيرون) من الادعاءات والتعصب .

يقول واصف : كان « محمد » يحب النساء ويفهمهن . وقد عمل جهد طاقتة لتحريرهن وربما كان ذلك بالقدوة الحسنة التي استنتها فوق ما هو بالتواعد والتعاليم التي وضعها . وهو يعد بحق من أكبر أنصار المرأة العمليين ان لم يكن أولهم . فلتد كان بهن رحيمًا وعلين حليما . وكان لين الجانب كثير العطف عليهن . عظيم الاحترام والتكريم لهن . لم يكن ذلك خاصا منه بزوجاته بل كان ذلك شأنه مع جميع النساء على السواء .

واقراً مثل ما كان يكتبه الكثير من رجال الكنيسة فى حق المرأة . فان يقول أحدهم « سان بونافنتور » الى تلاميذه : اذا رأيتم امرأة فلا تحسبوا أنكم ترون كائنا بشريا ، بل ولا كائنا وحشيا ، وانسا الذى ترون هو الشيطان بذاته ، والذى تسمعون هو صفير الثعبان .

واليك ما كتبه المستشرق « الفونس اتين دينيه » فى كتابه « محمد رسول الله » خاص بتعدد الزوجات قال : ولن نخاطر هنا محاولين الدفاع عن

عادة يحصل عليها الناس بثل هذه الشدة . لكننا تقتصر على عرض بعض الملاحظات :

فالواقع يشهد بأن تعدد الزوجات شيء ذائع في سائر أرجاء العالم ، وسوف يظل موجودا ما وجد العالم مهما تشددت القوانين في تحريمه ولكن المسألة الوحيدة هي معرفة ما اذا كان من الأفضل أن يشرع هذا المبدأ ويحدد . أم أن يظل نوعا من النفاق المتستر لاشيء يقف أمامه ويحد من جماحه •

وقد لاحظ جميع الرحالة الغربيين • ونخص منهم بالذكر « جيرالدى نيرفال » و « الليدى موجان » ، أن تعدد الزوجات عند المسلمين — وهم يعترفون بهذا المبدأ — أقل انتشارا منه عند المسيحيين الذين يزعمون أنهم يحرمون الزواج بأكثر من واحدة ، وليس ذلك بالأمر الغريب على الفطرة البشرية . فالمسيحيون يجدون لذة الشرة المحرمة عند خروجهم على مبدئهم في هذا ••

ولكن هل تعدد الزوجات . حقيقة ، أمر يصح أن نعلق عليه كبير اهتمام في عصرنا هذا ؟ لأنه ليس من مقتضيات الحياة الحديثة . ولندع جانبا كل الظروف الأخرى التي تجعل من العسير جدا وجود تعدد الزوجات في المدن الكبيرة : وسوف يزول هذا الأمر بين المسلمين الذين يأخذون بأسباب الحضارة الحديثه خلال فترة قصيره • واذا كان مبدأ التعدد سوف يبقى فلن تجده مطبقا الا في قلب البادية حيث تضطر الناس اليه في ظروف الحياة التي لا مفر منها •

ومع ذلك فاننا نتساءل : هل في زوال تعدد الزوجات فائدة أخلاقية ؟

ان هذا أمر مشكوك فيه ، فالدعارة التي تسدر في أكثر الأقطار الاسلامية ، سوف تنفشي فيها وتنتشر آثارها المخربة ، وكذلك سوف يظهر في بلاد الاسلام داء لم تعرفه من قبل ، ذلك هو عزوبة النساء التي تنتشر بآثارها المفسدة في البلاد المقصور فيها الزواج على واحدة . وقد ظهر ذلك فيها بنسبة مفرعة ، وخاصة عقب فترات الحرب •

وقد كتب « شارل دوماس » عن المسلمين ، في إحدى دراساته حول مستقبل المستعمرات الفرنسية : ان جنسا لا يمكن أن يتحرر قط اذا قضى على نصفه (يعنى النساء) بالرق الأبدى •

ولقد دافع الفونس نفسه عن مبدأ تعدد الزوجات دفاعا مجيدا في رسالته القيمة « أشعة خاصة بنور الاسلام » ونحن ننقل دفاعه الرائع فيما يلي :

مسايرة الطبيعة : لا يتسرد الاسلام على الطبيعة التي لا تغلب ، وانسا هو يساير قوانينها ويزاول أزمانها بخلاف ما تفعل الكنيسة من مغالطة الطبيعة ومصادمتها فى كثير من شؤون الحياة ، ومثل ذلك الفرض الذى تفرضه على أبنائها الذين يتخذون الرهينة . فهم لا يتزوجون ، وانسا يعيشون غرباء •

على أن الاسلام لا يكفيه أن يساير الطبيعة . وان لا يتسرد عليها وانسا هو يدخل على قوانينها ما يجعلها أكثر قبولا وأسهل تطبيقا فى اصلاح ونظام ورضا ميسور مشكور . حتى لقد سى القرآن لذلك (بالهدى) لأنه المرشد الى أقوم مسالك الحياة . ولأنه الدال على أحسن مقاصد الخير •

والأمثلة العديدة لاتعوزنا . ولكننا للتصريح بأشهرها . وهو التساهل فى سبيل تعدد الزوجات . وهو الموضوع الذى صادف النقد الواسع . والذى جلب للاسلام فى نظر أهل الغرب مثالب جملة . وممانع كثيرة .

ومما لاشك فيه أن التوحيد فى الزوجة هو المثل الأعلى . ولكن ما العمل وهذا الأمر يعارض الطبيعة ويصادم الحقائق . بل هو الحال الذى يستحيل تنفيذه ؟ لم يكن للاسلام أمام الأمر الواقع . وهو دين اليسر . الا أن بسنيين أقرب أنواع العلاج . فلا يحكم فيه حكما قاطعا ولا يأمر به أمرا باتا •

والذى فعله الاسلام أول كل شىء . انه أنقص عدد الزوجات الشرعيات . وقد كان عند العرب الأقدمين مباحا دون قيد . ثم أشد بعد ذلك بالتوحيد فى الزوجة فى قوله : « وان خفتن أن لاتعدلوا فواحدة »

وأى رجل فى الوجود يستطيع أن يعدل بين زوجته المتعددة ؟ ولذا كان التعدد بهذا الشرط مستحيل التنفيذ . ولكن انظر كيف وضعه الاسلام وضعا هو غاية فى الرقة والدقة واللفظ مع الحكمة •

ثم انظر هل حقيقى أن الديانة المسيحية بتقريرها الجبرى لفردية الزوجة والتوحيد فيها ، وتشديدها فى تطبيق ذلك قد منعت تعدد الزوجات ؟ وهل يستطيع شخص أن يقول ذلك دون أن يأخذ منه الضحك مأخذه؟ والافهؤلاء ملوك فرنسا ، دع عنك الأفراد ، الذين كانت لهم الزوجات المتعددت والنساء الكثيرات ، وفى الوقت نفسه لهم من الكنيسة كل تعظيم واکرام ، ان تعدد الزوجات قانون طبيعى ، سيبقى ما بقى العالم . ولذلك فان ما فعلته المسيحية لم يأت بالغرض الذى أرادته . فانعكست الآية معها ، وصرنا نشهد الاغراء بجميع أنواعه ، وكان مثلها فى ذلك مثل الشجرة الملعونة التى حرمت ثمراتها فكان التحريم اغراء .. على أن نظرية التوحيد فى الزوجة .. وهى النظرية الآخذة بها المسيحية ظاهرا تنطوى تحتها سيئات متعددة ظهرت على الأخص فى ثلاث نتائج واقعية شديدة الخطر جسيمة البلاء ، تلك هى الدعارة والعوانس من النساء ، والأبناء غير الشرعيين .

وان هذه الأمراض الاجتماعية ذات السيئات الأخلاقية لم تكن تعرف فى البلاد التى طبقت فيها الشريعة الاسلامية تمام التطبيق ، وانما دخلتها وانتشرت فيها بعد الاحتكاك بالمدينة الغربية .

ومن الأمثلة القائمة على ذلك : ما كان من أمر وادى ميزاب . حيث تسكن القبيلة التى بهذا الاسم فى بلاد الجزائر اذ لم تدخلها الدعارة الا بعد ضمها الى فرنسا عام ١٨٨٣ ، وقد وصل بها الحال اليوم أن أربع بلدان من مجسوع كله سبع بلدان قد ابتليت بهذا الداء الوبيل .

ومما نرويه من هذا القبيل : ماجاء فى كتاب « الاسلام » تأليف « شتزدومولان » : انه عندما غادر الدكتور « مافروكور داتو » الأستانة ١٨٢٧ الى برلين لدراسة الطب ، لم يكن فى العاصمة العثمانية كلها بيت واحد للدعارة . كما لم يعرف فيها داء الزهري (السفليس المعروف فى الشرق بالمرض الأخرس) فلما عاد الدكتور بعد أربع سنين أى سنة ١٨٣١ تبدل الحال غير الحال .. وفى ذلك يقول الصدر الأعظم الكبير رشيد باشا ، فى حسرة موجعة « اننا نرسل أبناءنا الى أوروبا ليتعلموا المدينة الأفرنكية ، فيعودون الينا مرضى بالداء الأفرنكى » .

وهنا سؤال يجرى على ألسنة اللادينيين ، قالوا : لم جاز تعدد الزوجات دون تعدد الأزواج ؟

والجواب عن ذلك : أنه يقضى بداهة الى اختلاط الأنساب ، فيقع اللبس فى نسبة النسل ، ولا يخفى أن ذلك يقضى الى تعطيل كثير من الأحكام الدنيوية ، كالنفقة والارث وغيرهما .

ومسألة أخرى ، وهى أنه لم جاز للمسلم أن يتزوج كتابية بخلاف العكس ؟

وجوابها : ان الاسلام جعل لكل كتابى أن يبقى على دينه ، فالكتابية فى يد المسلم آمنة على دينها بخلاف العكس ، فان المسلمة فى يد الكتابى لاتأمن أن تفتن فى دينها ، فانه لا وازع له من دينه . يحول بينه وبين فتنة غيره ، ولاسيما من له عليه سلطان كزوجته ، والناظر لما يفعل دعاة النصرانية فى العصر الحاضر يرى جليا وجه ماقلناه ، ومن هنا يعلم أن المرأة لم تبخس شيئا مما منحه الرجل .

الطلاق : وما عد وصمة فى الاسلام ، اباحة الطلاق ، فلقد أباحه الله للمسلمين لأنه قد تدعو اليه الضرورة القصوى ، أما حيث لا ضرورة فسماه النبى أبغض الحلال الى الله ، كما أن المسلمين اتفقوا على النهى عنه عند استقامة الزوجين ، فمنهم من قال : انه نهى كراهة ، ومنهم من قال : نهى تحريم . . . وقد نهى الرسول عنه فى قوله : لا ضرر ولا ضرار .

ولقد كرهه . كما بينا من قبل . الرسول أن يطلق « زيدا » زوجته زينب مع أنها كانت تكثر من ايدائه والاستخفاف به .

أما الطلاق بسبب فلم يرفضه أحد ، ولكن اختلفوا فى بيان أسبابه . قال ابن عابدين : وأما الطلاق فلا يملك فيه الحظر نهى الحرمة . . . بل الحاجة الى الخلاص . فإذا كان بلا سبب أملا لم يكن فيه حرج . . . بل يكون حقا وسفاهة رأى ومجرد كبران للمنعة واليبس . . . وأولادها . . . ولذا قاموا ان سببه الحاجة الى الخلاص . . . وعروض البغضاء الموجبة عدم اقامة حدود الله تعالى . فحيت تجرد عن الحاجة

المبيحة له شرعا يبقى على أصله من الحظر ، ولذا قال تعالى : « فان أظعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » أى لا تطلبوا الفراق .

أما غير المسلمين ، فمنهم من لم يجوز الطلاق أصلا الا للزنا . كالأمة الانجليزية ، فأيهما اقترفه كان للآخر أن يرفع الأمر الى المحكمة ليفصل القاضى بينهما ، أما أهل الولايات المتحدة بأمريكا فكانوا على هذه السنة ، ثم وجدوا أن هناك أسبابا أخرى يتحتم معها الطلاق ، ولكن لافرقه عندهم الا بقضاء قاض ، ولا بد لجميعهم — يوما — أن يرجعوا الى ما قرره الاسلام من الأسباب ، نعم ، الشريعة الاسلامية لم توقف تنفيذ الطلاق على حكم الحاكم ، وقصار النظر من الناس يرون أن الأول أعدل . لأن فيه محاسبة الرجل والمرأة على ما يعسلان ، فلم يخل السبيل للرجل يفعل ما يريد ، ولكن دين الاسلام أقوى ركنا وأحكم وضعا وأبعد مرمى ، فلم يفعل ذلك الا لحكمة صالحة . ذلك أن فى تطبيق الطلاق على حكم القاضى ، بثبوت الزنا أقبح تشهير للمقترف ، وأشنع سبة تنفر من مرتكبه القلوب ، وتشوه سمعته فى العالم ، ولا سببا فى مثل هذا العصر الذى تظوف جرائمه فى أنحاء العالم ، مشحونة بتفاصيل ما يعرض فى المحاكم من هذه القضايا آتية على ما قل منها وما جل .. فمن ذا الذى يقبل على تزوج رجل أو امرأة قطعت سمعتها الشنعاء المشارق والمغارب ؛ وسوف يقضى ذلك الرجل وتلك المرأة ما بقى من عمرهما فى بعد وجفوة ولو استقاما بعد ذلك وأصلحا .

ولا مجال للكثير من القول فى الطلاق ، فالواقع أن الشكوى ترتفع من الاجراءات نفسها لا من ذات المبدأ ، ويكفى أن تتأمل الآيتين الكريستين « وان خفتن شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ان يريدوا أصلاحا يوفق الله بينهما ان الله كان عليسا خيرا » (النساء — ١٣٠) .

وحق الطلاق ليس فقط من حق الزوج أو لفائدته هو وحده بل انه وضع كحل فى مشكلة الزوجة أيضا ، كما جاء فى حديث جميلة زوجة ثابت ابن قيس التى جاءت الى النبى — صلى الله عليه وسلم — تطلب الطلاق من زوجها قائلة : يا رسول الله انى لا تجد عيبا فى ثابت ، فى خلقه أو دينه الا أنى

لا أطيعه . فلما سئلت هل ترد له البستان الذي أمهرها اياه وأجابت بالقبول ،
أمر النبي ثابتا أن يسترد بستانه ويطلقها .

وقد ورد أن امرأة ذهبت الى النبي - صلى الله عليه وسلم - طالبة
الطلاق من زوجها قائلة ان ما معه كهديبة الثوب .. وكان أبو بكر حاضرا فقال
له - صلى الله عليه وسلم - انظر يا أبا بكر الى ما تجهر به هذه عند
رسول الله . فصار أبو بكر يقول لها : استحيي يا امرأة . وكان معها غلامان .
فسألها رسول الله هل هسا ولداها منه فأجابته : نعم . فقال لها : انهما أشبه
بأبيهما من الغراب بالغراب . ولم يقض لها بالطلاق .

ولاشك أن أساس حكم النبي في الحالتين كان رعاية لصالح المجتمع ،
فالزوجة الأولى كانت حديثة زواج لم تنجب . فلم يكن هناك أسرة يخشى
على كيانها .. أما في الحالة الثانية .. فان كيان الأسرة له حقوق فلا يجدر
بالزوجين الا أن يغلبا عقلهما على شهواتهما .

ان لنا أن نجزم بأن نصوص الشرع لم تضع امرأة أبدا موضعاً مهيناً
وإذا كان بين الرجال من يسىء استعمال حق تعدد الزوجات والطلاق . وهما
تشريعان ضروريان لعلاج حالات ضارة بالمجتمع . فعلاج ذلك هو التنظيم
الذى يلزم كل انسان حده والتعليم الذى يبين للعممة مرامى الشرع .
أما الاسلام فانه جعل للقاضي فسخ الأناكحة في أمور لا ييسر في اعلانها
بل ان اعلانها هو المصلحة الكبرى . من ذلك : العنة والجنون والبرص
والجذام . والاعسار بالفتنة والكسوة والمسكن . مما تراود ميسوما في كتب
الفقه متى رجعت اليها .

أما غير هذه الأسباب مما قد لا يزول أو يكون هذلياً كبيراً فخطيب في
بقائه . فللرجل أن يطلق من غير أن يكلف بيانه فيه . أما نحن فليس كذلك
الذى يخفى كثيرا من النقائص . رجاء أن تزول من قبل أن يولد من جديد
وما أرففه بالانسان الذى قد ينفو ثم يبدو له الجوز كجوز من قبل
هذا . وان الديانة المسيحية لم تمنع الطلاق قط . بل ان
الانجيل أن من طلق امرأته وتزوج أخرى فهو زاني . وهذا هو
الطلاق أصلاً .

واعلم أن الطلاق في الاسلام ، كما هو معلوم ، حق من حقوق الزوج :
 « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا
 من أموالهم » .

وكان الطلاق قبل الاسلام منتشرا في جميع أمم العرب ، لافرق بين
 يهودي أو مسيحي أو وثني ، وكذا بين الرومانيين ، فلقد اعتبر قانون «الموائد
 الاثنتي عشرة» الطلاق جائزا ، أما ما تشدق به بعض المتشيعين لهم من أنهم
 لم يعملوا بهذا القانون الا بعد خمسة قرون مضت من عهد تأسيس مدنيتهم
 « رومة » فلم يكن سببه ما يدعون من بغضهم الطلاق ، ولكن لأن الرجل في
 تلك القرون كان لا بد له أن يقتل امرأته عقابا لها على بعض الجرائم كالسكر
 فكانت عند الرجل كالرقيق . كما أنها اذا طلبت من زوجها الطلاق اعتبر ذلك
 منها قحة ونشوزا يخول له عقوبتها . نعم ، ان الرومانيين في أخريات أمرهم
 أن يسلحوا كثيرا من شأن المرأة . وأنصفوها . اذ ساووا بينها وبين الرجال في
 كثير من الأشياء .

يقول الأمير على : ان المعتزلة لا يجوزون وقوع الطلاق الا بحكم
 لقاضي الشرعي العادل فلا بد أن يستحن الأسباب بلا تحيز ، فيوقع الطلاق
 أو يرفضه حسبما يراه صالحا وهو ما يتجه التفكير اليه الآن في بلادنا .

ومن هنا يظهر أن من طوائف الاسلام من يعلقون وقوع الطلاق بحكم
 لقاضي فلا يصح عندهم وقوع الطلاق من الزوج الا بعد محاسبته وامتحان
 الأسباب التي يبيدها للفرقة ، وان من أكبر الدلائل على بغض الشرع للطلاق
 أن جعل للرجل أن يسترجع امرأته في الطلقة الأولى والثانية ، حتى يتروى
 وينتدبر . ويرجع اليه رشده حتى اذا طلق الثالثة ، وجبت عقوبته بعدم جواز
 الرجعة حتى تتزوج غيره لما تبين من أنه سفیه الرأي ضعيف العزم قال تعالى :
 « فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره » .

ومن هنا نجد أن الأصل في الطلاق التحريم الا بسبب . . ذلك أهم
 ما عني به المبسرون والمستشرقون من المطاعن في الدين الحنيف وصاحبه ،
 تجاوزوا حد الأدب مع خير دين ، وخير الرسل وخاتمهم .

الفصل الثامن الرق والحرية

الرق :

لهج كثير من المستشرقين ، ومن قبلهم المبشرون من أصحاب الأغراض الاستعمارية والصليبية ، بمسألة الرق في الاسلام ، واتخذوا منها مثلبة يسبون بها هذا الدين الحنيف . . وأسهبوا وأطالوا في ذلك كثيرا حتى لم يخل عصر من العصور من اثاره هذا الكلام في غير طائل .

ولو دقق هؤلاء البحث في الشريعة المحمدية ، وألموا بنصوص الاسلام ونظروا لهذه المسألة نظرة سليمة خالية من الهوى ، لأنصفوا أنفسهم ، وأنصفوا الاسلام ، وعرفوا أن فضله على الأرقاء عظيم .

شرع الاسلام العتق ولم يشرع الرق ، اذ كان السرقة منكرة عند سيد الاسلام في القوانين الوضعية والدينية بجميع أنواعه : رق الأسرى الحروب ، ورق السبي في غارات القبائل بعضها على بعض ، ورق البيع والشراء ، ورق الرق الاستدانة أو الوفاء بالديون .

وقبل أن نبين معنى الرق في الاسلام يحسن أن نستعرض ما كان عليه الرق قبل ظهور الاسلام في الأجناس والأديان .
قال بعض الباحثين : ان الاسترقاق ظهر في الدنيا منذ كان الإنسان البشري ، والحقيقة أن الاسترقاق مظهر من مظاهر القوة ، والذين يظهرون مظاهر الضعف . وقد كانت القوانين في الأزمان السابقة لا تميز بين القوي والضعيف ، ولا تردع قاهرا عن متهور ، فكان يترحم الناس على من يملك ما شاءوا من النواميس التي لا يرعى فيها عدل ولا انصاف ولا يحمي فيها أفراد الانسان فيما أهم وما عليهم . وكان محض ارادة المالك هي التي تحكم القانون الذي يجب السير على مقتضاه . ومن السنن العربية من أن الرق كان متساوين في القوى الجسدية والعقلية . وان العمل لكسب وسائل الحياة

أسعب الأمور وأشقها على النفوس . وان حب السيطرة غريزة فى الانسان ،
ومن هنا أخذ القوى يفكر فى التخلص من مشقة الأعمال ومكابدة الآلام ،
ويفرض سلطانه على من حوله من الضعفاء أو الأذلاء ليروى بذلك غلة
السيطرة ، وأصاب الأقوياء نجاحا فيما قصدوا ، فاتخذوا الضعفاء سخريا
يسخرونها فى أعسالهم ، ويعدونهم من أتباعهم ، ومن ذلك نشأ الاسترقاق .
ثم جاءت الحروب وكثرت المطامع فانبت الاسترقاق فى جميع أجزاء العالم ،
وعند كثير من الأمم ، وصار الناس لا يقتلون العدو بل يبقون عليه ليعمل
لهم . . .

ومن اطلع على التاريخ وجد أنه لا يكاد يخلو عصر من العصور من
وجود الرق بين أهله ، وجدت أصوله فى كل جاهلية ، ثم تعدتها الى ما كان
معها من الأمم المتحضرة ، وبقيت فيها حتى بعد بلوغها شأوا بعيدا من الحضارة
والمدنية . . .

فقد عرف الاسترقاق عند قدماء المصريين ، فكان الرقيق فى مصر أداة
من أدوات العمل . وعلامة من علامات العظمة . وكان الأرقاء من أنواع الزينة
تتصور الملوك وبيوت الكهان ودور المقاتلين .
وتقرر فى شرائع الهنود تقسيم جميع الأشخاص الملزمين بالخدمة الى
قسمين : وهما الخادمون والأرقاء .

فأما الخادمون فيقومون بالأعمال الظاهرة ، وأما الأرقاء فتلقى على
عواتقهم جميع الأعمال البخسة . وقد حدد مشرعهم المسمى « مانو » طبقات
الناس بطريقة شرعية دينية ، وجعل درجة الرقيق بهذه المثابة التى شرحناها .
وكذلك عرف الرق عند اليونان ، وعند قدماء الألمان فى استخدام
الرقيق حتى ضرب بهم المثل فى ذلك .

ولو ذهبنا نسرده الأجناس التى اتخذت الرق قاعدة من قواعد حياتهم
اطال بنا القول ، وذلك مالا نقصد ، ولكنه لا بد لنا من الإشارة الى الرق فى
أمة كانت من أرقى الأمم القديمة ، تلك هى أمة الرومان . فقد انتشر
الاسترقاق بينهم منذ نشأتهم الأولى من غير تفريق بين من كان رومانيا أو

أجنيا ، فكانوا يملكونهم اما بحرب أو شراء أو اختطاف . . وكان الرقيق في الجيلة عند أهل هذه الأجناس ، ماعدا القليل منها ، مهينا ذليلا ، لا يعتبر إلا من الأمتعة المملوكة ، وكان للمولى الحق في أن يعاقب عبده بالجلد بالسوط وبالطحن على الرحى . وكان يكويه في بعض الأحيان على جبهته ، وبعض هذه الأجناس لم تكن لتعطي العبد مزايا الانسان . فلم يكن له أن يشهد في قضية ، وإذا شهد على مثله فليس من الجائز أن يحلف اليمين القانونية ، لأنها أشرف وأسى من أن يتفوهوا بها فيدنسوها . والرومان أنفسهم كانوا لا يعتبرون الرقيق الا متاعا ، ولقد تغالوا في السيطرة عليه حتى كان للسيد أن يتصرف في عبده بالقتل في غير جريرة . نعم انه قد هذب هذا القانون بعد حتى خفف في الجيلة على الأرقاء عبا ما كانوا يحتسبون ولكنهم مع ذلك كانوا تحت سلطان سادتهم . وكان للأمراء الرومان وشرافهم الآلاف من الأرقاء . يستخدمونهم فيما شاءوا ويوقعون بهم من الآلاء ما أرادوا ، غير مستوائين عما فعلوا . ومن ذلك نرى أن الاسترقاق كان عند جميع الأجناس في بقاع الأرض قاضية .

أما في الديانات فقد وجد عند اليهود منذ نشأتهم نوعان للاسترقاق . أحدهما استرقاق بعض أفراد منهم لارتكابه خطية من الخطايا المحظورة شرعا . أو اقتراه انسا في دين عليه . وكان لهذا الرقيق أن يتحرر بعد مضي سنوات ست في خدمة من هو في ملكه . إلا اذا فضل البقاء رقيقا . والنوع الآخر استرقاق غير اليهود فمن قضى عليهم أن يصيبهم شيء من عسف اليهود وحروبهم التي كانوا يقيسونها بلا مسوغ سوى الشره على أسباده . وإرضاء نفوسهم الجامحة بما طبعت عليه من الظلم . فكانوا يبيعونهم كما يبيع المتاع ويعاملونهم أقبح من معاملة الحيوان الأعجم سواء في ذلك سيد المتاع سيد الحقول والمزارع . فانهم كانوا يقضون حياتهم منعسبين . مهينين معزولين . محقرين . ليس لهم حظ في الحياة الا أن يسخروا في الأعمال أو يقدفوا في الأهوال .

أما الديانة المسيحية فلم تتمكن من الغاء الاسترقاق أو تخفيف عبده . ولم يأت في الانجيل نص صريح ضد الاسترقاق بل كل ما ورد فيه أن الناس

كلهم يعتبرون اخوانا ، وانه يجب عليهم أن يحب بعضهم بعضا ، ولكن هذه الاخوة لاتعنى محو العبودية وقد فهمها الحواريون بما لايتنافى مع الرق ، وأوصى بولس الأرقاء فى رسالته الى سكان مدينة « افسس » القديمة فى آسيا الصغرى ، بقوله : أيها العبيد أطيعوا ساداتكم حسب الجسد بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح ، لا بخدمة العين كمن يرضى الناس بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس ، عاملين أن مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب » وأمرهم فى بعض رسائله أن يعتبروا ساداتهم أهلا بكل تشرىف وتبجيل ، وأوصى العبيد الذين يكون مواليهم من النصارى بأن يبالغوا فى حسن القيام بخدمتهم .

ثم قال : ان هذه أوامر يسوع المقدسة ، وانها منطبقة على التقوى . ووصف كل من عمل غير ذلك بالكبرياء والجهالة . بل قد ذهب كثير من القديسين الى أن الرق فى الديانة لمسيحية فكرة يتدين بها الرقيق ، ويتقرب بها الى الله . فقد قال القديس « اسيلوس » من آباء الكنيسة اليونانية فى بعض كتبه ، بعد أن أورد ما جاء فى الرسالة الى أهل افسيس التى أشرنا إليها : وهذا يدل على أن العبد يجب عليه طاعة مولاه بقلب سليم تمجيدا لله العلى العظيم .

وقال بعض القساوسة مخاطبا أحد الأرقاء : انى لأنصحك بالبقاء فى الرق حتى ولو عرض عليك مولاك تحريرك فانك بذلك تحاسب حسابا يسيرا ، لأنك تكون خدمت مولاك الذى فى السماء ومولاك الذى فى الأرض ، وتعالى بعضهم فجعل فكرة الرق قانونا طبيعيا لايسكن مخالفته ، وقال : ان الطبيعة خصصت بعض الناس ليكونوا أرقاء .

وهذه الفقرات التى نقلناها من الكتب المقدسة تدل على أن دخول الدين المسيحى الى البلاد المتسدينة لم يقلل من الاسترقاق . فان الرق بين مسيحيين أوروبا مثلا لم يكن بأخف بطشا ولا أسلم عاقبة مما كان بين الوثنيين والمجوس . ولقد جاء فى قوانينهم المدنية أن الرق من الأمور الطبيعية . كما أنها قدرت أثمان العبيد .

واعتبرت في تقديرها ما يحسنه الرقيق من المهن والأعمال ، ومنعت الزواج بين الأرقاء ، وبينهم وبين الأحرار ، فقضت على الحررة المتزوجة بالعبد أن تقتل ، وعلى الزوج أن يحرق حيا . وقد كان ذلك حال العبد في أوروبا في القرن الثالث عشر للمسيح عليه السلام .

ولما تقوضت أركان المملكة الرومانية وأسست على أنقاضها المملكتان الشرقية والغربية ، لم يقف أمر الاسترقاق الى هذا الحد ، بل كان لاشرف الأمتين وأمرائهما القول الفصل والرأى الأعلى في الفلاحين الذين تحت أيديهم ، فكانوا ملاكهم وسادتهم ، ولم يكن في ذلك الوقت من هو أرقى منهم حكما وأعلى سلطانا ، ولم تكن الحكومة لتعنى بوضع حدود بين المالك والمملوك ، على أن الكنائس نفسها في أوروبا قد اتخذت الأرقاء وأباحن لغيرها اتخاذهم ، وكان كثير من الناس يذهبون الى استحسان ذلك واعتبارد من أحسن الوسائل لمنع التسول وقطع دابر السارقين وقطاع الطرق .

وأوصى الرسول بطرس بثل هذه الوصية وتوجبها آباء الكنيسة لأن الرق كفارة من ذنوب البشر يؤديها العبيد لما استحقوه من غضب السيد الأعظم .

وأضاف القديس الفيلسوف « توما الاكوييني » رأى الفلسفة التي رأى الرؤساء الدينيين فلم يعترض على الرق بل زكاه . لأنه - على رأى أستاذ أرسطو - حالة من الحالات التي خلق عليها بعض الناس بالنظرة الطبيعية . وليس ما يناقض الايمان أن يتنع الانسان من الدنيا بأهوار نصيب . ومذهب « أرسطو » في الرق : أن فريقا من الناس مخطوقون فاعينهم لأنهم يعملون على الآلات التي يتصرف فيها الأحرار ذروا التفرقة بينهم فهم آلات حية تلحق في عملها بالآلات الخاملة . ويجوز من الآلات الحية أن تستخدم تلك الآلات الحية أن ينوسوا فيها التفرقة بين الآلات الحية والتميز فيشجعوها ويرتقوا بها من منزلة الآلة الممثلة التي هي العاقل الرشيد .

وأستاذ « أرسطو » « أفلاطون » يرى في الرق : « أن الرق هو حرمان العبيد حق المواطنة » اجبرهم على التفرقة بين الآلات الحية والآلات الخاملة .

سادتهم أو من السادة الغرباء ، ومن تطاول منهم مع سيد غريب أسلمته الدولة اليه ليقترض منه كما يريد .

وقد شرعت الحضارة اليونانية نظام الرق العام ، كما شرعت نظام الرق الخاص ، أو تسخير العبيد في خدمة البيوت والأفراد ، فكان للهياكل في آسيا الصغرى أرقاؤها الموقوفون عليها ، وكانت عليهم واجبات الخدمة والحراسة . ولم يكن من حقهم ولاية أعمال الكهانة والعبادة العامة .

وانتضى على العالم عصور بعد عصور ، وهذا النظام سائد في أرجائه بين الأمم المعروفة في القارات الثلاث ، ينتشر بين أمم الحضارة وقبائل البادية التي تكثر فيها غارات السلب والمرعى . ويقل انتشاره بين الأمم الزراعية عند أودية الأنهار الكبرى كوادى النيل وأودية الأنهار الهندية ، إلا أن الأمم في الأودية الهندية كانت تأخذ بنظام الطبقة المسخرة أو الطبقة المنبوذة وهي في حكم الرقيق العام من وجهة النظر الى المكانة الاجتماعية والحقوق الانسانية .

ان دخول الدين المسيحي في أوروبا لم يقلل من الاسترقاق الا من وجهة واحدة ، ذلك أن الرقيق كان حرا بالرهبانية ، وانقطاعه الى خدمة الدين . على شرط ألا يظهر له سيد يدعيه في خلال ثلاث سنوات . أما من الجهات الأخرى فإن الاسترقاق بين مسيحيي أوروبا لم يكن بأخف بطشا ، ولا أسلم عاقبة مما كان بين الوثنيين والمجوس .

وكان أقبح أنواع الاسترقاق في أمريكا الشمالية ، ولم يزل فاشيا فيهم حتى وقعت الحروب الدينية التي تأججت نارها في سنة ١٨٦٥م وقد نجا كثير من الأمريكيين نحو الأمم السابقة من اليهود والفرس والرومان بالرغم مما هم عليه من العلم الغزير والمدنية التي لم يسبقوا اليها .

فكان الأمريكي الأبيض النصراني يملك الأمة السوداء ويولدها البنين ، ومع ذلك لا يعتبرها أم ولده ، كما فعل الاسلام ، بل كان لابنه الأبيض أن يبيعها ويبيع ذريته منها الذين هم اخوته من صلب أبيه .

وبالجملة يسكن الحكم بأن الدين النصراني لم يأت بما يقطع دابر الاسترقاق أو ينافيه ، كما أن الأمم المسيحية ، على اختلافها وتباين مشاربها،

كانت لا تبالى أن تسترق من ثبانت وأن تستخدم الرقيق كيف شاءت .
وتعامله كما شاءت ، ولم يزالوا كذلك حتى انتشر أمر التعليم فيهم ، فهذب
من نفوسهم وأضعف من قسوتهم فتعاهدوا وغيرهم من الأمم المتحضرة على
حماية نوع الانسان ، والحيلولة بين أفرادهم من سيطرة بعضهم على بعض
الا بقدر ما تقتضيه النواميس الشرعية .

وعلى هذه الحالة كان العالم كله يوم مبعث الدعوة الإسلامية من قبل
الصحراء ليس فيه من يستغرب هذه الحالة أو من يشعر بحاجة الى تعديل
فيها حيث يكثر الأرقاء أو حيث يقلون .

ففى البلاد التى كثر فيها عدد الأرقاء كانت الأوضاع الاجتماعية
والاقتصادية فيها مرتبطة بأعمال الرقيق فى البيوت والمزارع والمرافق العامة .
فلم يكن تغيير هذه الأوضاع مسا يخطر على البال . ولم يكن تغييرها مستتاء
بين يوم وليلة لو أنه خطر على بال أحد .

وكان عدد الأرقاء قليلا فى البادية العربية بالقياس الى أهم الحضارة
اذ كان عددهم بين المسلمين الأوائل لا يزيد على عدد الأصابع فى اليدين .
فلم يكن بدعا من الدين الجديد أن يترك الحالة فى الصحراء العربية .
العالم . على ما كانت عليه . حالة لم يستغربها أحد . ولم يفكر احد فى
تغييرها أو تعديلها ، ولكنه لم يتركها . ولم يغفلها ولم يؤجلها بين الأغصان
والاستحسان لهوانها وقلة جدواها بل جرى فيها على دأبه فى علاج المسألة
الاجتماعية والأخلاقية يصلح منها ما هو قابل للإصلاح فى حينه . ويسعى
للتقدم الى المزيد من الإصلاح مع الزمن كلما تهيأت دواعيه .

وان ما شرعه الاسلام فى الرق قبل أربعة عشر قرنا فى بضع كلمات
أنه حرم الرق جميعا ولم يبح منه الا ما هو مباح الى الآن . ونحوى .
أنه قد صنع خيرا ما يطلب منه أن يصنع وأن الأمم الانسانية لم تكن
فى هذه المسألة بعد الذى تقدم به الاسلام قبل ألف وثلثمائة سنة .

فالذى أباحه الاسلام من الرق مباح اليوم فى أهم الحضارة التى
تعاهدت على منع الرقيق منذ القرن الثامن عشر الى الآن .

لأن هذه الأمم التي اتفقت على معاهدات الرق تبيح الأسر واستبقاء الأسرى الى أن يتم الصلح بين المتحاربين على تبادل الأسرى أو التعويض عنهم بالفداء والغرامة . وهذا هو كل ما أباحه الاسلام من الرق أو من الأسر ، وغاية ما هنالك من فرق بين الماضي ، قبل أربعة عشر قرنا . وبين الحاضر ، في القرن العشرين ، أن الدول في عصرنا هذا تتولى الاتفاق على تبادل الأسرى أو على افتداء بعضهم بالغرامة والتعويض . أما في عصر الدعوة الإسلامية فلم تكن دولة من الدول تشغل نفسها بهذا الواجب نحو رعاياها المأسورين . فمن وقع منهم في الأسر بقي فيه حتى يفتدى نفسه بعمله أو بماله .

والاسلام قد هذب حالة الاسترقاق والرق تهديبا لم تسبقه اليه شريعة من الشرائع أو قانون من القوانين ، بل أضاف الى شريعته في الرق نوافل وشروطا تسبق الشريعة الدولية بأكثر من ألف سنة ، فاذا كانت الشريعة الدولية لم تفرض على الدولة فكاف رعاياها من الأسر ، فقد سبق الاسلام الى فرض هذا الواجب على الدولة ، فجعل من مصارف الزكاة انفاقها في الرقاب . أي فكاف الأسرى ، وأن يحسب للأسرى حق من الفىء والغنيمة كحق غيرهم من المقاتلين .

وإذا كان ارتباط الأسرى ضربة لازب في الحروب الحديثة فالاسلام يجهده حثما مقضيا في جميع الحروب ، وحرص على التخفيف من شدته ما تيسر التخفيف فيه . وجعل المن في التسريح أفضل الخطتين : « فاما من أسره فدا ، حتى تضع الحرب أوزارها » (سورة محمد) .

وحث المسلمين على قبول الفدية من الأسير أو من أوليائه : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا ، وآتوهم من مال الله الذي آتاكم » (النور) .

سوى الاسلام بين الأمم من غير اعتبار لاختلاف أصنافها وألوانها ، سوى بين الأبيض والأسود ، والبدوى والمتحضر ، والرعايا والمرعيين ، والرجال والنساء ، والمسلمين واليهود والنصارى ، ماداموا في سلم .

وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام في خطبة الوداع : أيها الناس ،
 انما المؤمنون اخوة ، ولا يحل لامرئء مال أخيه الا عن طيب نفس ، فلا
 ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ، فاني قد تركت فيكم
 ما ان أخذتم به لن تضلوا بعدى أبدا : كتاب الله وسنة رسوله ، أيها الناس
 ان ربكم واحد وان أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب « ان أكرمكم
 عند الله أتقاكم » ليس لعربي فضل على عجمي الا بالتقوى .

فالمسلم أخو المسلم يقاسمه سراءه وضراءه ، ويشاطره آلامه وآماله ،
 ويحمل من أعباء الحياة ما ينوء به ، ويضفي عليه مما أفاء الله عليه من فضل
 ما يرفه به عنه ، والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة
 أخيه كان الله في حاجته ، وترى المؤمنين في تراحمهم وتعاطفهم وتوادهم كمثل
 الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحسنى والسهر .
 وكل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه « انما المؤمنون اخوة .
 فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

ولم يألف الناس منذ خلق الله البسيطة كالأسلام دينا قضى على الفوارق
 الجنسية وسوى بين الطبقات وأزال الحواجز بين البيض والملونين . وجعل
 الناس في نظره سواء لا فرق بين غنى وفقير وعالم وجاهل . وبيض وأسود
 وعربي وعجمي . كلكم لآدم وآدم من تراب . لا فضل لعربي على عجمي
 الا بالتقوى : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » . « لا ان فواكم عندي
 الضعيف حتى آخذ الحق منه ، وأضعفكم عندي التقوى حتى آخذ الحق
 له » .

فأين هذا منا نراه الآن في الدول الكبرى المتحصرة في ان مريد ربه
 بلغت شأوا بعيدا في العلوم والذرة . والمدنية . وكادت تسيطر على العالم
 العربي . مازالت راسخة في قيود العنصرية المقتتة فيجاهل ان الله سبحانه وتعالى
 محرمة على الزنوج ، والعربات العامة والمطاعم . ودور النيابة دورا كبيرا
 للبيض موحدة أمام السود . وكان هؤلاء ليسوا آدميين بل من بني آدم
 يعيشوا في دنيا الناس وما يحدث في أمريكا يحدث في الله من جعل من السود
 الضعيفتين المتخاذلتين اللتين قضى عليهما التحلل الاجتماعي . وحسبنا على

رکتیہما لأول ضربة سددها هتلر لفرنسا فی الحرب العالمیة الثانية ویوم أن انتصر علیہم المصریون عقب اعتدائہم علی بور سعید عام ۱۹۵۶ .

فرنسا مثلا تؤمن بالآخاء والمساواة للفرنسیین داخل بلادها فی الوقت الودی كانت تأبى فیہ علی اخواننا الجزائریین أن یعیشوا أحرارا فی بلادهم وتسخر كل امكانياتها الحریبة وأسلحة حلف الاطلنطى لتیدهم أفرادا وجساعات فی حرب بربریة استمرت سنین عديدة ، ضاع فیها ملیون شهید من العرب ولم یعرف لها التایخ مثیلا فی الوحشیة وفقدان الانسانیة والرحمة .

وقد كثرت وصایا رسول الله صلى الله علیه وسلم بالارقاء . فقال فی بعض الأحادیث : لقد وصانى حبیبى « جبریل » بالرفق بالرفیق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم .. وكانت من آخر وصایاه قبل انتقاله الى الرفیق الأعلى وصیته بالصلاة وما ملكت اسانکم .. ونهى المسلمین ان يتكلموا بحمد عبا ملك فلا یقولوا عبدى ونمتى - وانما یذكرهم فیقول فتای وفتای کبر یذكر بناءه وبناته .. وكان علیه السلام المدوة لأصحابه فی معاملة الرفیق معاملة کریمة نیبة . فكان یصور عن تأدیب وصیفته ضربا بالسواك . وقال لوصیفة أرسلها فابضت فی الضریق : نولا خوف القصاص ربو جعت بهذا السواك . ومن الوسائل الفردیة التى تحرى بها الاسلام تعمیم الطق وتعمیل فکالك الأسرى . أنه جعل العتق كفارة عن كثير من الذنوب . كالقتل الخطأ والحنث فی الیسین ومخالفة قسم الظهار : « ومن قتل مؤمنا خطأ فتحریر رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله » (النساء) .. و « لا یؤخذکم الله بالمغو فی ایسانکم ولكن یؤخذکم بما عقدتم الأیمان فكفارته اطعام عشرة مساکین من أوسط ما تطعمون أهلیکم أو کسوتهم أو تحریر رقبة » (المائدة) .. « والذین یظاهرون من نسائهم ثم یعودون لما قالوا فتحریر رقبة من قبل أن یتاسا » (المجادلة) . « فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة . أو اطعام فی يوم ذی مسغبة . یتیسا ذامقربة » (البلد) .

زعم كثير من المستشرقین والمبشرین . ولا سیما من غیر المسلمین من الناس . ان الاسلام أباح للناس اختطاف غیرهم من السود أو البیض .

مستدلين على ذلك بما كان يفعل النخاسون من أهل البادية . وأهل السودان . وكثير من الأتراك .. وقد تقدم لنا أنه لا ينبغي الاستدلال على صحة الدين أو فسادہ بما يفعل أهله فان هذا من العبث الذي ينبغي ان تصان عقول العقلاء عنه .

ان الشرع لا يبيح ان يسترق مسلم أصلاً . ثم أنه لا يبيح بعد ذلك الا استرقاق أسرى حرب شرعية . لم تقم الا لاعلاء كلمة الله تعالى . مرجح فيها ان تكون مسبوقه باعتداء غير المسلمين عليهم . فمن هنا يؤخذ ان أسرى الحروب التي أقامها كثير من أمراء المسلمين وخلفائهم . لا يجوز استرقاقهم بحال . سواء أكانوا مسلمين أم غيرهم . كتابين أو وثنيين أو مجوس . أما استرقاق غير المحاربين . من لا كتاب لهم ولا شبه كتاب . كعبدة الأوثان . قتال مالك والشافعي وأحمد في إحدى روايته : ان ذلك لا يجوز مطلقاً .

فإذا ترى فيمن يذهبون الى الصحارى ويختطفون من وحشيتهم يتيهون من السودانين وغيرهم ثم يجلبونهم كسباجيون أو عبيد أو مشركين أو الأسواق عرض الحيوان الأعجم . وكثير منهم مسلمون أو عبيد من كثير من الأمراء وشيوخ المسلمين . يجيئون اليهم ويسومونهم كسباجية المتاع ثم يسوقونهم الى بيوتهم وقصورهم ما لخدمة وما لغيرها . وماذا ترى في الذرية التي ينتجها اقتراش بنى على هذا الأسلوب ؟ ان الدين ليبراً ما جنى عليه أولئك الطغاة الجاهلة . هؤلاء الرعاع والراساليون المستهترون . الذين اعتنقوا المادة عن كبرهم وجاهلهم ليبراً ما جنى عليه أولئك المستردون وما كانوا يستوفون من أموالهم والرجس . قد سولت لهم نفوسهم الخبيثة ما لم تكن ان سولت الله ونسبوا اليه ما نسبوا مقتولين عليه . وهذا من الكفر بتكذيبهم وتأييدهم .

نشرت جريدة الجمهورية بعددها (٢٩٣٠) بتاريخ ١١/١٠/١٩٦١
١٣٨١ هـ -- ٢٩ ديسمبر ١٩٦١ .. خيراً من يربط بين
الأمن اللبناني أمس الأول .. فنانة أجنبية عند هبوطها مطار بيروت

من «مدرید» وكانت دوائر الأمن قد تلتقت مايفيد وصول الفئانات كجزء من صفقة نسائية ستصل الى بيروت لبيعها لأثرياء بعض الأقطار العربية .

بمثل هذه الأنباء المزرية المخجلة .. نسمع عن الرجعيين من حكام العرب الذين ارتسوا في أحضان الاستعمار فأعسى قلوبهم وبصائرهم بالمال والنساء حتى يكونوا له عبيدا وارقاء .. ضد أوطانهم وشئونهم .. هذا هو الاسترقاق في أيام الحضارة الحديثة والمدنية الحالية . استرقاق الملوك والأمراء والحكام من الرجعيين أذئاب الاستعمار وعبيده .

وهناك نوع من الاسترقاق . فشا في المسلمين أيضا . وهو لا يبيحه الشرع كذلك . ذلك أن بعض أمم آسيا كالتوقاز وغيرها . قد يحدو بهم الفقر المدقع . الى جلب بناتهم بأيديهم الى أسواق بعض المدن الاسلامية وهن صغرا جدا لبيعهن الى الأمراء والمثريين من الرجال . ولقد يكون منهن المراهقات والكبيرات حتى اذا صارت احداهن في ملك أحد استباحها واتخذها فراشا . يخادع الله بنا عقده من البيعة الفاسدة ، وما يخدع الا نفسه من حيث لا يشعر . فيظل طول حياته مستبيحا ما حرمة الاسلام . ويدخل في دينه ما أملت عليه وساوس الأوهام .

وهذا هو الاسلاء الذي كرم الأسرى ، فشرع أن كل من أسلم من الأسرى عصم نفسه وماله وأن مجرد دخول العدو المحارب دار الاسلام أمان له من السبي (عند مالك والشافعي وأحمد بن حنبل) .

وقد وضع الاسلام من الأصول والقواعد ، ما كاد يقضى على الاسترقاق . لولا أن الأمم العربية وغيرها كانت اذ ذاك على ما بينا في أمر الاسترقاق .. وبديهي أنه لا يمكن أن يزيل النبي عليه الصلاة والسلام في بضع سنين أمرا ألفته النفوس واستولى عليها ذلك الاستيلاء لذلك كان النبي عليه الصلاة والسلام يرغب الناس في العتق . كما جعل هناك أحوالا يلزم فيها السيد بالاعتاق . فمن ذلك :

١ - اخبار الرسول صلى الله عليه وسلم غير مرة بان العتق من أجل العبادات . وأقربها قبولا عند الله عز وجل .

- ٢ - أنه جعل كفارة لبعض الخطايا والحنث في بعض الأيمان .
- ٣ - أن مكاتبه العبد مستحبة بالاجماع . وللإمام أحمد في رواية أنها واجبة متى دعا العبد سيده اليها على قدر قيمته أو أكثر . وإن للعبد الاشتغال والسعى . ليحصل على ما يدفعه لسيده من نجوم الكتابة . وأن على سيده أن يتركه يشتغل أين شاء وفيما شاء .
- ٤ - إذا امتنع المكاتب عن الأداء ومعه ما يفى . فالحنفية تجبره على الأداء . وإذا لم يكن معه مال . ولكنه قادر على الكسب . فالمالكية تجبره على الكسب . لأنه ليس له تعجيز نفسه ما دام قادرا عليه .
- ٥ - يراعى في عقد الكتابة حالة الرقيق . فأقل وعد من السيد . أو أقل احتمال للوعد بالتحريم . يجعل التحريم ضروريا .
- ٦ - اتفق الأئمة على أنه لو كان في يد إنسان غلام بالغ عاقل وادعى عليه أنه عبده فكذبه الغلام . فالتقول قول المكذب مع يمينه أنه حر . فأنت ترى في هذه الصورة أن قاعدة « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر » قو خولفت مراعاة لحالة الرقيق . فلم يطلب الشرع من المدعى البينة أولا . بل جعل القول المنكر يمينه . ولا يخفى ما يدل عليه هنا من شدة حرص الشارع على تحرير الرقاب . ما وجد ذلك سبيلا .
- ٧ - قد جعل الشارع من مصارف الزكاة عتق الرقاب وإن يعطى الحائكة للرقيق المكاتب ما يستعين به على فك رقبته . أو أن يشتري الحركه العبيد المملوكين ويعتقهم .
- ٨ - أن من افترش أمه . وأتى منها بولد . فهي أم وولد لا يجوز له أن يبيعهما . ولكنها لا تتحرر تماما إلا بعد موته .
- ٩ - استوصى النبي صلى الله عليه وسلم بالأرقاء خيرا فلا يبيعهن . إن يكلف رقيقته ما لا يطيق من العمل أو أن يدفعه بالثياب الأزدياء والتحقير . كما لا يجوز للسادة أن يفرقوا بين أنفسهم وبين عبيدهم في المأكل والملبس ونحوهما .

والاسلام لا يقدر الانسان الا بمعارفه وتقواه ، ويعترف بل ويحترم القضية المعروفة « قيمة كل امرئ فيما يحسنه » . والتاريخ يحدثنا أن « أسامة بن زيد » كان مولى الرسول صلى الله عليه وسلم وكان يحبه كثيرا . وكان يقعده وهو صغير مع « الحسن بن علي » على ركبتيه ويلاعبهما . ويقبلهما . ويدعو لهما . فلما كبر « أسامة » ورأى فيه النبي صلى الله عليه وسلم استعدادا لقيادة الجيوش أمره علي جيش أرسله في السنة الحادية عشرة من الهجرة لفتح فلسطين ، وكان أبو بكر وعمر في هذا الجيش تحت امرته . لم ينعهما ما يتمتعان به من منزلة بين الصحابة وما نمت من مقام رفيع بين المسلمين أن يكونا تحت قيادة هذا المولى الذي رفعته دورعه الى هذه المكانة .. ولما اضطر « أسامة » للعودة الى المدينة لمرض سيده ومولاه . دخل عليه وكان مريضا لا يتكلم ، وقد ثقل عليه المرض . فجعل صلى الله عليه وسلم يرفع يده الشريفة الى السماء ويضعها عليه علامة من علامة حتى اذا لحق بالرفيق الأعلى وعدت الأعراب نكسوا على أعقابهم مرتدين وخلعوا هذا الدين . فرأى أبو بكر أن أول واجب عليه هو اخماد هذه الثورة في مهدها قبل أن يستفحل أمرها ويتطير شررها وتندلع نارها فأنفذ وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر أسامة علي رأس الجيش بالزحف على الثائرين من أهل الردة . ولكن بعض الأنصار دفعته الحسنة أن يقول : قل لأبي بكر ان من الخير أن يولي أمرنا من هو أقدم منا من أسامة . فلما بلغه الرسالة أخذ أبو بكر بلحيته وقال : ثكلتك أمك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله وتؤمرني بعزله ؟

ثم خرج أبو بكر حتى أتى الجنود وشيعهم وهو ماش وأسامة راكب . فقال له أسامة : يا خليفة المسلمين . لتركبن أو لأنزلن . فقال : والله لا نزلت ولا أركب . وما علي أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله . ثم يتلطف « أبو بكر » مع أسامة عند رجوعه من توديع الجيش ويترفق في الحديث . ويطلب منه أن يكون عسر الى جانبه ليستشير . وهو يكل اليه الأمر في ذلك اذ يقول : ان رأيت أن تعينني بعسر فافعل . فأذن له بأن يبقى عسر بجانبه .

وهذا «عمر بن العاص» حينما جاء مصر نراه قد بعث الى «المقوقس» عظيم القبط وعامل الروم على مصر وفدا تحت امره زنجي هو «عبادة بن الصامت» ليتخبر معه في أمر الصلح ، فلما تقدم عبادة في صدر أصحابه . هابه المقوقس ، وقال : نحوا عنى هذا الأسود ، وقدموا غيره ليكلمنى . فأجابوا : ان هذا أفضلنا رأيا وعلما ، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا . وانما نرجع جميعا الى قوله ورأيه ، وقد أمره الأمير دوتنا بسا أمره وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله . فقال المقوقس وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم ، وانما ينبغي أن يكون دونكم ؟ فقالوا : كلا انه وان كان أسود كما ترى فانه من أفضلنا موضعا وأفضلنا سابقة ورأيه وعلما . وليس ينكر السواد فينا ! وحينئذ اذعن المقوقس لسمع أقواله وطلباته .. وعبادة بن الصامت كان صحابيا جليلا . شهد المشاهد كلها . وارسله النبي صلى الله عليه وسلم يجبع بعض الصدقات . وارسله «عمر» بعد فتح الشام الى «حصص» ليعلم أهلها القرآن ويفقههم في الدين . وروى عنه جماعة من أكابر الصحابة والتابعين وهو أول من تولى قضاء فلسطين . وذكر هذه الفضائل التي اجتمعت لهذا الزنجي شاهدة ان الله الذي ناسب حياسته جعل دين الناس الذي ارتضاه لهم والانسانية جمعاء هم الدين الاسلامي الذي لا يختص بمثله نون ولا جنس ولا سبي ولا عرق . والله الذي لا يؤتية من يشاء . والله ذو الفضل العظيم .

ان الذين يلقون من تفويتهم هذه الكلمات ويرمون الاسلام بغيره فيه ويتسادهون في طغيانهم . ويعتدون في ضلالهم انهم يريدون ان يمانعوا الاسلام غرضا وما هم بباطليه ولو كان بعضهم بعض ظهيرا . والله الذي لعبوا مدنيته هذه التي ارتكست وتكسب المبادئ الانسانية . اذ عدها من أيامها الأولى . أيام الجاهلية المظلمة .

واليك شاهد على ذلك : روت صحيفة المصري في ردها الى مصر في ٣١ مايو سنة ١٩٥٩ النبأ التالي : حجج معهد الدراسات والبحوث الإسلامية والفندق ببارك لأجراء مباحثات خاصة بين جيرانه من علماء مصر والباحثين في الفندق ما كاد يرى الدكتور «الف يونس» بين هؤلاء العجزة حتى انتهى

نه ومنعه من الكلام لأنه أسود ، ثم قررت ادارة الفندق الغاء حجز الحجرة واعادة النقود التي دفعت الى المعهد . لأن الدكتور « بونش » زنجي لا يسمح له بارتياح مثل تلك الأماكن . وكلنا قرأنا المعاملة السيئة الوحشية التي يعامل بها البيض السود في الجامعات والأماكن العامة والمرافق الحيوية في أمريكا واتحاد جنوب افريقيا . وغيرهما من بلاد العالم المتمددين .

ويقول الأستاذ الكبير « عباس محمود العقاد » في كتابه « حقائق الاسلام » : يقول المنكرون والمتعصبون لدين غير الاسلام ان الدعوة برمتها تلفيق رجل دجال . ولا ندري كيف تسيغ عقولهم ان يكون الرسول الدجال رفيع أدبا وأشرف خلقا وابر بالانسانية الضعيفة من الرسل الصادقين المصدقين . ويقول المنكرون من أنصار العلل الطبيعية ان الدعوة الاسلامية وليدة البلاد العربية خرجت من اطواء عقائدها وتقاليدها ومأثوراتها . ولا ندري كيف يكون الايهام والغموض اذا كان هذا هو التعليل والتفسير . فاننا لانقول شيئا ترضاه العقول وتستريح اليه اذا قلنا ان البيئة العربية جاءت بنقيض المنتظر منها . ونقيض المنتظر من العالم حواليتها .

ان تصديق أعجب الخوارق لأجدد بعقول الفريقين من قبول هذا اللغو الذي صدقوه . واطمأنوا اليه . ونحن أيضا نريد للدعوة الاسلامية سببها المعقول فلا نرى تناقضا بين هذا السبب وبين الواقع الذي لا غرابة فيه الا اذا أوحينا نحن الى عقولنا ان نستغربه متعسفين . فالغريب عندنا ان يأتي رجل دجال بما لم تأت به أرفع الحضارات والديانات من قبله . والغريب عندنا ان يكون « محمد » مبعوثا بارادة الأمة العربية وهي ما هي في أيام الجاهلية .

أما الواقع الموافق للعقل . ولا مناقضة فيه لنواميس الكون فهو ان يخلق الله انسانا كاملا يلهمه الحق والرشد ويعينه الى الهداية عليهما بعسل يستطيعه ويستطيع الناس أن يفهموه ، متى حدث - كما يفهمون جلائل الأعمال . الا انهم لا يستطيعون ان يتوقعوه اذا قصره على المؤلف المعهود في سياق التاريخ .

وهذا تفسيرنا لوصايا الرق في الاسلام . ترتضيه عقولنا ونقول عن يقين انه أقرب الى العقل من معجزة الدجل ومعجزة النقائص المستحيلة . ونحسب أن المكابرة تقصر عن الذهاب الى الأمد الذي يدفعها اليه من لا يفرقون بين الدجل والصدق أو لا يفرقون بين الواقع والمستحيل .

وتنطوى القرون وينكشف الزمن عن أزمة الرق الكبرى في التاريخ الحديث . ان وصايا الاسلام في مسألة الرق خولفت كثيرا وكان من مخالفيها كثير من المسلمين . ولكن الاسلام . على الرغم من هذه المخالفة المنكرة كما بينا — لا يضيره ولا يعض من قضاء التجربة العلية عند الموازنة بين جناية جميع المسلمين على الأرقاء وجناية الآخرين من اتباع الأديان الكتابية . فالقارة الافريقية في بلاد السود . مفتوحة أمام أبناء السواحل المجاورة لها منذ مئات السنين . ولم تفتح للنخاسين من الغرب الا بعد اتصال الملاحه على ساحل البحر الاطلسي في العالم القديم والعالم الجديد .

وفي أقل من خمسين سنة نقل النخاسون الغرييون جوعا من العبيد السود تبلغ عدة الباقيين من ذريتهم . بعد القتل والاضطهاد . نحو خمسة عشر مليونا في الأمريكتين عدد يضارع خمسة أضعاف ضحايا النخاسة في القارات الثلاث منذ أكثر من ألفي سنة وهو فارق جسيم بحسب الأرقام . يكفى للإبانة عن الهاوية السحيقة في التجربة العلية بين النخاستين .

وفي الولايات الأمريكية . كانت القوانين تهدد آدمية العبيد وتمنعهم من مغادرة الأرض الزراعية التي يرتبضون بخدمتها . وكان بعضهم لا يهرب لأكثر من سبعة من العبيد أن يقتلوا معا في طريق عام . والا حق لأي رجل أبيض يسر بهم أن يجلد كلا منهم عشرين جلدة .

وكان العبد يعد من الوجبة القانونية مجرد شيء لا نفس له ولا ضمير ولا ذكاء ولا ارادة وان الحياة لا تدب الا في ذراعيه فقط .

أولئك الضحايا بين العالم القديم والعالم الجديد . فان من الأمريكان الى اليوم أمة من السود معزولة بانسابها وحظوظها وحقوقها العلية . وليس في بلد من بلاد الشرق أمة من هذا القبيل . لأن الأسود الذي ينتقل اليها

بحسب من أهلها بعد جيل واحد لهم مالهم وعليه ما عليهم بغير حاجة الى حماية من التشريع أو نصوص الدساتير والأمنه في هذا الوادي كثيرة لا تحصى ولكنك تفهم من هذا العرض الموجز حال الرقيق ، وما كان فيه من هوان الشأن وما قاساه من العذاب الأليم فالمسلسون الضعفاء قد عذبوا في صدر الاسلام كما هو معروف في السيرة الهاشمية كلال بن رباح وياسر وغيرهما مما يدل على ان ذلك المخلوق لم يكن في عداد بنى البشر .

وكان لا يجوز للمعتوقين ان يشهدوا في القضايا الا اذا دعوا لذلك . وبشرط الا تقع شهادتهم على غير الأرقاء أو أمثالهم من المعتوقين .

وفي سنة ١٨٥٩ صدرت قوانين من بعض الولايات بارغام الأحرار من الزنوج المعتوقين على مغادرة أراضيها بعد أجل معين . ثم بيع بالمزاد كل من تخلف منهم عن الرحيل .

أمر الأنجيل الناس أن يحب بعضهم بعضا ، ولكن لم يرد به ، كما لم يرد في غيره من الكتب السماوية . نص صريح يحرم الاسترقاق ، ولم يقل بتحريمه الحواريون أو أي من الطوائف المسيحية المختلفة فيما بعد .. وقد ذكرنا وصية « بولس » و « بطرس » اللتين لا يفهم منها الا الحث على العبودية والذلة .

ولما جاء آباء الكنيسة على أثر الحواريين ساروا على سنتهم . فأباحوا الاسترقاق واقروه فقد قال القديس « باسليوس » معقبا على ما جاء في رسالة بولس الى أهل افسس : وهذا يدل على أن العبد يجب عليه طاعة سياده بقلب سليم تسجيذا لله العلي العظيم .. وقال بثل ذلك القديس « سيريانوس » والبابا القديس « جريجوريوس » الأكبر .

وقال القديس « ايديدوروس » مخاطبا أحد الأرقاء : اني لأنصحك بالبقاء في الرق حتى ولو عرض عليك سيديك تحريرك . فانك بذلك تحاسب حسابا يسيرا لأنك تكون خدمت سيديك الذي في الساء . وسيديك الذي في الأرض .

وذكر المسيو « باتريس الأول » في كتابه (الكلام عن الاسترقاق عند الأمم المسيحية) . في سنة ١٨٦٢ : ان الديانة المسيحية لم تحرم الاسترقاق نصا . ولم تلغه عملا .. وقوله مروى عن القديسين .

وعندما ظهر الاسلام كان الاسترقاق ضاربا أذنابه في أرجاء العالم . ولذلك لم يأمر بتحريمه مرة واحدة . ولكنه لم يقره أيضا بل عمل على حصره في أضيق الحدود . والقضاء على أسبابه .

وقد حصر الاسلام مصدر الاسترقاق في الحرب فقط . بشرط ان تكون حربا قانونية منظمة يسبقها الانذار والاشهار . وان تكون قتالا مع الكافرين . في حين كانت مصادر الاسترقاق عند سائر الأمم كثيرة ومتنوعة .

فأوجب الاسلام معاملة الرقيق بالرأفة واللين . يقول سبحانه وتعالى : « وبالوالدين احسانا وبذي القربى واليتامى والمسكين والجيران على القربى والعجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ان منكم من كان مختالا فخورا » .

ومن درس الشريعة الاسلامية وجد فيها ديدا على تحصن المدين التي تصيب الأرقاء يقول تعالى : « فاذا تحصن فان الذين صدقنا بعهودنا نصف ما على المحصنات من العذاب » . وروى الامام علي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم » .

بينما في أول يوليو عام ١٨٨٨ م التي الكريستال ، الأندلسي ، في الإسكندرية ، الجزائر في كنيسة « سار مونييس » بجزيرة « موناكو » في افريقية الوسطى . وقد عرض ثنائها بالشريعة الاسلامية ، ووجدت كثيرا من الاتهومات المبنية على عدم اعتدائه بالحدود الشرعية في السكرتير الخامس لناظر الخارجية آنذا . فعلمت على ذلك في ١٢ من الرق . وفي ٢٨ فبراير سنة ١٨٩٠ م بدأ يلقي حول هذه المسألة من المحاضرات باللغة الفرنسية في الجمعية الجغرافية . ثم طبعت هذه المحاضرات في كتيب صغير في ١٨٩١ م . ولقى ترحيبا بالغا في الأوساط العلمية بفرنسا .

بشيخ العروبة المرحوم « أحمد زكى » الى ترجمته الى اللغة العربية . ونشره
في سنة ١٩٨٢ م . واليك ملخص لأهم ما تضمنه هذا البحث القيم :

ظهر الاسترقاق في أقدم المجتمعات البشرية . أى منذ استطاع الأقوياء
لزام الضعفاء بخدمتهم وعندما انتشرت الحروب . عم الاسترقاق جميع أنحاء
العالم . وصار المنتصرون يؤثرون الإبقاء على حياة الأسرى لاستخدامهم
وقد تباينت أساليب معاملة الأرقاء فى الدول وفى العصور المختلفة .

ففى الهند كان الرقيق يعاملون أسوأ معاملة . وكانت أفظع العقوبات
نحل بهم اذا ارتكبوا أقل لأخطاء فى حق أسيادهم . ومن تلك العقوبات
تتزع الألسن وصب الزيت المغلى فى الأفواد . أو دس الخناجر المحماة فيها .
كما فى مصر والصين وبلاد الفرس فكانت الشرائع تحسى الأرقاء من تعسف
أسيادهم .

وفى بلاد الاغريق كان يساء الى الأرقاء أشد الاساءة . وخاصة فى
(اسبرطة) التى قال عنها « بلوتارك » : ان الحر فيها كان أكثر الناس حرية
بى حين كان الرقيق فيها أشد الناس استرقاقا . ولكن هذه المعاملة لم تكن
أسوأ من معاملة الرومان لأرقائهم .

وفى العصور الوسطى . أى بعد ظهور المسيحية . كان الأرقاء فى أوروبا
يعانون تلك المعاملة القاسية . وكان سبب كثرة الأرقاء عند الجرمان
مغامرتهم بنسائهم وأولادهم . وكان القانون فى فرنسا يحرم التزاوج بين
الأحرار والأرقاء . ويوقع الأحرار فى العبودية ، اذا ارتبطوا بمثل هذا
الزواج .

وفى اسبانيا كانوا يحرقون المرأة الحرة ومن تقترن به من الأرقاء .
وهما على قيد الحياة كما كان يحكم على مثل هذه المرأة فى ايطاليا بالاعدام .
وفى انجلترا . كان الأرقاء نوعين : أحدهما شبيه بالمنقولات . وهؤلاء
يجوز بيعهم . والثانى شبيه بالعقار . وهم المكلفون بخدمة الأرض . وهؤلاء
لا يباعون الا معها .

وعندما ظهر الاستعمار . بدأ الأرقاء من شعوب البلاد المستعمرة .
يعانون أسوأ صنوف المعاملة . ومن أبرز التشريعات التى نظمت معاملة

الرقيق المستعمرين (القانون الأسود) الذي أصدرته فرنسا في ١٧ مارس سنة ١٦٧٥ م لتطبيقه في مستعمراتها ، وكان ينص على قتل الأرقاء من الزوج اذا بدا منهم أقل خطأ في حق أسيادهم كما نص على عقاب الرقيق الهارب بقطع أذنيه وكيه بالنار ، ثم اعدامه اذا تكرر منه الهرب للمرة الثالثة .

ونص قانون المستعمرات الانجليزي على اعدام كل رقيق يقضى أكثر من ستة أشهر على هربه .. وقد أباح ذلك القانون للقاضي ان يحكم بالبراءة على كل سيد يقتل عبده . كما كان لا يجوز للقاضي ان يحكم في أى ضرر يصيب العبد الا من حيث انقاصه لشنه .

وقد نصت بعض القوانين الاستعمارية كذلك على حرمان كل من يتزوج من امرأة يجرى في عروقتها شيء من دم العبيد من تولى الوظائف العامة .

وكانت الشرائع في بعض الدول الأوربية . كما ذكرنا . تقضى بالمعاقبة على الزواج من الأرقاء والمعتوقين . وخلافا لذلك فقد حث الاسلام على الزواج من الأرقاء ، يقول سبحانه وتعالى : « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم . كسب قال تعالى : « وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله » .

وقد جعلت الشريعة الاسلامية الأولاد الذين يولدون نتيجة لاقتراض الاماء أحرارا وشرعيين ويرثون في أبيهم مثلما يرث أبناء المرأة الحرة . وقد أبيع للسيد ان يتزوج من امته بعد ان يعتقها ويعطيها مهرا وفي هذه الحالة ترثه هي وأولادها . فاذا أبت المعتوقة الزواج منه فليس له ان يعيدها الى الرق . ولا ان يلزمها بالزواج منه . وكذلك لم تبح الشريعة الاسلامية للسيد أن يفرق بين العبدین اذا تزوجا . كما لم تبح التصريح للعبد ان يعقد الأمة بدون زواج .

حثت الشريعة الاسلامية على العتق واعتبرته عملا مبرورا مغروبا يجزي الأجر والثواب . يقول جل وعلا : « والذين يتبعون الكتاب ما ملكت

أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيراً ، وآتوهم من مال الله الذي آتاكم «
وقد أوصى سبحانه وتعالى بفك الرقاب تكفيراً عن الذنوب . يقول تعالى :
« وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً الا خطأ ، ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة
مؤمنة . ودية مسلمة الى أهله » .

وإذا أفطر المسلم في شهر رمضان عمداً ، فانه يكفر عن ذلك باعتاق
رقبة ان استطاع ذلك ، والا أطعم ستين مسكينا ، فان لم يستطع الاعتاق
والإطعام فانه يصوم ستين يوماً متتابعة ، وهذا أرجح الآراء .

ويقول صلى الله عليه وسلم : من أعتق رقبة مؤمنة اعتق الله بكل عضو
منه عضواً من النار .

وروى عن البراء بن عازب . الذي شهد مع الرسول أربع عشرة غزوة .
انه جاءه قائلاً : دننى على عمل يقربنى من الجنة ويبعدنى عن النار . قال .
اعتق النسمة وفك الرقبة .. قال : يا رسول الله أو ليسا واحداً ؟ قال :
لا . اعتق النسمة أن تنفرد بعقبتها . وفك الرقبة أن تعين في ثنها .

كما روت عنه أم سلمة : اتقوا الله في الصلاة ، وفيما ملكت أيمانكم .
فى مراقبة الله وخشيته فى الصلاة . التى هى عماد الدين ومن أهم أركان
السلام كذلك تجب مراقبة الله وخشيته فيما ملكت أيماننا .

وروى عنه صلى الله عليه وسلم : الصلاة وما ملكت أيمانكم .
ويقال ان هذه الجملة كانت آخر ما نطق به الرسول الكريم عند وفاته .

وروى ابن عمر عنه عليه الصلاة والسلام : اتقوا الله فى الضعيفين
المسلوك والمرأة . وفى الأثر الكريم : لقد أوصانى جيبى « جبريل » بالرفق
بالرقيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم .

ونهى رسول الله عن التشيل بالرقيق . وأوجب العتق على من فعل ذلك .
فقد روى عن ابن عمر : من لطم مسلوكه أو ضربه فكفارته عتقه .. وهنالك
حالة واحدة يجوز فيها ضرب العبد . وهى حالة تقصيره فى أداء واجباته
الدينية .

يقول صلى الله عليه وسلم : اضرب عبدك اذا عصى الله . واعف عنه اذا
عصاك .

ونهى عليه الصلاة والسلام عن تحقير العبد وتذكيره بما هو فيه من الاستعباد . قال أبو هريرة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لا يقل أحدكم عبدي وأمتي ، وليقل فتاى وفتاتى وغلामى .

ورأى أبو هريرة رجلا على دابته . وعبده يسعى خلفه . فقال له : احمله خلفك يا عبد الله ، فانما هو أخوك ، وروحه مثل روحك .. وقال علي بن أبي طالب : انى لأخجل من نفسى اذا استعبدت رجلا يقول الله ربي .

وقضت الشريعة الغراء بعق أم الولد بمجرد افتراش السيد لها متى أقر بأولادها وألحق نسبهم به . وتكون حالة هذه الأمة في حياة المولى شبيهة بحالة الموصى بعقها . فلا يجوز بيعها ولا هبتها وفوق ذلك فانها تنال حريتها بلا مقابل عند وفاته . ولو ترك ديونا عظيمة .

قالت سلامة بنت معقل : كنت للحباب بن عسرو . ولى منه غلام . فمات . توفى قالت لى امرأته : الآن تباعين فى ديه فأتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فذكرت ذلك له . فقال : من صاحب تركه الحباب بن عسرو ؟ قالوا : أبو اليسر . كعب بن عسرو . فدعاه فقال : لا تبعوه . واعتقوها .

وجدير بالذكر أن هذه القاعدة تسرى على الأمة غير مسلمة أيضا . فبها تنال حريتها بمجرد افتراشها لسيدها .

وقد فتح للإسلام أبوابا أخرى لمعتق . منها أنه اذا سار الرجل عبدا لآخر تجسعه واياها رابطة القرابة والنسب سواء كان من الأمس أو القوم لأية درجة كانت فانه يعتق حتما واذا هرب العبد الاجنبى من بلاده الى دار الاسلام وأسلم فل حرته . وقد التجأ كثير من العبيد فى بعض الطائف والحديبية الى معسكر الرسول الكريم فاعتقهم ورفضت أسيادهم .

وصيغ العتق وأساليبه فى الشريعة الاسلاميه شد بسماحة الله تعالى فى الشرائع الأخرى . اذ يكفى أن يقال للعبد : أنت حر بوجه الله تعالى . فيكتسب حرته . ولا يصح للسيد أن يرجع عبدا . قال لأنه أصبح حرا . ولو لم يقبل العبد نيل حرته .

ولقد خلد التاريخ للاسلام أمثلة صادقة للمعاملة الانسانية الرحيمة التي كان يلقاها الأرقاء والمعتقون في مختلف الدول والعصور الاسلامية فقد أتيح لكثير من الأرقاء أن يدركوا أسى المناصب ، وليس أدل على ذلك مما بلغه كافور الأخشيدى العبد الخصى من تولى حكم مصر ، كما تولاه بعده عشرات من المماليك .

ولم تحل الشريعة الاسلامية ، في أى عصر من العصور - دون بلوغ كثير من أبناء الاماء مناصب الخلافة .

وفي تاريخنا القريب أمثلة كثيرة لما استطاع أن يدركه كثير من الأرقاء والمعتوقين من المناصب السياسية والعسكرية ، وما استطاعوا أن يجمعوه من ثروات طائلة . وكان كثير من الأسياد يتبنون عبيدهم من الذكور والاناث كما كانوا يوصون لعبيدهم عند عنتهم بجميع أملاكهم ، دون تمييز بين الأجناس والألوان .

ويقول المستشرق (ر.ف. بودلى)^١ : وحوث « محمد » اتباهه الى مشكلة الرق . فما كان في مقدوره أن يحرم الرق كلية . وكان حاله في ذلك كحاله في مسألة تعدد الزوجات . ولكنه خفف قوانين الرق ، وعمل على تشجيع فك الرقاب ، وان ما أمر به هو تحرير جميع من اعتنقوا الاسلام . وقد أضاف الى ذلك الأمر أنه لا وصمة تصم العبد المحرر . وفي الحقيقة ان العبد المحرر في الاسلام له جميع الفرص التي للرجل أو المرأة التي وئدت حرة وقد أوصى بالعبيد الذين بقوا في الرق ، قال : اخوانكم خولكم . جعلهم الله تحت أيديكم . فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه من طعامه وليلبسه من لباسه ، ولا يكلفه ما يغلبه . وان كلفه ما يغلبه فليعنه وقد روى في الصحيحين وغيرهما من كتب السنة أن « المعرور بن سويد » قال : رأيت أبا ذر بالربذة وعليه حلة وعلى غلامه حلة . فسألته عن ذلك ، فقال : ان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : اخوانكم خولكم . . . (الحديث السابق) . .

^١ في كتابه « الرسول حيا ومهدا »

وبالغ المشترعون المسلمون في حرمة الرقيق : فقال أبو حنيفة كبير الأئمة
المجتهدين ان الرجل الحر اذا قتل عبدا يقتل به .. وقال الامام النووي من
أئمة الشافعية : يجب على السيد نفقة المملوك وكسوته بالمعروف بحسب
البلدان والأشخاص ، سواء كان ذلك من جنس نفقة السيد أو فوقه ، حتى
لو قتر على نفسه تقتيرا خارجا عن عادة أمثاله اما زهدا أو شحا لا يحل
له التقتير على المملوك والزامه بسوافقته الا برضا . فاذا كان المملوك
محكوما بمالكة ، فان مالكة محكوم بأوامر الله الذي لو شاء لجعل الأمر
على غير ذلك وقلب السيد عبدا والعبد سيذا . فقد ورد في حديث آخر
ان الله ملككم اياهم ولو شاء ملكهم اياكم . ولو تعدى السيد هذه الأوامر
الالهية كان محروما من نعيم الآخرة ، كما حرم أولئك المستضعفين من
نعيم الدنيا ، وصدق عليه الوعيد الذي ورد في الحديث الشريف : لا يدخل
الجنة خب ولا متكبر ولا خائن ولا سىء الملكة . وهو الذى يسىء معاملة
المملوكين ، وقد أكد الشارع عنايته بهم . واحتاط لهم من كل ما يخطر
ببال السادة من الارهاق والتعنت ، فنهى عن النشيل بالعبيد ، وأوجب
العتق على من فعل ذلك . فقد روى لنا ابن جريج أن زنباعا وجد غلاما
له مع جارية فجدع أنفه وجبهه . فأتى النبي - صلى الله عليه وسلم -
فقال : من فعل هذا بك ؟ قال : زنباع .

فدعاه النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : ما حملك على هذا ؟

فقال : كان من أمره كذا وكذا .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : اذهب ذأب حر .

فقال : يا رسول الله مولى من أنا ؟

فقال : مولى الله ورسوله .

ولا يفوت أن نذكر البراءة من سؤال الغلام : يا رسول الله مولى من أنا ؟

فانه يريد بذلك أن يتسنى بعد العتق الى مولى يجرى عليه من ماله
المؤن ووسائل العيش ولقد تعهد الرسول الرؤوف الرحيم بسؤننه اذا لم
يستطع أن ينال منها ما يقوم بحياته . وكذلك لا يفيض الرسول جاء هذا
المعتق مولى الله ورسوله الى أبى بكر رضى الله عنه . فقال : يا رسول الله

الله — صلى الله عليه وسلم — ، فقال : نعم تجرى عليك النفقة وعلى
 عيالك . فأجراها عليه حتى قبض ، فلما استخلف عمر رضى الله عنه جاءه
 فقال : ومسيبة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : نعم . أين
 تريد ؟ قال : مصر . فكتب عمر رضى الله عنه الى عامله بمصر أن يعطيه
 أرضاً بأكملها . ولم يقتصر النهى عن التمثيل بهم بل تجاوزه الى النهى عن
 كل نوع من أنواع الإساءة . قال ابن عمر : سمعت رسول الله — صلى
 الله عليه وسلم — يقول : من لطم مسلوكة أو ضربه فكفارته عتقه .
 وإذا ذهبنا نورد كل ما جاء من الحث على حسن معاملة الرقيق يطول
 بنا القول فان تفاصيل ذلك كثيرة ومتشعبة فاضت بها كتب السنة وجاءت
 بها آيات القرآن الكريم ، الى حد أنها أرهبت كثيرا من أعداء هذا الدين .
 ورأوا أن ترك هذه النصوص من غير تأويل يجعلها معجزة للإسلام ، يباهى
 بها سائر الأديان . فقام بعض المتعسفين الذين يسبون أنفسهم أصحاب
 النقد التحليلي . وقالوا ان محمدا صلى الله عليه وسلم : كان يوصى بالرقيق
 لأنه ربي في حجر أمة ، يعنى ارضاع ثوية مولاة عنه أبي لهب ، وان هذا
 لتعليل لجهل عبيق بالتاريخ وعلم النفس والفلسفة جميعا ، فتوية أرضعته
 عقب ولادته ، ولم تكن مربية له . ولم يدرك ذلك فيؤثر في نفسه . ولكن
 هذا التشريع العظيم الذي جاء به في كهولته وهو أمي فوق جميع شرائع
 البشر وفلسفتهم وآدابهم هو شيء آخر استمدده من روح الله . فلا ينبغي
 لعاقل أن يعلله بمثل هذا التعسف الضعيف ، ثم ما الذي يقوله أولئك
 الجاحدون في غير هذه المسألة من أبواب هذه الشريعة المطهرة ، وهى جميع
 تعلم على كل نوع من أنواع التعليل وتحطبه ؟
 فالإسلام سوى بين الناس عامة . المرأة والرجل . والصغير والكبير
 الغنى والفقير . الوالى والعامل .. مساواة تامة لا تعرف الجور ولا تقا
 الظلم . لا تراعى الصهر ولا تسأل عن الحسب ولا النسب لا فرق بين
 أبيض ولا أسود ، فتعاليم الإسلام تظل الجميع في مساواة تامة كما
 يتساوون في صفوف الصلاة بين يدي الله سبحانه وتعالى ، وان أكرمهم
 عند الله أتقاهم « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوب
 وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم » (الحجرات — ١٣) .

وقوله : « يأبى الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة
وخلق منها زوجها ، وبث منها رجالا كثيرا ونساء » (النساء - ١) .

وبهذا أقر الاسلام بأن الخلق أبناء أب واحد وأم واحدة فمهما كان
موطن مولدهم ، ومهما كان وضع طبقاتهم فهم متساوون ، فلا تفاخر اذن
بالأنساب . ولا تباه بالألقاب ، فيقول الله تعالى فى سورة الحجرات : « يأبى
الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء
من نساء عسى أن يكن خيرا منهن . ولا تلمزوا أنفسكم . ولا تنابزوا
بالألقاب ، بشئ الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم
الظالمون » .

ومما سبق نرى أن المساواة لم تكن معروفة قبل الاسلام . بل كان
يسود المجتمعات البشرية نظام الطبقات والتفرقة الكبيرة بين الطبقة
والأخرى . بل بين أفراد الطبقة الواحدة . فكان اذا قتل قبيلة عبد
اجتمعت أفرادها لتقرر ما يساوى عبدهم من أفراد القبيلة القتالة . وهل
يرضون عنه بديلا سيذا أو سيذا وعيدا أو أكثر أو أقل . وكان القصاص فى
القتلى والجرحى قصاصا جائرا أساسه الجور والظلم وعدم الاعتراف
بالمساواة بين الناس . وقد حره الاسلام كل هذا فنهى عن هذه المساوىء .
ودعا الى المساواة واقامة العدالة فى القصاص القتلى فى قوله تعالى : « يأبى
الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد
والأثى بالأثى » (البقرة) .

ويتعمق الاسلام فى المساواة الى درجاتها القصاصية . فسوى فى
قصاص الأعضاء .. فالعضو بشيله فيقول الله : « وكتبنا عليهم فيها ان
النفس بالنفس والعين بالعين والاذن بالاذن والانس بالانس
والجروح قصاص . فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم به
الله فأولئك هم الظالمون » (المائدة) .

وبهذه المساواة التامة بين أبناء الجنس البشرى تحضن المسلمون ضد
الانقسامات التى نشأها فى معظم بلاد العالم . ولعل ما يعترى العالم على

فترات من الزمن من جور الأمم بعضها على بعض وبغى الأفراد بعضهم على بعض مبعثه كله يرجع الى عدم المساواة ..

فما زالت بعض الأمم تعتبران أفرادها من جنس مفضل على جنس أفراد غيرها ومن أصل يعلو على أصل الآخرين . وما زالت التفرقة العنصرية واختلاف الأصل في بعض البلاد سببا في اندلاع الثورات وعدم الاستقرار

وقد حاولت أمريكا حتى اليوم والى الغد إيجاد حل للتفرقة بين البيض والزنوج حقنا للدماء التي تسفح ومنعا للثورات التي تشب فلم تفلح .. وان هذه المشكلة لتعتبر أخطر وأقوى مشكلة مزمنة اعترضت أو تعترض أمريكا . وغيرها من الدول التي تقاسى من مثل هذه التفرقة .. فما زالت الروح العنصرية في أمريكا تمنع ذهاب الأطفال الزنوج الى مدارس البيض في ٢١ ولاية . وفي مدينة واشنطن نفسها . كما أن فرصة التعليم كذلك تختلف للبيض عنها للملونين ، فان نسبة الطلبة الذين يقضون خمس سنوات الابتدائي ٩٣٪ من الطلبة البيض ولكنها للملونين ٥٨٪ وتتجاوز التفرقة كذلك الى تكاليف التعليم فالملون تنفق الدولة عليه في سبيل تعليمه ٥٧٠ دولارا في السنة في حين تنفق على الأبيض ١٠٤٦ دولارا ، وقد أصدرت أمريكا التشريعات التي تدعو الى الغاء التفرقة . وحاولت جاهدة تنشئة مجتمعا على أساس الوحدة، فلم تستطع ، فبالرغم من أن المحاكم الأمريكية تحكم دائما بالغاء التفرقة العنصرية في معاهد التعليم في القضايا العنصرية التي تعرض عليها الا أن المجتمع لا يستجيب الى هذه الأحكام . بل يستخدم القوة في منع تنفيذ هذه الأحكام . كما حدث في نوفمبر ١٩٥٧ في ولاية أركيساس . اذ حكمت المحكمة الأمريكية بالغاء التفرقة العنصرية ودخول أولاد الزنوج مدارس البيض ، فتحدى حاكم الولاية هذا الحكم ودعا رجال الحرس الوطني في ولايته ليسنعوا بالقوة تنفيذ هذا الحكم وقد تم منع تنفيذ هذا الحكم .

ومما روته أنباء العالم في أكتوبر ١٩٥٧ أن وزير مالية غانة طرد من أحد المطاعم في مدينة دوفر بالولايات المتحدة لأنه غير مسموح للملونين بتناول الطعام في هذا المطعم .

ولقد عالج الاسلام مثل هذه الحالة وحصن بلاده ضد هذه الانقسامات بالدعوة الى المساواة التامة والاخاء بين أبناء البشر جميعا في قوله : « يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة » ، وصدق رسول الله وهو يقول : كلكم لآدم وادم من تراب .

وقد أملت على المسلمين تلك المعاملة سجية رسولهم الكريم في معاملة الرقيق ، وليس بخاف على أحد مما يروى التاريخ ما كان من « زيد بن حارثة » وما تأثر به من المعاملة الطيبة التي لقيها من سيده وسيد الخلق « محمد » صلى الله عليه وسلم ، حينما جاء أبوه مكة ومعه نفر من قومه ودخلوا على نبي الله ، وقالوا يا ابن عبد المطلب أتتم أهل حرم الله ، تفكون العاني ، وتطعمون الأسير ، جئناك في ولدنا عندك فامنن علينا وأحسن في فداءه .

قال : وما ذاك ؟

قالوا : زيد بن حارثة .

فقال : أو غير ذلك ؟ أدعوه فخيروه . فان اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وان اختارني فوالله ما أنا بالذي اختار علي من اختارني فداء . قالوا : فدعاه ، فقال عليه الصلاة والسلام : هل تعرف هؤلاء ؟

قال : نعم . هذا أبي وهذا عمي .

فقال عليه الصلاة والسلام : فآنا من عمت . وقد رأيت مسعبي لك فاخترني أو اخترها .

فقال زيد : ما أنا بالذي اختار عليك أحدا .

فقالوا : ويحك يا زيد أنتختار العبودية على الحرية ؟

قال : قد رأيت من هذا الرجل شيئا ما أنا الذي اختار عليه أحدا .

سرت هذه الأخلاق شيئا ببعاني أسكتها من غير أن يسمع من نبيهم الكريم فأحسنوا الي مواليهم . حتى رأيتهم يبيعونهم ويورثونهم بعد حياتهم . وكانوا يختارون العيش في العبودية على الحرية لم يكن أمرا حسيا مصدره ملك الرقاب بل كان من رغبة في العيش في العبودية .

الأهل والأحباب . فالأرقاء هم الذين قيدوا أنفسهم في رحاب ساداتهم فلم يرضوا بعشرتهم بديلا .

ويقول الكاتب « جب » في كتابه «مع الاسلام» في هذا الشأن : ليس هناك أية هيئة سوى الاسلام يمكن أن تنجح مثله نجاحا باهرا في تأليف هذه الأجناس البشرية المتنافرة في جبهة واحدة أساسها المساواة . واذا وضعت منازعات دول الشرق والغرب العظمى موضع الدرس فلا بد من الالتجاء الى الاسلام لحسم النزاع .

ومن كل ما تقدم نرى أن الاسلام كان في الصدر الأول يبالي في تكريم الرقيق ومعاملتهم بالحلم ، حتى أخذ بعضهم يقصر في الخدمة ولا جناح عليه . وكان لبعضهم دلال في الأسر حتى عاشروا ساداتهم وأبناءهم من غير تفريق ولا كلفة . وتوالت بذلك العصور من لدن عصر النبوة الى الآن . ولعمر الحق ان المملوك في حكم الاسلام كان أعز نفسا وأطيب عيشا من جميع الأحرار الذين ابتلوا في هذه العصور بحكم دول الافرنج .

ولولا العمى الذي طمس على بصائر القوم ، والضلال الذي تمكن من قلوبهم ، والتحيز الذي استولى على أفئدتهم ، لكان لهم فيما أوردناه من الشواهد ، وما ضربناه من الأمثال ، خير دليل على أن الاسلام هو وحده دين الحرية ، سبق الدنيا جميعا الى تقرير مبادئها . وتعهد أصولها حتى رسخت ، وفروعها حتى نست وترعرعت ، وان الرعيل الأول من المسلمين هم الذين جاهدوا في سبيل الحرية فنشروها في العالم عدلا شاملا ، وحقا كاملا ، وانه لا صلاح للخلف الا بأن يتبع آثار السلف ويترك الاستبداد ويخلع الذل والاستعباد .

هذه اثاره من شرعة الاسلام ، وهي كما ترى أرفع ما عرف الناس من قواعد الحرية العالية . ولن ينقذ الانسانية التي تهوى بأهلها الى قسرا سحيق الا أن تعتصم بها مما يساورها من الدمار وما يعيث فيها من الخراب واذا كان بعض المبطلين يحصل على الاسلام عن هوى وحقد وعم خوف وارتياح لأنه يكتب أهواءهم ، ويجتاح مآربهم ، ويقضى على

ألقوه من تسخير العقول والأحلام والنفوس والأجسام ، فستكون هذه الحملات من أقوى أسباب عظمة الاسلام واطهار مزاياه ، لأنها تحصل في ثنائها عوامل هدمها وقواعد بنائه .

وقد يكون حسد الحاسد وبغى الحاقد من أقوى أسباب الرفعة وأمضى أسلحة النضال ، وقد بدأت هذه الحملات التي يشنها الناس على الرق في الاسلام تشر ثمرتها لصالح الحق حتى يتم الله نوره ولو كره الكافرون .

وظهرت آية الله الكبرى للوجود . فان بعض أصحاب الفكر والرأى من بلاد المدينة الحديثة والحضارة الحالية . دفعتهم كثرة الكلاء في نقد الاسلام الى أن يدرسوا الاسلام دراسة ثاقبة وافية تنزق حجب الضلال . وتسفر عن نور الحق ، وتنحسر أخيرا عن ترك دين واتباع دين . وكذلك يخدم الحق بأعدائه كما يخدم بأشياعه والله وحده صاحب الأمر في العالمين .

ومن سوء حظ الاسلام أن يكون بين أهله وهم على ما هم عليه لا يصلحون للدفاع عنه . بل لا يصلحون لاحتساب هذا الدين والتبشير به لأنهم ضعاف واهنون . تجاوز الضعف من أجسادهم الى أنفسهم وقلوبهم . أعتقهم الاسلام من رق الرقاب فقدموا رقابهم بأيديهم الى ذل المناسب والجاه والأموال . وانهم اما أن يكونوا مسلمين حقا أو ليهبس الله لدهنه من يحيه ويحبل طابعه ويكون شعاره في هذا الدين والتبشير به شعور الأنبياء « ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ان تجرى الا على الله » .

فيدعون اليه ويجاهدون في سبيله ابتغاء وجه الله ، لا طلبا للمنصب والمال ولا طمعا في الجاه والسلطان . واذا لم يسهموا في الاخلاص لهذه الشريعة ويتركوا حب الدنيا وراءهم ظهريا . ليعشوا للناس الأمان . فان هذا الجو العاصف القاصف يوشك أن يطيح بهم ويستبدل بهم قوما غيرهم . ان هذه الشريعة هي وادي الأمان وركن السلام . فاما ان يكونوا مسلمين واما أن يتركهم الزمان نسيا منسيا . ويقيض الله لدينه من يلجأ اليه . فاقرب مما يظنون . لأن هذه الأحداث الراجفة ستزلزل العقائد كما تزلزل الأبنية ليقيم الله على أنقاضها بناء جديدا ومليدا يجد فيه الخائف أمنه ، والعاني

راحتہ ، والیائس ہناتہ ، والعالم کلہ عصمتہ وسعادتہ ، وذلك وعد اللہ ،
وكان وعد اللہ مفعولا .

ومما افتراه المفترون على رسول الاسلام عليه الصلاة والسلام ، وبعد
اربعة عشر قرنا ، يجيء المستشرقون والأب « لامانس » على رأسهم يتباكون
نسفا على هذين الأسيرين اللذين قتلهما النبی . وكان في وسعه أن يبقى
عليهما . لكأنه صلى الله عليه وسلم مكلف هو نفسه أن يحبط الدعوة التي
نمرد ربه أن يصدع بها .

ومجمل القصة أن « النضر بن الحارث » كان من الباغين الذين
فاوموا الدعوة الإسلامية . دعوة الحق الى سبيل الله بالحكمة والموعظة
الحسنة والجدل بالتي هي أحسن .

كان يجلس في دار الندوة أو في المسجد الحرام ، وحوله الفتية من
قريش يقص عليهم خبر « كسرى » أو اسفنديار ورستم ، وخبر قيصر أو
على حد تعبيره يحدثهم حديث بنى الأصفر وبنى الأحمر .. وكان الشيخ
نقرشى الأخبارى من يحسنون القول سفسطة ومغالطة .

ولكن الله أمهله حتى اذا أخذه لم يفلته . فلما كانت غزوة بدر ، كان
شيخ من خرجوا يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا
مجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الشيطان .. ويقع النضر أسيرا للمقداد
رضي الله عنه . فلما ارتحلوا عن بدر قاصدين الى المدينة ، وكانوا بالصفراء .
فلما رسول الله عليه الصلاة والسلام الأسرى ، فقال النضر : ان محمدا والله
لا يد فأتلى . فلقد نظر الى بعينين فيهما الموت .

فأجابته من كان الى جوارده : كلا وما هذا الا رعب منك .

فانصرف عنه الى « مصعب بن عسیر » رضي الله عنه ، قائلا : يا مصعب
أنت أقرب من هذا الى رحمتي ولو كنت في مثل موقعي هذا ما تركت قريشا
تقتلك . فأبى صاحبك يقبل فدائي .

قال مصعب : فاني لا أملك من الله ورسوله شيئا ، ولقد كنت تقول
في كتاب الله وتصعد عن سبيله وتعذب أصحاب رسول الله عليه الصلاة
والسلام . فأنت تعلم أن العهد بيننا مقطوع .

فيجيب الرسول عليه الصلاة والسلام : اللهم اغن المقداد من فضلك .
ثم أمر عليا كرم الله وجهه أن يضرب عنق النضر ، فلقد كان من حكمة
بيد أن المقداد كان له منفعة في الإبقاء على حياة النضر لأن قيمة الأسير
كانت أربعة آلاف درهم حينذاك ، فيقول : أسيري أسيري يا رسول الله
الله -- وما ابتلى به الامام -- أن يكون هو جلال بنى عمه هاشم وعبد
شمس على السواء .

وأسير آخر أمر عليه الصلاة والسلام أن يقتل حيث كانوا بعرق الظبي
قال حين قدم ليقتل : مالي يا معشر قريش اقتل دون غيري ؟
قيل : بكفرك وافتراءك .
وفي رواية : لبذقك في وجه النبي .

وكان الشقي قد اتخذ له دار ضيافة بسكة ودعا إليها الرسول . فأبى
أن يأكل من طعامه الا أن ينطق بالشهادتين ففعل ، وكان أبي بن خلف سمر
أشقياء قريش ، عاتب صديقه بقوله : صبأت يا عقبه .

قال : لا ، ولكنه أبي أن يأكل من طعامي وهو في بيتي فاستحسب
منه فشهدت له الشهادة وهي ليست في نفسي .

قال أبي : فوجهي من وجهك حرام ان لقيت محمدا فلم نظم عنه
وتبذق في وجهه ، وتلطم عينه .. ويفعلها الشقي في باب الندوة ، عليه لعنة
الله .

وينزل فيه قوله تعالى : .. ويوم يعرض الضالين على ربهم .
اتخذت مع الرسول سبيلا .. ويلتا ليتنى لم اتخذ فلانا خليلا ..
عن الذكر بعد اذ جاءني .. ومات موقرة جيان وهو يصيح ..
انى منكم ومن للصبية بعدى . يا محمد فأنشدك الله الرحيم .

فقال عليه الصلاة والسلام : هاتى رحم بنتنا ابى محمد
ذلك بأن جده خرج الى الشام اثر منافرة بينه وبين عمه جده
بصفورية وقع على أمة يهودية لها زوج فولدت له ..
أبي معيط . على فراش اليهودية . فاستلحقه بخدم اليهودية ..

عقبة كلام كثير ومهما يكن الأمر فإن تخاذله أمام الموت ليس مثل ما كان يستسك به شيوخ العرب من الثبات أمام الموت آنذاك .

هذان الأسيران وحدهما دون نحو حسين أسيرا ، هما اللذان حكم سلى الله عليه وسلم باعدامهما ، حرصا على الدعوة وتأميننا لها أن يكيدا أنها كيدا .

فيأتي لامانس وغيره من المبشرين والمستشرقين الآن يأسفون على هذين الشيطانين .

وما بانهم لا يكون على موقعة سان بارتسلى وغيرها من المواقع التي ذبح فيها عشرات الألوف تديجا وقتلوا تقتيلا لا في ميدان القتال ولا اثر محاكمة وانما هو الغدر والغيلة ، فالكاثوليكيون يقتلون البروتستانتين البروتستانتون يقتلون الكاثوليكيين . ولو أنك حلتهم أو أوقفتمهم على باب المذابح لأرهقتهم من أمرهم حسرة وندامة .

فلقد أفلح المسلمون وأقاموا الدولة الإسلامية والله ما أراقوا من الدماء عشر معشار ما أهرقت فرقة واحدة في يوم واحد من أيام المسيحية الأوروبية بعضها مع بعض .

ولقد عزي بعض المبشرين أن السبب في انتشار الإسلام بين السود من أبناء القارة الأفريقية . هو سباح ذلك الدين بتعدد الزوجات . وما كان تعدد الزوجات بالأمر الميسور لكل من يشتهي من أولئك السود المقبلين على الدين الإسلامي بغير مجهود ولكنهم يجدون الخسرة ميسرة لهم حيث تردوها وقد حرمها الإسلام أشد التحريم . فلم ينصرف عنه السود لأنه قد حل بينهم وبين شهوة الشراب التي قيل انها كانت شائعة بينهم شيوخ الطعام والغذاء .

انما تسول العقيدة الإسلامية دون غيره هو العامل القوي الذي يجع اليه النفوس ويحفظ لها قوة الايمان . ويستغنى عن السيف وعز ذلك في بث الدعوة كلما تفتحت أبوابها أمام الداعين اليها بغير عائق من سلطان الحاكمين والمتسلطين .

وقد دلت المباحث الحديثة على أن الاسلام دخل من ساحل أفريقية الشرقى الى جزيرة مدغشقر على أيدي العرب أو المسلمين المتكلمين بالعربية منذ القرن الثامن الميلادي أو القرنين الثاني والثالث من الهجرة .

وكان من نتيجة دخول الاسلام في أفريقيا الاستوائية أن تهذبت نفوس الزنوج وامتنع المسلمون منهم عن أكل لحم البشر وارتدوا ما يستر عورتهم ، والأهالي الذين لم يكونوا يغتسلون قط . أقبلوا على التطهير والاعتسال . وكان الوضوء من الأسباب الداعية الى نظافتهم . كما اختفت وسائل الهجبة في السلب والنهب التي كانت متفشية بين القبائل الزنجية . وأصبح المسجد قبة أنظار الزنوج يؤدون فيه فرائضهم ويصلون فيه صلواتهم الخمس .

وقد كتب « ميك » في كتابه « قبائل نيجيريا الشمالية » . يقول : ان الاسلام لم يترك أثرا عميقا في التركيب الجنسى لهذه الشعوب فحسب . بل أنه جاء بحضارة جديدة أباحت للشعوب الزنجية طابعا حضاريا متيزا لا يزال واضحا حتى اليوم . مؤثرا في نظمهم السياسية والاجتماعية .

ذلك أن الاسلام حمل الحضارة الى القبائل المتبربرة وجعل من المجموعات الوثنية المنعزلة المتفرقة شعوبا . وجعل تجارتها مع العالم الخارجى ميسورة فقد وسع آفاقهم ورفع من مستوى الحياة بخلق مستوى اجتماعى أرقى . وخلع على اتباعه الكرامة والعزة واحترام الذات واحترام الآخرين .

ولقد تعلموا - بفضل الاسلام - القراءة والكتابة . كما حرم الخمر وأكل لحوم البشر والأخذ بالثأر وغير ذلك من العادات السيئة . وتباح للزنجى السودانى الفرصة لأن يصبح مواطنا حرا فى عالم حر . وليس من شك فى أن هذا الاعتراف الصريح الذى ذكره « ميك » يقف بحسبنا على الاسلام فى دعوته . انه دين مبادئ تهوى اليها النفوس من كل جناب لادين سيف وصلت على رقاب الضعفاء ليرغسهم على اعتناقه عنوة وقهرا .

الجبرية والاسلام

وقد اتهم كثير من المستشرقين الاسلام بالجبرية . وهذا افتراء من هؤلاء الحاقدين - كما أخطأ كثير من المسلمين في فهم التوكل الذي حض عليه القرآن غير مرة . اذ قالوا : ان التوكل هو تفويض الأمر الى القادر المدبر سبحانه وتعالى وترك الأسباب المألوفة ثم أن منهم من اكتفى بعد ذلك بالبلعة من العيش الخشن ولم يستزد حتى مات .

ومنهم من اتخذ من أسماء الله مصادر للرزق . فظن أن من يذكر الوهاب كذا مرة وهبه الله من المال ما يزيد على حاجته . ومن قرأ : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » كفاه الله مؤونة السعى لطلب الرزق من مواضعه العادية . . ولقد أتى زمن كثر فيه هؤلاء الناس من المسلمين . فكثرت بهم المفاسد وانحطت بسببهم التمس وأزال الله عنهم كثيرا من النعم وان الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

يقول الغربيون : ان السبب في تأخر أهل الشرق ايمانهم بالقضاء والقدر فان ذلك دفعهم الى التواكل . ويردد هذا الكلام بعض المسلمين ممن تأثروا بتعاليم الغرب . .

ولقد خاض العلماء في حديث القدر وقدرة الانسان بجوار قدرة الله سبحانه وتعالى في عهد الصحابة وبنى أمية . . فقد كان المؤمنون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان ، يستقون عقيدتهم من القرآن الكريم . ويعرفون ما يليق بذاته تعالى . وما ينزه عنه جل جلاله ولذا لم يكن بينهم جدل في شأن من شئون العقائد . أما غير هؤلاء الذين أسلموا وجوههم لله تعالى . فقد كان منهم أسئلة يريدون بها الفتنة . وقد حكى الله تعالى حالهم في قوله : « فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله الا الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الأبواب . ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة ، انك أنت الوهاب . »

ويظهر أن المسألة التي كانت أحيانا تثير بعض المناقشات مسألة القدر. وهي المسألة التي شغلت أصحاب الديانات القديمة ، وقد تكلم في القدر المشركون . وأبعدوا عن أنفسهم مسئولية الشرك بالقدر . فقد قال سبحانه وتعالى عنهم : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا نحن ولا آباؤنا ولا حرمتنا من دونه من شيء . كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، ان تتبعون الا الظن ، وان أتمم الا تخرصون » .

ويقول الألوسي في تفسير هذه الآية : ولم يريدوا بهذا الكلام الاعتذار عن ارتكاب القبيح اذ لم يعتقدوه ، قبح الله أفعالهم ، بل هم كما نطقت الآية يحسبون أنهم يحسنون صنعا وأنهم يعبدون الأصنام لتقربهم الى الله زلفى . وان التحريم انما كان من عند الله عز وجل . ومرادهم بذلك الاحتجاج على أن ما ارتكبهوه حق ومشروع . ورضى الله عنه بناء على أن المشيئة والارادة تساوى الأمر ، وتستلزم الرضاء فيكون حاصل كلامهم ان ما ارتكبهوه من التحريم وغيره مسا تعلقت به مشيئة الله تعالى و ارادته . وكل ما تعلقت به مشيئته و ارادته فهو مشروع ومرضى عنه . ونرى من هذا أن أوائك المشركين انما يثيرون مسألة القدر ، ويحتجون بها على النبي عليه الصلاة والسلام ، وقد أثبت في عصر الرسول عليه الصلاة والسلام مشاراة أخرى غير القدر ، يثيرها من تأثروا بتعاليم قديمة . حول ذات الله ومهما يكن من أمر هذه المسائل التي كانت تثار ، فأقوى مسألة كانت هي مسألة القدر . وقد نهى النبي عليه الصلاة والسلام عن الخوض فيه مع وجوب الايمان به . فقد ورد في حديث سؤال جبريل عليه السلام للنبي عليه الصلاة والسلام ، ان جبريل قال : أخبرني عن الايمان . قال ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر . وتؤمن بالقدر خيره وشره . والاقرار بالقدر نوع من الاذعان لله . والاقرار باحاطة علمه بكل شيء ، والاقرار بالأزل كل ما هو كائن على مقتضى حكمة الله تعالى .

ولذا حث رسول الله عليه الصلاة والسلام على الايمان به . والذنه نهى عن الخوض فيه . لأن الخوض فيه مضل للانهاه . ومزلة للاقدام .

وحيرة للعقول في مضطرب من المذاهب والآراء . وذلك يدفع الى الفرقة والانقسام ، ولأن اثاره الجدل فيه اثاره في أمر ليس في سلطان المجادل الاقناع به ، وليس بيد أحد من الأدلة العقلية ما يحسم من الخلاف ويقطع في الموضوع .

ولما انتقل النبي عليه الصلاة والسلام الى الرفيق الأعلى ، واختلط المسلمون بغيرهم من الأمم وأصحاب الديانات القديمة ، وفيهم من يتكلم في القدر ، ومن يثبته ومن ينفيه ، ابتدأت المناقشة فيه تأخذ شكلا لا يتفق مع أمر النبي عليه الصلاة والسلام بعدم الخوض فيه .

ويروى : أن عمر بن الخطاب أتى بسارق ، فقال : لم سرقت ؟
فقال : قضى الله على بذلك .

فأقام عليه الحد ، ثم ضربه أسواطاً فقبل له في ذلك فقال أمير المؤمنين : القطع للسرقة والجلد لما كذب على الله تعالى .

وزعم بعض الناس أن الايمان بالقدر ينافي الحذر ، فقبل لعمر عندما امتنع عن دخول مدينة اتشرف فيها الطاعون : أفرارا من قدر الله ؟
فقال عمر : نعم ، نفر من قدر الله الى قدر الله .

وهو يشير بهذا الى أن قدر الله تعالى محيط بالانسان في كل الأحوال .
وانه لا يسع الأخذ بالأسباب ، وأن ذات الأسباب مقدورة ، فيجب علينا الأخذ بها والسير في طريقها اقامة للتكليفات وتحملا لتبعات الأشياء .

وزعم بعض الذين اشتركوا في قتل الامام الشهيد عثمان رضی الله عنه انهم ما قتلوه ، انما قتله الله ، وحين حصبوه قال له بعضهم : الله هو الذي يرميك . فقال عثمان : كذبتهم ، لو رماني الله ما أخطأني .

وما كانت هذه الظنون الا بعض ما زرعه أهل الديانات الأخرى في نفوس المسلمين ، وكان الكلام في القدر يشتد كلما اتسع نطاق الجدل والفتن ، ولذا كان الكلام فيه في عهد علي كرم الله وجهه أشد وأحد .

جاء في نهج البلاغة وشرحه لابن أبي الحديد : قام شيخ الى علي فقال : أخبرنا عن مسيرنا ، أكان بقضاء الله وقدره ؟

فقال علي : والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، ماوطننا موطننا ولاهبطنا واديا الا بقضاء الله وقدره .

فقال الشيخ : فعند الله أحتسب عنائي ، ما أرى من الأجر شيئا .
فقال : مه أيها الشيخ ، لقد عظم الله أجركم في سيركم وأنتم سائرون
وفي منصرفكم وأنتم منصرفون ، ولم تكونوا في شيء من أحوالكم مكرهين
ولا مضطرين .

فقال الشيخ : وكيف والقضاء والقدر ساقانا ؟
فقال : ويحك .. لعلك ظننت قضاء لازما وقدرنا حتما ، لو كان كذلك
لبطل الثواب والعقاب . والوعد والوعيد . والأمر والنهي . ولم تأت لائسة
من الله لمذنب ، ولا محمداً لمحسن ، ولم يكن المحسن أولى بالمدح من
المسيء ، ولا المسيء أولى بالذم من المحسن ، تلك مقالة عباد الأوثان ، وجنود
الشیطان ، وشهود الزور ، وأهل العمى عند الصواب ، وهم قدرية هذه
الأمّة ومجوسها ، ان الله أمر تخييراً ، ونهى تحذيراً ، وكلف تيسيراً . ولم
يعص مغلوباً ، ولم يطع كارهاً ، ولم يرسل الرسل الى خلقه عبثاً . ولم
يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً « ذلك من الذين كفروا . فويل
للذين كفروا من النار » .

فقال الشيخ : فما القضاء والقدر اللذان ما سرنا الا بهما ؟
فقال : هو الأمر من الله تعالى والحكم . ثم تلا قوله سبحانه : « وقضى
ربك ألا تعبدوا الا اياه » .

فنهض الشيخ مسروراً .
ويقول الغريبيون ان السبب في تأخر أهل الشرق ايمانهم بالقضاء
والقدر . فان ذلك دفعهم الى التواكل .

ويردد هذا الكلام بعض المسلمين من تأخروا بتعاليم الغرب .
يريدون أن يقولوا ان المسلمين أهل تواكل وكسل لا قوة لهم في العمل
ولا يهتمون بالعمل . وهذه تهمة أرى أنها بعد التمهيد من الحق .
التاريخ . وعن روح الدين الاسلامي . قاله تعالى بعث النبي عليه الصلاة

والسلام ليصلح دين الناس ودنياهم ، وعهد اليه الحق سبحانه وتعالى أن يحدث أكبر الأحداث في تاريخ البشرية ، تسقط دولا وتقيم دولا ، وتشر أصول الثورة على التقاليد والموروثات ، وتبني سلطان العقل على أرسخ القواعد ، وتبرر الانقلابات الاجتماعية مادامت في صالح الانسان . ودين هذه بعض أهدافه لا يسكن أن يكون دين تواكل وكسل . بل المعقول أن يكون دين جد وعمل ، فاذا ورد في الدين كلمة واحدة ترشد المسلم الى أن يؤمن بالقضاء والقدر ، ورد بجانبها كلمات كثيرة ترشده الى أن يعمل ولا يتواكل .

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : كل شيء بقضاء وقدر ، حتى العجز والكيس .

يفهم الناس من هذا أن النبي عليه الصلاة والسلام يريد أن يحث الناس على الاستسلام والاستكانة ، ولكن هذا فهم من لم يستوعب نصوص الاسلام ، ولم يخلص للحق ، ففي جانب هذا يقول الله تعالى : «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » ، « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » . ويقول النبي عليه الصلاة والسلام : ان الله كتب عليكم السعي فاسعوا ، وان أفضل امرىء ما أكل من عمل يده . وان نبي الله داود كان يأكل من عمل يده ... ولما قال له بعض الناس انه يُنفق وقته في الصلاة والصيام سأله : من ينفق عليك ؟ قال : أخى . قال : أخوك أعبد منك .

وحوادث التاريخ تدل على أن المسلمين لم يكونوا أهل تواكل ولا كسل . وقد صدرت على أيديهم أكبر حوادث التاريخ ، فاذا كانوا قوما متواكلين لم تكن لهم هذه الثروة التاريخية الضخمة والعلوم والاختراعات. ولعل الأديان الأخرى أبلغ في عقيدة القضاء والقدر من الاسلام ، فان المسيح عليه السلام كان يحث أتباعه على الزهد وترك الدنيا ويقول لأحد أتباعه : بع ما تسلك واتبعنى .

أما رسول الاسلام فكان يحث على العمل والاهتمام بالدنيا والعيش، وجاء في القرآن الكريم : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس

نصيبك من الدنيا « . وفي الأثر : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمَل
لآخرتك كأنك تموت غدا . والقول : ان من الذنوب ذنوبا لا تكفرها صلاة
ولا صوم ، ولكن يكفرها السعى في طلب الرزق .

كل هذه الأدلة وهذه القصص التي ملأت الكتاب العزيز والسنة
المطهرة أقامت سدا منيعا بين المسلمين والخمول الذي يفسد الانسانية
ويزرى بالعقول ، ولذلك كان بين المسلمين شجعان فتحوا الممالك وثلوا
العروش وأقاموا دولة الاسلام على أساس متين، فلقد فتحوا فارس والروم
ومصر ، ثم ازدهرت في أيامهم العلوم والاختراعات فما استكانوا أو تواكلوا .
وقد علموا أن الساء لا تضر ذهبا ولا فضة وكيف لا ومنهم « جابر بن
حيان » وهو عالم الكيماة في عصور الظلام ، ولا يمكن لقوم أن يقعدوا
عن التفكير والعمل ويكون فيهم مثل العباس بن فرناس الذي اخترع
الطيران قبل أن يفكر فيه أحد من الدنيا .

ويقول الدكتور « فيليب حتى » الأستاذ بجامعة برنستون سابقا
جاء يوم بلغت فيه الثقافة الإسلامية درجة من السمو والتقدم لم يقابلها فيها
غيرها من الثقافات الهندية والصينية في الشرق واليونانية واللاتينية في
الغرب . والذي نعنيه بالثقافة الإسلامية تلك المجموعة من العلوم والفنون
الفلسفات التي نشأت في ظل الإسلام وازدهرت في أيام الخلافة العربية
وعلى عهد الدول الإسلامية بعدها . تستعت هذه الثقافة بعصرها الذهبي
من منتصف القرن الثامن لليلاد الى مطلع القرن الثالث عشر يوم كانت
اللغة العربية أداة التعبير عنها . وقد كانت الشعوب العربية هي اللسان المعبر
عن تلك الثقافة . وبينهم السوري والعراقي والمصري والقرومي والاندلسي
وغيرهم . في مقدمة مشعل الحضارة في العالم قامية . وجاء عدد المؤلفات
في هذه اللغة في تلك الحقبة المؤلفات الفلسفية والطبية والهندسية
والفلكية والجغرافية والرياضية واللغوية . كثير من عدها التي لم تأت
من آسيوية أو أوربية .

والغريب في أمر العربية التي كانت الى أواسط القرن الثامن لغة سمر
ودين فحسب ، انها في خلال قرن واحد تطورت وتقدمت الى أن أصبحت

أداة صالحة لنقل دقائق الفلسفة وحقائق العلوم ومصطلحات الفنون وربما لم يكن من مثيل لهذه الظاهرة الغريبة في تاريخ نشوء اللغات وبفضل جهود أبناء هذه اللغة في الأجيال المتوسطة تسنى لعلوم الأقدمين من هنود وساميين ويونانيين ولاتنيين . مضافا إليها ما ابتكره هؤلاء الأبناء على اختلاف عناصرهم القومية أن تنتهي بعد أجيال عديدة الى غربي أوروبا ، وذلك عن طريق سورية الصليبية وصقلية واسبانيا المسلمتين ... فتصبح أساس العرفان الذي دان له الفكر الأوربي في القرون الوسطى ورائد السبيل لنشوء النهضة الحديثة في أوروبا الغربية التي لا يزال الى اليوم أبناء أوروبا وأمريكا ينعمون ببركاتهما ، فيينا كان الأوربي يتخبط في ديجور العصور التي أطلقوا عليها بحق العصور المظلمة ، كان كتبة العربية ، وهم يومئذ يشملون معظم المجتمع الاسلامي ، يرتقون في عصرهم العلمي الذهبي .

ولكن ذلك العصر ، عصر الازدهار الفكري والانتاج العلمي الأصلي ما لبث أن أعقبه عصر انحطاط وعقم بدا في مطلع القرن الثالث عشر واستمر نحو سبعة قرون كاملة ، في أواخر الخلافة العباسية فأخذ العالم العربي يفقد سيادته العلمية الشاملة وتفوقه العقلي ، فتضاءل بتوالي الأعوام وخبا التفكير الابداعي ، وقل الانتاج الأصلي وقام مقامه الانتاج التقليدي . وتحت حكم بني عثمان كادت شعلة الفكر النير تنطفئ ، تلك هي القرون المظلمة في الثقافة الاسلامية عامة والعربية منها خاصة يعاصرها في أوروبا عهد النهضة العلمية الحديثة التي بلغت شأوا لم تعرفه أوروبا في سالف أيامها . ولكن العالم الاسلامي عامة والعربي خاصة دخل في مطلع القرن التاسع عشر في طور جديد هام ، وهو الطور الذي حكمت فيه العلاقات الحيوية من ثقافية واقتصادية وسياسية مع بلدان أوروبا الغربية وسائر أنحاء العالم الآسيوي ، فتلقت العقلية الشرقية بلقاح جديد ، وتشربت أفكارا فعالة في الاقتصاد والسياسة والاجتماع ، وانتقلت نظريات ذات صلة بالحياة الديمقراطية والمنشآت القومية والحركات الوطنية ، مما لم يكن مألوفا من قبل .

وكان لكل ذلك أثره الديناميتي في القول والفكر والعمل ، وما لبثت أن ظهرت في شرقنا مدارس ومطابع ومكاتب على أنظمة تخالف القديم .

وتشكلت جمعيات علمية وأدبية وفنية على شكل مستجد . وترجمت كتب فلسفية وعلمية وفنية من طراز لم يعرفه الشرق قبلا . والمهم في كل ذلك أن مفكرى الشرق أخذوا بأساليب البحث العلى والفنى واتبعوا الطريقة العلمية الحديثة فى كتاباتهم ، وفى البلدان العربية كانت هذه النهضة فى بادىء أمرها حركة فكرية مجردة قوامها احياء اللغة وبعث آثارها والتنقيب عن ماضى العروبة المجيد ، وما لبثت هذه النهضة ان استوحت من الماضى ما حملها على التطلع الى المستقبل فجرت وراءها نهضة قومية سياسية تستهدف الاستقلال السياسى الشامل والوحدة العربية ، هكذا سار الشرق فى سبيل التجديد واخراج التقليد والاتجاه نحو أهداف عالمية سامية .

ولقد كانت بغداد فى زمن العباسيين مدرسة الدنيا بسن فيها . حتى ان « المأمون بن هارون الرشيد » اشترط فى صلحه مع بعض الروم ان يسلم اليه كتب اليونان وألف منها فيما بعد ما سمينا بالماجسطى .

ولم يكتف المسلمون برقعة أرضهم فى الشرق حتى قام « صقر بنى أمية » فأسس دولة بنى أمية فى المغرب ، وانتشر نورها فى أوروبا بأسرها . وقد كانت دار الشورى فى الأندلس نبراسا لمن يريدون ان يضعوا مشنة للقضاء الصالح والتشريع الحكيم .

ولم يضعف المسلمون فى عهد من عهودهم . والتاريخ شاهد على ذلك ماداموا متمسكين بأصول دينهم . أما الضعف الذى اعتراهم فقد دب فيهم بعد أن تركوا الاسلام ظهريا ولبسه قوه منهم على أجسامهم ولم ينفذوا فى قلوبهم وفصلوا بين السلطنة المدنية والسلطنة الدينية واستعروا لغات غيرهم ولغات غيرهم حتى أصبح الاسلام فيهم اسما لا معنى . وطرحوا تعاليم الاسلام ظهريا . وحصروا الاسلام فى جملة من الألفاظ والعبارات التى أكثر تقدير ، فالأجانب ومن على شاكلتهم الذين يريدون ان يبدوا بغيرهم بمثل هذه التهم يستلونها من حال المسلمين الحاضرة وحال المسلمين الحاضرة لا تمت الى الاسلام بكثير من الصلات . ولعل الأجانب يتبعون خلق الاسلام وشرائع الاسلام . ولعلمهم استفادوا منه بدون قصد .

وإذا كان عندهم خير فالخير كله قد استقوه من خلق المسلمين الأولين،
فنحن رسنا صورة للعسل تبعد عن الإسلام بكثير ، وأضعنا أوقاتنا في
التهاثر والجدل والألفاظ والكلام . وإذا غضب الله على قوم منحهم الجدل
ومنعهم العسل ، أما هم فقد انقلب الآية عندهم ، تركوا دينهم فتقدموا
وتركنا ديننا فتأخرنا .

وإذا كان بعض الناس يتوهم أن عقيدة القضاء والقدر تمنع الإنسان
عن العسل ، وتوحى إليه بالركون والاستسلام فهو على خطأ كبير ، لأن
عقيدة القضاء والقدر ليست في خلاصتها إلا أن جميع ما يقع في ملك الله
لا يقع إلا طبقاً لإرادة الله . وإرادة الله لا علاقة لها بالعسل ، إنما العسل من
مظاهر القدرة لا من مظاهر الإرادة . وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن
يخالف الإرادة . فهذا الأمر خارج عن العسل . وقد قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم : كل شيء بقضاء وقدر ..

وقد نهى عليه الصلاة والسلام عن الخوض في فلسفة الديانات نهيًا
سريعًا . فقد قال : تفكروا في ذاتكم ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا ، وإن
الله قد احتجب عن الملأ الأعلى كما احتجب عنكم .

وإذا كنت تجد في المسلمين فلاسفة « كابن سينا والفارابي » وغيرهما .
فإنهم تجد بجانبهم أهل تشريع وعمل كأبي حنيفة والشافعي وسواهما ، بل
تنتهي الفلاسفة أخيراً بالعجز ، وحشوا الناس على أن يتركوا هذه الفلسفة
ويقبلوا على العسل والاجتهاد ، ليكون لهم شرة في دنياهم وليكون الأسلاء
حسناً لأهله يرفعهم ولا يخفضهم ويعزهم ولا يذلهم .

والذي يقول أن الإسلام يحث أبناءه على التواكل أخذاً من عقيدة
القضاء والقدر لا يدري شيئاً مما يقع في هذا الكون ، فالإسلام أراد أن
يقول أن جميع القوى البشرية تنتهي عند حد ، وأن الإنسان يتجلى عجزه
حين لا يفهم ربط الأسباب بالمسببات ، وحينئذ يكون جميع الناس مؤمنين
بالقضاء والقدر ، فقصر هذا الأمر على الشرقيين أو على المسلمين خطأ
كبير .

وان كل ما جاء به الاسلام من قرآن وسنة وكذلك سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم لم يكن فيها أى شىء من التواكل والكسل وترك الأسباب ، ولم يفهموا عقيدة القضاء والقدر بالدعوة الى التكاثر والاهمال وترك الأسباب فان آيات كثيرة وردت فى القرآن تدعو الى العمل : « وأن ليس للانسان الا ما سعى » . « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » .

وكذلك فى سنة الرسول وأحاديثه وفى سيرته العلية رأينا قد اتخذ الأسباب وأعد لكل شىء عدته فى السلم والحرب ، فكيف يجوز أن يتهم الاسلام بأن يجعل عقيدة القضاء والقدر للتواكل والكسل . القضاء والقدر يدعو الى التوكل على الله لا على التواكل .

ان من يسع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أخرجه الترمذى عن ابن عباس ، قال : كنت خلف النبي عليه الصلاة والسلام يوم فقال لى : يا غلام انى أعليك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجب عليك نجاهك . اذا سألت فاسأل الله . واذا استعنت فاستعن بالله . واعلم ان الله لو اجتعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك الا بشىء قد كتبه الله لك وان اجتعت على أن يضروك بشىء لم يضروك الا بشىء قد كتبه الله عليك . رفعت الأقلام وجفت الصحف .

وقد جاءت هذه الكلمات من أبلغ العبارات وأوجزها وأحسبها وأعمقها فى الشريعة ، قليلها وكثيرها . فهى من بدائع جوامع كتبه صلى الله عليه وسلم التى اختصه الله تعالى بها .

والمعنى هنا : الاعتقاد بأن كل شىء من الله . فان الله لا يخطئ ولا يصيبه الا ما كتبه الله له من خير وشر ونفع وضر . وان الله لا يبدل ما بعث به رسوله صلى الله عليه وسلم من حجة الله على الناس . وان الله سبحانه هو الذى يبدل ما يشاء من المانع ، وانه اذا أراد أحد أن يضربه بما لم يكتبه الله عليه . فإنه لا يضره . وبصرف ذلك الأحد عن مراده بعارض من عوارض القدرة البهية . وان الله لا يبدل ما بعث به رسوله صلى الله عليه وسلم من حجة الله على الناس . كان حقا مقرا بتوحيد الله تعالى . محافظا على حده وحدانيته .

ومفرده بالطاعة والخوف والرجاء ، والمحبة والسؤال ، والتضرع والدعاء ،
والاستعانة والتعرف اليه في حالتى الرخاء والشدة .

وعقيدة القضاء والقدر كما فهمها الرسول وكما فهمها أصحابه وعملوا
بها انسا هي نعمة كبرى على معتنقيها ، فانها تبعث فيهم روح الاطمئنان
والإتكال على الله والاستقرار النفسى ، وتملاً قلب معتنقها بالهدوء والراحة
وتبعد عنه القلق والاضطراب النفسى والخوف والتردد ، وتحفظ عليه
أعصابه وراحة باله . لأن الانسان فى هذه الحياة الدنيا معرض دائماً لكثير
من المصائب وأنواع من الابتلاء ، فان لم يكن محصناً بهذه العقيدة راضياً
بقضاء الله خاضعاً لقدره فانه يرهق نفسه ويحطم أعصابه ، وقد يفقد
عقله ، أما المؤمن بها فانه يتلقى جميع ذلك بالصبر والجلد والرضى فيحفظ
سجته وأعصابه وعقله ويكون معتقداً هذه العقيدة ماضياً غير متردد ناجحاً
فى أعماله اليومية والتجارية فى السلم ، شجاعاً باسلاً فى الحرب .

ومما شجع هؤلاء المدعين بأن عقيدة القضاء والقدر تدعو الى
التواكل ما عرفوه وما قرأوه من البحوث الكثيرة والجدل السابق فى بعض
التفاسير لمعنى القضاء والقدر ، هذه التفاسير المخالفة للعقيدة الصحيحة
مخالفة تامة ، ولقد أصاب فى نقد هذا الجدل والنقاش الذى لم تكن له أية
نتيجة قول القائل :

نهاية اقداء العقول عقل وغاية سعى العالمين ضلال
ولم نستفد من بحثنا طول دهرنا سوى أن جنينا منه قيل وقال
ومما قاله الدكتور « محسود حب الله » الأستاذ بالجامعة الأزهرية ،
ومدير المركز الإسلامى بواشنطن سابقاً ، فى مؤتمر برنستون للثقافة
الإسلامية الذى عقد برعاية جامعة برنستون ومكتبة الكونجرس بواشنطن
فى المدة من ٨ - ١٦ سبتمبر ١٩٥٣ :

هذا ولقد جعلت المعرفة فى الإسلام شرطاً للإيمان ، فمن اعتقد من غير
فهم ومعرفة لم يكن خيراً بكثير من غيره . والاعتقاد الحق هو الذى ينشأ
عن دليل وعن فهم واختيار . وليس الموروث أو الناشئ عن اضطرار أو عن

التقليد المجرد . ولقد كان الاسلام هنا ثورة على الجمود العقلي . الذي كان سائدا من قبل ، من اتباع الآباء ورجال الكهنوت فيسا كانوا يعتقدون ويرفضون لأنه يصرح بأن الايمان التقليدي من غير علم وتدبر لا يناسب الانسان في شيء ، اذ ليس القصد من الاعتقاد تدريب المرء على فعل الخير فحسب ، كما يفعل مع الحيوان ، ولكن النهوض كذلك بعقله وروحه ، عن طريق الفهم والادراك ، ليكون قادرا على فعل الخير ، لأنه خير لا لأن الآباء والرؤساء كانوا هكذا يفعلون ، وتلك هي وظيفة العقل في الانسان ، انه قوة تدبر وادراك . وينبغي للسراء أن يستعمل هذه القوة فيبحث ويحكم بما يجد من أدلة وبراهين . وهو لهذا حر الإرادة . وحر التفكير . والتطور الفكري والبحث العلمي . لا يتعارضان مع الاسلام في شيء . ومع قلب من التحفظ ليس لدينا ما يمنع من قبول تلك الآراء التي ذهب اليها « وليام جيس » الفيلسوف الأمريكي في قوله : ان موضوع العلم وضرق البحث وأساليب المعرفة فيه تختلف عنها في الدين . ولهذا لا يناقض الواحد فيس الآخر . ولكن ينبغي هنا أن نتذكر أنه كان يتحدث عن دين تنحصر وظيفته في النهوض بروح الانسان فحسب . والاسلام غير هذا . لأنه ينظم الحياة من جميع وجوهها . وهو كما رأينا لا ينسجم مع نتائج البحث العلمي والعقلي فحسب . بل قدس هذا النوع من البحث . فجعل متابعته واجب دينيا . تعتبر تاديته عبادة من تسمى العبادات .

ولكن يسيل كثير من قراء القرآن الى القول بأن حرية الإرادة بالنسبة للانسان لا وجود لها هناك . لأن ارادة الله ظهرت فيه غاية متحركة . وملغية لكل ارادة أخرى . كما يسيل آخرون منهم الى القول بأن هناك تضاربا فيينا يروونه يتحدث في موضع عن المسؤولية الانسانية المسند من حرية الإرادة والتفكير . وعن الثواب والعقاب الناشئين عن الاعتراف بالانسان فاعل مختار . يروونه يتحدث في موضع آخر عن ارادة الله التي تؤثر في الانسان وفي ارادته تأثيرا مباشرا . هذه التفسيرات التي يردد كثيرا تستحق منا اليوم كل اهتمام .

لا مرأ في أن القرآن يتضمن آيات قد يفهم منها غير العارفين بحقيقته الاسلام أن الحوادث الكونية وما يقع على أيدي العباد من أفعال ليس إلا

حركات ضرورية ، وليس الا تطبيقا وتنفيذا لما تقرر في الأزل أن يقع وأن فيه آيات أخرى أكثر من الأولى بكثير ، تؤكد أن الانسان فاعل مختار . فانه لهذا مسئول عن كل ما يقع فيه ، غير انا اذا قرأنا القرآن ككل يفسر بعضه بعضا ، وعرفنا الاسلام على حقيقته ، تبين لنا أن هذا التضارب المزعوم ليس الا صوريا ، وان حرية ارادة الانسان هي القاعدة في الاسلام .

فينبغي أن نتذكر أولا ان هذا الكون خاضع لقانون فيه طبيعي . فهو عالم المتتابعات ، الأسباب والمسببات والعلل والمعلولات ، وكل ما فيه مرتبط بعضه ببعض ارتباط الأسباب بالمسببات ، فما يحدث الآن يكون حدوثه نتيجة لما سبقه . وسببا لوجود ما بعده ، وهذا هو قانون الطبيعة الذي جعله الله فيها لتخضع له ، وتسير عليه باطراد ، وأظن أنه من الهين أن نتبين أن كثيرا من الآيات الدالة على الجبر لا تشير الا الى هذا القانون الطبيعي . فالأفلاك والنجوم وسائر أنواع الخليقة لها طريقها المرسوم . وحركات هذه الأفلاك وحوادث الطبيعة وكثير من مجرياتها في الانسان وعليه ، خاضعة لهذا القانون .

وأما الآيات الأخرى التي تشبه الى الانسان بنوع خاص فينبغي أن تفهم . وهي هكذا مفهومة من غير تكلف ، على ضوء الآيات الأخرى التي تؤكد فاعلية الانسان .

وعلى ضوء ما عرف بالضرورة في الاسلام من أن الانسان مسئول عن كل أفعاله الاختيارية والآية : « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » (الجمعة ٢٠) .

فمن هذا الرسول صلى الله عليه وسلم اذن أن يتلو على المؤمنين آيات الله ، ويبينها لهم ، وأن يطهر نفوسهم بتعاليمه ومثله التي يضربها لهم . ويشرح لهم اسباب النجاح في الحياة ، وأن يعلمهم الحكمة ، كذلك نقرأ في القرآن الكريم : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (الرعد ١١) . يعنى أن ما يجريه الله من تغيير على عباده مسبوق بما يجرونه هم في أنفسهم من تغيير .

هاتان الآيتان ونظائرهما تبين لنا أن الانسان فاعل مختار ، وان له حرية البحث ، وانه لهذا مسئول عن أعماله . وكلها أساس ضرورى لتقدم الانسان وتطوره نحو الحياة الكريمة . والآية تدل على أن الله لا يغير ما بقوم حتى يوجدوا هم أنفسهم حالات تؤدي الى هذا التغيير . فالفعل المنسوب الى الله فيها مسبوق بفعل الانسان ، ولكن تنص الآية بعد هذا على : « واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال » . وهنا قد يظن التناقض ، غير أن هذا الشرط الأخير من الآية لا يناقض صدرها بحال ، لأنه ليس الا تصريحاً بالمطوى .

وكان الآية في جملتها تقول : اذا غير القوم ما بأنفسهم نحو السوء مثلا ، فلا بد أن يحل بهم الهوان . ولا يسلك أحد أن يدفع عنهم هذا التصير لأن خالق الكون وخالق قوانينه جعل هذه القوانين مؤدية الى نتائجها . فالنتابع اذن هو تغييرات يحدثها الانسان بإرادته فتؤدي الى تغييرات اخرى في حياة الانسان ، بحكم هذا القانون العام .

فالانسان في دائرة وجوده الضيقة سيد نفسه في تصرفاته ، وهو المسئول عنها وعن كيفية استعماله للقوى التي وهبت له ولى مقدره ان يرتفع بنفسه الى أعلى مستوى انساني . وأن يبطئ الى كفى لتبرير سيوئه وأعماله واتجاهاته وليس نتيجة لخلق موروث أو طبيعة موروثة شريرة ، فلفظ نكر الاسلام كل الافكار الخطيئة الموروثة وما شابه . وقال ان الطفل يولد صالحا لأن يكون خيرا أو شريرا . وان آفة الانسان وتعليقه وخلقه وميوله المكتسبة هي التي تصيره هذا أو ذاك . فالانسان هي التي تجعله ناجحا أو مخفقا في الحياة . والى الجنة أو الى الجنة أو الى النار . وهو مسئول عن مصيره لأنه نتيجة لاختياره . « وأن ليس للانسان الا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . وذلك الجزاء الأوفى » (النجم ٣٩ - ٤١) .

و « كل نفس بما كسبت رهينة » (المذثر ٣٨) .

وأما ما يوجد من جانب الله في هذا الصدد فهو العلم . وبما أن عالمه محيط شامل ولا يخضع للزمان والمكان . فانه دائما حاضر فهو لا يتغير الا بال

الحوادث الطبيعية والأفعال الاختيارية التي وجدت ، أو التي توجد في العالم . يعلم الاتجاهات التي سوف يتجه اليها كل فرد في حياته كما يعلم كل الحوادث الطبيعية . يعلم اذا كنت سأخذ في الحياة طريق الغنى أو طريق الرشاد . يعلم مصير كل فرد لأنه يعلم الطريق الذي سيخذه في الحياة . يعلم ولكن لا يتدخل تدخلا مباشرا في ايجاد هذه الأفعال .

هذا ، ولقد ذهب « وليام جيمس » في القرن العشرين الى ما يشبه هذا الرأي حين كان يتحدث عن الجبر والاختيار . وقد يوضح لنا المثل التالي مغزى ما أقول :

خبرنا علماء الفلك ، بناء على حساب قل أن يخطيء ، ان كسوفاً أو خسوفاً يحدث يوم كذا ، فاذا حدث هذا الكسوف أو الخسوف فانه يحدث نتيجة لدورات الأفلاك الطبيعية ، لا لعلم العلماء ، ولا يتطرق الى ذهن واحد منا القول بأن علماء الفلك مسئولون عن حدوث هذه الظاهرة . لأننا نعلم أن العلم علم فحسب ، وهذا حق بالنسبة لعلم الله ، فليس الفرق بين العلمين في أن أحدهما قوة ايجاد ، وان الآخر قوة ادراك ، بل في أن علم الانسان علم قاصر ، ويعتريه الخطأ والزلل في حين أن علم الله محيط شامل ، ولا يعتريه الخطأ بحال .

خلق الانسان مزودا بآلات الاحساس وبقوى الادراك والعقل ، وبين له طريق الهدى من طريق الضلال : « ألم نجعل له عينين . ولساناً وشفقتين . وهدينا النجدين » (البلد ٨ - ١٠) . وتركه فيسا وراء هذا الى ارادته وعقله ليبنى مستقبله ومصيره بنفسه . ولكن عناية الله ورعايته باقيتان وحاضرتان لكل من يجاهد مخلصا في جهاده ، وتتطلب هذه المعونة .

فحرية الارادة والاختيار هما القاعدة في الاسلام، وليس فيه من الناحية النظرية ما يناقض المنطق ، أو يقف عقبة في سبيل تقدم الانسان ، أو يحول بينه وبين أى بحث علمي ، أو يسع العقل من العسل على بحث الوجود

وفهمه ، وان كل ما هو منطقي من ناحية موضوعية ، وكل ما هو حق ونافع للانسان ، من ناحية موضوعية فهو اسلامي ، وميسور ادخاله ضمن تشريعاته ان لم يكن هناك بالفعل . ولقد غيرت تعاليم الاسلام من وجهة نظر العرب وأوجدت حركة فكرية لم يعهدها التاريخ من قبل بين المسلمين الأوائل الذين كانوا أكثر تأثيرا من غيرهم بروح الاسلام ، وبالمثل العليا التي ضربها لهم الرسول في حياته ، واني أرجو أن يسح لي أن ألقى نظرة خاطفة على هذا العصر علنا تتمكن من معرفة وجهة نظر هؤلاء في المشكلة التي نعالجها الآن ومن معرفة كيف جاءت فكرة ان الاسلام نظام ضيق مغلق ، ولايسمح بالجديد ، وكيف نجد لها علاجا أو دفعا ؟

آمن المسلمون الأوائل بأن الانسان مسئول خلقيا ، لأنه فاعل مختار وبأن مصيره نتيجة فعله ، وليس شيئا لازما عليه ، لا محيص له من تنفيذه كأنه آلة تبرز ما يسجل عليها من قبل ، واستلهموا هذا الاتجاه العقلي الذي جاء به الاسلام ، فساروا عليه ، واكتشفوا ما اكتشفوا في سائر العلوم والفنون ، ووضعتوا أصول المدنية الحاضرة في كثير من مظاهرها . وتركوا آثارهم واضحة في كل مظاهر النشاط الفكري للانسان .

ولقد عبر هذا الاتجاه عن نفسه تعبيرا كاملا في العصر الذهبي من تاريخ المسلمين في القرون الخمسة الأولى منه . فكان العلماء جميعا حتى المحافظون والنصييون منهم - متأثرين به الى حد كبير . كتب يبدوا منا تركوا من تراث ، وسوف لا أشير هنا الى الفلاسفة والعلماء الذين يعرف عنهم أنهم كانوا عقليين ، ولكن الى هؤلاء الذين يقال أنهم كانوا على الأقل بسبب طبيعة بحثهم نصيين ومحافظين .. كالفقهاء وعلماء الكلام .

يخيل الى أنه لا مرأى في أن مجرد وجود بحوث كلامية في هذا العصر والساح لها بأن توجد وتتطور دليل على أن المسلمين حينئذ لم يعتقدوا بالتنافية مع الدين ، وعلى أنهم كانوا يؤمنون بأن الاسلام حلال العقل والارادة . وأن له أن يكون أحكامه حسب ما يتبين من دليل .

ولعل مشكلة حرية الارادة كانت من المشاكل الأولى التي نهوت ميمنة في الاسلام ، لأن آثارها تبدو واضحة هنا وهناك . غير أنه يلاحظ أنها كانت

تختص حين ظهورها اما بالقول : « لا أدري والله أعلم » .. واما بالاجابة بأن الانسان فاعل مختار ، ولكن الاتجاه العام كان اعتقادا بحرية الارادة وبالاختيار ، مصحوبا بايمان جازم بالله وبثقة تامة فيه واطمئنان اليه ، والى أن معونته تسعف الذين يرجونها ، من يحسنون عملا ، ولم تأخذ المشكلة شكلا واضحا الا في زمن « على » الخليفة الرابع ، وكان الجواب عنها . وخاصة عند على ومريديه : تأكيدا لاختيار الانسان .

ولم يظهر الاتجاه الجبري الا في العصر الأموي : ففي هذا العصر ظهر جساعة من الناس في « دمشق » وصرحوا (وقد يكون بتشجيع من الأمويين أو بوحى منهم) بأن الانسان مجبور في أفعاله ، وليس لديه قوة على الفعل أو الترك ، لأنه فيها خاضع لسلطان الله و ارادته ، وكل أفعاله صادرة مباشرة عن الله ، وعلى الرغم من أن هذا الرأي لاقى تشجيعا عظيما من رجال السلطان ومن أن له أثره الفعال في نفوس ضعاف العقول ، فقد واجه هجوما عنيفا من العلماء ، ولم يحظ بكثير من القبول العام ، وأدى خروج هذا الى التقيض ، فثار في دمشق نفسها نظرية الاختيار المطلق ، « التثويض » ومن هاتين النظريتين المتقابلتين نشأ بالتدريج وعلى مر الأيام ، مدرستان المعروفتان في الاسلام « المعتزلة » و « الأشاعرة » .

اختلفت هاتان المدرستان في كثير من مسائل علم الكلام اختلافا كبيرا واختلفتا في تحديد معنى حرية الانسان ولكنها اتفقتا على أن الانسان فاعل مختار ، وانه لذلك مسئول عن أفعاله . واتفقتا على أن ايمان المضطر وكفره لاغيان . وعلى أن الايمان التقليدي من غير فهم ومعرفة عديم الجدوى وأنكرنا التنجيم والتطير وما اليها وان لها قوة تؤثر في الانسان . فهما اذن من المدارس العقلية التي تؤمن بأنه لا يوجد ما هو لازم على الانسان سوى نتائج تفكيره لا جرد عن الهوى ، وسوى تلك المبادئ التي جاء بها الاسلام . والتي تبين أنها نفسها معقولة ومنسجمة كل الانسجام مع تعاليم العقل ومطالبه . وقد يكون من المفيد هنا أن نشير الى ذلك المبدأ المعتزلي القائل بأن العقل الانساني كان يقدر أن يصل بنفسه الى كثير من المسائل التي جاء بها الأنبياء لو لم يبعث الله هؤلاء الأنبياء .. قد يرى بعض الناس أن

هذه النظرية صدى لنظرية أفلاطون في هذا الصدد ، فليكن ذلك ، ولكنهم قد جعلوها هنا فكرة اسلامية ، قبلها كثير من الأوائل ، وكانت في يوم من الأيام عقيدة شبه رسمية .

وانه لمن المفيد أيضا أن نذكر أن هذا الاتجاه العقلي أوحى بجديد لم يكن معروفا من قبل . فدفع جماعة ممن تسربوا في بيئة محافظة أكثر منها فلسفية من رجال هذا العصر الى أن يكتبوا كتابة موضوعية فيما نسيه الآن « بعلم مقارنة الأديان » ، وأعنى بذلك : « النوبختي والمسعودي والمسيحي والبغدادى وابن حزم والبيروني » كما نسع الجديد . من رجال الصوفية ، يفضل العلم على المعرفة .

ولم يكن الفقهاء ورجال القانون أقل استعدادا لتطبيق هذا المبدأ من غيرهم ، ويكفى هنا أن نشير الى بعض القواعد الفقهية العامة التي نذكر تكون مجعما عليها بينهم . والتي تبين أنهم لم يكونوا جامدين أو نسيبي النظرية والأفق . فمن هذه القواعد « تتغير الأحكام بتغير الأزمان » .

ويلاحظ أنه كان للإمام الشافعي في بعض المسائل مذهب قديم وآن جديد فيها . وكلاهما صحيح ومقبول . ولكن في ظروف خاصة وبأوضاع مختلفة . كذلك تقرأ كثيرا في كتب الحنفية « وهذا الخطاب غير راجع لا حجة وبرهان » . ومن هذه القواعد « المشتقة تجاب التغيير والتبديل » . تنزل منزلة الضرورة « و لا يتحمل الضرر الخاص بالضرر العام » . و « الضرورات تبيح المحظورات » . « يكفى بظاهر الحال عند الحاجة » . « الدليل » وهكذا ..

وفي الحق ان المسلمين لم ينتسبهم المنكروين والاصوات التي ترفعهم بل بالعكس كانوا يظنونهم في بعض الأحيان كثيري التردد والاضطراب في الفكر وفي القضاء في المجتمع . ولما كان هذا الأمر قد رأى تحديد قواعد عامة للقضاء ليعلم المتقاضون من أين يرجعون الى الذي سيخضعون له . كما نرى « ابا جعفر المنصور » « يدأب الى « ما كان » ان يجمع كتابه « المومنا » ويؤلفه . ليجعله قانونا عاما يازد به المسلمين

كافة . وعلى الرغم من ان مالكا ألف كتابه هذا . فقد رفض ان يعطيه وصف
 الالتزام مصرحا بأن القرآن والسنة وحدهما هما اللذان لها وصف الالتزام
 فحسب . فلم يكن رأى واحد لازما في نظرهم على الآخرين . الا ان يروا
 وجه الحكمة فيه . كما كانوا يعتبرون اختلاف الآراء ، وكثرة البحوث
 العقائدية كما نعتبرها اليوم امارا التقدم الفكرى والنضوج الذهنى فى
 المجتمع .

تلك الحركة الفكرية التى حررت عقل الانسان وانهضته . ظلت مزدهرة
 خمسة قرون كوامل . تلتها خمسة قرون أخرى . كانت مظهرا لانقسام سياسى
 عنيف بين المسلمين . وتفرق داخلى فيما بينهم . وكانت القرون التى تلى
 هاتين الحقتين مظهرا لضعف المسلمين السياسى وتحكم غيرهم فيهم . فكيف
 يتأتى تقدم أو تطور مفيد لجساعة مزقت وحدتها الخلافات الداخلية
 والانقسامات السياسية وغلبت على أمرها بعد ذلك بقوى خارجية لا توائها
 فى الجنس أو العرف أو الدين ؟ . ذلك وحده قد يكون السبب . غير ان
 الواجب يقضى بأن نشير الى ظاهرة أخرى داخلية هى : أننا نقرأ بعض الكتب
 التى آلفت فى هذه القرون المتأخرة . فنراها تحرم دراسة كيت وكيت من
 العلود العقلية . وتدعو الى أفكار ظاهرها التوكل وباطنها التواكل : فكيف
 جاء هذا ؟ . تختلف الاجابة على هذا السؤال وأمثاله . باختلاف الكاتبين .
 فمنهم من يعزوها الى الفقهاء . ومنهم من ينسبها الى الطبقات الحاكمة . أو
 الى رجال الصوفية . أو الى الانقسامات السياسية غير أنه يبدو ان واحدا من
 هذه العناصر لا يمكن أن يكون وحده سببا ، فقد تكون هى مجتمعة مع
 بعض العناصر الأخرى سببا فعالا فى ايجاد هذا الاتجاه الطارىء ومن هذه
 العناصر الأخرى نرى نظرى أن الجماعة الاسلامية تكونت من عناصر متباينة
 وأجناس شتى .. وكان ممن اعتنق الاسلام جماعات تعودت على أن تضى
 على ملوكها ورجال الكهنوت فيها وصف القداسة . اعتنق هؤلاء الاسلام
 من غير أن يخلصوا أنفسهم الا فى الصورة من تلك الآراء المتأصلة فى
 نفوسهم فظلوا يعتبرون الحكام معصومين ، وان لهم حقا الهيا فى الحكم ،
 وانه ينبغى لهذا أن يخضع الناس لارادتهم وتوجيهاتهم ملغين مالهم من

ارادات شخصية وانه لمن الهين بعد ذلك أن يوجد تواكل عام ، وأن تتطور هذه الأفكار الى جبر مطلق واستسلام عام ، وخاصة اذا ما شجع هذا الوضع — كما كان الشأن في كثير من الأوقات — بالأمرء والحكام وغذى بالنفعيين من الكتاب الذين كانوا يعيشون على أعطيات هؤلاء الأمرء . هذه وأمثالها قد تكون السبب ولكن ليس الإسلام . فالإسلام كما رأينا لا يحرم غير الاتجاه السلبي في الحياة ، الذي يجعل الانسان خاضعا خضوعا كلياً للطبيعة وما فيها .

فالمشكلة هنا ليست مشكلة طبيعية وذاتية في الإسلام . انها ضارئة عليه وغريبة عنه ، فكيف ندخل في بيئاته المبادئ العلية والعقلية ونجعلها منسجمة معه ؟ بل كيف نعلم الطلاب والجمهير ونجعلهم يفهمون الإسلام في وضعه الصحيح لا على أنه منسجم كل الانسجام مع التقدم الفكري والتطور العلمي فحسب . بل على أنه كذلك قوة تهدى الفكر وتستتيله وتلزمه . ما دام قادرا ان يبحث الطبيعة ويستخرج خباياها . ويخضع ما فيها من قوى تحتاجه الانسان . ليست المشكلة كيف نفهم الإسلام من جديد . ونجعله يتسع للجديد . بل كيف نفهمه كما فهم في العصر الذهبي للسلسين . كيف تتعسف فيه . وكيف نكون مسلمين حقا . ونهضم مبادئه وتعاليمه ؟ انها مشكلة تعليلية فحسب . لأن كل ما هو حق من ناحية موضوعية . وكل ما هو عقلي من ناحية موضوعية . وكل ما هو محتاج اليه حقا لينهض بالانسان فهم . كما قلت من قبل — إسلامي . ويجب في دين الإسلام على القادرين أن يعملوا على تحقيقه للانسان .

وهذا ما قاله الدكتور « هارولد . ب . سميث » الأستاذ بجامعة « كولومبيا » بولاية « أوهايو » في نفس المؤتمر عن الجبرية : ان من المسائل التي اختلف فيها الخلاف في التفكير الإسلامي مسألة الحرية الإنسانية . والحرية الإلهية « أو « القضاء والقدر » . وليس هذا مجال البحث في هذا الموضوع . ولكن يكفي ان نقول ان في القرآن آيات مريحة تؤكد كلا الأمرين . فهناك آيات كثيرة تقرر مسراحة أو ضسنا مبدأ الجبرية المطلقة . فإنا نرى ان المستعراض الآيات المختلفة يتكشف عنه الملاحظة التالية . وهي أنه حيث يكون الاهتمام

موجها الى الله فان سلطانه المطلق الكامل يكون موضع تأكيد . وفي هذا السياق تعتبر أعمال البشر . خيرا وشرها على السواء . مسببة عن الارادة الالهية مباشرة . اذ أنه لا يحدث شئ ما لم يردده الله، أو يأذن به . وان مشيئة الله الأزلية الأبدية . لتنفذ حتى في مسائل الاعتقاد وعدمه . فيهدى قوم الى الايمان . ويوجه آخرون الى الضلال . وان ارادة الله هي العليا . فهو يهدى من يشاء الى الصراط المستقيم . ويصرف من يشاء الى سبيل الكفر والضلال . هذا حين يكون الاهتمام موجها الى الله ، فأما حين يحول الاهتمام الى الانسان فان التأكيد ينصب على ان الانسان قد وهب له الله الحرية والمسئولية الاخلاقية .

فكل انسان ذات أخلاقية حرة . وهو مسئول امام الله عن أفكاره وأحكامه وأعماله . وهو الذى يجعله فردا ذا مشيئة من الله الذى هو الموجود الأسمى . والله يرشد الانسان عن طريق الوحي الى مبادئ أخلاقية عامة منبعثة عن ارادته الأبدية المقدسة . الا أن فى الانسان قوة كامنة . اذ أن فى استطاعته ان يتقبل هدى الله أو يتحول عنه . وفى السورة الثالثة والثلاثين آية هامة رقم ٧٧ (هي « انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا ») . لا يتحقق معناها الا على أساس التسليم بالحرية الانسانية . فقد عرض الله على جميع مخلوقاته مسئولية المحافظة على الايمان . وادارة العالم باسم الله . فتقبل الانسان أن يحصل هذا العبء . على حين رفضته سائر المخلوقات خوفا واشفاقا . ومع أن الانسان لم يرع ذلك الايمان ولم يدر العالم ادارة ذات قية . وسلك منك الظلم والجهل : فان فى هذا سر عظمتة وخطيئته جسيما . فلو لم يكن الانسان حرا ما ارتكب الخطيئة . ولو لم يكن حرا ما ساغ أن يمس الأمانة .

وتلك أصبح هذان الوجهان للنظرية الاسلامية موضع خلاف شديد عندما بدىء فى تقرير العقائد تقريرا منهجيا : فذهب الأشعري السنن مثلا الى استبعاد كل العلل الثانوية ، وهذا المذهب فى محاولته اثبات أن القدرة الالهية مطلقة . رأى فى الأحوال والأفعال الانسانية جميعها خيرا وشرها

الصابرين » . و « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو . ويعلم ما فى البر والبحر . وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين » و « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

والأحاديث فى هذا كثيرة جدا من أصرحها حديث عمر بن الخطاب السابق ذكره .. وروى عبد الله بن عمرو بن العاص . عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ان الله قدر المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة — رواه أحمد والترمذى .

وعن أبى هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ان روح القدس (الملك) نثت فى روعى ان نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوفى رزقها . فامهلوا فى الطلب .

والأحاديث فى هذا كثيرة جدا وعقيدة القضاء والقدر اتفق عليها السلف الصالح منذ القرن الأول . وتلقاها المسلمون جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن مستيقنين بها . لأن كل مسلم موقن يفهم من عقيدة القضاء والقدر ان معناها الذى ينطبع على قلبه هو احاطة الله عز وجل بعلمه وقدرته وارادته المحيطة المهينة على جميع المخلوقات فى العالمين السفلى والعلوى . وان كل شىء فى هذا الوجود من قبل وجوده معلوم لله . وانه يوجد بحسب ما يعلمه الله من قبل . كما أشير الى ذلك فى الآية : « وما يعزب عن ربك » .

ولقد كان لعقيدة القضاء والقدر أعظم الأثر فى انتصار الاسلام . وفى انتشاره وفى رفع رايته . وفى غلبة الفئة القليلة على الفئة الكثيرة . كما جاء فى الآية الشريفة السابقة .. وقد كان أوائل المسلمين الذين جاهدوا فى سبيل الله حق جهاده كانوا مدعنين لعقيدة القضاء والقدر . يعلمون علم اليقين أن التسابق لله الى ميادين القتال لنشر لواء الاسلام ورفع راية الحق لا ينقص من أعمارهم وكان ذلك لايمانهم بعقيدة القضاء والقدر التى ترتب عليها نصر وظفر المسلمين ، وتحطيم دولة الروم والفرس وكل أعداء الاسلام فلا يصح ... اذن — أن يوصم المسلمون بالخسول والاستسلام والتواكل كما يدعى الغربيون .

والحقيقة ان الايمان بالقضاء والقدر بعض ما يجب على المسلمين لكي تتم لهم العقيدة ولكي يكمل ايمانهم . وليس المراد بالايمان بهما ان تتواكل فلا نعمل وان ندع الأسباب ونتنظر النتائج . فان الله تعالى يربط الأسباب بمسبباتها .. وأقام نظام الكون على هذا القانون . والايمان بالقضاء ومعناه حكم الله التكويني وبالقدر ومعناه الترتيب والنظام . يعنى ان تؤمن بانه لا يقع فى الكون شىء الا على وفق ما علم الله وأراد . ولا يعنى هذا بطبيعة الحال أن ترتكب ما نشاء من مخالفات تحت ستار القضاء والقدر . لأن المولى سبحانه وتعالى أخفى عنا ما قدره علينا . وليس لنا من سبيل الى ما علمه الا بعد ان يقع منا فنعلم من وقوعه انه كان مقدورا علينا . والبواعث تسبق الأعمال ولا تلحقها . والأسباب تتقدم النتائج ولا تتخلف عنها . ولعله من أجل هذا الجدل الذى لا طائل تحته . ولا خير فيه .. قال صلى الله عليه وسلم : اذا ذكر القدر فأمسكوا ، وقال أبو عبد الله جعفر الصادق : ان الله أراد منا شيئا وأراد بنا شيئا ، فما بالناس نشتغل بما أرادنا بنا عما أرادنا منا . ان الاسلام دين عمل وكفاح ، ودين حياة وصراع . يوجب العسل ويفرض التوكل على الله ، لأن التوكل كما يقدره الاسلام يعنى الأخذ بالأسباب وترك النتائج لله تعالى . ولا يفهم منه بأى حال أن تترك الأخذ بالأسباب ونتنظر النتائج .. قال عمر بن الخطاب : لا يجلس أحدكم فى بيته ويتنظر الرزق من الله فان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة .

والايمان بالقضاء والقدر بعد هذا كله هو خير ما يعصم الانسان من البطر اذا أصابه الخير . ومن الجزع اذا أصابه الشر . لأن المؤمن بالقدر على يقين من أن الخير والشر ، كليهما من عند الله . وهو كذلك خير ما يعصم الانسان من رذيلة الحسد ، لأنه اذا آمن به كان على يقين من أن كل شىء يصيب الانسان فلا بد أن يصيبه ، وان حسده لما فى يد غيره لن ينقل هذا الذى فى يد غيره الى يده ثم هو أخيرا خير ما يحصل المسلم على أن يكون شجاعا لا يهاب الموت ولا يخشى الشدائد لأنه على يقين من أن الأجل بيد الله . وانه لن ينقص يوما واحدا من أجله . ودين يقول نبيه صلى الله عليه وسلم : المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف . وفى كل خير احرص على ما ينفعك . واستعن بالله . ولا تعجز . واذا أمسبك شر فلا تقل

لو كان كذا كان كذا .. فان لو تفتح باب الشيطان ، لا يوصف بأنه يحمل الناس على التواكل . أو يرضى منهم بالعجز والاستسلام . وفي ماضي المسلمين الأولين عندما فتحوا الدنيا وحكموا العالم وسادوه خير دليل من التاريخ على ذلك .

قال أحد المفكرين الغربيين : اذا كان في الأرض أديان تعادى العلوم فان الاسلام على العكس . لا يقوى ولا يزدهر الا بانتشار العلوم وتقدمها . فان بينه وبينها رابطة أكيدة . فلا يمكن عزو الانحطاط الحالي بين المسلمين الى دينهم لأنه كان فيسا مضى السبب الوحيد في رقيهم وعظمتهم .

ومما قاله الأستاذ « هارولد . ب . سست » : انه لو أمكن اثاره التناكسك الاسلامي في سبيل أغراض ايجابية . وتكتيل الأمم الاسلامية الكثيرة المختلفة في وحدة حية . لأمكن أن تصير هذه الوحدة (قوة ايجابية في العالم) . بل ان هذه الوحدة لتكون أكثر فاعلية اذا دخلت في نطاقها من سواها . واذا بلغ من سماحتها أن تشرك في وجدانها وفي أخوتها كل مخلوقات الله . ما أروع أن تحتج باكستان على مظالم حلت بأمة أخرى . شديدة البعد عنها جغرافيا . لأن تلك الأمة تنتمي الى جماعة الأمم الاسلامية . وأروع منه وأجدر أن يضيء طرقا جديدة في عالمنا الذي مزقته الحرب ، أن تنهض أمة اسلامية . باسم المقاصد الحقّة التي يوجه اليها الله الواحد . وباسم الرابطة التي تربط بين بني الانسان محتجة على ظلم أصاب أي شعب . ولو كان خارج الكتلة الاسلامية .

ولما كنا نتكلم عن الوطنية في مقابل العالمية فنس الخير ان نذكر ان الوطنية المتجزئة هي ما يسميها المؤرخ « توينبي (Toynbee) زيفا من الغرب . وهذه الوطنية لم يصبح لها وجود في العالم الاسلامي الا بالوراثة عن عصر الاستعمار . وهكذا ظهرت في الشرق الأوسط أوطان تطابق خطوط تحديدها حدود مناطق النفوذ التي كانت فيسا سبق . تدعيها لنفسها قوى استعمارية أوربية مختلفة . ان بين هذه الأوطان الآن تنافسا وتحاسدا . على حين ان الذي يجب أن يكون في دار الاسلام هو « الوحدة » . وقوله : أما من حيث العلاقات الدولية . فان الأمم الاسلامية أو الجماعة الاسلامية

الكبرى . يجب ان تكون فى طليعة المنتصرين لخلق نوع من المجتمع العالمى من الأمم . ومن العاملين على ايجاد مثل هذا المجتمع الذى ينظم ويسيطر عليه قانون دولى . كما أوضح ذلك خير ايضاح الأستاذ « نورثروب Norsrop فى كتابه « رياضة الأمم » .

Taming of the Nations

وخير ما يصور حقيقة التوكل هو قول الرسول : لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خصا (جائعة) وتروح بطانا (ممتلئة) . والطير لا تتواكل ، بل تطير وتبحث وتجمع ، وهى مسخرة بقدره الله .

والحقيقة ان القضاء والقدر بالصورة التى يؤمن بها المسلمون فى أشد ظلمات الفكر مفيد . لأنه يوجد فيهم حيوية نفسية . وان الأطباء الآن يعالجون المرضى بالاطمئنان النفسى والروحى . وبعث روح الثقة بالله وبالناس .

فالغريبيون ينحون باللائمة على المسلمين لايمانهم بالقضاء والقدر لأنهم وجدوا ذلك الايمان يحى المسلمين من الفناء . ولأنهم دائما يجدون المسلمين فى تكاثر مستمر وذلك يغيظهم ويكبتهم ، والأمر الذى يسبب كثرة المسلمين هو ايمانهم بالقضاء والقدر . والحقيقة انه ما عرف أهل دين بكثرة العمل كما عرف المسلمون : فالرسول صلى الله عليه وسلم ما كان يحاول ان ينتصر بأسباب من السوء . بل كان ينتصر بأسباب من التدبير المحكم وحياته كلها تنبىء عن أنه كان يعتمد على نفسه وعلى العمل فى كل شىء فعندما همت قريش بقتله ما استسلم وما طلب من السوء مددا وما طلب من ربه ان ينزل عليهم صواعق كما طلب غيره من الرسل « نوح » وما اعتسده على ربح مرمصر عاتية . انما اعتسده على التدبير فرتب أموره وخرج مجاهدا ليجد النصر فى مكان آخر .. وهكذا حياة الاسلام كلها من وقت فتح باب الجهاد الى ان ضعف المسلمون وتخاذلوا . ما كانوا يعتمدون على نصره السوء فقط . بل كانوا يعتمدون على العمل .

ويروى فى هذا ان الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه سئل عن أميرين أحدهما فاسق وقوى والآخر ضعيف تقى . فسع أيهما يجاهد ؟ فقال : مع

القوى الفاسق لأن فسقه على نفسه وقوته للمسلمين . أما الضعيف التقى
فتقواد لنفسه وضعفه على المسلمين .

والحقيقة التي لا مرأ فيها أن الانسان مهما تكن قوته . ومهما تكن قوة
الأسباب في اتاجها للنتائج كلها ، فان للقدر العام تسيير فيها .. فالفلاح يلقى
البذور في الأرض ويرعاها . ويسقيها . ويلقى غيره مثله . وربما يسقيان من
ماء واحد . ومعدن الأرض واحد والخصوبة واحدة . ولكن هذا ينتج أطيب
الشرات . وذلك قد ينتج شرا ضئيلا .

كذلك الأعمال في الدنيا . فالتاجر يأخذ بالأسباب كلها . ثم يجيء القدر
بغير ما أراد ولذلك كان لا بد أن نأخذ بالأسباب في دوائر قوانا . ثم
لا نسي قوة الله العلى القدير المهيمن على كل شيء الظاهر فوق عباده ..
كقوله : « وشاورهم في الأمر فاذا عزمتم فتوكل على الله » . أمره الله
بالمشاورة وهي التدبير والأخذ بالأسباب العادية على أكمل وجوها حتى
لا يكون هناك مظنة نقص .

فالتشاور دراسة واحتياط للسووع من كل نواحيه . ولكنه لا ينسى
التوكل على الله . فان هذه الأسباب التي جعلها الله منتجة لمسبباتها هي خاضعة
خضوعا مطلقا لارادة الله تعالى في الكون كله .

وقد قرأت للعالم الجليل الأستاذ محمد أبو زهرة كلمة طيبة . هي :
وانه ما يذكر في هذا المقام أن الأوربيين اليوم يحسون بأن اتجاهاتهم
المادية جعلتهم ينسون التفويض لله . واني لاحظت انه ما من مغرور أوربي
خدع بقوته وأحس ان كل شيء صار تحت سلطانه الا خذله الله من حيث
لا يحتسب . « فلويس الرابع عشر » . فيسا أظن عندما وقف في جنده مفاخرا
يقول : المستقبل لى . لم ينتصر بعدها في حرب قط .

واني اعتقد ان هزيمة الأوربيين في حروبهم وقد أخذوا بكل الأسباب
سببها تنسب التفويض لله . واني لأتذكر أيام الهجوم على القناة ، وكنت أتبع
تصريحات أوربا من « ايدن » الى غيره : فما لمحت كلسة الله تجيء على
ألسنتهم فقط . وعلى عكس ذلك كان الشرقيون الذين ينحى عليهم باللائمة

للايمان بالقضاء والقدر . فما قرأت تصريحاً لأحد منهم الا وقرنه بالتفويض لله .

ان الايمان بالقضاء والقدر خير دائماً . وانه في كل صورته أوجد حيوية في المسلمين وصبراً على الشدائد . ومصابرة لأعداء الدين . وانه في حقيقته الشرعية لا يمنع من العسل بل يحث عليه . وانه يجب على المسلمين في أعمالهم الا ينسوا التفويض لله رب العالمين .

وصدق قول الله عز وجل : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل ان نبرأها . ان ذلك على الله يسير » .

وأخرج الامام أحمد وأبو داود والترمذي من حديث عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ان أول ما خلق الله القلم . ثم قال : اكتب . فكتب في تلك الساعة بما هو كائن الى يوم القيامة .. ولا منافاة بين الآية السابقة ومثيالاتها وبين قوله تعالى : « ينحو الله ما يشاء ويثبت » . لأن المحو والاثبات ما جفت به الصحف أيضاً . وكذلك لا منافاة بين الحديث وبين ما ورد مما يشبهه من قوله صلى الله عليه وسلم : أول ما خلق الله كذا . وأول ما خلق كذا . فان الأسماء مختلفة والمسمى واحد .. فانه سبحانه وتعالى خلق الأسباب والمسببات . وخلق ما بينها من لحنة السببية فالتناسل تلك الأسباب لا ينافي التوكل في شيء بل انه نفس التوكل . وما تفسير أول ما خلق الله كذا . بالانحلال . انما منشؤه الجهل بلغة القرآن الكريم .

وذلك الرسول وهو سيد المتوكلين يرشدنا بقرآنه . ويجيب عننا الى أن لكل شيء سبباً لا يمكن الحصول عليه الا بتخذ ذلك السبب . ما سعت قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم » . وما سعت قوله تعالى : « ما استنقتم من قوة ومن ريب الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ونحو » وما أمابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم .

على أن الله سبحانه وتعالى بين لنا ضرورة ذلك في قوله تعالى : « لا يفرحون الا بما آتاهم من الله » . فقال في الكتاب العزيز : « ان الله لا يغير ما بقدره الا بما يشاء » .

بأنفسهم» . ومن ذلك أيضا قوله تعالى : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » . فليتق الله المسلمون في دينهم وليتباعدوا به عن النقائص التي شوهوه بها . وعرضوه بسببها الى طعن الطاعنين وغلو الآفلين .

وفى صحيح البخارى عن على رضى الله تعالى عنه . قال : كنا جلوسا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه عود ينكت به الأرض وقال : ما منكم من أحد الا وقد كتب مقعده من النار أو من الجنة . فقال رجل من القوم : ألا نتكل على كتابنا وندع العمل يا رسول الله ! قال : لا تعملوا فكل ميسر لما خلق له . ثم قرأ : فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى .

والأحاديث فى ذلك المعنى كثيرة جدا يطول ذكرها . وفى هذا القدر كفاية ..

وقد تعرض المرحوم الشيخ « محمد عبده » لهذه المسألة عند حديثه عما درج عليه الغربيون من نسبة ما قد يوجد فى البلاد الاسلامية من أى تأخر أو جسود — الى العقيدة الراسخة فى نفوس المسلمين فى القانون الالهى أو القضاء الأزلى . فبعد أن يسلم محمد عبده بأن العامة قد اصطنع تفكيرهم بالتقديرية المأخوذة من فكرة الجبر . وه القضاء . يؤكد أن مفكرى المسلمين من جميع الفرق يعتنقون مذهب حرية الانسان فى الاختيار . وهو يقرر فى رسالة التوحيد أن الانسان يدرك أعماله الاختيارية . ويزن عواقبها بعقله . وينسب اليها القيم عن طريق ارادته . ويقوم بها بدافع من نفسه . وأيا ما كان فالانسان يعلم بالتجربة أن هناك قوة أعظم من نفسه هو مسئول أمامها . وعندما يقول القرآن : « ما تصنعون » و « بما كسبت أيديكم » فان قوله هذا يتضمن المسئولية . ومن ثم الحرية اللازمة ، لأنه لن يكون ثمة عدل فى اعتبار الانسان مسئول عن أحوال تفرضها عليه ارادة أو قوة خارج نفسه . ويستدل « محمد عبده » على هذا ببدأ (المجاهدة) .. فقوله تعالى : « والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا » يبين أن هدى الله ميسر لمن يجاهدون فى سبيل الاهتداء الى الحق والخير والصواب .

وكما أن الناس تحكمهم في حياتهم الاجتماعية قوانين خاصة كذلك تحكمهم في كل مكان وزمان قوانين الله الخلقية . والناس قادرون على معرفة هذه الشرائع الالهية بالتدبر . وعن طريق الوحي . ولكنهم أحرار حين يعلسون بها . أو يخرجون عليها . كحريتهم في اطاعة القوانين الدنيوية أو عصيانها . واذا خرخوا القانون فهم معرضون في كلتا الحالتين . لقضاء السلطة الأخلاقية وعقابها . والأمم تصل الى الرفعة ، أو تقصر دونها ، حسب اختياراتها الأخلاقية الارادية ، أو حسب الاتجاه الأخلاقي العام لسياساتها الاجتماعية وهكذا فقوله تعالى : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » يتضمن أن النظام الذي رسسه الله يقوم على قانون العلة والمعلول ولكن اختيار الطريق والمسئولية ملقيا صراحة على الناس بسبب حريتهم التي منحهم الله اياها . والله ينفذ مشيئته في الحياة عن طريق دفع الناس بعضهم ببعض . ومع ذلك ففي هذا التدافع التاريخي يستطيع الانسان أن يتقدم بالتجربة الى سبيل الحق والصواب . وهي قوله تعالى : « ولولا دفعنا الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين »

لقد وهب الله الانسان الحس والعقل وفي هذين الكيفية ليستكفي ما هو ضروري للمحافظة على النفس . وليميز الصواب من الخطأ . وهب الانسان كذلك العاطفة والشعور اللذين يدفعان ادراكه العقلي من حرية الارادة الحرة ليتصرف فيما يصل اليه العقل الذي تغذيه .

أما « محمد اقبال » فانه يقول في معرض حديثه عن عبادة الله تعالى : « ان مصير أي شيء أو أي شخص ليس قضاء مساره . بل هو اختياره . سيد أمر بل ان الغاية الذاتية لشيء من الأشياء . انه امكانه ان يدرك ادراكها . والتي قد تحقق نفسها دون أي شعور . كإراد خروجه من حيزه . فقوله تعالى : « انا كل شيء خلقتنا بقدر » (النور آية ٢٩) ومن أن مخلوق قد وهب (امكانية محددة) هو (حر في تحريك نفسه) . ويرى اقبال في قدرة الانسان على الخلق دليلا على حرية العقل . خالق يجب بالضرورة أن يكون حرا . فالخلق يقابل التدبير الذي هو سبب الفعل الآلي .

وهكذا يرفض « اقبال » كل الصور المتطرفة من فكرة القضاء الأزلى !
سواء أنسبت الى تقدير الله أم الى الضرورية الآلية .

ويرجع عنصر القدرية فى التفكير الاسلامى الى ما حدث من فرض التفكير الفلسفى اليونانى على الآراء الدينية الأصلية للاسلام . فان فلاسفة المسلمين لما عرفوا ما فى التراث اليونانى القديم من الوصول عن طريق سلسلة من العلل . الى علة أولى نهائية . مالوا الى اعتبار العلة الأولى المطلعة العلة الوحيدة . ومن ثم أنكروا وجود الأسباب الثانوية الوسيطة جاعلين الله المنشئ الوحيد المباشر لكل ما يحدث فى الكون . وقد عجل عاملان آخران بنمو عقيدة القدرية : أحدهما المصلحة السياسية التى كانت تستهدف تسوية الأخطاء السياسية باضافتها الى ما خطه الله فى قضائه . والآخر ما أصاب الاسلام نفسه من تناقص فى قوته الحيوية الدافعة . هذا التناقص الذى أحدث ضعفا وجمودا يوافقان الايمان بالقضاء والقدر .

فالأجانب ومن على شاكلتهم الذين يريدون أن يتهموا الاسلام بمثل هذه التهم يستملونها من حال المسلمين الحاضرة . وحال المسلمين الحاضرة لا تمت الى الاسلام بكثير من الصلات . ولعل الأجانب يتبعون خلق الاسلام وشرائع الاسلام ولعلمهم استفادوا منه بدون قصد . واذا كان عندهم خير فالخير كله قد استقوه من خلق المسلمين الأولين ، فنحن رسمنا لنا صورة للعمل تبعد عن الاسلام بكثير . وأضعنا أوقاتنا فى التهاثر والجدل والألفاظ والكلام . واذا غضب الله على قوم منحهم الجدل ومنعهم العمل ، أما هم ، فقد انقلبت الآية عندهم ، تركوا دينهم فتقدموا وتركنا ديننا فتأخرنا ، كما ذكرنا ذلك آنفا .

وصفوة القول ان هذه العقيدة نصر لمعتنقيها وأن الادعاء بأنها تدعو الى التواكل والكسل ادعاء باطل .

ونختم الحديث عن هذا الموضوع بقول « محمد اقبال » أيضا وهو الشاعر النابغة ، والفيلسوف المبدع .

يتكلم عن الذات الانسانية حريتها وخلودها ، ويبين كيف عمت المسلمين « جبرية مشئومة » على خلاف ما علمه الاسلام ، ووكده من حرية

الذات . ويقول ان هذه الجبرية التي عرفها الأوربيون في كلمة « قسمة »
ترجع الى غلبة الفكر الفلسفي والى المطامع السياسية وضعف نبض الحياة
التي بثها أعداء الاسلام في نفوس المسلمين .

ثم يقول اقبال : نشأت ، على خلاف دعوة آئمة المسلمين . جبرية
مهلكة ، وشاعت نظرية الأمر الواقع لتحصيل منافع لبعض الناس ، وتيسير
مطامعهم .

وليس هذا أمرا بدعا ، فقد احتج فلاسفة محدثون بحجج عقلية على أن
نظام رأس المال في الجباة نظام أبدي .

حدث مثل هذا في تاريخ المسلمين . ولكن درج المسلمون على التماس
أدلة مذاهبهم في القرآن ، ولو على خلاف معانيه الواضحة فكان لتأويل
الذي يحتج به على الجبرية آثار بالغة في الأضرار بالجباة الإسلامية .

الفصل التاسع المسترقون والصوف الإسلامي

أجمع أئمة الصوفية على أن التصوف هو الطريق الوحيد السلطاني الذي يؤدي إلى اكتساب المعارف الإلهية والفتوحات الربانية والأذواق والمواجيد الباطنية مما يزيل كافة الشكوك والريب والغموض والابهام من دخيلة النفس فيما يتصل بالكثير من المعتقدات الدينية التي لا بد من الإيمان بها . ومنها مثلا : الاعتقاد بوجود الله تعالى وجودا أزليا وأبديا قبل أن يوجد الزمان والمكان .

فالعقل الراجح والمنطق الصحيح الواضح يوجبان هذا الاعتقاد على كل عاقل والإيمان به في غير ما تردد ولكن الإيمان بالشيء تتفاوت درجاته فقد ينقص إلى حد أن يكون ظنا أو أقل من الظن تبعا للمعاصي التي يرتكبها الإنسان قلة وكثرة وقد يتزايد إلى حد أن يكون عيانا ومشاهدة . وهذا تبع لمقدار ما يقوم به المرء من طاعة الله والإقبال على عباداته ضعفا وقوة .

وقد دلت سير المتصوفين الأولين السابقين ممن وصلوا إلى الله تعالى ووصول مشاهدة ومعاينة يجلان عن الوصف ويدقان عن العبارة على أن هذه الطريقة هي الكفيلة حقا بالقضاء على كل غموض وابهام في أمور الدين وعقائد الإيمان كما قال سيد المتصوفين « علي بن أبي طالب » : لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا . وإن هي إلا رياضة روحية مباركة ورحلة في طريق العبودية موفقة ينبجج أمام قلب السائر فيها نور اليقين . فعين اليقين . فحق اليقين حيث تنهزم من أمام بصيرته ظلمات الحيرة والقلق ويستلئ الباطن عرفانا وإيمانا الكلي ما ينطق به الرسل الكرام وجاءوا به من عند الله .

ويعجبني ما قاله سباحة السيد الأستاذ « محمد محمود علوان » شيخ مشايخ الطرق الصوفية بالجمهورية العربية المتحدة ، حول التصوف : من

المبشرات الطيبة ذات الدلالة الملهمة ، أن يحتل اليوم التصوف والأحاديث التي تدور حول رسالته مكانة الصدارة في أقلام الباحثين وعناية المفكرين . من المسلمين والغربيين - وهي بشرى تهش لها قلوب المؤمنين بربهم وتطرب لها ويرى فيها رجال الروحية الاسلامية ايدانا بفجر جديد لنهضتهم وعودة مبادئهم وأخلاقهم ومثالياتهم الى محيط حياتنا . وواقع وجودنا ، لتكون سندا وعونا ونورا لتلك النهضة العربية النامية التي تندفع بقوة حيويتها الجبارة وايمان قيادتها الملهمة الى التحرر والبناء والقوة في المحيط العربي ورسم مبادئ الخير والسلام والتعاون في المجال الدولي .

وبجوار هذا الوعي المنير المدرك لمكانة التصوف ورسالته . لا يزال بعض العقول التي بهر أعينها زخرف الشهوات الأوروبية ، وتلون تفكيره بالأفكار المادية ، لا تفهم من التصوف إلا أنه هذه الطقوس والشكليات التي علقت بالتصوف ، كما يعلق الكلف بقرص الشمس . وكما يحيط السحاب المظلم بنور القمر المشرق . ان تسرب الطقوس والشكليات الى جوهر الرسالة الاسلامية هو علة ما أصاب تاريخنا الفكري من ضعف وجسود ..

ولقد مشت هذه العلة الى العلود الاسلامية كافة . فتسرب الى اللغة تفريعات وافتراسات خيالية ودخل في علم الكلام سفسطات جدلية . وتسرب الى تفسير القرآن تلك الاسرائيليات القصصية . وماجى كتب الأحاديث النبوية بالدخيل المدسوس على نورها وجلالها . فليس ما أصاب التصوف اذن بدعا في التاريخ الاسلامي وإنما ضعف التصوف وحده . بما غلق به . وخصيف اليه .

ولعلنا الاسلام جهاد مشكور في الدواعى من المبادئ الاسلامية التي حوهرها . وبيان التزييف الذي منعه عمود الاسلام . وبما حوهرها . وبما هجها . . .

وارجال التصوف ايضا هم المستوردون من الغرب . فليس فكرته وتنقيته وتبرئته مما أنصفت الرجعية من مقلوس ومثاليدي .

وقول سيادته أيضا : ان التصوف هو جوهر الاسلام ، هو التطبيق العملى للقرآن . هو الفدائية المضحية فى سبيل الله والوطن . هو العمل الدائب لخير الفرد والجماعة والناس جميعا . هو « حب » الله سبحانه وتعالى حبا ينبثق منه حب الناس كافة . هو التخلق بأخلاق النبيين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ...

والفارق بين الصوفى وغيره هو أن المنهج الصوفى قد ربط الايمان بالعمل . والأخلاق بالحياة وجعل من المثاليات العالية واقعا مثلا فى الأفراد وأخذ بالعزائم فى العبادات وأحال وجوده الى ذكر يلهم القوة ، والى توحيد يكسب العزة ، والى جهاد يرفعه درجات عند الله وفى سلم الحياة .

ويضيف التصوف الى منهجه فى الحب الالهى ، حب أولياء الله ، لأنهم النماذج التى يقتدى بها السالكون الى الله ، ولأنهم المثال والرمز على الكمال الانسانى ، كمال التعبد والايمان والأخلاق .

لقد هوجم العالم الاسلامى ، واحتل احتلالا رهيبا قاسيا استهدف القضاء على عقائده ليصبح فريسة رخوة هينة .

وجاء فى أعقاب الاستعمار تبشير مزود بكل القوى ، وبكل الامكانيات والاعراضات وصد العالم الاسلامى للاستعمار والتبشير ، لأن الطرق الصوفية احتفظت بقلوب الجماهير ، داخل أنطاقها ، وزودت قلوب الجماهير بحب الله ، وحب رسوله ، وحب أوليائه فكان هذا الحب وحده ، هو الحصن الأشم . الذى تحطم عليه كل جهد بذله الاستعمار وبذله التبشير للقضاء على العقيدة الاسلامية وآدابها .

واستطاعت الشيوعية الحديثة أن تكسب أرضا ، وأن تكسب شعوبا فى مشارق الأرض ومغاربها ، ولكنها عجزت وستعجز عن أن تظفر بأمة اسلامية واحدة لأن الجمهور الاسلامى وهو فى تكوينه جمهور صوفى ، امتزج الايمان بدمه ولحمه وقلبه وتفكيره امتزاجا لا تغالبه ولا تنال منه قوة فى الحياة .

ان التراث الصوفي تراث أصيل في حياتنا الفكرية والخلقية والروحية
تشكلت به حياتنا وانطبقت به بيئاتنا ، وتلاقت واجتمعت عليه الأمة
الاسلامية .

وبذلك يغدو التصوف القاعدة الكبرى في بناء كل وحدة اسلامية ، بل
هو أيضا الحلقة الجامعة التي تتوحد في ساحتها التيارات الفكرية في
الاسلام .

فالتصوف قد اتسع أفقه حتى ضم تحت اهابه أتباع المذاهب الفقهية
كافة ، بل وأتباع المذاهب الكلامية عبر التاريخ الاسلامي .

والقاهرة - قلب العروبة - كانت ولا تزال مصدر الاشعاع الصوفي
المعالم الاسلامي ، واليها تتجه قلوب الصوفية كافة باعتبارها المثابة الرحبة لهم
جميعا .

وبذلك يغدو التصوف قوة عالمية تساند النهضة العربية ، وتقود بها
الايمان والروح والمثالية التي تنبعث من هذا الميراث الخالد .

ان التصوف رأس مال نافع لكل حركة انبعاثية تحريرية ، انه تكبر القوى
في مواردنا الروحية والعقائدية ولذلك حرصت مشيخة الطرق الصوفية منذ
يومها الأول في عهدها الجديد تحت ظل ثورتنا المباركة الباقية التي بعثت
روح العزم والتجديد في كل مرفق من مرافق حياتنا الفكرية والايديولوجية
والعملية ، على أن تجتمع القوى المؤمنة بربها وبوطنها وتتكاتف على نفسه
والعودة به الى يناييعه الصافية ، وروحانيته المشرقة ، التي تصان كالمسكن
والنهضات وتكتب التاريخ والحضارات « (١) .

وكان من أقطاب الصوفية « العلاج » ذلك الصوفي المخلص الذي كان
أمره ، وبلغ من شأنه أن كان يخرج الأطلعمة في غير وقتها ، والدرهم
الهواء ، ويسميها دراهم القدرة ، وكان يعرف الطب والكيمياء .

آمن العلاج وهو يشق طريقه الى الله ، على أجنحة من الشاقة
الشاقة وأشواقه القلبية المتقدة . ان هناك مسلك لا يتصور فيه
الروحي الذي ينشده ، والاصلاح الايماني الذي يسبده .

(١) قلا عن مجلة الاسلام والتصوف ، العدد ١٠٠ ، ص ١٠٠ .

انه ليحس بأن في أعماقه قوى ضخمة تفور وتتصارع وتتهيأ للحركة والوثوب ويشعر بأن هناك في أبعاد عمق من نفسه وقلبه ووجدانه تتفجر ينابيع ، وتتدفق تيارات وثورات ، يرى بعين خياله ، وبصيرة أحلامه ، انها ستغير وجه الحياة . حياته وحياة الناس كافة ؟

لقد آن للعالم الاسلامي أن يبعث من جديد على نور من كتاب الله ووجهه ، وشعاع من حياة الرسول وهديه .

وما أروع وأجمل أن تتحقق أحلام « الحلاج » ، فتشهد الدنيا أمة قرآنية تقوم بعين الله ورعايته ، يحكمها ويوجهها أقطاب عباد أتقياء أصفياء يحبون الله ويحبهم ويسئلون الكون بسواجيدهم وضراعتهم ، ويحصلون الناس على الجادة والطريق الذي اصطفاه الله وارتضاه ، فلا تفرق السياسة عن الصلاة ، ولا الحكم عن الحب ، ولا العمل عن العبادة ، فتنحول الدنيا من غاية للشهوات والصراع ولهو الشياطين الى مساجد للحب والسلام ونجوى الساجدين العابدين .

واقدم آمن الحلاج ، بأن المنهج الصوفي بكمالاته في الأخلاق والعبادات والجهاد الروحي . وبسواجيده وأرواحه ومعارفه في الحب الالهي ، انما يمثل وجهها واحدا من الدعوة الاسلامية ، ووجهها واحدا من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم . انه يمثل مرحلة الاعداد فحسب ، ثم تأتي في أعقابها مرحلة الكمال . مرحلة الجهاد العاد لتبليغ الدعوة ، وحصل الناس عليها والدفاع عنها ، فلو اكتفى الأنبياء والأولياء والمصلحون والزعماء ، بأنفسهم ولم يحملوا ما تلقوا وما تعلموا وما آمنوا به الى الناس ، ولم يجاهدوا في سبيله حتى تملأ كلسات الله ، وتسود تعاليه ورسالاته لفسدت الأرض وامتطأها شياطين الجن والإنس يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا .

ولقد فسدت عصر الحلاج فسادا كبيرا ، وتنابد الناس واختلفوا وتفرقت بهم السبل وانثروا في الشهوات والملذات والترف الهلوك .

وكانت قبة الفساد قصور الخلفاء والأمراء ، فقد غدت مسرحا لعبث الجوارى والاماء ومرتعا للسرثين والمغامرين والملحدين .

ومع هذا فما هي بغداد عاصمة الخلافة تسوج بالنجوم الكبار من أعلاه
التصوف وأئمة « الجنيد ، والتستري ، والمكي ، والشبلي ، والنوري » .
وها هو العراق في كل سهل وجبل وقرية فيه صوفية عباد أتقياء
أصفياء لهم مكاتتهم وأقذارهم .

ان « سهل بن عبد الله التستري » ليقول : انه دخل « البصرة » فوجد
بها أربعة آلاف من العارفين .. فكم اذن يكون منهم في بغداد ؟ وفي كل
مدينة من مدن العراق ؟

ومع هذا فبغداد والعراق قد أصبحتا عليين عالميين على التدهور الخلقى
والانحلال الديني ، والفساد الاجتماعي .

ماذا فعل الصوفية حيال كل هذا ، ولهم المكانة ولهم الجاه . ولهم الحب
والتقدير عند الخاصة ، والسلطان الشامخ على العامة .

لقد فكر الحلاج في كل هذا وأطال التفكير . فلم يرض عنه . ولم يطمس
اليه . وعبر عن سخطه بكلمات من لهيب وبرق .

ان الله سبحانه كما يقول « الحلاج » : لن يقبل من الناس عبادتهم . اد
اختلفت سياستهم وفسدت أخلاقهم . ثم استكانوا للبغي والفساد .

وان الله سبحانه كما يقول الحلاج : لن يقبل من أصحاب الأرواح
والأكسية دندناتهم . وكلساتهم ما لم ينهضوا للحق . ويجهروا به . ويندمروا
دماءهم في ساحة الاستشهاد والقتاء . وقد آن لرجل من رجال الله أن يرفع
صوته . ويؤذن بالدعوة . وان الحلاج ليهب نفسه ويرسدها للمغاية الكبرى

وان كان يسك نفسه حيناً . ويقلب وجوده الرأى أحقاد فلسف عن تردد
أو ضعف . انه يريد أن يستوثق من نفسه . وأن يظن إلى عذبه . هل كسر
رياضاته . وهل تضجبت مجاهداته . وهل خلص له قلبه ؟ ان فاما
فيما يريد . وان وجدانه ليصاويل تفكيره فيما يجب .

لقد تعشق بقلبه ووجدانه بروحه المنهج الصوري . ومرسدها من أمد
صباه أحب الله وعبادته والجهاد في مرضاته . حتى يصل إلى لقاء كامل . انتهى

فيه ارادته في ارادة الله ونوازع بشريته في كمالات عبادته ، وأهواء نفسه في لذة أنسه ، وجلال قربه وان هذا الجلال ، وهذا الحب ، وهذا الفناء ، ليكاد يصرفه عن نفسه ، وعن رسالته حيناً ، وحيناً يخيل اليه انهما ارتبطتا واتحدتا وأصبحتا شيئاً واحداً .

انها عاصفة من التفكير المزلزل المتعدد الألوان والصور ، خلص له منها أمر يقينى اطمن اليه انمثنانا لم يجد عنده سواه .

انه في حاجة الى خلوة كاملة ، يعيشها متحنثا متطهرا ذا كراقاتنا ، خلوة تؤهله ، وتدنيه من الكمال ، وتزوده وتعدده للجهاد العنيف الشاق الذى اعتزم القيام به فى وجه جميع القوى .

ومن ثم اعتزم الحلاج أن يرحل الى بيت المقدس ليخلو بنفسه فى أرض الوحي والالهام ليزداد قربا من ربه ، وكسالا فى نفسه ، وهما عدته ومعراجة الى هدفه ، وفارق الحلاج بغداد فجأة الى مكة المكرمة ، وبعد أن طاف بالبيت العتيق نذر البقاء عاما للعمرة فى حرم البيت المبارك للطهر والتنسك . والتصفية القلبية والاعداد الروحية ، عاش فى الحجر لا يستظل تحت سقف شتاء ولا صيفا ، فى صمت مطلق وتأمل متصل ، وعبادة ونجوى ، عن « أبى يعقوب النهر جورى » قال : دخل الحلاج مكة أول دخلة وجلس فى صحن المسجد سنة لم يبرح موضعه الا للطهارة والطواف ، ولم يحترز من الشمس ولا من المطر ، وكان يحمل اليه فى كل عشية كوز ماء وقرص من أقراص مكة ، وكان عند الصباح يرى القرص على رأس الكوز . وقد عض منه ثلاث عضات أو أربعا فيحصل من عنده .

عاش الحلاج حياته العجيبة القاسية الشاقة عاما كاملا .. ماهى خواطره ؟ وماهى تاملاته ؟ وماهى القوة التى تزود بها فى خلوته ؟

لقد لزم كذب التاريخ الصست حيال هذه الفترة من حياته الا أن المستشرق « ماسيثون » يحاول كعادته أن يلقي الظلال والشبهات وأن يفسر حياة « الحلاج » التفسير الذى يصل به الى الفكرة التى استقرت عنده ، وهى ان الحلاج كان يحاول أن ينهج نهجا مسيحيا فى تنسكه ودعوته وانه كان يتشبه « بمریم » البتول حيناً ، وبالسيد « المسيح » أحيانا .

يقول « ماسيثون » : ان الحلاج فى مكة كان يتشبه « بسريم بنت عمران » ، وان كان يهيبه نفسه استعدادا لميلاد كلمة الله فيه .

ان تأملات « الحلاج » وأحلامه ، وخواطره ورياضته بسكة ، تصورها لنا أولى كلماته التى نطق بها بعد عام كامل من صسته ، لقد خرج الحلاج من عزلة فتلقيه أتباعه يسألونه عن شأنه .

فترجم عن أمره بتلك الجملة القصيرة المعبرة المصورة ، قال الحلاج :
لو ألقى مما فى قلبى ذرة على الجبال لذابت .

غادر « الحلاج » مكة الى الأهواز داعيا الى الله مبشرا برسالته ، واتجه بدعوته الى طبقة المثقفين من الكتاب ورجال الأعمال والى الجنود والشراة وجماهير الصوفية . وقسم « الحلاج » منهجه الى خطوط رئيسية : ديانة صوفية جوهرها عبادة الله وحبه حبا أساسه الوجد والشوق ، حتى يصل الانسان ربه فى أعماق نفسه وبذلك يصل الى الكمال الروحى والخلقى .

ثم ناحية اصلاح الأدوات الحكومية الفارسية فى الادارة والسياسة والاعراف ، حتى يستقيم الميزان الموجه لحيات الناس ، ويرجع الوجود الى الله التى مزقتها الفلسفات والعصبيات حتى تستطيع ان تنطق برسالة الله اديها القوة اللازمة لحايتها .

وكان الحلاج فى دعوته يتجنب التسميات المسمومة التى كانت تسمى حتى لا يظن به الجنوح التى فرقة بذاتها ، وهى العقيدة الجبرية التى كانت دعاة الاصلاح .

وكانت صيحة « الحلاج » المدوية ان يعود الناس الى الله تعالى الى الاسلام كما جاء محجة بيضاء وكما ثبت فى عهد الرسول « ص » وعلا لله خالصا ، وأن يتخلى الناس عن هذه المذاهب التى حجب بها الجوهر . فالمذاهب كما يقول : ان هى الا وسائل يجب ان يتركها الاسلام .

يقول العلامة ابن كثير فى البداية والنهاية : « كان الحلاج فى عهد الخلفاء حلو المنطق ، فيه تعبد وتأله وسلوك .

وغضب المتزمتون من رجال التصوف لاندفاع الحلاج في التيار السياسي ، وقابل الحلاج غضبتهم بأعنف منها ، فنبذ خرقة التصوف كسا يتكلم بحرية مع أبناء الدنيا كما يقول .

وعظم أمر الحلاج في الأهواز وفتنت به الجماهير ونسبت اليه العجائب وتلونت هذه العجائب بخيال العامة حتى غدت ضربا خارقا لقدرة الانسان !! وكان الحلاج كما يقول الاسطخري : باهر الشخصية ، ساحر الكلمة ، رائع الست ، محببا الى القلوب ، أو كما يقول التعبير الحديث : فيه استهواء وروحي للجماهير .

ثم وسع الحلاج نطاق دعوته فارتحل الى خراسان وفي صحبته العشرات من الحواريين واستمر كما يقول «ماسيثون» : يدعو ويعظ الجاليات العربية في شرق ايران ، ويثبت دعوته في المدن وقيم على الحدود ، ويرابط مع المرابطين في الثغور وقضى في ذلك خمس سنوات ثم يعود الى الأهواز ، بعد أن ترك دويا يتردد صداه في آفاق خراسان ثم يدعو تلميذه العظيم الواسع النفوذ « حسد القنائي » الى الإقامة ببغداد ، فيرحل اليها مع أهله ، وطائفة كبيرة من مريديه وأتباعه .

ويدخل الحلاج بغداد بعد أن سبقته شهرته وعجائبه فيحدث فيها هزة يتردد صداها في البيئات الصوفية والعلمية ترددها قصور بغداد العالية . كواخها الساذجة . ثم يذهب الحلاج الى مكة للسرة الثانية مع أربعائة من تلاميذه ويعاود الاختلاء والرياضة حتى يتهمه بعض خصومه بأنه يقوم بأعمال السحر وتحضير الجن . لاغتصامه بقبة جبل « أبي قبيس » وانقطاعه عن الناس .

ومن مكة خرج الحلاج في رحلته الكبرى في سبيل الدعوة ، يخرج الى التركستان والهند حيث يعتنق الاسلام على يديه خلق عظيم .

واتخذ البحر طريقا ، وصعد في نهر السند من « ملتان » الى كشمير ، يسرى في طريقه صاعدا ناحية الشمال الشرقي حتى « طرقان » مع القوافل لاهوازية . لقد كان « الحلاج » كما يقول « ماسيثون » يفكر في هداية الانسانية كلها عبر الأمة الاسلامية .

وعظم أمر « الحلاج » في بلاد ما وراء النهر والهند والصين . فكانوا يكاتبونه من الهند بلقب « المغيث » ومن بلاد الترك « بالمقيت » ومن خراسان « بأبي عبد الله الزاهد » ومن خورستان بالشيخ حلاج الأسرار . وسماه أشياعه ببغداد « بالمصظم » وسواه في البصرة « المحير » .

وذهبت الدنيا تردد أحاديثه وقواه السحرية الخارقة . أو كراماته الباهرة .

ونشر الحلاج رسائله الكبرى عن السياسة وواجبات الوزراء مطالب بإقامة حكومة اسلامية حقا . وزارة تحكم بالعدل بين الناس . وخلافة كريمة يقول : شاعرة بسئوليات وظيفتها أمام الله مما يجعل الله يرضى عن فيء المسلمين بفروض دينهم .

ومن وراء النهر عاد الحلاج الى مكة مرة ثالثة يدفعه وجد مسوفي . وحين غلب الى الخلوة والى رياضاته العنيفة التسمية . في أرض السجود والالهام . ولينزود في عزلة الروحية بقوة ايمانية . قوة تؤدله لمواجهة الحرب في معركة بطولية حاسمة هناك في بغداد عاصمة الخلافة العباسية . والصراع الفكري والديني مشتعل الأوار في البيئات العسيرة . وحيث انبثقت الشهوات والفساد والمهلكات تحقيق بالمجتمع الإسلامي .

وهناك يقاسى الحلاج من المعركة الكبرى التي انتهت بتفديم روحه فروعها لها في سبيل الدفاع عن الرسالة الإسلامية والدعوة المحمدية .

هذا مثل من مسوفي مخلص . صادق الإيمان واليقين ومع نفسه في سبيل الله ونشر دعوته وتسكبه بالعقيدة .

ولقد عرف « الغزالي » التصوف بأنه « غسل مبيى على العالم من قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المدمومة . وصفاتها الخبيثة التي يتوصل بها الى تخلية القلب عن غير الله وتحليله بذكر الله . فالتصوف إذن تأمل دائم في النفس ورعاية كدامة القلبين بربوبيته . حتى يتوصل المعتقد عن طريق التأمل والعمل الى وحدة مع الله ودمج الله الله ويبعد عن سواه .

والتصوف بهذا المعنى ليس بدعا في الدين الاسلامي كما يتصوره
المعرضون بل لا يتصور أن يخلو منه مجتمع يدين بعقيدة الايمان بالله وبالدار
الآخرة . وقد كان التصوف في نشأته عربيا اسلاميا تركزت مبادئه حول آيات
القرآن . وفهم المسلمين لعقائد الدين ونصوصه ، فقد اتخذوا من هذه
العقائد محورا تدور حوله أفكارهم في عالم الغيب وفي اتخاذ هذه الحياة
طريقا للقربى من الله زاهدين في كل ما يبعدهم عنه متعمقين في فهم ألفاظ
القرآن وإشارته وبخاصة اذا كان موضوعها العالم الغيبي أو الفيض الالهي .

فمن ذلك أن الرسول سئل عن « الشرح » في قوله تعالى : « فمن
يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » فقال : هو نور يقذفه الله تعالى
في القلب . فتبيل : وما علامته ؟ فقال : التجاني عن دار الغرور والاناة الى
دار الخلود .

وقد كان الرسول يقوم الليل تقربا الى الله وجهادا للنفس . وهناك آيات
تحث على تلاوة القرآن وتفهم معانيه : « قم الليل الا قليلا نصفه أو انقص
منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا » ..

وكانت غاية المتصوفين الأول هي حمل النفس على الأشتى . والعزوف
عن متع الحس رجاء التعرض للفيض الالهي الذي حظى به الأنبياء المقربون
نتيجة لما أخذوا به أنفسهم من رياضة النفس .

وقد دعا القرآن الى الذكر والرضا والطأنينة وطهارة النفس
والإخلاص ..

وفي القرآن كذلك من الإشارات والصور ما يفتح أمام الفكر مجالا
فسبحا للتأمل في الأسرار وما يفيض به عالم الغيب من اشراق روحي ونور .
فمن ذلك قصة موسى عليه السلام مع ذلك العابد الذي علمه الله من
لذاته علما كان يشرح به أفعاله على غير المألوف اذ كان يأتي ما ظاهره معصية
الله وهو في الحق طاعة له وتنفيذ لإرادته . ومثل المعراج بالرسول الى السماء
وإن الرسول قرب من الله فكان (قاب قوسين أو أدنى) .. واليك أيضا
نصوص القرآن لما يدور من حوار في الدار الآخرة بين أهل الجنة وأهل

انوار ، يلتبس فيه الكفار النور من المؤمنين: «يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتسوا نورا . فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب .»

هكذا كان يدور تفكير المتصوفة الأول من المسلمين حول هذه الآيات ونظائرها ، وكانت مبادئهم في جملتها تنحصر في الورع والاعتكاف والعزوف عن مغريات المادة لكي يكونوا أقرب الى الله ولينعم الله عليهم بما أنعم به على أنبيائه . وكانوا لا يرون تنافيا بين النسك على هذا النحو وبين مبادئ الدين . اذ الاعتكاف وفرض نوع من الترهيب أيام الحج مما يفرضه المسلمون جميعا ، وما التمسك طيلة القرون الأولى للإسلام في أقصى حالاته إلا امتداد لهذين المبدأين ..

وكان من الصحابة من هو على تلك الحال من النسك والزهد « كآبي الدرداء هويسر بن زيد الخزرجي » و « أبي ذر الغفاري » . وقد تضاعف عدد هؤلاء النسك في التابعين وبخاصة بعد الفتن السياسية المختلفة التي ربت كانت عاملا من عوامل اليأس في قلوب كثير من المؤمنين في المجتمع الإسلامي . فرغوا عن الاشتراك في أمور الدنيا وما لبوا إلى الزهد ثابتا للسعادة في العالم الآخر . عالم الكسب والخير . فكان زهدهم نورا من النور بما يزخر به المجتمع من مآس . مثل « هشام بن الحارث » و « قيس القرظي » و « علقمة بن قيس النخعي » وكانت البصرة أغنى الأمصار بهؤلاء النسك والنسك في القرن الأول للهجرة . كما أسلفنا . منهم عمر بن عبد العزيز عبد القيس العبدي . وبكر بن عبد الله المزني . والحسين العبدي . وكان من البصرة من هؤلاء المتصوفة من هم ذوو لسانين : عربي وفارسي . وكانت البصرة العربية اجادتها الفارسية . وكوسى الأسواري الذي كان يترجم القرآن بالعربية والفارسية .. وهؤلاء الوعاظ والنسك كانوا يترجمون القرآن للمتصوفين فيما بعد . اذ كانت مبادئهم في العبادة والاحتكاك بالقرآن والقرآن والحديث . وتنحصر في جملتها في الزهد والورع . والتمسك بالقرآن والعكوف على عبادة الله وينقسم الصوفية السالكون الى الله تعالى الى قسمين :

١ - قسم سالك الى الله تعالى مهتد اليه بأنوار طاعته . يشير اليهم قول
الله تعالى : « ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم
ويغفر لكم » . والفرقان نور تشره التقوى يستعين به المرء فتنقشع
به ظلمة الجهل في معرفة الله وبه يفرق السالك السائر الى الله تعالى
بين الحق والباطل ويستبين له الصراط المستقيم .

وبقدر طاعة المرء وتقواه يكون نوره .. قال الرسول صلى الله عليه
وسلم : من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لا يعلم . وهذا القسم ولاشك
مفتقرون الى الأنوار ولا سبيل اليها الا بطاعة الحق والاقبال عليه .
لذلك كانت هدايتهم في سيرهم الى الله بنور طاعتهم له فهم مهتدون
اليه جل شأنه بأنوار توجههم اليه .

٢ - أما القسم الثاني . وهم الواصلون اليه سبحانه وتعالى . فهؤلاء قد
واجههم الحق تبارك اسمه وجل شأنه بأنواره بعد أن سلكوا السبيل
اليه فجذبهم أنوار مشاهدته الى عين التوحيد ففناوا عن أنفسهم
وكانوا لله لا لشيء دونه .

والفناء عن النفس يستتبع أموراً ثلاثة : فناء الإرادة ، وفناء الصفات ،
وفناء الذات .

أما فناء الإرادة فهو تلاشي إرادة العبد في إرادة سيده فلا يريد إلا ما
أراد ولا يتم ذلك للعبد حتى يعلم أن لكل شيء غاية ولكل غاية وسيلة
وإن الغاية من الإيجاد هو الوسيلة في بقائه الأكوان . فكل شيء في
الوجود إنما خلق من أجله . وهو وحده خلق لله . ومن الضلالة أن
يشغل المرء بما خلق من أجله عن خلق من أجله .

قال تعالى : « خلق لكم ما في الأرض جميعاً » . « وسخر لكم ما في
السموات وما في الأرض جميعاً منه » .

وإذا كان العبد مخلوقاً في الحقيقة لله فليس له في نفسه حق مطلقاً فلا
يتصرف في شيء ولا في نفسه الا وفق ما أراد مالكه . ومراد الله بين
في كتابه وشرعه ، وما من فعل من الأفعال أو غاية من الغايات الا ولا بد

أن يكون لله فيها حكم اما حلال واما حرام واما مندوب واما مكروه
واما مباح .

وحتى ذلك المباح في الحقيقة ما كان مباحا الا لأن حكم الله فيه الاباحة
وهذا المباح قد قيده القوم رضوان الله عليهم ، بالورع . فان استعمل بقصد
الاستعانة على ما خلق المرء من أجله وكان وسيلة في مراد الحق أخذ ولا شك
حكم الغاية فتقلب عادات المرء عبادة وتكون حر كاته وسكناته قربانا عند الله
اذ لا يفعل ذلك لهواه والا لم يعد عليه من حظ آجل أو عاجل . وانا قد
به على أنه مراد الله منه ايمانا و يقينا . يقول الله تبارك وتعالى : « وما كان
لمؤمن ولا لمؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . »
وقضاء الله شامل للأحكام التنزيلية والأمور الكونية معا . ورحم الله خيرا من
تحقق بهذا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أمير المؤمنين « عرس بن
الخطاب » رضى الله عنه اذ يقول : أصبحت وما لى سرور الا فى موافق
القدر .

ومن كان هذا شأنه لا يريد الا ما أراد له سيده وشاهد الحال
ينادى : « قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك
وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . »

ثم ان لفناء العبد فى ارادة سيده على هذا الوجه سريرة بينه وبين
صلى الله عليه وسلم على لسان الحضرة الانبياء حيث قال فينا يرويه
البخارى . وما تقرب الى عبدى بشيء أحب الى من ان يرضى الله عليه
زال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه . ومتى أحبه كنت سمعه يمشى
يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى
الى آخره .

فسررة الطاعة اذن هى محبة المعبود لعباده . قال ابن
كنتم تحبون الله فاتبعونى يحبكم الله . « . واللفظ المحبة ان
كان بسعنى واذا اطلق على الحق كان ولا شك بسعنى . فلو كان
تعشق النفس لاستكمال ما فقدته من كمال وهذا لا يجوز ان يصف به العبد
اذ أنه الواهب للكمال ولا يجوز عليه النقص سبحانه .

وأما محبة الحق لعبده فيرجع معناها الى مسارعة الحق تبارك وتعالى الى كشف الحجاب الحائل بينه وبين عبده لينعم المحب بشاهدته وقربه . ولكن هل يشهده المحب أو يراه بنفسه ؟ وأنى للحادث أن يرى القديم؟ هذا محال . -- اذن -- فلا بد أن يراه به حال تحققه بسقام .. كنت سمعه وبصره ؛ نعم يشهد الحق بالحق في حال فناءه عن نفسه بربه اذ لا يشهد الله الا الله . وقد عبر عن ذلك أحد العارفين بقوله :

إذا رأيت حبيبي بأى عين أراه
بعينه لا بعيني فلا يراه سواه

وقال آخر :

يا شاهد الذات منك الذات بادية
منها لها فلأنت الجزء والكل

ومتى تم ذلك لتعبد تبين له ان ما كان مضافا اليه من قبل من سمع وبصر وقوة وادراك في حال حجابها انما هو الله من حيث تنزله وظهوره ، وللعبد انصافه واسناد . وكان الظهور فيه بحكم القابل منه ويخرج من حكم التبدل البشرى الى حظيرة الاطلاق الصفائى لله فيدرك الأشياء على ما هى عليه فى نفس الأمر الواقع ولا أقول انه يعلم كل ما يعلمه الحق أو يدرك كل ما امتد اليه بصره اذ أن ذلك محال ومتوقف على مدى استعداده وصحة فناءه لى الله .

وقد تحقق بذلك بعض الصفوة من الأمة المحمدية وظهر أثره فيما كان من أمر « عمر » رضى الله عنه وسارية اذ يناديه عمر من على منبره بالمدينة ويسعه سارية وهو بصر . فان لم يكن ذلك عن رؤية من عمر لم تحجبه فيها الكشافات الحسية والبعد الشاسع بين المكانين فكيف تكون اذن ؟

وما كان من أمر عشان رضى الله عنه اذ دخل عليه رجل وكان قد نظر الى امرأة فى الطريق غير محرم فشاهد أثر المخالفة الشرعية على عينيه فقال عشان : أيدخل على أحدكم وأثر الزنا فى عينيه ؟ فيقول الرجل : أوحى بعد رسول

الله ؟ فيقول : لا ولكنها بصيرة وبرهان وفراسة صادقة . فهو ينظر بنور الله فيه ولم يكن ناظرا اليه بنفسه -- واذن -- ففي الأمر قوة أخرى غير قوة البشر المحدودة التي لا ترى الا الى حد ولا تبصر الا ما كشفت الكشافات .

وبعد .. ففناء صفات العبد ثمرة الحب الالهي . وللإمام أبي بكر الكتاني في ذلك قول يرويه لنا عن الامام الجنيد رضي الله عنه فيقول : جرت مسألة بمكة أيام الموسم في المحبة فتكلم الشيوخ فيها وكان الجنيد أصغرهم سن فقالوا له : هات ما عندك يا عراقى فأطرق ساعة ودمعت عيناه ثم قال : عبد زاهد عن نفسه ومتصل بذكر ربه . قائم بأداء حقوقه ناظر اليه بقلبه أحرز قلبه أنوار هيئته وصفا شربه من كأس وده وانكشف له الجبار من أستار غيبه فان تكلم فبالله وان نطق فغن الله وان عمل فبامر الله وان سكن فمع الله فهو لله ومع الله .. فبكى الشيوخ وقالوا : ما على هذا يزيد سبيلك الى ما أتى العارفين .

ففناء الصفات انما هو الخروج بالله من حكم البشرى الى حقائق الاطلاق الصفاي ومن ثم يكون الله ذات وهو النور المستنير من النور والواصل . السالك للأنوار والواصل للصفات الكونية والواصل للصفات الربانية والواصل له النور لتقدان الطلب بحكم الله ويحضر في حياضه التمكن في لقاء الوصل يقتضي ارجاعك منك اليه ذات فلا تشعر به بعد ذلك وانما تشعر بتيومية الحق لذات ذات العدم من حيث أنت وهو الوجود والمنتوم لك : « الله لا اله الا هو الحي القيوم » . قال « شمس الدين السمرقندي » لتليذه « حاتم الأحمس » : لقد دامت صحبتك ثلاثين سنة لم يزل في صحبتك الصحبة في نفسك وما استفتدت منها لا قال حاتم : انك تعلم انك لا تعلم شأن مسائل .. فقال شقي : انك تعلم انك لا تعلم انك تعلم انك لا تعلم ولم تتعلم الا شأن مسائل لا قال حاتم : يا مستأثر انك مسائل انك تعلم غيرها ولا أحب ان أكذب فقال له : هات الشأن مسائل حاتم : قال حاتم :

١ - نظرت الى هذا الناق : فرأيت كل واحد منهم يريد ان يمشي على وجهه محبوب الى الغير في اواصل اليه فارقه فجعلت الحسنات الحسنات يمشي

فاذا دخلته دخل محبوبى معى . فقال : صدقت يا حاتم فما الثانية ؟
قال :

٢ - نظرت فى قول الله تعالى عز وجل : « وأما من خاف مقام ربه ونهى
النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى » فعلمت أن قول الله تعالى
هو الحق . فأجهدت نفسى حتى استقرت على طاعة الله تعالى . قال :
صدقت . وما الثالثة ؟
قال :

٣ - فانى نظرت الى هذا الخلق . فرأيت كل من معه له قيمة عنده
وسقدار رفعه وحفظه . ثم نظرت الى قوله تعالى : « ما عندكم ينفد
وما عند الله باق » . فكلما وقع لى شىء له مقدار وقيمة وجهته اليه
ليبقى لى عنده قال : صدقت وما الرابعة ؟
قال :

٤ - نظرت الى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يرجع الى المال والحسب
والشرف والنسب فاذا هى لا شىء . ثم نظرت الى قوله تعالى : « ان
أكرمكم عند الله أتقاكم » فعلت فى التقوى حتى أكون عند الله عز
وجل كريما . قال : صدقت .. وما الخامسة ؟
قال :

٥ - نظرت الى هذا الخلق ، وهو يطعن بعضهم فى بعض ، ويلعن بعضهم
بعضا . وأصل هذا كله الجدل . وشدة الخصومة . ثم نظرت الى
قوله تعالى : « نحن قسنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا » فتركت
الجدل ، واجتبت الخلق وعلمت أن القسم عند الله سبحانه وتعالى
وتركت عداوة الخلق . قال : صدقت . وما السادسة ؟
قال :

٦ - نظرت الى هذا الخلق يعنى بعضهم على بعض ، ويقاثل بعضهم بعضا .
فرجعت الى قوله تعالى : « ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا » .
فعاديته وحده ، واجتهدت فى أخذ حذرى منه ، لأن الله سبحانه وتعالى

شهد عليه انه عدو . وتركت عداوة الخلق عنى . قال : صدقت .. وما
السابعة ؟
قال :

٧ - نظرت الى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يطلب هذه الكثرة بذل
نفس ، ويدخل فيما لا يحل له ، ثم نظرت الى قول الله تعالى : « وما
من دابة فى الأرض الا على الله رزقها » فاشتغلت بما لله على وتركت
مالى عند الناس . قال : صدقت .. وما الأخيرة ؟
قال :

٨ - نظرت الى هذا الخلق فرأيتهم متوكلين . هذا على بضاعته . وهذا
على تجارته . وهذا على صنيعته . وهذا على مسحته . وهذا مخلوق
متوكل على مخلوق فرجعت الى قول الله عز وجل : « ومن يتوكل
على الله فهو حسبه » .

فتوكلت عليه فهو حسبى ونعم الوكيل . فقلت لسفهاء الدنيا :
وفقتك الله تعالى . فانى نظرت فى التوراة والانجيل والزيور والقرآن
فوجدت جميع أنواع الخير تدور على هذه الشان مسائل فمن استعمل
فقد استعمل الكتب الأربعة .

هذا . ودعت الجامعة الأمريكية بالقاهرة مسديتى وزملى فى رحلتى
بيت الله الحرام عام ١٣٦٥ هـ الدكتور « غلوتس (١) » رئيس جمعية مسج
المسكرات . ليلقى محاضرة اسلامية بالانجليزية . بناء على ادرسات السرف
على صفوة من رجال الجاليات الأجنبية لتوثيق المسائل المتفانية فى
الشرقى والغربى . قلبى سيادته الدعوة وآلقى خلاصة دركزه مؤلفه ورسالة
عن التصوف الإسلامى . نشأته ورسالته . قال :

لقد قرأت عدة مصنفات لفضلاء المستشرقين من الغربين الذين
كثير من مواطنها بعيدة عن محجة الصواب . فمن ذلك ما كتبه
الصوفية والتصوف دخيلان على الإسلام ، فريمانى به . « انه لا جدوى

(١) حصل الدكتور على الدكتوراه بمصر ، الشرف من جامعه لندن .
رسالته « التصوف الإسلامى »

الأعاجم من الفرس ، قصدا منهم الى تشويه الدين ، ويزعمون أيضا أن أصل التصوف يرجع الى العلوم الآرية من الفارسية والبوذية ونحوهما ، ويقولون غير ذلك من المزاعم التي لا أصل لها .

فالتصوف ، وان كان لبعض الفرس المسلمين شأن كبير في تدوينه وحمل لوائه فهو لا يست الى المبادئ والمذاهب الآرية أو البوذية بأدنى سبب وشتان ما بين الناسك البوذي الذي يزعم انه سلوك طرق خاصة من الرياضة وتهذيب النفس ينمحي عنه في النهاية وصف الآدمية ويصبح بوذا بنفسه أي لها قد انحلت عنه صفات البشرية وبين المسلم المتصوف الذي يعبد الله وحده طبقا لأحكام الإسلام ومبادئ الدين الحنيف ثم هو يقوم فوق الفروض المقررة بأنواع من الرياضات الروحية المشروعة المسنونة أساسها الزهد والورع والتقوى . وغايتها أن يصير بها أهلا للفوز برضوان ربه ، والدخول في حضرة ، وتذوق طعم الايسان بالوجدان .

وكثيرا ما خلط المستشرقون بين المتصوفين والمشعوذين ممن يأتون بما يشبه السحر وضروب الأحاجي . ويعرفون عندهم باسم أصحاب الأسرار الخفية ، وترجع أسباب هذا الخطأ الى أن المتصوفين ، كانوا ولا يزالون يعرفون بأهل الباطن وأرباب الأسرار الذوقية . فظن أولئك المستشرقون أن أسرار الصوفى هي أمور خفية يحرض على حجبها عن أعين الناس ، كما هو الشأن عند أهل الشعوذة ، مع أن حقيقة معنى الأسرار عند الصوفيين ، إنما هي الحقائق التي تنطوي عليها ظاهرات الأشياء والحكمة التي يتذوقونها من القيام بالأحكام والشرائع . فهذه الأذواق والمواجيد لا يستطيع الصوفى أن يعبر عنها لأحد لا لأنه يريد اخفاءها عن الناس ، بل لأنها فوق متناول الوصف والبيان اذ هي أمور ذوقية لا تعرف الا بالتذوق والوجدان ومثلها كمثل حلاوة سكر القصب ونحوها ما لا سبيل الى ادراكه بغير التذوق .

ولئن كان من السهل على الفقيه والمحدث وكل عالم أن يشرح لغيره الفقه والحديث والعلم الذي أصابه ، فانه من العسير على الصوفى أن يبين لعامة الناس أسرار الأنوار القدسية ، والفيوضات الربانية التي تفيض على قلبه ثرة عبوديته واقباله على ربه ورياضاته الروحية .

على أنه مما يؤسف له جد الأسف ، وجود طوائف من الناس فى الشرق
 ينسبون أنفسهم الى الطرق الصوفية ، وما هم منها فى شىء ، وهؤلاء قد
 يأتون بضروب من الهمهمة والتمتة والايحاء الذاتى ، ويركنون الى التنجيم
 والطوابع والجفر وادعاء معرفة الغيب ، فكانوا بذلك نكبة على المتصوفة
 وسببا دعا بعض المستشرقين الى الحملة على طريق التصوف . كما دعا آخرون
 الى القول بأن التصوف ليس فى شىء من الدين بيد أن من يدرك سنة النمو
 لا بد أن يعرف أنه كثيرا ما يوجد الى جانب النباتات النافعة والأعشاب
 الصالحة حشائش أخرى تنمو حولها ولا مندوحة من استئصالها حتى لا تعدو
 على النبات الطيب فتفسد عليه أمره .

ولئن كان كل متصوف لا بد أن يستند قواعد سلوكه الروحى من
 مبادئ الاسلام وتعاليمه الصحيحة ، فهناك فرق كبير بين المسلم الصوفى
 والمسلم العادى ذلك بأن ايمان الأول تحقيقى ذوقى ، فى حين أن ايمان الثانى
 يغلب أن يكون تقليديا وراثيا ، انحدر اليه من الآباء أو جاءه من طريق
 التلقين أو التعليم أو أصابه بحكم الوسط والبيئة التى يعيش فيها دون أن
 يعرف السر فى ضرورة اعتناقه لهذه أو تلك من المعتقدات الدينية التى لا بد
 منها لنجاته فى الآخرة . وقد يظل القلب تخامرهُ الشكوك والتريب فى كثير
 من المعتقدات ، ويظل العقل يضالب صاحبه بوضع حد لها والتخلص منها .

ولهذا كان لا غنى لسالك طريق التصوف عن شيخ خبير بغمور
 الطريق المؤدى الى تذوق حلاوة الايمان والاضئتان الى مسحة السير على
 أن يكون هذا المرشد أو الخبير هو الآخر قد سلك طريق التصوف على
 شيخ آخر سبق له سلوكها وأصبح قادرا على هداية غيره اليها . كراكب
 البحر يريد الوصول الى بلد بعيد فلا مندوحة له من الاسترشاد بربان ماهر
 يقدر على أن يقود السفينة وركبها الى ذلك البلد فى أمن وسلامة .
 نسات مائة مشايخ الطرق والسالكين فيها لا يرشد المرشد الى طريق الحق
 لا يضلوا السبيل . وكما أن أطباء الأجسام لا بد من الاستعانة بخبرتهم على
 شفاء العلل والأسقام ، فكذلك لا بد لمرضى القلوب من الاسترشاد بالمشايخ
 للتخلص من أمراض القلوب .

ولا بد لمريد الوصول الى الله تعالى عن طريق التصوف من مجاهدة نفسه وتصفية باطنه من أدران الشهوات الحيوانية والملاذ الجسمانية فضلا عن البعد عن الوقوع في الذنوب والخطايا مما نهى عنه الشارع الحكيم ، وذلك لا يتم له الا بارشاد شيخ عارف بأمراض القلوب وكيفية تطهيرها من بوائق الملاذ والشهوات ، وبذلك يتم للمريد اكتساب المعارف الربانية التي يهتدى بها قلبه ويطنن خاطره ويسكن باله ، اذ يشعر شعورا باطنيا انه قريب من حضرة مولاه سبحانه وتعالى .

ولا يمكن البتة الحصول على شيء من الحكمة الالهية والأسرار القدسية الا بتصفية القلب من الحظوظ الدنيوية حتى تنجلي بهذه التصفية مرآته وتصير بحيث تنعكس عليها الأنوار الروحية والفتوحات الربانية .

وعند المتصوفين أن الانسان لم يخلق في هذه الدنيا عبثا ولا صدفة . وانما خلق لغاية سامية ، وان جسده وان كان خسيسا أرضيا ، فان روحه شريفة علوية . وان جسده وان كان سيفنى بسوته ، فان هذه الروح ستبقى بعد الموت خالدة الى الأبد . فاذا ما تظهر المرء في بوتقة الزهد والتقوى من أدران الشهوة والحظوظ العاجلة الفانية ، وسلك سبيل الرياضة الروحية الشرعية ، فانه ليبلغ بذلك أسنى مراتب الرقى الباطني ويصبح وقد تحولت صفاته الى ما يشبه صفات الملائكة . فلا يرى سعادة ولا هناءة ولا غبطة الا في عبادة الله والتسبيح بحمده . فاذا أعطاه شكر ، واذا ابتلاه صبر ويصبر ولا هم له في الدنيا الا طاعة مولاه . حتى تصبح هذه الطاعة سجية له وغريزة فيه . ولا ينفك عنها بشئ حال من الأحوال . فلا يلبث المريد أن يرى في كل ما أمر الدين به حكمة خفية سامية . ويرى مثل ذلك في كل ما نهى عنه الدين وعند ذلك يدرك السالك معنى قوله تعالى في القرآن الحكيم « واتقوا الله ويعلمكم الله » . وقد تطور التصوف في الاسلام على مدى الأجيال حتى صار علما قائما بذاته يسترشد به الخلق الى سبيل الحق ، وتتحول به صفاتهم البشرية الى صفات شريفة ملائكية ، ويتذوقون به طعم الايمان بالقلب والوجدان .

وقد بدىء بتدوين هذا العلم وتهذيب حواشيه ، ونظمت مبادئه ورتبت آدابه فى النصف الثانى من القرن الثانى للهجرة النبوية وأبحاثه واسعة النطاق فيمكن حصرها فى ستة موضوعات أو مباحث عامة وهى معرفة الانسان نفسه ، ومعرفة الله تعالى ، ومعرفة حقيقة الدنيا ، ومعرفة أحوال الآخرة ، ومراقبة النفس ، وإيثار حب الله على كل ما سواه .

ويقول العلامة الصوفى الكبير « أبو نصر السراج » فى « اللمع » : وأقرب ما يقول أهل الصفة ، التصوف فى الرسول عليه الصلاة والسلام أنه عبد واحد ، لا يجوز لأحد أن يدركه فى جميع ما خص به .

وسئل « أبو يزيد البسطامى » : هل يزيد أحد على النبى عليه الصلاة والسلام ؟

فقال : وهل يدركه أحد .

وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم : اللهم اجعل من فوقى نورا . ومن تحتى نورا ، وعن يمينى نورا ، وعن شالى نورا ، ومن ورائى نورا . ومن قدامى نورا ، ومن خلفى نورا . اللهم اجعل فى قلبى نورا ، وفى بصرى نورا . وفى سعى نورا . وفى عظى نورا .

قالوا : الدليل على أن الله أعطاه ذلك قوله صلى الله عليه وسلم والله انى لأراكم خلف ظهرى كما أراكم قدامى .

ومن المستشرقين الذين درسوا التصوف الإسلامى ، واستهووا ما فيه من عشق ومعرفة ، ومن هدى ونور ، فأقبل عليه بذوقه وقلبه وعقله ينسد عنده الطريق واليقين هو الدكتور « مارتن لنجز » أستاذ اللغة الانجليزية بالجامعة المصرية سابقا والمشرف حاليا على أكبر مكتبة فى العالم مكتبة المتحف البريطانى بلندن .

وعلى المعراج الصوفى « مثل « الدكتور لنجز » الى الله تعالى سبحانه وهداه الى الاسلام . ومن ثم أصبح الدكتور « لنجز » البريطانى الدكتور « أبو بكر سراج الدين » . العالم الصوفى الذى ينشر بالره حافنة الاسلامية فى آفاق الغرب . وربوع الشرق داعيا البشرية كافة الى هذا

الرحيق المختوم ، والنبع السلسيل ، والنور الالهي المبين ، الذي يملك وحده انقاذ البشرية من الجاهلية المادية التي ألحقت وتمردت وأخذت تبتعد عن الله وعن هدايه .

وتتابعت جولات الدكتور المسلم الصوفي الداعية في أرجاء العالم ثم جاء سيادته الى القاهرة عاصمة الفكر الاسلامي ليحصل لمكتبة المتحف البريطاني على المؤننات الصوفية الحديثة وليلتقى بأئمة الروحانية الصوفية عام ١٩٦١ ميلادية .

ويقول الدكتور عن كيفية اهتدائه الى الاسلام : لقد جذبني التصوف الى الاسلام ، جذبني بسا فيه من مثل انسانية ، وآداب ذوقية ، وفهم صحيح واضح للانسان والله ، والعلاقة بينهما ، وهي علاقة لم تحدد ولم ترسم في أي ثقافة أو عقيدة ، كما حددت ورسمت في التصوف الاسلامي .

لقد استهوانني في الحاح عنيف حبيب ما في التصوف من معراج ذوقى يربط الانسان بالله ويوصله به في نفحات تعبدية حية ، وفي أشواق قلبية متقدة ، يحيط بكل هذا أفق من الرضا والأنس والحب والفيض الحي الذي يغمر كل شيء .

كما استهوانني ذلك المجتمع الطاهر الفاضل بعلاقاته الانسانية الروحية المجتمع الذي يصوغه المنهج الصوفي ويقيسه على أخوة عالمية ربانية ، تطبع كل شيء في الكون بطابعها ولونها .

والحق أنني لم أجد في المسيحية ولا في غيرها ما يقارن بالتصوف الاسلامي ، وأرى أن هدف الرهبنة ، وهدف الطريق الصوفي مختلف جدا سلوكا ومعرفة ، وتذوقا وذوقا ، ثم هناك الصلة التي تربط الشيخ بسريده . وهذا المدد الروحي الحقيقي الذي يحسه كل سالك للطريق اذا وفق الى شيخ فيه تلك النفحة العجيبة التي توهب حيناً وتورث أحياناً .

ولقد ذقت هنا هذا المعنى وعشت فيه ، فقد اتصلت وأنا بالمغرب بالشيخ « الدرقاوي الشاذلي » وفي تونس اتصلت بشيوخ الشاذلية، وزرت مغارة الامام الشاذلي التي كانت مقرا لاعتكافاته ومجاهداته .

كما اتصلت في الشمال الافريقي بالطريقة العلوية الشاذلية وهي فرع من الدرقاوية . فالشيخ «محمد انفاسي» أخذ من الشيخ حمزة طاهر المدني الذي أخذ من مولانا الشيخ الدرقاوي .

ولقد أوضحت هذه المعاني في كتاب لي تحت الطبع تقدمت به لجامعة أكسفورد لنيل دكتوراه جديدة في العلوم الإسلامية ، وقد تناولت في هذا الكتاب الحياة الروحية للشيخ أحمد العلوي المستقاني الجزائري ، وفي الفصول الأخيرة من الكتاب نشرت رسائل الشيخ وديوانه وهما من عيون التراث الصوفي .

وقال الدكتور : ان عصر الصحابة لا مقارنة بينه وبين أي عصر من بعده ، وروح هذا العصر وامتداده لا يوجد الا في التصوف . ومن هذا كان لنا أن نقول : ان التصوف هو مثالية الاسلام ، وان الصوفية عبر التطبيق العملي لهذه المثالية .

ولقد أخطأ رجال الاستشراق خطأ كبيرا في دعواهم ان التصوف الاسلامي استمد أصوله من الثقافات غير الاسلامية .

فأساس التصوف نجده في القرآن الكريم . وفي الأحاديث النبوية . وفي منهج الرسول ، وفي حياة الصحابة .

والقرآن بما يدعو الى ذكر الله والى الاستغفار والتوبة والانابة والاستقامة والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . والالتداء به . نرى ان الصوفية هم الذين قاموا بهذا واجتهدوا فيه وتخصصوا أكثر من أي طائفة أخرى .

والاعتكاف مثلا لم أسع به الا عند الصوفية . وكذلك مجالس الذكر والمداومة على العبادة والاستغفار ، وتطهير الجوارح ، وتنقية القلب ، ورياضة الروح .

والحجاز اليوم لا يوجد فيه اعتكاف ، لأنه لا يوجد فيه اعتراف بالتصوف ، ولا يوجد به أيضا أولياء ، لأن الولاية لا تثبت الا في البيئة الصوفية .

وقال : المستشرقون يتظاهرون بحب التصوف الإسلامى ، ويسرون فى الحديث عنه ، ولكنهم لا يفهمون هذه العقيدة ، و لا تذوقون هذا المنهج ولو فهموا أو تذوقوا لأسلموا وتصوفوا .

وماشيثون الذى تخصص كما يقول فى دراسة « الحلاج » يتجاهل كلمات « الحلاج » التوحيدية ، ليثبت انه لم يكن موحدًا على مذهب وحدة الوجود .

ان لهم أغراضا وأهدافا فيما يكتبون عن التصوف ، ولقد سمعت من « ماشيثون » أنه رجع الى دينه عن طريق التصوف .

والتصوف شىء كلى ، وماشيثون كسيحى لا يسكن أن يفهم التصوف فهما حقيقيا ، ولهذا تجد أكثر المستشرقين يسلون الى شىء من انكار التصوف وهم لا يشعرون ، وهذا « نيكلسون » يقول انه يحب التصوف وهو ينشر رسائل ابن تيمية ويعجب بها ؟.

والأستاذ « اربرى » بكسبردج يحترم التصوف ككل ، ويلمزه فى كثير من رسائله ومعارفه ولقد نشرت بالمجلة الاسلامية بلندن مقالا تحدثت فيه عن أصول التصوف ورددت فيه على دعاوى المستشرقين ، وكتبت فيه فصلا عن مذهب وحدة الوجود ، أردت أن أثبت فيه أن الشيخ الأكبر « محيى الدين » قدس الله سره ، لم يكن هو المؤسس لهذه العقيدة كما يزعم رجال الاستشراق ، فهذه العقيدة توجد فى الاسلام منذ يومه الأول ولكن بعبارات أخرى .

وتوجد أيضا فى القرآن الكريم : « أينما تولوا فثم وجه الله » .. « كل شىء هالك الا وجهه » .. « كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاکرام » .

والامام الغزالى حجة الاسلام يثبت هذا المذهب فى رسالته « مشكاة الأنوار » قبل فصوص الحكم « محيى الدين » بسائة عام .
وهذه العقيدة يعبر عنها بصعوبة ، انها ذوقية لا عقلية ، يقول الشيخ الأكبر :

كنت جالسا في حال الذكر فاذا بهاتف يقول لي : قل هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، فقال : ثم كرر الهاتف قوله ثلاث مرات ، فقال محيي الدين : أفهم الأول وأفهم الآخر ، وأفهم الباطن ولا أفهم الظاهر ، لأنني لا أرى الا الأشياء المخلوقة ، فقال الهاتف : لو كان ظاهرا غيره لكنت قلت لك ، فلا ظاهر سواه .

وفي دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام : أنت الظاهر ولا فوقك شيء .. ومعنى فوق لا بد أن يكون ليس عليك غطاء ، أي لا ظاهر سواه . وفي الحديث الشريف كان الله ولم يكن معه شيء ، وهو الآن على ما هو عليه . فهل يوجد من ينكر هذا ؟

انه الآن على ما كان عليه ، أي لا سواه ، حتى العالم الظاهر لا يتجاسر أن ينكر ؟

وهل يمكن أن نزيد شيئا ؛ وهل يمكن أن نضيف جديدا الى الله سبحانه ثم الاسم سبحانه وتعالى « الحق » يدل على أنه لا حق الا الحق . وكما نقول : لا اله الا الله . نقول لا حق الا الحق . فاذن لا يوجد في الحقيقة أي شيء غير الله .

وأنا لا أميز بين كلمة التصوف القدامى . لأنني أقول : لا تفرق بين أحد منهم ، لأن من يفرق بين : « الجنيد والغزالي والحلاج ورابعة العدوية والشاذلي وابن الفارض » انما يفرق بين أجزاء الحقيقة الواحدة .

وأذكر أنني حينما كنت في تونس . كنت ناقش السيد حسني عبد الوهاب الوزير التونسي السابق . وهو شاذلي . وكان يقارن بين محيي الدين والسيد أبو الحسن الشاذلي ويفضل الثاني على الأول مع اجلاله العظيم لمحيي الدين . كنت ناقشه في هذه التفرقة وأدبره عليه . وأنا لا أحب هذا من أي صوفي ولا أرفس في الدراسات الصوفية الحديثة .

وتكلم الدكتور عن التصوف بفواه : والتصوف هو العيش على عرفه الرسول عليه الصلاة والسلام : أن تعبد الله كأنك تراه . وتلك « تعبد » تدل على مداومة العبادة ، أي أن تكون عبدا دائما لله في مقام

الاحسان ، وفي عصر النبي عليه الصلاة والسلام كانت قلوب الصحابة منيرة بنور النبي عليه الصلاة والسلام فاستغنوا عن الطريق .

وفي أعقابهم جاء التابعون يتلألاً بينهم بقية من هذا النور ، ثم ابتداء شيء يشبه الطرق ، زاوله « الحسن البصرى » ، كان حوله تلاميذ يرشدهم ويوجههم ، ثم اقتضت الضرورة أن يوجد هذا التنظيم الدقيق ليتولى الارشاد العام .

والطرق كالمذاهب الفقهية ، ولكن على مستوى أعلى ، فاسلام الطرق على مستوى الاحسان ولا بد من الاثنى معا ، وكان سيدنا « أحمد العلوى » يقول : المشايخ الصوفية هم مجتهدو الاحسان ، والأئمة الأربعة هم مجتهدو الاسلام . والأشعرى مجتهد الايمان .

ويحضرنى بهذه المناسبة أن جريدة فى الجزائر كانت تتعرض دائماً للطرق الصوفية ، وكان العلماء يردون عليها ، وأذكر بيتاً جميلاً من قصيدة رائعة فى الرد على هذه الجريدة وهو :

يا ناطح الجبل العالى لتوهنه

أشفق على الرأس لا تشفق على الجبل

ولاشك أن العالم الاسلامى فى عصرنا أحوج ما يكون الى هذه الطرق ، وأحب أن أقول : ان رجال الفكر كافة يقدرون التصوف الاسلامى ويحترمون الاسلام احترامهم للتصوف .

وقد طفت بكثير من بلاد آسيا ولمست أثر التصوف والطرق فى حياة المسلمين ونشاطهم .

ان الطرق قوة كبرى بعيدة الأثر فى حياة المسلمين ومستقبلهم ، وحينما كنت فى نيجيريا كنت أرى أبناء الطرق الصوفية هم الذين يعبرون المساجد والأندية ، وفى كافة العواصم الافريقية كنت أرى هذه الظاهرة .

وفى السودان والمغرب اتصلت بالطرق الكبرى ، كما اتصلت بالقادرية والتيجانية عن طريق الشيخ الفاتح قريب الله ، ورأيت الآمال الكبار ، التى تملأ الصدور والقلوب وللطرق الصوفية أثرها الضخم فى « مقاومة

الاستعمار « والتبشير ثم أثرها في نشر الاسلام خصوصا في الهند وجاوه والشرق الأقصى وافريقيا .

وقال الدكتور أبو بكر : ان التصوف عندي هو وحده القادر على انشاء جيل عربي اسلامي مزود بالغزوات القوية وبالاخلاق الفاضلة ، جيل متمسك بالعروة الوثقى ، وبالمثاليات العليا ، جيل متطهر من مادية الغرب والحاده وانحلاله ، ويؤسفي أن أقول ان كثيرا من الشباب في الشرق لا يزال رغم تحرر أرضه مستعسرا للغرب في تفكيره وعواطفه وأخلاقه ، ويستطيع التصوف اذا تزود به الشبان أن يملأ هذا الفراغ النفسي ، وأن يطرد من قلب الشباب تراث الغرب والحاده وانحلاله . بل يستطيع التصوف فوق هذا أن يسد يده المنجدة للانسانية كافة لينتشلها من هذه النكسة التي تدمر روحه وتهبط بمثله ، وتبعده عن الله ورسالاته .

ان التصوف الاسلامي يمثل الحقيقة الربانية العليا التي ترفع الحجب انه الحل الوحيد لكافة المشاكل الفلسفية والمذهبية التي تحيل الانسان الى آلة تدمر نفسها وتدمر من يحيط بها .

انتي أوربي وقد وجدت خلاص روحي ونجاتها في التصوف . ويستطيع كل عربي أن يجد ما وجدت اذا وجد الدعاة واليداع . وتلك هي رسالة الصوفية في هذا العصر .

أما العلامة الفرنسي « رينيه جينون » فيقول في التصوف الاسلامي والطرق الصوفية :

ربما كانت العقيدة الاسلامية من بين العقائد الموروثة هي العقيدة التي يظهر فيها بوضوح التفرقة بين جزئين متكاملين هما « الظاهر والباطن » أعني « الشريعة » وهي الباب الذي يدخل فيه الجميع ، والحقيقة التي يصل اليها الا المصطفون الأخيار . وهذه التفرقة ليست حادثة بل هي طبيعة الأشياء . وذلك أن استعداد الناس يتفاوت في إدراكها ، بفطرته لمعرفة الحقيقة . وكثيرا ما تجدهم يشبهون الشمعة التي تضيء واللب أو بالدائرة ومركزها . والشريعة تتكلم في الناحية الاعتقادية . الناحية التشريعية والناحية الاجتماعية ، وهما جزءان لا يتجزأان

عن الدين الاسلامي ، انها أولا وقبل كل شيء قاعدة السلوك . أما الحقيقة فانها معرفة محضة . ولكن يجب أن نعلم أن هذه المعرفة هي التي تعطى للشريعة معناها السامي العميق بل هي التي تبرر وجود الشريعة . انها حقيقة وان لم يشعر بذلك المؤمنون . المركز الأساسي ، مثلها في ذلك مثل مركز الدائرة بالنسبة لمحيطها .

بيد أن « الباطن » لا يعني فقط الحقيقة وانما يعني كذلك السبل موصلة اليها . تعني الطرق التي تعود بالانسان من الشريعة الى الحقيقة . واذا رجعنا الى الصورة الرمزية . الدائرة ومركزها ، قلنا : ان الطريقة هي الخط المذهب من محيط الدائرة الى المركز . وكل نقطة على محيط الدائرة هي مبدأ الخط . وهذه الخطوط التي لا تحصى تنتهي كلها الى مركز . انها الطرق وهي طرق تختلف تبعا لاختلاف الطبائع البشرية ، ولهذا قال : الطرق الى الله كنفوس بني آدم .

ومهما اختلف . فالهدف واحد . لأنه لا يوجد الا مركز واحد . والا حقيقة واحدة . على أن هذه الاختلافات الموجودة في المبدأ تزول شيئا شيئا مع زوال الأسباب . وذلك حينما يصل السالك الى درجات عليا تزول بها « صفات العبد » التي ليست إلا سجننا « للفناء » فلا تبقى الا الصفات الربانية . وقد تحققت « الذات » بها « البقاء » .

والطريقة والحقيقة مجتعلان يطلق عليهما : التصوف . وهو ليس مذهبيا خاصا . لأنه الحقيقة المطلقة . وليست الطرق مدارس مختلفة : لأنها طرق . أي سبل موصلة جميعها الى الحقيقة المطلقة « التوحيد واحد » .

ويجب أن يلاحظ انه لا يمكن لأحد أن يطلق على نفسه أنه صوفي . اللهم الا اذا كان ذلك منه جهلا محضا . لأنه بذلك يبرهن على أنه حقيقة ليس بصوفي . وذلك أن هذه الصفة « سر » بين الصوفي حقيقة وبين ربه . ويمكن أن يقول الانسان عن نفسه أنه متصوف . وهو عنوان يطلق على السالك . في أي مرحلة كان . ولكن الصوفي بمعناه الحقيقي لا يطلق الا على من بلغ الدرجة العليا . أما أصل هذه الكلمة « صوفي » فقد اختلف

فيه اختلافا كبيرا ، ووضعت فروض متعددة ، وليس بعضها بأولى من بعض وكلها غير مقبولة ، انها في الحقيقة تسمية رمزية واذا أردنا تفسيرها ينبغي علينا أن نرجع الى القيمة العددية لحروفها . وانه لمن الرائع أن نلاحظ أن القيمة العددية لحروف صوفي تماثل القيمة العددية لحروف « الحكمة الالهية » انه « العارف بالله » اذ أن الله لا يعرف الا به . وتلك في الدرجة العظمى « الكلية » فيما يتعلق بمعرفة الحقيقة ..

من كل ما سبق يمكننا أن نستنتج أن الصوفية ليست شيئا أضيف الى الدين الاسلامي .. أو أنها ليست شيئا أتى من الخارج فألصق بالاسلام وانما هي بالعكس تكون جزءا جوهريا من الدين اذ أن الدين بدونها يكون ناقصا بل يكون ناقصا من جهته السامية أعنى جهة المركز الأساسي . لذلك كانت فروضا رخيصة تلك التي تذهب بالصوفية الى أصل أجنبي يوناني أو هندي أو فارسي . وهي معارضة بالمصطلحات الصوفية نفسها ، تلك المصطلحات التي ترتبط باللغة العربية ارتباطا وثيقا . واذا كان هناك من تشابه بين الصوفية وبين ما يماثلها في البيئات الأخرى فتفسير هذا طبيعي لا يحتاج الى فرض الاستعارة . وذلك ، أنه ما دامت الحقيقة واحدة فإن كل العقائد السنية تتحد في جوهرها ، وان اختلفت فيما تلبسه من صور ويجب ألا نعطي عناية كبيرة حينما نتحدث عن أصل التصوف لتلك المناقشات التي لا تنتهي بين مؤرخي التصوف خاصة بتحديد الفترة الزمنية التي وجدت فيها لفظة صوفي . فان الشيء قد يوجد قبل اسمه الخاص سواء وجد تحت اسم آخر أو وجد ولم تكن هناك الحاجة لتسميته . وعلى كل حال ففصل الحق في مسألة أصل التصوف هو ما يأتي :

ان السنة ترشد في صراحة لا ليس فيها الى أن الشريعة والحقيقة كليهما ينبعان مباشرة من تعليقات الرسول عليه الصلاة والسلام . والواقع أن كل طريقة صحيحة تعتمد على « سلسلة » تصل دائما الى الرسول . واذا كانت بعض الطرق فيما بعد « استعارت » أو بتعبير آخر « اقتضت » بعض التفاصيل في الطريق وان كان التشابه هنا أيضا سلبيا أو يعزى الى التماثل في المعارف وعلى الخصوص فيما يتعلق « بعلم المقاطع

والأوزان في مختلف فروعها ، فان أهمية ذلك لا تعدو أن تكون أهمية ثانوية لا تسس الجواهر من قرب أو من بعد .

والحق ان التصوف عربى اسلامى كما أن القرآن الذى يستمد التصوف أصوله منه مباشرة ، عربى ، اسلامى . واذا كان التصوف يستمد أصوله من القرآن ، فمن الطبيعى ألا توجد قبل أن يفهم القرآن ويفسر ويتدبر تدبرا تنفجر عنه ينابيع « الحقائق » التى هى فى الواقع مغناها العميق .

ولقد فسر القرآن أولا لعويا ومنطقيا وكلاميا.. ولكن تفسيره صوفيا اقتضى مرور زمن لتأمله فى عسق وشمول .

واذا كان القرآن مصدر الشريعة والحقيقة معا فلا يسكن أن يوجد بينهما تناقض أو اختلاف ما . وكيف يوجد الاختلاف ومصدرهما واحد ؟ وكيف يوجد الاختلاف والحقيقة لا تقوم الا على الشريعة فى أساسها وفى سندها .

ولا بد فى التصوف من شرط جوهرى هو « التأثير الروحى » أو بتعبير أدق « البركة » وهى لا تتأتى الا بواسطة شيخ ، ومن هنا كانت الطرق . ومن هنا كانت السلسلة ، وهل السلسلة الا بركات تنتقل من شيخ الى مرید يوشك أن يصبح شيخا فيؤثر بدوره فى مرید أو مریدين ؟

ونختتم هذه الكلبة بملاحظة جوهرية تتعلق بطبيعة التصوف وهى أن التصوف ليس عملا عليا ولا بحثا نظريا . انه لا يتعلم بواسطة الكتب على الطريقة المدرسية ، بل ان ما كتبه كبار مشايخ الصوفية أنفسهم : انه لا يستخدم الا كحافز مقو للتأمل . والانسان لا يصير بمجرد قراءته متصوفا . على أن ما كتبه كبار الصوفية لا يفهمه الا من كان أهلا لفهمه ، ولأجل أن يسير الانسان فى طريق التصوف لا بد له من :

١ - استعداد فطرى خاص لا يعنى عنه اجتهاد أو كسب .

٢ - اقتساب الى « سلسلة » صحيحة .

اذ أن البركة التي تحصل من الانتساب الى السلسلة الصحيحة هي
الشرط الأساسي الذي لا يصل الانسان بدونه الى أى درجة من درجات
التصوف حتى البدائية منها .

ثم يأخذ المتصوف الطيب الفطرة الذي باركه شيخه في الجهاد الأكبر .
التأمل الروحي ، وفي الذكر ، أى استحضار الله في كل ما يأتى وما يدع
وفي تركيز الذهن في الملام الأعلی فيصل موقفا من درجة الى درجة . حتى
يصل الى أعلى الدرجات ، وهى حالة تسو على حدود الوجود المؤقت
فيصبح ربانيا ، ذلك هو الصوفي الحقيقي .

والأستاذ « رينه جنيون » أسلم وحسن اسلامه وتسمى بالشيخ
« عبد الواحد يحيى » وكتب عن الاسلام صفحات خالدة مفصلة بالجزء .
ومنذ ظهور مؤلفاته جعلت تتضح لدى الصنفوة الغربية فكرة الصواب
عن الاسلام بعد أن كانت فكرة انحراف العرب عن جادة الصواب وابتعاد
عن كل ما هو الهى ، ابتعادا تزداد فداحته على مر الأيام .. وان كان ذلك
لا يسع من أن يكون هذا الانحراف فد بدأ يظهر للمستشرقين من الغربيين
منذ العصور الوسيطة ، فلا يكاد يسر يوم حتى يعرف الايمان طريقه الى
قلوب فريق من الناس على اختلاف الأوطان وتعدد اللغات .

الايمان بالله والايمان بالرسول الكريم « محمد » صلوات الله
وسلامه عليه . والايمان بالاسلام طريقا الى الهدى . ومخرجا من الظلمات
الى النور .

وكلما تقدم العلم وارتقى الانسان حضاريا عرف أن الاسلام بمبادئه
السامية وتعاليمه الحكيمه صالح لكل زمان ومكان . لا يبلى له جديد ولا
تذبل له نضارة . واذا كان هناك من يدعى أن الاسلام قادم على السيف
وانتشر بالقوة فان أقوى رد على هؤلاء أولئك الذين يدخلون في دين الله
أفواجا من شتى أنحاء الأرض على تفاوت ثقافتهم واختلاف مذاهبهم .
تقدم الزمن ، وتطور كل شىء في الحياة .

والى هؤلاء المدعين تقدم هذه الباقية المؤمنة حذرة عن « عنى »
وادراك سليم ، من « أمريكا وانجلترا وألمانيا وإسبانيا » من الذين آمنوا

عن عقيدة وأسلموا عن اقتناع وفهم عميق للدعوة المحمدية الخالدة .
الدكتور « آرثر كين » الأمريكي ، الأستاذ في علم النفس ، والذي
أصبح بعد اسلامه « الدكتور على عسر كريم » ، يروي قصة اسلامه ..
والدافع الحقيقي الذي ساقه الى الهدى :
عندما أرجع بذاكرتى الى الورااء أرانى حتى سن العشرين كافرا لا
أعتقد فى الله .

هذا بالرغم من أن منزلى كان يهتم بالدين ، وكنت أذهب للكنيسة
لا لشيء الا ارضاء لأهلى ، ووجدت نفسى منساقا الى هوة نفسية عميقة
حتى أنى أصبحت لا أعترف الا بالمادية .

« وأصبحت كآلة أباشر حياتى بطريقة ليس فيها أية انفعالات
روحية . وضاعت نفسى وتاهت روحى . وجزعت على ماوصلت حالتى اليه
من سوء حتى عثرت على كتاب فيه بعض الآيات القرآنية المترجمة فقرأتها .
ووجدتنى أنساق اليها ، وكانت هذه نقطة تحول فى حياتى ، وبدأت أبحث
عن كل كتاب يتحدث عن الدين أيا كان « ودرست كل الأديان » الاسلام .
والمسيحية واليهودية والبوذية ، درستها عن عمق وعقل وتفهم ومقارنة
دقيقة بينهم جميعا .

والحقيقة أنى وجدت فى الدين الاسلامى أشياء كثيرة عظيمة ، وان
كنت وجدت فى الأديان الأخرى بعض الحق ، فلقد وجدت فى الاسلام كل
الحق ، ووجدت فيه صراحة وتفوقا وسموا روحيا عظيما ..

وبعد دراسة عشر سنوات اقتنعت عقليا وروحيا بالدين الاسلامى ،
وأردت أن أؤكد عقيدتى هذه فذهبت الى جامع نيويورك ، ووجدتنى أندفع
مع المصلين وصليت معهم ، فسلا ربى قلبى بنور الهدى •

وبعدها اقتنعت بصلاحية الدين الاسلامى لى كعقيدة تربطنى بالله
وتربطنى بالدنيا والانسانية . وأسست بينى وبين نفسى ، ولقد كانت
دراستى لعلم النفس العامل الرئيسى الذى قادنى الى الايمان بالله ، ولكن
كان عدم اعتقادى يرجع الى ظروف البيئة ، والمادية التى طغت على عقول
أكثر الأمريكان والتي ترجع للحضارة المجنونة •

وقال الدكتور : ان هذا القرآن كتاب رباني مقدس ، لا يضارعه كتاب في الدنيا . أما أحب الشخصيات الإسلامية الى بعد الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم ، فهو الامام الغزالي الذي استطاع أن يجمع في منهاج واحد بين العقل والروح كما رسم طرقاً عظيمة للتربية الصوفية والمعرفة المباشرة من القرآن الكريم .

والمهندس المعماري الاسترالي « نورمان والدوبلونكيت » الذي أصبح « أحمد عبد الله نورمان » والذي ظل طوال فترة الدراسة لا يتم إلا بكل ما يكتب عن العسارة والعلو حتى تخرج في جامعة ملبورن بأستراليا ثم تطوع في الحرب العالمية الثانية . . . وهنا تبدأ قصة إسلامه . فقال : كنت في فترة الحرب العالمية الثانية بالصحراء الغربية في ليبيا . ووجدت رجلاً يسوي الرمال بيده ثم يقف في خشوع وينصرف عن كل حوله فسألت ماذا يفعل هذا الرجل ؟ . فتيل لي انه يصلي . وسألت عن دينه الذي يسلك به هذا المسلك البسيط بلا نقوس .

وقال : ومن هذه اللحظة التي كنت أكثر ما كوني حاجة الى ما يضيء نفسي ويريح خواطري ، بدأت أهتم بدراسة الأديان و في مقدمتها الإسلام . . فأسلت .

وأما المبشر الانجليزي « جون سنت » الذي تسلّم وتسمى « بسعيد جون » رئيس جمعية المسلمين الانجليز . فقد بدأ في سن الخامسة عشرة يدرس الأديان ، وكان ينتسب الى جمعية الاخلاص الانجليزية ومهتبه التبشير للدين المسيحي .

لقد درس المسيحية وتعمق فيها ولكنها على قوله : لم تعطه الجواب الشافي على كثير من الأسئلة التي تدور في حياة الناس . . . فبدأ يداخله الشك واتجه ناحية الشيوعية يدرسها . ولكنه لم يجد فيها شفاء الروح ولا كيان الفرد . ودرس البوذية وانتقل الى يقول من دراسة الى دراسة حتى انتهى الى الاسلام وهو في بعثة تبشيرية في أستراليا سنة ١٩٥٠ ، بعد أن درس حياة نبي الاسلام دراسة التعقيد والتبصر .

ويقول : فوجدت البساطة بأوضح معالمها فى كل خطوات حياتى
ووجدتني بعد الاطلاع المتواصل على تفاصيل الاسلام ومبادئه فى خدمة
الفرد والمجموع وعدالته فى اقامة المجتمع على أسس من المساواة والتوحيد.
وجدتني أندفع الى الاسلام بكل عقلى وروحى ، عاهدت الله من يومها أن
أكون داعية للاسلام مبشرا بهديه فى كل البقاع .

وعندما رجعت الى انجلترا قمت بتأليف جمعية المسلمين الانجليز .
وقد أسلم كثير من مواطنى فى انجلترا بعد أن عرفوا الكثير عن الاسلام .
والسيد « علاء الدين شلبى » الألمانى الذى أسلم حديثا قال : بدأت
أحس بضلال الغرب ، فهو يتخبط بين مادية الحادية ، ومادية رأسمالية
تتسح فى المسيحية فهى كالوحش الضارى هدفها الايذاء ، تدفعها المطامع
الى الاعتداء على حقوق الغير وامتصاص الدماء واراقتها ، وتشجع الطاغين
المعتدين ، ولو كانوا منها على غير الدين فقد جمعهم رابطة الطمع والظلم
والعدوان .

ووجدت الاسلام خلاصة التطور فى معنى الدين ، أساسه التوحيد.
وعساده الحقائق يطلق فى سبيلها العقل والفكر ، ويدعو الى الايمان بالملائكة
والرسل والكتب المنزلة مشيدا بفضل الرسل كهداة مختارين من رب العالمين
ويدفع الناس لاعداد صحائف خير لكى تبيض وجوههم يوم العرض
والنشور . حيث يكون الحكم « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .
وشعرت بخجل كبير وأنا من الجنس الأبيض ، الذى سود صحائف
البشرية بظلمه وطغيانه بل وكفره بخالقه ، اذ خرج عن تعاليسه . وفرق بين
الأجناس والألوان ، وارتكب فى سبيل ذلك ما لوث معنى الانسانية .
ولعل بياض هذا الجنس من نوع لون الحجر الذى يثقل قلبه القاسى
الذى لا يعرف معنى الرحمة والمحبة .

واشتد بى الضيق وفكرت مليا فى مخرج منه ، فصادفتنى حين تلاوة
القرآن الكريم آية « ففروا الى الله » .. والى أين ؟
الى جوار اخوانى المسلمين فى القاهرة ، فى الجمهورية العربية المتحدة
الفتية ، هى المنطقة الوحيدة فى العالم اليوم التى تحمل رسالة الاسلام وهدى

القرآن وتعاليمه رائد العروبة الأول « محمد بن عبد الله » عليه الصلاة والسلام ، فهي الأمانة على هذا الدين الحريصة على هذا الحق . تنشر نوره في كل مكان من العالم بزعامه رائد العروبة والحريية والسلام الرئيس « جمال عبد الناصر » ولقد زرت ادارة الاتصال بالشعوب الإسلامية فوجدتها مزدحمة بشباب من جميع أنحاء العالم الإسلامي على اختلاف ألوانهم وأجناسهم . وهم يلحنون نشيد الزحف المقدس : « أحد أحد . فرد صمد . ما مثله كفوا أحد . أحد أحد . الله الله » وأيديهم متسائكة مرفوعة الى أعلى .

فوجدتني مدفوعا لتلحين هذا النشيد . سعيدا بأن أمسك يد أخي المسلم المجاور الأسود اللون الأبيض القلب . وحقا ان الإسلام قوة لا تقهر ولها البقاء مهما حاربها الظالمون الأغبياء .

أما المستشرق الألماني الدكتور « ارنست بانرت » مدرس اللغات الشرقية بجامعة فينا بالنمسا ، ومن مواليد « لايسك » بألمانيا الشرقية . فقد بدأ صلته العلمية بالإسلام بأول رسالة له عن تاريخ العثمانيين وزار تركيا وايران والهند وجميع البلاد العربية . وكتب عن الشاعر اقبال ويجيد اللغة الأردنية ، وحقق كتاب التصوف للشيخ عبد الكريم الجيلي الذي تحدث فيه عن مراتب الوجود وترجمه الى الألمانية . وترجم ديوان السيد شعيب أبو مدين الأندونيسي وكتاب « الإسلام اليوم وغدا » لليونسكو ومعاجم عن مقارنة الأديان . يقول عن رايه في الإسلام والتصوف : اني أحب الإسلام منذ طفولتي وأزور كل سنة بلدا إسلاميا لأنني أميل الى البيئة الإسلامية والمحيط الصوفي واعتقد ان التصوف من أقوى معارج الترقى في الأخلاق لأنه يجعل الانسان يتأمل صفحات الوجود في نسمة النور الالهي .

أما المستشرق النابيه « نفونس اتيين » الفرنسي الذي سماه « ناصر الدين » فكان صاحب طبيعة متدينة وفنانا بارعا . كتب عن التصوف في كتابه « التأمّل » يشرح بخياله في ملكوت الله . يريد ان يخبرني حقيقته . ويطلبني عن مساتيرو ويصل .. الى الله .. وقد وصل الى الله .. واهندي بنسور الإسلام واعتنقه بعد ان آمن به ايماننا عن اقناع وعلم .

وهذه فقرة من احدى محاضرات شيخ من شيوخ المستشرقين العلامة « رينولد نيكولسون » عن فكرة التصوف الاسلامى وشخصية الرسول صلوات الله وسلامه عليه من كتابه « فى التصوف الاسلامى » . قال نيكولسون : « قد اخترت فكرة الشخصية فى التصوف عنوانا لمحاضراتى هذه . ولكنه عنوان يحتاج الى بعض كلمات تفسره قبل البدء فى مناقشته ، لكي يتبين لكم مجال البحث وحدوده كما اعتزمت ان أعالجه .

انكم جميعا تعلقون معنى كلمة التصوف ، واننى لا أستعملها هنا الا فى المعنى العادى أى فى الدلالة على التصوف الاسلامى ، أو على تلك الحياة الدينية الخاصة التى نقرأ وضعها فى أقوال متصوفة المسلمين ومؤلفاتهم وربما يعيننا فى هذا الصدد أن نشرح الى أى حد تتضمن تلك الحياة ، أو تتضمن « التجربة الصوفية » ، فكرة الشخصية سواء أكانت شخصية الصوفى العابد نفسه أم شخصية الرسول . أم شخصية من نعبد وهو الله .. ولم تجد الحياة الدينية الاسلامية مثالا أعلى فى أى انسان . الا فى شخصية النبى « محمد صلوات الله وسلامه عليه » فإذا بحثنا فى الصلوات التى يعتقد المسلمون . وبخاصة الصوفية — بوجودها بين الله ورسوله من جهة ، وبين الرسول وأنفسهم من جهة أخرى . فقد وصلنا الى لب المسألة التى تصدينا لبحثها .

والقرآن يعلن بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وان كل شىء هالك الا وجهه ، وان كل من على الأرض فان ، ولا يبقى غير وجه الله . وان الله نور السموات والأرض ، وانه أقرب الى الانسان من حبل الوريد ، وأنه ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم .

تلك هى الآيات التى لا تكلم ألسنة الصوفية عن ترديدها لأنهم نظروا الى الله قبل كل شىء ، وبعد كل شىء ، نظرتهم الى المحبوب بالذات . أما الرسول فقد أحب الله هذا الحب أيضا . وان امتزج حبه بشىء من الرهبة والخوف من الله ، وقد وصف الله نفسه فى سورة البروج بأنه « الودود » كما وصف نفسه فى كثير من الآيات القرآنية الأخرى بأنه يحب المتقين . ويحب الصابرين ، ويحب المتطهرين .

أما حب الانسان فقد ورد ذكره في القرآن ثلاث مرات فقط . تعيننا منها واحدة وهي قوله سبحانه : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم » . ذلك أنها تشير الى المكانة التي وضع فيها القرآن رسول الله من ربه والى الوساطة التي بين الله والخلق . أما الاعتقاد بأزلية الوجود المحمدي فقد ظهر في عصر مبكر جدا عند الشيعة ، ثم أخذ به أهل السنة . وقد أشير اليه في طائفة من الأحاديث مثل الحديث المشهور : كنت نبيا وآدم بين الماء والطين ، أي قبل خلق جسد آدم .

وقد ذكر أتباع هذه النظرية أن أول شيء خلقه الله سبحانه هو الروح المحمدي أو النور المحمدي ، الذي ظهر بصورة آدم ثم بصورة كل نبي بعده ، حتى ظهر أخيرا في صورة النبي محمد نفسه عند أهل السنة .

أما الصوفية فيؤولون النظرية تأويلا خاصا بهم ، فالنور المحمدي عندهم ، هو الروح الالهي الذي نفخ الله منه في آدم .

فالحقيقة المحمدية ، لا الصورة المحمدية الجسدية . هي مبدأ الحياة ومركزها في العالم ، وهي الوساطة بين الله وعباده . والمنبع الذي يفيض منه على العارفين معرفتهم بالله على نحو ما يعرف الله نفسه . وتصل اليهم منه العطايا والمنح الالهية .

وقد تطورت هذه النظرية على يد محيي الدين بن عربي وعبد الكريم الجيلي . واتخذت أساسا لبحوث فلسفية بعيدة المدى . فإن محمدا صلى الله عليه وسلم . في نظر هذين المؤلفين هو الكلمة الالهية . والإنسان الكامل . والإنسان الكامل عندهما . هو المصدر الذي يستمد منه جميع الأنبياء والأولياء عليهم بالله كما أنه العلة الأولى في خلق كل ما هو مخلوق . العنصر الكلي الذي يصل ما بين الوجود المطلق (الله) وبين عالم الطبيعة وهو مصدر العناية الالهية التي تحفظ على العالم كيانه . وهو خليفة الله في الأرض . وهذا العالم لكي يظهر فيه جلال من أوجده . والملائكة والجن والانس والحيوان والنبات والجمادات كلها خلقه على شيء جميل . وقد قيل في وصفه : يا رسول الله انظره على شيء جميل .

وقد أشرنا من قبل الى اعتقاد الصوفية في أزلية النور المحمدي الذي ظهر في صور جميع الأنبياء من آدم الى عيسى ، ثم ظهر أخيرا في صورة الرسول محمد نفسه . ولكن ظهوره لم ينته في نظر الصوفية بموته . فانهم يعتقدون أنه هو الذي لا يزال يظهر في صور الأولياء الذين يقتبسون من نوره . ومن هنا كانت الصلة التي تربط أهل التصوف « بسحمد » — صلى الله عليه وسلم — أقوى وأكثر من تلك التي تربط أهل السنة به . مهسا كانت درجاتهم من التقوى . ومهسا عظمت محبتهم له . لأن هؤلاء الأخيرين يعظونه ويوقرونه . ولكن التعظيم والتوقير شيء والمحبة شيء آخر . والمحبة بالمعنى الصوفي معناها فناء المحب في المحبوب .

ومن هذه الناحية يعتبر الصوفية أنفسهم خلفاء النبي والمثلين الشخصيين له في خلافته عن الله سبحانه ، وهم يعتقدون أنه لولا هذه الخلافة الباطنية لخرب العالم وغسته الفوضى . ولولا وساطتهم لما وصلت رحمة الله الى الخلق . ولذا كثيرا ما وصفوا أنفسهم بأوصاف هي أليق بالجناب الإلهي . أو بالحقيقة لغة أناس أرادوا أن يصفوا الله فوصفوا أنفسهم لشعورهم بأنه هويتهم . أو أرادوا أن يصفوا الروح المحمدي ، فوصفوا أنفسهم لشعورهم بأنه حي فعال فيهم .

والاعتراف بفضل النبي — صلى الله عليه وسلم — وأسبقيته أمر معترف به حتى عند أكثر أولياء المسلمين اعترازا بولايته . يقول أبو اليزيد البسطامي وقد سئل عن جواز تفضيل الأولياء على الأنبياء : مثل ما حصل للأنبيا عليهم السلام كمثل زق فيه عسل ترشح منه قطرة . فتلك القطرة مثل ما لجميع الأولياء . وما في الظرف مثل ما لنبينا صلى الله عليه وسلم . ومهسا يكن من شيء فقد كانت شخصية « محمد » صلى الله عليه وسلم مركز الحياة الصوفية في الإسلام . فأبو الحسن الحرالي — مثلا — وهو أحد متصوفة القرن السابع الهجري يذكر ثلاثة أنواع من الأيمان بالنبي أعلاها هو ايمان من أشار اليهم الله سبحانه في الحديث القدسي بقوله : ما وسعتني أرضي ولا سمائي ولكن وسعتني قلب عبدی المؤمن ، فان هؤلاء يحب بعضهم بعضا ولكن في الله . وهم خلفاء الله في أرضه . وايمانهم هو اعتقادهم أن النبي — صلى الله عليه وسلم — لما أسرى به الى السماء تلقى من أمر الله ما خفى

عن جميع الأنبياء والملائكة ، حتى عن جبريل نفسه . ولم يحظ بما حظى به النبي عليه السلام . أحد من الأرواح العلوية أو الملائكة المقربين . ولذا كان الايمان به مقياسا يقاس به الايمان بالله ، بل ان الايمان به هو الطريق الموصل الى الله . فمحمد صلى الله عليه وسلم ، بهذا المعنى كما يقول أندريه : « ليس هو الرسول الذي أرسله الله الى الناس ، بل هو الأمين الذي استودعه الله خزائن أسرارهِ وليس الكتاب الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم الى الناس هو الهدى والفرقان شخصه وذاته . وليس الايمان به هو الاعتقاد في صدق رسالته ، بل هو الصلة الشخصية التي تربطه بالناس ارتباطا صوفيا ، ولهذا اتحد به الأولياء الكاملون عن طريق المحبة والحياة الروحية .

وتذكرنا اللغة التي يعبر بها الصوفية عن حبهم للنبي في أغلب الأحيان بلغة الأناشيد الدينية التي تدور معانيها حول حب الله . فالنبي حبيب الله . وهو لهذا السبب حبيب الصوفية جميعهم . ولم يكن في نظرهم تقليد في أفعاله وأخلاقه . بل تآقت نفوسهم الى دوام حضورهم معه . ولذا يراود المريدون في شتى الصور في النوم واليقظة .

ورؤيته في المنام من الأمور العادية في الحياة الصوفية الإسلامية . وقد يكون لها أثر بالغ في تشكيل الحياة في ظاهرها وباطنها . وهاكم مثال يوضح حالة كثيرة الوقوع .. رأى الجنيد النبي صلى الله عليه وسلم في منامه يقول له : يا جنيد تحدث الى الناس فقد جعل الله من كلماتك سببا لاجاة كثير من الخلق .

فلما استيقظ خطر في نفسه انه فضل من سرى (شيخه) لأن النبي أمره أن يعظ الناس ولكنه لما أصبح الصباح أرسل « سرى » النبي الجنيد أحد مريديه ومعه الرسالة الآتية :

انك لم تتحدث الى مريدك عندما اجوا عليك بالاحسان منهم ورفضت في ذلك شفاعته شيوخ بغداد . وتوسلى الخاص . والآن وقد أمرك النبي صلى الله عليه وسلم فلا بد لك من اطاعة أمره . فقال الجنيد : فعلت ان مرتبة « سرى » أعلى من مرتبتي لأنه كان على علم بأسرار نفسي . فذهبت

اليه وطلبت منه العفو وسألته : كيف عرف أنتى رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فقال : اننى رأيت الله فى المنام . فأخبرنى أنه أرسل اليك رسول الله ليأمرك بالخروج الى الوعظ ..

ويعلق الهجويرى على هذه القصة بقوله : ان فيها شاهدا على أن المشايخ على علم دائم بالأحوال الباطنية عند مريديهم .

وهكذا صار يسرد المستشرق « نيكولسون » تلك الوقائع فى كتابه القيم « الاسلام والتصوف » .

ويقول المستشرق « لين » فى كتابه « سائل المصريين وعاداتهم » : ان التصوف أوجد فى الحياة الاسلامية ثلاثة مبادئ ، لها أكبر الأثر فى تشكيل الشخصية الاسلامية الروحية والخلقية .

وأول هذه المبادئ : حب الله وحب رسوله . حبا يجعل قلب الصوفى متعلقا أبدا بهما . ومن هذا الحب نشأت تلك الصلابة الاسلامية التى لا تنزل ولا تنال منها الأحداث .

ثم حب الأولياء حبا يجعلهم نساذج عالية لا تفارق خيال المسلم ، ولا تبعد عن وجدانه ، بل هى تمده دائما بالبركة والثقة والأمل باسم الحى . ثم المنهج الصوفى فى التربية ، وهو يعد المسلم للحراب كما يعده للجهاد ، بما يفرضه عليه من زهد وتقشف وترفع وصلابة ، وما يفيض عليه من مثاليات وأخلاق ومبادئ سامية .

والدكتور « محمد مكين » أحد كبار رجال الفكر الاسلامى فى « سيلان » ورئيس الجمعية الاسلامية بجامعة لندن .. وهو من العلماء الذين تعمقوا فى دراسة التصوف الاسلامى والطرق الصوفية وأثرها فى تطوير المجتمع الاسلامى . وقد قدم الى جامعة لندن رسالة عن الطريقة الشاذلية وأثرها فى تطوير المجتمع الاسلامى وعاداته . ومكاتها من القيادات الاسلامية التى كافحت الاستعمار فى الشمال الافريقى .. قال سيادته : لقد كونت لى نفسى منهجا فى دراسة التاريخ الاسلامى . وقوام هذا المنهج اننا نستطيع أن ندرك اتفاضات الشعوب الاسلامية وانفعالاتها التاريخية وعاداتها

وتقاليدها وروحها عن طريق دراستنا للتصوف . اننا يجب أن نصور التاريخ تصويرا صوفيا حتى نفهم نفسية الشعوب وخطوط حياتها العريضة ، ولقد لعبت الطريقة الشاذلية دورا ايجابيا حاسما في تاريخ الشمال الافريقي . فشكلت عاداته وأخلاقه ، وشئون حياته . ولعبت دورها الكبير أيضا في الانتفاضات القومية ضد الغزو الفكري والحربي لهذه المنطقة لهذا قصدت أن أدرس البيئة الصوفية ، وان أؤرخ لهذه الشعوب العربية عن طريق دراستي للطريقة الشاذلية .

وقال الدكتور : لقد انتشر الاسلام في آسيا عن طريق التصوف . ولهذا انطبعت الحياة العامة في تلك البلاد بطابعه ، ففي سيلان مثلا ، كل مسلم لابد وأن ينتسب الى طريق صوفى ، وفي كل بلد من سيلان ، زاوية صوفية . وهناك في العاصمة زاوية تسمى « الزوايا » من خمس فوايق . وهى مركز القيادة الروحية الصوفية .

والأولاد هناك يتربون تربية صوفية فيذهبون الى الزوايا كل صباح . وفي سيلان طرق صوفية متعددة ، أشهرها الشاذلية والقادرية والعلوية .

والمسلمون في سيلان ينتسبون الى أصليين كبيرين : أصل عربى . وقد قدموا من حضرموت واليمن وتكتب لغتهم بالعربية .

والفريق الثانى : وفد اليها من الملايو . والمسلمون في سيلان حذروا شافعية ، ولهم مكاتئهم الكبرى . فى حياة البلاد ونهضتها . وهم جميعا يتطلعون الى العالم العربى عامة والجمهورية العربية خاصة كمركز لقيادة روحية والفكرية .

وقال عن الجمعية الإسلامية التى يرأسها بجامعة لندن : كون هذه الجمعية الطلبة المسلمون فى جامعات بريطانيا . ويبلغ عددهم أكثر من ثلاثة آلاف طالب من شتى بقاع العالم الإسلامى . وهدف هذه الجمعية العناية بالطلبة المسلمين والعناية بهم روحا ومادة . وتزويدهم بحضارة الإسلام . وللصوف بين أعضاء هذه الجمعية المقام الأكبر . فقد اغتصموا الإسلام فى حال عالم الغرب المادى . وفى بريطانيا جماعة تسمى « جماعة الباحثين » وهم صوفية ويصدرون مجلة للدراسات الصوفية .

وفى أوروبا رغبة شديدة لفهم الاسلام ، ففي لندن مثلا . فى «هايدبارك»
تعقد ندوات صوفية . وهناك منبر اسلامى صوفى دائم يتكلم من فوقه مسلم
صوفى بريطانى . وينادى فيه هذا المحاضر بأن مشاكل العالم لا تحل الا
بواسطة الاسلام ، ويحضره جمع كبير من الأوربيين .

وأوروبا فى حاجة الى أن تعرف الاسلام معرفة صحيحة ، ولو تيسرت
لها هذه المعرفة لتغير وجه أوروبا وتاريخها وعقائدها .

ولكن المسلمين لا يحسنون الدعوة لدينهم ، ولا يفهمون الأسلوب
الذى يستهوى أوروبا . فمثلا أوروبا تهتم بحرية الفرد وتقديسها . ويظنون وهم
على خطأ أن الاسلام يهدرها ولا يعترف بها ، فلو رفعنا عن أعينهم هذه
الغشاوة لأثرت الدعوة الاسلامية ثمرا طيبا .

ان أحد عداء الجامعات فى بريطانيا ، ألقى محاضرة قال فيها : انه يجد
حرية الفرد الكاملة فى التصوف الاسلامى ، كما يجد فيه حرية التفكير ،
والانسانية العالمية ..

وفى اليوم التالى ، كانت صفوة من الأساتذة والطلاب يطلبون كتب
التصوف الاسلامى ويعكفون على دراستها .

ويدرس التصوف الاسلامى فى جامعات « أكسفورد وكبريدج » .
وجامعات أوروبا كافة ، كما أنه المادة الرئيسية فى كلية الدراسات الشرقية
والافريقية بلندن . وان التصوف يجب أن يفهم أولا على حقائقه العليا . وان
يجرد من كل دخيل غريب فيه حتى يتبلور فى عقول الناس كسهج تربوى
وأخلاقى وثقافى ، وكقوة بانية للحضارة . وان من أخطر ما أصاب التصوف
ان بعض الباحثين يكتبون عن التصوف ويدرسونه وهم لا يؤمنون به ، اذ
لا بد من الايمان به أولا .

فاذا تم هذا فالصوفى أقدر الناس على حمل رسالة الاسلام وأقدر الناس
على الدعوة اليه ، والتصوف هو نواة الوحدة الاسلامية . فالطرق الصوفية
توجد فى العالم كافة . ففي سيلان مثلا الطريقة الشاذلية ، وتجدها فى مصر
والسودان والمغرب والهند واندونيسيا .. وهكذا .

فلو عقدنا ندوات أو مؤتمرات صوفية عالمية لاستطعنا أن نوجد روابط قوية بين البلاد الاسلامية .

وفي هذه المؤتمرات يمكن أن نحدد المنهج الاسلامي ، ونضع الهيكل الثقافي للنهضة . والقاهرة هي مركز الاشعاع للعالم الاسلامي ، واليها تتجه الأنظار ، وعليها تعقد الآمال . وسوف أقترح ان شاء الله في مؤتمر الجسيعات الاسلامية عقد مؤتمر عالمي صوفي كما سأقترح أن تكون القاهرة هي مقره الدائم .

والأستاذ المجاهد الايراني « محمد باقر الحجازي » صاحب جريدة الوظيفة اليومية بظهران . قد أبان سيادته في حديثه عن حقائق لها دلالتها الكبرى على مكانة التصوف وأثره في الحياة الاسلامية العالمية .

يقول الأستاذ باقر : ان الطرق الصوفية تهيئ هينة كاملة على الحياة الدينية في ايران . وان الكثرة الغالبة من رجال السياسة والأدب والاقتصاد هم من رجال الطرق الصوفية . وان رئيس وزراء ايران من أبناء الطرق الصوفية . وان عداء الكليات وأساتذتها من أصحاب المناهج الصوفية في التربية والتعليم . فطابع الثقافة في ايران هو طابع صوفي خالص .

والأستاذ أبو الحسن الندوي عالم باكستان يقول في مذكراته : ان أي عالم اسلامي في القارة الهندية لا يسبح له بالتحدث في المحافل الدينية الا بعد أن يجيزه شيخ صوفي ويسبح له . فالمسلمون الهنود لا يسبحون قلوبهم وتقديرهم واجلالهم وثقتهم إلا لعلماء التصوف . ورجال التصوف .

ولقد شهد « برناردشو » كاتب ايرلندا الانجليزي الشهير . انه لم يسبق هذا القرن حتى تعتنق الامبراطورية البريطانية النظم الاسلامية . وهو ان « محمدا » صلى الله عليه وسلم بعث في هذا العصر . وكانت له السيطرة على هذا العالم . لنجح تماما في حل جميع المشكلات العالمية . وفادد إلى السعادة والسلام . وبشله قال الكثيرون في كل عصر ومن كل امم .

ومما كتبه الأستاذ الكبير « عباس محمود العقاد » عن التصوف في الغربين في العصر الحاضر : لا نريد أن نقول ان العلم اخص نبي تعزبه الانسان وتعير قلبه وضميره . كلا بل نريد أكثر من ذلك .

نريد أنه أخفق في دعواه الوحيدة التي كان خليقا أن ينجح فيها ، لأن أصحابه كانوا يسمونه بالعلم المادى .. وهو اليوم لا يعلم من المادة الا أنها حركة مجهولة فى فضاء مجهول نعم كل مادة تتركب من ذرات وكل ذرة تنفلق فتصبح شعاعا ، وكل شعاع هو حركة فى الأثير ، وما الأثير ؟ شىء .. كالأشياء ، ليست له حدود ولا أوصاف ولا مقادير يعرفها العلماء . فالعلم المادى لا يعرف المادة الا فى هذه الحدود ، ومن الأدب اذن أن يتواضع كثيرا ، فلا يحتكر المعرفة ولا ينكر على غيره أن يحاولوها حيث استطاعوا . وهذا هو الجديد على العلم الحديث مع العلم أنه لا يعلم كل شىء لأنه مقيد بالحواس . واذا كانت الحواس لا تعلم جميع الأشياء .. فهل يعلىها الفكر ؟ كما أيضا لأن الفكر محدود ككل شىء فى الانسان .

فلا بد للمعرفة من وسيلة أخرى مع وسائل الحس ووسائل التفكير . لا بد لها من البصيرة أو من البديهة ، أو من الإلهام . وذلك هو مجال التصوف أو مجال الدين ، فهذه هى المعرفة التي يتعاون عليها الحس والفكر والإلهام .

ومن ثم تكثر الكتابة اليوم فى مسائل التصوف ومسائل الدين ومنها مباحث هذا الكتاب الذى يسمى « مقدمة للمقارنة فى مذاهب التصوف » ومؤلفه الأستاذ جاك دى ماركيث وفصوله تتناول المقارنة بين تصوف الهند وتصوف المسيحية وتصوف الاسلام .

ونحن لا نريد أن ننقل شيئا من صميم مباحثه ، ولكن هذا لا يسعنا أن نخرج بخلاصة من كل مذهب أو كل مجموعة من المذاهب ، وفى كل خلاصة دليل على شىء كثير ..

فخلاصة التصوف الهندى : تحذير المرء من شهواته وتحذيره من قبض هذه الشهوات بالعنف والقسوة ، فرياضة الرحمة هى مفتاح الحياة الأبدية .

وخلاصة التصوف اليونانى : أن الله جوهر من العقل الخالص من شوائب الأجسام وان التأمل فى الحقائق هو سبيل الوصول الى الله .

وخلاصة التصوف العبرى : اذا كانت مخافة الله تاج الحكمة فهي آيسر لباس المسكين .

وخلاصة المستعار من فلاسفتهم مذهب « فيكون الحكيم » الذى يقول الله خلق العقل ليعمل به فى الموجودات ومنها الانسان .
وخلاصة التصوف المسيحى أن نجاته الروح لا تكون بغير نعمة من الله بغير فداء .

وخلاصة التصوف الاسلامى .. شعبتان :

١ - شعبة تذهب الى اعتزال الدنيا لأنها باطل . وتنفى فى الله لأنه هو الحق دون غيره .

٢ - وشعبة أخرى لا تعتزل الدنيا لأن الله سبحانه وتعالى يتجلى فيها . وآياته التى يتجلى فيها هى سبيل الوصول اليه . وهذه هى الصوفية المفضلة فى الاسلام . لا اهسال الدنيا ولا انحصار فيها . بل نفاذ منها الى الحق ، والى الكمال . وخلاصة الخلاصات جسيما : ان الايمان سعادة الروح وان المعرفة والبصيرة قواد السعادة . فالتصوف زهد وقناعة وطاعة وعبادة وتضحية ومحبة وجهاد وفدائية حتى تعلو كلمة الحق وما من شك فى أن هذه المعانى من نتاج الايمان ثرة لا تباع الاسلام اتباعا دقيقا (وتنفيذا كليا) والمعول عليه هو الصفاء القلبي والتزهر الداخلى والخارجى ولا يتحقق ذلك الا باتباع الاسلام وتنفيذ أموره واجتناب نواهيه .

وكان الامام العارف بالله « ابو المواهب » « عبد الوهاب الشعرانى » علما من اعلام التصوف الاسلامى واماما من كبر أئسته . ملأ الدنيا علما ومعرفة ونورا حتى ليقول عنه المستشرق « فولروز » : ان الشعرانى كان من الناحية العلية والنظرية . صوفيا من الطراز الأول . وكان فى الوقت نفسه كاتباً بارزا عميلا فى ميدان الفقه وأصوله . وكان مصدرا لعدد من العلماء لا يعرف له نظيرا وان كتبه التى تجاوزت السبعين عمدا من بينها أربعة وعشرون كتابا تعتبر ابتكارا محضا عميلا لم يسبق اليه أبدا . ولما يحتاج فكرتها أحد مثله .

ويقول المستشرق « نيكلسون » انه منذ فتح المغول العالم الاسلامي ركزت الحركة الفكرية في الاسلام واقتصر علماءه على الجمع والتقليد فلا تجد بوادر انطلاق أو انتاجا خصباً منتجاً ، أو أى أثر لتفكير أصيل وخصيء باستثناء شخصيتين شاذتين هما « ابن خلدون » المؤرخ والشعراني الصوفي وكان الشعراني بالذات مفكراً مبدعاً أصيلاً أثر تأثيراً واسع المدى في العالم الاسلامي يشهد به الى يومنا الحاح القراء الحاحاً متواصلاً في طلب مؤلفاته .

والشعراني مع تلك المكانة الضخمة العالية . كان تلميذاً في مدرسة التصوف العليا . كان نفحة من نفحات العارف الرباني الأمامي « علي الخواص » كان مريداً في جامعة الخواص في جامعة التصوف التي تستمد معارفها من الفيض الالهي والفتح الرباني . والالهام القلبي .

يقول شيخ المتصوفة العلامة : لو أن رجلاً جمع العلوم كلها . وصحب مؤانف الناس كلهم لا يبلغ مبلغ الرجال الا بالرياضة من شيخ أو امام مؤدب . ومن لم يأخذ أدبه من أستاذ يريه ويريه عيوب أعماله . ورعونات نفسه . لا يحل الاقتداء به في تصحيح المعاملات .

ويقول الشعراني : ولو أن ضريق القوم يتوصل اليها بالفهم لما احتاج مثل الغزالي ومحيي الدين الى شيخ ، ثم يقول : الخواص رجل من رجال الله . وعلم من الأعلام الهداة ، ومحجة ومنازة من المنارات التي يهبها الله لعباده . . والخواص في الضريق وعند أهله كامل من السادة وان جهله الناس . والخواص هو معراج الشعراني وسلسه الذي صعد عليه الى أبواب الفتح ، وسوات المنح ومناطق الالهام والنور .

وسلة الخواص بالشعراني . هي آية من الآيات على مقام الشيخ في الطريق . وهي أيضاً آية على مقام العلم اللدني . فقد كان الخواص أمياً . وكان الشعراني عالماً . ذلك هو حكم الظاهر أما حكم الباطن فقد كان الخواص عالماً . وكان الشعراني أمياً .

علم الخواص كان الوهب . وعلم الشعراني كان الكسب . والعلم الحقيقي عند الصوفية هو العلم الذي يقول صاحبه انه علمي . انه فتحى . لأن علوم الفتح خاصة بصاحبها .

ويقول الخواص : من أراد أن يعرف مرتبته في العلم الذي يزعم أنه من أهله : فليرد كل قول الى قائله . وكل علم الى عالمه . وكل شيء استفاده من أمر دنياه وآخرته الى من استفاد منه . وينظر نفسه بعد ذلك .

والشعراني يصف أستاذه وشيخه على الخواص فيقول : رجل غلب عليه الخفاء . فلا يكاد يعرفه بالولاية والعلم الا العلماء العاملون . لأنه رجل كامل عندنا بلا شك .

ويقول صاحب كتاب التصوف الاسلامي . ان الخواص الذي عرفناه في كتب الشعراني لا يقل عظمة عن سقراط الذي عرفناه في كتب أفلاطون . والفرق بين الرجلين أن سقراط أولع بمخاطبة العقول . والخواص أغره بمخاطبة القلوب والقلب أبقى من العقل وله في كل زمان أنصار وأشياء .

ويحدثنا الشعراني عن الأسئلة العلمية التي وجهها الى شيخه الخواص والجواب عليها . فيقول الخواص للشعراني . كل نقمة نزلت في جوف مسوفى من غير كسبه الشرعى . أخذت من عبوديته جانباً . واسترقته لغيره . ثم يقول مدلاً على أن الأصل في التقوى هي طهارة المضمع : اعلم أن المدد الذي يوزن فياذا على قلب كل انسان يتلون بحسب القلب . والقلب يتلون بحسب صلاح الطعمة وفسادها . فالله سبحانه وتعالى ينطق على لسان عبده بحسب مضمعه . فان كان قلبه مطهراً من سائر الرذائل . نطق بكلام النقيس الذي يشبه الوحي وان كان ملطخاً بشيء من القاذورات نطق بما يشبه كلام الشبهين . وهذا هو الخواص الشعراني الى التوحيد . والى الالتجاء والاتجاه دائماً الى الله سبحانه : لا تجعل بينك وبين الله واسطة أبداً من غير أن يكون بينك وبين الله واسطة . إنما هو واسطة بين العبد وبين الرب في الدعوة الى الله . لا الى نفسه . فاذا وقع الايمان الذي هو مراد الله تعالى من عباده ارتفعت واسطة الرسول عن القلب اذ ذلك وصار الحق تعالى أقرب الى العبد من نفسه ومن رسوله .

ولم يبق للرسول الا حكم الافاضة على العبد من جانب التشريع والاتباع .
 كما في حال المناجاة في السجود . فالرسول يغار من أمته أن يقفوا معه دون
 الله تعالى فإنه يعلم أن مقصود التشريع حصل بالتبليغ ، كما حصل له الأجر
 على ذلك ، كما أشار اليه قوله صلى الله عليه وسلم : من سن سنة حسنة
 فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة .

وانظر يا أخى الى غيرة الحق تعالى على عباده بقوله لمحمد صلى الله عليه
 وسلم « واذا سألك عبادى عنى فانى قريب ، أجيب دعوة الداع اذا دعان »
 فاعلمنا تعالى بأنه تقرب الينا من أنفسنا ومن رسولنا الذى جعله الله تعالى
 واسطة لنا فى كل خير . مع أنه تعالى بالغ فى مدحه صلى الله عليه وسلم . حتى
 كاد أن يصرح بأنه هو لكثرة ما وصفه بالكمال فى نحو قوله تعالى : « من
 يطع الرسول فقد أطاع الله » وبقوله « ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله »
 ومع ذلك قال له « ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم
 ظالمون » . فأخرجه عن حال الخلق ونقاها عنهم وأثبتته معه فى البراءة من المثلبة
 وعن مشاركة أحد منهم له فى كماله أو نبته صلى الله عليه وسلم .

ويسأله عن ترك الأسباب والتوكل ؛ فيقول كلمته الخالدة : من كان تاركا
 للأسباب دار الفلك بنصيب غيره ولم يحصل له شيء .

يقول الشعرانى : وسألته ما آفة العقل ؟ . فقال : الحذر . فقلت له :
 فما آفة الإسلام والايمان . فقال : العلل . فقلت فما آفة العمل . قال : الملل .
 فقلت فما آفة العلم . قال الدعوى . فقلت فما آفة الحال . قال : الأمن :
 فقلت فما آفة العارف . قال : الظهور . فقلت فما آفة التواضع . فقال : الذلة
 لغير الله . فقلت له : فما آفة الصبر . فقال : الشكوى لغير الله . فقلت له :
 فما آفة التسليم . فقال : التفريط فى أوامر الله ونواهيه . فقلت فما آفة الغنى
 فقال : الطمع فى أن يكون كل شيء له . فقلت : فما آفة العز . قال : البطر .
 فقلت : فما آفة الكرم . قال : السرف . فقلت : فما آفة البطالة . قال : الفقر
 من الأعمال فى الدارين . فقلت : فما آفة الكشف . قال : التكلم به . فقلت :
 فما آفة الاتباع للسنة . فقال التأويل للآيات والاختبار . فقلت : فما آفة الأدب

فقال التفسير . فقلت : فما آفة المرید . قال : التسلل على مقامات الرجال من غير سلوك طريقهم . قلت : فما آفة الفتح . قال : الالتفات الى غير الله . فقلت : فما آفة السالك . فقال : الوهم . فقلت : فما آفة الدنيا . فقال : شدة الطلب لها . فقلت : فما آفة الآخرة . قال : الاعراض عن أعمالها التي يكون منها بناء دورها وقصورها ونعيمها .

فقلت : فما آفة الكرامات . قال : الاستدراج . فقلت : فما آفة الداعي الى خير . فقال : حب الرياسة . قلت : فما آفة التقليد . فقال : الوسوسة . فقلت : فما آفة رؤية النقص في الأعمال . فقال : قلة الشكر لله .

ويقول الشعراني وسمعتة يقول : عليكم بتطهير باطنكم من الغل والحسد والحرص ونحو ذلك فان الملك لا يرضى ان يسكن بجواركم وانتم على هذا الحال . فكيف الحق تعالى !

وسمعتة يقول لقارىء . وكان ذلك القارىء من العارفين : اقرأ القرآن من حيث هو كلام الله . لا من حيث ما تدل عليه الآيات من الأحكام والقصص ، فانها هي الران على قلبك والحجاب . فقلت له : وكيف ! فقال رضى الله عنه : المراد بتدبر القرآن الذي أمرك الله به . ان يجتمع تدبرك على صاحب الكلام ، وأما تدبر الأحكام والقصص فانه مفرقات فآية تذهب بك الى الجنة فتشهد ما فيها . وآية تذهب بك الى النار فتشهد ما فيها . فيحجبك ذلك الشهود عن الحق تعالى . فرجع تدبرك الى شهود الأركان الدنيوية أو الأخروية . ومن كان مع الكون لم يحظ بشهود الكون .

وبعد .. فذلك لون من المعرفة الصوفية العالية . فيه هدى ونور . وذوق وتذوق لمن ألقى السمع وعين قلبه مبصرة .

ولقد وصف القشيري « الصوفية » وأحوالهم ومعارفهم . فقال في مقدمة رسالته القيمة مانصه : فقد جعل الله هذه الطائفة صنوة أوليائه . فأنزلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم . فجعل قلوبهم معادن أسرار . واختصهم من بين الأمة بطوائع أسرار . فهم العيون للخلق ، والدائرون في عمود أحوالهم مع الحق بالحق . مسفاهم من كده رات

البشرية . ورقاهم الى مجال المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية .
 ووقفهم للقيام بأداب العبودية . وأشهدهم مجارى أحكام الربوبية . فقاموا
 بأداء ما عليهم من واجبات التكليف ، وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التقلب
 والتصريف . ثم رجعوا الى الله سبحانه وتعالى بصدق الافتقار . ونعت
 الانكسار . ولم يتكلموا على ما حصل منهم من الأعمال أو صفاتهم من الأحوال
 علما بأنه جل وعلا يفعل ما يريد . ويختار من يشاء من العبيد . لا يحكم عليه
 خالق . ولا يتوجه عليه لمخلوق حق . ثوابه ابتداء فضل وعذابه حكم بعدل
 وأمره قضاء فصل (١) .

فها هنا بيان رائع لما اشتملت عليه فلسفة الصوفية من عناصر انسانية
 تتمثل فى تصفية قلوب أصحابها من كدورات البشرية . وفى قيامهم بأداب
 العبودية . وأدائهم لواجبات التكليف . وخضوعهم لما يجريه الله عليهم من
 أحكام التصريف . وفى تحققهم بالإيمان بالله والافتقار اليه . والانكسار بين
 يديه . هذا من ناحية . وهاهنا من ناحية أخرى اجمال واضح لما انطوت عليه
 هذه الفلسفة الصوفية من المعانى الالهية التى تنكشف من خلال ما يسأله الله به
 قلوب الصوفية من أسرار وأنوار . وما يتجلى لهم من مجارى أحكام الربوبية
 التى قضى بها الله وقدرها على عباده . فكان ثوابه فضلا . وكان عذابه عدلا ،
 فكل ذلك وكثير غيره مما فاضت به وأفاضت فيه كتب الطبقات التى كتبت عن
 الصوفية وطريقهم . وآثار الصوفية المتقدمين أنفسهم ممن ضربنا ببعضهم
 الأمثال فيما سبق . وكله يدل على أن الصوفية حين عكفوا على النفس
 الانسانية مجاهدين . أو حين كتبوا عنها محللين . أو حين درجوا من معرفتهم
 لأنفسهم الى معرفتهم الله . أو حين وصفوا صلة النفس الانسانية بالله الذى
 أبدعها من ناحية وبالبدن الذى تحيا فيه فتدبره وتؤثر فيه وتتأثر به من ناحية
 ثانية وبالعالم العلوى الذى هبطت منه . وبالعالم السفلى الذى تفرق فيه أو
 تتخلص منه من ناحية ثالثة . لم يكونوا فى هذا كله الا أصحاب فلسفة
 انسانية والهيبة وكونية .

الاسئلة المفسرية من ٢

ولكى يتبين مبلغ ما وفق اليه الصوفية المسلمون في فلسفتهم الروحية الذوقية تلك : فلا بد من أن نقف معهم عند أقوالهم وأحوالهم وعلومهم وأعمالهم . وعند آرائهم ومذاهبهم فيما يتعلق بالنفسيات والأخلاقيات والالهيات والكونيات حتى يتبين لنا من خلال هذا كله الى أى حد وعلى أى وجهة يصدق القول على التصوف الاسلامى بأنه هو الفلسفة الروحية الاسلامية الخالصة التى تستطيع أن تواجه فلسفة كل من الكندى والفارابى وابن سينا وابن باجه وابن طفيل وابن رشد وغيرهم من المشائين أو الافلاطونيين المسلمين الذين تأثروا بارسطوطاليس تارة . و افلاطون من فلاسفة اليونان أطوارا . وهناك نستطيع أن نقول فى غير ما تردد أو تحفظ : ان التصوف الاسلامى بهذا الاعتبار الفلسفى . وعلى هذا الوجه الروحى الذوقى . وبما استند اليه من تنزيل الهى وحديث نبوى . هو المرآة الصادقة التى يتجلى على صفحتها الروح الاسلامى .

ومن هنا أيضا يمكن أن يقال : ان التصوف الاسلامى باعتبار فلسفة روحية اسلامية خالصة انما هو فى حقيقته . وفى جملته وتفصيله . فلسفة نفسية وأخلاقية موضوعها النفس الانسانية والأخلاق الفردية والاجتماعية . وفلسفة الهية موضوعها الذات العلية . وفلسفة كونية موضوعها الطبيعة الكونية .

وإذا كانت الناحية النفسية أو الأخلاقية أو الكونية هى الغاية على هذا الصوفى أو ذلك من الصوفية المتقدمين فإن هذه النواحي كلها بدأت فى اطار واحد . وخرج منها نسق منسق الأجزاء عند الصوفية المتأخرين وكان هؤلاء الصوفية المتأخرون من القدرة البارعة والبراعة الفائقة بحيث استطاعوا أن يفلسفوا هذه العناصر كلها . وأن يظنوا عليها من الفلسفة اثوابا تتفاوت ألوانها بتفاوت حظوظهم من القدرة على التفلسف الى جانب قدرتهم على التخلق والتذوق والتحقق .

ولعل « محيى الدين بن عربى » وهو من أوفى سمواته . قد أظهرنا على الائتلاف بالعناصر الالهية والانسانية والكونية واتساقها فى مذهبه الصوفى الفلسفى فى كثير من مصنفااته . وفى مواطن عديدة

من هذه المصنفات •• وحسبنا أن ثبت من هذه المواطن في تلك المصنفات ما صور به مذهبه في كتابه «التدبيرات الالهية في اصلاح المملكة الانسانية» الذي يتحدث عنه في كتاب آخر له هو «عنقاء مغرب» •• وذلك اذ يقول : كنا ألفنا كتابا روحانيا . وانشاء ربانيا سميناه «بالتدبيرات الالهية في اصلاح المملكة الانسانية» تكلمنا فيه على أن الانسان عالم صغير مسلوخ عن العالم الكبير . فكل ما ظهر في الكون الأكبر ، فهو في هذا العين الأصغر ولم أتكلم في تلك الأوراق على مضاهاة الانسان بالعالم على الاطلاق ، ولكن على ما يقابله من جهة الخلافة والتدبير . وبينت ما هو الكتاب والوزير والقاضي العادل والأمناء • والعاملون على الصدقات والسفراء • والسبب الذي جعل الحرب بين العقل والهدى ورتبت فيه مقابلة الأعداء • ومتى يكون اللقاء . ونصرته نصرا مؤزرا . وكوته أميرا مدبرا . وأنشأت الملك . وأقتت ببعض عالم الحياة وبيعضهم الهلك . وكمل الغرض . وأمن من كان في قلبه مرض ، فليس غرضي في كل ما أضيف في مثل هذا الفن • معرفة ما ظهر في الكون • وانما الغرض معرفة ما وجد • : في هذا العيز الانساني . والشخص الآدمي . فحقق نظرك أيها العاقل . وتنبه أيها العاقل . هل ينفعني في الآخرة كون السلطان عادلا أو جائرا . أو عالما أو جاهلا ؟ . لا والله يا أخي حتى أنظر ذلك السلطان مني والى . وأجعل عقلي اماما على • وأطلب منه الآداب الشرعية في باطنى وظاهري • وأبايعه على اصلاح أولى وأخرى . فمتى لم تجعل هذا نظري هلكت . ومتى أعرضت عن الاشتغال بالناس تسكنت من نجاتي وتسلكت • اذ قد قال - صلى الله عليه وسلم - يخاطب جميع أمته : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فقد أثبت - صلى الله عليه وسلم - الامامة لكل انسان في نفسه • وجعله مطلوبا بالحق في عالم غيبه وحسه • فمتى ذكرت في كتابي هذا أو في غيره • حادثا من حوادث الأكوان • فاننا غرضي أن أثبت في سماع السامع وأقابله بثله في لانسان . فنصرف النظر فيه الى ذاتنا ، التي هي سبيل نجاتنا فأشيعه بكلية في هذه النشأة الانسانية . على حسب ما يعطيه المقام اما جسمانية واما روحانية فايالك أن تتوهم أيها الأخ الشقيو

أن غرضي من كتبي كلها الكلام فيما خرج عن ذاتي • من غير أن تلحظ فيه
سبيل نجاتي •

فما أبالي اذا نفسى تساعدنى على النجاة بسن قد فاز أو هلكا
فانظر الى ملكك الأدنى اليك تجد فى كل شخص على أجزائه ملكا
وزنه بانعدل شرعا كل آونة واسلك به خلفه من حيث ما سلكا
بلا تكن ماردا تسعى لمفسدة فى ملك ذاتك لكن فيه كن ملكا

فليتأمل ولى هذا الكتاب • فانى أذكر الأمر من العالم الكبير وأجعله
كالقشر • واجعل ما يقابله من الانسان كاللباب (١)

وفى حديث محيى الدين بن عربى فلسفة روحية عليا : اتخذت
نقطتها الأولى من الذات الانسانية التى بدت منها • وما فتئت تدور
حولها حتى استوعبت كل ما هو منها ولها وعليها ، وفى هذا ما فيه من
المعانى النفسية والأخلاقية والشرعية • ثم أخذت تقابل بين ما فى هذه الذات
الانسانية من حيث هى عالم صغير • وبين الطبيعة الكونية من حيث هى
عالم كبير • وفيما بين هذين العالمين اللذين يعد أحدهما صغير والآخر أكبر
يهيمن الملك الأعظم • والمدبر الأكبر • وهو الله عز وجل الذى عنه يصدر
كل شىء واليه يرجع أمر كل شىء •

والتصوف الاسلامى يعتبر تجربة من أخصب التجارب النفسية
والوجدانية التى أمدت أدبنا العربى شعره ونثره على السواء بسادة خصبة •
وأغنت جوانبه بذلك اللون المستع الذى يشرق بصفاء النفس الانسانية حينما
تحطم أغلال الجسد وتتححرر من عبودية المادة • وتتسامى الى عالمها الأمثل
الذى يشرق بأقباس الحق والظهور والجمال ..

والتصوف الاسلامى بمفهومه العلى الدقيق لم يظهر الا فى أواخر
القرن الثانى الهجرى • بل لم تتحدد معالمه واضعه فاهرة نفسية والادب
أسس أخلاقية وفلسفية الا فى القرن الثالث الهجرى حيث وضعت ملامح
التفاعل الثقافى بين العرب وغيرهم •

ولقد سبق التصوف الاسلامى قبل أن يصل الى هذه الصورة

(١) صفاء مغرب صفحة ٤ - ٧

بألوان أخرى من الحياة الروحية • تمثلت في وجود المتعبدين والزهاد الذين مهدوا الطريق أمام الحركة الصوفية المنظمة التي نضجت ابان القرن الثالث على يد ذى النون المصرى والحسين الحلاج • ثم بلغت تمام نضجها فى القرون اللاحقة على يد الغزالي ومحيى الدين بن عربى وعمر بن الفارص وغيرهم •

ولقد عنى القرنان الأول والثانى من الهجرة بألوان مختلفة من الأدب الدينى الذى كان يمثل النزعات الدينية عند هؤلاء المتعبدين والزهاد • ولكن هذا الأدب فى عمومه كان يقوم على المعانى البسيطة التى تعبر عن وجدان دينى يرهب الله ويخشاه • ويزهد فى الدنيا • وفى شهواتها الفانية دون أن يتفلسف اتجاهات فلسفية خاصة تكون مذهباً له أصول وقواعد كتلك الاتجاهات التى بنى منها مذهب الصوفية فيما بعد • ومع هذا فأننا نحس لهذا اللون من الأدب بضعف خاص • ونرى فيه انطباعات هذه الحياة الروحية التى أخذت منذ القرن الثانى تستقل فى جوهرها عن الحياة العامة ويتميز أصحابها بانتاجهم الأدبى الذى يدعونه من جلال هذه الحياة التى كانوا يحيونها فى عبادة ونسك وانقطاع الى الله ودعوة الى الدين والاخلاق •

قال الحسن البصرى • وهو من نساك البصرة وزهادها : يا ابن آدم . بع دنياك بأخرتك تربيهما جميعا . ولا تبع آخرتك بدنياك فتخرهما جميعا • يا ابن آدم اذا رأيت الناس فى الخير فناقشهم فيه واذا رأيتهم فى الشر فلا تفيطهم عليه • الثواء هاهنا قليل والبقاء هناك طويل • أمتكم آخر الأمم • وأنتم آخر أمتكم • وقد أسرع بخياركم • فباذا تنتظرون • الا ان هذا الموت قد أضر بالدنيا ففضحها • فلا والله ما وجد ذولب فرحا • فاياكم وهذه السبل المتفرقة التى جساها الضلالة وميعادها النار • أدركت من صدر هذه الأمة قوما كانوا اذ جنهم الليل فقيام على أطرافهم • ينترشون خدورهم • تجرى دموعهم على خدودهم يناجون الهيم فى فكاك رقابهم • اذا غسلوا الحسنه سرتهم وسألوا الله أن يتقبلها منهم واذا غسلوا سيئة ساءتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم • يا ابن آدم ان كان لا يغنيك

ما يكفيك فليس ها هنا شيء يعنيك • وان كان يعنيك ما يكفيك فالقليل
من الدنيا يكفيك •

وقال ابن اذنية • وهو من الشعراء المتزهدين :

لقد علمت وما الاشراف من خلقي ان الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى اليه فيعيني تطلبه ولو جلست لكان الرزق يأتيني
لا خير في طمع يدني لمنقصة وغيره من كفاف العيش يكفيني

وقال أبو العتاهية في تهوين شأن الدنيا :

حياتك أنفاس تعد فكلما مضى نفس منها نقصت به جزءا
يسيتك ما يحييك في كل ساعة ويحدوك حاد ما يريد بك الهزءا
وقال الامام الشافعي في الخوف ورجاء العفو :

فلما قسا قلبي وضائت مذاهبي جعلت رجائي نحو عفوك سلما
تعاضني ذنبي فلما قسرتته بعفوك ربي كان عفوك اعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل تجود وتعفو منة وتكرما

وهكذا نرى أن حياة الزهد والتعبد في القرنين الأول والثاني ومنتصف
الثالث قد صنعت الأدب بذلك اللون الوجداني الذي تشيع فيه معاني
الخوف والرغبة والتهوين من شأن الحياة والتزهيد في متاعها • والتذكير
بالموت والاستعداد لما بعده من حياة باقية لا يشوبها فناء • ولكن هذه
المعاني كانت أقرب الى البساطة • فهي تعبر تعبيرا مباشرا عن عاطفة دينية
واضحة لم تشبها بعد نزعات فلسفية عتيقة • فاذا ما انتقلنا الى القرن
الثالث • وجدنا الزهد يتطور الى مذهب فلسفي أخلاقي هو التصوف •
ووجدنا هذا المذهب يضمن لوانا أخرى من التأثير على الحياة الأدبية تتشكّل
في تلك الموضوعات الجديدة التي تشكل منها هذا المذهب كالحب الالهي
ومقامات الكشف والفناء والاتحاد وما اليها ثم فيسب ترتب على هذه
الموضوعات من مناهج جديدة في التعبير •

ولقد أثر التصوف في الأدب من ناحية شكله • نراه فناء • التعابير
الخاصة التي كانت تعتبر قاموسا للمتصوفة • حدهم هي اللغة السهلة

بحياتهم ومذاهبهم . وأدق تعبيراً عن معانيهم النفسية والوجدانية التي كانوا يفعلون بها . فسن هذه الألفاظ مثلاً : علم اليقين • حق اليقين • عين اليقين • المحو • الذوق • الصحو • المرید • المراد • السالك • المسافر • المقام • الحال • القطب • القبض • البسط • السكر • جمع الجمع • الوجود • الوجد • التواجد • الانس • الى آخر هذه الألفاظ والمصطلحات الكثيرة التي كان لكل لفظ أو مصطلح منها دلالة على حالة من حالاتهم النفسية والوجدانية .

ومن ناحية مضمونه • فقد كانت موضوعات الأدب الصوفي داعياً قوياً لاستحداث أسلوب تعبيرى جديد لم يكن معروفاً من قبل ذلك هو الأسلوب الرمزي الذي يقوم على استخدام المجالات الحسية في التعبير عن المجالات الروحية والمعاني الوجدانية فهم يستخدمون مجال الغزل البشري للتعبير عن حبهم الالهي ويستخدمون مجال الخمریات للتعبير عن سكرهم بالوجد والتفاني في الذات الواحدة •

ومن ذلك الأسلوب الرمزي قول أبي سعيد الخراز الصوفي :

أسألكم عنها فهل من مخبر فسألى بنعم مذ نأت دارها علم
فلو كنت أدري أين خيم أهلها وأى بلاد الله اذ ظعنوا أموا
اذن لسلكنا مسلك الريح خلفها ولو أصبحت نعم ومن دونها النجم
فهو يرمز بالسؤال عن محبوبته « نعم » وعن رحلته وراءها الى
التعلق بذات الله وحده وأن لا شيء سواه •

وابن الفارض في خمرياته الالهية يعطى مثلاً رائعا لذلك الأسلوب •
حيث يقول :

شربنا على ذكر الجيب مدامة
سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم
يقولون لي صفها فانت بوصفها
عليم . أجل . عندي بأوصافها علم

فابن الفارض هنا يتغنى بخمرة خاصة . يعرف نشوتها ويحس لذتها هو وحده . وهذه الأبيات وأمثالها صورة رائعة من الشعر الصوفي الذي يتسم بصدق العاطفة وخصوبة الخيال والقدرة على التصوير .
وهذه العناصر شغلت جانبا مهما من الأدب الصوفي . وأكثر المتصوفة من ابرازها والتعبير عنها . ففي مقام الفناء ، وهو الشعور بفناء الذات البشرية في الذات الالهية . يقول أحد الصوفية :

عجبت منك ومنى أغنيتني بك عنى
أدنتني منك حتى ظننت أنك أنى

ولم يقف أثر التصوف في الأدب عند هذه الجوانب التي ذكرنا . بل لقد كان التصوف قوة دفعت كثيرا من الظواهر الأدبية الى الوجود كفن المدائح النبوية الذي هو صدى لنظرية الحقيقة المحمدية . وفن المناجاة الذي يقوم على التعلق بالذات الالهية . وكذلك الأدعية والأوراد والحكم والنوصايا والنصائح وأدب الأخلاق وما الى ذلك من الاتجاهات الأدبية الصافية . التي عكست على الشعور الانساني قوة تسويبه الى عالم الحق والكمال .

وهذا دعاء من أدعية ابي حيان التوحيدي : اللهم انى أبرأ من الثقة الا بك . ومن الأمل الا فيك . ومن التسليم الا لك . ومن التفويض الا اليك . ومن التوكل الا عليك . ومن التلب الا منك . ومن الرضا الا عنك . ومن الذل الا فى طاعتك . ومن الصبر الا على بلائك . اللهم تتابع برك . واتصل خيرك . وعظم رفقك . وتنهى احسانك . وصدق وعدك . وبر قسمك . وعمت فوائسلك . وامتت نوافلك . ولم تبق حجة الا وقد قضيتها أو تكفلت بقضائها . فاختم ذلك كله بالرضا والمغفرة . انت أهل ذلك والقادر عليه .

ومن ديوان العلاج فى معراج السلوك . حيث سار غيبا من ان ما سوى الله سبحانه . وتظهرت روحه وبرئت من كل ما لا ينسب اليه جل جلاله ، فصار فى حال فناء كامل عن وجود سوى . وشهود سوى . وعبادة سوى . فلم يصبر على ما شاهد من جبال وجمال فهتف :

والله ما طلعت شمس ولا غربت الا وحبك مقرون بأنفاسي
 ولا خلوت الى قوم أحدثهم الا وأنت حديثي بين جلاسي
 ولا همست بشرب الماء من عطش الا رأيت خيالا منك في الكاس
 ولو قدرت على الاتيان جئتكم سعيا على الوجه أو مشيا على الرأس
 مالي وللناس اذ يرمونني سفها ديني لنفسي ودين الناس للناس

روى أبو هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قوله : من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه . ومن لم يحب لقاء الله لم يحب الله لقاءه . وورد في الحديث القدسي أن الله تعالى يقول : ولا يزال العبد يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه . فاذا أحبته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به .. الخ .

وقد كانت رابعة العدوية أسبق الصوفية الذين أشاعوا استعمال لفظ الحب في الاسلام . وكانت رابعة العدوية تعبد الله تعالى لا خوفا من ناره . ولا طمعا في ثوابه . وانما محبة لذاته . واستمتاعا بمطالعة جماله الأزلي على نحو ما يستفاد من قولها في مناجاتها : الهى اذا كنت أعبدك رهبة من النار فاحرقني بنار جهنم . واذا كنت أعبدك رغبة في الجنة فاحرمني منها . وأما اذا كنت أعبدك من أجل محبتك فلا تحرمني يا الهى من جمالك الأزلى .

ولرابعة العدوية أبيات في الحب الالهى مشهورة بينت فيها أقسام الحب على نحو ما يتبين من قولها مناجية الله سبحانه وتعالى :

احبك حين . حب الهوى وحبنا لأنك أهل لذاكا
 فأما الذى هو حب الهوى فشغلى بذكرك عن سواكا
 وأما الذى أنت أهل له فكشفك لى الحجب حتى أراكا
 فلا الحسد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

وكان الحارث المحاسبى من الصوفية الأوائل الذين تكلموا فى المحبة فيشرح لنا المحبة من الناحية النفسية قائلا : المحبة ميلك الى الشئ بكليتك . ثم اشارك له على نفسك وروحك ومالك . ثم موافقتك له سرا وجهرا . ثم علمك بتقصيرك فى حبه .

وأبرز شعراء الحب الالهي في تاريخ التصوف الشاعر الصوفي المصري
شرف الدين عمر بن الفارض الذي كانت حياته فياضة بالحب وخاضعة
للوجد . فاستمع اليه قائلا :

ان الغرام هو الحياة فمت به صبا فحقتك أن تموت وتعذرا
قل للذين تقدموا قبلي ومن بعدى ومن أضحى لأشجاني يرى
عنى خذوا ، بي اقتدوا ولي اسعوا
وتحدثوا بصباتي بين الوري

وله أيضا :

نسخت بحبي آية العشق من قلبي فأهل الهوى جندي وحكمي على الكل
وكل فتى يهوى فاني امامه واني برىء من فتى سامع العذل
ولي في الهوى علم تجل صفاته ومن لم يفقهه الهوى فهو في جهل
وهو القائل أيضا :

كل من في حساك يهواك لكن أنا وحدي لكل من في حساكا
يحشر العاشقون تحت لوائى وجييع الملاح تحت لوائك
وحذر كثير من الصوفية السالك من الانطلاق في المحبة مع هود كـ
حذروه من اساءة الأدب :

وقد كان الشاذلية من الصوفية يفضلون مقام الرضا على مقام المحبة .
فالمحبة عند ابن عطاء الله السكندري مثلا . وهو من أكسة الشاذلية . من
أجل مقامات اليقين . ولكنه لا يعتبرها أكسل المقامات التي يتحقق بها
السالك في طريقه الى الله اذ يفضل عليها مقام الرضا . وذلك لأن الراضى
متجرد عن حظوظ نفسه وعن طلب هذه الحظوظ لها ونستوى عنده جيب
الأحوال الواردة عليه من الوصل والقطع أو القرب والبعد . فانه لا يفرق
جميعها . ولا كذلك المحب فهو يريد دوام الوصلة وشهود ما يريد .
ما يريد لنفسه . وبذلك يكون مقامه دون مقام الرضا . ومن هذا قول ابن
عطاء الله السالك : اعلم أن المحبة هي من أجل مقامات اليقين حتى يختلف
أهل الله أيها أتم ، مقام المحبة أم مقام الرضا ؟ وان كان الذي نقول به أن

مقام الرضا أتم لأن المحبة ربما حكم سلطانها على المحب وقوى عليه وجود الشغف فأداه ذلك الى طلب ما لا يليق بسقامه • ألا ترى أن المحب يريد دوام شهود الحبيب • والراضى عن الله راض عنه أشهده أم حجه ! • المحب يحب دوام الوصلة والراضى عن الله راض عنه وصله أم قطعه • ليس هو مع ما يريد لنفسه بل انما هو ما يريد الله له والمحب طالب لدوام مراسلة الحبيب والراضى لا طلب له ولنا فى هذا المعنى شعر :

وكنت قديما أطلب الوصل منهم فلما أتانى العلم وارتفع الجهل
تيقنت أن العبد لا طلب له فان قربوا فضل وان بعدوا عدل
وان ظهروا لم يظهروا غير وصفهم وان ستروا فالستر من أجلهم يحلو

وابن عطاء الله حين يجعل مقام الرضا أكمل من مقام المحبة يخالف « الغزالي » الذى يجعل المحبة أكمل المقامات وأعلاها شأنًا ويعتبر الرضا مجرد ثمرة من ثمراتها على نحو ما يستفاد من قوله فى الاحياء : المحبة لله هى الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات • فما بعد ادراك المحبة مقام الا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والأنس والرضا وأخواتها • ولا قبل المحبة مقام الا وهو مقدمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها .. ومن قول محبى الدين بن عربى :

ذبت اشتياقا ووجدنا فى محبتكم فآه من طول شوقى آه من كمدى
يدى وضعت على قلبى مخافة أن ينشق صدرى لما خانتى جلدى
ما زال يرفعها طورا ويخفضها حتى وضعت يدى الأخرى تشد يدى

وهكذا نرى المحبون يضحون فى محبة الله بكل غال ، ويرونه ثنا زهيدا ولا عجب فى ذلك فقد عظم الخالق فى أنفسهم فصغر ما دونه فى أعينهم •

ويقول الامام الصوفى الكبير سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : لن يصل العبد الى الله تعالى ومعه شهوة من شهواته ، أو مشيئة من مشيئاته . ولن يقتل هوى نفسه حتى يأخذها بالقوة وشدة المجاهدة

الى أن يذللها تذليلا ويروضها على نسيان ذاتها فيقف عند حد الذل الى الله تعالى .

ويقول سلطان العاشقين سيدى عمر بن الفارض رضى الله عنه :
وعن مذهبي في الحب ما لى مذهب وان ملت يوما عنه فارقت ملتي
ولو خطرت لى فى سواك ارادة على خاطرى سهوا قضيت بردتى
وقال بعض الصديقين :

سألت ربى : بأى شىء أصل اليك يارب ؟ فقال : اترك نفسك وتعال .
ويقول سيدى أبو الحسن الشاذلى فى كيفية التدرج فى السلوك
الى الله : أول منزل يطؤه المحب للترقى منه الى العلا .. النفس فاذا اشتغل
بسياستها ورياضتها الى أن انتهى الى معرفتها وتحققها أشرقت عليه الأنوار
المنزل الثانى وهو القلب . فاذا اشتغل بسياسته حتى عرفه ولم يبق عليه
منه شىء أشرقت عليه أنوار المنزل الثالث وهو الروح .. فاذا اشتغل
بسياسته وتمت له المعرفة هبت عليه أنوار اليقين شيئا فشيئا الى تمام نهاياته
وهذه طريق العامة ، وأما طريق الخاصة فهى طريق مسلوكة تضسحل العتول
فى أقل القليل من شرحها ..

ويقول العارف بالله الشيخ على عقل رضى الله عنه :
نحن فى عالم اليقين رجال
وشراب الرجال علم وحلم
فتح الباب ثم قال لجسوه
وقال أبو سعيد الخراز . تهت فى البادية مرة فكنت قول :
أتية فلا أدري من التيه من أنا
أتية على جن البلاد وانسها
قال فسمعت هاتفا يقول :

أيا من يرى الأسباب تعلم وجوده
فلو كنت من أهل الوجود حقيقة
وكنت بلا حال مع الله واقفا
ويشرح بالتيه الذى مره
نعت عن الأكرام والعاشق والمارس
تصان عن التذكار العجيب والانس

وما أروع ما يقوله العارف بالله الشيخ على عقل رضي الله عنه :
 قتلت هوى نفسى فعشت بلا نفسى وجافيت انسى فأنحدرت الى الانس
 وما اتخذت روحى سوى الله غاية فتم الهوى للروح والقلب والحس
 وهل غير ذات الله للنفس مطلب حرام سوى الرحمن يدخل فى نفسى

قال « ذو النون » وفى يده الغل وفى رجله القيد ، وهو يساق الى
 المطبق • والناس يكون من حوله • وهو يقول : هذا من مواهب الله تعالى ،
 ومن عطاياها • وكل فعاله عذب حسن طيب • ثم أنشد من الخفيف :

لك من قلبى المكان المصون كل لوم على فيك يهون
 لك عزم بأن أكون قتيلا فيك والصبر عنك ما لا يكون

ولا يفوتنا قبل أن نختم هذا الفصل من التصوف — ذلك المنبع الذى
 لا ينضب والذى اذا أردنا الأسهاب فيه لكتبنا المجلدات الضخمة الكثيرة —
 أن نذكر بعضا مما جاء فى الكلمة الضافية عن التصوف والمتصوفين لسيادة
 الأستاذ « صلاح الدين السلجوقى » سفير أفغانستان والتي نشرت فى مجلة
 الاسلام والتصوف بعددها الرابع عام ١٩٦٠ . يقول :

يقول « شوبن هارو : ان الانسان حيوان ميتافيزيقى . ولا شك فى أن
 الانسان حينما أشرقت عليه شمس الشعور ، بدأ يتخيل ويتفكر فى العالم
 الالهي . فحينما كشف الانسان عقليا أن هنالك مبدأ للكون أزليا وأبديا
 ومجردا . كان هذا الكشف فكرة فلسفية محضة عارية من النزعات . وخالية
 من العواطف • مثلما كشف الانسان البخار والبرق والذرة • ولما كشف
 أن هذا المبدأ هو منشؤه ومصيره أيضا وأنه — أى الانسان — مسئول
 أمامه أحس فى نفسه خوفا وطبعا وكان ذلك بداية الدين عند الانسان
 وحينما نظر نظرة أعمق الى التكون • رأى أن هناك نظاما طبيعيا تعم
 الكائنات كافة . بل هناك نظم يسكنه أن يقرأها بسهولة ونظم تلائم شعوره •
 ونظم قريبة اليه • كان هو بنفسه ألفها ودونها • وحينما يعرج من سطح
 الطبيعة الى عالم الشعور والتبيز والارادة . يرى أن هناك نظاما أدبيا
 ينعكس فى مشاعره السامية وضميره الانسانى • ويرى أيضا أن هذا النظام
 للأدبى متواز ومتوازن مع النظام الطبيعى • وكما أن النظام الطبيعى يدعو

الى المعادلة والجازية • كذلك النظام الأدبي • يقود الى العدل والحب
وعندما يوقن بالنظام الطبيعي • يفقد نفسه وشخصيته في ذلك النظام ويجعل
ارادته تبعا لهذا النظام المقدر ويتصور وجوده أقل مما يتصور • بجانب
العالم الطبيعي المترامي الأطراف • ويعرف أن كل الأشياء تتبع هذا النظام
طوعا • ولكن حينما يدعن للنظام الأدبي • يجد شخصه ونفسه في مستوى
أعلى من الطبيعة ويشعر باتحاد شعوري مع المبدأ القدسي السرمدى •
ويحسب نفسه مجردا عن المادة خالدا من الموت • ويرى أن هنالك وحدة
شعورية • بين المبدأين وبين النظام • وبين الناس وبين المبدأ والنظام
والكون • وبينه وبين الكل • فهو يحب الكون • ويحب النظام • ويعشق
المبدأ الخير العادل الحي النوراني • الذي هو بقدسيته يبدأ منه كل شيء •
ويعود اليه كل حي • فهذا الشخص هو الصوفي الذي يسير في الكون
بستقضى النظام الطبيعي ويحترم قانون الطبيعة • كما كان الرواقيون يعتقدون
به • ويسلك في الحياة بالنظام الأدبي • ويؤمن بالحق وبالخير وبالعدل •
ويحب الله الذي تجلى في الآفاق والأنفس وجعل من الانسان أحسن مرآة
لجماله وجلاله •

فالمعرفة عند الصوفي ذاتية • ولذلك يسي نفسه سالكا ومسافرا •
يسافر في ذاته • ويطوى المراحل في نفسه • ويجد المنزل الأقصى • والهدف
الأسمي والسعادة العظمى وهو الكمال الذاتي • أعنى التخلق بأخلاق الله
في شخصه المنظم • وفي نفسه المطننة • فهو يعرف الله من نفسه المطننة
والمتحدة شعورا مع الله • ويعرف الكون من الله سبحانه وتعالى عما
يصفون • فلا شر ولا نقص ولا قبح في الكون في نظر الصوفي • لأن الكون
مرآة لجماله وجلاله تعالى •

فالباحث عن العلوم يبحث عن الطبيعة كشيء خارجي عنه أيمن شدة •
ويجلب خيره والفيلسوف يلم بعالم ما وراء الطبيعة بالبصر وما بعد البصر •
بالبصيرة في ذاته • الذي هو العالم الأكبر عنده وكما أن العالم يوجد في
ثوابه • والزاهد يزهد في الدنيا ليقى نفسه من العذاب • فالصوفي يحب الله
لا شيء بل لوجهه تعالى • يقول بعض الأوربيين ان الحب دين الملائكة •

وهذا خطأ ، فدين الملائكة هو الوظيفة ، ودين الانسان هو الحب ، الحب للحب ، والله لله .

وقال سيادته : التصوف ليس كلمة مشتقة من الصوف • ولا من الصفة • كما زعم بعض الكتاب • بل هو كلمة اغريقية معربة من « تيوسوفي Theosophy ومعناه محبة الله أو رفاقة الله •• ونرى ارهاصات تلك الفكرة في بعض أفكار افلاطون . وبعده ترى بأكثر وضوحا في اداء « اسبفزيبوس » ابن اخته ووارث أكاديميته وترى حتى أكثر من ذلك في تأملات الرواقين • ولكن أول ما ظهر التصوف بمظهره الجلي كان في الاسكندرية عند « يونيسيون » (اريوباك) البدني الاسكندري في افلاطونيته الحديثة • وكانت تلك المدرسة في عهد افلاطون بعيدة كل البعد عن التصوف • كان افلاطون يعتقد أن الانسان لا يمكن له أن يتصل مع الله • لا بالحس ولا بالفكر أو الحدس وحتى التخيل الا بنوع من الغيبوبة Exstasy وما كان يدري أنه تعالى أقرب اليه من جبل الوريد • ولكن ما مضى عهد حتى نبع من تلك المدرسة ينبوع صاف من التصوف • « فديونيسبوس » أول صوفي رسمي شرح التنزلات الأربع عند المتصوفين في عالم الاطلاق الى دنيا اليقين •

وبعد ذلك نرى نزعة من التصوف في أفكار أريجنيا « جان سكاتس » و « آجشتينوس » وغيرها من العلماء والرهبان .

وفي الاسلام بعد ما نرى بنص الآية القرآنية : « الله نور السموات والأرض » وبنص الحديث النبوي : ان الله خلق آدم على صورته . نرى في أول مرة أن طفلا ينطق في مهده عن التصوف وله من تأملات القديسة « رابعة العدوية » النابغة التي هي فخر الاسلام وذخر للتصوف والتي ترقد محجوبة عن الناس بجوار سيدي عقبة في منطقة الامام الليثي بالقاهرة قريبة من زميلها المعروف « ذي النون » المصري . قدس الله سره العزيز .

وبعد ذلك نرى تلك الفكرة مبوبة ومفضلة في آثار الشيخ محيي الدين بن عربي .

ولكن التصوف الذي وصل الى ذلك الحد . كان التصوف الأصلي .
أعنى وحدة الوجود Ponthism الذي يقول بأن الوجود واحد والوجود
الحقيقي هو وجود الله . وباقي أنواع وأصناف وأفراد الوجود ظلا ومظهرا
انعكاس له .

فالتصوف في « وحدة الوجود » يقول : الكل هو . أو كما يقول
« مكنزي » : هو الكل هو الله في السموات والأرض .

ولكن بعد زوال الفاطميين . وبعد مخالفة بعض العلماء أمثال العلامة
ابن تيمية قبله وبعده . حدث تدهور في التصوف وبدأ العلماء والمتصوفة
انشاء مكاتب أقرب الى قبول الفقهاء . وكثرت تلك المكاتب وتعددت
المسالك والمشارب ودخلت فيه أشياء كثيرة . وقامت في كل بلد وحى
حلقات . لكل حلقة ميزاتها .

وأما التصوف بمعنى الكلية فعبارة عن « وحدة الوجود » الذي
انقرض حاليا من الغرب ، وتسرب الى المسلمين غير العرب وبخاصة في
الشرق الأوسط . وفي الهند وأكثر العلماء والكتاب والشعراء في تركيا
وأيران وبخارى ولا سيما أفغانستان والهند اعتنقوا هذه الفكرة .

وحتى أبو علي بن سينا في آخر اشارته ، وإمام الغزالي في آخر
حياته ، مالا كثيرا الى تلك الفكرة . وفي القرن السادس للهجرة عمت هذه
النظرية جميع الشرق الاسلامي ، ونرى آلافا أمثال مولانا « جلال الدين
الرومي » والشيخ شبستري وفريد الدين العطار وانجاسي والسادات
والحافظ والعراقي ويبدل يعتنقون هذه الفكرة ، وحتى بعض الفلاسفة أمثال
القاضي مبارك وصدر الدين الشيرازي صبغوا مبادئهم الفلسفية بهذه
الصبغة .

فالقاضي مبارك يشبه الوجود المطلق بالكلية الطبيعي .
الخاقاني الشاعر الكبير في القرن الخامس للهجرة . أي قبل القاضي مبارك
بأكثر من خمسة قرون ، وتسربت هذه الفكرة الى أوروبا في أغلب الظن من
العرب ، ولا سيما في الأندلس موطن الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي .

فسينبوزا الصوفي الكبير ، بل أكبر الصوفية بين فلاسفة الغرب ، كان من أصل أندلسي ، واعتنق تلك الفكرة بأجمل صورة وأعمق نظرة ، فأثاره كانت الملهمة للشعراء أمثال « جوته وهيتي » الألمانين و « ورود زورث » الانجليزى ، كما كانت الملهمة لمثالية الألمان .

يقول بعض الفقهاء ان هذه الفكرة حلولية وتناسخية ، ولكن وحدة الوجود بريئة من الحلول والتناسخ اللذين فى كل منهما تفاوت وانتقال . فى حال أن وحدة الوجود اشعاع وتجل وانعكاس ، فالمنشأ القدسى والنورانى لا يزال يتقد ويشعشع والكائنات الحية وغير الحية تقتبس نور الحياة وحفظ التركيب على حسب استعداداتها من ذلك المركز المشع الفعال الأقدس السرمدى بوحدة فى الوجود واقتران فى الشئون والتعيينات .

فالوجود الحقيقى هو مركز الاذاعة . اذاعة الحياة والشعور فى حال أن جميع الوحدات الآخذة من الكائنات لا تزال تستمد الاشعاع والاذاعة من المركز مع وحدة الروح والاشعاع ولوازمها فى الآخذ والمأخوذ منه . وبعبارة أخرى أن الوجود الحقيقى هو كالشمس ، المنبع الأسمى للنور والاشعاع وانا كالدبذبات الاشعاعية المنبعثة من الشمس .

ووحدة الوجود تختلف تماما عن الوجودية Existentialism التى تنكر الضوء وتقر بالظل وتحل أليقين والتشخيص محل الذات ، وفرق آخر هو أن الصوفى أنانى « Es¹ » بنفسه العليا التى هى متحدة معنويا مع الله ومحبة للغير « Alirurst » باتحاده مع الكون ، ولكن الوجودى بأنانيته الفردية والغرائزية بعيد كل البعد عن الأصل والكون والمجتمع . فوحدة الوجود فكرة قديمة ، وحتى فى اليونان توجد آثارها فى ميداشى الهندية ولا سيما فى Upedidh ابنى شاذر وفى افيستا ، ولكن الشكل الحقيقى والطبيعى لهذه العقيدة وجد أولا بصورة ابتدائية فى اليونان ، وبعناية أجمل فى الاسكندرية عند ديونيوس ، ولكن الاسلام عمدتها بساء أصفى ، ونفض عنها غبار المادية ووشحها بجواهر كريمة من الحب القدسى والساوى والعطف الالهى نحو النكون من العلم العلوى الى السفلى .

ويقول العراقي : ان أول رحيق أراقوه في الكأس استعاروه من عين الساقى لسكيره . يعنى أن ينبوع الحب هو الجمال الكلى ، ومنه انتزع ونشر الحب ، ويقول الجامى : الذى يعشق الوجوه الجسيمة الجذابة ، اذا كان يدرس أو لم يكن يدرس فانه عاشق للجمال الحقيقى .

ويقول عبد القادر بيدل :

التصوف مدرسة فكر فلسفى من أعمق الفلسفة ، يعتقد بوحدة الوجود ، وبعدها اعتنق الاسلام تقدم شوطا أكبر وأعلى فى سماء التنزيه والتوحيد .

والصوفى المسلم يعتقد أن لا اله ولا كائن ولا موجود الا الله المعبود والمحبوب الذى هو أصل الوجود ، وينبوع الحياة ومنشأ الحب الخالد ، وأن الكون هو ظل واشعاع لهذا الشعاع ، الذى هو نور السموات والأرض .

يقول بيدل : ان الوجود اسم لذات متسام ، وان ما سواه وهم . من عالم الخضر « أى الأرض » الى عالم المسيح « أى السماء » .

ويقول « تولاند » : انى آمنت بهذه العقيدة وأيقنت أن هذا الفكر هو الفكر الحقيقى للانسان ، وكثيرون أمثال تولاند يعتقدون تلك العقيدة التى يؤيدها عصر الذرة .

فعصر الذرة الداعى الى الوحدة فى النظام الطبيعى يقتضى منا أن تتبع الخلق الذرى ، أعنى تصوف الوحدة الوجودى التى تدعو الى الوحدة والحب بين الطبيعة وما بعد الطبيعة وما بين الانسان والبشر . والانسان والكون . والانسان والله شعورا ، فالقوة الذرية الفتاكة ينبغى أن تعالج بالأخلاق الذرية المحبة ، أعنى التصوف ، ونزعة التصوف فطرية . فالانسان وقد أدرك عظمة الخلقة التى ظهر فيها ومبلغ ذلك التصوير العجيب . والربانية التى أودعت فيه لم يكن ليفنى بعد هذا العبر القسمة المحددة فى الدنيا بل خلق ليعبر آمادا من السنين ربما تعد بالملايين . لهذا جد فى البحث عن الحياة وأهدافها وغاياتها وطرقها وشك فى قيستها المادية التى تدور دائما

بين الضعف والقوة والحياة والموت والشروق والغروب ، وتسامى الى حياة
أخلد وأبقى ثابتة القيم ، عادلة المقاييس . واصل الانسان الجهد ليصل الى
الحقيقة الثابتة الدائمة التي لا تزول . الى أصل الوجود ومفيض النعم
وبارىء النسم وواهب الاشراقات الى الله والى مرضاته حيث الفوز الأبدى
في حياة أخرى يتفجر فيها نعيم لا ينضب .

وهذا الصراع المستعر بين دافع الفطرة ونداء الشيطان الحائم حول
زخرف الحياة وزينة الحطام هو محور التصفية وبوتقة الاختبار فى تنور
الصهر ، بعدها يظهر الانسان زهرة نضرة بل شجرة باسقة أصلها ثابت
وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين من آداب وأخلاق ومثل مع اشراق
الروح وجلاء فى القلب ونور فى الفكر يوصله الى ما فى الكون من عجائب
وسرار وبدائع وآيات كبرى تلك فطرة الانسان ، ولكن : هل يستطيع
أن يتبصر الطريق بلا ذلك وهل يتسكن من الوصول من غير انحراف أو
خطأ ؟ انه لابد من تشريع يرشده الى الحق ويهديه السبيل .

والصلاة التى فرضها الاسلام هى المرقاة الأولى من درج الصعود
الأقدس بل التحرك الأول من الزحف المقدس نحو الكمال ، وكل تارك لها
يعتبر متخلفا فى نظر الاسلام عن ركب الكمال الانسانى .

ثم ارتقى الاسلام بالصلاة درجة بعد درجة وجعل المسلم الصاعد فيها
ينتقل فى الكمال حتى يصل الى منتهاه ويتمتع بسحبة الله ، حينئذ يرى بنور
الله ويسمع بسمع الله ويفضب ويرضى فى الله والله ، ويسخر مصلحته
الشخصية فى المصلحة العامة ولا يقول أنا ولا يغره زخرف الحياة ويوجد
بسا ملكت يداه ، ولا يشغله أهل ولا ولد ولا تنسية مال عن الجهاد فى سبيل
الله ، يقول الحق ولو كان مرا ، ويكره الباطل ولو كان تبرا ، يزداد بعبارته
كل يوم درجة فى الوصول ناشرا النور بين الناس بلسانه وعمله وظاهره
وسره وخلوته وجلوته به يسعد الوطن وتكتل الأمة وتقوى الجبهة وبيجاهده
يتحطم الأعداء .

ومن المعلوم أن الايمان تصديق وتسليم واعتقاد ، وانه ينصب على
أمور غيبية لا تدركها الحواس ، فالله وملائكته وصدق الكتب والرسل من
أمور الغيب التى هى محل للايمان ولا تدركها الحواس .

وبما أن الايمان لا تدركه الحواس ، فانه فى الواقع يعتمد على سلامة القلب وحسن استعداده للتسليم والتصديق ، ولذلك تستهدف الصوفية تربية القلب على السلامة وتنقيته مما يمنع تصديقه وتسليمه .

ومن المشاهد أن القلب السليم الفطرة لا يستنع عليه التصديق والتسليم أما القلب الذى تعلق بالأهواء والأطماع والشهوات ، فهو محجوب عن الايمان بالله .

ولذلك فقد كانت أولى الطرق العسلية التى يعنى بها التصوف هى تنقية القلب من هذه الحجب ، واخراج ما سوى الله منه . فاذا تنقى القلب من هذه الحجب وعن ما سوى الله . عدت الصوفية الى توجيه المرید الى الطريقة السليمة المثلى التى يشق بها طريقه فى الحياة بما يرضى الله . وارشاده الى أفضل المثل وأرقاها . وما كان الانسان بطبيعته محدودا عن التجريد والاطلاق لا يفهم المثاليات المجردة والمعنويات المطلقة . فان الطريقة العسلية التى تنتهجها الصوفية فى ذلك هى توجيه الناس الى أسوة محددة ونموذج واضح حتى ينتقلوا من المحسوس المطلق الى المطلق المجرد . وقد اقتضى الدين فى ذلك أن نتخذ رسول الله أسوة حسنة . ومن لم ير رسول الله فلا أقل من أن يبدأ بالاقداء بسن بقتدى بالرسول . حتى يستطيع أن يتدرج من ذلك الى الاقتداء بالرسول نفسه . ومن ذلك الى تعشق المثل العليا فى ذاتها وعباداتها لجمالها . وكسالها على اطلاقها . وهذه المثل العليا هى الله سبحانه وتعالى . فالله هو مثل المثل . « والله المثل الأعلى » . فيستقيم به بذلك معرفة الله ومحبته .

والبلوغ الى هذه الغاية العسيرة يتطلب سياسة خاصة للمرید وما يفتح مع بعض الناس قد لا يفلح مع بعضهم الآخر لاختلاف ظروفهم وطبائعهم . ولذلك عنيت الصوفية بأن يتخير المرشد المرید ما يناسبه من الطرق العسلة . وبذلك تعددت مناهجها وطرقها حتى تلائم مختلف الطبائع والظروف .

هذه هى الأصول الثلاثة التى تنهض عليها الطرق العسلية للتصوف وهى ملخصة فيما يلى :

الأولى تنقية القلب من الحجب وما سوى الله .

ومن المعلوم أن الحجب ثلاثة :

١ - الأهواء والشهوات .

٢ - الأطماع وحب المال .

٣ - اعجاب الانسان بنفسه والكبرياء فما دام القلب مشغولا

بأحد هذه الحجب - وهو لا بد كذلك - فان الطريق الى الله لا يكون واضحا ، ويتجه الفكر والقلب دائما الى الانحراف نحو هذه الأهداف للنيل منها .

ولما كان الانسان ينفق جهده ووقته وماله في الغاية التي يعتقدونها . فقد اتفقت كلمة الصوفية على أنه يجب أن يعسل من نوافل الخير، ولكنهم تركوا للمسلم اختيار ما يستحسنه منها وكلها حسن .

وثبت في الصحيح قوله عليه الصلاة والسلام لمن سأله عن الفرائض هل على غيرها ؟ قال عليه الصلاة والسلام : لا الا أن تنطوع .

وسواء استحسنها لنفسه أو استشار ناصحا أميناً فأرشده الى بعضها . وهذا المرشد له أجر الدلالة على الخير ، ولا ينقص من أجر العامل شيء . ولا يزال العبد يتقرب كل يوم فيزداد تقرباً من المولى عز وجل ورعاية لجلاله ومعرفة لكماله ، حتى يصل الى مقام « المحبوبة » وهي المرتبة العليا .

ومرتبة النهاية « حتى أحبه » ، فإذا أحبه الله تولى أمره ، فأحاطه برعايته الخاصة والحفظ الذي وقى به أهل الخصوصية من أوليائه المحبوبين وقوله تعالى في الحديث القدسي : كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ... الخ ، لا يحتاج مسلم في فهمه الى أن يبان الله عز وجل منزّه عن أن يحل في شيء من خلقه لأنه من الأوليات التي لا يصلح الايمان الا بها ، ولكن معناه في الأسلوب العربي أن تظهر آثار عنايته على جوارح العبد نتيجة للنور والفرقان الذي أنار الله به قلبه .

فالبداية التوبة المشروعة في الكتاب والسنة ، والنهاية وعلمناه من لدنا علما وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا . كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين . فيكون وارثا من ورثة أحوال النبيين ، والعلماء

ورثة الأنبياء ، وان الأنبياء لم يورثوا دينارا و لادرهما ، ولكنهم ورثوا العلم ، وأعلى العلم معرفة المحبوبين لربهم عز شأنه .

هذا بيان مجمل لمنازل السير من مقام « يحبونه » الى مقام « يحبهم »
« قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبكم الله » .

وبين رسول الله عليه الصلاة والسلام في حديثه الشريف مقامات الدين:
الاسلام والايان والاحسان ، فسقام الاسلام : ما يختص بالظاهر من النطق بالشهادتين ، الذي يدل على أن العبد مصدق بقلبه بوحدانية الله عز وجل وبكل ما جاء به رسوله محمد عليه الصلاة والسلام : والقيام بالواجبات كلها والانتفاء عن المحرمات كلها .

وأما الايمان : وهو مختص بالقلوب ، أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره .

والاحسان : أن تعبد الله كأنك تراه . فان لم تكن تراه فانه يراك .
ومن العلماء من اشتغل بسقام الاسلام ، وهو تحرير الأحكام الظاهرة من صلاة وصيام وزكاة وحج ومعاملات وحلال وحرام ونحو ذلك وهؤلاء سموا فقهاء .

ومنهم من اشتغل ببيان الايمان الصحيح وجب العقائد الفاسدة والشبه وهؤلاء سموا علماء التوحيد .

والعلماء الذين اشتغلوا بسقام الاحسان . وهو عبادة الله مع حضور القلب وذكر جلاله الله وعظمته والاستدامة على ذلك حتى كأنه يرى ربه عز وجل ، وهذه منزلة تحتاج الى تهذيب وتزكية النفس وترهيب على مراعاة مولاه عز وجل . هؤلاء هم علماء مقام الاحسان الذين سموهم علماء الصالح « الصوفية » ولا بد لأهل الاحسان من أحكام مقام الايمان .
الايمان اذ لا يمكن المرء أن يصل الى درجة عليا الا اذا صدق ما دعه .

قال تعالى : « ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » .

فاذا كان المرء متصفا بعدة نقائص كالجهل والشح والاناية ثم تعلم
فالعلم يرفع منه تقيصة واحدة هي الجهل ، وتبقى النقائص الأخرى تحتاج
الى رياضة وتهذيب ..

ومن أنجح الوسائل فى ذلك الصحبة الصالحة ، كما قال عليه الصلاة
والسلام مثل الجلوس الصالح كصاحب المسك ، ومثل الجلوس لسوء
كناقح الكبر .

وإذا كان المرید معسرا يضيق به الحال ، فلا مجال لادخاله من باب
الشكر لأن حاله يكذب مقاله اذن ولا تتجاوب نفسه مع هذه الطريقة
فيمكن أن يدخل من باب آخر كالرياضة العنيفة من الصيام والتكشف والخلوة
والذكر الكثير ، ولا شك أن ذلك يرضيه ويفرج عن نفسه لأنه بدلا من أن
يكون مكرها على سوء حاله يكون متطوعا له ومنتظرا منه الفائدة .

وهكذا فان لكل طريقة منهاجها وبابها للدخول الى الكمال ، فهى
تتصور بالمرید بما يلائم حاله . وغالبا ما يجرى التوفيق بفعل الله الى أن
يتوجه المرید الى الطريقة المناسبة لشخصيته وهو عادة يسأل عن أصول
الطريقة قبل الالتساء اليها ، فاذا صادفت فى نفسه ارتياحا اتسبى اليها ، وكذلك
إذا وجد المرشد أن نوع شخصية المرید لا تتجاوب مع طريقته فعليه أن يوجهه
الى غيرها . والله معط والرسول قاسم .

ومن القدم والبحث جار وراء الانسان وفيما وراء الطبيعة ، وان عالم
ما وراء الطبيعة غيب ومن الطبيعى أن يوجد له منهج يتلاءم معه ، وهذا
المنهج حدده الاسلام كما حددته الأديان تحديدا لا لبس فيه ، ان معرفة ما
وراء الطبيعة مصدرها الوحي . والوحي ليس حسا ، وليس تفكيرا عقليا .
والناس كما ترى الأديان فريقان : فريق شغلته ظروف عالم المادة ،
ووسيلة هؤلاء الى معرفة الالهيات ، انما هى الخضوع لأهل الحق ، للأنبياء
والرسل ، لكلمة الله التى تشرح الغامض وتوضح الخفى .

أما الفريق الثانى من بنى البشر ، فهم ذوو الحس المرهف والبصيرة
النافذة ، الذين سموا بأنفسهم عن أن تكبلها المادة بأغلالها وقيودها . وهؤلاء

أول ما يبدأون اتباع تعاليم الوحي المرسل ، ثم يأخذون في التقوى والاتجاه الى الله تعالى بكل جوارحهم حتى تصفو نفوسهم وتشف شيئا فشيئا ، فتأخذ في الترقى ، وتصل من منزلة روحية الى منزلة أخرى منها ، حتى تنتهي بتوفيق الله تعالى الى الاطنان التام وترى عالم الغيب رؤية روحية هي أوثق وأكثر من الرؤية البصرية .

وبما أنه لا بد من البدء بأساس صحيح ، وبما أن هذا الأساس لا يتصل الا في القرآن ، وهو النص الصحيح الذي صانه الله تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » فان الطريقة المثلى بل الطريقة الوحيدة للاضطلاع الى هذا العالم الغيبي انما تؤسس على القرآن .

والقرآن اذا ذكر الطريقة التجريبية كمنهج معرفة الطبيعة ، فانه يذكر الطريقة القلبية كمنهج ما وراء الطبيعة ، واذا كان القرآن يعد البصر والسمع مسئولين في الطبيعة فانه يعد القلب مسئولاً فيما وراء الطبيعة : « ان البصر والبصير والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً » .

يقول الدكتور اقبال : ومجال الرياضة المفتوح سبيله للقلب ، غير حقيقى واقعى ككل ضرب من ضرب التوبة ، وليس في وصف رياضة القلب بأنها رياضة روحية أو صوفية أو انها من حوارق الطبيعة ليس في ذلك ما يقلل من شأنها من حيث هي تجربة ، فكل تجربة في نظر الانسان ابتدائية كانت من حوارق الطبيعة ، ولقد نوحنا اليه ضرورات احداث منهج علمي يضع لها تفسيراً تولدت منه بالتدريج « الطبيعة » بالمعنى الذي نستخدمه عليه لهذا اللفظ .

انها تجربة كالتجربة في ميدان الطبيعة ، وهي مثلها منسجمة ، بين الفرق بين التجربة الاسلامية في هذا المحيط ، والتجربة الاشرافية التي لا بد ان التجربة الاسلامية مؤسسة على أساس صحيح شرعى « القرآن » . ومن هنا كان أفلاطون يأسف أحيانا على أنه لم يصل في حياته الى أوثق وأكثر ، أعنى بطريق الوحي والنبوة ، كما يذكر هو . وهذه التجربة نظماً صوفية الاسلام تنفيذياً جديداً وحاسوها احدها بديعا ..

وحيثما تتصل الروح بالملأ الأعلى ، ترى ما لا عين رأت ، وتسمع ما لا أذن سمعت ويخطر على قلبها ما لا يخطر على قلوب البشر .

ويقول فولتير : يجب أن يوجه المرید في بدء حياته الى التضحية بجهدته وماله ووقته في سبيل الله ، حتى يفهم ان هذا السبيل يساوي ماينفق فيه . وبذلك تزيد قيمته ليتعادل على الأقل مع سائر السبل التي اعتاد الانسان أن يوقف نفسه عليها ، وطريقتهم في ذلك أن يكلف بالذكر والخلوة ، وأكل الحلال ، وخدمة الفقراء .

أما الذكر : فهو أن يخصص بعض وقته يكرر فيه اسما من أسماء الله حسب ما يلقيه المرشد له . وقد يكون على انفراد أو في جماعة . ولكن لا بد أن يكون بكثرة في مبدأ الدخول في الطريق حتى يعمر القلب بذكر الله فينتقيه ذلك ما تعج به نفسه من الشوائب . وقد وردت في القرآن آيات كثيرة عن الذكر وعن ضرورة تكراره في العدو والآصال ، أو بكرة وعشيا أو قياما وقعودا وعلى الجنوب ، وغير ذلك ، وان ذكر الله أبلغ من الصلاة « التي تكون بلا وعى » .

وأما الخلوة فهي أيضا ما ورد في القرآن ، اذ كلف الله بعض الأنبياء انقيام بها كقول الله « لذكريا » : « آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام » .. وما كان يقوم به الرسول عليه الصلاة والسلام من الخلوة في حراء، وهي في الواقع كسر لثورة الحياة والانغماس فيها كل حين . فهي كالأجازات التي تستجم فيها الروح والقلب لتعود اليهما حياتهما ووصفاؤهما .

وأما أكل الحلال وخدمة الفقراء فهي كناية عن النفقة في سبيل الله . وقد قيل انه لا سبيل الى الفتوح والابصار بالطريق الى الله مادام الانسان يطعم من الحرام ، ويجب عليه اذا دخل باب التوبة أن يرد المظالم الى أهلها وما اغتصبه وظلم فيه ، وبذلك يحد الانسان من جسعه وانكبابه على المال وعبادته له .

و لا يزال المرید يعالج هذه الوسائل بارشاد شيخه حتى يثبت في قلبه التقدير لله والتبجيل له ، ويصير له فيه موقفا ، فلا يعود مسخرا للاغراض الدنيئة فحسب ، بل تعرف الأغراض العلية سبيلها اليه وبالتدرج وحسب

الاجتهاد ينقى القلب من الشوائب ويخلص لله . وان كان بطبيعة الحال لا تيسر على الاطلاق هذه التنقية الكاملة فهي مستحيلة في العادة .

ثانيا : الأسوة الحسنة : بينا أن الطريقة العملية لتوجيه الفرد توجيهها صالحا ، هي ارشاده الى نموذج مفيد ، يحاول جهده أن يتمثله ويتسرع منهاجه .

وفي ذلك أمر الله المؤمنين بالاقتران بالرسول بقوله : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » ، وقوله : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » .

والقد كان للصوفية في رسول الله عليه الصلاة والسلام أسوة حسنة وقدوة طيبة في حياة الرسالة وقبلها ، فقد عزفت نفسه عن موكب الشباب وزحمة الزخرف ومباهج الحياة وضجة المدنية ولين العيش وطيب المقام وأقبل على الصحراء يقرأ في كتاب الوجود متديرا آية الكون كوحدة كبرى متماسكة مطلقا بصيرته وراء مبدع الكون كحقيقة ثابتة خالدة بها تقوم الحياة ، واستغرق في ذلك حتى قالت قريش : ان « محسدا » قد عشق ربه .. وحتى جاءه الوحي في غار « حراء » فكان الوحي نورا على نور فازداد به روحانية وصفاء . قال يوما لأبي هريرة : « يا أبا هريرة لا أرىك الدنيا جميعها بما فيها ؟ » فقلت : بلى يا رسول الله .

فأخذ بيدي وأتى بي واديا من وادية المدينة فاذا مزبلة فيها رءوس أناس وعذرات وخرق وعظام . ثم قال : يا أبا هريرة هذه الرءوس كانت تحرص كحرصكم . وتأمل كأملككم . ثم هي اليوم عظام بلا جلد . ثم هي صائرة رمادا ، وهذه العذرات هي ألوان أضعفتم . اكتسبوها ثم قذفوها من بطونهم . فأصبحت والناس يتجاهلونها . وهذه الخرق البالية كانت رياشهم ولباسهم فأصبحت والرياح تصفقتها . وهذه العظام عظام دوابهم كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد فسن كان باكيا على الدنيا حينئذ .

وأتى رجل بهدية الى الرسول عليه الصلاة والسلام فذهب يتلذذ وعاء يفرغها فيه فلم يجد . فقال له الرسول : أفرغها في الأرض . ثم أكل

منها . وقال : آكل كما يأكل العبد وأشرب كما يشرب العبد . لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها الكافر شربة ماء .

ودخل عمر بن الخطاب رضى الله عنه على النبي عليه الصلاة والسلام فرآه يضطجع على حصير خشن آثاره على جنبه ، فبكى عمر ، فقال له الرسول : ما يبكيك ؟ قال : انى أرى كسرى وقيصر على الحرير وأراك على هذا الحصير . فغضب الرسول وقال : أتريدها كسروية يا عمر . وقال عليه الصلاة والسلام : مالى وللدنيا انما مثلى كمثل راكب قال فى يوم صائف ثم راح وتركها ، وفى هذا المعترك الخضم من جهاد النفس نحو نوازع الحياة وفى ضلال هذه الروضة الباسية المتضوعة بالأريج والنفحات لم ينس النبي عليه الصلاة والسلام الدنيا ولا العسل لاعلاء شأنها لحسية الأوطان والحقوق والغيرة على الدين ومسامرة موكب العالم المتسدين مع عدم العرور بالبهاء واللهو ببريق الرواء والعزوف عن الظهور والتقدم تحت ستار الخفاء .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تعس عبد الدينار والدرهم ، ضوبى لعبد آخذ بعنان فرسه ان كان فى الساقة فهو فى الساقة وان كان فى المقدمة فهو فى المقدمة . وتروى عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها : انه كان يقوم الليل حتى تتورم قدماه ، فقيل له : لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . فقال : أفلا أكون عبدا شكورا .

وسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام عاطرة بتلك المواقف التى جذبت الرعيل الأول من المسلمين وتعلمهم القرآن جعلهم يسايرون النهضة الروحية والثورة على أوضاع الشرك ورواسب الاستعباد فطهروا أنفسهم من حب المادة وحلقوا فى سماء الروحية الطليق .

ولقد حفظ التاريخ للخليفة الأول أبى بكر الصديق مواقف خالدة ربما يستبدها العقل على بشر مثله ، لكنه التأثير السحرى للقرآن ، فقد كان رضى الله عنه يتعبد لربه حتى لتشم من فمه رائحة الكبد المشوى من خشية الله . وأكل يوما طعاما ثم علم أن فيه شبهة فوضع اصبعه فى فمه ثم أخذ يقىء ما فى جوفه ، وتبرع فى جيش العسرة بجميع ماله وأجاب النبي

عليه الصلاة والسلام بقوله : أبقيت الله ورسوله ، عندما قال له : ماذا أبقيت لأبنائك .

وكان يقول : ما اشتهيت طعاما الا منعت نفسي منه ، فلا يتلف النفوس الا الشهوات .

واستسقى يوما فأتى باناء فيه ماء وعسل فلما أدناه من فيه بكى وأبكى من حوله ، فقالوا : ما هاجك على هذا البكاء . قال : كنت مع النبي عليه الصلاة والسلام وجعل يدفع عنه شيئا ويقول : اليك عنى ، ولم أر معه أحدا ، فقلت : يا رسول الله ما هذا . قال : هي الدنيا تسثلت لى بسا فيها . فقلت اليك عنى فتحت . وقالت : - أى الدنيا - أما والله لئن انفلت منى فلا ينفلت منى من بعدك . فخشيت أن تكون قد لحقتنى فذاك الذى أبكاني .

وكذلك كان الفاروق عمر يلبس الثوب الرقيق من اثنتى عشرة رقعة . ويأكل الخبز دون ادم حتى تغير جلد بطنه ويفترش الأرض وينام على الحصى ويحسل القطران يصلح به ابل الصدقة ويعسل برجليه فى الطين ليعد قطع البناء ، ورأى ابنا له ذات يوم يأكل الثريد باللحم فضربه بالدرة وقال : لا أحرمه ولكنى أمنعه عن نفسى وعن أبنائى فسطاع الفتن فى شهوات الطعام . ولما كان الناس بعد وفاة الرسول لم يشاهدوه عينا فقد لزمهم أن يقتدوا بسن اقتدوا بالرسول . وتشبعت نفوسهم من أصحابه ثم التابعين ثم تابعى التابعين وهكذا .

ويجب أن يلبس هذا الاقتداء ما يغرس محبة الرسول فى قلب المرء حتى يكون اتباعه له محبة و إعجاب فيؤتى شرفه . فلا يكون اقتداءه ببل انطباعا روحيا وتشربا بأمثيا معنوية .

وأهم أسباب تقوية هذه الأسرة هو زيادة الصلاة والالتزام بالرسول والتعظيم لذكراه ، وكل ما يست اليه بصلة كالحرب والقتال بينه ومحبتهم واحترام أولياء الله الذين تشربت قلوبهم بسحبة رسول الله عليه الصلاة والسلام .

ثالثاً : اختلاف المناهج : وقد اقتضى تعدد طباع الناس وتعدد ظروفهم
تعدد مناهج الارشاد ، وطرق التوجيه الصوفى .

فسن الناس من يكون مثلاً فى حالة من الترف والبسط لا يقبل معها
كثرة الرياضة وخشونة العيش ، ولكنه فى الوقت نفسه محتاج الى ذلك .
فيكون طريق ارشاده مثلاً الى توجيهه الى الشكر لله ، فلا يحرم مثل هذا
المريد من المتعة والترف بل على العكس يوضح له ما فى هذه النعم من
موجبات الشكر لله ، ويكون ذلك بأن يؤمر بالتسبيح بأسماء الله التى تفعم
نفسه بالشكر وتشعره بالنعمة كأسماء « الحميد والكريم والمعطى والوهاب
والمنعم والجواد » ونحو ذلك ، حتى اذا فاضت نفسه بالشكر بدأ مرشده
يشعره بخطر حرمانه سبحانه وتعالى من نعمته ، وأن الله هو المانع كما هو
المانع . وانه القابض كما هو الباسط .

ويكلفه التسبيح بأسماء تلقى فى نفسه تقوى الله وتحاشى نعمته عليه
كأسماء « اللطيف ، الرحمن ، الرحيم ، الودود » ، ثم يلقى به فى النهاية
فى مجال العبودية ، بعد أن تشربت نفسه بذلك ويكون تسبيحه مثلاً بأسماء
الملك ، القدوس .

قال « ذو النون المصرى » : من علامات المحب لله عز وجل متابعة
حبيب الله عليه الصلاة والسلام فى أخلاقه وأفعاله وأوامره وسنته .

وقال الحارث المحاسبى : من صحح باطنه بالمراقبة والاخلاص زين الله
ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة .

وقال أبو يزيد البسطامى : لو نظرتم الى رجل أعطى من الكرامات
حتى يرتقى فى الهواء فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر
والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة .

وقد خلف المسلمون الصوفية فى الحب الالهى آثاراً باقية تعد بحق
تراثاً روحياً رائعاً له خطره فى تقويم الحياة الروحية الاسلامية من ناحية
وله أثره فى قلوب المقبلين عليه والذائقين له من ناحية أخرى . ومن هذا
القبيل ما خلفه كل من رابعة العدوية وذى النون المصرى ويحيى بن معاذ

الرازي والحرث بن أسد المحاسبي والحسين بن منصور الحلاج ومجيب الدين بن عربي وشرف الدين عمر بن الفارض وكثير غيرهم ممن روت عنهم كتب الطبقات أقوالا ووصفت لهم في الحب أحوالا وكان لهم في هذا الحب صفحات ونفحات .

وها هي ذى كتب التراجم والطبقات قد حفلت بذكر كثير من القصص والحكايات عن المحبين والمحبات ووصفت لنا أحوالهم في الحب الالهي ، وسجلت أقوالهم التي عبروا بها عن تلك الأحوال فاذا هي في ظاهرها تقص قصة وتحكي حكاية ، وقد تبدو الصنعة ويغلب الخيال على هذه الحكاية أو تلك القصة ، فاذا هي عند أول عهد القارئ بها كلام لا يكاد يصدق العقل لما فيه من اسراف ومبالغة وابعاد في الخيال . ولكن تدبر هذه القصص والحكايات والروية فيما تشتتل عليه كل قصة من معنى وما ترمى إليه كل حكاية من مغزى سيكشف من غير شك عما لهذه القصص والحكايات من خطر وما فيها من غناء . ذلك بأن ما من قصة أو حكاية إلا وفيها معنى نفسي أو مغزى خلقي .

فضلا عما ينبت في تضاعيفها من أقوال منشورة أو أبيات منظومة وكل أولئك في الحقيقة بمثابة المواد الأولية التي لا بد منها لفهم الحياة الروحية للمحبين الالهيين ، ولا غنى عنها لمن يريد أن يكون صورة تاريخية متكاملة لنشأة الحب الالهي وتطوره في التصوف الاسلامي .

وهذه قصة يقصها « ذو النون المصري » عن زهراء الوالدة فيقول :
بينما أنا أضوف في بعض أودية المقدس سمعت قائلا يقول : ياذا الأيادي التي لا تحصى ، وياذا الجود والبقاء . متع بصر قلبي بالجولان في بسابين جبروتك ، واجعل هسي متصلا بجود لفتك يا لطيف . وأنقذني من مساك المتجبرين بجلالك وبهائك يا رؤوف . واجعلني لك في الحالات خادما .
وكن لي يا منور قلبي . ويا غاية طلبتي صاحباً .

قال ذو النون : فتبعته الصوت فاذا امرأة كأنها جود . فقلت : يا منور قلبي . ويا غاية طلبتي صاحباً .
درع سوف وخيار شعر أسود قد أنساها الجهد . وقتلها السد . وذهبا
الحب ، فقلت : السلام عليك .

قالت : عليك السلام ياذا النون .

قلت : كيف عرفت اسمي ولم تريني ؟

قالت : كشف عن سري الحبيب ، فرفع عن قلبي حجاب العمى ، فعرفني

اسمك .

فقلت : ارجعي لمناجاتك .

فقلت : أسألك ياذا البهاء أن تصرف عني شر ما أجد فقد استوحشت

من الحياة .

ثم خرت ميتة ، فبقيت متحيرة . فأقبلت عجوز كالوالهة نظرت ثم

قالت : الحمد لله الذي أكرمها .

ولما سألتها ذو النون عن تكون هذه ، أجابته بقولها : هذه ابنتي

« زهراء » الوالهة منذ عشرين سنة ، توهم الناس أنها مجنونة ، وانما قتلها

الشوق الى ربها تعالى .

ومن القصة يتبين حب الله والشوق اليه والوله فيه والتسبيح بحمده

على آلائه ونعمائه والاستعاذة من المتجربين بجلاله وبهائه ، وهي وأمثالها

من القصص التي لا حصر لها تبين سيات الحياة الروحية الاسلامية بصفة

عامة وعن مقومات الحب الالهي في التصوف الاسلامي بصفة خاصة ، وكلها

مستمدة من الحياة الروحية المحمدية التي أجرى الله بألفاظها وعباراتها أكرم

يد . وأنطق بحقائقها وتألقها أصدق لسان وملاً بعارفها ولطائفها أنور قلب .

فكانت بهذا كله ، كما كانت حياة صاحبها عليه الصلاة والسلام المورد

الأحلى والمنهل الأصفى لكل من أراد أن يحيا ، وأراد أن يظفر بالسعادة

وحسن العقبى ، ولصفحة الحياة الروحية المحمدية وجهان :

١ - وجه قبل البعثة .

٢ - ووجه بعدها .

وهي بوجهها الأول تعد مطلع فجر جديد في تاريخ الحياة الاسلامية

بصفة خاصة ، وهي بوجهها الثاني تعد استمرارا لذلك اللحن الروحي

الرائع الذي بدأ يرتله « محمد » عليه الصلاة والسلام ، لأول مرة في تاريخ

الاسلام وجعل يردده معه ومن بعده المسلمون ، ذلك الترتيل الجميل الذي يهز النفوس ويملأ القلوب ، ويملك القول ويسحو ظلمة الشك وضلالة الشرك وغشاوة المادية بما يشعه ويشيعه في النفوس والقلوب والعقول جميعا ، من نور اليقين ، وهدى الوحدانية واشراف الروحانية .

ولعل أول ما يلاحظه المتأمل في الحياة الروحانية المحمدية قبل البعثة هي تلك الخلوة التي أحبها « محمد » حتى صفت نفسه . صفاء جعلها وجعل من صاحبها أهلا لما أنزل عليه من الوحي ، وما كلف به من الرسالة العظيمة والدعوة الكبرى ، ما هو مبين بكتب السيرة . كانت المنبع الفيض الذي قواعد السلوك وأسس مبادئ الخلق ، وأشرف ألوان المعارف والمطالعة . وهي كذلك المصدر الأول الذي استقى منه الزهاد الأولون والتصوف المتقدمون والمتأخرون . العناصر العلية والعلوية التي هي قوام ما نورد من العلوم الإسلامية باسم التصوف الإسلامي . وهو الاسم الجامع لكل من الزهاد والعباد ، ولأحوال أولئك وأعمالهم . وعلوم هؤلاء ومعارفهم .

وهذا يعنى بعبارة أوضح وأصرح أن تحنث الرسول عليه السلام والسلام في غار حراء يوما ، استتبع ذلك التحنث من زهد وتكشف ومن تفكير ، ومن عكوف على تصفية النفس واعتكاف عن الخلق ، ومن البصيرة وصفاء السريرة . ومن افاضة الرؤيا الصادقة على قلبه . وانحناءه بهبوط الملك عليه من ربه .

انما كان كل أولئك بمثابة البذور الروحية الألهي التي ثبتت في قلب الزاهد الصوفي المسلم الأول . ثم القيت بعد ذلك في صحابة والتابعين وأتباع التابعين ، ثم في قلوب الزهاد والعباد والصوفية في الأولين والآخرين ، فإذا هي تزكو وتنمو وتتوسع وتثمر في رياضات ومجاهدات ، وذواقا ومشاهدات ، وشواقا ونشاطات .

ومجاهدة النفس هي رأس الطريق عند أئمة التصوف جميعا . قال « سهل بن عبد الله التستري » : « من ضمن أنه يفتح له شيء من هذه الصلوات أو يكشف له عن شيء منها إلا يلزوم المجاهدة فهو في غلط . »

ويقول الامام القشيري : أصل المجاهدة وملاكها فطم النفس عن المألوفات ، ومتى فطم الصوفي نفسه فتحت له أبواب الخير وسلك طريقه الى المعرفة الحقة .

ويقول العلامة الهجویری في حديثه عن شيوخ الصوفية ، ومنهجهم في تربية المريدين .. يقول : اذا اتصل بهم مرید رغبة في نبذ الدنيا أخضعوه ثلاثة أعوام للرياضة والمجاهدة ، فان هو أتم مقتضيات هذه المجاهدة فحبا وكرامة ، والا أعلنوه انه لن يقبل في الطريق .

ويقول المربي الصوفي أبو علي الدقاق : اعلم أن من لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من هذه الطريقة شمة .

والتصوف كما يقول أبو بكر الشبلي : ضبط حواسك ، ومراعاة أنفاسك ، وهو تصوير رائع للجهد النفسي في أدق صورته وأكمل ألوانه .

ويقول الحريري : التصوف الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني ، وهو تعبير عن التغير المعنوي الذي يقوم به الصوفي خلال جهاده لنفسه وهو في طريقه الى الله سبحانه وتعالى .

ومن مجاهدة النفس في الطريق الصوفي تكونت المعارف الصوفية والالهامات الباطنية ، كما تكونت الخصائص الصوفية التي هي طابع الطريق وعلامته ، كالتوبة والندم والعزلة والخلوة والزهد والتوكل والصبر والشكر والايثار . الى غير ذلك من الصفات الجليلة التي تدخل تحت نطاق الآية الكريمة « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » .
ومجاهدة النفس في منطق الاسلام هي الذروة العليا من صفات الكمال .

والرسول عليه الصلاة والسلام يصف لنا في حديثه المشهور مراتب المؤمنين فيقول : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من آمنه الناس على أموالهم وأعراضهم ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه ، والمجاهد من جاهد نفسه وهواه ، فجعل مرتبة جهاد النفس هي أعلى المقامات الاسلامية وأسمىها .

والنفس التي هي نفس المرید السالك طريق الله ، هي أسمى النفوس
الانسانية ، فاذا عكف الشيخ على مریده ، وعكف المرید على نفسه ، وأخذ
كل منهما نفسه من ناحية ، وصاحبه من ناحية أخرى ، استطاع كلاهما أن
يصل بالنفس الانسانية الى خير ما استطاع الوصول اليه من مراتب الكمال
سواء في العلم أو العمل .

وعلى هذا نرى أن النفس الانسانية ، وجهاد شهواتها وخلصها من
نزواتها وآفاتنا ، هو الموضوع الرئيسي الذي يدور حوله كل تصوف علمي
وعلمي .

ومن هنا كان الصوفية في علمهم وفي عملهم محققين لمعنى الجهاد
الأكبر الذي عناه رسول الله عليه الصلاة والسلام حين قال : « لقد عدنا من
الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر » قالوا : وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟
قال : جهاد النفس .

فجهاد النفس قد وضع دستور له نبي الاسلام أول ما وضع هذا
الدستور ثم تطور بعد ذلك على أيدي من جاء بعده من الخلفاء وضباط
الزهاد والعباد والنسك والصوفية .

فاذا بان لنا هذا كله استطعنا أن نقول : ان التصوف الاسلامي
استقى عناصره الأولى من حياة النبي عليه الصلاة والسلام . ثم من حياة
أصحابه وحياة التابعين وحياة من جاء بعد أولئك وأولاء من الصوفية
المتحققين .

والتصوف ليس الا تصفية للنفس . وكشفا لحجاب الحس . وتهذيبا
للقلب على الوجه الذي يجعل من الانسان انسانا حقا خليقا بما ينطوي
عليه معنى الانسانية من أرفع معاني الحق والخير والجمال .

يقول الامام ابن عطاء الله السكندري لمريده : اذا التبس عليك أمر
فانظر أثقلها على النفس فاتبعه فانه لا يثقل عليها الا ما كان حسنا .

ويقول أيضا : أصل كل معصية وغفلة وشهوة : الرضا عن النفس .
وأصل كل طاعة ويطقة وعفة عدم الرضا عنها .

ويقول بعض المتصوفين : ان التصوف ليس معناه التجرد من الحياة ولكنه التجرد من الحياة للحياة ، التجرد من شهوات النفس ونزواتها وضعفها . يريد الله أن تتجرد من كل ضعف فينا .

قال الجنيد : التصوف هو ذكر مع اجتماع ووجد مع استماع وعمل مع اتباع .

وقال الكتاني : التصوف هو خلق فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء .

وقال محمد بن علي القصاب : التصوف هو أخلاق كريمة ظهرت في زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام .

وقال رويم : التصوف هو استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد .
وقال أبو علي الروذباري : التصوف هو صفوة القرب بعد كدورة البعد .

وقال الشبلي : الصوفي منقطع عن الخلق متصل بالحق كقوله تعالى :
(واسطنعتك لنفسي) .

وقال ذو النون المصري : الصوفية قوم آثروا الله على كل شيء ،
فآثرهم الله عز وجل على كل شيء .

وقال سمعون : التصوف هو أن تملك شيئاً وألا يملك شيء .
وزهد الدنيا ، يقصدون به الزهد في الحرام أما الحلال فمباح ، وان
كثر عليهم المال الحلال شكروا الله بانفاقه في الأوجه التي يرتضيها ،
ويقولون : ان مال الصحابة كان في أكفهم لا في قلوبهم فبذلوه رخيصة في
مرضاة الله .

ويقولون كذلك : ان الصبر أحسن بصاحب الفقر والشكر أليق
بصاحب المال الحلال ، وقد قال الامام أحمد بن حنبل في هذا المقام : الزهد
على ثلاثة أوجه :

الأول : ترك الحرام وهو زهد العوام .

والثاني : ترك الفضول من الحلال ، وهو زهد الخواص .
والثالث : ترك ما يشغل العبد عن الله تعالى وهو زهد العارفين .
والخلاصة أن التصوف هو سمو بالانسانية وارتفاع بها في ناحية الروح الى الملائكة الأعلى ، ومعنى هذا أنه سيطرة للروح على الجسم أو سيطرة الناحية العلوية في الانسان على الناحية الأرضية ، وهذه هي وظيفة التصوف .

ليس معنى التصوف الجوع والذكر والتكشف والحرمان فحسب ، بل هذه وسائل تسو بروح الانسان وتدنيه من ذات الله جل جلاله .

مما سبق يتبين للذين يدرسون تاريخ الحياة الروحية الاسلامية بصفة عامة وتاريخ التصوف الاسلامي بصفة خاصة من المستشرقين وغير المستشرقين من المقلدين الذين يسرفون وينحرفون ، اذ يزعمون أن التصوف الاسلامي برياضاته ، ومجاهداته العلية ، وبأذواقه ومواجيدته الروحية ، انما جاء المسلمين من مصادر اجنبية عن الاسلام . أقول ما أجدر أولئك وهؤلاء أن يرجعوا الى تاريخ حياة نبي الاسلام ليتبين لهم أنه الحق . وأن الباطل ما يزعمون ، وان الحياة الروحية المحمدية انما هي أول ما ينبغي أن يتف عندها الباحث المحقق المنزه عن التعصب والتكلف والتعسف لكي يلتبس منها مطلع الفجر ومشرق النور . قال تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك . وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .

فقوله عز وجل : « شرع لكم من الدين » . المتصود من « الدين » التوحيد الخالص الذي هو أصل وكل يشترك بين جميع شرائع الانبياء والمرسلين . وقوله : « أن أقيموا الدين » . يشير الى وجوب توحيد الله وكلمته بين الشعوب والأمم . والى تقوية العقيدة الدينية « الى الله » وتشيتها في القلب لتملأه المسنانا وأمانا وسعادة دقيقة .

وهذا ما يدعو اليه علم التصوف الذي هو عبارة عن علم أعطاء الله تعالى لأولياته وأصفيائه حين استنارت ارواحهم بالعمل بكتاب الله وسنة

رسوله فظهرت لهم علوم وآداب ، وحقائق يعجز القلم عن الاحاطة بها والتعبير عن كنهها ، فهو زبدة عمل العبد مع اتباعه لأحكام الشريعة .

والتصوف همّة جريئة وعزم وإيمان ، ويقين وسيادة وهو أيضا دعوة مخلصّة وعبودية مطلقة لله رب العالمين ، فهو دعوة راسخة الأركان مثبتة الدعائم تهدي العالم الاسلامي على مرّ الأحقاب والسنين الى المنهج القويم والصراط المستقيم ، الذي أوصى الله به نوحا والأنبياء من بعده .

والتدرج في التصوف ، ان الله تعالى اذا أنار بصيرة العبد ، شوقه الى الدخول في طريق الصوفية ، وهذه هي الدرجة الأولى من درجات التصوف ويسمى العبد فيها « مريدا » واذا اندمج العبد سامعا مطيعا وترسم خطى الطريق سسى في هذه الحالة « سالكا » ، واذا جد العبد واشتغل بالعبادة ، وراض نفسه ، وأقبل على الله تعالى اقبالا شديدا سسى في هذه المرحلة « عاشقا » .

واذا وضع العبد هواه تحت قدميه ، وطرد من باطنه كافة الأمانى والرغبات الدنيوية ، سسى في هذه الحالة « زاهدا » .

فاذا صفت نفس العبد ورق شعوره ، وحصلت له أذواق وجدانية يفهم منها ما لا يصل اليه العقل من الأسرار وصل في هذه الدرجة الى مقام « المعرفة » واذا استتر على هذه الحالة وواظب عليها تواردت على قلبه النفحات ، فتزداد معرفته بصفات الذات العلية فيصل في هذه الحالة الى مقام « الحقيقة » .

واذا استتر وواظب على الحالة السابقة وصل الى مقام « الفناء » . ومعناه فناء العبد عن نفسه في الله تعالى فتسحق كل الموجودات أمامه فلا يرى الا الله .

وبعد هذه الدرجة يصل العبد الى مقام « اللقاء » ، ويسسونه مقام « الوصول » .

فهذه هي درجات التصوف كما تشير اليه تعبيرات القوم رضى الله عنهم ورضوا عنه .. وأنت ترى أنها مبنية على سلوك العبد واجتهاده في

تخليص نفسه من ذل الخضوع للاهواء ، والحاقها بالمقام الأسنى والعز
الأسنى .

وفي نهاية الفصل أذكر القارىء بسأثورة من مآثورات المناجاة الصوفية
« المجابة » ، مناجاة العارف بالله الالهى الامام « عبد القادر الجيللى » . يقول
عنها العارفون انها من سهام الدعاء التى لا ترد فى تفريج الكروب :

يا من تحل بذكره عقد النوائب والشدائد
يا من اليه المشتكى واليه أمر الخلق عائد
يسر لنا فرجا قريبا يا الهى لا تباعد
أنت المعز لمن أطاعك والمذل لكل جاحد
فرج بفضلك كربتى فلقد نسيت من الأبعاد
أنت المسهل والميسر والمسخر والمساعد

الفصل العاشر الباحثون والدعوة

قامت نهضة فكرية واسعة في القرن العشرين بين الباحثين الأوربيين والشرقيين وعلماء العرب ، وقد تصدى كثير منهم للإسلام ، والدعوة المحمدية باحثين شارحين محللين ، إلا أن عددا غير قليل من الغربيين قد أذعن لعاطفة التعصب والتحيز حتى سلكوا طرقا ملتوية بعيدة عن الحقيقة والنزاهة اشباعا لرغباتهم في النيل من هذه الدعوة الفريدة في العالم منذ نشأته .

ولقد أضلت المطامع هؤلاء المستشرقين وأبعدتهم عن العدالة والنزاهة وصفات الباحث العالم المنزه عن الأغراض والأهواء حتى أنهم جعلوا يتجاهلون على صاحب الرسالة الإسلامية دون ذنب اقترفه أو جناية جناها . وأخذوا يتصيدون الكيد له والحط من شأنه لأموار قد تبدو على ظواهرها الموهلة الأولى أنها هنات . ولكن التعمق في جميع مناحيها لا يلبث أن يمحو من النفوس ذلك الوهم السطحي السريع .

بل وأكثر من ذلك . فإن أولئك القوم ينقمون أحيانا على هذا الدين الذي يسير العقل السليم والمنطق القويم والمقياس الاجتماعي الصحيح والذي هو مبعث الانسانية ومصدر سعاداتها ، والمنقذ الوحيد لها من وهدتها .

ولا جرم أن هذه الشرزمة من الباحثين قد طبعت في هذا العصر بطابع الاستهانة والاهمال من جميع الذين يحترمون حكم العقل ويوقنون بأن النزاهة هي أولى بالاجلال وأدنى الى الخلود .

وهناك فريق آخر من العلماء قد عرضوا للإسلام تحديق بهم النزاهة ويحف بهم نبل القصد . ويحدوهم الأمل في الوصول الى كشف بعض الحقائق المجهولة لدى بيئاتهم ، ولكنهم انزلقوا الى حضيض الهفوات

وهووا في هجيق الكبوات رغم نقاء نياتهم وسمو غاياتهم • وسر ذلك
الاخفاق اما أن يكون هو الجهل بروح اللغة والقصور عن ادراك مراميها .
واما الاعتماد على مصادر زائفة مليئة بالأباطيل والأضاليل كما ألمعنا الى
ذلك مرارا •

وسنعرض في هذا الفصل آراء الفريقين في الاسلام ونبي الاسلام •
واليك عالم من الفريق الأخير « ديس سورا » فقد تعرض في آرائه لمبدأين
أساسيين :

أولهما : أن تاريخ الأديان هو تاريخ لنمو هاتين الرغبتين البشريتين
المتأصلتين في نفوس أفراد الجنس جميعه • وهما الحاجة الى وجود اله •
والحاجة الى الحياة بعد الموت الدنيوى •

وثانى هذين المبدأين : هو أننا الآن في عصر على لا يستطيع الناس
فيه أن يقبلوا شيئا عن الاله الا ما تقدم اليهم التجربة والملاحظة الأدلة على
صحته ، ونحن اذا قبلنا المبدأ الأول على أنه لازم ركزته الحكمة الالهية
في النفوس البشرية لتعدها للتأليه اعدادا فطريا كى يفوق في متانته جميع
الاعدادات الاجتماعية . لأن العارض لا يرقى في الكمال الى درجة التأصل
فان الذى لا ريب فيه هو أننا لا نستطيع قبول المبدأ الثانى الذى صدر
عن هذا الباحث فى تفكيره . لأنه فيما نرى خاطيء من أساسه ، اذ انه
يرمى الى هدف خطير وهو احلال ما يدعو به بالعتل العلى التجريبي محل كل
ما عداه من جوانب الحياة الفكرية والروحية . وفى هذا من الخطأ ما لا يخفى
على ذى لب حصيف ، اذ كيف يجحد من لديه ذرة من اعتل ، ذلك الدور
الهائل الذى قام به الفكر البشرى الذاتى أثناء هذه الآلاف من السنين
التي انسلخت من عصر الزمن قبل أن يرى العلم التجريبي نور الوجود •

ويبدو أن الباحث واقعى النزعة تجريبي التفكير • وتلك وجهة نظر
تختلف في أسسها ومراميها مع مبادئ جميع الديانات التى تقر أن الاله
لا يناله الحس بحال من الأحوال وأنه مع ذلك أثبت الموجودات التى
يكفى لأن نعتبره عالما أجنبيا محايدا لا يروقه من الأديان الا ما تشتل عليه
من مبادئ خلقية نافعة • أو قواعد اجتماعية مفيدة للانسانية •

• واذا كان الاسلام أكثر الأديان اشتمالا على هذه المبادئ القوية •
وتلك الأسس المتينة ، فقد كان من الطبيعي أن يظفر لدى هذا النوع من
العلماء بأعلى الدرجات الا في حالة الخطأ الذي يجنبهم الصراط المستقيم .

وقال ديورانت : ليس ما نعرفه من ثمار الفكر الاسلامي الا جزءا
يسيرا مما بقى من تراث المسلمين • وليس هذا الجزء الباقي الا قسما ضئيلا
وليس ما أثبتناه في هذه الصحف الا نقطة من بحر تراثهم •

والحقيقة أن العالم الاسلامي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية
العشرين وبعد أن دهسته خطوب الاستعمار والاستغلال الأوربي ، وبعد أن
أضرم الاستعمار نار العداوة بين سكان العالم الاسلامي كله بل بين سكان
البلد الواحد كمصر والهند والمغرب ، وقام بدور خطير لكي يعمل على
تلاشي الوحدة المنهجية السلوكية لبلاد الاسلام ولكي يبقى الصعيد
التوجيهي لهذه الشعوب المغلوبة على أمرها في يده لهذا ولغيره قام بدور
احياء العصبية الأمية التي جاءت لنا فيما جاء مع الاستعمار والمدنية فقد
كنا نسع قبل قيام الثورة العربية الكبرى في ٢٣ يوليو من ينادى بالفرعونية
أو الفارسية في بلاد ايران ، الخ . ولعل تعليل ظهور هذه النزعات بظهور
الكشوف الأثرية لا يستقيم والحقيقة الواقعية .

وقد سارت الحياة الفكرية الموجهة في بلاد الاسلام سيرا متعرجا وغير
عميق مسا كان له أثر مهم في دفع الطليعة من أبناء هذه الشعوب للنظر في
الأمر جديا واتخاذ موقف حاسم . ففي الهند السيد « أحمد خان » يقوم
بانشاء كنية عليكرة متخذة خطة الدراسة الاسلامية التي لا تصطدم مع
الأساليب المعاصرة • وهو بهذا الموقف قد قام بدور عظيم •

وفي مجال السياسة التجمعية لبلاد الاسلام وشعوبه ، قد عقدت عدة
مؤتمرات في النصف الأول من هذا القرن في القاهرة ومكة والقدس ارادة
التعاون أدبيا وماديا على اتخاذ موقف حازم بالنسبة للاستعمار ودهاء ومكر
الصهيونية الفاجرة وتعديل الاتجاه لمجتمعهم نحو القيم والمثل التي تظلمهم .

وإذا كانت هذه البذور قد نبتت وأورقت اليوم وحقت ربعا كبيرا بالنسبة لموقفنا العالمي الآن ، وعملت على ايجاد جو تحررى لبقية الشعوب المستعمرة وخلق كتلة ثالثة تخفف من حدة التوتر العالمي أكثر مما حققته أى منظمة عالمية أخرى ، وإذا كان لمركز الأمة الاسلامية فى الميزان العالمي من الثقل والترجيح قدر كبير فذلك يرجع الى أن أكثر شعوبه قد تستعت بالاستقلال وحرية التوجيه .

وتلعب يد الاستعمار وأعوانه دورا خطيرا فى البلاد العربية فى هذه الآونة الحاضرة . ولكن ورقهم قد انكشف وسرهم انفضح . ولقد فشل أول تخطيط لهذه المؤامرة العاشمة الفاشلة فى لبنان . . ولا زال يأمل فى تنفيذ باقى خطته وكل مرماه هو تحقيق حلمه فى احياء ووجود حلف بغداد « الهلال الخصيب » . ولكنه نسى وعى الشعوب العربية ونضوجهم عقليا وسياسيا وتحررهم من الرجعيين والانتهازيين الذين اضطرتهم ظروف خارجة عن ارادتهم بأن يظهروا للشعوب العربية عيانا بيانا حتى أن كل فرد من أفراد الأمة العربية جمعاء يعرفهم ويسقتهم ويزدريهم ، وقد قامت ثورة العراق التحررية الأخيرة بقيادة الرئيس المناضل عبد السلام محمد عارف ، بتحرير العراق الشقيق من الاستعمار والرجعية والفساد .

ونكتفى بما تقدم على اقتضابه حتى لا نبتعد عن موضوع هذا الكتاب ونوجز بأنه لم يكن القادة والملوك الهنج يدعون الدعاوى حين يشنون غاراتهم على البلاد الأخرى . فقد كان قصدهم منها سافرا . وهو النهب والسلب ، وتوسيع دائرة الملك والسلطان . وتحقيق أضعافهم وما ربيهم .

ولكن الفتوحات الاسلامية شذت عن هذه القاعدة لأول مرة فى التاريخ . وتوخت تحقيق رسالة تسمو على مجرد الغزو والفوز بالأسلاب والأمجاد . كان الهدف الأول لتلك الفتوحات نشر الاسلام . وتلقين الناس تعاليمه النبيلة . وهدايتهم الى مقاصده الجليلة . وهذا هو الهدف النبيل للفتوحات ويتبدد أثرها كغيرها من غزوات الهنج . . فلم يقد أراد الجاه والمال والسيادة والملك . بدعوته عليه السلام . لادن قد بذلها العرب اليه فى سخاء وتقدير . ولو لم يكن نبى الدعوة مؤيدا بقوى قاهرة من فوق

السيبء لتخطفته السيوف ولقضت على صحابته الآلاف العديدة التي أحاطت
بهم في كل معركة ومجال .

ومن أروع ما كتبه المستشرقون عن النبي - صلى الله عليه وسلم -
هو ما كتبه المستشرق « رينولد نيكولسون » ، قال الشيخ العلامة : لم تجد
الحياة الدينية الإسلامية مثالا أعلى في أي إنسان الا في شخصية النبي
« محمد » - صلى الله عليه وسلم - فاذا بحثنا في الصلوات التي يعتقد
المسلمون بوجودها بين الله ورسوله من جهة ، وبين الرسول وأنفسهم من
جهة أخرى ، فقد وصلنا الى لب المسألة .

فالقرآن يعلن بأن الله هو الحق . وأن ما يدعون من دونه هو الباطل .
وأن كل شيء هالك الا وجهه . وأن كل من على الأرض فان . ولا يبقى غير
وجه الله . وأن الله نور السموات والأرض . وأنه أقرب الى الإنسان من
حبل الوريد . وأنه ما يكون من نجوى ثلاثة الا وهو رابعهم . ولا خمسة
الا وهو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا وهو معهم .

ومن قوله أيضا : فالحقيقة المحمدية . لا الصورة المحمدية الجسدية .
هي مبدأ الحياة ومركزها في العالم . وهي الواسطة بين الله وعباده . والمنبع
الذي يفيض منه على العارفين معرفتهم بالله على نحو ما يعرف الله نفسه .
وتصل اليهم منه العطايا والمنح الالهية (١) .

هذه صورة مما يكتبه الباحثون الغربيون الذين درسوا الاسلام على
حقيقته مجردين عن الهوى والتعصب ، فهي تمثل هذا النور ، وتمثل الخير
في رسالته الأخلاقية السامية ، ودعوته الانسانية العالية ، فلم تسمع الانسانية
من قبل ، صوتا أعلى من صوت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا
بيانا أروع من بيانه ، وهو يدعو الناس جميعا الى نماذج من السلوك
الخلقى . وبدائع من الأدب النفسى ، وروائع من التعاون الاجتماعى تكفل
للانسانية السلام والسعادة وتصنع المجتمع الفاضل السليم المتكامل المتحاب
المتساند .

(١) رأينا أن نكرر هنا في هذا الفصل ما كتبه المستشرق « نيكولسون » لانه من خير
ما يستشهد به على سمو الاسلام ونبيه وكتابه

ومن كلمه وبيانه الذى يهدى الى سعادة الدارين :

* من أغاث ملهوفاً ، كتب الله له ثلاثاً وسبعين مغفرة ، واحدة فيها صلاح أمره كله • وثنتان وسبعون له درجات يوم القيامة •

* من قضى لأخيه المسلم حاجة كان له من الأجر كمن حج واعتسر •

* ليلة أسرى بى مرت على أناس تقرض شفاههم بمقاريض من نار . قال : فقلت •• من هؤلاء يا جبريل ؟ • قال : هؤلاء خطباء من امتك • كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم • وهم يتلون الكتاب • أفلا يعقلون ••

* ان الله يكفر بالحسنة الواحدة ألف ألف خطيئة •

* لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا • ولا تؤمنوا حتى تحابوا •

* ألا لا ايمان لمن لا امان له ، ولا دين لمن لا عهد له •

* لا يستقيم ايمان عبد حتى يستقيم قلبه • ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ، ولا يدخل رجل الجنة لا يامن جاره بوائقه •

* ان من أحبكم الى ، وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحاسنكم اخلاقاً •

* ما شئ أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن • وان الله ليبغض الفاحش البذىء •

* ان المرء ليدرك بحسن خلقه ما لا يدركه الصائم القائم •

* لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه •

* ليس بالمؤمن الذى يثبع وجاره جائع الى جنبه •

* اياكم والظن فان الظن أكذب الحديث • ولا تجسسوا ولا يحسسوا • ولا تحاسدوا ولا تدابروا • ولا تبغضوا • وكونوا عباد الله اخوانا •

* أربع من كن فيه كان منافقا خالصا • ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها • اذا أوتس خان • واذا حدث كذب • واذا عاهد غدر • واذا خاصم فجر •

* اجتنبوا السبع الموبقات • قالوا : وما هي يا رسول الله • قال :
الشرك بالله • والسحر • وقتل النفس التي حرم الله الا بالحق • وأكل
الربا • وأكل مال اليتيم • والتولي يوم الزحف • وقذف المحصنات
العافلات •

* سبعة يظلمهم الله بظلمه يوم لا ظل الا ظله • امام عادل • وشاب
نشأ في عبادة الله ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل قلبه معلق
بالمساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه ، ورجل دعتبه
امرأة ذات منصب وجمال الى نفسها ، فقال انى أخاف الله ، ورجل تصدق
بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه .

* ألين شيء في هذا الدين أن تشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا
رسول الله • وأشد شيء في هذا الدين : هو الأمانة .

ونقصر عنايتنا في هذا الفصل على سرد بعض فقرات من كتب علماء
المستشرقين التي تستحق أن تنشر على صفحات هذا الكتاب مبينين
ما احتوته من حقائق هامة لشأن دين الاسلام ، هادمين ما اشتملت عليه من
أباطيل وأخطاء زل فيها المؤلفون عن جهل طفيف أو شطط في الفهم • أو
ابتعاد عن المنطق السليم • مبرهنين ما أمكن على رأينا بأنصع الأدلة
وأسطع الحجج ••

واليكم مثل من أحد المستشرقين الذي كتب عن بدء الاسلام أكثر من
عشرة مؤلفات وهو انما قد تعمق في دراسة صدر الاسلام لغرض في نفسه
لا يخفى على أحد مهسا كان ساذجا ذلك الغرض هو هدم الاسلام .

ذلك هو المستشرق القس « لامانس » ، وهو قسيس يقطن لبنان ،
أكل الحقد قلبه حينما رأى الاسلام ينتشر في جميع أرجاء بقاع العالم
ويبسط جناحيه على قارات آسيا وافريقيا وأوربا ، فيضيق صدر ذلك القسيس
فيسخط على القدر نفسه • ويقول : لماذا جاء القرآن فجأة ليقتضى على
التأثير الطفيف الذي كان الانجيل قد أخذ يحدثه في ابن البادية •

والحق أننا قد اخترنا هذا المستشرق بالذات لأن شهرته العلمية • قد
خدعت الكثيرين • فأحسنوا الثقة به مع أن اسناداته الكثيرة التي يثبتها في

آخر كل صحيفة • انما هي من قبيل التسويه على القارىء • والحقيقة
انه لا قيمة لها .

ان النفس لامانس ذو هوى جامع عنيف ثائر . ومنهج لامانس ساذج
كل السذاجة • انه منهج العكس • فيأتى الى اوثق الأخبار وأصدق الأنباء
فيقلبها متعمدا الى عكسها • من ذلك أنه ينكر على رسول الاسلام الشجاعة
التي هي من أبرز صفاته ، فيقول عن موقف الرسول صلى الله عليه وسلم
يوم أن كان يقود الجيوش في الغزوات ولم تضطرب نفسه في أية واحدة
منها ، حتى يوم « أحد » ، وقد ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ولم
تهله كثرة الجيوش المعادية في غزوة الخندق يوم أن زادت الأبصار وبلغت
القلوب الحناجر حتى لقد قال « على » كرم الله وجهه : كنا اذا حسى البأس
واحمرت الخدق اتقينا برسول الله - صلى الله عليه وسلم - فما يكون أحد
أقرب الى العدو منه . كما لم ترعه نبأ كالمطر يوم حنين . ومع ذلك فإن
« لامانس » يصفه بعدم الشجاعة . ثم يحاول أن يعيب الحكم على العرب
قاطبة ، يقول : زعموا أن العربى يتسم بالشجاعة . بل لقد عللوا النجاح فى
الفتوح الإسلامية الأولى بما يتناز به العربى من صفات ومزايا . وتكفى
أتردد كل التردد فى قبول هذا الرأى المبالغ فيه كل المبالغة • ان شجاعة
العرب انما هي من نوع غير ساء •

ويعلق فضيلة « الشيخ محمد الخضر حسين » شيخ الجامع الأزهر
السابق على هذا فيقول : وكذلك الداعى الى الحق • ولا سيما المهموم
اليه بأبلاغه وتنفيذه لا بد من أن يكون شجاعا رابض الجيش على قدر شدة
المدعويين وصعوبة مراسيمهم • وعلى قدر عظم الحق ومخالفته لمثلهم عاداتهم
وأهوائهم • فاذا أودع الله تعالى قلب رسوله شجاعة • سكبته فى هذه
الخطوب فلا جرم أن يكون نصيبه من هذه لميزة عظم نصيبه من
من مراسم الأمة التى ابتدأ بتبليغها وهى الأمة العربية . وفى عهد الامانة
قضاء على مللهم • وذم لعبوداتهم وابطل كثير من عاداتهم ومخالفاتهم
أهوائهم •

ولو اطلع هذا القسيس المغالط على الكتاب الذهبى النفيس الذى كتبه
قواد الحرب الكبرى يشيدون فيه بشجاعة وجرأة الجنود المسلمين الذين
حاربوا مع قيادة جيوش الحلفاء دفاعا عما اعتقدوه حقا فكانوا من
أكبر عوامل النصر فى الحرب الكبرى حتى لقد أثارت فرق الهجوم منهم
اعجاب العالم أجمع فانه لو قرأ ذلك الكتاب لشاهد فيه آلاف الشهادات
من القواد العسكريين بالبطولة لهؤلاء الجنود العرب .

ومن المعروف أن النبى كان يتعبد فى غار حراء ، ولكن لامانس يؤكد
أنه كان يكره الوحدة .. كما يصفه بأنه أكل قد كثفت جسمه المملذات ،
ولا يذكر شيئا عن صوم الرسول لشهر رمضان ، أو أنه كان يصوم الاثنين
والخميس .

كما يقول لامانس : كان محمد ثوروما .. والروايات الصحيحة تحدثنا
أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يتهد بالليل على وفق قوله
تعالى : « ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما
محسودا » .

روى « الامام البخارى » فى جامعه الصحيح عن « المغيرة بن شعبه »
أنه قال : كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يقوم ليصلى ، فيظل يصلى
حتى تتورم قدماه ، فيقال له ، فيقول أفلا أكون عبدا شكورا .. وكان
يخص رمضان من العبادة بما لا يخص غيره من الشهور ، فيكثر فيه من
تلاوة القرآن . والصلاة . والذكر . والاعتكاف . وما كان يخرج عنه
شهر حتى يصوم منه . وربما صام أياما متتابعة حتى يقال ، لا يفطر ..
وكان يواصل الصوم فى رمضان . أى يصل الليل بالنهار فى الصوم . يومين
أو أياما . ليوفر ساعات ليله ونهاره على العبادة وكان ينهى أصحابه عن
الواصل . فيقال له : انك تواصل فيقول : لست كهيتكم ، انى أبيت عند
ربى فيطعمنى . ويسقيني ، المراد من اطعام الله وسقيه ما يغذيه به من المعارف
وما يفيضه على قلبه من لذة المناجاة ، وورد فى السيرة أنه كان يجلس ولا
يقوم الا عند ذكر الله . وكان روح عبادته الاخلاص . يصلى فى حجرته

نافلة كما يصلى في المسجد ، ويذكر الله خاليا كما يذكره في جماعة • ويعمل
له في السر كما يعمل له في العلانية (١) •

وأخذ لامانس ينقص من حقوق أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وفاطمة
وعائشة وحفصة وغيرهم وغيرهم من أوائل المسلمين .

أما اذا تحدث عن أعداء الاسلام • كأبى جهل وأبى لهب ألد أعداء
النبي • أما اذا ما تحدث عن المنافقين خونة الاسلام • أما اذا ما تحدث عن
يزيد قاتل الحسين أو عن بنى أمية على وجه العسوم • فانه يشيد ما شاء له
هواه • ويسدح ما أمكنه المدح • ويطرى كلما أتيج الاطراء ويلبسهم
من الفضيلة ثوبا لامعا خلايا •

ولقد بلغت به الحساسة في كتابته عن بنى أمية • حدا آثار نفور المسيو
« كازانوقا » الاستاذ في كليج دى فرانس • فقال : كانت نفسية الأمويين
في مجموعهم مركبة من الطمع في الغنى الى حد الجشع • ومن حب الفتح
من أجل النهب • ومن الحرص على السلطان من أجل التمتع بسلطات الدنيا •
لذلك يحق لنا أن نعجب أشد العجب من كاهن كاثوليكي مثل الأب
لامانس يتطوع المدفاع عن أولئك الغاصبين الضعفاء • ساخرًا في سداجة من
الذين مكروا به وخذعوه .

وانما لغريبة حقا هذه المباحث التي بيدي فيها هذا المؤلف المصاع
على تاريخ ذلك العصر اطلاقا حريا بالاعجاب --- تشيعة للأمويين ضد بنى
هاشم • والتي تتوالى فيها المرافعات الدفاعية • والاثامات الادعائية •
آخذا بعضها برقاب بعض (٢) •

أما المنافقون فهم أبطال الوضعية عند التسييس • وإذا أردنا أن نعد
أخطاء لامانس • فاننا لا نقف عند حد .. انه مثلا يعتمد أن يعطي الألفاظ
معنى آخر غير المعنى الذي تعطيه لغويا أو اصطلاحيا • كأنه في سادس باب
بقلب الحقائق • ان الردة في نظره معناها الانقضاء • والمرادون هم

(١) من رسالة عن سيدنا محمد لهيئة الشيخ محمد المصطفى

(٢) كازانوقا « محمد وانتهاء العالم » ص ٥٨ •

الانفصاليون • والمنافقون هم المشككون وهم أبطال الوطنية القومية •
 وإذا قرأت في القرآن الآية الكريمة « ان الله مع الصابرين » فسترى أن
 لامانس يشرحها شرحا أبعد ما يكون عن السمو وعن المكانة العليا التي هي
 عليه في الاسلام .. انه يفسرها : ان الله مع الساكتين على سياسة محمد .

ويتحدث عن أبي بكر وعمر فقط فيقول : الثالث ، انه يقول حكومة
 الثالث •• أبو بكر • وعمر • بل يطلق كلمة الثالث على سيدتين •
 فيقول : حزب الثالث المؤلف من « عائشة وحفصة » الدساتين المخوفتين •
 ولا عجب بعد ذلك أن نرى هذا القسيس يأخذ على التوحيد الاسلامي انه
 « ضيق » ، لأنه لا يقول بأن الله ثالث ثلاثة ، وبأن الثلاثة واحد . ولا يقول
 بأن الأب غير الابن • ومع ذلك الابن هو الأب •

ان توحيد الاسلام ضيق لأنه لا ينطوى على ما تنطوى عليه
 المسيحية من تلك المتناقضات ، فيقول كتابه الكريم : « قل هو الله أحد •
 الله الصمد • لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » •

وهذا القسيس يفسد متعمدا الصور التاريخية • انه يحدثنا عن مكة
 والمدينة في عهد الرسول ، فيعطينا صورة أوربية حديثة ، وكأنه يحدثنا عن
 باريس ولندن حينما يتحدث عن جزيرة العرب ، عن الحملة الصحفية ،
 عن الماليين • بنك مكة • مليار النقابة القرشية • الضريبة على الدخل •
 طبقة العمال • جائزة موتينيون • ابلاغ الرسالة الى محل الإقامة • ديوان
 ذي الجلال • وزارة الله • الى آخر هذه التعبيرات الحديثة التي تفسد
 الصورة • ولا تصور الحقيقة •

ولامانس جرىء جرأة نادرة ، اذ أنه لم يعثر على أي خبر واحد
 يؤيد به أي زعم مما زعم •• فكان يغالط كما هي عادته بقوله : ان هذا
 أمر عنى رجال الحديث والأخبار بكتسائه •

وبينما يحترم المسلمون السيد « المسيح » ويجلونه • نجد لامانس
 يصف «ؤسس الاسلام بأبشع ما يسكن أن يظهره الحقد والكراهية • حتى
 لكأننا نسمع أسلوب « رهبان القرون الوسطى » الذين لم يكن في جعبتهم
 الا السباب والشتائم •

ولقد أصاب الدكتور « سنوك هرغرنجة » في قوله : ان سب « محمد » الحديثة تدل على أن البحوث التاريخية مقضى عليها بالعقم اذا سخرت لأية نظرية أو رأى سابق . هذه حقيقة يجمال بمستشرقى العصر جسيما أن يضعوها نصب أعينهم . فانها تشفيهم من داء الأحكام السابقة التى تكلفهم من الجهود ما يجاوز حد الطاقة فيصلوا الى نتائج لاشك خاطئة فقد يحتاجون فى تأييد رأى من الآراء الى هدم بعض الأخبار وليس هذا بالأمر الهين ، ثم الى بناء أخبار تقوم مقام ما هدموا ، وهذا أمر لا ريب مستحيل .

ولقد شغف أولئك المستشرقون المحدثون بالمذاهب الغربية الغالبة التى تعمل على هدم السنة بما هو مبتدع وغريب .

على أن دراسة المبتدعات التى دخلت عن هذا الطريق فى تاريخ النبى قد أتاحت لنا أن نكشف عن أنها كانت ، أحيانا ، وليدة كراهية شديدة . (كما هو الشأن فى كل ما كتب القسيس « لامانس » أو القس « زويسر » . للاسلام اذ يصعب التوفيق بينها وبين العلم ولا تليق بعصرنا هذا . كما أن على العموم مع ما فيها من احاطة نظرية بحتة تسجل على مؤلفيها جهلا عجيب بعادات العرب . وانه ليكفى فى اظهار زيفها أن تقارن بعضها ببعض لأن على تناقض بحيث ينسخ بعضها بعضا . وأخيرا فان علوها فى الخيال . فيما يتعلق بالظواهر النفسية الشرقية . ليظهر بأجلى بيان . صدق تلك الآثار المأخوذ بها فى العالم الاسلامى .

والمستشرق الألمانى « يوليوس فلهوزن » . وهو عالم مبرز فى ميدان الدراسات المتعلقة بالكتاب المقدس بقسيه القديم والجديد . وباحث محقق فى ميدان التاريخ العربى ، ومؤلف كتاب « تاريخ الدولة العربية منذ ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الأموية » . وقد قارن العالم الألمانى « لامانس » بين « فلهوزن » فى كتابه عن الدولة العربية « الدولة الأموية » وبين « يوليوس فلهوزن » فى كتاباته عن العصر الأموى ولاحظ بحق أن لامانس رغم حذقه قد فشل فيما نجح فيه فلهوزن .

فكتابات لامانس أشبه شيء بمجموعات من الفيشات ، أما كتاب فلهوزن فهو بناء ضخيم ، ولامانس يكون شخصياته التي تكلم عنها جزءا جزءا ، لكنه يقع على اللون غير الصحيح . أما فلهوزن فهو يزهد في جمع القطع الملونة الأخاذة ، وكأنما ينحت شخصياته من الحجر الأصيل .

وان المؤرخ فلهوزن معترف له بالفضل والنزاهة في الرأي والحكم على الأشياء ، لكنه يسرف أحيانا في تحرره الفكري ، أو في تطبيق حكم أو تصور ينتهي إليه ، وهو لما كان ليس مسلما فقد انحرفت نظرتة في بعض المسائل شيئا من الانحراف ، نذكر منها على سبيل المثال فقط لا الحصر ، ما قاله المؤلف فلهوزن في صفحة ٢ من كتابه :

والاسلام الأول ليس استسلاما Ealalismus بالمعنى السائر لهذه الكلمة ، وليس الهه الا عبارة عما يسمى المطلق Das Absetute أعنى أن الاسلام ليس ايانا بشيء غير مفهوم هو الى السلب منه الى الايجاب أقرب بل اله الاسلام هو الذات التي لها القدرة على كل شيء ، والخير والعدل في حقها ملازمان للقدرة لا ينفكان عنها ، ثم يقول :

ويبرز في القرآن شأن القدرة الالهية تارة وشأن العدل الالهى تارة أخرى ، وذلك بحسب ما كان يجيء به النبي عليه السلام دون مراعاة للتوازن بين الطرفين ولا يشعر « محمد » عليه السلام بسا في ذلك من تناقض ، لأنه لم يكن فيلسوفا ولا واضعا لمذهب نظرى في العقائد Dogmaiks يقصد المؤلف أن الذات الالهية في الاسلام ذات حقيقة لها صفات الخلق والتدبير والعناية ، وذلك في مقابل اله الفلاسفة الذي هو أشبه بمعنى مجرد .

والظاهر من كلام المؤلف أن القرآن الكريم من تأليف النبي عليه الصلاة والسلام ، ولاشك أن هذا مخالف للحق الذي يعتقد المسلمون ويعرفه عنهم غيرهم ، وهو أن القرآن كلام الله تعالى وانه وحى أنزله على رسوله ، وكان يجب على المؤلف مراعاة لمقتضيات الواقع والبحث العلمى النزيه أن يشير الى ذلك بصراحة ، ثم يبحث عن الحكمة التي يرمى اليها

القرآن من اشعار المؤمن بقدره الله تارة وبعده تارة أخرى ، وهي كما يمكن أن يقال : أن يشعر بأنه داخل في ميدان قدرة الله المطلقة فيخشاه ولا ينسأه . ثم يشعر بعده فتطمئن نفسه الى صنع مولاه .

على أن ابراز القرآن لبعض الصفات الالهية المتقابلة لا يقتصر على القدرة والعدل بل يشمل صفات أخرى مثل أنه تعالى شديد العقاب وأنه غفور رحيم ، أو أنه فعال لما يريد وأنه كتب على نفسه الرحمة أو أنه الجبار وأنه اللطيف .

أما ما يزعمه المؤلف من تناقض في ذلك فهو شيء ليس له وجود الا في ذهنه هو ، وأين التناقض في اضافة صفتي القدرة والعدل أو الجبروت والرحمة الى الله تعالى .

ان زعم المؤلف أن في هذا تناقضا ليس الا قصورا عن ادراك أسرار كتاب الله الحكيم وحقيقة صفات رب العالمين .

أما ما يقوله المؤلف من أن محمدا عليه الصلاة والسلام لم يكن فيلسوفا ولا من واضعى المذاهب الاعتقادية فهو صحيح بالمعنى الذى فى ذهن المؤلف ، فالحق أن محمدا عليه الصلاة والسلام كان نبيا يتلقى عليه عن الله ولا ينطق عن الهوى ، فهو ليس من الفلاسفة الذين يعتدون على عقولهم البشرية القاصرة المعرضة للخطأ ، ولامن المفكرين الذين ينظرون فى النصوص المنزلة أو ما يؤخذ منها ثم يجتهدون فى وضع مذاهب اعتقادية بحسب ما يسكنهم أن يصلوا اليه بالنظر الانسانى غير المعصوم المتناقض .

وقال « فلهوزن » أيضا : ولقد كان فى وسع محمد عليه السلام من طريق عقيدة تتجاوز دائرة معتنقيها الدائرة التى ترسمها رابطة الدم . ان يحطم رابطة الدم هذه لأنها لم تكن بريئة من العصبية وضييقها . ولا كانت ذات صبغة خارجية عارضة ، وهذا هو الذى جعلها لا تتسع لضمير النبوة . غريب عنها . ولكن محمدا - عليه الصلاة والسلام - لم يرد ذلك . ومن الجائز أيضا انه لم يكن يستطيع أن يتصور امكان رابطة دينية فى حدود غير حدود رابطة الدم ، ولذلك فانه لم ير أن رسالته هى أن يضم الى دعوته

اتباعاً متفرقين هنا وهناك . نعم . كان لا بد له أن يبدأ بضم أفراد ، ولكنه
كان يرى ضم الجماعة كلها . فكان يطسح الى أن يجعل آمنه العربية كلها
جماعة دينية له . أما انشاء جماعة دينية صغيرة مضطهدة في مكة . فهذا
ما لم يكن ليرضى طموحه .

والظاهر في تعبير المؤلف عدم توفيقه ، فلو انه آمن النظر في القرآن
و حديث لأحس في قلبه وفي عقله مقدار سعة الرابطة التي تربط بين البشر
وهي التوحيد لله الذي خلقهم .

وقد سار النبي عليه الصلاة والسلام في معاملة الخلق طبقاً لذلك
وحرب العصبية الدموية محاربة شديدة .

والذي ذكره فلهوزن يخالف الواقع أيضاً . لأن الدعوة الإسلامية
جاءت للناس كافة ، ولأن القرآن والحديث قد أعلنوا أن الناس جميعاً على
اختلاف السننهم ولوانهم . كلهم أمة واحدة ومنشؤهم من أصل واحد .
وإن كرمهم عند الله آتاهم . وكان عرض الدعوة الخروج بالناس من ضيق
العصبية القبلية والجنسية الى أفق الانسانية الموحدة ، وهذا ما صرح به
القرآن والسنة .

لما الاعتساده على مؤمنين يحصلون الدعوة وينشرونها ويسعونها من
أعدائها بفضل ما يكون بينهم من التحام بالنسب وبفضل ما ينشأ عن ذلك
من قوة لا يتعارض مع الغاية الكبرى التي تحققت فعلاً .

ومعنى المواضع في الدولة الإسلامية : المؤمن بالله والمتبع لوحى أنزله
لله سواء كان مسلماً أو يهودياً أو نصرانياً ، غير أنه في الدولة الإسلامية
تكون مهمة حكم الدولة والدفاع عنها للمسلمين وحدهم ، ولهذا فرضت
الجزية على أهل الكتاب لأنهم معفون من الواجبات الحربية .

وفي العبارة الآتية يعتبر المؤلف أن ما قرره الإسلام من أشياء تميزه
عن اليهودية والنصرانية تعريب له ، وما هو كذلك بل هو تعليم رب العالمين .
قال : وفي أثناء هذا الصراع الذي كان دائراً في الظاهر بين الإسلام وبين
الوثنية العربية ثم على نحو يستلقت النظر تعريب داخلي للإسلام نفسه، وقد

كانت نقطة البداية في دعوة محمد عليه السلام اقتناعه في أول الأمر بأن ما جاء به من دين يتفق مع اليهودية والنصرانية ، فكان ينتظر طبقا لهذا الاقتناع ، أن يهود المدينة سيستقبلونه مرحبين ، ولكنهم لم يعترفوا له بأنه نبي ، ولم يعترفوا بأن الوحي الذي أنزل اليه هو الوحي الذي عندهم . ومن كان اليهود دخلوا في أول الأمر من الوجهة السياسية في الأمة التي أسسها محمد عليه السلام .. الخ .

وقوله : وكان أبو بكر وعمر يعلمان أنها لم يتوليا الخلافة بفضن حق شرعي ، بل من طريق الاغتصاب ، وهما لم يستطيعا أن يسبغا على رياستهما التي كانت غير شرعية في أول الأمر ثوبا شرعيا فيما بعد .

وهذا كلام لا أساس له ، لأن أبا بكر وعمر توليا الخلافة من طريق طبيعي بحسب ظروف الموقف ، ولم تكن الخلافة في يد أحد حتى يقال انهما اغتصباها منه . ولم يكن النبي عليه الصلاة والسلام قد نص نصا صريحا على من يخلفه . لكنه عليه الصلاة والسلام بتكليفه أبا بكر أن يتولى من بعده قد أعرب عن العهد اليه بتولى شئون المسلمين من بعده . هذا إلى أن أبا بكر نظرا لأنه كان أول من آمن بالرسول عليه الصلاة والسلام فإنه قد كان السبق في الايمان وما ترتب عليه من الصحبة والكفاح والعلم بسيرة الرسول برسوله والأهلية للخلافة . ثم ان أبا بكر قد عهد الى عمر بالخلافة . وكلا الحاليتين بايعهما المسلمون . فأين الاغتصاب ؟

إكأن المؤلف يعبر عن رأى بعض غلاة الشيعة في الإمامة وفي أن الله رضى الله عنه كان أولى بها . لكن المؤلف لا يذكر الشيعة في هذا المقام .

ويقول المؤلف في صفحة ١٤ : وتنافس المحاربون العرب من أمة الجروب المتواصلة لا تترك لهم الى الراحة مييلا . فوجدوا في ذلك وقتا وصالحا كانت الغنينة . وكانت في الحقيقة نهب مستترا تدفق من الجروب الى أيدي الجند من طريق الحملات الحربية المتواصلة .

ان هذا هو رأى المؤلف فلهوازن بلفظه ومعناه . لكن الحق ان الجروب الحرب والغنينة هو الذي كان معسولا به في الفتوحات الاسلاميه مع انه

من التسامح من جانب العرب الفاتحين • وإذا كان قد حدث في تاريخ الفتح أن بعض قادة الجيش كانوا يرفضون عروض الصلح ويريدون فتح العنوة لما فيه من غنينة أكبر فان ذلك لم يكن هو القاعدة • وهو لا يبرر القول بأن أخذ الغنينة كان نهبا !

هذه بعض الأمثلة ما جاء في كتاب « تاريخ الدولة العربية » لفلهوزن وهي كثيرة ، وليس المجال مجال حصر أخطاء وكل التباس وقع فيه المؤلف . ولكننا سردنا تلك الهفوات على سبيل التعريف فقط .

ومن المستشرقين أشباه فلهوزن المستشرق « ر.ف. بودلى » مؤلف كتاب « الرسول حياة محمد » • • وما قاله عن القرآن الكريم : ويعرف هذا الكتاب بالقرآن . وهو اليوم كما كان يوم كتب لأول مرة تحت اشراف « محمد » • وعلى الرغم من أن الأفكار قد دوت في الرقاع وسعف النخل والعظام في احظات غريبة فان السور والآيات الأصلية قد حفظت . وما عسل هذا • كما هو الحال في العهد القديم والعهد الحديث • بعد قرون أو حتى عشرات السنين بعد موت المؤلف • فان أبا بكر خليفة محمد الأول • قد جمع الرقاع التي دون القرآن فيها • ونسخها حرفيا وحفظت هذه النسخة عند حفصة احدى زوجات محمد .

وان « جورج سيل » الذي ترجم القرآن ترجمة طيبة في أوائل القرن الثامن عشر والذي كان من الواجب أن يعرف محمدا معرفة حقيقية صدر ترجمته بالآتي :

أخبرنا المؤرخون أن المدن الشهيرة الميزة على جميع المدن الأخرى في التجارة والآداب تنازعت فيما بينها على أيها كان لها شرف أن تكون مسقط رأس « هوميروس » .. وان هذا النزاع ليستحق الثناء لأنه يدل على رقى في فكر رجال ذلك العصر ولكن لما فحصت شخصية محمد فحفا دقيقا كانت الصورة فظيعة معيبة حتى أنه لمن الغريب أن مكان منبته لم تسدل عليه سدول النسيان • ان أى قطر ليخجل من انجاب مثل هذا المجرم • ومع ذلك فقد كان توقيير العرب لهذا المخاتل الكبير دواما • حتى

انهم لم يدعوا المكان الذي تنفس فيه أول ما تنفس تحيطه أية ريبة أو غموض •

واستمر هكذا •• وان التعليق الوحيد على هذا هو أن نستعير عدة جمل من صفحات قصة محمد التي كتبها راعي كنيسة نيوانجلند : كيف استطاع مثل هذا الرجل أن يخلق ديانة يدين بها اليوم ثلاثمائة مليون مؤمن ، وبدلاً من أن تأخذ في الزوال كما هو حادث لكثير من ديانات العالم . فانها اليوم أقوى مما كانت ، ويزداد معتنقوها يوماً بعد يوم ؟ . وقوله : قد يصادف المرء أحياناً كتاباً من طراز « جون سلدن » الذي أجهد نفسه في دراسة دين العرب هذا . فقد قال هذا الكاتب الذي عاش في القرن السابع عشر انهم يطلقون على الأوثان لفظة محمد Memmey وعلى عبادة الأوثان المحمدية Mammet فصارت « محمد » والمحمدية أسماء بغيضة • في حين أن العالم جمع يعرف أن الترك (يقصد المسلمين) • يحرمون الأوثان في ديانتهم •

ولكن مثل هذه الحقائق كانت نادرة • وكان الاعتقاد السائد هو أن أية ديانة جاءت عقب موت المسيح ينبغي أن تكون ديانة زائفة •

وهناك أيضاً كتاب ذهبوا الى مذهب آخر ، فجعلوا محمداً قديساً اذا لم يجعلوه « الها » •• كتاب عزوا اليه معجزات • وظواهر خارقة للطبيعة ، وقوى سحرية ، وهي ليست أكثر كذباً من اتهامات « جهورج سيل » • والمفكرين من مدرسته • لقد قال « محمد » قبل أن يموت : قاتل الله قوما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد •• لقد كان يحس خزيه لو أنه رأى الخرافات العديدة التي يسجها الكتاب على حسابه • وان هذا هو عيب كتاب سيرة محمد • فهم اما مؤمنون به • وما كافرين به بدعيين • مختلفة في التعصب وان التليلين هم الذين سردوا قصة الرجل دون اعتبار أو محاباة • ودون أن يبرزوا فضائله أو عيوبه ويضعفوا عليها ••

وقال بودلي : وما قرأتى محمد على هذا القدر حتى لم يبق في نفسي شيء مما سيصبح عقيدة غير شرعية للمؤمنين • فالجورده أو أنه ليس في الدنيا شيء سيقوم بها لا يقوم به شيء آخر في سبيل حمل الإسلام الى العالمين ••

وفي حقيقة الأمر • فان تاريخ العرب لو أهملنا قصة آدم • يرجع الى
عصور أقدم بكثير من عصور أنبياء التوراة ويثبت ذلك معتقداتهم التي كانوا
يدينون بها قبل الاسلام • فقد عبدوا اله الخصب وقدسوا الشمس والقمر
والنجوم بجوار اعتناقهم الوثنية واليهودية والمسيحية •

وعلى الرغم من هذه المعتقدات القديمة فلم يهتم العرب بالفجر الذي
شرق على الدنيا في القرن السادس • وفي الحقيقة لم يهتم أحد بذلك كثيرا •
فقد كانت فترة قلق دمرت فيها امبراطوريات شرق أوروبا وغرب آسيا
باعتق واذن سلطانها بالمعيب •

لقد كان العالم ما زال مأخوذا بفصاحة الاغريق وعظم الفرس وجلال
اليونان • فما كان ليظن أن يحل مكانها أي شيء آخر ولو كان دينا جديدا •
كاليهود بشردين في بقاع الأرض لا قيادة مركزية لهم • مضطهدين
من صابرين حسب الظروف والأحوال • وما كان لهم من وطن كما هو
حالهم اليوم • وكان المسيحيون فيما خرج عن نطاق نفوذ الأب «جريجورى»
الأكبر • قد توصلوا الى ايجاد جميع التفسيرات المعقدة الملتوية لدينهم
لوحد البسيط • فنشبت المنازعات القاتلة بينهم •

كما في فارس فلا زالت الخفقة للأخيرة تسرى في جسم الامبراطورية •
فكان كسرى الثاني يسد في حكمه • فيحتل كبادوسيا ومصر وسوريا متحديا
الرومان • واغتصب بيت المقدس وسلب الصليب المقدس حوالي سنة ٥٢٠ •
فما لبث سطع نجم « محمد » كان كسرى قد استعاد ملك داريوس الأول ••
ولاح كآز حياة استقرار سترفر على الشرق الأوسط • ولكن لم يكن
ذلك مساويا • فما زال للبيزنطيين بعض حيوتهم القديمة • فلما هاجم
كسرى بجيوشه الجرارة القسطنطينية هبوا يحاولون محاولتهم الأخيرة •
مات الامبراطور « جستنيان » زوج « تيودورا » الشهيرة عام ٥٦٥
لم يبق من موالي « محمد » واعتبه أباطرة لا وزن لهم • حتى اذا ما كان عام
٥٦٠ كان عام « اغتلى » هرقل » وكان من طراز آخر — عرش آباءه • فلم
يتسبب وقتا • بل راح يتأهب لملاقاة الفرس • وهزمهم أخيرا عام ٦٢٧ •
فاستعاد معظم ما اغتصبه كسرى من روما وأعاد الصليب المقدس الى بيت

المقدس • ولكن لم يدم نصره طويلا • فبعد سنين قليلة كتب عليه أن يقابل هجوم الاسلام • لقد كان هجوما قصيرا قاسيا • فما دوت « الله أكبر »
- صيحة الحرب - حتى كان النسر الرومانى يترنح ثم يتسرع فى التراب
لآخر مرة • وكان جنود العرب يطأونه بالأقدام •

وهناك فى الشرق البعيد كان لسير الحوادث أقل الأثر • فكانت الهند
لا تزال دويلات تافهة متعددة متأخرة متناحرة على السلطة سياسيا وحريريا •
وكان الصليبيون على عاداتهم يقاتل بعضهم بعضا • فجاءت أسرة
« سو » وأقصت وقتتها أسرة « تانج » وبقيت ثلاثة قرون •

أما فى اليابان فقد اعتلت عرشها ملكة لأول مرة وابتدت البوذية
تتغلغل وتؤثر فى العقلية اليابانية ومثلها العليا •

وكانت أوروبا تتحول تدريجيا الى اسباطورية الفرنج التى ستحوط
على مرور الأيام فرنسا وايطاليا الشمالية ومعظم الأراضى الواقعة شرق
الرين حتى الحدود البروسية الهولندية الحالية • ومات « كروفيس » وكان
أمر تنويج « داجوبرت » آخر ملوك أسرة « مورفنجيان » من الملوك اللاتين
وكانت إسبانيا وانجلترا دولتين صغيرتين •

أما الجزر البريطانية فكانت دويلات مستقلة بعضها عن بعض • وقد
قد انتضى على خروج الرومان منها مائة وخمسون سنة • وقد بدأ
سيل جارف من أهل الشمال • وكانت انجلترا نفسها تتكون من سبع دويلات
منفصلة • وكانت اسكتلندا موطن « البريقظ » المحاربين

وان زيارة « كولومبس » الحديثة لهم حولت ملكهم الى مسيحية
وتاحت لهم فرصة الاتصال بالعالم المتحضر • وكانوا يبيعون
يتسبون فتوسمهم القديسة فى « ويلز » • وكان غلب الأيرلنديين
يعيشون كما يعيشون اليهود • وكان الآخرون ينسبون الى
الأديرة فيبعثون الرسل للتشيد أسس السلية (١) العظيمة فى بلادهم •

(١) السلطة من طائفة من الرسل الذين أرسلوا الى اسكتلندا وويلز
واسكتلندا وويلز وويلز واسكتلندا

وكان تاريخ شمال أفريقيا مرتبطا بتاريخ الرومان البيزنطيين • فقد طرد « بلساريوس الوندال » • فساد سلام قلق شيطان البحر الأبيض الجنوبية • لقد كان الهدوء الذي سبق عاصفة الجيوش الاسلامية • وعلى الرغم من أن الأوربي لم يظأ بقدمه الأرض الأمريكية بعد • فقد كان هناك أناس لهم مدنيتهم الخاصة • فكانت قبائل المايا • في عصر « محمد » • متقدمة في هندسة البناء والفلك والحساب • وكانت الهجرة قائمة هناك في أقصى الشمال من آسيا عبر مضيق « بيرنج » • فكان القادمون الجدد يحاربون المستوطنين ويدفعونهم أمامهم شطر الشرق • فكان السكان الأصليون يقيسون شعائر الخصب والعلاقات الجنسية الشاذة بحساس أناس صارت أيامهم في الأرض معدودة •

كانت الدنيا على قدر ما يمكننا أن نتصور ، لا تختلف كثيرا عما هي عليه اليوم • فكانت آفاق الامبراطوريات وجشع الاستعمار يدفع الناس لقتل بعضهم بعضا في وحشية في القرن السادس كما هو الحال الآن في القرن العشرين • وكان القتل والتعذيب وأعمال القسوة ترتكب في أيام محمد وهرقل باسم مدينة أو أخرى كما ترتكب اليوم في أيام « البابا بيوس الثاني عشر وجورج السادس » • ولم يتعلم الجنس البشري شيئا من الدروس التي جرعتها في الألفية عام التي مضت .

وقوله أيضا : وكان هناك الى جوار سوق بصرى دير للرهبان النسطوريين المسيحيين وكانوا يعرفون « أبا طالب » فدعوه الى طعام • وقد لفت « محمد » نظر « بحيرى » الراهب بأسئلته وتفكيره وتطلعه الى المعرفة • وقد أثرت فيه أفكاره الجديدة • فراح الراهب يحادث العربى الصغير وكأننا كان يحادث رفيقا من رفاقه • فأخبره بعقيدة عيسى • وسفه عبادة الأصنام : وأرهف محمد السمع الى ما ينطق الرجل به • فقد كان غريبا يخالف ما نشأ عليه واعتقد فيه (١) وان الشخص الآخر الذى حدثه

(١) بهذا برزنى بهذا لأن يقول فى الفصول الاخيرة ، أن محمدا قد تعلم من بحيرى ما جاء فى القرآن من نصوص تنفق ونصوص الكتاب المقدس ، على الرغم من أن محمدا لم ير الكتاب المقدس أبدا ، وأن هذا التعليل واه • فقد كان محمد فى العاشرة ومن غير المعقول أن تتسأله واحدة من بحيرى ومحمد فى سن العاشرة ترك هذا الاثر • أن من حظ بحيرى أن قابل محمدا فلولا هذه المقابلة لاندثر كما اندثر ملايين الرهبان •

حديث المسيحية كانت الجارية « بركة » . وكانت مسيحتها تقية . فلم يتمكن آئذ من أن يفهم ما تقول . وأن ما يسمعه الآن مجلى كل الجلاء فالوثنية وعبادة الطبيعة تتناحيان والمنطق . هذا هو الحق . وليس من المعقول أن يكون لدى محمد أية فكرة عن الديانة أو كيفية تطبيقها على نفسه . وما كان في شبابه ليشك في عبادة أصنام الكعبة . وأنه قد اختزن في عقله الراعى ما قاله الراهب النسطورى . فاذا ما جد الجد وجد عنده قدرا من المسيحية استغله خير استغلال .

وما كان الراهب هو المؤثر الجديد الوحيد في محمد في ذلك الوقت . فقد كانت العقائد والأديان تتشابك في سوق عكاظ في كل موسم . فكان اليهود والنصارى وعبدة الأصنام وعبدة النار من الفرس يتلاحقون . فكان التسامح الدينى يسيطر على الجميع . وكانت الأحقاد تتناسى كما هو الحال فى الألعاب الأولمبية . وكانت بعض الأعيان تبرم ولكن الملاهى المتوافرة من سباق الى انشاد أصحاب المذہبات والمعلقات الى شرب الى رقص كانت أكثر ما يجذب البصر . . . وكان قس بن ساعدة راهب نجران النصرانى يخطب الناس من فوق جبله شارحا عقيدته . وكان يقضى الساعات وهو يتحدث ويحدث الناس عن تفاهة الحياة الدنيا وعظمة الحياة الأخرى . ولقد استمع « محمد » الى شذرات من هذه الخطب . وفى السنين التالية كان محمد يخطب من فوق جبله . وكان حديثه يحوى كثيرا من العظات التى كان يرددها الراهب النصرانى . . .

وكان اليهود القوم الوحيدون الذين لم يقدرود . وكانوا فى الواقع يبدلون ما وسعهم البذل ليعارضوا نجاحه . فبدلا من أن يشيدوا بانتصاره راحوا يقللون من قيمته . وقد فعلوا ذلك فى دورهم وفعلوه جهارا وقد سخروا من الوحى . واستفادوا من سباح « محمد » لأى انسان بالدخول الى المسجد فراحوا يسخرون من صلواته . وقد اعترضوا على امرأة من بني قريظة به القرآن . وجاءوا بالانجيل ليثبتوا كيف أن القليل من أحكامه كان أميلا . وكتبوا هجاء فيه وفى المسلمين وذهب بعض سفار اليهود الى القاء الحجارة عليه كما حاولوا اغتياله .

وعلى ذلك فقد أحس المسلمون أنهم يصبرون على الضيم في المدينة .
كان اليهود في تلك الأيام • كما هم الآن • يسيطرون على المصارف المحلية
ويقترضون عسائهم . فلما تحسنت أحوال المهاجرين هبط عليهم اليهود
وراحوا يبتزون ما عندهم ابتزازا •

وقد يسأل سائل : لماذا كان يفعل اليهود ذلك في هذه البقعة التي
تبعد مئات الأميال عن وطنهم . ولماذا كشفوا عن هذا المقت الخالص لمحمد
والمسلمين ؟ وإن الجواب بسيط .. إن خلقا ليعتقدون أن طرد اليهود
من فلسطين نه علاقة ببريطانيا العظيمة أو بابن السعود . أو بادولف هتلر .
وهذا خطأ كله . فقد كان اليهود منذ أزمان سحيقة عرضة دائما للطرْد من
وطنهم الذي استولوا عليه تسللا بالقوة ولندكر بعض الذين طردوهم .
فهناك « سرجون الثاني » سنة ٧٢٢ ق.م. وبختنصر سنة ٥٨٦ ق.م. وبومباي
سنة ٦٣ ق.م. وطيّس سنة ٧٠ ميلادية . وطردهم « هارديان » طردا نهائيا
سنة ١٣ ميلادية . ولا يوجد بفلسطين اليوم إلا ٦٥٠ ألفا من الخمسة عشر
مليون المنتشرين في العالم .

فكلما وقع اضطهاد لليهود • رحل المضطهدون الى مسالك أخرى • وقد
تغلغل كثير منهم في جزيرة العرب • فإنه بعد أن نهب طيّس بيت المقدس
استولت ثلاث قبائل قوية على المدينة أو يثرب • كما كانت تسمى • هذه
القبائل هي بنوقينقاع وبنو قريظة وبنو النضير • وحولوها الى معقل
زراعي . ومنذ ذلك الوقت شب النزاع واستمر بين اليهود والقبائل العربية
المحلية التي سارت فيما بعد بنى الأوس وبنى الخزرج • واستفحل القتال
في خلال السنوات السابقة للهجرة مباشرة • وانهى في سنة ٦١٨ م. بسوقة
دامية في مكان يعرف بالبواض • ثم قررت الأحزاب المقاتلة بعد ذلك انه من
الأحكم تناسي الاختلافات في الرأي • وقد تقرر تبعا لذلك تناسي المناقشات
والذم تحت امرة زعيم عظيم ، وكان عبد الله بن أبي العرربي الرجل الذي
انتخب لهذه المهمة • وكان صديقا لليهود • ولكن قبل أن يثبت التعيين ظهر
محمد وأصحابه ذوو الشياب الرثة فبدلوا كل شيء ••

ومما جاء في الكتاب عن القرآن : فالقرآن كتاب جليل يعكس صورة
« محمد » • بل انه محمد في الواقع •• وعلى الرغم من ذلك فهناك
قليلون من غير المسلمين . ودارسو الاسلام ليس عندهم أية فكرة عن ماهية
القرآن • فعلى الرغم من وجود تراجم له عديدة جيدة بالفرنسية والانجليزية
والألمانية فمن النادر أن تجد غريبا قد قرأه . فقد سمعت بعضهم يتحدثون
عنه • على اعتبار أنه تاريخ « محمد » أو على أنه مجموعة من الحكم من
نوع حكم « كونفيوشيوس » • أو على أنه مجموعة قوانين محمد أو على
أنه تأويل للكتاب المقدس . والظاهر أنه حتى مؤرخي محمد قد تجنبوا
التحليل أو الشرح لهذا العمل الذي عليه قام الاسلام جميعه •
ويرد في الحديث قائلًا : فكانت النتيجة عملاً مرفقاً مفقوداً
ولا يحمل أية فكرة عن تكوين أية خطة في رأس محمد أو عن الظروف التي
كانت تحيط به وتؤثر فيه • وكان الارتباك عاما حتى أن « فولتير » حين
أن قرأ القرآن : كتاب لا يسكن ادراكه يخالف عقولنا في كل منجزاته
ويقول أيضا : وفي الواقع أن عدم التسلسل هذا في قطعة أدبية ليس
مسلما دون أن يلتقي كثير اهتمام الى من يقرأه في بداية السلفية
وأن هذه الصحف المفككة التي كانت عند حفصة هي التي
القرآن الكريم • وعلى الرغم من ذلك فلم يلتفت كثير الى هذا الاختلاف
الاختلافات تبدو في طبعات القرآن التي انتشرت في العالم الإسلامي
في النسو •

وقوله أيضا : وفي الواقع لا يسكن إقامة البرهان بوضوح على
وتطور عقل التاجر الرحالة المرسل الى عقل حاكم جزيرة العرب التي
هذه السور المرتبة ترتيبا زمنيا • وان هذه السور مرتبة ترتيبا
فولتير عن الموضوع • وتبطل ما قاله « جوتيه » : « كلما قرأ القرآن
تجدد امتعاضنا ثم يجذب بالتدريج • ويشير فين الدهشة في
الاعجاب به في النهاية •

وقد ظل أمرا غامضا كيفية معرفة محمد بقرآنه لا قبل
سبق أن أشرنا الى ذلك •

ويقول : وهناك هذه الترجمة التي تعزى الى « ورقة » • ولكن ليس هناك أقل شاهد على أن محمدا قد اطلع عليها . وكان حديثه مع ورقة يتعلق بعموميات اللاهوت • وان السبب الذي يؤكد عدم اطلاعه عليها أن ورقة قد مات قبل أن يبدأ محمد في تدوين ما أوحى به جبريل اليه • وقبل أن يبدأ في تنسيق القرآن بكثير • وان أول طبعة عربية للعهد القديم قد نشرت بعد المسيح بتسعة قرون ، أي بعد موت محمد بسا يقرب من ثلاثة قرون ، بينما أن أول طبعة رسمية عربية للعهد الجديد قد ظهرت بعد ذلك بقرنين ، وللعرب ذاكرة واعية مدهشة • فمن الممكن أن محمدا كان قادرا على أن يختزن في عقله كل ما سمعه خلال رحلاته • وأن هذا يبدو عملا خارقا • ولكن هذا هو التفسير الممكن الوحيد • الا اذا قلنا صراحة أن القرآن وحي من السماء •

وقال بودلى : وقلنا أفكر في محمد كرسول الله الذي أصبح أتباعه سبع سكان الأرض وقلنا أفكر فيه كسلهم للجنود الذين امتدت فتوحاتهم امتدادا لم يتجاوزه الا جيوش الامبراطورية البريطانية • وقلنا أفكر فيه كسؤلف للقرآن • ذلك الكتاب العجيب من الأحكام والدين والنظم • ولكني أفكر فيه كصبي فعل الخير لقومه • وأفكر فيه أيضا كشاب له مثل أعلى يضطهد ويعذب من أجله • ثم يرغم، اسرته على أن تعترف بأنه كان على صواب • وأن ما فعله محمد بالسيف ومن فوق منبره كان أقل خطورة من دحضه القول السائد بأن لا كرامة لنبي في قومه • فانه قد بدل أفكار أهله ، ومن الواجب أن نذكر ذلك اذا ما شئنا أن نقدر قصة الصحراء الناجحة هذه حق قدرها ••

وقوله أيضا : وكان من أسرة طيبة تجرى في عروقها دماء قريش • ولكنه ما كان من امراء التجارة • وكان فاشلا في تلك الناحية • فعلى الرغم من علاقات اسرته جسيما فانه ما فعل شيئا يلفت النظر • لقد ظل أمينا ولكنه كان أجيرا ••

وقوله : ولم يبد لي محمد قديسا كما يراه المعجبون به • ولا دجالا كما يزعم محقروه ، وقد قالت عائشة عنه — وكانت تعرفه حق المعرفة وما

كانت مخدوعة فيه - : كان كيسا ونيلا ، كانت تبرق أسارير وجهه غالبا .
ويتسم كثيرا (١) •
ومن أقواله :

* فما كان يهمل أمر الله أبدا • وما كان يسبح لمركزه أن يدير رأسه • وسواء أقرأ الانسان لكتاب من مناصري محمد • أو لكتاب من أعدائه • فانه ليجد أنهم جميعا قد اتفقوا على أن البساطة والوقار كانتا تعم حياته • والبساطة المتناهية احدى قوى الاسلام الأساسية • وانها لأحدى أسباب انتشاره الملحوظ •

* أكان في مقدور رجل ما لم يكن ملهسا ، أن يأتي الى الوجود بشئ هذه الأخوة العالمية ، وهلا تنعكس سخرية معادى الاسلام عليهم؟ • وكيف يترك دجال عقيدة ازدهرت ونست بعد موته ؟ ان عدد معتقئ الاسلام ليزيد اليوم بسقدار ربع مليون في كل عام ! • وهذا دون ضغط أو ارهاب لنشر رسالة الاسلام •

* ولم يكن لمحمد بولص (١) وكان جنوده هم ناشرو الاسلام الأصليون • وأنهم قد تركوا الاسلام ثابت الدعائم حيث ذهبوا • وان هذا ليجعل المرء يتساءل عما كان يحدث لو أنه كان هناك ارساليات عربية عظيمة تبشر بالقرآن كارساليات المسيحية الأولى • وما كان هناك دعاة عظماء للاسلام بالمعنى المعروف • فقد كان الناس الذين يتعاملون وهذا الدين يحبونه • فكانوا يقبلونه ويدخلون فيه • ومن الناحية الأخرى فإن الاسلام لم يبق في دولة تختلف عن مكان مولده كل الاختلاف • فقد حكم المسلمون اسبانيا حكما رائعا خسة قرون • ولكن لما عاد الملوك المسيحيون وهدموا القتيش المقدس خبت عقيدة المسلمين وماتت •

(١) ترجمة الحديث عائشة رضى الله عنها وليس النبي

(٢) يقصد المؤلف أن المسيح لم يتم رسالته وإنما تم بالنسبة الى محمد

فقد اتم رسالته •

وزيادة على ذلك فما كانت أوروبا لتعتنق الاسلام لو أن « شارل
مارتل » قد هزم في تور • فان هذا الدين يوائم أناسا غير معقدين • وكان
محمد غير معقد • الخ •

وغير خاف ما في بعض أقوال « بودلى » ما يدل على الجهل بالتاريخ
وعلى تعصبه وعدم نزاهته في البحث والتنقيب وعلى حقه للاسلام ورسوله
الكريم •

وفي العام الماضي صدر كتاب للعالم الاستاذ « موتجى وات »
عبد قسم الدراسات العربية بجامعة أدنبرة باسم « الاسلام والجماعة
المتحدة » • جاء فيه :

ان المعركة بين محمد عليه السلام • وبين كفار قريش لم تكن معركة
بين دعوة تجديد ودعوة محافظة على القديم ، بل كانت معركة بين حركة
تجديد وحركة تجديد أخرى • ولكن في مريقين مختلفين • بل متعارضين •

كانت حياة كفار قريش تتحول من معيشة البداوة الى معيشة الحضارة
تجارية • وكانت ثروة الأرباح من تجارة القوافل تتدفق على زعماء
قبائل القوية في مكة وتتحول بهم من أخلاق فرسان البادية الى أخلاق
سادة المنعنين في الحضارة • بينما أناس من عشائريهم وأتباعهم وعبيدهم
يخدمونهم مضطرين ولا يشاركونهم في نعيم الثروة ولا في عزة السطوة •
فهم كسدتهم غير محافظين • وغير مطمئنين الى ما هم فيه • وان كانوا
يحذرون التغيير المجهول ولا يسلمون زمامهم للصلحين على غير ثقة بعاقبة
هذا التغيير • فلم يكن السادة ولا العبيد - اذن - محافظين على القديم
كما رغبتوا لاقناع أنفسهم بحاربة الدعوة المحمدية وفاء منهم لآبائهم
واجدادهم ورعاية منهم لأربابهم ومعبوداتهم • بل كانوا جميعا يتحولون
من سنن أولئك الآباء والأجداد في معيشتهم وأخلاقهم • ويأخذون في معيشة
جديدة شعارها الترف والمتعة وأملها الأكبر زيادة الثروة والسطوة وحققتها
الواقعة هي حقيقة كل « متعة حسية » يجور صاحبها على نفسه ويجور على
المحرومين منها باختياره وبغير اختياره • وهذه هي الحياة التي وصف
القرآن الكريم أصحابها فقال : « أفرايت من اتخذ الهه هواه » وقالوا :

« ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ، ان هم الا يظنون » •

أما التغيير الذي جاءت به الدعوة المحمدية فقد أفلح واستقر لأنه أعطى النفس الانسانية - كما أعطى الجماعة كلها - حياة أفضل من حياتها وغايتها أحق بالسعى اليها من غايتها . ليس متاع الحياة الدنيا غاية حياة الانسان لأن متاع الحياة الدنيا غرور وضلال بغير الباقيات الصالحات •

وليس المجتمع الانساني سوقا للسادة والعييد • ولكنه « أمة » تهتدى بامام واحد وامامة واحدة . وقبلتها التي تؤمها تستقيم على الجادة ومادامت مستقيمة عليها فهي قبلة الخير والتقوى يتساوى فيها العاملون الصالحون ولا يتأثر بها صاحب الثروة والسطوة أو تتأثر من حوائه عصابة الأسرة أو العشيرة وزعامة البادية أو الحاضرة ••

ويقول الاستاذ : ان فكرة « الأمة » • كما جاء بها الاسلام هي الفكرة البديعة التي لم يسبق اليها ولم تنزل الى هذا الزمن ينبوعا لكل فيض من فيوض الايمان يدفع بالمسلمين الى « الوحدة » في « أمة » واحدة تظمي فيها حواجز الأجناس واللغات وعصبيات النسب والسلالة • وقد تقررت في الاسلام بخلق هذه الوحدة بين أتباعه فاشتتلت أمته على نفوس من العرب والفرس والهنود والصينيين والمغول والبربر والسيود والبيض على بلاد الأقطار وتعدد المصالح • ولم يخرج من حظيرة هذه الأمة أحد ليس عليها ويقطع الصلة بينه وبينها • بل كان المنشقون عنها يعتقدون أنهم أتباع من يخالفونهم الى تعزيز وحدتها ولم شسلها ونقى العرب عنها ••

تساءل المؤلف : أكانت العقيدة الدينية ضرورية لخلق فكرة الأمة بهذا المعنى ؟ •

ألم يكن في وسع الزعامة العظيمة ان توحد بين العرب « الشخصية » المطاعة المحبوبة ثم تدع هذه الوحدة تظمي أتباعها من الدين من غير أبناء الجزيرة ! •

ورأى المؤلف أن فكرة « الأمة » هي التي راضت رجال مثل عبيد الله بن أبي « بقبول الرئاسة الدينية • لم يكن ليقلها لو كانت رئاسة محمد

رئاسة دنيوية . وان فكرة الأمة هي التي جعلت أناسا من الفرس يؤمنون بأنهم أحق من بنى أمية بنصرة الخلافة الاسلامية على قواعد المساواة بين جميع المسلمين . وأن فكرة الأمة هي التي جددت للبلاد الاسلامية في كل عصر قبلة تلوذ بها وتهتدى بهداها . وهي التي ثبتت في صدور المسلمين أنهم « أمة » واحدة أمام الغزوات الأجنبية .

ويقول المؤلف : ان عقيدة الاسلام تزود أبناءه في كل عصر بالصورة المحركة التي ينظرون اليها ويترسمونها ، وتسمى هذه الصورة المحركة بالانجليزية Dynamic images أى « الطيف » أو المثال الذى يحفز السائر الى الحركة والتقدم ويهون عليه مشقة الطريق وأقرب من ذلك باللغة العربية ان نسميها « القبلة الموجهة » أو القبلة المستجابة ، لأنها كلمة موافقة لشعائر الاسلام .

وسر هذه القوة في العقيدة الاسلامية أنها منحت الفرد مقياسا للحياة ورفع وأسلم من مقياس العصبية والمنعة وهو مقياس الضمير المستقل عن أصحاب السيادة وانها - مع هذا الاستقلال الفردى - لم تترك الجماعة بغير وجهة تعتد عليها .

فأبدعت لها فكرة الأمة . وحررت هذه الفكرة من ربة العصبية وحددوا الوراثة فأصبح معنى « الأمة » قابلا للتطور مع الحوادث والظروف . . .

وعلى هذه القاعدة من تحديد عمل « الظروف » الاقتصادية بحث الأستاذ « مونتجومرى » عوامل نشأة الاسلام وعوامل « الوحدة » التي امتازت بها الدعوة المحمدية وجعلها المؤلف موضوعا لكتابه ، وان كان قد وقف بها عند نهاية القرون الوسطى ، ولم يتقدم بها الى العصر الحديث . ولقد أصاب المؤلف في التنويه بسعنى « الأمة » في العقيدة الاسلامية واعتباره معنى فريدا خالقه العقيدة الاسلامية ولم يكن له مرادف بسعناه في لغة من اللغات قبل الاسلام ولا بعد الاسلام .

وصدق قول الله تعالى : « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ، لئلا يكون للناس

حجة الا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشونى ، ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون » .

وهكذا نجد فى هذه الأيام الكثير من المؤلفات فى اللغات الأوربية عن حياة النبى عليه السلام ، والرسالة الاسلامية ، بعضها خاضع لأغراض السياسة أو خاضع لأغراض التبشير ، وبعضها الذى يكتبه أناس متمردون على ساسة الدول وجماعات التبشير يخضعون لآفة أخرى هى آفة الجهل بالحقائق والعجز عن فهم الشرق والشرقيين كما يفهون أنفسهم فى حاضرهم وماضيهم . ومن المؤلفين المحدثين عن نبى الاسلام من يكتب عنه ليتخذ من هذه الكتابة ذريعة الى نشر مذهب فى الحياة الاجتماعية يعارض مذهب الديانة الاسلامية فى هذه الشؤون .

ولم تخل المكتبة الأوربية الحديثة بعد هذا كله من كتابة عنه صلوات الله وسلامه عليه ، تنقل الأخبار عن مصادرهما صحيحة محققة . وتؤدى الأمانة للتاريخ أداء العالم الذى يحاسب ضميره وعقله فيما يكتب . ويترفع عن رواية الكذب أو الخطأ وهو عالم به متعدد لاخفائه .

الا أن هؤلاء جميعا يكتبون مؤلفاتهم للحاضر ولا يعينهم أمر الماضى فى هذا الموضوع بعينه ، وهو موضوع حياة النبى وصفاته الشخصية . كما نقول فى تعبير العصر الحاضر ، فيتركون المخلفات القديمة على حدة فى مكتبات علماء الدين وورثة اللاهوت من أبناء القرون الوسطى . وتظلم تلك المخلفات مشحونة بالأباطيل والأغاليط ، تسمم عقول أولئك اللاهوتيين ومن يتلقى العلم عنهم من ناشئة المبشرين ، ثم يتخرج هؤلاء الناشئة مؤمنين بصدق دعوات التبشير وصواب الحملة على الاسلام كما فهسوه وفهسوا معه أخبار نبيه الكريم فى حياته الشخصية . وخلق الموصوف بتلك الأباطيل ولو انهم فهموا أسرار أباطيلهم ، لارتدوا على أنفسهم واستطاع الاسلام ان يغزوهم فى معاقلتهم فاذا هم يرتضونه لأنفسهم قبل ان يتفكروا .

العالم مستبسلين فى تشكيك المسلمين وتنفير غير المسلمين عن الاسلام .
وتلك المخلفات عن القرون الوسطى . وقد تجمعت فى مكتباتها من تصانيف علماء اللاهوت الذين هالهم نفوذ الحكمة الاسلامية والأدب

الاسلامى بين طلاب العلوم الدينية عندهم على أثر قيام الحضارة الأندلسية
 بأوروبا الغربية ، وكان من طلاب الحكمة الاسلامية بينهم أناس وصلوا الى
 مقام البابوية وأناس ارتفعوا الى مقام الهداية الفكرية بمعزل عن الكنيسة
 بل على خلاف عقائدها الماثورة ، فلما هالهم هذا النفوذ الفكرى وأزعجهم
 شيوعه فى معاقل الفكر ومعاهد العبادة أقبلوا على تأليف الكتب التى
 اجتهدوا غاية الاجتهاد أن يصبغوها بالصبغة العلية ليضمنوا رواجها بين
 طلاب المعرفة واقناعها لمن يطلبون الدليل ولا يقبلون أن يخذعوا بأباطيل
 الدعاية والتضليل . وجعلوا همهم كله تشويه الحكمة الاسلامية بتشويه
 مصدرها الأول وتمثيل صاحب الدعوة الاسلامية فى صورة بعيدة عن
 التقديس والاحترام ، ولا حاجة بهم بعد ذلك الى البحث فى دقائق الحكمة
 وأسرار الفلسفة لتنفير الأفكار من النبى ورسالته ، لأن تمثيل انسان مقدس
 فى الصورة التى تنزع القداسة عنه يسر جدا من عناء الدراسة فى نقض
 العقائد وادحاض الأفكار .

وقد نجحت هذه المكيدة الساذجة فى حينها ، ولا تزال بقاياها
 برسدها فى مكانها يحفظونها ويعيدونها مالا فى تكرار هذا النجاح بين
 الناشئة المتعلمين من رجال الدين قبل غيرهم . عسى أن يكون لها أثرها فى
 خلق الحساسية الضرورية لكل مبشر يجرى أن يصدق الدعوة والاقناع .
 بعد أن شاعت فى هذا العصر شكوكه وشبهاته ، وأوشكت أن تعصف
 بيقين المبشرين أنفسهم ، وهم يدعون الآخرين الى اليقين .

ان مهارة أصحاب المكيدة من نوع المهارات الرخيصة التى تعتبر
 رخيصة لأنها تنجح بتقليل من الجهد ولكنها تفشل وتخفق بجهد أقل منه .
 ونجاحها فى أكثر حالاتها انما يتوقف على الفضيحة وعلى سهولة الاصغاء
 اليها فى طبائع الجهلاء والأغرار ، بل فى طبائع بعض الفضلاء الذين يسرعون
 الى النفور من التهم السوء لأنهم يعافون السوء ويعرضون عن التفتيش فى
 دخائله والتحدث بأخباره أو تضيق عقولهم أحيانا عن الجمع بين الاحتراز
 من قالة السوء والاحتراز من قبول هذه القالة بغير دليل .

أما فشل الفضيحة بالقليل من الجهد فمرجه الى ضيعة الاشاعات كلها

في صميمها ، فان خبرا كاذبا من أخبارها قد ينكشف للسامع فيهدم مئات الأخبار الكاذبة التي تستهوي الأسماع الى تصديقها (١) .

احدى هذه الأكاذيب التي احتفل رواة القرون الوسطى بتزويقها وترويجها ، أكدوبتهم عن قصة « زينب بنت جحش » وزواج النبي عليه الصلاة والسلام منها بعد تطلقها من زوجها .

تلك القصة أرسلوها في غياهب القرون الوسطى لينظر الناس في ظلماتها الى وصمة انسانية يعاف من أجلها خلق الانسان ، ويعاف الدين الذي يدعو اليه من أجله .

ويزيد عليها خبر صغير لا شك فيه ، فاذا هي شهادة بالنبوة كاحسن ما تكون الشهادة للانباء ، لأنها شهادة بغاية البر والاحسان الى الأسير الضعيف الغريب عن أهله ووطنه . وغاية البر والاحسان الى المرأة المجروحة في عزتها ، بعد أن غلبها ضعف الأنوثة والعرف على شعورها برغم ارادتها . وكانت فضيلة الصدق مع فضيلة العفة أكثر الأهداف التي تعدهم أصحاب هذه المكيدة بالانكار فيما زيفوه من القصص المحرفة عن حديث النبي صلوات الله عليه . وهذه أيضا كانت لهم مهارتهم الرخيصة لأنها سمهه الشيوع سهلة التنفيذ .

فكل ما توارد من الأنباء بين القرآن والكتب الاسرائيلية . فهو يوحى صادق في كتب بنى اسرائيل . ونقل غير صادق في كتاب الاسلام . مع التحريف والخطأ حيانا في الرواية من الكهان اليهود أو الكهان المسحوقين .

وقد كان رواج هذا الزعم سريعا بين أبناء القرون الوسطى (٢) لأنهم كانوا يعتقدون جسيما أن الكتب الاسرائيلية هي مصدر تلك الأخبار الأولى . وأن الاختلاف فيها إنما يكون بطبيعة الحال تحريف من قبل النبأ الذي جاء بعد تلك الكتب بترتيب التاريخ .

لكن الخبر الصغير الذي ينقض ذلك الزعم من أساطير التسميات

١١ عن مقالة للاستاذ العماد . . .

١٢ تعبد هنا وفي هذا الفصل ما كتبه الترجمة للاستاذ العماد حين الفصل الذي ذكره بعض المستشرقين ، لأنه في الواقع الملقب على انباء (توكل) والاطلاق من دون حياطة .

الحفريّة أثبتت اليوم أن الكتب الاسرائيلية لم تكن هي المصدر الأول لما ورد من أنباء القرون الأولى في التوراة أو التلمود .

وقد أثبت القرآن أنه روى عن النبوءات السابقة أخباراً لم تذكر ولم ترد الإشارة إليها في كتب العهد القديم ولا في أقاصيص التلمود وما شابهه من أسانيد اليهود ، فإذا كانت مصادر الجزيرة العربية ومصادر بين النهرين أوفى وأقدم من المصدر الاسرائيلي ، فهذا المصدر الأخير أقرب الى فطنة الخطأ والتحريف من ذلك المرجع الأصيل .

وتزاد على هذه الملاحظة الصغيرة ملاحظة أصغر منها ليتحقق المؤرخ أن عمل العصبية القومية كان أفعال وأظهر من عمل الأسانيد التاريخية في ترويض تلك الإشاعات أو تلك الأكاذيب لأن اسم الكاهن الذي زعموا أنه كان يسلي قصص القرآن الكريم على النبي صلوات الله وسلامه عليه ، كان يختلف دائماً باختلاف مرجع الإشاعة المفتراة ، فإذا كان المرجع مسيحياً ، فالراهب سرجيوس أو بحيري ، هو الملقن لتلك القصص ، وإذا كان المرجع يهودياً فالملقن هو حاخام اسرائيلي مجهول ، كما جاء في رواية « بيدرو دي الفونسو » الذي ينتهي في أصله الى بنى اسرائيل .

ثم قال الأستاذ المرحوم « عباس العقاد » : ان هذا الموضوع يعاودنا كلما وقع نظرنا على عنوان من عناوين الكتب الكثيرة التي تصدر في هذه الأيام عن تواريخ القرون الوسطى ، وقد عاودنا مجدداً ، مؤكداً ، بعد الاطلاع على آخر كتاب مفصل ظهر بالانجليزية عن « الاسلام والغرب » من سنة ١١٠٠ الى سنة ١٣٥٠ ميلادية لمؤلفه الأستاذ « نورمان دنيال » من علماء كلية الملكة بجامعة اكسفورد .

واعلنا لا نخطيء التعبير اذا قلنا : انها جميعها مكتبة تغرى بالتأليف في التعليق عليها ، لأن تفتيدها في هذا الزمن أيسر من ترويجها في زمانها ، وليس أولى باجتهاد المسلم في رد العادية عن عقيدته وتاريخه من رد التبشير على عقبيه الى معقله الحصين ، فانه لأحرى أن يشتغل بالخوف على معقله من الجرأة الخرقاء على معاقل الاسلام .

وكان الأستاذ العلامة « جوستاف ا. فون جرونباوم » أحد أولئك المستشرقين الذين هفت نفوسهم الى دراسة الاسلام ، فأخذوا يقلبون فيه الفكر ويسعون فيه النظر ، فاذا هو ينتهي الى نتيجة اعتقد أنها خلاصة لكتابه « حضارة الاسلام » : هي أن العرب أعطوا العالم الاسلامى وما ينزله من بلاد الشرق قرآنه ولغته وعقيدته ، ثم تناولوا ما بتلك البلاد من ثقافات وحضارات قديمة فامتصوها وهضوها وأخرجوها للناس فى قالب عربى رائع أخذ كادت تخفى فيه معالمها الأصلية وأصلها الغريب .

ولقد بدأ « جرونباوم » مع الاسلام حيث نبت . وتبعه وليدا ناشئا وترسمه قرآنا وسنة ودرس أصوله ومذاهبه وفرقه بأسلوب علمى دقيق . فهو لا يكاد يورد فكرة ، الا أورد لها نصا ، وأورد للنص مرجعا . وأشهد لقد كان فى كل ما نقله نزيها ، ما حرف لفظة واحدة الا أن يفوته فهمها . وأشهد انه لم يذم الاسلام بلسانه قط ، ولا تنقص رسوله الكريم . بل الحق أنه كثيرا ما كان يعنى على أولئك الذين يخرجون عن جادة المنصف والوقار فى نقدهم ، وانه ، وهو الأجنبى عن الملة . لم يفته أن يظهر تقديره لما جاء به الطاهر الصادق من عقيدة الاسلام . نعم انه نقل عن غيره بعض نصوص لم يراع فيها جانب الحقيقة . ولكنه كان يعترض على طريقة منه لمجرد التشنيع ، أما النقد العلمى فسيبه مباحة للناس جميعا . اذا كان المرمى هو وجه الحق والصدق وتبيان العقيدة على ما يفهمها أحد أتباع الناشئين فى محيطها . الغواصين وراء أغوارها المتشربين بروحها . وأعنه حين يقرأ تلك الردود يعود فيرى فى عقيدة الاسلام رأي آخر إذ يشهد تحت نور آخر .

أما ترهات المتعصبين من التساوسة ، فكان الدافع اليها عدم الفهم والجهل والتعصب . وليس للحقيقة ولا وجه الله . ولا ما يربط بين المقصد من البحث فى الرسالة الاسلامية والدعوة المحمدية .

وكانت أبحاث المؤلف من الناحية الحضارية والأدبية ، العميقة جديرة بأن تنف ازاءها طويلا . وأن نلفت اليها نظارا دارسى اللغة العربية . فانه فضلا عن النهج العلمى الذى اتبعه فى تعقب الظواهر الحضارية والإنسان

الأدبية والفن والفن وراءها حتى مصادرها الأولى في عتيق الثقافات والمدنات. وفضلا عن ايجاده بهذه الطريقة الاستقرائية الدقيقة نظرية علمية لها دعائسها القوية ، هي أن الحضارة والأدب عند العرب والأقدمين يتفقان على تباينهما في الظاهر ، في الفكر والمنهج والعادة . فان مطالعة الكتاب كقيلة أن تفتق للقارئ شعابا في الأدب العربي ، وأن تبرز له مناحي لم يكن منتها إليها قبل تلاوته ، وان فيه من الدعوة الى العناية بالأدب المقارن ما هو حقيق لو أخذ به أن يبعث نهضته في الدراسات العربية الأدبية وان فيه من أسماء المراجع العربية والأجنبية ما أكاد أقطع بأن معظم محبي الأدب العربي ، لا يكادون يعرفون اسمه ، فما بالك بسحتوياته ؟ .

ولا ريب في أن قارئ الكتاب سيفهم الأدب العربي فهما جيدا وسيعود الى كتبه الأدبية فيقرأها ، وقد تفتحت فيها نظرات وفجاج وتكونت له فيها آراء ستجعله يدهش من نفسه ومن تغير نظرتة الى لغته وأدبه .

ولعله يثير في نفوسنا رغبة حقة الى مدارس ذلك التراث الضخم من المؤلفات العربية التاريخية منها والجغرافية والأدبية والدينية والصوفية والفلسفية التي حفلت بأسمائها هوامش الكتاب والاطلاع على المراجع الأجنبية التي عنيت بتقديم تراثنا والتي يقابل بينها المؤلف وبين شقيقاتها العربية .

ولعلنا نحظى من ذلك بدراسة أصيلة ومقارنة تعيد مجد السلف وتكون نبراسا لأبنائنا من بعدنا والأجيال القادمة .

ومن الأمثلة التي جاءت بالكتاب « صفحة ١٤ » :

واذا قيست دولة الاسلام الى القسطنطينية وروما ظهرت في زى الوعي المحدث ، ذلك أنه لم يكن للاسلام ماض تليد ولم تكن له تقاليد تاريخية ، ولذا قد نجرؤ على أن نقول : ان الاسلام استولى على الأصول التاريخية لعالم الرومان والفرس والكتب المقدسة .. الخ .

والرد على ذلك أن الاسلام دين سماوى منزل ، فما أنزل به الوحي على الرسول الصادق أبلغه للناس بأمانة كما نزل ، فالقول اذن بأن الاسلام قد استولى على محتويات الكتب المقدسة ، هو من الاسرائيليات المعروفة .

وجاء في صفحة ٢٧ :

كان الاسلام والمسيحية يختلفان في تفاصيل معظم التعاليم ، ولم تبرح فوارق العقيدة أثناء قرون نموه الثلاثة أو الأربعة الأولى تزداد حدة لعدم نضج الاسلام من ناحيتي علم الالهيات « اللاهوت » والفلسفة .

وفضلا عن ذلك فقد تولى عالم المسيحية عن الاقرار للاسلام بحقيقته الواقعية وهي انه ليس فرعا آخر من المذهب الاريوسى المؤلف ، بل دينا مستقلا يلقي قبولا عظيما عند الناس .. الخ .

والرد هو : انه كان بعض رجال المسيحية أول ظهور الاسلام يرون فيه فرعا من عقيدة آريوس الاسكندري الذي يغلب الناسوت في شخص المسيح « عيسى ابن مريم » صلوات الله عليه على اللاهوت ، ولكن نظره بسيطة الى فكرة الاسلام عن « عيسى » عليه السلام ترينا أنه يصوره نبي فقط وان يكن وجيها ومن المقربين ، فقد اعترف الكتاب له بالمعجزات . إذ يقول : « وأبرىء الأكمه والأبرص » ، ولكن « باذن الله » . فالقول بأن الاسلام فرع جديد زائغ من المسيحية قول لا أساس له . وإلا فسن نرى جاءت الخلافات الأساسية في جوهر العقيدتين ، فبينما الاسلام ينكر صلب المسيح عليه السلام ، تجعل المسيحية ذلك الصلب من أساسيات معتقدها . فاذا كان الاسلام حقا فرعا من مذهب آريوس ، فماله يتخذ مبدءا يهده ذلك المذهب من أساسه ؟ ومعلوم أن آريوس وان ناقش لاهوت المسيح لم يناقش قط ولم يشك يوما في الصلب .

وجاء في صفحة ٣٠ من الكتاب أيضا: وقد حاول « نيكثاس البيزنطى الذى كتب فى النصف الثانى من القرن التاسع كاشفا عن بيانات خاطئة فى كتاب المسلمين ، لا بوساطة النقد التاريخى بل بتقارن نص من القرآن بما ورد فى الكتاب المقدس .

يقول نيكثاس : كيف يصح نسبة بناء الكعبة الى « ابراهيم » وابنه « اسماعيل » كما يزعم القرآن (كذا) فى سورة البقرة (١) (١٢١) مع ان مؤرخ سفر التكوين الشديده التدقيق (٢٨ : ١٨) لا يذكر أى شىء مطلقا عن اقامة ذلك الأب الكبير لهذا البيت .

ولقد أسقط رأى ذلك المتعصب نيكيتاس اسقاطا منطقيًا ، المؤلف نفسه
اذ قرر أن نيكيتاس لم يستند الى دليل تاريخي بل اكتفى بمقارنة ما ورد في
القرآن بما ورد في الكتاب المقدس .

وجاء في الصفحة ٤٢ : وسورة الكهف الآيات (٨ - ٢٥) تروى
قصة النّاسين السبعة ، ولعلها تهدف الى تقريب فكرة البعث الجسدى
للأذهان وما ينجم عن ذلك البعث من حالة مستحبة ، ورواية القرآن تخرج
لنا صورة جميلة لقصة مسيحية عن سبعة رجال فروا الى أحد الكهوف ابان
الاضطهاد الذى حدث فى عهد الامبراطور « ديكوس » (٢٤٩ - ٢٥١ م)
ثم سد عليهم الباب بجدار فأخذهم النعاس حتى استيقظوا بعد ثلاثمائة
سنة وتسع فوجدوا بلادهم قد اعتنقت المسيحية ، ولم يلبثوا أن ماتوا بعد
أن اكتشف أمرهم مباشرة ، وأقيم على أجسامهم فى الكهف مسجد قرب
افسوس Ephesus

وينتقد « نيكيتاس » النبى بشدة لاقدامه على قص القصة ولروايته
ايها بتلك الطريقة الغامضة ، فيقول : ان الأسطورة المحمدية Mythario
(كذا) السابعة عشرة (١) التى تسمى سورة الكهف ، وتروى قصة فرار
فتية افسوس البررة السبعة الى الكهف ، ويذكرهم ذلك البدوى الأسمى
لسبين :

أولهما : اظهر العلم بكثير من الكتب المنزلة .

وثانيهما : استخدام المعجزة التى منحوها لمصلحة تعاليمه .

ولما كان يعلم حق العلم أنهم كانوا مسيحيين وأنهم .. الخ .

ان زعم نيكيتاس بأن الصورة التى تحويها سورة الكهف فى القرآن
سورة اجبالية أو غامضة انما يدل على أن نيكيتاس لا يفهم البتة الغاية
التي رمى اليها انزال هذه السورة وغيرها من السور القصصية ، ذلك أن
نزولها لم يقصد به التفاخر بالعلم ، لأن الله جلت قدرته هو أعلم العالمين بل
هو العليم بكل شىء مضى ، أو لا يزال منظويا فى سجل الغيب ، ولا قصد

(١) الواقع انها السورة الثامنة عشرة ، وما ذلك الا لان نيكيتاس لا يحس الفاتحة
عندما يعد السور .

به تليذ السامعين وامناعهم بحبكة قصصية فقد جل الله عن ذلك تبارك وتعالى ، وانما الهدف الاساسى لاحتواء القرآن على قصص هو الموعظة والعبرة التى ينتفع بها الناس فى معاشهم ومعادهم ، والتى يتزكى بها من يتزكى أو يكفر بها من كتبت عليه شقاوة الكفران ، ثم هى تسلية وسلوى للنبي والذين آمنوا معه بعد ما أصابهم القرح ولقوا من عنت قومهم ما لقوا . سواء أكانت الصورة اجمالية أم مفصلة غامضة أم واضحة المعالم ، فالمعول كله انما ينحصر فى تلك الموعظة الحسنة التى يفيدها من كتبت له السعادة فى الدنيا والآخرة . ومع ذلك فالواقع ينقض فكرة اجمالية الصورة ، اذ الصورة التى تتكون لدى الانسان عن سورة الكهف واضحة المعالم بينة الدلالة قد وصلت الى هدفها من حسن العظة وزيادة .

ان « نيكيتاس » ذلك المتعصب الجاهل يسمى السورة باسم الأسطورة ، تماما كما فعل جهال العرب اذا قالوا عن القرآن انه أساطير الأولين .

ولقد قصد نيكيتاس بلفظة الأسمى التجريح . ولكن الواقع انه لم يدر أن فى هذه اللفظة نفسها اعترافا للرسول بأساس الرسالة . ذلك أن مفخرة النبي انما تقوم على أنه أسمى . وبرهان صدقه ينهض فى كونه وهو الأسمى المقيم فى تلك البقعة النائبة من العالم جاء بهذا الدين القيم الحنيف بس حوى من شريعة وتهذيب وأخلاق وأمثال وعظة وقصص وسير أنبياء . فالحجة هنا للرسول عليه الصلاة والسلام . وأى نقد يستطاع توجيهه الى حادثة أراد بها المولى سبحانه وتعالى أن يعظ بها عباده وأن يظهر لهم احدى معجزاته وقدرته العظيمة التى لا يتف دونها شىء !

وجاء فى صفحة ٦٥ : وكان المسيحي اذا نظر الى الإسلام لا يجعله الأول أن يدرس هذه الظاهرة المجسدة فى سورة عقيدة أنبياء الله . تجمع بين المشابهة والمخالفة لعقيدته .. الخ .

وفى هذه الفقرة ينقل المؤلف رأى المسيحية فى القرون الوسطى فى الدين الاسلامى الحنيف : وهى المسيحية تتخبط فى الرأى . فتارة تقول

ان الاسلام صورة جديدة من المسيحية ، وتارة تقول انه تشويه لها ، وفاتها
ان الانجيل قد جاء لينسخ التوراة ، وجاء الاسلام والقرآن ليغير ما أراد
الله ان يتغير ولينسخ ما أراد ان ينسخ ، وليجدد ملة ابراهيم .
وفي الصحيفة نفسها يقول :

وكان الاهتمام الشعبي يتركز حول شخصية « محمد » يحدثنا
« يوحنا الدمشقي » الذي يتناول الاسلام على انه فرقة مسيحية مارقة .
كيف انه حدث في أيام الامبراطور هرقل ان ظهر بين العرب متنبئ
Pseudo prophetos اسمه « نامد » . وانه اطلع على كتب العهد القديم
وجديد ثم ما لبث بعد ان اتصل براهب من أتباع آريوس ان أسس نحلته
(كذا) . وقد استطاع بالتظاهر بالتقوى (كذا) ان يكتسب قلوب قومه .
ثم أخبرهم بعد ذلك ان كتابا مقدسا قد أنزل اليه من السماء يشتمل على
تعليقاتهم المقدسة . وقدم اليهم الفرائض المضحكة (كذا) التي وصفها في
ذلك الكتاب . قائلا : انها شريعتهم المقدسة .

« يوحنا الدمشقي » هذا مثال الجاهل المتعصب في القرون الوسطى
والمؤلف . هنا وفي مواضع كثيرة أخرى من الكتاب ، انما يقدم أقواله
وقوال غيره ليكشف عن الطريقة المهرفة العبياء التي كانوا يطلقون بها
تسنتهم في حق الرسول الكريم ودينه القويم ، ويستهنون هذه اللهجة
العجيبة ويراهها خروجاً عن كل قواعد الجدل والمناقشة المنطقية اللائقة .
وجاء في الكتاب ص ٦٦ :

وكان أول مؤرخ بيزنطي عالج أمر « محمد » هو « ثيو فانيز »
توفي ٨١٧ م الذي قدر لكتابه « حياة النبي » أن يكون مرجعا هاما لمن
تلاه من الكتاب . ومن سوء الحظ أن « ثيو فانيز » لا يبين مراجعه التي
أخذ عنها .

واليكم ما قاله : في هذه السنة (عام العالم ٦١٢٢ من بدء الخليفة
المقابل ٦٣٢ م) توفي « محمد » حاكم العرب ونبئهم ، بعد أن عين قريبه
أبا بكر خليفة له ، وفي نفس الوقت كان الخوف مستوليا على الجميع ، وعند

بداية ظهوره ظن العبرانيون الضالون أنه المسيح الذي كانوا يتوقعون ظهوره ، لذلك انضم اليهم كبارهم وتقبلوا دينه وهجروا دين موسى ، الذي رأى الله جهرة Theoptsa والذين فعلوا ذلك كانت عدتهم عشرة ، وقد لازموه حتى لقي نهايته ، ثم عدلوا عن رأيهم عندما رأوه يأكل لحم الجمل (كذا) ، اذ أدركوا انه ليس ما ظنوه أولا ، فتحيروا ولم يعرفوا ماذا يصنعون . وخاف التعساء من الارتداد عن دينه . فرمونا نحن المسيحيين بتهم السلوك غير المشروع ، وواصلوا مناصرته .

وبعد استطراد موجز في العلاقة الداخلية بين القبائل العربية . يعود ثيو فانيز فيقول : ولما كان محمد المذكور فقيرا ويتيسا . فانه قرر ان يربط نفسه بامرأة ثرية من ذوى قرباه ، هي « خديجة » بان جعل من نفسه وكيلها لقاء أجر يتناوله . يتولى شئون ابلها ويقود بأشغالها في مصر وفلسطين ، ولم يرض طويل زمن حتى فاز برضا السيدة . وكانت أيضا . وبفضل طرائقه الصريحة اتخذها له زوجا . وبذلك حصل على ابلها وسائر مستلكتها . وقد اختلط في فلسطين باليهود والمسيحيين . وبواسطتهم حصل على بعض الكتب المنزلة . ووصيب كذات بمرض عصبى (كذا) .

فلما ان علت زوجته بأمره حز في نفسها انها وهى العريضة الأحمس . قد أصبحت اليوم مرتبطة بانسان لا يقتصر أمره على انه فقير . بل هو أيضا مريض (كذا) .

فراح يهدئها بقوله : انى تلم بى رؤية ملك من الملائكة اسم جبريل ولما كنت لا أقوى على تحمل مرآه فانى تخور قواى (١) وقع على الأرض وكان يقيم بتلك النواحي راهب . كان قد تسمى الكفرة واتخذته مستورا . فأخبرته خديجة بكل شىء . كما بلغته باسم الملاك . فنادى هدى الى الله ان يقنعها تماما . فقال لها : لقد قال الصدق . فما ذاك الملاك الذى يهدى الى الله الذى يرسل الى النبيين كافة . حتى اذا قبلت خديجة كذبا لم يصدقها . فصدقها . أعلنت لنساء عشيرتها الأخريات ان زوجها نبي .

(١) انى تلم بى رؤية ملك من الملائكة اسم جبريل .

وهكذا انتشر الخبر من النساء الى الرجال ، فبلغ أولا أبا بكر ، الذي جعله فيما بعد خليفة من بعده ، وانتهى الأمر بأن استطاعت شيعته (أو قل فرقته المارقة) (كذا) أن تحصل بالقوة ، أو كما قال ثيو فانيز بالحرب ، على السيادة على منطقة يثرب .. الخ .

والرد على هذا هو : ماذا ينتظر من قسيس محقق في القرون الوسطى الا أن يتفوه بمثل هذا الهراء الذي لا يستحق أن يرد عليه أحد ، ان هذه ترهات وتخرصات من نوع ما كان يلقي جزافا في تلك الأيام دون سند يؤيده من تاريخ أو رواية .

ويهمنا أن نسجل للمؤلف ، أعني « جاس » ، دقته العلمية النزيهة اذ يسرد هذه الأقوال تبياناً لروح العصر فقط لا لقيمتها العلمية . ولا يفوته في الوقت ذاته أن يسجل على ثيو فانيز أيضا انه لم يبين المصادر التي استقى منها تجديداته وتخرصاته . فسن هؤلاء العشرة ، وماذا في آكل لحم الجمل ؟ ومع ذلك فان تاريخ اليهود مع النبي في صدر الاسلام وما انطواوا عليه من حقد وعداوة وغدر وخيانة معروف مشهور .

والصحيح المجمع عليه هو أن النبي عليه الصلاة والسلام ذهب الى فلسطين مرتين أولاها وهو صغير ، وثانيتهما وهو كبير في اشراف على ابل السيدة خديجة ، ولم يتجاوز في الحالتين مدينة بصرى ، وليس معقولا أن يتم بينه وبين اليهود والنصارى في فلسطين من الاتصال والاحتكاك في أمد وجيز كالأمد بين وصول العير وققولها ما يتيح ذلك الاختلاط الذي يرمى اليه ثيو فانيز وان ما كان يغشى النبي من غاشية اذ ينزل عليه الوحي ، انما مرده الاتصال الروحي بالقوى العليا .

فأما ما يدعيه ثيو فانيز من أن الرسول الصادق عليه الصلاة والسلام قد حكم يثرب حربا ، فقول ينقضه التاريخ .

وأما ادعاء ذلك الرجل بأن النبي حرض رجاله على القتال فذلك كان أقل واجب على قوم طردوا من موطنهم الأصلي مكة وحرمت عليهم أموالهم وأعمالهم ومنعوا من ممارسة حقوقهم كأناسي . ونفوا من ديارهم وأوذوا

هم ومن يلوذ بهم .. أليس من حقهم اذن أن ينتصروا لأنفسهم ؟ وأن يردوا عنهم كيد الكائدين المعتدين لا لذنب الا أنهم قالوا ربنا الله وأنكروا على مكة عبادتها للاصنام .

أما عدا ذلك من بذاءة فالرد عليها مضيعة للوقت ولعل القارىء يستشعر فيها اعترافا صريحا بالعجز عن مقارعة الحجة بالحجة ، ولم يرو أحد أن ورقة بن نوفل قريب خديجة الذى استشارته السيدة كان نصرانيا أو راهبا ، وانما هو رجل متحنث من الأحناف يعبد الله على ملة ابراهيم . وهذا يكذب دعوى ثيوفانيز (١) من كل وجه .

وفي الصفحة ٧١ ، ٧٢ جاء :

ففى ١٢٧٣ - كتب وليم الطرابلسى Volantam Disrinam رسالة عن حالة العرب ومحمد النبى وشريعتهم وعقيدتهم ، والصورة التى صورت محمدا ، وان كانت أبعد ما تكون عن شخصيته التاريخية ، فان ما بها من العناصر الخرافية والمطاعن ، قد أنزل الى الحد الأدنى الذى لا غنى عنه لمدافع عن المسيحية فى القرون الوسطى . يقرر وليم أن العرب يعتقدون أن جبريل نقل الإرادة الإلهية William of Tripoli الى النبى ، ثم مسح المؤمنون ما كان ينطق به كتابا .

ويستطرد وليم فيقول : ان للكاثوليك مع ذلك رأيا آخر . فهم يرون أنه بعد أن مات محمد أراد أنصاره أن يعالجوا عقيدة والشريعة معالجه شاملة قائمة على تعاليه ، فلما تبينوا أن الرجل الذى يبط به العمل لم يرزق الكفاية اللازمة لأداء ذلك على الوجه الأكمل ، طلبوا الى اليهود والمسيحيين الذين أسلموا أن يساعده . وعند ذلك رأى هؤلاء من الأفضل أن ينتقوا فقرات مناسبة من العهد القديم والجديد وأن يزوجوها بالكتاب كيفما اتفق (كذا) ، وبذا أصبح الكتاب على قدر عظيم من الوثائق التى المنقول من الكتب المنزلة . ما بين مسيحية ويهودية (كذا) .
الاسلامى الأصيل فليس الا تشويها وتحريفنا (كذا) .

(١) ثيوفانيز كما تسمى له من Theophrastus Continuatus

ناشره ١ - بيكر (يون ١٩٢٨)

هذه تخرصات ليس لها سند ، وتاريخ الاسلام كله توضحية في سبيله وثبات على مبادئه ، وان القرآن الذى هو كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه قد أجمع العرب كلهم على أنه وصل إلينا على نفس الشاكلة بالضبط التى تركه عليها رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ولم يذكر أحد قط لا من مشركى العرب وكفارهم ولا أى من سكان العالم على اختلاف أديانهم فى جميع العصور ، اللهم الا هذا المتعصب المفترى ، ان حرفا واحدا زيد فى القرآن ، أو أن كلمة واحدة نقحت فيه ، فأما أكاذيب قساوسة القرون الوسطى المغرضين فلا أدحض لها الا كلام المؤلف فى فصل آخر من هذا الكتاب نفسه حيث يقول : ان الكتاب الكريم لم يزد عليه شئ ولا أنقص منه بعد وفاة النبى ، فرسول الله عليه أفضل الصلوات ، هو الذى رتب آى القرآن سورا قبل انتقاله الى الرفيق الأعلى وتركه على ما تراه اليوم من تقسيم وترتيب .

ويقول : ولم تشهد البلاد قط قدرا كبيرا من الحياة العاطفية الدينية القومية الخالصة ، فضلا عن النظر فى الالهيات أو الفلسفة . وليست ذوات معظم الآلهة الكثيرة التى نقلت الينا أسماؤها واضحة المعالم ، فهى كلها تقريبا ذات أهمية محلية لا غير . ولم يحظ واحد منها من أتباعه بأى جهد من جهود الخيال ، ثم ان حياة الترحل كانت تؤدى الى فصم علاقة القبائل بمعبود كان معبده يقوم فى ربوعهم يوما من الأيام . وكثيرا ما كان الكهان الذين يقومون لسدانة المعابد من غير القبيلة التى يعملون بين ظهرانيها ، وأكثر ما كانت هذه الآلهة حجرا غريب الصورة أو مجسومة من الأشجار لها قوة التنبؤ ويحيط بها حصى مقدس . وحتى « هبل » نفسه الذى كان تشالاه قائما بسكة فى الكعبة ، أشد بقاع الجزيرة اجلالا ومهابة ، لم يثر يوما أية ناحية ابتداعية من العقول المتدنية .

وكان مصدر الجاذبية الحقة فى الكعبة للتعبد النقى ، حجرا عتيقا أسود لاسقا ببعض جذرها ، وقد شعر النبى أنه مكره أن يدخل شعيرة ذلك الحجر فى المناسك كأنما هو شاهد عجيب على عجز الاسلام عن التخلص مما يحيط بأصله من أمور قديمة فجأة .

وقد وصلت ثلاث ربوات اناث الى مكانة كريمة تتجاوز النفوذ المحلي وترتقى الى حد ما الى رسوخ الشخصية ، واليهما يشير القرآن (مستكرا) بأنهن بنات الله . وهى مناة « القدر » واللات « الربة » ولعلها فى الأصل ربة الشمس « ، والعزى « وهى الزهرة أو نجمة الصباح » . ومع أن شخصياتها هى أيضا كانت حالكة اللون أو تكاد فانها ما كانت لتستطيع أن تثير أية حماسة دينية مبعثها التقوى ، فلقد بالغ من استقرارها فى أذهان المكين أن محمدا وقد أملت به حالة عجيبة من التساهل فيما كان يأخذ به نفسه من شدة التوحيد الذى لا يقبل أخذا ولا عطاء ، ظن فى وقت من الأوقات انه مستطيع ان اعترف بمنزلتهن وقوتهن القدسية ، أن يحل أبناء قومه على الكف عن ايداء أتباعه الذين ليس لهم من مجير قوى يحسبهم . ومع ذلك فسرعان ما ندم محمد (كذا) على ذلك ، وصورت الآية الكريمة الربوات بأنها : « ان هى الا أسماء سميتوها أتم وآباؤكم » (سورة النجم آية ٢٣) .

ولم يستل البدو فى أى مكان حساما للذب عنهن عندما أنزلهن المسلمون عن عروشهن ودمروهن . وما كان ذلك الا لأن آلهتهم قد انكشفت حتى أصبحت مجرد أسماء لا تصونها الا رهبة مبعثها الاعتقاد بالخرافات . والتعقيب على ذلك : أنه كيف غاب عن المؤلف ذكر قس بن ساعدة الأيادى ونبي بنى عيس الذى ضيعه قومه كما جاء فى الأثر عن الرسول وهؤلاء الأحناف الذين هالهم ما تردى فيه قومهم من وثنية وضعية وعبادة لأنصاب لا تضر ولا تنفع . فأخذوا يبحثون عن الخير ولاحق . ولقد شاءت ارادة المولى جل وعلا أن تشعر قريش بأن شيئاً قد استنع به مكة من مكانة لن يتغير ومن ثم أمر الرسول فحول القبلة من بيت المقدس الى مكة ونزل الوحي بمناسبة الحج الى بيت الله الحرام الذى رفع قواعده ابراهيم فاطمأنت قريش على مستقبلها وملت الجميع من مكة الثلثة . فدخلت قريش كلها فى دين الله . ودعا العرب جميعا بسيدنا محمد الأوثان ولم يبق من معبود غيره تبارك وتعالى . ولم يعد يدعى الى البيت الحرام الا اسم الله . فبقاء الحجر الأسود اذن لا ينطوى على أية وثنية . وكان للعرب فى الجاهلية كما سبق ذكره .

وجاء في الكتاب صفحاتي ١١١ ، ١١٤ ، عن مشكلة الجبر والاختيار ما يلي : ولنا ندرى مدى اتضاح مشكلة الجبر والاختيار لدى الاسلام في أول عهده ، ذلك أن التنزيل حينما يؤكد أن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، لم يكن يرغب بطبيعة الحال في تشييط الجهد الخلقى ولا في أن يرسم الله في صورة جبار قاس ، وكل ما في الأمر انما هو محاولة للتعبير بأقوى عبارة ممكنة عن قوة الله المطلقة التي ليس الى تعليلها سبيل . وان النبي ليضطرب لما من عليه الله من أيد تؤيده وتنصره ، كما انه يستلج بالسعادة والقوة الدينية اذ يحس بضآلة قدرة الانسان ، ولعل هذا هو على التحقيق المعنى العاطفي وان لم يكن المعنى اللاهوتي لهذه الكلمات الشديدة : « فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم » (سورة ابراهيم : ٤) .

يشير المؤلف هنا الى مشكلة الجبر والاختيار والقضاء والقدر وكيف لا يكون المسلمون الأول على بينة من مشكلة الجبر وفيهم صاحب الرسالة ؟ والحق أن هذه المشكلة كانت ولا تزال من مشكلات الفلسفة والدين والأخلاق والقانون ، وكانت موضع خلاف كبير بين الفرق الاسلامية والمفكرين ، فمنهم من يقول بأن الانسان مخير ، ومنهم من يذهب الى أنه مسير وان من يكتب عليه الشقاوة فقد كتبت عليه منذ الأزل ، وانه مهما فعل فسعيه محتوم « فريق في الجنة وفريق في السعير » ومنهم من توسط فقال ان للانسان كسبا فقد خلقه الله وهداه النجدين ، ولهذا الكسب يثاب ويعاقب والتبعة والمسئولية تقع على نفسه بناء على هذا الكسب ، والمؤلف ينظر هنا الى رأى واحد فقط من آراء الفرق الاسلامية .

وفي الفقرة الثانية (ص ١١٤) يُنحو فيها المؤلف منحى بعض غلاة الفرق اذ يشددون على أن الانسان مكتوب عليه ما قسم له من السعادة أو الشقاء منذ الأزل وانه مهما يفعل فلن ينجو من مصيره المحتوم .

ولكن يبقى بعد ذلك ، فرق أخرى تقول : ان الخير والشر كسبان وتعتمد الجسيرة في ذلك على آيات من التنزيل تجعل الانسان يعيش بما ركب فيه من عقل وهوى واتزان وهوائج وبذلك يكون مسئولا عما يعمل ولا يكون أى أحد عداه مسئولا عن ذلك ، ولا شك كما قلنا أن الله فيما يرى بعض هؤلاء الأئمة ، منشىء الشر وكما يأخذه المؤلف رأيا ثقة

اجماعيا فلا شك أنه كذلك خالق الخير ، ولا شك كذلك أن يصف نفسه بأنه الرحمن الرحيم ويأمر الناس بالعدل والانصاف .

ومما جاء أيضا في ص ١١٧ : ثم ان الرفعة الأدبية التي يؤذن بها القرآن تزداد سموا وقوة بفضل طائفة جسة من الفقرات أودعت أروع آيات الجمال الفائق والحسن المشرق الممتاز ، وليس ثمة شك أن كثيرا من السطور التي قد تبدو لأعيننا عادية كانت مما يذهل معاصريه ويهز نفوسهم هذا . بيد أن هذا التشبيه الرائع لذات الله العلية وما يحتل من الترفع الخفى الذى عليه بهاؤه وجلاله سيظل ينفذ الى سويداء القلوب على كر الدهور : « الله نور السموات والأرض ، مثل نور كمشكاة فيها مصباح : المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسه نار ، نور على نور » « سورة النور » .

وهذا رد قاطع على آراء الغربيين التي تقول بأنها تأخذ على الكتاب الكريم المآخذ ، وان بعض المسلمين يشركونهم هذا الرأى . وفى الصفحة ٤٠٩ : ومن الجلى الى حد ما ، أن ثمة خسة أصول ثقافية هي التي عنيت بالتطور الإسلامى . فان ما نزل على « محمد » من تعاليم وحدت بين الأفكار والقيم اليهودية والمسيحية والعربية . وقد وحد شرع النبى باسم العرب كل ما تكن اساغته عليا من تقاليد الجاهلية . وحارب محمد عقلية العرب ونظمتها . ولكنه لم يغيرها البتة تغييرا جوهريا وكانت ديانة القرآن تعنى تقديما ضخما بالنسبة للعرب . ولكنها كانت منخلفة اذا قورنت بالمرحلة الروحية التي بلغها غرب القارة الآسيوية . وكان الاصرار على استبقاء التراث العربى من آيات أصالة «محمد» . ولكن عنصر التأخر النسبى فى الاسلام لم يقدر له البتة أن يستأصل . وذلك لما هو معدود . كراهية الأجيال التالية والنخلى عن كل ما له علاقة بالأمم التي هي منسوبة للتقديس . وقد نزل الوحي منذ البداية مصدقا لكثير مما من يده من الإنعام اليهودى والمسيحى وما من مؤثر آخر تغفل بسبل هذا العشق الى مسيم لباب الاسلام .

• مما سبق يتبين أنه لا حاجة بنا الى الدفع المتكرر بأن الرسول لم يأت بشيء من عنده ، فلم ينقل عن الشريعة اليهودية ، ولم ينهل من معين مسيحي . ولم يحي مراسم جاهلية . وبديهي أن كل ما فى أمره عليه الصلاة والسلام انه حمل الرسالة وأمر بنشرها بين الناس فأداها خير أداء .

والحق ان فى هذا القول لخطأ كبيرا وقع فيه المبشرون من قديم الزمان وهب لمكافحته رجال الفكر العربى فى الأزمنة القديمة والحديثة . فهذا الإمام « محمد عبده » قضى حياته مدافعا عن الاسلام مقيما البرهان على ما احتوى من آى الروحانية الكبرى ، وكذلك فعل كتاب العصر الحديث حتى لم يبق ثمة موضع لكلمة تزداد .

ولكن لننظر الآن الى الاسلام نظرة عجلى وعمامة تقدر بها ما فيه من تلك الروحانية ، فهو دين يأخذ الناس جميعا بلا فارق فى منصب أو لون أو لغة أو جنس بشرعة القرآن الكريم من صلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وحياة وسات لله رب العالمين وزكاة تخفف لوعة فقر الفقير ، واستشهاد فى سبيل خدمة الله والدين وجهاد ضد النفس الآمرة بالسوء وتطهير للانفس من الإدراخ . ودفعها بكافة الوسائل من لين وجزر وعنف وانذار الى التحلى بالفضائل التى اتفقت عليها البشرية والكتب السماوية من الصدق الى الحلم الى الايثار الى التواضع الى الرحمة والاخاء والصبر على المكاره والانصاف والاحسان والتسامح ونبذ هذه الدنيا وما فيها من مادة والايسان بالله ايمانا قويا شديدا متسكنا وحب الله حبا تفضى معه ذات الانسان فى ذاته تعالى . اذا كان ذلك كله ليس بنزعة روحانية فأين الروحانية اذن ، وكيف تكون ؟ فانا لا نعرفها الا كذلك :

والواقع انه ليس لليهودية ولا النصرانية أى فضل فى الهام الاسلام . بل الفضل لله وحده ، وذلك بشهادة نزول الوحي نفسه حيث يقول عز من قائل : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا » .

ولباب القول أن اللغة العربية قد ولدت بنزول القرآن ولادة جديدة . وأنشأت خلقا آخر .

وجاء في الصفحة ٤٣٩ من الكتاب : واذا نظرنا الى الاسلام من جهة ما أراد أن يقوم به في أول أمره رأيناه قد أخفق في تحقيق أمر دعوته للناس كافة ، غير أنه نجح في تزويد المؤمن بشكل للحياة كريم متحضر . ولم يفتح الاسلام العالم ، وقد نست الحضارة الاسلامية بسبب تسامحها ازاء العناصر الأجنبية ، بيد أن تنوع تلك العناصر استعصى على الامتزاج الكامل . كنا أن الأساس العقلي لعروقتها العربية قد ظهر أنه أوهن من أن يتحمل ويوحد تلك الموارد التي ورثتها عن المواضع العديدة التي وجد الاسلام أن عليه تدبير شؤونها .. الخ .

والرد على ذلك أن الغربيين راحوا من قديم الزمان يزعمون أن النبي غير صفة الرب الذي كان يعبد فهو تارة للعرب وتارة لليهود . وتارة للناس كافة ، والله يقول في سورة الأعراف . وهي من تقدم السور المكية : « قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا » وما كان الرسول ولا الدين الذي جاء به ليذهبها الى ما ذهب اليه اليهود من اعتبار الله ملكا خالصا لهم وعدهم السعادة في الأرض والاصطفاء في الآخرة بل كل أحد لله وكل ما نزل به القرآن من آيات انما يشهد بقطع الشهادة أنه يدعو الناس جميعا الى عبادة واحد أحد والى الصلاة لرب العالمين .

وما قولك في فاتحة الكتاب التي تبدأ بآية منها بقوله تعالى « الحمد لله رب العالمين » ؟

وهذه شهادة رائعة المستشرق « دوار مونييه » في كتابه « ديار الله » . يسأل الباحث اعجابا بخطة محمد الدينية انه في بدء نشاطه كان من دعوة من به هم من بين أسرته وأقاربه . واننى لأعتقد أن محمد هو توحيد الناس مؤسسى الديانات الذي امتاز بأن يضم أول ما يضم قرب الناس اليه من الدم أو رباط القرابة القريبة .

ولقد وضع علماء النفس مقاييس تكشف عن القدرات العقلية للناس . وان لم تكن بالغة الدقة على أننا نستطيع ان نرى ان القدرات العقلية للأذكيا والمجانين والأغبياء في حياتنا العامة بسهولة . فكلنا نستعمل عقولنا عبقريا .

وحینا حاولوا قیاس قدرات السابقین العقلیة ، وقد مضوا فی ذمة التاریخ ، راحوا یدرسون سیرة هؤلاء الأعلام لیعرفوا کیف تصرفوا فی مشكلاتهم ، وکیف خرجوا علی مجتمعاتهم بجدید فی العلوم والفنون والاصلاحات .

ذلك هو المقیاس ، فأین مكانته فی التعرف علی الشخسیة المحمدیة الكریمة ؟

انا نستطیع أن نقول فی یقین انه مقیاس قاصر فی التعرف علی الذات المحمدیة فیما أبدعت ، وصنعت ، وانتجت ، وقدمت من خیر وحكمة للانسانیة « ففیثاغوس وسقراط وأفلاطون وأرسطو » عالقة الفلسفة الاغریقیة ، والنظرة الفلسفیة فی الوجود وأمثالهم أصحاب نظرات واعیة فی الفلسفة علی مر العصور .

ولكن هؤلاء هؤلاء قلما تجد لهم امتیازا فی غیر هذا المجال الفلسفی ونابلیون ورومیل وموتتجرى وهانیال وهولاكو وتیمورلنك وجنكیزخان وخالد بن الولید وسعد بن أبی وقاص وأبو عبیدة وعمرو بن العاص وطارق ابن زیاد ، عباقرة فی قیادة الجیوش ورسم الخطط الحریبة ، وفلسفة الدهاء العسکرى والسیاسی ، ولكنك قلما تجد لهم امتیازات فی غیر هذا المجال .

وباستیر ومدام كوری وروتنجن وفلیمنج كانوا عباقرة فی كشوفهم الكیمیائیة والطیبة ، والبیرونی وابن الهیثم والخوارزمی وكوبرنیقوس وجالیلیو نیوتن وأینشتین عباقرة فی البحوث الریاضیة والفلكیة والضوئیة وعلوه الطاقة والجاذبیة . ثم بوذا وزرادشت وكونفشیوس وحسورابی وأخناتون وكسرى أنوشروان الملك العادل ، وأوناس الحكیم ، وغیرهم زعاء فی الاصلاح والحكم والفقہ الكریم لقضایا المجتمع والحیة .

ثم الأنبیاء جمیعا وزعماؤهم الكبار -- ابراهیم وموسى وداود وسلیمان وعیسی -- علیهم الصلاة والسلام ، كل هؤلاء وغیرهم أربى علیهم جمیعا « محمد » صلى الله علیه وسلم الكریم فی شخسیته ورسالته ونظراته فی الوجود وحكمته البالغة فی قیادة المجتمعات ورسم خطط الاصلاح ، وارساء قواعد حكمة عالیة لفهم مشكلات الحیة والمجتمع .

ولقد قال أحد المستشرقين : لو لم يكن لمحمد معجزة الا أنه صنع
أمة من البدو فجعلها أمة كبرى في التاريخ لكفته معجزة في العالمين .
وقال غيره : لو أن كتاب محمد وجد في صحراء لكان الذي يعثر عليه
جديرا بالخلود ، ولو جاء من عنده لكان جديرا أن تدين له الانسانية بالولاء
فرسالته في قرآن كريم ، أو حديث شريف ، حكمة بالغة في الحياة أحاطت
بالمادة والروح وأعطت صورة سكون في أرضه وسائته ، وصورة للوجود
بدئه ومختتمه ، وأملا عاليا في الخلود في طاقات عليا بعد جسود المادة
واضطرابها . ثم تحدثت عن الخالق الأعظم في أروع صورة للواحد الأحد
الفرد الصمد لم يسبق اليها في فلسفة أو كتاب بهذه الصورة الجامعة
الكاملة .

وقال أحد الكتاب المعاصرين في كتابه « بواطن العراق وضواهره »
Mosopotamia شعب فشت فيه الفرقة ، وصعب توحيدده الى أن وقعت
المعجزة فقام بفضل شخصيته وقوة رسالته ، داعيا الى الرشد . وكان أن تلى
بالمستجبل ، فاتحدت الزمر المتعاركة .

وقال الناقد السير « وليام موير » وهو قطعا ليس بناقد محارب
للنبي : في حادثة محمد كانت حالة الجزيرة جد جامدة ومحافظة . وربما
يكن الإصلاح ميئوسا منه في أية مدة مضت كما كان في ذلك الحين . فقد
كانت أية محاولة للإصلاح تبدو كأنها مجرد شعبة أعداء أهلية وكفاية
القائم بها ، ولكن ما ظهر محمد حتى هبت العرب في الحال الى تلبية الدعوة
الروحية الجديدة .

ويقول موير : وأشد ما يسترعى النظر هو تفرق العرب وقتئذ الى
جساعات لا عداد لها ، لها نفس الطبائع والعادات تكلم في معظمها لغة
واحدة ، وتسير وفقا لناموس واحد غير مخطوط أساسه الشرف والأخلاق
المتوارثة ولكنها - أي القبائل - جد متفرقة . كل منها مستقل عن الآخر .
لا تعرف الهدوء والاستقرار . وكثيرا ما تكون في حرب مع القبائل الأخرى
حتى التي تربطها بها روابط الدم والمنفعة لأتفه الأسباب تدب الجفوة وتثار
العداوة بلا رحمة ولا هوادة .

وهكذا في عصر ظهور الاسلام كان ماضى تاريخ العرب أشبه بقلابة الألوان لا تستقر على حال من الجوع والتفريق ، لهذا كانت كل محاولة للاتحاد العام تذهب هباء ، ولكن كان لابد من ايجاد حل للمسألة ، وأين القوة التي تستطيع اخضاع هذه القبائل وجذبها الى نقطة الارتكاز ؟

لقد أتى « محمد » عليه الصلاة والسلام وتمت بظهوره المعجزة ، وقد أوجز القرآن الكريم في وصف هذه الحالة البشعة التي كانت عليها العرب في ذلك الحين . والتي شملت جميع مناحى الحياة ، في كلمات معدودات : « وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » .

وكثيرا ما تقام مؤتمرات دولية اسلامية لمناقشة البحوث الثقافية الاسلامية من كبار علماء الشرق والغرب .

وفي صيف سنة ١٩٥٣ . عقد بالولايات المتحدة الأمريكية « مؤتمر للثقافة الاسلامية » لعله الأول من نوعه في التاريخ الحديث ، شهدته بدعوة من جامعة « برنستون » ومكتبة الكونجرس الأمريكى ، عدد من علماء البلاد الاسلامية .

والغرض من اقامة هذا المؤتمر وما نوقش فيه من بحوث تتناول الثقافة الاسلامية في قطارها المترامية الأطراف . معالجة مشكلات الحياة فيها . وعرض آراء تستبد عناصرها ومقوماتها من بيئات وثقافات شرقية وغربية متباينة . وقد قصد المؤتمر من نشر هذه البحوث الى اظهارها لتكون عوناً للعالم الاسلامى على أن يفهم بعضه بعضا . وللعالم الغربى على أن يدرك العوامل الثقافية والروحية ذات الأثر الكبير فى حياة الشعوب الاسلامية . وفى تحديد موقفها من الفلسفات الاجتماعية والسياسية المعاصرة .

والمتتبع لتطورات الحضارة الغربية وموقفها من حضارات الشرق عامة وحضارة الاسلام بوجه خاص يدرك أن مؤتمر الثقافة الاسلامية فى برنستون وما دار فيه من مناقشات . وما قدم اليه من بحوث انما كان استجابة لتطور جديد فى علاقة الغرب بالاسلام وموقفه من أممه وثقافته . وان هذه المرحلة تمثل حلقة ثالثة فى التطورات التاريخية الكبرى لهذه العلاقة .

فقد كانت الحلقة الأولى في هذه السلسلة هي انتقال الحضارة الإسلامية إلى الغرب ، وارسالها الأضواء الفلسفية والعلمية والفنية من مركزها في أسبانيا وصقلية إلى مختلف الآفاق الأوروبية واتجاه تياراتها الفكرية والتجارية من الشرق إلى الغرب أيام العصور الصليبية. وقد ظفرت هذه الحلقة بالعناية الواجبة على يد المحدثين من الباحثين الغربيين إذ تناولوها بالتفصيل فيما كتبوا عن تراث الإسلام وفضله الثقافي على أوروبا .

ثم تجيء الحلقة الثانية في تلك السلسلة من عصر الأحياء الأوربي إلى القرن الحاضر . وهي مرحلة التخصص في الدراسات الشرقية وإنشاء المعاهد والمدارس لها . والبحث عن المخطوطات العربية والإسلامية والدرس النقدي للمصادر الكلاسيكية الإسلامية . فنذ القرن الخامس عشر أخذت كتابات الفلاسفة المسلمين مكانها البارز في دراسات بعض الجامعات الأوروبية . وعلى الأخص باريس ولوفان . وترجم فيها إلى إحدى اللغات الأوروبية لأول مرة في نهاية القرن السابع عشر كتاب ألف ليلة وليلة . وقدمت للجمهور الأوربي حياة النبي « محمد » صلى الله عليه وسلم . وبدأت تظهر كتب تربية عن الإسلام وتاريخه وآدابه . ثم ظهرت الجمعيات الآسيوية في أوروبا وأمريكا منذ أوائل القرن التاسع عشر . وحفلت مجلاتها بالبحوث . ونشر أعضاءها الكثير من الكتب الإسلامية والشرقية القديمة . وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر ابتدأت جماعة المستشرقين سلسلة مؤتمراتها الدورية . ويرتفع في الغرب أسماء ضائعة من أوائل الإغلام الذين تخصصوا في دراسة الشرق من أمثال « براون . نيكولسون . جب . غي . جيلتراند . و . دي . برسيغان . كاترمير . مسينيون في فرنسا . وفريتاغ . فولدكه . بروكارد في ألمانيا . ونلينو . جويدي في إيطاليا . وكان من شران جهودهم وحمولهم زملائهم ظهور دائرة المعارف الإسلامية في لغات اللاتين (الأناضول والفرنسية والألمانية) .

والآن نشهد عناية الغرب بدراسات الإسلام . وخصه اهتماما كبيرا . فقد تحولت العناية من دراسة الثقافة الكلاسيكية إلى دراسة الثقافة الحديثة في العالم الإسلامي في معاهدها وجمعياتها ومختلف هيئاتها وبيئاتها العلمية والجامعية

وقد استجاب الشرق الى تلك الرغبات الغربية فى فهم الدعوة الاسلامية عامة فقامت الجمهورية العربية المتحدة بتأسيس معهد للدراسات الاسلامية فى مدريد والاضطلاع بأعباء التوجيه العلمى فى المركزين الاسلاميين فى لندن وواشنطن . وهكذا يتجاوب التفكير بين الشرق والغرب ، وتسهد السبل لخلق جو من التفاهم الصحيح والتعاون المشر (١) .

قال الدكتور « بايارد دودج » مدير الجامعة الأمريكية فى بيروت سابقا وعضو المؤتمر :

لقد كانت أسباب التفاهم بين الغرب والشرق فى الماضى ناقصة . وكثيرا ما أدى ذلك الى عداة دينى وحروب . أما اليوم فالموقف جد مختلف . فكلنا غربيين وشرقيين مسلمين ومسيحيين تواجهنا مشكلات هائلة وعلينا أن نجاهد لتستبقى لأبنائنا أساسا قويا من الايسان . ومن الطبيعى فى هذا العصر الذى تحاول فيه المادية هدم الاعتقاد فى القيم الروحية أن يحس المفكرون من بنى البشر بسعنى جديد من الأخوة فى جهادهم لحل معضلاتهم المشتركة ، وفى اتجاههم الى الله رب العالمين ليلهمهم العون والتوفيق .

وقوله : وحس العلماء الأمريكيون بالرضا لما أفادوا من الاجتماع بزملائهم المسلمين من توضيح لصورة الاسلام فى عهد الأحياء فى القرن العشرين . وشعر العلماء المسلمون كذلك بالارتياح لما لمسود من عناية زملائهم الأمريكيين الصادقة بالاسلام ومن احساسهم بعظته ، وبأنه قوة اجتماعية روحية يحسب حسابها فى العالم الحديث .

وتكلم الأستاذ الدكتور « تشارلز د. ماتيووز » عضو قسم البحوث بشركة البترول العربية الأمريكية بالظهران واخصائى فى الشئون العربية ، قال :

من دلائل التوفيق أن الكتاب الغربيين لم يعودوا ينظرون الى بلاد العرب وغيرها من المناطق العربية والاسلامية فى العالم بالمنظار القديم الذى كان يعدها جزءا من المصالح الغربية العالمية التجارية والسياسية والثقافية .

(١) كتاب التفاوض الاسلامى والحياة المعاصرة (مجموعة البحوث التى قدمت لمؤتمر برنستون لدكتور « محمد حنف الله »)

ووسيلة لخدمة هذه المصالح . فقد حاز الوقت الذي يكتب فيه عن هذه البلاد وعن شعوبها على أساس مالها من أهمية بل ان كتاب البلاد العربية الديمقراطية عندما يعالجون الآن الموضوعات الدولية التي تسس مصالحهم الخاصة يصورون الشعوب العربية والاسلامية في صورة الشركاء والحلفاء الأكفاء في عصر جديد .

وان مستشرقى الولايات المتحدة الأمريكية ، وجميع الأمريكيين الذين عاشوا وعملوا في بلاد شرقية ليغتبطون كذلك لأن عصرا جديدا من اهتمام أمريكا ونشاطها فيما يتعلق بالدراسات العربية والاسلامية قد أشرق الآن فجره ، ولا شك في أنه قد كان للأمريكيين دائما شيء من الاهتمام بهذه الدراسات ، بل كان لهم بها اهتمام بالغ في بعض الأحيان .

وسأورد فيما يلي بعض مقتطفات نقلتها عرضا عن « فان ويك » Van Wyke أحد المؤرخين المشهورين للأدب والفكر الأمريكي . وهو مؤلف أحدثت أعماله حديثا ترويحيا للنفس من معاناة الشعر العربي القديم !

درس « جون بيكرنج John Pickerng » أحد سكان بوسطن اللغة العربية فيما درسه من اللغات العشرين التي تعلمها في سفره وفي دراساته . فكان أول رئيس للجمعية الشرقية الأمريكية Oriental Society American التي أسست سنة ١٨٤٢ وهيأت السبيل مدى قرن وبضع سنوات للمنطقة والنشر في ميدان الدراسات العربية والاسلامية .

وكان « نوح وبستر Noah Webster » من مدينة هارتفورد الجديدة بولاية كونيتيكت عالم المعاجم الأمريكي العظيم يحتفظ على مكتبته الدائري ، الذي كان يطوف حوله وهو يدرس بمعجم العربية والأربع وعشرين لغة أخرى .

وكان بعض العلماء الدينيين في نيويورك الذين يسمون بالعلماء يعرفون العربية ، وغيرها من اللغات الشرقية . ومن أشهرهم « بنجامين فرانكلين » وهو ابن فلاح من ولاية مساتشوستس ، وكان له اهتمام بالعلوم والحشية والعربية بالإضافة إلى معرفته باللاتينية واليونانية . وعدد من العلماء الأوربيين الحديثة . وكان « اليهوديات » من « مساتشوستس » من العلماء الذين

يكسب، قوته مدى سنوات بالعمل في دكان حداد ، وكان من تواضعه وبساطته لا يرغب الا في أن يقف في صفوف العمال . وفي أن يأخذ بيدهم الى الامام والى أعلى حتى يرقوا الى مستوى رجال الفكر . ولكنه استدعى لخدمة الحكومة لعبقريته وأعماله . وأوفد الى مدينة برمنجهام بانجلترا قنصلا لأمريكا . ونظم وهو في أوروبا مؤتمرات للسلام في انجلترا نفسها . وفي بروكسل وباريس وفرانكفورت بالقارة الأوروبية . وعندما اعتزل من بعد في مزرعة بالقرب من « نيوبرتيان بولاية كوتنيكت استأنف دراساته اللغوية . التي كان قد حصل عن طريقها أربعين لغة وكتب قواعد للغات السنسكريتية والفارسية والهندوستانية والتركية والعربية وصادر المحامي العالم « جورج بركنز مارش » George Perkins March الذي كان سفير الولايات المتحدة في تركيا من جملة ما أصدره من الكتب الكثيرة في برلنجتون بولاية فرمونت . دراسة علمية طريفة عن الجمل في كتاب منلوه بالقصص العربية الشائقة التي جمعها في سفاره بالبلاد الشرقية .

ان من الممكن ان يؤلف كتاب على طريف عن تاريخ التجارة الأمريكية القديمة مع الشرق العربي والاسلامى . ومن المعروف ان بواخر نيوانجلند التجارية المشهورة . وبواخر غيرها من المناطق ، لم تكن تنقل الى البحر الأبيض والشرق الأدنى . والى زنجبار ومهقط . والى الهند وجاوة . المنتجات الصناعية فحسب . ولكنها كانت تحمل اليها كذلك اثقالا من الحديد . وكانت الملاحه مقرونة بالأعاصير أحيانا . كما كان يحدث في مياه افريقيا الشمالية . من صنع الانسان . و من تصاريق القضاء . ولكن البواخر عادة لم تكن ترجع خالية . وحتى الآن في البيوت الواقعة على شاطئ البحر في المكتبات والمتاحف في نيوانجلند بصفة خاصة . لا تزال توجد وثائق وتذكارات . وشواهد أخرى تمثل تبادلنا التجارى والحضارى الذى بدأ في أزمنة مبكرة واستمر زمنا طويلا غير ان اهتمام أمريكا بالدراسات العربية والاسلامية حتى عصرنا هذا . كان الى حد كبير خادما لأوجه النشاط الخيرية . كالبعثات التبليغية والطبية أو لأعمال الآثار الخاصة بالكتاب المقدس وبالشرق الأدنى . وهكذا استطاع الكاشف، الأمريكى الرائد « ادوارد روبنسون » Ewar Robinson ببيروت منذ أكثر من قرن من الزمان . هو و « ايلي سيث Eli Smith » الذى كان

يتكلم العربية والذي عاونه في وضع ترجمة جديدة للكتاب المقدس الى اللغة العربية لمطبعة الارسالية الأمريكية التي أسست في بيروت قبل انشاء الجامعة الأمريكية بها بنصف قرن على وجه التقريب .

ولقد ساعد ايلي سيث زميله روبنسون في تعقب أساء المواضع التاريخية من العربية الى الصيغ السامية القديمة . وقد استمر الاستعمال الفعلي للغة العربية في ميدان الآثار ما يزيد على خمسين سنة وهي المدة التي قامت فيها المدارس الأمريكية للبحث الشرقي في اورشليم وبغداد . كما استمر مدة أطول من هذه . هي التي قضتها جامعات ومتاحف أمريكية يعمل كل منها على انفراد في التنقيب عن الآثار في منطقة الشرق الأدنى .

ان تاريخ الأعمال الخيرية والخدمات التعليمية التي قامت بها أمريكا في الشرق الأدنى وفي غيره من البلاد العربية والاسلامية . وقصة ما نهضت به أمريكا من أعمال خاصة بآثار الشرق الأدنى وتاريخه القديم . لأمران جديران بالفخر وانما اشرنا الى هذه الأعمال هنا لأنها كانت دافعا وسببا الى اهتمام أمريكا بالدراسات العربية والاسلامية ولا شك ان غيري سيتحدثون عن توجه النشاط الأمريكي التي تعتبر حدث من هذه وكبر مدى . والتي منها تعد عدد كبير من مواطنينا اللغة العربية لما لها من ارتباط بأعمالهم في الشرق وسيبرز آخرون تقدم الاهتمام العلمي كما يبدو في جامعاتنا ومدارسنا . أنا فعرضي بعد هذه المقدمة الكثيرة الاستطراد . ان اصنف وصف عام لآثار الفرصة الجديدة التي تتيح للامريكيين المتخصصين في الدراسات العربية والاسلامية . في بلاد العرب نفسها . وهي فرصة اتاحها تلاميذ الامريكيين والعرب على ذلك الأساس الراسخ المكين من الصداقة . من مناصب اقتصادية المشتركة الطويلة المدى ونشوء علاقة بينهم تقدم على أساس الاحترام والتعاون . وان هذا رأت الشركة الأمريكية من الجهد الاكبر الذي فيها يتصل بالعمل الصناعي الضخم الذي تتولاه . بان نشيء . كما اننا لترجمة الرسائل والتقارير . بل ان نشيء . كذلك مركزا للتعليم في الدراسات التاريخية والجغرافية وغيرها .

وهكذا اتيح للامريكيين الذين يعملون في شعوبنا ليجدوا الترحيب والاحترام العربية الأمريكية للبتروول في الظهران . ان يواصلوا الدراسات الأثرية لديهم

فى الوطن التاريخى للعرب والاسلام . وهم يستطيعون ان يشهدوا على أساس من التجربة . ان الاعتماد على خير مكاتب البحوث فى الغرب لا يمكن ان يكون بديلا صحيحا من الحياة الواقعية . والدراسة الفعلية فى بلاد العرب نفسها . نعم استطاعت صفوة من أعظم علماء الغرب مثل « نولدكه » الألمانى ان يخدموا الدراسة الشرقية تلك الخدمات الجليلة التى قاموا بها دون ان يغادروا أوطانهم .. ولكن ما من أحد منا يدعى انه « نولدكه » آخر . ونحن على يقين من أن التجربة المباشرة فى البلاد العربية وبين الشعوب العربية جليلة الفائدة حتى بالنسبة لشخص مثل نولدكه . فمما يقال ان نيكلسون وهو من أصدق دارسى الشعر العربى . ومن خير مترجميه توفيقا أخطأ تأويل اشارات تتعلق بتفصيلات الحياة اليومية . وسبب هذا انه لم يعش بين العرب ليقراً كتاب حياتهم المفتوح .

بل انا لاعتقد أنه من العسير حتى على عالم من بلد عربى آخر أن يثق بمعارفه عن حياة العرب وتفكيرهم بل تفصيلات الجغرافيا والتنظيم القبلى لبلاد دون ان تكون له خبرة فعلية فى بلاد العرب نفسها . ولهذا فنحن فى تعويض مافاتنا من عدم تشرب العربية مع الرضاعة . نقدر الفرصة المتاحة لنا خير تقدير . فرصة الحياة والعسل فى بلاد العرب والتغلغل المستمر فى أحوالها والاختلاط الدائم بأهلها .

ومما قاله الأستاذ « رفائيل باتاى » أستاذ الاثربولوجيا بكلية دروبس وفيلادلفيا : وقد يكون من الصحيح القول بأن ما يحتاجه الاسلام اليوم ليس كتابة تواريخ مخصصة لتتبع الأسباب والنتائج . ولكن فلسفة ميتافيزيقية تبرر وجوده ، وتشجع تقدمه فى عالم مطبوع بطابع الغرب . غير أنه على قدر ما يصبح العالم الاسلامى متيقنا من قوته المجددة ومن مركزه بين الأمم . يصير من الضرورى ايجاد نوع من الفحص الداخلى مما يمكن ان تكون نتائجه ذات مغزى وراء المكان والزمان اللذين نشأت فيها . واذا تركنا جانبا تلك الحاجة الى علم تاريخى . فلا مفر لنا من أن نعترف من وجهة نظر المحافظ المسلم .

ان بطء التغيير في موقف العالم الاسلامى يعطى نوعا من الضمان ضد الاطراح الطائش للخصائص الأساسية لمدينته التي لا ينبغي أن تطرح هكذا بسهولة وفي عبارة أخرى ، ان هذا البطء في تعديل الموقف ، ولو انه في بعض الأحيان يفسد التطبيق الناجح للاستمداد المرغوب فيه ، يكون دفاعا داخليا قويا أو سدا ملطفا لتأثير الأمواج الأجنبية التي سمح لها بالدخول في ميادين الأفكار والنظم .

ومما قاله الأستاذ « كوبر يونج » أستاذ العلاقات الأجنبية بجامعة برنستون :

وبعد فهذا عرض تاريخى قصد به التذكر بالدين الثقافى العظيم الذى ندين به للاسلام منذ أن كنا نحن المسيحيين ، داخل هذه الألف سنة ، نسافر الى العواصم الاسلامية والى المعلمين المسلمين . ندرس عليهم الفنون والعلوم وفلسفة الحياة الانسانية وفى جملة ذلك تراثنا الكلاسيكى الذى قام الاسلام على رعايته خير قيام حتى استطاعت أوروبا مرة أخرى ان تنفسه وترعاه . كل هذا يجب ان يسازج الروح التي تتجه بها . نحن المسيحيين وعلى الأخص رجال الكنيسة المسيحية . نحو الاسلام نحمل اليه هداياتنا الثقافية والروحية . فلنذهب اليه اذن فى شعور بالمساواة تؤدى الدين القديم .

ولن نتجاوز حدود العدالة اذا نحن ديننا ما علينا بربحه . وكنت سنكون مسيحيين حقا اذا نحن تناسينا شروط التبادل . واعطينا فى حب واعتراف بالجميل .

ولعل من أهم الرسائل - رسالة كتبها عالم مسيحي أمريكي منتسب هو « كينيت . ه . جرنندل » ، Kenneth H. Grandell و عنوان هذه الرسالة « أثر الاسلام فى المسيحية - The Impact of Islam on Christianity » فقد فيها انصاف كيف تأثرت المسيحية بالاسلام وأشاد بكثير من المثل العليا للاسلامية . ومثل هذه الرسالة تعتبر دعوة طيبة الى ازالة التعصب بين أتباع هذين الدينين . وردا كريسا على كثير من التهم التي توجه الى الاسلام عن جهول به

وبأصول تعالیه . وقد وجدت أن الكثير ممن قرأها من الأمريكيين تأثروا كثيرا بما جاء فيها عن التعالیم الاسلامیة وخصوصا ان مؤلفها عالم مسیحی أمريكي .

ومما يذكر أن الدكتور محمود يوسف الشواربی (١) الأستاذ بجامعة القاهرة - دعى لادلاء كلمة فی المؤتمر المسیحی العالمی الذی انعقد فی شهر أغسطس من عام ١٩٥٤ بجامعة نورث وسترن بامریکا NorthWesternUniversty الذی ضم ١٦٠٠ مندوب يمثلون جمیع كنائس العالم فی كل من أوروبا وآسیا وأفريقيا وأستراليا وأمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية . فاختار سيادته كلمة قیسة « تسامح العالم الاسلامی نحو المسیحیة » . ذكر فیها سيادته خبرا دهش المستمعین وراعهم وهو : أن يعلموا أن وزارة الأوقاف فی الجمهورية العربیة المتحدة وهی التي ترعى مصالح المسلمین وتقوم علی بناء المساجد لهم . وتنظیم شؤون الثقافة الدینیة وغير ذلك مما يتصل بالشؤون الاسلامیة العامة . قد قامت فی عهد الثورة المصریة الحالیة بانشاء كنيسة فی محافظة كافر الشيخ من أموال المسلمین ، فهل هناك تسامح أكثر من هذا ؟ بل ان هذا يعتبر اثارا علی النفس وقد علقت علیه جرائد العالم وتناقضت عنها الجرائد العربیة فی حینه ونشرت النبأ كذلك جريدة الأهرام . ولقد كان ذلك خیر دعایة للدين الاسلامی وللثورة المصریة فی هذا الحشد العالمی من كبار رجول المسیحیة فی العالم .

وقل سيادته فیما ینبغی علينا نحن المسلمین عمله لكي نحافظ علی معتادنا : وهذا أود أن أقرر أن العقلیة العلیة والکلاسیکیة التي تهیمن علی هؤلاء المثقفین فی تلك البلاد الأمريکیة من رجال المهن العلیة وغيرهم - نحو ج العتول الی التعرف الی الاسلام وثقافته . وانی اذ اقرر ذلك انما أصدره عن خبرة طويلة بین هؤلاء الأقوام طالبا واستاذا لانهم علی الرغم من تقدمهم العلی لا یختلفون كثيرا عن البدائیین من حیث مبلغ علمهم بالاسلام أو سماعهم به والطفل الأمريکی الذی یتلقى دروسا عن الدیانات المسیحیة

١- سيادته سكرتير جمعیه العربیة الدولیة بالاسلام . وعضو المجلس الاعلی للمسنون الاسلامیة .

واليهودية لا يعرف شيئا عن الاسلام الا ما شاهده في الأفلام السينمائية من
 الهمجية وأعمال السلب والنهب وعبادة « محمد » ومن انتشار الرق والحريم
 وما الى ذلك مما يحلو لكثير من كتاب الغرب ان يثروه حول الاسلام
 والمسلمين ، فهل تترك تلك الأخطاء والأكاذيب تثبت في النفوس أم نعمل
 على اقتلاع جذورها وتكوين فكرة صحيحة عن الاسلام . وثقافته في العالم
 المتحضر . وخاصة في أمريكا لما لها من مكانة مرموقة في توجيه سياسة
 العالم ؟ وقد تبدو أهمية هذا العمل أكثر وضوحا اذا علمنا ان هؤلاء الشبان
 والشيوخ هم الذين يوجهون سياسة بلادهم وبالتالي سياسة العالم .
 ويبدو أنه قد أصبح لدى هؤلاء الناس من العلم وسعة الادراك
 ما يمكنهم من دراسة الاسلام بأنفسهم من غير حاجة الى معلم أو داعية غير
 اننا نعلم جميعا كيف يضل بعض ذوى الأغراض أقوامهم في فهم الاسلام
 وتعاليمه ، والأمثلة من هذا النوع متوفرة . ولعلنا نعرف جميعا اسم مستشرق
 كبير معروف في جميع البلاد الاسلامية وقف يحاضرنا عن الاسلام يوما ما
 في واحدة من كبريات عواصم أوروبا ويقول : أتريدون ان أحضركم الليلة
 عن الاسلام فأى أنواع الاسلام تريدون : اسلام أهل السنة أو الشيعة ؟
 اسلام الأزهر القديم أو اسلام الأزهر الحديث . أو عن الاسلام كما يفهمه
 فريد وجدي أو طه حسين أو كما يفهمه حسن البنا . فهل تريد ان تترك
 الناس في أوروبا وأمريكا لأمثال هؤلاء المتحاملين المتعصبين يضلونهم
 ويشوهون الاسلام في أعينهم ؟ أفليس من الأحرى ان نعمل على توضيح مسعته
 وسعنا بينهم بدل أن تذهب نفوسنا حشرات على تقاعدنا ونصم آذان
 ونخفي أبصارنا مثل النعامة .

ومن كبار المفكرين العالميين المرحوم الشيخ « عبد الواحد يحيى »
 وكان كاثوليكيا ، نشأ في فرنسا وانتهى به البحث الى الاسلام والتصور
 الذي مارسه نظريا وعلميا ، حتى ليعد من أكبر الحكماء في العصر الحديث .
 وقد توفي بالقاهرة منذ بضع سنوات .

وترجمت كتبه الى اللغات الحية . واثره في الغرب كبير الى حد ان
 كثيرا من الجمعيات في أوروبا كونت باسمه لتتابع اثره وتجدد حده . فمن
 قوله :

ان تقليل شأن الشريعة انما هو مظهر من مظاهر الروح التي لا تبالى بما
أنزل الله . واعادة تكوين الروح الخاضعة لما انزل الله هو أول خطوة في طريق
السالكين .

وقوله أيضا : ان الاتجاه النفسى الذى تحدث عنه هنا . انما هو سمة
من سمات الغرب الحديث . وفى الواقع لا يسكن ان يوجد هذا الاتجاه فى
الشرق . ذلك لأن الروح الدينية الصحيحة لا تزال مسيطرة فى بيئاته .

وقوله غفر الله له : وفى العصور القديسة لم يكن هناك تفرقة بين دين
ودنيا . بل لم يكن هناك مجرد الفهم أو مجرد التخيل لفكرة الانفصال هذه
وانما نشأت هذه الفكرة حينما تدهورت الانسانية . وانحطت شيئا فشيئا .
وها نحن أولاء قد وصلنا فى هذا التأخر الى درجة أن الغرب حاليا يصعب
عليه كل الصعوبة أن يفهم فكرة ضرورة سيادة الروح الدينية فى مجتمعاته .
انه على نهج انفصالى لا يوجد فى الحياة السليمة .

وهذا مستشرق من مستشرقى القرن التاسع عشر فى عصر الملكة
فيكتوريا ، ظنه كثير من المسلمين أنه أنصف الاسلام ، وأعدل المستشرقين
حكما على نبي الاسلام .

هو الأستاذ الانجليزى « توماس كارليل » فى كتابه « الأبطال وعبادة
البطولة » وسبق ان ترجم هذا الكتاب الى العربية الأستاذ المرحوم « محمد
السباعى » .. فقد قدم لنا هذا الكاتب المخادع النبى صلى الله عليه وسلم
كبطل عظيم فى فصل من كتابه ، ثم ما لبث أن هدم ما كتبه وأبعده عن
الفضائل النبوية وقلب الحقائق رأسا على عقب وتكرر لآرائه السابقة . وظهر
لنا بسخه الحقيقة وقلبه الأسود .

أعطى كارليل لقرائه نساذج مختلفة عن الأبطال وبطولاتهم . واختص
بالذكر أبطالا افذاذا اعتبرهم منارات الهدى والرشاد وجعلهم اعلاما للانسانية
بما قدمود لها من جليل الخدمات وفائق الأعمال . فتعرض فى كتابه للبطل
كاله وللبطل كنبى وللبطل كشاعر ، واعتبر هذه البطولات الثلاث بمثابة
الدوافع الحافزة ، والقوى الدافعة للشعوب فى نهوضها من كبوتها ، والسين

قدما في ميدان الحضارة والارتقاء ، كما جعلهم الدعائم التي تتكيف بهم
تواريخ الشعوب ، وتأخذ مجرى حوادثها .

اعتبر كارليل « محمدا » - في بعض صفحات كتابه - بظلا عظيما
حقا ، لأنه خدم أسمى غرض تشاؤه الارادة العليا المشرفة على الوجود .
وكان هو الوساطة بين الخالق والخلق الانساني ، وكانت روحه الشفافة
ووجدانه السامى لائقين لاستقبال التعاليم الالهية . والاستجابة لندائها
الرحيم الذي يبغى السلام العام للانسان وهدايته الى صراط الحق المستقيم،
وقد ترجم هذه الأفكار وهذه المشاعر السامية الى أفعال نبيلة تتسامى في
معناها ومعناها وتتحرق شوقا للخلاص من أصفادها وعوائقها المادية لأنها
تقيدها عن محيط الوجود اللانهائي .

كما اعتبر كارليل « محمدا » عليه الصلاة والسلام - - الشعلة الهادية
للنور الالهي ، التي هدت الرجل الجاهلي العربي الذي لم يتسع فقه وعينه
بعد ليري آفاق الوجود الرحبية ، ويعجب بيدائع الرحمات التي بثتها العناية
الالهية الرحبية هنا وهناك .

كما انكر « كارليل » تلك الاتهامات الباطلة التي تصفتها به الكتب
المعرضون الذين أعماهم التعصب واضلهم الحقد عن منار الحقيقة لحنه .
فاعتبره انسانا فذا في النوع الانساني بأسره . وشخصية بارزة يتفجر الصدق
والاخلاص من اعناقها . ترغب وتأمل وتضج الى هداية بني الانسان
وخلاصهم من ادران المادية وأوشابها .

وأقر كارليل واعترف بأن للقرآن الكريم ثروة البهر على اناسه .
فخاطب الفطرة مباشرة . واثاها بما يواهم طبيعتها وماهيتها . واثاها
آيات قرآنية . فوق مستوى البشرية . مسدوت من بطنها .
وحقيقة ظهرت لتخاطب الانسان رسا . وتوجه اليه الهدى التي تضيء
طريق البصيرة والوجدان . كإله الحق الأزلي الذي يهب حياضه
التي أطاحت بها ظلمات الحياة والتي تتحسس طرائفها التي ذلك من ريادة
والمآل السرمدي والنور المطلق . فكيف يعتبر ذلك الانسان الكريم -

الذى كان ينزع الى هداية البشرية الى ما فيه فلاحها ورشادها — انسانا خداعا كان يتظاهر بالصدق ، ويسعى لارضاء نزواته وشهواته؟! لقد حث على الايمان الحق بالخالق الأعظم . وعمل على تدعيم دواعى الفضيلة . وتحقيق أسبابها كشجرة متشعبة الأفنان ، متفرعة من جذع واحد ، مورقة بروائع الأوراق مخضرة بأبهج الألوان وأبهاها ، وتستمد قواها الحيوية من جذرها الخفى المستبطن فى جوف الأرض ، المتعشق فى أغوارها وأعماقها وهكذا تكون الصالحات مستمدة من نوره وروحه ، مصطبغة بصبغة الله التى فطر الناس عليها . وهكذا يكون الايمان فى الانسان . فهو ملاك أمره . وقوته المعنوية وأعماله وأقواله كل هاتيك الآثار تتأثر بتلك الوحدة الايمانية الراسخة فى سويداء القلب ، النابضة بالحياة والحياة ، تجمع أشتات كل ما يصدر منه من انفعالات وأعمال ، وتترابط بأوشج الروابط فى قوة رابطة : تطبع بطابعها : فتكون كلا واحدا كشجرة أصلها ثابت فى الأرض وفرعها فى السماء ، هكذا ينادى القرآن الانسان ليرفع العين الى أعلى لتقصى أضواء الحقائق غير المنظورة للأبصار والمطبوسة فى ظلمة المادة النصاء . فكيف يكون ذلك الكتاب الحق الذى لا ريب فيه كتابا باطلا؟!!

وكيف يكون الانسان المبشر بتعاليه انسانا انانيا هستيريا تلعب بلبه الخيالات والأوهام بينما هو قد تحلى بأسمى المبادئ وأنبى الأعمال المشبعة بروح الفدائية والتضحية لرفع كابوس الحية الجاهلية الحقائق واتشال النفوس من وهدتها وظلامها الى آفاق أعلى فى سورها ونورها . الى حياة رشيدة عامرة بالروحانية البهية والأخلاق الفاضلة . لم يكن هو بذلك الانسان المجنون المعتوه لأنه كان يتحرق شوقا الى هداية قومه الى معنى الحكمة . لم يدع بانه كان انسانا خارقا للعادة . قادرا على ايتاء المعجزات لأنه يخاطب الناس باسم اله قدير على خلق أمثال هذه الخوارق وانما كان يريد منهم أن يفتحوا أعينهم ويوجهوا أبصارهم وعقولهم الى مدرسة أكثر اتساعا وارحبا آفاقا . واسمى منارا .

وقال : وكيف يكون هذا القرآن الذى يهذى للتي هى أقوم والذى يقرأه الملايين من المسلمين كتابا تافها ويدعيه انسان دعى ؟ يتخذ لنفسه لقب

النبوة ليلعب بالعقول ويسوه عليها ، اللهم ان هذا الا افتئات خارج على الحقائق . وتشويه لمعالمها .

لم يصنع محمد المعجزات .. ولكنه تكلم وتخطب مع من حوله لينظروا الى معجزة الكون الكبرى ، ويشير كارليل الى ما نسبة الكتاب المعرضون عن شهوات محمد وهي الهدف الذي وجهوا اليه سهام نقدهم وتشهيرهم . فوجه اليهم اللوم . وعنفهم على موقفهم الخاطيء . وتعصبهم الذميم الذي أعساهم عن الحقائق وعن بواطن الأمور . نظروا الى محمد فقط كإنسان شهواني . محب لنفسه . ومشبع ملذاته .

ولكن كارليل نظر اليه نظرة أخرى . نظر اليه كإنسان عزوف عن زخرف الدنيا وبهرجها كان طعامه قليلا يكفي لسد رمقه -- مكونا من الشعير والخبز -- كان فقيرا كادحا في سبيل عيشه (لم يكن محمد إنسانا سيئا -- كما يجب القول بذلك) . بل وقف وحده امام عواصف من المعارضة والمقاومة .. وقال : أحب محمدا لأنى أرى فيه مثالا كاملا خالصا صافيا من أوشاب النفاق والأناية . لم يعرفه بالله الغرور . ولم تخدعه الدنيا بزخرفها وبهرجها . ولم يدخل فى قلبه الغرور والكبرياء . ولم تجد الأناية فى قلبه ثغرة تنفذ منها .

كان خلقه البساطة فى القول والفعل . ولم تتفاوت معاملته للناس على قدر سلطانهم ونفوذهم . ان الكل فى نظره سواء . خاضب الملوك والأبصار وجها لوجه وعرض عليهم الدخول فى العقيدة الخاصة المتجوية مع دواعى النظر الطيبة الانسانية . فلم يعرف الوجع أو الرهب الى نفسه سبيلا . احترق الحقير قبل الكبير . والفقير قبل الغنى . كانت حياته بشى التجرد والعبر بحروب طاحنة وتقدمه اتباعه وأصحابه فى مععان الموت تدفعه الرغبة الحقة فى الجهاد لرفع كلمة الحق ونشر لواء الدين باذلا فى سبيل الدعوة كل مرتخص وغال .. سادت حياته أفعال متباينة تلعب فيها الرحمة حينما يرحم حينما ، والكرم حينما . ولكن محمدا كان لا يبدى ازاء هاتيك الأفعال العظيمة أو يعلل لها سببا لأنها صادرة عن قلب كبير ضارع مقدام لا يهاب الإهانة التى تنزل تباعا عليه . لكن قد تبرز التسوية والغلظة حينما اذا دعت الضرورة اليها .

لقد كان شغله الشاغل الخلاص والهداية من الضلال الذي ضرب
أوضارده في أرجاء الجزيرة العربية انه مبدأ الحق المنبثق من باطنية الحقيقة
الأزلية الذي تأكد في سويداء نفسه ، الناطق من صميم قلبه تلقائيا من
قبات الأوامر الالهية التي تكيف القلوب والعقول لمجاري مشيئاتها
واراداتها .. الى أن قال كارليل : نزلت شعلة الهية فقلبت العالم رأسا على
عقب وغيرت كل شيء ، وجعلت رمال شبه الجزيرة القاحلة الجرداء
السوداء متألثة بازغة ساطعة بنور السماء ، وامتد شعاعها من دلهي الى
غرناطة . فالرجل العظيم مثله كمثل نور وهاج نابع من السماء وتكون باقى
الأفراد بالنسبة له ، كالوقود للنيران ، فانهم ليشتعلون به ، ويظهرون
بظهوره .

ثم تكلم كارليل عن شكسبير — وهنا يظهر كارليل بقلبه الأسود ،
ونقضه لما أثبتته لنبي الاسلام وللقرآن الكريم — فيقول عن شكسبير :
انه مخلوق بشرى غير عادى ، وهب بخصائص لا تبارى . ووصفه
بصفات لم يبلغها محمد نفسه أو غيره من الأبطال ! .

قال : فالبطل « ١ » — اعتبر كجوهرة ساطعة فى جبين الامبراطورية
البريطانية وسما الى آفاق كبرى من القوة والفخار . لقد اكتسى « دانتى »
بالحب السامى ، وبالبصيرة النافذة ، وبالروح الوثابة فكشف بذلك عن
حقائق الأشياء وتوثقت بينه الصلة وبين العالم الروحى ، فأعطانا بخياله
الرائق صورة سودجية عن رحلة فى عالم السماء ، ولكن شكسبير هو لون
آخر للبطولة . بطولة تعتبر فى ارفع المقامات . بطولة تنافس النجوم فى
مداراتها وتبهر الكواكب فى أفلاكها . بطولة تفتت أضواؤها من الباطن من
حقيقة الحقائق من لا نهائية عالم الروح — من أعماق الطبيعة . وكانت روحه
لغزا حير الجهابذة ، آثار اعجابهم ودهشتهم فى وقت واحد .. ثم قال : از
شكسبير ينتاز بواقعية فى تصوير الطبيعة البشرية تريك الحياة كما هى .
والكنه يعطيك نسيج شعريه انها قطع مساوية واردة الى هذا الكون الأرضى
من عالم علوى يتباعد فى أقاصى الفضاء ويبرز بأضواء ساطعة تعرض لك

(١) بقصد شكسبير .

المسالك الخفية والتعاريج المتشعبة لعالم المادة المظلمة . فترك بذلك لب الحياة وجوهرها .

نقض كارليل كل ما قاله عن النبي محمد أمام بطولة شكسبير كما يدعى لأنه رفعه الى قمة المجد والخلود وتجاهل الفضائل التي ضمن انه قد منحها لمحمد ، ويقول : ان المقارنة بين شكسبير ومحمد لتعتبر غير ذات موضوع . لأن بطولة شكسبير في أعلى عليين .

لقد اعتبر الفكرة النبوية عن محمد النبي المبعوث رحمة للعالمين فكرة خاطئة ، وأن رسالته العظيمة والقرآن الحق الذي هو وحى الهى ، ما هو الا مجرد كلام منشور لا رابط له ولا وحدة له تلتئم تحتها شتى الأفكار التي احتوتها آياته . انه ليس بقرآن بل هو حشو ولغو !!

ان القرآن الذي قال عنه في فصله عن البطل كنبى بأن ما ينوف عن أربعمئة مليون نفس يقرأونه ليلا ونهارا ولا ينامون . هو الآن في نظره لغو باطل بالنسبة للآيات البيّنات التي ألفها شكسبير وقدمها هدية خاتمة للانسانية . لقد جاء محمد الى هذا العالم وقد تشبع وتعلم من كهان الصحراء بأساطير وقصص خرافية ليس لها سند من التاريخ . فآلف بها قرآنه وحده بالأراجيف والأباطيل ليقرأه ملايين الملايين من المسلمين ولا يكشفون ما به من نقائص وعيوب ، ويكتشفها كارليل المنافق المخادع وحده . الى ان قال فكل هاتيك الخرافات والأباطيل . وكل هاتيك الأساطير التي عملها ايده شرذمة من الكهان شوّهت الحقائق في كتابه الذي سماه القرآن ! وحتى في بلاد العرب لقد جهد نفسه وتناحر في سبيل دعوته . ومع ذلك لم يمان من استدبل عليه ذيون النسيان . وستلاشى ذكراه وانه بعد حين ! أما شكسبير فهو أعجوبة الدنيا بأسرها . ولا زال بشيرا لبشرية كذب حتى لأهل الجزيرة العربية نفسها ! الخ .

هذا هو « محمد » الذي تصوره كارليل وأمثاله . انهم لم يروا في الاسلام الذي رفعه كارليل الى المناء الأسسى في فصل من اشهر فصوله بتأريته بشكسبير . فان الثانى يجب أن يكون في القصة والأهل في الداء الأسفل . كحكم كارليل وأمثاله ويقول : لقد كان محمد في الجزيرة لب الصحراء .

ثم ما لبث أن انطفأ ذكره ، وبقي قرآنه كأغاليظ وأساطير تقرأ ، لقد خاطب
العرب بصوت كزئير الرعد ، مدعياً بأنه صوت الألوهية لا صوته معتقدا بأن
صوت السماء يتخاطب منه الى البشرية ، ولقد صار قرآنه شيئاً مردوداً مجرد
تعايير وألفاظ تردد !! لقد قال كارليل : ان ذلك القرآن لم يكن من وحى الله
حقاً ! ولقد كان من كلام محمد نفسه !! ومن تأليفه هو !! أعانه على وضعه
جماعة من الكهان الذين كان هو على صلة بهم .

هذا هو كارليل الذي زعم بعض المسلمين انه واقف يدافع عن نبي
ورسول البشرية ، هذا هو كارليل بعد أن كشف القناع عن وجهه عند
حديثه عن معبوده شكسبير ، وظهر لنا على حقيقته وبان لنا ما انطوى عليه
قلبه من الحقد والغل والكراهية للاسلام ونبي الاسلام وكارليل مثله كمثل
من بسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه !.

٤

الفصل الحادى عشر علماء الاسلام والفكر العربى

الاتجاهات الحديثة فى الفكر الاسلامى ، موضوع يشغل الآن بال كثير من المفكرين فى الغرب والشرق . ويكتب فيه كل من ناحية . كتب فيه أستاذ أكسفورد الأستاذ « جب » ، فاتهم الفكر العربى بأن من خواصه الفطرية « الذرية » أى عدم القدرة على « التعيين » أو نزوعه الى تناول مشكلات الحياة ذرة ذرة . وعزا الحركة الاسلامية الحديثة الى تأثير الثقافة الأوروبية ، وتقول للأستاذ « جب » ردا على اتهامه :

ان الدعوة القرآنية القوية الحية هى التى جعلت للفكر العربى ، الاسلامى قدرة على التعيين . وان الفكر الاسلامى هو الذى أثر فى الفكر الأوروبى فى ميدان العلم والأخلاق ، خلال القرون الوسطى وعصر النهضة .

وإذا كان الفكر الاسلامى قد توقف الى حد ما عن الجهد العقلى . بسبب اضطهاد العالم الاسلامى . هذا الاضطهاد الطويل العريض الذى انتهى بقيام « اسرائيل » تلك الدولة المزعومة . فان القومية العربية قد بهرت أبصار العالم المجاور لها برسالتها الانسانية السامية . ذلك أن العرب لم يعرفوا تعصب عنصريا ، أو تفرقة لونية أو ثقافية . وأثبتوا للعالم أجمع أنهم رسل هداه وسلام . ثم انهم بسطوا أيديهم لكل من يريد التعاون معهم فى خدمة الحضارة الانسانية . أما من يخونهم أو يعمل على خداعهم فإن بسطهم التمادى فى غيه . لأن صفاء جوهر القومية العربية ينبذ فى سرعة خاطئة من اللون من الانحراف . ويزيد من منعة تلك القومية وجلدها على الشدائد وصعاب الأمور .

وفى الوقت الذى كانت القومية العربية تجتاز فيه مرحلة الانحصار والتطور ، وتعمل على أداء رسالتها فى خدمة البشرية . بدأت حركات التسلل

تهاجمها ، مستهدفة حرمانها من الازدهار والنمو ، ومنعها من تثبيت أقدامها ،
 بشأن المطامع الاستعمارية التي تحارب دائما أصحاب الرسالات الانسانية ،
 ذلك لأنه جاور دار العرب جهات لم يفهم أهلها حقيقة القومية العربية ،
 واعتبروا انتصارها في منطقة شاسعة تمتد من الخليج العربي شرقا الى
 المحيط الأطلسي غربا ، نوعا من السيادة العنصرية ، وان الأمر يقتضى محاربة
 تلك القومية قبل أن تستقر أوتادها .

وتعرف هذه الحركة التي نظرت الى القومية العربية بعين ملؤها الحقد
 والكراهية باسم « الشعوبية » وهي تسمية مشتقة من الشعوب ، أى العودة
 الى ماضى الشعوب والتفاخر بعصبيتها الجغرافية والتاريخية ، ونبذ رسالة
 العرب التي تهدف الى خلق مجتمع جديد قوامه : أن التثبث بالماضى والبكاء
 على اطلالة زمنه لن يجدى شيئا غير اثاره الأحقاد المريرة التي لا طائل من
 ورائها وان من خير البشرية أن تسود المساواة الجميع ، وأن يتعامل الناس
 على أساس تبادل المنافع واحترام الحقوق .

وبهذه المناسبة أقول : ان الذين لا يعتبرون « الدين » مقوما من
 مقومات القومية العربية بحجة أن بيننا من المسيحيين ، حتى اليهود ، ما
 يمنع جعل الدين من مقومات القومية العربية . أقول : ان هؤلاء مخطئون .
 فالمسألة محلولة ، ونحن الذين نعقد لها ، محلولة على معنى أن الأديان
 المساوية فى الأصل واحدة لا فرق بينها وانما الفرق انما هو فى التشريع ،
 فاذا قلنا : ان الدين مقوم لم يمنع هذا أو لم يخرج ما عدا المسلمين ، على أن
 الأديان كلها تدعو الى البر والخير ، والايسان بالله وباليوم الآخر . وهل
 القومية العربية تخرج عن هذه الدعوة ؟

والدين الاسلامى يابى التحكم فى عقائد الناس ، ويأمر بتركهم وما
 يدينون . ففي العقيدة يقول الله فى قرآنه الكريم : « لا اكراه فى الدين قد
 تبين الرشد من الغى » (البقرة - ٢٥٦) .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : نزلت هذه الآية فى رجل من الأنصار
 من بنى سالم بن عوف يقال له : « الحصين » كان له ابنان نصرانيان وكان

رجلا مسلما فقال للنبي صلى الله عليه وسلم ألا أستكرههما فانهما قد
أبيا الا النصرانية ؟ فنزلت الآية السابقة .

وأما فى الشريعة فانه يأمر بتركهم يحتسون فى أقضيتهم لقاضى دينهم
ليحكم بينهم بحكم دينهم . كقوله عز وجل فى شأن الذميين : « فان جاءوك
فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وان حكمت
فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين . وكيف يحسونك وعندهم
التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . انا أنزلنا
التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلسوا للذين هادوا
والرهبانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء »
(المائدة ٤٤) .

وقوله تعالى : « وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين
يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من
التوراة وهدى وموعظة للمستقين . وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ومن
لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » (المائدة ٤٦ - ٤٧) .

هذه السياسة التى رسها الاسلام والتى سار عليها المسلمون فى حكم
البلاد التى خضعت لسلطانهم . هذه السياسة الحكيمة كانت مصدر الفتنى
لاحدى القواعد الأساسية للقانون الدولى الخاص . وهى تسمى « قوانين
الأحوال الشخصية » التى تقررت فى بلاد الغرب لأول مرة فى مجمع
« أكسفورد » سنة ١٨٨٢ م . وفى مؤتمر « لاهاي » سنة ١٩٠٤ م . وفى
اتفاقية « مونترو » سنة ١٩٣١ (١) .

ويقول القرآن فى المرتدين الذين لا ارادة لهم : « ومن يرتدد منكم عن
دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك
أصحاب النار هم فيها خالدون » (البقرة ٢١٧) . وانقد قائلهم .

(١) مقالة للاستاد سلب سامى فى جريدة الاهام و ٥ يولية ١٩٤٥ م

والاسلام دين الفطرة : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر
الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس
لا يعلمون » (الروم - ٣٠) .

والاسلام دين مقوم لكل أمور المعاش والمعاد : « قل انى هدانى ربي
الى صراط مستقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا » (الأنعام - ١٦١) ..
فالاسلام اذن دين ودنيا .

والأمة التي تقوم في معاشها ومعادها بالقسط هي الأمة القيبة . كما
سأها القرآن الكريم : « وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء
ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيبة » (البينة - ٥) . وأساس
دين الاسلام وقواعده التي عليها بنى وبها يقوم . بينها رسول الله صلى الله
عليه وسلم في قوله : بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله وأن
محسدا رسول الله . واقام الصلاة . وابتاء الزكاة . وصوم رمضان . وحج
البيت من استطاع اليه سبيلا (رواد البخارى ومسلم) .

لقد اعتقد القائلون على الحركات التسلمية المعادية لتلك القومية . وظن
التحالف الصهيونى الاستعمارى انه قد آتى أكله بانتزاع فلسطين من جسد
الأمة العربية . وان الجو قد خلا لهم للنيل من القومية العربية ، وتحقيق ما
عجز عنه الأوائل من أسلافهم من قادة الحركات التسلمية (١) المعادية لتلك
القومية . ولكن خاب فأل قادة هذه الحركة الجديدة ، ذلك لأن جهاد الأمة
العربية فى مقاومة التسلم الصهيونى ، منذ طرق أبواب الشرق العربى ،
وكذلك هتك دسائس الاستعمار الأوروبى التى اعترفت بذلك التسلم لم يضع
هباء اذ أنجبت الأمة العربية فى تلك المرحلة العصبية ، بل الخطيرة من تاريخها
المجيد . ابنا بارا ، ذاق مرارة الجهاد فى سبيل رفعة شأن العروبة . فنشأ خيرا
بتاعبها . عليها بمثل السبل لاعلاء قوميتها ، حريضا على متابعة رسالتها
وتحرير الأرض العربية من أدران الاستعمار وتطهير فلسطين من الصهيونية
الغاشية .

(١) بدأت مراكز التسلم فى فارس نشاطها منذ عهد مكر ، منذ وفاة الخليفة عثمان بن
عمران وما تلا مصرعه من نزاع بين على ومعاوية رضى الله عنهما وقيام ثلاثة احزاب (الخوارج
والشيعة والمرجئة) .

مند عاد البطل « جمال عبد الناصر » من ميدان الكفاح ضد اسرائيل من فلسطين الحبيبة قلب العروبة النابض ، وهو يعد العدة الفعالة لايقاظ القومية العربية وتأهيلها لصد حركة التسلل الصهيوني والاستعماري قبل أن تنشر سمومها الى سائر أرجاء الوطن العربي الذي يمتد من الخليج العربي شرقا الى المحيط الأطلسي غربا ومن جبال طوروس شمالا الى قلب افريقية جنوبا .. نشأ أبناؤه في ظل قومية متينة ، وضع أساسها وحدد معالمها الرسول العربي الكريم في قوله : ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وانما هي اللسان . فمن تكلم العربية فهو عربي .

وأعلن الرئيس جمال عبد الناصر عن رسالة الجمهورية العربية في عهده الجديد قائلا : ولن نستطيع أن ننظر الى خريطة العالم دائرة بنواها لنا دور بها مكاننا على هذه الخريطة ودورنا بحكم هذا المكان . ويمكن أن نقول ان هناك دائرة عربية تحيط بنا . وأن هذه الدائرة منا ونحن منها . امتزج تاريخنا بتاريخها ، وارتبطت مصالحنا بمصالحها حقيقة وفعلا وليس مجرد كلام .

ان ظروف التاريخ أيضا مليئة بأدوار البطولة المجددة . ولست أدري لماذا يخيل الى أن هذا الدور الذي أرهقه التجوال في المنطقة الواصلة اليها في كل مكان حولنا قد استقر به المطاف متعبا ، منهوك القوى على حدود بلادنا يشير اليها أن تتحرك ، وأن تنهض بالدور وترتدي ملابسها . فان لم نعد غيرنا لا نستطيع القيام به .. وأبادر هنا وأقول ان الدور ليس دور زعامة . وانما هو دور تفاعل وتجاوب ، ويكون من شأنه خلق قوة كبيرة في هذه المنطقة ترفع من شأن نفسها ، وتقوم بدور ايجابي في مستقبل البشر .

وقام جمال عبد الناصر بذلك العبء خير قيام ، واستطاع أن يحفظ للعروبة هيبتها ، ولم يدع لحركة التسلل الصهيوني أن تستفيد من الاستعمار أية فائدة قد تحقق لها الاساءة الى القومية العربية مرة أخرى .

وفي مؤتمر التعبئة القومية الذي أقيم بكلية آداب اسكندرية في ١٩٥٩ - وقف الأستاذ محمد سعيد العريان وقال : لقد يحدث السيادة المحاضرون الكرام عن مقومات القومية العربية من التاريخ المشترك والتجاوب

الفكرى والوحدة الثقافية والطبيعة التي تعطي أكثر مما تأخذ ، وتقوم على التضحية والايثار والتقاليد المشتركة ، والموقع الجغرافى المتشابه والمتكامل واللغة والتجانس . تحدثوا عن كل ذلك شرحا وافاضة ثم قال : ان اهمالنا الدين فى الحديث عن مقومات القومية انما هو أثر من الاستعمار حين كان يثير المنازعات باسم الدين والتعصب ليعيش هو فى هذا الجو تحت اسم حماية الأقليات ، أما الحقيقة فنحن جميعا عرب تؤمن بالله وان كان عبده هذا على الديانة المسيحية ، وعبده هذا على الاسلام .

ولتفصيل هذه الفكرة عقدت هذا البحث ، فالواقع الذى لا مرأى فيه أن كل هذه المقومات التي ذكرها الأساتذة الكرام انما هى من آثار الدين وفروعه فهى الدعامة الكبرى التي تفرعت منها هذه المقومات . وحتى الموقع الجغرافى انما هو من اختيار الساء لهذه الأمة المجيدة التي عاشت فى رحابها كل الديانات السماوية تقريبا .

وحتى الديانات الأرضية كانت فى الشرق . فزرادشت فى فارس ، وكونفشيوس فى الصين وبوذا فى الهند ، انما هم رجال الشرق . وليس عجيبا أن يكونوا أنبياء فقد قال القرآن العظيم : « ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك » .

وقال رسول الانسانية : ان لله مائة ألف وأربعة وعشرين ألف نبي « ففى مبادئ هذه الديانات الكريمة جاء هؤلاء الدعاة الكرام ، وحتى عندما خلا الانسان يفكر فى الوجود والاصلاح لم تخرج فلسفته على مدى القرون وعلى وفرة من تحدثوا لم يخرجوا على الانسانية بجديد عما جاء فى ديانات الشرق الكريم .

والمرّة الوحيدة التي ظهر فيها فيلسوف غربى يشبه أن يكون نبيا -- ونعنى به سقراط فى اليونان -- كان على مشارف الشرق وتلميذه فلاتون تلميذ للشرق أيضا فأثر فى أرسطو بأثرين شرقى وغربى .

وعلى هذه المبادئ انطلق قائد العروبة جمال عبد الناصر يعمل لمؤثر باندونج يجمع الدول الآسيوآفريقية فى صعيد واحد، لفكرة واحدة هى نبع

هذه الديانات . ومن مبادئها الكريمة : التعايش السلمى والتعاون والحياد الايجابى وتحريم الحروب والتجارب الذرية وتوجيه الذرة لخدمة السلام ، وتحرير الشعوب المستعبدة ، وكل هذا مما حث اليه الدين ودعا اليه لأنه بحق دين السلام .

وقد وجدت مبادئ الانسانية كمالها وسموها فى الاسلام حين جاء نبي العروبة وهادى العالمين محمد الكريم ، وبه وجدت المبادئ ، فاند موكب التحرير الأكبر ورائد ركب الحضارة الانسانية ، ومنذ جاء والانسانية فى طريقها الى الكمال البشرى ، وهى واصلة اليه يوما ما قريبا ان شاء الله تعالى ولتعلن نبأه بعد حين وما عرفت القومية العربية وجودا قبل رسول الاسلام لقد كانت شعوبا مشتتة مستعبدة لفارس والروم فجاء اليها وحررها فاندفعت اليه باسم المبادئ التى جاء بها تدخل فى دينه أو تقف بجانبه ضد فارس وضد الروم المسيحية نفسها . ذلك ان المسيحية لم تعرف لها وجودا كريما كما وجدت فى الشرق العربى . ومن هنا انطلقت الشعوب تستقبل جيوش الاسلام ، بل وقف المسيحيون بجانب اخوانهم المسلمين خلف صلاح الدين الأيوبي ضد الصليبيين الرومانيين بالأمس ووقف المسيحيون مع المسلمين خلف جمال عبد الناصر فى بور سعيد وسيناء باسم المبادئ الواحدة التى جعلت لكل مقومات العروبة كيانا فيما بعد . ولم تحارب روما باسم المسيحية بالأمس . وما حاربت لندن وباريس باسم المسيحية اليوم وانما باسم السيطرة والاستلاء والنفى . الذى يبر منه السيد المسيح وهى باسم هذه السيطرة قضت وتقضى على القيم وحارب الشعوب المسيحية ونهضتها فى قبرص وفى جبل طارق واريرلندا وامريكا واستراليا والحبشة وغيرها بالأمس فلنعت للدين حقه من التكرام والتقدير حتى أنفسنا . فنحن ما ندعو الى ضلالة حين نقول : اننا باسم الدين المنسحق على مبادئ الحضارة الانسانية والذى انبعثت منه كل مقومات الامم العربية منذ كان فى الشرق العربى انسان حتى موسى وعيسى . اننا باسم ابراهيم الشرقى العربى عليهم الصلاة والسلام ، باسمه تسمى دولتنا وتسمى انا اليوم باسمه تقيم دولتنا العربية الكبرى . وباسمه تقيم الحلف الاسيوافريقى الكريم . وباسمه تقيم الحلف الاسلامى العربى الاسيوافريقى .

وباسمه تقدم لأوربا وأمريكا مبادئ الايمان ونور الحكمة فى فهم طبيعة الوجود والحياة حتى تبنى الانسانية لنفسها حضارة الخلود فى الأرض وفى السماء تحقيقاً لأروع رسالة تحدث عنها القرآن الكريم حين قال الله تعالى : « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة » « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

وقال الأستاذ « أمين فارس » فى كتابه « هذا العالم العربى »

ان الباحثين المحدثين لم يعنوا بالحضارة العربية العناية الكافية . ولم يدرسوها الدراسة التى تستحقها ولم يبذل لغاية الآن أى جهد منظم لدراسة هذه الحضارة دراسة دقيقة متقصية تبين علاقاتها بالحضارات السابقة والمعاصرة . وتحدد تأثيرها الأساسى فى الحضارات اللاحقة . وخاصة الحضارة الغربية . ونحن على يقين استثناء على الدراسات الجزئية التى تستحق فى الموضوع . بان مثل هذه الدراسة ستظهر الأثر الخير الذى كان للحضارة العربية على الحضارة الغربية مهما كان هذا الأثر ضئيلاً . ومثل هذه النتيجة بعيدة الثقة التى نفوس ناشئة المسلمين بان الحضارة العربية . وان انتضى دورها اليوم . كانت حلقة نيرة من حلقات الحضارة البشرية التى نستمتع الآن بظهور من أطوارها . على ان هذا الأثر لا يتم فى عقول هذه الناشئة ما لم يغير الباحثون الغربيون الذين يكتبون التاريخ الغربى خاصة والتاريخ الإنسانى عامة . موقفهم من الحضارة العربية . فيعطوا هذه الحضارة حقها عند البحث فى مصادر الحضارة الغربية الحديثة . ان مؤرخاً عظيماً من مؤرخى الفلسفة « كبرتراند راسل » مثلاً لم يخصص للفلسفة العربية والدين الإسلامى والنبي محمد . أكثر من ست عشرة صفحة متفرقة من صفحات كتابه الكبير « تاريخ الفلسفة الغربية » (الطبعة الثالثة . لندن ١٩٤٨) البالغ عددها ٨١٦ صفحة .

وهذا باحث أمريكى مشهور يؤلف حديثاً « بحثاً فى تفهم العالم » ولا يخصص للعرب والمسلمين غير اثنتى عشرة صفحة من مجموع ٤٩٦ صفحة (ف. س. ك. نوثورب) « التقاء الشرق والغرب » نيو يورك عام ١٩٤٧ : قد يكون هذا مقياساً غير دقيق لتقدير الأهمية النسبية لأفكار الناس

وأعمالهم . ولكن هذا المقياس على ما ينقصه من الدقة . يعكس لنا إهمال الباحثين الغربيين المعاصرين ما قدمه المسلمون . وهم سبع الجنس البشري في حقل الحضارة والدين .

على انى لم أشر الى المؤلفات العديدة التى كتبتها أجيال متعاقبة من المبشرين وليس الدافع الى اغفال هذه المؤلفات تقصيرا فى التنبه لها . أو رغبة فى نكران ما قدمته للدراسات العربية الاسلامية . ولكن معظم هذه المؤلفات لم تكن مجردة عن الغرض . خالصة النية العلمية . ان هذه الطائفة من المؤلفات كما يقول هـ . أ . ر . جب « بايجاز بليغ فى كتابه « المحمدية » (لندن ١٩٥٠) : تصدر عن أولئك الذين يتحكم فى تفكيرهم عدم الرضى عن الاسلام . قد تكون هذه جديرة بالاحترام عندما تنشأ عن اعتقاد دنى مخلص . تلك حال معظم مؤلفات المبشرين . وانه لمن الظلم ان يغفل عن التقدم العظيم الذى حققه المبشرون فى السنوات الأخيرة . بحرق قلوب الاسلام تفهما داخليا منبعا بالعطف . بدلا من دراسة دراسة سطحية . معرضة فجة . ومع ذلك فى قول الامكان السابقة . انهم لم يوافقهم من الاسلام وعندا ما يجب التنبه له عند تغيير كتاباتهم .

على أن هناك من الدلائل ما يشير الى ان الباحثين الغربيين قد يتلافون هذا النقص . فقد أشار « ريل غيراليس » فى كتابه « فلسفة الحضارة » الفلسفة ، الحضارة واحدة ظاهرة الى الاسلام . اما فى كتابه « تاريخ الحضارة » حديثا عن تاريخ الحضارة . فقد الحضارة الغربية . فى كتابه « تاريخ الحضارة » كاملة . استغرقت ١٩٣٠ صفحة من صفحات الكتاب .

ان عناية الباحثين الغربيين بما قدمه العرب والمسلمون من الافسانية عناية حقيقية وانصرانهم الى دراستها براديا . كما انهم تظهر فى هذه المؤلفات الأخيرة الرعاية التى يبذلونها فى هذا المجال . ظاهرة أيضا فى ازدياد عدد الجامعات والمعاهد العلمية التى تدرس الدراسات الاسلامية .

وفى هذه الاعانات الضخمة التى تهبها المؤسسات العلمية الغربية الى الشؤون الاسلامية وهى متجلية فى هذا المجهود الضخم الذى يبذله هذا

المؤتمر . ويجب ان تؤدي هذه المجهودات في حقل البحث المجرى أولا الى معالجة الحضارة العربية والاسلامية معالجة أكثر عدالة وانصافا . والى الحكم على ما قدمته للحضارة الانسانية حكما عادلا نزيها . وأخيرا الى اعادة ثقة المسلمين عامة . لا سيما الشباب منهم . بأن دينهم وحضارتهم لم يتعرضا . ولن يكونا عرضة لأحكام قائمة على التحيز المفضل ، والحقد الأعمى .

على ان أفضل وسيلة نمتى بها اهتمام الشباب العرب بتاريخهم وأقواها تأثيرا هي ان نجعلهم يهتمون بشاكل بلادهم الحاضرة . ويتفهمونها التفهم الصحيح (١) .

وقد حظى صاحب البحث بالاشتراف في مؤتمر المستشرقين في « استانبول » سنة ١٩٥١ م . واجتمع بشهورى المستشرقين . وفضلاء الشرقيين فوجد الشواهد الواضحة على عظم العمل العلمى الذى تقوم به الدائرة . فان أعضاء من نحو أربعين دائرة من الدوائر العلمية والجامعات والمراكز التحقيقية فى انجلترا وفرنسا واسبانيا . وايطاليا وتركيا ومصر والحجاز والشام ولبنان وغيرها قد استقبلوا مطبوعات دائرة المعارف العشائية بالحفاوة والعناية . ووعده جماعة من كبارهم باعاتها .

وفى نهاية ديسمبر من عام ١٩٥٧ المنعقدت « بلاهور » ندوة اسلامية حضرها عدد كبير من المستشرقين وممثلون من نحو أربعين دولة ، كما حضرها فريق من علماء الجمهورية العربية المتحدة بدعوة خاصة شخصية من جامعة البنجاب ، وتكليف من الحكومة المصرية ، من بينهم الأستاذ الفاضل «محمد أبو زهرة» الذى قال : لقد وقف بعض الذين يقدرهم « محجوب (١) ابن ميلاد » يقول : ان الاسلام ليس فيه رجال دين ، وان القرآن ليس كتاب أحكام . وان الاجماع ليس الا اجماع أعضاء مجلس النواب . فهل هذا هو الحق الذى جاء محمد به ؟ وقد اضطررنا واخواننا ان نبين ما نعرف انه الاسلام فى هذا الأمر . فقلنا مع أصدقائنا . بالنسبة لرجال الدين :

(١) الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة .

(٢) كاتب من تونس كتب مقالاً فى مجلة دعوة الحق التى تصدرها وزارة الاوقاف المغربية ينقد فيه علماء مصر وسورية الذين دافعوا عن الاسلام فى الندوة .

ان كنتم تريدون انه ليس في الاسلام رجال دين بمعنى أنه ليس في الاسلام من يتوسط بين العبد والرب . ويتشفع للناس . ويعطى صكوك الغفران لمن أحب . ويعتبر تفسيره للاسلام تنزيلا لا يقبل تأويلا . فذلك حق لا ريب فيه . لأن القرآن الكريم قال فيمن فعلوا ذلك : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » .

وان كنتم تريدون بقولكم هذا أنه ليس في الاسلام من تخصصوا في استخراج الأحكام من القرآن والسنة وبناء أحكام الوقائع عليها . فذلك باطل لا ريب فيه . لأن القرآن الكريم يقول : « فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين . ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم » . ولأن القرآن لم يفرض في كل مؤمن ان يعلم طريق الاستنباط . وفهم الأحكام فقل سبحانه : « ولو رده الى الرسول والى أولى الأمر منهم لعله الذين يستنبطونه منهم » . ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين .

والصحابا والتابعون كان فيهم الفقهاء المفتون الشارحون كآبي بكر وعمر . وعثمان . وعبد الله بن مسعود . وعبد الله بن عباس . وابن عمر . وفيهم السائلون المستفتون . ولقد قسم الشافعي علم الاسلام الى قسمين : القسم الأول :

علم العامة : وهو الذي لا يسع مسلما ان يجبهه كآصول الفرائض وأركان الاسلام والذي لا يعد المسلم مسلما الا اذا قام بها .
والقسم الثاني :

علم الخاصة : وهو الذي يكون باستخراج الأحكام العبادية المنصوصة من أدلتها . وان أولئك المتخصصين في دراسة الأحكام واستنباطها من غيرهم كالشافعي وأحمد ومالك وأبي حنيفة وزيد بن زين العابدين . ومحمد بن جعفر الصادق . لا يفرضون ما يقولونه صوابا لا يحصل الخطأ فيهم . ولا يفتنون في أقوالهم الخطأ . ولا يسحون لأحد ان يأخذ كلامهم في الدين . فاما كان قولهم في الدين الا بينة . وما كانوا يفتنون في أقوالهم في أصول بينوها . ونصوص محكمة وضعت لها . ومن التبع بقولهم من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين .

مثل علمهم أخذ به . ومن لم يقتنع وعنده دليل أقوى خالفهم من غير افتراق
أو نزاع . بل هي دراسة للحق من كل وجوهه . وما كانوا يرون على أنفسهم
من غضاضة في ان يختلفوا ما داموا يلتزمون الحق من ينايحه الصافية .

وقلنا مع أصدقائنا بالنسبة لكون القرآن كتاب آداب ومواعظ وليس
كتاب أحكام في نظر القائل : ان القرآن قد اشتمل على أمثل ما تقرره الأخلاق
الفاضلة . حتى لقد وصفت عائشة رضى الله عنها أخلاق النبي صلى الله عليه
وسلم فقالت : كان خلقه القرآن . ولكن مع ذلك اشتمل القرآن على الأحكام
الاسلامية كلها بالاجمال والكليات أحيانا . وبالتفصيل أحيانا أخرى . فأصول
المعاملات المالية ثابتة فيه بمثل قوله : « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا
ان تكون تجارة عن تراض منكم » وقد صرح بتحريم الربا تحريما قاطعا لا
مجال للريب فيه . وأمر بكتابة الديون . وفصل القول تفصيلا في نظام الأسرة .
فنظم الزواج . وبين المحرمات بالتفصيل . وهدم النظم الجاهلية التي كانت
تجعل المرأة متاعا أو كالمتاع . ونظم التورث نظاما لم يأت بمثله أو بقريب
منه أى قانون وضعى الى الآن . وذلك باعتراف كل علماء القانون فى العالم .
ومهما يحاول العقل البشرى أن يبحث أمثل منه وأعدل فلن يجد . وبين
العلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم . ووضح القول فى تفصيل أحكام
الحروب والمعاهدات .

ولذلك أعلننا فى قول لاعوج فيه أن قصر القرآن على الآداب والمواعظ
باطل . يكذبه القرآن . ولعل الذى أغضب الذين يتبعون أقوال المستشرقين
من غير علم ولا سلطان مبين . هو ان دعوى ان القرآن كتاب مواعظ فقط
ذريعة لانكار الأحكام القرآنية أو اعتبارها ارشادات غير ملزمة ليتحللوا من
الأحكام الاسلامية . فكان ردنا عليهم قاطعا لهذه الزريعة .

أما بالنسبة لادعاء أن اجماع مجلس نيابى هو الاجماع : فان ذلك ليس
هو الاجماع الذى قرره فقهاء المسلمين . واستنبطوا حكمه من الكتاب
والسنة . وقد كان الواجب يفرض علينا ان نشرح معنى الاجماع ، وان
نتناول فنلقى بيانا على عبدة المستشرقين . وقلنا . ان الاجماع هو اتفاق
مجتهدى المسلمين فى عصر من العصور على حكم من الأحكام بسند شرعى

من كتاب أو سنة . أو قياس صحيح سليم على قول بعض الفقهاء — فالاجماع لا يكون الا من خاصة المؤمنين وهم المجتهدون . ولا بد ان يقوم على أصل ديني . واجماع مجلس النواب لا يستوفى هذين الشرطين . لأنه أولاً : ليس اجماع كل المجتهدين .. بل هو اجماع اقليمي . وثانياً لا يعتمد على نص من كتاب أو سنة . أو قياس على الكتاب والسنة . وثالثاً ليس اجماع المسلمين . لأن المجالس النيابية فيها دائماً المسلم وغير المسلم : فكيف تدخل غير المسلم في اجماع علماء المسلمين ؟ .

ولقد كانت أخطاء المستشرقين في نظرنا كثيرة ، وكان علينا ان نخص بالذكر ندرس القرآن والسنة والفقہ الاسلامی أن تصحیح بعض هذه الأخطاء . فقد وقف المستشرق الأمريكي الدكتور « ستورنتان تروان » في سنة ١٩٠٤ يقول : ان النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : « انتم امة واحدة » وهذا الكلام لم يقله رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يوماً واحداً . وان كان هذا في الكتب الأفرنجية حديثاً منسباً الى النبي — صلى الله عليه وسلم — فهو حديثهم ، وليس بحديث من اهل الاسلام . وفي سنة ١٩٠٥ الكلمة جرت على لسان الحاكم العادل « عمر بن عبد العزيز » وفي سنة ١٩٠٦ اذ قال في اختلاف الصحابة : ما يسرني باختلافهم حسر الله . ولو كان واحداً لكان الناس في ضيق .. فاعتبر اختلاف الصحابة انه يسر على امة الاتباع ، فيختارون من بينها أسهلها ، فسرت هذه الكلمة الى العامة . عن اختلاف أئمة الفقه الاسلامی : اختلافهم وحملة .

ولقد وقف مستشرق أمريكي آخر يقول : ان النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : تتغير الأحكام بتغير الأزمان . وهذا أيضاً حديث منسب الى النبي — صلى الله عليه وسلم — أي كتاب اسلامي يصدر باللغة العربية على أنه حديث منسب الى النبي — صلى الله عليه وسلم — الكلمة ان الامام مالكاً روى الله عنه قال : يجد الناس من أمة محمد ما يحدثون من أحداث .

ولقد وقف باكستاني ينكر النبوات ، ويؤمن بنسب النبي — صلى الله عليه وسلم — « محمد » — صلى الله عليه وسلم . إذ عني ان « محمد » صلى الله عليه وسلم — كان يعلم بتخصص النبيين الذين اشتمل القرآن الكريم على أخبارهم .

قبل البعث المحمدي . وأنكر اختصاص أنبياء الله تعالى بالوحي . وأنكر أن تكون الأحكام القرآنية بوحي من الله تعالى . بل هي من عند النبي — صلى الله عليه وسلم — . واسترسل في هذا الكلام وأشباهه استرسالاً ضج منه أكثر الذين استمعوا إليه وقرءوه . فهل لنا أن نسكت على هذا القول ؟ لقد وقفنا وبيننا أن ذلك كلام باطل ، وأنه ليس من الإسلام في شيء . ولقد حاد على النبيين — الذين ذكرهم القرآن — ببعض الغمزات .. وذكر أن القرآن اعترف باليهودية القائمة وغيرها ، وأنه لا فارق بينهما .

قلنا : ان النبي — صلى الله عليه وسلم — كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب . وما كان في مكة علم ولا معاهد للاهوت تدرس فيها أخبار النبيين ، ولا ينافي كمال النبي — صلى الله عليه وسلم — أنه كان يجهل هذا ويجهل الكتابة والقراءة . فليس كماله في هذا ، إنما كماله في أن جنبه ربه الهوى وعبادة الأصنام ونزعه عن ارتكاب المعاصي . حتى ساغ له أن يقول أدبني ربي فأحسن تأديبي .. وكماله في أن اختاره ربه للرسالة الإلهية في هذه الأرض .. وقد قال سبحانه « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

ولقد قلنا : ان من يدعى أن محمداً كان يعلم قصص الأنبياء قبل القرآن يكذب القرآن . فقد قال تعالى : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن » . وقوله : « ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » . فجعل القصص منسوبة إلى الله عز وجل ، ومقرونا بوحيه على النبي — صلى الله عليه وسلم — فلا يكون قبله .. فأخبار النبيين بصريح القرآن ما كانت معلومة للنبي ولا لقومه . ومن قال انه يعلمها فقد كذب القرآن . وكذب بما يجب تصديقه ويجب الإيمان به . ولقد قال سبحانه بعد قصة السيدة البتول مريم عليها السلام : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كتب لديهم إذ يلتقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون » .

أما الذي ينكر النبوات ، ويدعى أن الوحي كما ينزل على من يدعى الرسالة . ينزل على غيره ، بل ينزل على الحيوان ، ويستشهد على ذلك بقوله تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر وما يعرشون » .

فنقول : ان انكار الوحي يؤدي الى انكار النبوات لا محالة ، لأنها قاسمة على خطاب الله تعالى ، فقد قال تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا » •

وان المتكلم لو كان يعرف العربية ما قال ذلك القول • فان كلمة الوحي تطلق في العربية على الالهام المجرد ، وعلى حديث النفس ، وعلى الالهام بمقتضى الغريزة الفطرية ، كالهام أثنى الحيوان بارضاع أولادها ، ويطلق على كلام الله تعالى لرسله وهو اطلاق عرفى دينى •

ولقد وقف باكستاني — له مجلة تهاجم السنة وتنكر الصلوات الخمس • وتعتبر الصلاة ركعتين اثنتين فى اليوم — وقف ذلك الباكستاني بينت المسلمين فى الندوة بكلام ليس من الاسلام فى شىء • وقد ادعى أن الاجتهاد لا يستلزم العلم بالعربية ، ولا العلم بالسنة ولا معرفة آيات الأحكام فى القرآن (وكنا قد قلنا ذلك فى البحث الذى ألقيناه بتكليف من الندوة • وكان موضوعه « الاجتهاد الفقهي وأدواره) •• فوقف ذلك المدعى ينكر ذلك • ويقول : ان الاجتهاد اذن متعذر !! وبيننا أن كلامنا يجعل من المتعذر منه حقا أن يجتهد فى تفسير أحكام الاسلام • واستخراجها من القرآن • وأن تعذر ذلك عليه يكون من الخير وصيانة هذا الدين من أن يقال فيه منسوب اليه ما ليس منه • وقلنا لهم : نبئونا • خبرونا : يسوع فى عقل أن يفسر قانونى القانون الفرنسى من غير أن يعرف اللغة الفرنسية ؟ ويسوع ففهم أن يفسر الأفضية الانجليزية من غير أن يعرف الانجليزية ؟ وإذا كان غير سائغ فى قوانين البشر التى يسكن ترجمتها بيسر وسهولة • فيسوع فى قانون القرآن • وهو كتاب بليغ لا يسكن ترجمته • وتتعذر كل التعذر ترجمته كما هو ؟

وقلنا : ان كل قانون يصطب مذكرة تفسيرية توضح مقاديرها • وانه لا يسوع لقاض أن يقضى بها يخالفها • فهبوا السنة بمذاهبها • وهى أعظم من ذلك وأوسع مدى وأشمل • فيسوع اهتدى بها جانيا • وتفرض أنها غير موجودة ! لقد كانت السنة تفصيلا لأجمال القرآن • وهى لغومه فهى التى بينت الصلاة وأركانها • والزكاة ومقاديرها • الحج ومسأله

وهي التي طبقت أحكاما عملية اشتمل عليها القرآن ، فهي التي اشتملت على تطبيق نظم الحروب ، ونظم المعاهدات ، أفيصح اهمال كل ما اشتملت عليه ؟ وهبنا اقتصرنا على القرآن أفلا يصح أن نتعرف أسباب نزول الآيات وملايساتها ، وغير ذلك مما اشتملت عليه السنة ؟ ان كل قانون يقترن بأعمال تحضيرية تحدد مراميها وأغراضه ومقاصده . أفلا نعد أسباب النزول قريبة من هذا علي الأقل ؟ وان القرآن تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه . ولا من خلفه ، وما نذكره من التشبيهات انما هو لتقريب المعاني من قلوب أولئك الذين لم تعمر قلوبهم بالحقائق الاسلامية ، بل هي خاوية شرهة الا من أضواء فاسدة ، وأوهام كاذبة ، كالشأن في كل من يدافع عنهم ربه . قال ذلك الباكستاني وأعظم الفرية على الله يوم القيامة . فأنكر عذاب يوم القيامة ، واعتبر الحياة فيها مضوية ، وتمسك في نفي العذاب بقوله تعالى : « ورحمتي وسعت كل شيء » وبظاهر قوله تعالى : « ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما » . فاذا قرأ الداعي الآيتين كاملتين : الثانية الأولى نصها الكريم هو : « واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة انا هدانا اليك » قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتوا الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » . فلهذه الآية فيها الرحمة ، وفيها العذاب ، وقد بين سبحانه أن الرحمة الربانية مع سعتها قد كتبت للذين يتقون ويؤتوا الزكاة . فلا يستحقها من لا يؤتى الزكاة . الخ . والآية الثانية نصها الكريم : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا ، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم » . فالدعاء من حملة العرش للذين آمنوا ، وطلب الغفران للذين تابوا واتبعوا سبيل الله . فليس منهم الكافرون أمثال المتقولين ومن أيديهم من المتكلمين . فاذا كان ذلك الحق يجعلهم في تضليل ، فما لهم علينا من سؤال . ولما أخذنا معهم الا بقول الله تعالى لنبيه : « فذرهم وما يفترون » فنقول لهم حقيقة متسررة في علم القانون والأخلاق وبداءة العقول : ان الرحمة بمنافها الدقيق لا يدخل في عمومها العفو عن المجرمين الآثمين ، اذ أن الرحمة والمدالة معنيان متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر ، فرحمة المجموع

تقتضى الاقتصاص من الجناة والأخذ على يد المفسدين ، فعقاب المفسدين ، من قانون الرحمة ، وترك المفسد على فساد من الفساد ، ولا فساد مع الرحمة ، لأن الرحمة منع للأذى ، ومع الفساد الأذى المستمر ، فلا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ولا يستوى الأعمى والبصير ، ولا تستوى الظلمات والنور . . ولكن أولئك وأشياهم يدعون إلى المساواة باسم الرحمة فلوهم ما يدعون : « فانها لا تعنى الأبصار ولكن تعنى القلوب التي ليس فيها نور » .

ولقد قال ذلك الباكستاني : ان المسلم ليس له من ماله إلا ما يكفيه فقط ، وأخذ هذا من ظاهر قوله تعالى : « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو » ففهم من هذا النص ان كل الزائد عن الحاجة الأصلية الضرورية يسكره للدولة . . ولكن تقف أمامه آيات الموارث ، وآيات الصدقات ، فان هذه الآيات تقتضى أن يكون للرجل في حوزته مال يورث عنه ، ويتصدق منه ، ولقوله تعالى : « والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » . فهذا يقتضى أن يتسول الشخص ما لا يتصدق منه بحق مقدر لا بكل الأثقال . . وكذلك آيات الموارث تقتضى أن يكون ثمة مال يدخره ويقسمه بين ورثته لقوله تعالى : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا » . في الآية تسوغ أن يدخر الانسان مالا كثيرا أو مالا قليلا على حسب قوله تعالى : « وتقتضى أن يكون حلالا له بعد أن يؤدي حقه الذي يجب عليه فيه ، ويورث عنه ، وازاء هذا التعارض مع دعواه أن الدولة تملك كل شيء ، من الممتلكات الشخص الا ما يكفيه على قدر الضرورى . دفعه لأن يقول : ان الدولة تملك الموارث والصدقات كانت أحكاما وقتية ، قد انتهت ، وأما الآية التي تدعى ماذا ينفقون ، قل العفو » فحكما هو الخالد الباقى . . ان الزيادة في تفسير الآية : « ويسألونك ماذا ينفقون » . قلنا . ان ذلك الآية تدعى ماذا ينفقون ، قل العفو » . « واتقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » . تساءلوا عن مواضع الاثنان . فقال سبحانه : « يسألونك عن المغانم قل ما أنتقم من خير فللموالدين والأقربين واليتامى والمساكين ما أنفقتم وما أنفقتم من خير فان الله به عليم » . « منهم من كان يفرح بكل مثقال من ميسر الجهاد ، وفي سبيل الصدقات ، لا يبقى لنفسه شيئا ، فدان النبي - صلى الله

عليه وسلم — ينهاهم عن ذلك ، ويروى فى ذلك أن رجلا أتى النبى — صلى الله عليه وسلم — ببيضة من ذهب أصابها فى بعض المغازى ، فقال : خذها منى صدقة ، فأعرض عنه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأتاه من الجانب الأيمن ، فقال مثله ، فأعرض عنه . ثم أتاه من الجانب الأيسر ، فأعرض عنه ، فقال : هاتها مغضبا ، فأخذها منه ، فحذفه بها حذفاً لو أصابه لشجه أو عقره ، ثم قال : يجىء أحدكم بماله كله يتصدق به ويجلس يتكفف الناس ، إنما الصدقة عن ظهر غنى » ..

وانقد سأل لهذا بعض الصحابة عن القدر الذى ينفقونه ، وقد نهاهم عليه السلام من أن ينفقوا كل مالهم أو أكثره فقال الله تعالى : « قل العفو » أى السهل اليسير الذى لا يشق عليكم اعطائه ، فليست كلمة العفو هنا معناها الزيادة ، كما فى قوله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » . وعلى فرض أن المراد بكلمة العفو الزيادة ، فالمراد الزيادة عن حاجتك وما تدخر . فان ما يدخر للشدة وما يدخر للأولاد من الحاجة ، ولقد قال عليه السلام : انك ان تدع أولادك أغنياء خير من أن تدعهم فقراء يتكففون الناس •

وان مارأينا من انحراف فكرى فى فهم الحقائق الاسلامية الذى دعاه لأن نتف مع اخواننا لنجاهد فى بيانها ، لانخشى فى الله لومة لائم ، حملنا على أن نقول مخاطبين المستشرقين والمنحرفين ممن تسموا بأسماء اسلامية : أيا هؤلاء الأوربيون الذين يعنون بالدراسات الاسلامية ، انا نرحب بدراساتكم لأنها ترينا فى الاسلام أنظارا أخرى جديدة ، ولكننا نرجوكم ونلحف فى الرجاء أن تنظروا عند دراسته بالنظر غير المتحيز ضده ، وأما أتم أيا هؤلاء المسلمون ، أو الذين ولدوا على الاسلام فانا لانقبل منكم الا ما جاء به القرآن وما جاءت به السنة ، لأن الذى يخالف القرآن له حكم فى الاسلام ، وان كان ذلك الحكم غير مطبق فى أكثر البلاد الاسلامية ، ولو طبق لكان فيه غناء عن كل جدال ، كونوا انجليز فى تفكيركم ، أو كونوا أمريكيان فى آرائكم . أو كونوا فرنسيين فى نزعاتكم ، بل كونوا روسا ، ولكم ماتشاءون فى دائرة أنفسكم ، أما أن تقولوا : ان هذا هو الاسلام ، فذلك هو الضلال

المبين الذي لانرضاه أبدا ، وأنكم بهذا تخرجون عن أن تكونوا مسلمين ،
وتسون في عرف الاسلام مرتدين (١)

وقال فضيلته : وفي الندوة التي انعقدت في « لاهور » في يناير سنة
١٩٥٨ ، رأينا فيها من يشوه الحقائق الاسلامية ، ومن ينكر السنة النبوية ،
 ويفرض لنفسه التفسير والاجتهاد من غير علم بهما ، بل من غير علم بالعربية
« لغة القرآن » ولغة الاسلام ، ووجدنا من الأوربيين ، بل من اليهود من
يعطى نفسه حق تفسير القرآن والسنة والحكم على فقهاء المسلمين بالخطأ
أو الصواب ، ووجدنا الغز في الاسلام تليحا وتصريحا .

وقد تصدينا واخواننا من الاقليم الشمالي ، وغيرهم من الاقاليم
الاسلامية لهؤلاء ، فرددنا السهام الى صدور مسديها . وانتهى أمر الندوة
الى نصره الاسلام .

ويظهر أن أعداء الاسلام ممن يتسون بأسماء اسلامية ، أو يولدون
من آباء مسلمين ، ومعهم اخوانهم من الأوربيين الذين لا يتون المسلمين إلا
خبالا ، وجدوا أن سهمهم قد طاش وغايتهم قد كشفت ومنعت ، ولكنهم لم
يأسوا ، لأن اليأس لا يعرض لذي غاية يدفع اليها دفعا ، ويكسب من وراءه
كسبا هو فيه موزور ، وليس بسأجور ، فانه اذا اعتراه اليأس في طريق
التمس له الحيلة في غيره ، فطرائق الشيطان متنوعة وذرائعه متفرقة ، والنس
الشيطان كالشيطان ، يأتيك في الظلام دون النور دائما ، فان وجد الإنسان
انكاشفة قد سلطت عليه اختفى والتبس الظلام انى يكون .

ولذلك اتجه المؤتسرون بالاسلام والذين ولدوا في البلاد الاسلامية
حاملين اسم الاسلام ، الى الاختفاء بدل الظهور ، فعقدوا ندوة في كراتشي
في الأسبوع الأخير من يناير سنة ١٩٥٩ ابتدأت في ٢٧ منه ، وانتهت في
الثاني من فبراير . . . ولم تدع الى هذه الندوة الدول الاسلامية الا
مندوبين من ذوي الكفاية والعلم بالاسلام وذوى الغيرة من المسلمين ، من
دعوا أحادا من الدول الاسلامية . . . ولعل الدعوة وجهت لدهى العقول
التي توافق أهواء الذين يدفعون الى هذه الدعوات من وراء حجاب ، وقد

(١) نوا، الاسلام العدد ١١ السنة ١٢ من ١٩٥٨-١٩٥٩

حضر في هذه الندوة من الجمهورية العربية المتحدة الدكتور « قسطنطين زريق » أي أنه كان يتكلم عن مصر بأزهرها وسوريا بعلمائها . كما حضر العلماء الأوروبيون الذين وقف لهم اخواننا من ذوى الغيرة الاسلامية بالمرصاد وصححوا لهم ما قالوا ، وبينوا حقائق الاسلام ، وردوا كل قول هادم بالحجج الدامغة .

وكانت الندوة في باكستان تحت رعاية وزير التربية بها ، كان منها مناضلون عن الاسلام منعوا من أن تصدر قرارات فيها هدم لمبادئه ، وان كانت تلك المناول التي ينظمها الأوروبيون لتشويه الاسلام لاتصال منه الا بتكثير ما يناله الرأس الواهي من الجبل الأشم .

وما كان يسوغ لغير المتخصصين في الدراسات الاسلامية أن يخوض في أمرها ، وتقول مع الأسف ان أكثر الذين خاضوا لم يكونوا على علم بالبرية علما يسبح لهم بأن يرجعوا الى المصادر الرئيسية للاسلام ، وهي الكتاب والسنة وتفسيرات الصحابة التي تلقوها من مبلغ رسالة الاسلام وهو « محمد » - صلى الله عليه وسلم - وتلك المسائل لخصتها « المنظمة الدولية لحرية الثقافة » في ثلاث نواح :

أولها - تطور الاسلام ، والامكانيات التي يشتمل عليها وتجعله قابلا للتكيف ، وتدرجه الاجتماعي ، والتاريخي ، وحرية الفكر والحرية الشخصية في الاسلام .

الثانية - في المجتمع الاسلامي ، والرأسمالية والاشتراكية فيه ، والفائدة والحياة المالية ، والايمان ودوره في المجتمع الحديث .
والثالثة - كانت خاصة بموضوعات في السياسة الاسلامية ، تبحث فيها مسائل الديمقراطية والتطور السياسي في الاسلام ، والاسلام والتومية ، وتذكر في هذا الدكتور نقولا زيادة ، والاسلام والعلمانية .
وقبل أن نخوض في مناقشة ما قيل في هذه الندوة نذكر ثلاثة أمور :

١ - ان من دعا اليها هي المنظمة العالمية لحرية الثقافة ، ويظهر انها جعلت موضوع دراستها الاسلام ، وكنا نود أن تفضل فترك الاسلام

لأهله ، ويتولى أعضاؤها الفضلاء دراسة هذه الموضوعات في اليهودية
والمسيحية ، وهم بها أعلم ، وعليها أقدر .

٣ - ان نشرة هذه المنظمة ذكرت أن المناقشات التي دارت حول
الموضوعات السابقة كانت جدية وجرت بروح من التسامح العلمي المنتظر
في هذه الحلقة الدراسية .

٣ - ان هذه المنظمة جعلت مكان انعقادها في طائفاتها التالية ما يلي
وذلك في مايو سنة ١٩٦٠ .

ولتمحيص ما قالوا نقول :

١ - لقد اصطدمت الندوة بأول مسألة ذات أهمية إلى أن يقال
وهي « مقومات الإسلام » التي لا تقبل تفسيراً أو تبديلاً ولا تغييراً
له مقومات مشخصة له تعد ركبه الذي لا يتغير له وهو « الإسلام »
والذي يجري التطوير على حد تعبير أهل العصر في الأمور التي تتغير
لا في أصله . والأل كان التغيير تبديلاً وهدماً . ولم يكن تطويراً أو إضافة

ولقد اتفق ابتداء على أن الوحدةانية وأصول التراتبي كالتصنيف
والتصميم هي الأمور الأساسية في الإسلام (ولكن وثق التمسك بالأساسيات
العدل ومبادئ الأخلاق) وإلى هنا كان الاجماع منعقداً من قاع المصطفى
وان لم يكن اجناعاً شرعياً ، ولكن الإسلام دائماً تبرع بغيره بالأساسيات
وسط المدججة الحالكة ، ولذلك انبرى من بين الأمور الأساسية في الإسلام
فقال قول الحق الذي لا ريب فيه : « ان كل ما ورد في التراتبي الشريف
الشريفة هو من المبادئ الأساسية التي يجب أن لا ينظر عليها كوسائل
تأه شاملة كاملة ، ولا يجوز التخلف عن أي جزء من أي كتاب أو حديث

هذه حقيقة الإسلام ، فهل سلم بها المجتمع
الأديان ، فما اشتملت عليه كتب العهد القديم واليهودية والقرآن
وما اشتملت عليه الأناجيل ورسائل الرسل بعد يسوع عليه السلام يجب
به عند المسيحيين ولا يصح تركه .

وأن القياس الصحيح يوجب أن يكون كل ما اشتمل عليه الكتاب من أحكام ونظم وقوانين ، وكل ما اشتملت عليه السنة الصحيحة وهي أقوى في ثبوتها اسنادا من كثير من الكتب الدينية في غير الاسلام ، مبادئ أساسية . ولكن العلماء الأوربيين وأشباههم من القديانية وغيرهم لا يريدونه ولا يرتضونه ، لأنه ركن ركين من مقومات الاسلام .

ومن أجل ذلك قام الجدل حول هذه البديهية الدينية الثابتة في كل دين من الأديان . لأنك لو جئت الى البرهمي وسألته : ما مقومات دينك ، وما هي المبادئ الأساسية له ؟ لقال : انها ما اشتمل عليه (الفيدا) . ولو سألت البوذي : ما هي مقومات دينك ؟ لقال : تعاليم بوذا . ولو سألت الكونفوشيوس ما هي المبادئ الأساسية عندك ، وان لم تكن دينا ؟ لقال : كتب كونفوشيوس . . . ولكن هذا الأمر البدهي الذي لا يمتري فيه أهل دين من الأديان سماويا كان أم غير مساوي ، يجعله الأوربيون ومن لف لفهم موضع جدل في الاسلام .

ولعلمهم حصروا دائرة الدعوة الى الندوة حتى لا يكون فيها أولئك الذين كانوا يصدعون بالحق ، فيدرسون الأمر دراسة مقارنة ، ويبحثون على ضوء ما عند الأوربيين واليهود من مبادئ مقررة في تعرف أحكام دينهم . ان كل دين له مصادر تعد ينابيع العلم به وعنها يصدر كل متدين . فاليهود أخذوا بالتوراة وأقوال مفسريهم وكل ما اشتمل عليه التلمود ، والنصارى أخذوا بالانجيل ورسائل الرسل ، وما لانص فيه عندهم يرجعون فيه الى كتب العهد القديم أي التوراة ، وما أضيف اليها ما جاء به النبيون من بعد موسى الى عيسى عليه السلام ، وقد أضاف الكنسيون منهم الى ذلك كله تقاليد الكنيسة وتفسيرات الأخبار والرهبان .

فاذا جاء المسلم وتسلق بكتاب الله وسنة نبيه ، واعتبر أحكامهما هي المقومات الأولى للاسلام أيعد قد خالف منهاج الدراسة الصحيحة لدينه ؟ وان ما يخالف المبادئ المقررة في القرآن والسنة الصحيحة ليس فيها الا بريق يوهم الناظر ان فيه صلاحا أو مصلحة ، وما هو الا الضار ، كأولئك الذين يستبيحون الخمر لأن فيها دفئا لأهل البلاد الباردة ، وليس فيها الا

المضرة ، وقد روى أن بعض الناس سأل النبي — صلى الله عليه وسلم — عن قوم يشربون الخمر ليدفعوا بها شدة البرد ، فقال النبي الطاهر : امنعوهم ، فقال : انهم لا يمتنعون فقال : قاتلوهم . ولقد رأينا ووجدنا بعض من يكتبون من غير ادراك للمبادئ الاسلامية الصحيحة يستحلون الربا الذي تبيحه القوانين باسم المصلحة ، ويحرفون القرآن عن مواضعه في ذلك ويزعمون أن ذلك هو المصلحة ، الا أن مصلحة الاسلام أن تبقى مبادئه حاکمة على الزمان وليست محكومة بالزمان .

ان ما يتسناه أعداء الاسلام ، أن يترك المسلمون تعاليم الكتاب والسنة وأنهم يتناولون الى توهين الاعتقاد بأن الاسلام أحكام وقوانين ونظم . بل هو التوحيد والعبادة ، ويدخلون بهذا الى العقول الاسلامية المنحرفة . ويقودون انحرافها . وبذلك يحرف الاسلام كما حرف غيره . وما كانت تلك الدعوات التي تجرى بتوهين السنة وروايتها حينا ، واثارة الشك حول معاني القرآن أحيانا ، الا لتحقيق هذا الغرض الذي يريده أعداء الاسلام . وان في ذلك لذكرى للمؤمنين (١)

وفي مؤتمر عالمي من مؤتمرات المستشرقين قام الدكتور « صبحي محمصاني » المحامي اللبناني الكبير وقال : كانت دراسة الاسلام وثقافته وشرائعه ونظمه على ضوء العصر الحديث من الأهمية بسكان . وتند عنى بهذه الدراسة منذ القديم بعض الغربيين المستشرقين . وكثير من العلماء المسلمين ، أما المستشرقون ، فلا شك في أن نفرا منهم لم يكونوا دائس معصومين عن الخطأ ولا مجردين عن التحيز وربما كان سبب ذلك قلة السياسة والمحيط على تفكيرهم . أو عدم اطلاعهم الكافي على اللغة العربية والمصادر الأصلية . ولكن على الرغم من ذلك ، فإن القسم الأكبر من المستشرقين عملوا على نشر المخطوطات العربية والاسلامية . واهل الشرق الأبحاث الاسلامية المفيدة فكان سعيهم على العبود مشكورا . والى سبيل في سبيل التفاهم العلمي المتبادل . أما العلماء المسلمون ، فدائموا التفتين .

(١) من مقال لفضيلة الشيخ محمد أبو عبد الله محمد بن الإمام محمد باقر الخليلي ص ٩٠

الأولى طائفة محافظة تمسكت بالتقاليد والعادات ، وفسرت مبادئ الإسلام وفق اجتهاد الفقهاء الأولين والمتأخرين من غير تحوير ولا تفكير ، وقالت برجوت تطبيق ذلك على أمور المسلمين الدينية والدنيوية جميعا .
والطائفة الثانية : تشمل العلماء المجددين الذين قالوا بوجود بحث آحوال المسلمين وأسباب تأخرهم ، ثم درس تحرير الفكر الإسلامى من قيود الجهل والتقليد الأعمى والجمود الباطل ، والسير به فى طريق الحياة والتجدد والمدنية .

ولقد سار المجددون المصلحون من كل أمة فى سبيل الاصلاح عن طريق التمسك القديم وتغيير الماضى واستبدال الجديد به ، ولكن المصلحين المسلمين ، لم يتوجهوا بهذا النهج ، فالاصلاح فى نظرهم هو الرجوع الى الماضى والى سلف السلف الصالح ، وهم على حق فى ذلك ، فالماضى الأول فى الاسلام يشتمل مبادئه الأساسية وجوهره الحقيقى وتعاليمه الخالدة ، أما الجديد الذى أتى بمدد ، فقد شمل أيضا ما تركه التقليد والجهل من شكليات وخرافات وفرعيات واجتهادات مخالفة لروح الشريعة ولأساساتها الأصلية ، فالاصلاح فى نظر العلماء المجددين اذن هو التنقيب عن الجوهر الأول القديم ، وطرح ما تراكم عليه خلال عصور الجهل من تلك البدع الكثيرة والتقاليد الكثيفة التى كانت السبب فى حجب المسلمين عن الاسلام الصحيح ، وهى سد باب الاجتهاد فى الشريعة الاسلامية ، واهمال التعلم والتمسك بنصوص غير ثابتة والتمسك بالشكليات والفرعيات والتحزب المذهبى ، واهمال بحث علل التشريع ، والمزج بين الدين والدنيا ، وان من أسباب التقهقر الأخرى التى آثرت فى المسلمين كما أثرت فى غيرهم من الشعوب العربية والشرقية ، الاستعمار والنفوذ الأجنبى والحروب والفتن والانحطاط الخلقى والفقر وما أشبه ، بل أكتفى بالأسباب التى ذكرتها ، باعتبارها خاصة بدراسة الفكر الإسلامى ، وبتأثيره فى حياة المسلمين ، والخلاصة أن أهم أسباب تأخر المسلمين وانحطاطهم تعود الى اهمالهم واجبات الاسلام الحقيقية . وتفهم علل التشريع ، واعطاء الدين حقه والدنيا حقه . ومن ثم هدم ماسموه جوهر الاسلام لجهل التقليد والنصوص المزورة والشكليات والفرعيات والتحريات المذهبية .

أما اتباع سبيل المقلدين الجاهلين ، فيقود الى الظلمة والجهل والفتناء
وأما اتباع سبيل السلف الصالح ، فهو الخروج الى النور والعلم والحياة
ولا شك في أن هذا القول قد لا يروق لبعض الجهلة المحافظين الذين
يزعمون العلم بالاسلام وشرائعه ، ولكن هؤلاء لن يتفوهوا عشرة في سبيل
نهضة المسلمين ورفقيهم وفلاحهم فمرضاة الله تعالى أولى من رضائهم ومصالحهم
الاسلام والمسلمين أسقى من مصلحتهم . فالمسلمون اليوم أمام خيار المادية
البحارف ، فعليهم السير في قطار الحياة العصرية والامتداد في ذلك العلم
الصحيح والتفكير الثاقب والايان القويم ، وهذا كله يزودهم بالثروة اللغوية
لعدم أكواع التقليد الأعرج ، والتنظيم التيود التي ومسمو من التورية
في وجه انطلاق الفكر والعمل المشر الصالح ، وفي وجه النهضة البروقية
وفي وجه الاتحاد والاخوة الانسانية .

وها هو الأستاذ الشيعي « نظمي لوقا » يصدر كتابا من ريب
الاسلام - صلى الله عليه وسلم - وهو ليس مستثمرا استهزئا بل
الأديان ، ولكنه يحب الحق للحق وينصره على الباطل ، فكيف لا يفتخر
كتب السيرة والتاريخ الاسلامي ، ثم انتهى الى مجموعة من الآراء
النبي العربي أراد أن يخرج بها على الناس ، فكاتب نظمي النبي
رسول الاسلام والمسلمين لا بد أن يثير الدهشة والاستغراب عند كثير
ناس ويجعلهم يسألون ماذا ؟

وقد أحس المؤلف نفسه بهذا السؤال منذ صدور الأولى من
« محمد الرسالة والرسول » وحتى نهاية آخر منها ، الأستاذ الشيعي
يقف أمامه دائما ، يقوله المسلمون ويقوله المسيحيون ، يقولون
يقولونه في حذر والآخرون يقولونه في قلق وحيرة ، وهو من المسلم
يحاول أن يبرر موقفه هذا تبريرا منطقيا حينا ، وتبريرا عاطفيا حينا
ولكنه في كل حين يردد سيحته المدوية أنه لا يستطيع التبرير
يستطيع الا أن يعبر عن شيء جاش في صدره ، ذلك ان
يقول الأستاذ نظمي في مقدمته : والسبب في ان يراى في الآراء
قربت بيني وبين هذا الرسول ، وليس في نيتي أن أنكر هذا الحب أو أن

له ، بل انى لأشرف به واحمد له بوادزه وعقباه ، ولعل هذا الحب هو الذى يسر لى شيئاً من التفهم ، وزين لى من شخص هذا الرسول الكريم تلك الصفات المشرقة ، وجعلنى أعرض بوجدانى عن تلك النظرة الجائرة أو المتجنية التى نظر بها كثيرون من المستشرقين وغيرهم الى الرسول العربى ، وقد يتساءل الناس ما الذى اجتذب نظى لوقا فى الرسول فجعله يحبه هذا الحب ويقدره هذا التقدير ويدفعه آخر الأمر الى كتابة هذا الكتاب ؟

يجيب المؤلف عن هذا السؤال فى أربعة فصول جاءت فى آخر كتابه ، رسم فيها شخصية « محمد » كما رآها هو ، ورسم فيها هذه الميزات الخلقية التى أهلت محمداً لى يكون فى مكانه الذى هو فيه من حيث العظمة والخلود •

ويبدأ الأستاذ نظى بالصفة التى مثلت عنده جماع فضائل البشرى الذى يستحق البقاء ، تلك هى شجاعة الايمان ، وان الرسالة لم تكن تستهدف غنا شخصياً له أو لذويه ، فقد ترك محمد فى سبيلها رزقه الوفور ليستبدل به الشظف والضيق ، والأمن فى عز آله ليستبدل به القلق والمطاردة ، والعزة والمنعة ليلقى بدلها التحقير والاهانة ، أما أهله فما كانوا ليرثوه لأنه نبي ولا وراثة فى النبوة ، بل ان هذه الدعوة التى جاءهم بها كانت كقيلة أن تزيل ما لهم من سطوة قبلية ومكانة مرموقة ، وصح اذن أنه ما كان ينطق عن الهوى : « ما ضل صاحبكم وماغوى » •• وعندما يصل هو الى اثبات هذه الحقيقة ، حقيقة ايمان الرسول بدعوته ، ايماناً منزهاً عن الغرض بعيداً عن المآرب ، يبدأ فى مناقشة موقف الرسول من هذا الايمان ، كيف حمّله وكيف أوصله الى كل القلوب من حوله ؟

ان نظى لوقا ، يقف أمام صور الشجاعة والصبر التى تتجلى فى حياة « محمد » موقف المعجب ، فالشجاعة عنده ليست تحمل الأذى المادى وحسب بل انها المكاره من كل نوع والعمل المعنوى فيها أقسى من المادى ، ولعل حرج النفس فيها أعتى من الضرب والايذاء البدنى بالغاً ما بلغ من العنف •

والصفة الثانية التى تجذب انتباه الدكتور نظى ، هى الصدق : وآية الصدق كما يقول :

ان محمدا لم يزعم لنفسه شيئا وقد كان قادرا أن يزعم لنفسه ما يريد ،
لم يزعم لنفسه قدرة أو صفة أو حقا يستعلى بها على أحد ، أو يرتب لنفسه
بها سلطانا أو تقديما .

ولو كان القرآن من صنعه ما حرص على أن يكون فيه كآحاد الناس
لا يزيد ، ليس عليه الا البلاغ ، عليه البلاغ ، ولكن أى شىء له ؟ لاشىء ، ثم
لاشىء ، ثم لاشىء : « ليس لك من الأمر شىء » . فقد كان قادرا أن يسهل
أمر دعواه ان كان كاذبا فيها ، بأن يقدم شيئا مما يبهر أو يطبع أو يرغب ،
ولكنه لم يقدم شيئا سوى صدقه وكلمته .

تقدم أبو القاسم الى الناس ولا حجة له سوى هذا ، فما هو بصاحب
معجزات ، ولا هو يبنى الناس بخزائن لا يملك مفاتيحها الا الله ، ولا يعدهم
بدفع السوء عنهم ، وهو غير قادر على دفع السوء عن نفسه ، ومن لم ينفعه
عقله فى الاهتداء الى سواء السبيل وتسيير الحق من الضلال فهو أعمى ، وما
يستوى الأعمى والبصير . وليس بنافعه اذن خوارق المعجزات .

ويقف المؤلف المسيحى عند أكثر من قصة تثبت صدق « محمد » فى
دعواه ، حيرته حين جاءه الوحي أول مرة . وسؤاله الخائف الحائر لورقة بن
نوفل حين قال له : ليتنى أكون حيا اذ يخرجك قومك . اذن لأنصرتك نصرا
مؤزرا . اذ يسأل فى تعجب وحيرة أو مخرجى هم ؟ . ويستخلص نظى من
هذا السؤال الساذج صدق محمد فى مبدأ أمره ومنتهاه اذ يقول : أجل هذه
الكلمة وحدها عنوان براءة محمد من تهمة الادعاء والتدبير المبيت لما يزعمه
وحيا وتكليفنا لو نظر فيها من له قلب سليم من الأهواء .

ويقف عند قصة ابطاء الوحي على محمد اذ سألته قومه عن الروح .
فوعدهم أن يجيب غدا . وقلاه الوحي حينما فاضطرب وغدا فى كرب مضطرب .
ثم ينزل عليه الوحي بقوله تعالى : « وما تنزل الا بأمر ربك له ما بين يديك
وما خلفنا وما بين ذلك . وما كان ربك نسيا » « ولا تقولن لمن دعى الى
ذلك غدا الا أن يشاء الله . واذكر ربك اذا نسيت وقل عسى أن يهدي ربى
لأقرب من هذا رشدا » « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما
أوتيتم من العلم الا قليلا » .

ويقول الأستاذ : تعليقا على هذا الموقف : تأنيب واضح ، يرد الأمر الى من بيده الأمر وماهو بقول دعى ، وماهو بمسلك المستقل بشأنه وانما هو المأمور الصادع بالأمر الصادق فى أمانة البلاغ المبين . ويناقد الدكتور نفسية الداعى فيقرن بها دائما الشعور بالنقص فلا يجده بل يجد بدلا منه انسا سريا لا يهيمه ان أخطأ أن يعود الى الحق ، بل لا يضيره أن يعلن تابعيه والمؤمنين به ، بأنه قد يخطئ : « انما أنا بشر وانه يأتينى الخصم ، فلعل بعضكم أبلغ من بعض فأتسبب أنه صادق فأقضى له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فأنا منى قلعة من النار فليأخذها أو يتركها » .

والعجبة المائلة التي يرتاح لها المؤلف راحة فى الواحة فى صحراء خالية من الماء من جراد النبي نفسه ، فالرسول لا يعرف لنفسه قدرا أعلى من قدر غيره بل هو مثاهم يأكل ما يأكلون بل وأقل مما يأكلون ويعيش كما يعيشون بل يمشى كما يمشون ويقوم بنفسه لخدمة ضيوفه ، ويعود المرضى من أهل بيته لخدمته شأنه ويزاكنى خدمته ويشاربهم ويحمل عنهم بعض أعباء عملهم ، فهو يعامل مع نفسه قبل أن يعامل مع الناس ويقتص من نفسه قبل أن يقتص من الناس .

ويقف المؤلف وقفة طويلة عندما حضرت النبي الوفاة ويخرج على الناس ليقول لهم : « أيها الناس ألا من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري فليستقد منه ، ومن أخذت له مالا فهذا مالى فليأخذ منه ، ولا يخشى الشحاء من قبلى فانها ليست من شأنى الا وان أحبكم الى من أخذ منى حقا ان كان له ، أو حطنتى فلتقت ربي وأنا طيب النفس » . يقف نظى أمام هذا الموقف هاتفا من حسيب قلبه : ما أعظمه وما أروعاه ، ما من مرة تلوت تلك الكلمات أو تذكرتها الا سررت فى جسمى قشعريرة كأنى أنظر من وهدة فى الأرض الى قمة شاذلة تنال الرقاب دون ذراها .. أبعد كل ما قدمت يا أبا القاسم فوماك من البداية والبر والرحمة والفضل ، اذ أخرجتهم من الظلمات الى النور ترالذ بحاجبة الى هذه المقاصة كى تلقى ربك طيب النفس وقد غفر لك من قبل ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ ولكن العدل عندك مبدأ وليس غاية ، العدل عندك خلق وليس وسيلة .

ويقف نظمي لوقا ، وقفة طويلة جدا ، عند زهد محمد السيد الذي أوتى الفتح المبين وعنت له رءوس المعاندين ، ولكنه كان مشغولا بأن يسرد نفسه وبأن يسود الناس ، ويتتبع محمدا في بيته وزوجته لاتجد ماتوقدبه السراج بل وزوجاته يظهرن الضيق بحياة الضنك فيهجرهن الرسول ، ويخبرهن بين أن يعشن معه كما يعيش أو يسرحهن بمعروف .. ويدور معه في السوق اذ يدور بحثا عن سراويل يشتريها ويتتبع محمدا اذ ينمو سلطانه ليراه يزداد زهدا وتواضعا كلما ازداد سلطانا وقوة . ويختم كلامه هذا عن الرسول قائلا : أى قالة بعد هذا تنهض على قدميها لتطاول هذا المجد الشائق أو تدفع هذا الصدق الصادق ؟ لاخيرة فى الأمر ، ما نطق بهذا الرسول عن الهوى ، لاخيرة فى الأمر وماصدق بشر ان لم يكن هذا الرسول الصادق الأمين ، فسلام عليه بما هدى من سبيل وماقوم من نهج ومابين من مصيبة وسلام على الصادقين .

هذا أول ماجذب الدكتور نظمي من شخصية الرسول : شجاعة الايمان والصدق ومجاهدته لنفسه ضد رغباتها ومظامعها .

وهو يبرر لنفسه هذا الحب ، حين يقول فى مقدمته : ولكن حين أتدبر العقل أرى الخير كل الخير فيما جنحت اليه ، فهو مقتنع اذن بهذا الذى دعى اليه الحب من علاج بهذه السيرة العطرة وهو يقدم اقتناعه لنا قبل ان يحدثك عن الرسول صاحب الرسالة ، فيبدأ بمناقشة قضية الوحي وعمل رسول على محمد صدقا وحقا ويخرج من مناقشته المنطقية بأن يسأل : هل هناك ما يبرر هذه الرسالة السماوية الجديدة رسالة الاسلام ، ويعود يستعرض الأديان فيرى أن الانسان كان منذ وعى دائم البحث عن فطرة الوجود . فحسب أول الأمر أن حقيقة الوجود الكبرى ينبغي أن تكون فى هينته محسوسة فراح يشخصها فى أول مايعرف من الأشياء الواقعة تحت حسه . وكلما ترقى لديه صورة القوة تغيرت الصورة التى يشخص فيها حقيقة الوجود وقوته ، ومن هنا بدأ ذلك التاريخ الطويل الحافل الذى بدأ بهج العقل الانسانى من التعدد والتجسيم الى القول بالروح ثم القول بالوحدانية التى تجنح الى القضاء والقدر والى وحدة الوجود أو الى الفناء الاسمى .

ثم الى القول بأن الله هو الذات الكاملة بالاطلاق وانه مصدر الوجود لكل ما هو موجود ، وجاءت الأديان السماوية لتقدم للبشر عقيدة كاملة سامية ، وكان أول الأديان الكتابية هو دين بنى اسرائيل أولها في التاريخ وأولها في أطوار العلاقة بين الخالق والمخلوق وقد كان دين بنى اسرائيل دين شعب اختص به دون غيره من الشعوب ولذا فقد كان همهم من الدين أن يكون تشريفا يحل لهم أموال سواهم من الأمم ، وكانت نفوس السيادة عندهم هي ضرب من السندات والديون والمطالبات فهي عبادة في مقابل مؤازرة على عدو أو زيادة في ادرار الرزق ، ولكن هذا الدين يقصر الأمر بين أتباعه على حاجة الدنيا بينما العقيدة حاجة روحية أصلا ولهذا فقد كان الطور الطبيعي للإنسانية أن تطلب الهداية في رسالة المسيحية التي تدعو الى التوحيد والتتزيه فحسب ، بل تجعل الله المعشوق الأسمى الذي يتجه اليه وجدان كل انسان .

ويحدد نظمي لوقا المسيحية بأنها دين القلب الانساني ولكنها بهذا تصبح عقيدة الأفراد الأفضاذ ، أما السواد من الناس فللحس على قلوبهم أبدا سلطان غير مجحود ولا مردود فكان لا بد اذن من دين جديد يؤكد التفريد لله ويتجه الى الناس كافة فيه ما يقنع الممتاز من الناس وفيه لصاحب الدنيا حظ يربط له بين السفر في سبيل الدنيا وبين آفاق الروح المتسامية ، وبمعنى آخر لا بد أن يكون الدين الجديد عقيدة تصلح للكافة العامة منهم والخاصة ليشعر كل منهم أن له عقيدة يطئن إليها وأن تكون هذه العقيدة بالدنيا والآخرة . بالله والاحسان فالناس أمة واحدة في هذا الدين الجديد ، هذا الدين المرموق هو دين البشر .

بهذا التسلسل المنطقي يستدل الى أنه كان ثمة مبرر لهذه الرسالة الجديدة : الاسلام . كان انما نبى بل كان لا بد من وجودها لتكسل للناس علاقتهم بحقيقة الوجود ولتنظيم هذه العقيدة تنظيما سويا كاملا ، وهو بعد هذه النتيجة يرضى فاحصا موقف الاسلام من الله وكيف نزهه سبحانه عن كل شيء ، ومن الانسان وكيف ثبت له كرامته وأحله أعز منزل وأكرمه ، ومن النبوة الخالصة

من كل شبهة أو تأليه ، ومن المرأة وكيف رفع قدرها وأعطاهما مكانا بقدر عملها وعلمها وجهادها .

ويقف نظمي طويلا عند علاقة الانسان في ظل الانسال بربه وكيف حدد الاسلام هذه العلاقة بحيث أعطى للانسان كل مسؤوليته عن خيره وشره ، وجعله بحكم هذه المسؤولية خاضعا للعقاب والثواب غير مسئول عن عمل من سبقوه « ولا تزر وازرة وزر اخرى » فلا يتحمل وزر الأجداد ، بل مزج للانسان عمل الدنيا بثواب الآخرة ، وجعل الدنيا متاعا ودار اختبار .

وها هو الأستاذ « عباس العقاد » قد أحس أن الناس في زماننا قد اجترءوا على العظمة المحمدية ، وضاعت بينهم قيمة العظمة ، وهو قد قرأ تجنيات المستشرقين الذين راحوا - مغرضين هدامين - يحاويلون النيل من شخصية الرسول لينالوا من رسالته وأمته ، وهو بهذا قد أخرج كتابه « عبقرية محمد » يقيم فيه البرهان على أن محمدا عظيم ، في كل ميّاز عظيم .

ولم يكن العقاد يستهدف بكتابه المؤمنين بعظمة محمد ، لأنهم يتبارون بها العظمة دون حاجة الى برهان أو دليل ، ويحسونها في قلوبهم التي غرهم الايمان بلا معونة من اثبات وتوكيد ، انما يقصد العقاد من نفي قلوبهم برضى ممن شاءوا ألا يعترفوا بشيء ومن أرادوا أن لا يؤمنوا بشيء ، كما كان يريد بكتابه هؤلاء الذين طغت عليهم المادة ، وطغى التفكير العلي الحديث من نفوسهم وعتولهم فلم يعودوا يتقبلون الا كل ما قام عليه دليل مادي أو برهان علمي ، لا يأتيه الباطل من شبهة غيبية أو معجزات ، فيجاء « العقاد » اليهم بكلمة العقل فيصلا وحكما لا وراء فيه ، بل هو يذهب الى أكثر من هذا فيقرر أن البشارات التي حكاها المؤرخون كخدمات للرسالة لم يتركها أثر في الرسالة نفسها فهي لم تقدم ولم تؤخر كثيرا . وبعد ذلك يقرر أن عظمة الرسول - صلى الله عليه وسلم - من جميع البشارات التي حكاها المؤرخون بقوله : هذه هي جوانب العظمة في رسول الإنسانية . رسول السلام والرحمة . تصب كلها في معين واحد ليكون مثلا أعلى للانسان يحتذى لما فيه من سمات

وصفات ، ويقبل العقل والمنطق نبوته وسيادته ودعوته لما عمرت به جوانب شخصيته لا لمعجزات خارجة عن هذه الشخصية ، ولا لصفات شاذة خارقة ، إنما هي النفس السوية تدعو الناس الى سواء ، وهي القدوة الحسنة تدعو الناس الى الاقتداء ، وهي روح الحب المتكاملة تدعو الناس الى الحب ، هذا هو محمد صاحب الدعوة المحمدية .. هذا هو النبي العظيم ، والبطل العظيم ، والانسان العظيم ، هذا هو أيها المستشرقون الناقمون المدلسون .

وما أروع مقاله السيد حسين الشافعي ، نائب رئيس الجمهورية ، في المؤتمر الثالث للوعاظ والأئمة : لقد حاولت أن أسأل نفسي يوماً ، ماذا يحدث ، وماذا يمثل الرسول لو قدر له أن يبعث اليوم ؟ ماذا يعمل ؟ لأن هذا هو أسلوب التفكير في الإصلاح فالذي يريد أن يصلح يجب أن يترجم هذا الإصلاح الى صورة بسيطة من هذا النوع .

تصورت هل سيقدم مؤتمرا يتكلم فيه ؟ هل سيقوم برحلة تفتيش كبرى في البلاد الإسلامية ليتبين ماهو قائم فيها ؟ .. تصورات !!

ولكنني أقول : انه لن يعمل شيئاً من هذا على الاطلاق ، انه سيبدأ كما بدأ أول مرة يبعث عن الذين يصدقونه العمل ، والنية ، سيبحث عن هذا الصالحين الذين يفتخرون بجانبه في وقت الشدة ، ووقت المحنة ، ويكون عوناً له في كل عمل من الأعمال ، وفي كل أمر من الأمور .

سيندفع اليه الشباب بقوة وإيمانه ، فيكون مدافعاً ليدود عن حمى الإسلام ، وليعمل جاهداً في الدعوة وسينضم اليه من له مال فيكون له عوناً في كل عمل من الأعمال التي بدأ بها الإسلام ، واننا اذا أردنا مرة أخرى أن نميد للإسلام والاربابه فيجب أن نتجرد من كل شيء ، ونفكر هذا التفكير البسيط ، وأن يعمل كل منا في مجاله كخلية حية نابضة بالحياة ، تعمل كأنها تنوعم هذه الخطى جميعاً ، وتعمل في مجالها ، كأنها قبس من هذا النبع الكريم قبس الرسول ، صلى الله عليه وسلم .

وختلاصة القول :

أنه قد تعمق كثير من الباحثين الغربيين في دراسة الاسلام في محيطه الفكري والاجتماعي ، وانتهى بهم تعمقهم الى أن الروح الاجتماعية بارز في كل شعيرة من شعائر الاسلام ، بروزا لو فهمه المسلمون المحدثون واستغلوه استغلالا صالحا ، لتوصلوا به الى أوج الرفعة وقمة السمو في جميع نواحي الحياة بلا استثناء ولأصبحوا سادة العالم ، وقادة الفكر البشري ، ولكن لما غفل عن هذه الأمور الظاهرة أربابها وأغمضوا أنظارهم دونها ، فقد أسرى أعداؤهم الى استغلالها ضدهم ، واستثمارها للمدوان عليهم والاستيلاء بمقدساتهم والسخرية من حرمانهم واجتذاب الضعفاء من أبنائهم .

والعالم الحديث يتابه الشقاق رغم هذه المدنية البراقة ، فإن الخلاف الواقع الآن بين الكتلتين الشرقية والغربية ، يوشك أن ينفذ شره على صورة بشعة لم يعرف لها التاريخ مثيلا قبل الآن .

فأحد الفريقين المتعارضين أعلن أن العدالة هي المساواة الاجتماعية وأنه بناء على ذلك يجب أن ترض على الجميع سبيل المساواة في الثروة على جميع الناس بالنسوى ، أو أن مبدأ العدالة يجب أن يراعى وأن الدولة هي التي يجب أن تستولى على جميع الثروة وتوزع على الأفراد والأسر ما يحتاجون إليه حسب احتياجاتهم في الإنتاج لا في الإنتاج .

في حين صرح الفريق الآخر بأن العدالة لا يمكن تحقيقها إلا بحرقا وتصرف كل منهم في مصيره حسب القوانين التي يقرها المجتمع الصاخبة المندفعة في تيار الكفاح خضوعا لحريرة تنبع من أعماقهم ولقد تعصب كل من الفريقين لمبادئه التي حددتها في الحرب الباردة أو لحرب الأعصاب ، ثم للحرب العالمية الثانية الأمر بذلك ، وكثيرا ما يقتضيه لسوء هذه الانسنة في تقاليدنا أن تقاليدنا في أيدي أولئك الجشعين ، وهؤلاء المارقين ، ولقد نجح من هذا أن أمست البشرية حائرة تترنح بين المعسكرين كأنها مغمورة غاب عن

صوابه فلا يدري كيف يذهب ولا أين يجيء ، ولشدة افراطه في الادمان نسي أن يفكر في الخلاص .

ومن الغريب أن هاتين الكتلتين تحاول كل منهما أن تجتذب أكثر قدر يمكن من العالم الى صفها ، وتبذل جهودا جبارة في اغراء العالم الاسلامي واقناعه بأن مبادئها يوافق مبادئ الاسلام .

ولما كان الاستعمار لسوء الحظ ، ونكد الطالع ، قد شجع الجهل ، وأرسى قواعده في البلاد الاسلامية التي منيت باحتلاله ، فقد وجد بين أهل تلك البلاد ، لا سيما الذين لا يعرفون العربية منهم ، مرتعا خصيبا لأضاليه والأعبيه .

ولكن الاستعمار لن يظفر بهذه البيعة المزيفة بعد الآن، فقد استيقظت الصفوة الاسلامية من نومها الذي طال مداه ، واعتزمت أن تتخلص من مركب النقص الذي يشعروهم بالانخفاض عن الغرب ويدفعهم الى التذيل له .

ولما كانت القومية العربية هي الحصن المنيع للدول الاسلامية ، وهي قلعة التحرر والاستقلال في الوطن العربي ، وهي حامية الدعوة الاسلامية، لأن لغتها لغة كتابها الكريم الذي أنزله رب العالمين على أمة المسلمين .. وتاريخها تاريخهم . فان المؤامرات الاستعمارية والصهيونية مهما بلغت من عنف وقوة ليست بقادرة على تحطيم صيحة التاريخ التي تفرض على الشعب أن يتوحد وتعلو كلمته وتتوحد شعوبه كلها من الخليج الى المحيط .. وتنطلق موحدة مهما حدث من تأمر الانفصاليين والرجعيين على هذه الوحدة مثل ما حدث في الاقليم الشمالي .. ومثل ما أعلنه رئيسنا جمال رائد القومية العربية وناصر الدعوة الاسلامية ، واضحا صريحا ، بقوله : لا مهادنة مع الرجعية بعد اليوم ولا تعاون مع الذين خانوا قضية القومية العربية وأباحوا لأنفسهم أن يعملوا ضدها .

وكل يوم تظهر الوحدة الاسلامية العربية في كثير من المواقف مهما حدث بين أقطارها من خلافات شخصية ولكنها أمام العدو المغتصب المستعمر تتكاتف القوى وتتوحد الكلمة .. كما حدث يوم العدوان الثلاثي الغاشم

المسلح على بور سعيد عام ١٩٥٦ ، فان الشعوب العربية تكتلت جميعها
ومن ورائها المسلمون في جميع أنحاء العالم .. وسحق هذا العدوان ليس في
بور سعيد فقط ، ولكن في دمشق وبيروت ، وكل عاصمة عربية ، بل في
كل بلد تريد التحرر من نير الاستعمار وتفتتح الى نور الحرية والاستقلال
آماله .

لقد كان الشعب العربي هو الدرع الذي تحطمت أمامه تلك المؤامرة
وهو الدرع الذي احتمت به القومية العربية من أعدائها والمتربصين بها من
أجانب وخونة .. كما أن من يمن الطالع أن اختار الله سبحانه وتعالى باعث
القومية العربية « جمال عبد الناصر » وألهه ليقف في عيد النصر ويدعو
ملوك ورؤساء الدول العربية ليجتمعوا ويتوحدوا ، ولبي النداء الجميع ،
واجتمع ملوك ورؤساء الدول العربية في مؤتمري القمة الأول والثاني في
شهرى يناير وأغسطس من العام الماضى (١٩٦٤) ، والخروج منها بقرارات
حاسمة لحل قضية فلسطين وقضايا جميع البلاد العربية الأخرى . والوقوف
بجانب جميع الشعوب التي تريد التحرر .

واندفعت القومية العربية كالمدار الجبار . يدا واحدة ، لمائة مليون
عربى ، بل لأربعمائة مليون مسلم يجتمعهم دين واحد وعلى ملة « محمد »
صلى الله عليه وسلم ، لتواجه كل عدو ، بل ستكون الكتلة الإسلامية هي
الموازنة المكتلتين المتنافستين ، فترجح كفة السلام والأمن والطائفة لعالم
ويعرف كل من لا يعرف أن النصر للإسلام دين السلام ، والحرية ، وال إخاء
وإن يشاء التاريخ لقوى الشر مهما بلغت أن تنتصر أبدا على قوى الحق
والحرية .

روى أبو داود في سننه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال
ان الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها .
ويقول الحافظ الامام ابن كثير « ولا يختص بهذا الجدد العلماء
والعلماء فحسب بل يشاركهم فيه ولادة الامور العالمون بالدين والعدل
وسعادة وطنهم أمثال عمر بن عبد العزيز الأموي ، والمأمون العباسي
وغيرهم » .

ويقول العلامة الشيخ محمد عبده في التعقيب على هذا الحديث الشريف : وانما كان المجددون يعيشون بحسب الحاجة الى التجديد ونوعه . ويستعرض المجددين لدين هذه الأمة من الفقهاء وعلماء الكلام ، ثم يقول : وهناك مجددون آمنون للجهاد الحربي بالدفاع عن الاسلام أو تجديد ملكه واقامة أركان العمران فيه ، كالسلطان صلاح الدين الأيوبي الذي كسر جيوش الصليبيين وأجلاهم عن البلاد الاسلامية المقدسة .

وانها لكلمات حق تشع بالنور والهدى . فالمجدد الاسلامي الذي عناه الحديث الشريف ليس بالفقيه الفارق في صحفه ، ولا بالواعظ السادر في جدته ، ولا بالمتكلم الهادر بلحنه ، ولا بالداعية المحترف الذي يسأ الدنيا دون أجوف وزمجرة رغاء . انما المجدد الاسلامي في أروع صوره وأخلد ثرواته هو الذي يبعثه الله ويرضاه لقيادة الاسلام ، وتجديد دعوته وقوته بحياته .. هو الذي يأتي شعبه على قدر وميقات فيحيل الضعف قوة والفرقة وحدة واليأس أملاً . والكلام عملاً .

ان المجددين الاسلاميين يعيشون دائماً بحسب الحاجة الى التجديد ونوعه . يعيشون وقد زودوا بطاقات وكفايات تؤهلهم لمقارعة أحداث الزمان والمكان والدور التاريخي الذي أعدوا للقيام به .

وقد جاء مجدد الاسلام في القرن العشرين « جمال عبد الناصر » رائد القومية العربية ومنقذها ، وحرر أكبر قاعدة اسلامية من قواعد الاستعمار العالمي ونقطة الارتكاز وحلقة الحياة الكبرى بين المشرق والمغرب .. كنانة الله في أرضه .. أرض الرسل والأنبياء ، وهو في طريقه الى الوقوف بجانب كل بلد عربي اسلامي يريد التحرر من الاستعباد ويحطم أحلاف الصليبيين الاستعماريين ، ويبدد أحلام الصهيونية العالمية الباغية .

جاء ناصر بتأييد من الله وقوته ، ليقف ويرد على أكبر الدول جيروتا وعتوا ، ويكيل لها الصاع صاعين ، لا يخشى في الحق لومة لائم ، وما أحق ما قاله فضيلة الامام الأكبر الشيخ حسن مأمون شيخ الأزهر الحالي يدعو المواطنين الى الاجماع على انتخابه في فترة رئاسة الجمهورية الثانية التي ابتدأت من ٢٦ مارس ١٩٦٥ ولمدة ست سنوات :

ان اختيار رئيس الجمهورية واجب وطنى ينص عليه الدستور، وواجب دينى للاتفاق على أن الامامة واجبة على المسلمين، ولا خلاف بينهم فى أصل الوجوب، وأكثر العلماء على أن الامامة تجب على المسلمين شرعا أى أن الدين يحتم عليهم أن يبايعوا أصلحهم للقيام برعاية مصالحهم وتدير شؤونهم، ونشر العدل بينهم.

وقد انعقد عزمى، وصح رأيى على مبايعة الرئيس جمال عبد الناصر واختياره رئيسا للجمهورية لما خبرته عنه من صدق وطنيته وحبه لدينه وسيره على منهاجه واتباعه سنته وطريقته، ولأن المبادئ القوية التى دعا إليها ودافع عنها وما زال يدعو إليها ويدافع عنها من حرية الفرد وإنسانيته وكرامته، والوحدة والاشتراكية الاسلامية التى تحقق الكفاية والعدل هى المبادئ التى دعا إليها الدين الاسلامى الحنيف، فهو دين العزة والوحدة والعدالة والمساواة.

وما أروع قول السيد المهندس « أحمد عبده الشرباصى » نائب رئيس الوزراء للاوقاف والأزهر: « ان عبد الناصر يمثل خلاصه تاريخ الأمة العربية وقد وضعه القدر فى هذا المكان ليحصل أمانة قيادتها.

فقد حصل الأمانة بصدق وإخلاص ووفاء، وشجاعة وإقدام، حتى أن شعبه الوفى، شعب الجمهورية العربية المتحدة قد اختاره ليكون قائده، وتجاوبت جميع الشعوب العربية معنا وفرحت لفرحنا فبادلتها حبه وفان كفته الصادقة يشكر فيها الشعب العربى بعد إعادة انتخابه.

ولقد كانت نتيجة الاستفتاء تأكيدا جديدا لذلك كله، فامتنا العربية وأمام الأصدقاء والاعداء على حد سواء.

أمامنا وأمام امتنا العربية: كانت نتيجة الاستفتاء بهذا المعنى بالاستمرار فى الأداء المسئول والخلاق لدور الطليعة والمساعدة، لأمة عربية واحدة تعيش وتجاهد بالحق وبالخير لمكانها الطبيعى والشعوب المحيطة بالشمس.

وأمام الأصدقاء : لأن نتيجة الاستفتاء كانت رسالة أخوة وتضامن
لأننا حيث كنا دائما وحيث سنكون أبدا أنصار للحرية ودعاة للسلام
وحسلة لرسالة التقدم .

وأمام الأعداء : لأن دلالة نتيجة الاستفتاء لا تخفى على أحد .. دلالتها
الأولى والأخيرة أمامهم ، ان هذا الشعب لا يتردد ولا يخاف وانه على
استعداد لقبول التحدى في أى ميدان يفرض عليه فيه القتال ، دفاعا عن
وطنيته وقوميته ، دفاعا عن مجتمعه الذى يقيمه على دعائم الكفاية والعدل
.. دفاعا عن قيمه الروحية والحضارية .

نحن وراءك يا جمال .. فقد قلناها واخترناك لترفع راية الاسلام
والعروبة عالية خفاقة ، لترفف على أنحاء العالم كله .. فقد جئت بتأييد
المولى عز وجل ليكون عهدك زاهرا للاسلام جديدا ، لتشر لواءه ، وترفع
شأنه .

انا عرب مؤمنون سائرون على الجادة رغم آراء المستشرقين المنحرفين
نعم انا مسلمون ، لأن لنا تاريخا ومدنية ، ولكننا بعيدون عن التعصب ،
والشر والاثم ، الذى تورطتم فيه أيها المشركون ، ولا تزالون تتورطون
ما دام الله قد طمس على قلوبكم وهدانا الى الصراط المستقيم ، والى دينه
الحنيف ، دين الخلود الذى سيبقى الى أن يرث الله الأرض ومن عليها
مصداقا لقوله تعالى :

« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله »

وقوله « ومن يتبع غير الاسلام دينا فلن يقبل منه » .

وختاما : لقد انبثق مع نهضتنا الأخيرة فجر الاسلام والسعادة للعالم في
فترة وعد بها عالم العلماء محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه كما وعد
بها رب العالمين .

يقول الرسول الكريم : لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض
فيخرج الرجل بزكاة ماله ، فلا يجد أحدا يقبلها منه وحتى تعود أرض العرب
مروجا وأنهارا .

وقال : بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء ..
 قالوا : ومن الغرباء يا رسول الله ؟ قال : الذين يصلحون ما أفسد الناس ..
 يقول الامام المراغى فى تفسيره : سيعود غريبا فى سرعة انتشاره فى
 العالمين ، كما انتشر أولا فى صورة رائعة سريعة ، يؤيد ذلك قوله تعالى فى
 الآية « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله الا أن يتم نوره ،
 ولو كره الكافرون » .
 والنور هو القرآن وهو « محمد » : « قد جاءكم من الله نور وكتاب
 مبين » .

فهذا النور المنبثق مع ثورتنا البيضاء المباركة ، يؤذن بضحي مشرق
 فياض بالخير والنعمة ، ليس للعرب والعروبة فحسب ، بل للعالمين أجمعين فى
 هدى الاسلام وكتاب الاسلام : « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ ،
 وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » .

وحينئذ يحاو للعالم أجمع : ويحق له أن يردد قواه تعالى : « اليوم
 أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » .
 (صدق الله العظيم)

تم بحمد الله



فهرس الكتاب

صفحة

الموضوع

٣	اهداء
٥	مقدمة
١٦	الفصل الأول « الفكر الغربي والاسلام »
٤٣	الفصل الثاني « دين السلام »
٥٩	ظهور المسيحية
٩٥	الفصل الثالث « الاستعمار والقرآن »
١٦٧	الفصل الرابع « الاسلام والمشرقون »
٢٢١	الفصل الخامس « الحجر الأسود »
٢٤٥	الاسراء والمعراج
٢٧٠	الفصل السادس « الرسول والمستشرقون »
٣٠٣	الفصل السابع « خصوم نبي الاسلام »
٣١٧	تعدد الزوجات
٣٣٠	زوجات النبي صلى الله عليه وسلم
٣٥٨	الفصل الثامن « الرق والجبرية »
٣٨٦	الجبرية والاسلام
٤١٨	الفصل التاسع « المستشرقون والتصوف الاسلامي »
٥٠٦	الفصل العاشر « الباحثون والدعوة »
٥٧٣	الفصل الحادي عشر « علماء الاسلام والفكر الغربي »